

الأستاذ
في عصر العلم

تأليف
محمد فرید وجدی

المطبعة
دار الكتاب العربي
بمكة المكرمة

محمد فرید وجدی

الأستاذ
في عصر العلم

دار الكتاب العربي

الأشهاد

في عصر الغلبة

تأليف

محمد فرید وجدی



الناشر
دار الكتاب العربي
بمبئی بنگال

الطبعة الثالثة
جميع الحقوق محفوظة
بيروت

الشيعة
وعصاة العترة

بسمِ تبارك الرحمن الرحيم

مقدمة الناشر

« الإسلام في عصر العلم » .. صيحة حق .. أطلقها المؤلف الأستاذ محمد فريد وجدي ليتردد صداها في جميع أنحاء العالم الإسلامي ، بعد أن هاله طغيان المبادئ الإلحادية المادية ومحاولة دعايتها وفلاسفتها ، ترسيخها وتثبيتها ونشرها ، مغلفة بمظاهر المدنية الحديثة البراقة ، هادفين القضاء على مبادئ وأخلاق الرسائل السماوية ، وعلى ديننا الحنيف بالذات .. متجاهلين أن المدنية الحديثة بجميع صورها ووسائلها يجب ألا تؤدي بالإنسان إلا إلى الإيمان بقدرة الله عز وجلّ والتمسك بتعاليم الدين الحنيف ، التي تكفل للجميع حياة هادئة هائلة عزيزة مستقرة ، في جميع العصور والأزمان .

ولقد بذل المؤلف جهداً عظيماً ، في كتابه هذا ، متناولاً بالتعليق والتفنيد كل ما يتشدد به أعداء الدين ، وموضحاً لشبابنا الحائر الذي خُذع حيناً بهذه الفلسفات والافتراءات ، طريق الحق والسعادة المثلى في ظل العقيدة الصافية والإيمان الذي لا يتزعزع .

وان « دار الكتاب العربي » ، جرياً على عادتها في نشر كل قيم ونفيس ، ليسرّها أن تقدم إلى قرائها في أنحاء العالمين الإسلامي والعربي ، هذه الطبعة الجديدة المنقحة من كتاب « الإسلام في عصر العلم » ، جامعة أجزاءه جميعها ،

في هذا المجلد ، موضحة أقسام وأبواب الكتاب تقسيماً جديداً واضحاً ،
تسهيلاً للقارئ واستكمالاً للفائدة .

ففي الباب الأول : « معرفة الانسان نفسه » ، يسهب المؤلف في الحديث
عن حياة الانسان وتطوراته وأسباب شقائه وماهية سعادته وطريق الوصول
اليها ، ثم عن الدين والدنيا ، كيف يتحدان وكيف يفترقان ، الى غير ذلك من
الأبحاث المتعلقة بالانسان والتي يخذ المرء نفسه دائماً متشوقاً الى معرفة حقائقها .
وفي الباب الثاني « المدنية » ، يفرق المؤلف بين المدنية الحقيقية بمعناها السامي ،
والمدنية الشكلية الزائفة كما يروج لها البعض . وفي الباب الثالث « حياة خاتم
المرسلين » محمد ﷺ ، يؤكد المؤلف أنه لا سبيل الى إصلاح حال المسلمين ولا
طريق الى استردادهم مجدهم إلا بالرجوع الى الدين ودراسة هذا القلب السامي
الذي أشرق فيه هذا الدين أول إشراقه .

أما في الباب الرابع : « ما وراء المادة » ، فالبحث عن الروح والخلود
والبعث والحشر والعقاب والثواب ، وفي علاقتها جميعاً بالعلم والعرفان .

ثم ننتقل الى الجزء الثاني ، حيث يشرح المؤلف موقف الناس من العقائد
وأقسامهم من حيث الإيمان بها والتكذيب لها أو الشك فيها ، ثم يتحدث عن
إعجاز القرآن ، ثم يتناول أبحاثاً مختلفة متنوعة لا غنى لباحث أو متطلع الى
معرفة حقائق ديننا الحنيف عن إدراكها .

ثم يصل القارئ الى الملحق الذي أضافه المؤلف وضمنه ردوده المسبهة على
كل من وجه اليه سؤالاً أو استيضاحاً لأمر غمض اليه خلال قراءته للكتاب .

وإننا نلجؤ للجميع التوفيق إلى كل ما فيه نصرة وعزة الدين القويم
وازدهار الثقافة الإسلامية العربية ..

والله الموفق

الناشر

المجلد الأول

مقدمة المؤلف

للطبعة الثانية

ألفت هذا الكتاب وأنا في ميعة السن قريب عهد بدور التحصيل والدرس ، فهو أصدق كتاب يمثلني مناضلاً عن الفلسفة الروحانية والدين باعتبار أنها الركنا القويان من أركان الاجتماع والترقي ، في أول أدواري وأنا أدفع بالدليل تلو الدليل اكتساباً للأنصار حول هذا الأصل ، وهو أن الجماعة التي أقامها الاسلام في أول عهدها بالوجود يجب أن يكون هو الذي ينعشها من كبوتها .

على هذا الأصل سرت في تأليف كتابي هذا ، رامياً الى لفت نظر المتعلمين الذين فتنتهم فواتن الفلسفة الحديثة فتخيلوا أنها الطريق الوحيد لبلوغ الغاية القصوى من الرقي الانساني ، وإذا قلت الفلسفة الحديثة عنيت بها الفلسفة المادية التي تفرض أن الانسان حيوان راق وأن الغاية التي أمامه هي وصوله الى آخر ما تنيله إياه العلوم الكونية ، وما يعده استعدادده لقبوله منها .

كنت في ذلك العهد أي منذ ثلاثين سنة قد أتممت جولة شاقة متعبة قد جلتها وأنا فتي السن وحيداً في متاهات خالية من الهداة والأدلة ، وفي وسط جماعات علمية لا تمت الى هذه المباحث بسبب ، فكنت أرتطم في الشبهة العلمية وأصلى نارها وحدي لا أجد من يهديني الى حلها ، ولا من يدلني على مقابلها ، فما كدت أخرج منها ، سليم الأيمان ، قوياً على النضال ، حتى ألقيت بنفسي من هذا الكتاب في مجال لا يحسر أن يقفه المقرمون الفحول ، فما ظنك بناشئ لا يزال من هو أسن منه في دور التعلم والتحصيل ؟

خضت من البحث في نفسية الانسان بجرأ خضياً ، فألقيت بنفسي بين أواذيه وليس لي من وسائل النجاة من طغيانها إلا عزيمة قوية للوصول الى ساحله ، فلم أدع من عوامله الذاتية وعوامله الخارجية وروح العصر باباً للبحث إلا ولجته ، ولا كلاماً عن الدين والعقل والروح العلمية وما طوحت بي اليه من درس أول مناشئها وما أثر عن اليونانيين الأقدمين عنها . وما أتى به فلاسفتهم وحكاؤهم فيها ، وما أنتجتته الحروب بين الفرس وبينهم من الآثار على العلم والفلسفة ، وما أحدثته جامعة الاسكندرية من النهوض العلمي في العالم ، وما اقتضاه هذا الخوض من دراسة مذاهب الفلاسفة اليونانيين الخ الخ ، ثم الخروج من ذلك كله الى دراسة الروح الاسلامية ، والمثل الأعلى الذي أوجده رسول الله صلى الله عليه وسلم للانسان ، وما استدعاه ذلك من البحوث في ماهية الدين الفطري ، وعرض الأدوار التي تفتاب العقائد ، وكنه الفضيلة والزديلة ، وغاية المدنية الاسلامية ، وما استتبعه هذا الدرس العميق من النظر في المادة وما وراءها ، والامام بالبحوث التجريبية التي يقوم علماء اوربا في هذا العصر بها لإثبات العالم الروحاني الخ الخ ، إلا درستها درس تعمق ، فخرجت منها وأنا أشد إيماناً بصحة النتائج التي وصلت اليها مني بها قبل أن أخوضها ، فلم أشأ أن أختص بها فأخذت أدونها وأنشرها بين الناس حتى ملأت مجلدين ضخمين ، نالا من إعجاب القارئ قسطاً كبيراً ، فلم يمر عليها غير زمن يسير حتى نفدت طبعتها الاولى ، وانصرفت لخوض غمرات اخرى فأملت إعادة طبعها سنين رغماً عن كثرة طلبها ، ومضت مدة كانت تكفي للتعفية على رسومه ، ومحو اسمه من الأذهان ، غير أن الذين وعوا ذكره كانوا لا يفتأون يلحون في إعادة نشره ، فأمكننا الله من ذلك ويسره ، وها نحن نقدمه للقراء مطبوعاً أجمل طبع ، راجين من الله التوفيق فيما نتوخى من نشر الحقيقة ، وبث الفضيلة ، وتغذية الروح ، انه ولي الكفاية وهو المستعان .

محمد فريد وجدي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة المؤلف

لِلطَبْعَةِ الْأُولَى

أحمدك اللهم على أن هديتنا لدينك القويم ، وأقمتنا بكلامك القديم ، على صراطك المستقيم ، حمد عبد معترف بالقصور عن حصر آلائك مقرر بالمعجز عن توفيتك الشكر على جزيل نعمائك ؛ وصل اللهم وسلم على الانسان الكامل الذي بعثته بالنور الشامل والبرهان الفاصل ، فنصرت به الحق على الباطل ، وأقمت به وبأتباعه الأمثال ، ميزان حكمك العادل سيد الوجود محمد عبدك ورسولك خاتم النبيين وإمام المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين . آمين .

(أما بعد) فإني استخرت الله تعالى في وضع كتاب كبير الحجم أضمنه موجز أبحاثي في المواضع الفلسفية التي لها علاقة بالاسلام خصوصاً وبالدين المطلق عموماً ، وأريد من هذا العمل الشاق إقامة صرح مشيد للدين الاسلامي في هذا العصر الذي اشتهر بزعزعة أركان الأديان وهدم صروحها وتقويض أساطين المعتقدات ونسف قصورها . وسأتوخى ان شاء الله في بناء هذا الصرح

تسخير ذلك العلم الهادم للعقائد غير ذاهب بمدركاته مذاهب التعسف والتأويل ، ولا ناهج بمقدراته مخالجات التكلف والتحريف . ولكني سأسير معها سيرها الطبيعي وأسلك بها مسلكها التحليلي . ولم لا يتفق العلم والدين ويكون الأول مؤيد الثاني وناصره ، وحاميّه من شائبات الشكوك ومؤازره ، ما دام العلم منتزعا من أشياء الكون والدين وحي من خالقه ؟ وهل يعقل أن يكون وحي سماوي مخالفاً لوضع طبيعي وكلاهما مستمد وجوده من خالق واحد تنتزه أفعاله عن التناقض وتتعالى إفاضاته عن التعارض ؟ بل الذي يخشى صولة العلم ويتهيب سطواته ، رجل يريد أن يعطف حقائق الكون على خيالاته ، وأن يرى نواميس الوجود مطابقة لوهميّاته ، هذا هو الذي يرى العلم عدواً لدوداً ، فيصد عنه صدوداً ، ويكون أمامه حيوداً شروداً ، هذا هو الذي ان ذكر العلم بحضرته عبس وبسر ، وأدبر واستكبر ، وقال ان هذا الا قول البشر . أما المسلم فمتى عهدناه أحجم عن العلم أو تهيب ورده ؟ وأنسى رأيناه صدف عنه وخاف بطشه ؟ .

العلم في كل عصر ظهير الاسلام ومؤيده ، وناصر تعاليمه ومعضده . لم يسقط المسلمون الى ما هم عليه الآن إلا بلوهم عن العلم كشعاً ، وضرهم عن الخوض في مناحيه صفحاً ، ألم تر أن في كل دور من أدوار العلم كتباً للمسلمين اتخذت أرقى مدركاته سلاحاً للدفاع عن الاسلام وتأييده ، وجعلت أعضل مسائله آلة لتشديد صرحه وتوطيده ؟ فما الاشعري وابن تيمية والغزالي وغيرهم إلا من فرسان تلك الحلبة ، وأعلام ذلك الميدان ، وقد فازوا وفاز من اقتدى بهم في كل عصر على اعدائه فوزاً ليس بعده مطلب للمزيد . فلماذا لا يكون هذا العلم نفسه في هذا العصر الأنور جارياً على سنته الطبيعية التي سارها مع الاسلام في كل عصر سابق ؟

أكبر سبب نراه لتراخي روابط الدين من قلوب بعض المتعلمين اليوم هو لا شك عدم استخدام القوام عليه العلم لتقرير حقائقه كما كانت هذه عادة آبائنا

الأولين، وسنتهم في نشر الدين، لهذا الإهمال ظن أولئك المتعلمون ان اسلحة الاسلام أقل مضاء من أسلحة علومهم الكونية ، فانتبذوا لأنفسهم مكاناً بعيداً عن اخوانهم في المدركات، والمقائد .

نرى كثيراً من المتكلمين في الدين لا يسلكون في تأييد دعاويه إلا مسلك القضايا المنطقية ، والفلسفة العقلية ، بينما يرى هؤلاء المتعلمون أنفسهم في عصر الفلسفة الحسية ، والبراهين الطبيعية التحليلية فكيف يقر هؤلاء لأولئك بزعامة ويعترفون لهم برئاسة وهم يريدون أن يلمسوا ما يعتقدونه أو يدركوه بصفة تقرب من ذلك .

يقرأ هؤلاء المتعلمون من كتب الغرب ما يستدلون به على أن الانسان مترق من سلسلة حيوانية ، وان بينه وبين القردة والكلاب قرابة أصلية فتتكشط من أذهانهم بسبب هذه الشبهة الواحدة كثير من المدركات الدينية في أصل الخليفة ومنابع الأخلاق ووجود النفس وخلودها وحقيقة الفضيلة وليسوا من العلم بمكانة يستطيعون معها النظر في أدلة أولئك القائلين ومحامتها، فتلتك أفكارهم بشبه لا يجدون أمامهم من أكثر القوام على المقائد رجالاً نصبوا أنفسهم لتحليل أمثال هذه المسائل التي طم بها العلم المصري وصار بذلك جائحة على ما يسمونه الدين : فلا يرى أولئك الشبان إلا السكوت على مضض والجمود على هواجس تجيش في صدورهم ، وترغهم على عدم التعلق بالدين لتوهمهم أنه أضعف من أن يقاوم هذا التيار الجارف الذي لم يترك أمامه سداً أثرياً الا هدمه ، ولا بناء قديماً الا اكسحه ، فيحسبون أنه في حركته هذه قد نسف صرح الاسلام أيضاً قياساً على غيره، ويفوتهم ان صرح الاسلام ليس مبنياً من آجر الخزعبلات متمسكة بطين الأوهام ، حتى يعدو عليه تيار أو يقابله في جريه اعصار « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » .

هذا هو السبب الأكبر في عدم تمسك أكثر المتعلمين منا بالدين ، وهروبهم من كل ما يشم منه رائحة الدين ، وهم أنفسهم لو رأوا من المدافعين عنه قوة

حقيقية في حمايتهم لبيضته لكانوا أعز أبنائه وأقوى أعضائه . بناء على هذه الاعتبارات كلها رأينا أن نشرع في هذا العمل الشاق اقتداء بأسلافنا الاولين الذين استخدموا علوم عصورهم للدين ، وسنعمل ان شاء الله عمدتنا في الدفاع عنه المقررات العلمية ، والمدركات الفلسفية الثابتة ، سالكين بها أقصد المسالك الاستقرائية والتحليلية ، غير تاركين فيما نظن هاجساً يهيج بالضمير بسبب أي مسألة من المسائل العلمية الحديثة التي لها ارتباط بالعقائد الا أتينا على تحليلها وبيان الحقيقة منها مع البرهنة على أنها أقوى مؤيد لمدركات الاسلام وأشد ناصر لحقائقه ، حتى أن القارىء سوف يرى ان شاء الله ان ما كان يخاله في العلم الطبيعي ناسفاً لأصول الدين ومبدداً لفروعه أحسن مقرر لها وأمتن مثبت لبنائها وليس ذلك بمعجيب ، فقد قال الله تعالى : سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك انه على كل شيء شهيد « ولتعلمن نبأه بعد حين » وعندئذ يليق بنا أن نتمثل بقول الشاعر :

(أفلت شمس الأولين وشمسنا أبدأ على أفق العلا لا تغرب)

وقد رأينا أن نقسم كتابنا هذا إلى أربعة أجزاء كل منها يشتمل على بحث قائم بنفسه ولكنها كلها ترمي إلى غاية واحدة هي إقامة أقوى الأدلة العلمية لتقرير « ان الدين عند الله الاسلام » .

سنتكلم ان شاء الله في الجزء الأول على (الإنسان) ثم في الثاني على (المدنية) ثم في الثالث على (ما وراء المادة) ثم في الرابع على (حياة خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم) أما مبحث (الانسان) فنسدرس فيه ان شاء الله الانسان من كل جهاته التي لها ارتباط بالدين والفلسفة . ولا يعجب قارىء من تخصيص كتاب ضخم في موضوع الانسان وحده فان حقيقة الانسان أعوص مسائل الانسان ، وقد سهل عليه أن يدرس الكون ويستخدم كثيراً من نواميسه ، ولكن صعب عليه جداً درس نفسه والوقوف على سرها .

نحن لا نغني بدرس الانسان درس جثائه فإنا لا نعد ذلك الهيكل اللحمي على ادعائه للعقل وتحبيره للفكر إلا جزءاً من الكون المادي الذي تغفل الانسان في اكتشافه ، ولا نغني به أيضاً اكتناه سر روحه والوقوف على جوهرها : هيات ذلك مما لا نطمع فيه ولا نسمح لعقولنا بالتطفل عليه ، ولكننا نريد به درس علاقاتنا بالوجود المحسوس ووجود آخر نشعر به ونذوب شوقاً لمعرفته .

لو كان الانسان مدفوعاً بالفطرة إلى انتهاج سبيل خاص في أمور حياته كما هو الشأن عند سائر الحيوانات لما كان ثمة حاجة إلى درس علاقاته بالوجود الا من جهة محدودة ، ولكانت سعادته تبعاً لذلك محصورة بمحدود الدائرة التي حجب عليه تعديها ولكنه خلق مطلق القوى مرخي العنان لا يدرك لسعادته حداً ، ولا يتخيل لكماله تحماً ، كلما ارتقى في معارج احدى سعادته درجة لاحت له درجات ، وكلما جاز باحة تراءت له باحات ، وهو مع ذلك يجد من كنز فطرته مادة تمكنه من مداومة الجد والتعب ، ومن فيض مبدعه عوناً على معاناة النصب ، حتى سمح لنفسه أن يقول وقد جال في موامي المطالب وجاب ، وجاس في انحاء الكون فأخطأ وأصاب :

(ولكن قلباً بين جنبي ما له مدى يفتني بي في مراد اجده)

الانسان في كل جولة من جولات معناه ، وفي كل جوبة من جوبات فكره ، حتى في كل همسة من همسات ضميره ، أو حركة من حركات وجدانه يحاول أن يستجلي جمال ذاته ، ويستكشف محيا سره ، ويستديم مع ذلك وجوده الشخصي على أكمل صفة يدركها في نفسه ، فهو لا يأكل أو يشرب ، ولا يلبس أو يترن ، ولا يفكر أو يتدبر وبالاختصار لا يتحرك حركة منها كانت بسيطة الا وهو مدفوع بدافع مبهم لتسجيل ذاته وشخصيته في سجل الوجود ، ونقش معناه في صفحاته نقشاً يأمن عليه العاديات من كل نوع .

مضى على الانسان زمن كان فيه قريب العهد بهذا المشهد المدهش (الدنيا)

فكان شغله بنفسه واهتمامه بدفع الطوارئ عنه ، مانعاً له من التفكير في كنه القوى التي تصرفه ، ولكن حدثت عليه أزمان بعد ذلك تم له فيها التغلب على المبيدات الفجائية فما شعر الا وضميره يطالبه بأمر جلل وخطب عظيم ، وإذا بصائح في فؤاده يصيح : ماذا أنا ؟ ما هذا العالم ؟ ما هي هذه المحسوسات التي تحتف بي من كل جانب ؟ ما هي علاقتي بها ؟ أين أنا ذاهب بعد فناء هذا الجسد ؟ أتلأشى كما تتلأشى الأشياء أم أديم في عالم غير هذا العالم وعلى شكل غير هذا الشكل ؟ الوجود قديم أم حديث ؟ إن كان قديماً فكيف وجد وان كان حديثاً فمتى وجد ولماذا وجد ؟ أهو أبدي لا يزول أم فانٍ لا بد له من أقول ؟ ان كان أبدياً فماذا يكون في المستقبل وبأي شكل يتشكل ؟ وان كان فانياً فلأي أين يذهب وما الذي يحل مكانه حين يعطب ؟ أيحل مكانه لا شيء أم الفضاء ؟ ما معنى لا شيء وما معنى الفضاء ؟ .

دعنا من هذا كله : فما هي المادة في ذاتها وما هي أسباب وجودها ودوامها وما هي عوامل رقيها وتدرجها ؟ كيف استحالت من تراب الى انسان ؟ وما هي الحياة وكيف نشأت في الجماد وما هو هذا العقل المكرم وكيف تولد في هذا الطين الأصم الأهم ؟ ثم دعنا من هذا أيضاً وهلم نفكر كيف نشأ الحيوان ووجد الانسان وتدرج في مراقي العرم فان ؟ كيف امتدى وتصرف وكيف نما وتطور ؟

ثم دعنا من هذا ؛ فما هذه النباتات ولم وجدت بهذه الاختلافات ؟ وما سبب تلوين أزهارها وتطييب أنوارها وتحلية ثمارها ؟ هل خلقت للانسان والحيوان ، أو هي عوالم مستقلة خلقت لذاتها ولها أغراض وقوانين ؟ كيف اهتدت الى ما فيه حياتها وتمتعت بما به بقاءها واستمرارها ؟ ثم ما هذه الحيوانات ولم اختلفت في الصور والهيئات وتنوعت في الأقدار والأحجام وتباينت في التراكيب والأجسام ؟ كيف نشأ فيها ذلك الالهام العجيب الذي يهديها لبناء مساكنها وتغذية صغارها والهيمنة على أحوالها وأمورها وأنسى

اهتدت الى معائشها ووفقت لسبل غذائها وما يقيم أمر حياتها؟ وما الانسان من بينها؟ .

كل هذه المسائل جاشت في صدر الانسان وتراءت له على ما لا يعد من الصور على حسب المؤثرات التي أثرت على ذهنه ، والمناسبات التي أحاطت به في مكانه وزمنه ، واشتغل بها قديماً وحديثاً وبنى عليها علومه وصنائه وأخلاقه وسجاياه ، وقاس عليها فضائله ومزاياه ، وشرع على موجبها قوانينه ، ونظم على مقتضاها عقائده ودينه ، وعلى قدر تمكنه من درسها وتدريبه على فحصها والقرب من أسرارها فاز من وجوده بقسط من السعادة محدوداً ، ونال من حياته جزءاً مقدوراً .

فمنهم من حكم على وجوده بالحدوث والعدم ، ومنهم من قضى له بالبقاء والقدم . فجرى الأولون فيه على سمت شكلوا على مقتضاه علومهم وعقائدهم ، وسار الآخرون على طريق خالفوا فيه مناظيرهم على الجملة وبنوا عليه علومهم وعقائدهم أيضاً ، وجرى الاثنان من قديم الزمن في حلبة واحدة كان السبق بينهما سجالات فكان حكم العقل عليها في كل زمن يختلف عن سابقه ولا حقه مما لا يجوز أن نخفيه عن قرائنا اليوم .

قال الأولون بأن الوجود إله لا نهاية لحوله وقوته ، وللانسان روحاً خالدة بعد موته ، وله فضائل مستمدة من دينه وعقيدته ، ولأعماله في هذه الدار صور تنتظره في آخرته ، وان الوجود وما فيه مسخر لسيطرته ، يحول في ضمائرهما بما تقتضيه امور مصلحته ، وتستدعيه مطالب سعادته ، جعلوا هذه العقائد تسليية للانسان في دار محنته ، وروحاً يتنسّمها في كربته ، وأملا يدفع به اليأس في شدته .

أما الآخرون فانفضوا رءوسهم سخرية وهزواً ، وهزوا أعطافهم زهواً وعجباً ، ثم رفعوا عقيرتهم كبراً وصلفاً وقالوا : هذه آثار الماضين وبقيّة من الأقدمين . فقد حكم العلم (معاذ الله) بأن نواميس الكون كافية في تحليل كل

ظواهره وقوانينه قد فسرت أكثر غوامضه ، فلا داعي لفرض وجود قوى وراء الطبيعة ، ولا موجب لتوهم عالم علوي وراء هذه المراتبي المحسوسة . أما الوجود فقديم إن لم يكن بصورته فبإداته الأولية ، وأما القوى التي تصرفه فلا استقلال لها في ذاتها بل هي صفة هيولاه الأصلية . فلا مادة بلا قوة ولا قوة بلا مادة ، بل المادة نفسها مظهر من مظاهر القوة المتحركة في الأثير من الأزل . أما الانسان وما نسبتموه اليه من نفس مستقلة عن الجسد ، وما منحتموها من مزية الخلود بعد فنائه وتبعثر ذراته ، فيما تبطله الشواهد العلمية وتحيله البداءة التشريحية . فقد قرر العلم (معاذ الله) أنه لا فرق بينه وبين غيره من الكائنات السفلية ، ولا ميزة له على سواه من الأنواع الحيوانية بل ليس هو في ذاته الا حيواناً فاق في قوة التعقل غيره من بني نوعه ، على أن بني نوعه (الحيوانات) ليست محرومة من قسط مناسب من العقل والفطنة ، واذا أردت الدليل فدونك كتب حياة الحيوان تر من آثار الفكر ونتائج العقل ما يدل على تمام الدلالة على ان العقل ليس وصف الإنسان المميز ولا أحد الانفصال بين العالمين الحيواني والانساني . فاذا نسبت للانسان روحاً مستقلة عن الجسد ومنحتها مزية الخلود والبقاء ، فلم لا تحكم هذا الحكم نفسه بالنسبة للحيوانات . أليس هذا من آثار المعلومات السابقة الناقصة حيناً كان الناس لا يميزون بين ما يؤيده الحس والعيان وبين ما هو من قبيل الخيالات التي تنشأ في الوجدان بلا روية ولا امعان ؟

أما الفضائل التي تفرعون الأذان بها ، وتضربون وجوه مناظريكم بسلاحها ، مدعين انكم قادتها وزعماؤها ، وأن بيدكم حلها وعقدها ، وان لكم حق السيطرة على الناس بها ، فليست في الحقيقة تبعاً لتعليم من التعليم ولا حقاً للناس دون ناس ، بل هي تابعة لنواميس طبيعية تظهر في الأمم الحية ظهور آثار سائر النواميس الأخرى ولا علاقة لها بدين البتة ، بل الدين مشتق منها ومتفرع عنها . الا ترى أن أكثر المتدينين بعداء عن الفضيلة مغمورون في غمرات الرذيلة ؟ دونك الاحصائيات المدققة التي يستقصيها علماء الجرائم مثل (لومبروزو) و (فيريو) و (سرجي) وغيرهم ترى بعينك ان أكثر الجرائم صادرة من المتدينين الذين

يزعمون أن لهم ارتباطاً بالدين ، وغيره على تعاليمه ثم انظر بعد ذلك للأمم التي تركت الأديان ، وجعلتها خبراً لكان والتفتت للمدنية والعلوم الطبيعية ، تر أنها قد دبرت أمورها ، ونظمت شؤونها ، فقامت على قطب الاستقامة والاستقلال ونحت منحى الكرامة والجلال ، وكشفت لها المدنية عن وجهها الباسم ، وتجلت لها الحضارة في شكلها الفائق ، فسيطرت على الأمم الأخرى بعلومها وصناعاتها ، وقهرتهم بقوتها وسطوتها ، كما أنها صارت بالنسبة اليهم علماً في فضائلها وآدابها ؟

إذا كان لا فضيلة بغير الدين ، وأنها مطابقة لذات التعاريف التي تكلفون أنفسكم باثباتها في كتب الأخلاق ، فما سبب هذه الآثار المدهشة للعقول المضللة للمدارك ؟ إذا كان الانسان كما تقولون خلق مستقلاً وأنه من طبيعة علوية ، وأنه مستعد لأن يسمو بروحه إلى أرقى منصة للحياة الملكية ، فلماذا هبطتم وعلا عليكم أولئك الذين يزعمون ان الانسان من سلالة القرود وان بينه وبين الحيوانات أواصر من القربى ، وشائج من الرحم ؟ إذا كانت الفضيلة كما تقولون لا تثبت للانسان بغير دين ولا تلتصق بضميره بأي عامل غيره ، فلماذا حرمت من أصغر أنواعها ، وسبقكم في باحاتها أولئك الذين يقولون إن الفضيلة صفة من صفات الحياة الانسانية والرذيلة كذلك ، تنشأ الأولى عندما تكون شؤون تلك الحياة جارية على سمت طبيعي ملائمة لسنن الكون ، وتبرز الثانية في ضد تلك الحالة ؟

أما ما تزعمونه من أن لا قيام للأمم بغير الدين ، ولا نظام لهم سوى حبله المتين ، فما لا نحتاج معكم فيه إلى كبير جدال ، ولا كثير قيل وقال ، فدونكم الأمم الغربية الكبرى قد بنت عظمتها بلاشاته ، وأقامت وحدتها بمنابذة أشياعه ، وتشتيت شمل أتباعه ، ومع ذلك فلها كل يوم في سجل المعالي أثر جديد ، وفي حدائق الفخار والمجد صرح مشيد ، فان كان الأمر كما تزعمون فما هذا الأثر المنعكس ، وما تفسير هذا الأمر الملتبس ؟ أليست كل هذا البراهين المحسوسة تدل على أنكم متمسكون بأقوال لا يقوم عليها من عالم الشهود شاهد ،

ولا ينهض لها من واقع الحوادث مدافع ! لا جرم أنكم تتأخرون و تنتقدم ،
وتخضعون و تتحكم ، ولا غرو إن علونا وسفلتم ، وعززنا وذلتم ، كما لا عجب ان
استخدمنا نواميس الكون وأسرتكم ، واستدررنا خيرات الطبيعة وحرمتكم .

كل هذه الشبه المتعاصية قد نشأت في وسط هذا العلم الأوربي ، ونبع سمها
من بين ذرات دسم هذه المدنية العجيبة . فالتأثت أكثر العقول بأقذارها ،
وتسممت بسمومها ، فدارت على محاورها ، وجرت على مخالجها ، فتأدت إلى حال
سندرسه هنا إن شاء الله درساً مدققاً .

هذه السموم بعينها سرت إلى أكثر أفراد شبيبتنا الاسلامية ، التي نهلت من
دنّ العلوم الاجنبية ، فخلعتنا عن مجموعها وذهبت بها مذهباً لا يجعلها مع هؤلاء
ولا هؤلاء . وكفى أمة عجزاً أن لا يكون لشبيبته وجهه .

حلت هذه الشكوك والشبه من قادة النشأة وزعماء التقدم في البلاد الأجنبية
محلاً علياً ، جعلتهم ينبذون معتقداتهم ظهيرياً ، ويجعلونها نسياً منسياً ، وأمرأ
فرياً ، ولكن قام مقامها موقفاً لديهم غيرة قومية ، وحمية جنسية أو لغوية ، لم ت
شعثهم ، وضمت أجزاءهم ، ولاءمت بين أميالهم حيناً ظنوا فيه امكان قيامهم
بدون الدين ، بل زعموا أن مصدر رقيهم ، ومنبع نظامهم والتسامهم ومنشأ
ألفتهم ووثامهم ، هدم تعاليمه وتذريتها في الهواء . ثم لما استقاموا على هذه
المفازة الخطرة حيناً من الزمان ورأى قادتهم ورؤساء معارفهم أن هذه خطة عوجاء ،
وسراب ليس وراءه ماء ، وانهم بالادمان على متابعة خطتهم هذه ملاقون الهلاك
الملاشي والبلاء المستأصل والحاجة الكبرى التي تهدم عروش مدنيتهم ، وتطفئ
نور حضارتهم ، وساعد هذا الأثر عندهم ما أحسسته نفوسهم من الفراغ الموحش
لفقد العقيدة بمستقبل ارواحهم ، ومصير حياتهم ، حنت فطرهم إلى الدين
الصحيح حنين البائس ينتظر فرجة ، ويتنسم من روح الخلاص نسمة ، ولكن
اين الدين ؟

كانت الفلسفة الحسية فلسفة الفيلسوف (أجوست كونت) واتباعه ، القائلين بأن كل معقول لا يؤيده شاهد من الحس جاز أن يكون ضلالاً ، آخذة من الأفكار مكانة لا يمكن قلعها منها ، ولما كانت أسس الدين من عقيدة وجود الروح وخلودها في دار غير هذه الدار مما لا يمكن الاستدلال عليه بمحسوس جازت أن تكون ضلالاً لا حقيقة له في الواقع ، فهي على حسب أسلوب هذا المذهب الكثير الأشباع من قبيل ما لا يمكن إثباته ، وما لا بد من عدم الخوض فيه . وما معنى دين بدون روح وخلود ونعيم وشقاء في دار بعد هذه الدار ؟ اذن كيف يمكن الاعتقاد بدين في عصر هذه فلسفة بنيه وتلك مبادئها ؟ لكن الله أكرم من أن يخيب سائلاً ، وارحم من أن يطرد عن بابه طارقاً . ارسل عليهم من جهة فلسفتهم هذه آيات تأخذ بالأعناق خضوعاً ، وبالأبصار والبصائر دهشة وخشوعاً ، فنشأت أبحاث سموها (ابنو تزم وما نيتيزم) التنويم المغناطيسي و (اسبر تزم) استحضار الارواح ، وغير ذلك استدلت منها عليتهم على أن للإنسان روحاً فانشؤوا مئات من المجلات والجامع . وعقدوا لها المؤتمرات والمحافل . وألفوا فيها الكتب والرسائل . وبلغ عددهم من العلماء الاعلام ، وقادة المعارف العظام ، والمحامين الأمثال ، والكتاب الفطاحل ، ما لا يقل عن عشرين مليوناً وكل يوم يزيدون على هذا . فهم لم يقعوا حتى نهضوا ، ولم يضلوا حتى كادوا يهتدون . ولكن شبيبتنا التي شربت من حوض علمهم ، وتشبحت في أذهانها صور معلوماتهم ، لم يشاؤوا ان يوسعوا دائرة معارفهم وكأنهم لم يعلموا أن ما يدرس في المدارس من العلوم الطبيعية والرياضية ليس الا قطرة من بحر لا تنقع صدى ، ولا تروي غلة ، بل كأنهم يعتقدون أن العلم واقف حيث هو عن عهد (لفوازيير) و (تورسلي) و (ماريوط) و (فولتا) وان باب الرحمة الالهية اغلق في وجه بني آدم والعياذ بالله ، فلا مرمى بعد مرامهم ولا مذهب بعد مذهبهم ! ثم نسوا ما تعلموه أيضاً ولم تحفظ ذاكرتهم منه الا شكلاً مشوهاً ليس له أصل يعتمد عليه ولا ركن يرتكن اليه . فهم على مذهب (أجوست كونت) و (داروين) بدون أن يكلفوا أنفسهم معرفة ماهية مذهبها ولا

أصول نظرياتها ، وكأنهم كفاهم أن يكونوا (اجوستيين) و (داروينيين) أن يروا شيئاً من فلسفتها في بعض الكتب ليس آتياً على أسلوب صحيح ، ولا سلك فيه كاتبه مسلك التحليل والاستقراء . ثم أنهم على فرض تعمقهم في مبادئ فلسفة هذا العصر وتغلغلهم في مناحيها تدقيقاً وتمحيصاً ، لم يكلفوا أنفسهم النظر في ماهية الاسلام ليروا إن كانت مبانيه مما يهدمها مثل هذه النظريات أو بالعكس تقويها وتسندها .

نحن لسنا من أعداء المعارف الحققة ، ولا من أصداد فرع من فروع العلوم الأجنبية الصحيحة ، لأن الاسلام دين غايته العليا الحقيقية ، وغرضه الأسمى تخليص الانسانية مما ران على فطرتها من خبت الأوهام ، وقدر المعتقدات الباطلة ، فغايتها وله المثل الأعلى كغايتها مذاهب (اوجست كونت) و (باكون) وغيرهما في تنقية المدارك من أدران الباطل ، وأسلوبه أدق من أسلوبها واجمع للشرائط الموصلة للكمال الانساني من كل وجوه كما سيتضح لك ذلك عند إيراد تلك المذاهب ومقارنتها بالاسلام إن شاء الله .

سيشمل الجزء الأول من مؤلفنا هذا عدا عما سبق على كلام مشبع على حياة الإنسان وتطوراته وأسباب شقائه ومناشئ بلائه وماهية سعاداته وطريق الوصول إليها .

خلق الحيوان على حال لا يستطيع عنها محيصاً ، ولا يرتقي فوقها درجة ، وحصرته قواه العقلية والفكرية في دوائر لا يستطيع تعديها من تلقاء نفسه ولا بواسطة غيره ، ولكنه وهب في مقابل هذا سوقاً طبيعياً يهديه إلى مصالح وجوده جملة وتفصيلاً ، حتى أنه ليأتي في تربية صغاره والعناية بها أموراً يعجز أكثر أفراد النوع الانساني عن معرفتها وإدراك أسرارها . فبينما ترى مثلاً أن أكثر الأمهات والأباء من نوعنا الآدمي يقتلون أفلاذ أكبادهم بالتخامم بالأغذية الدسمة قبل وصولهم إلى السن المناسب لتعاطيها ، ترى الهرة يجانبهم لا تعطي صغارها شيئاً من المأكولات الدهنية إلا لما يبلغون سنّاً معلوماً فتراها قائمة

بتربيتهم على سنة قديمة صالحة حتى يشبوا صحاح الأجسام سليمي البنية مستعدين لمكافحة العوارض من كل نوع . لا تجد فيهم عيباً ولا عشاء ولا مهزولين ولا مما يكثر في صغار عالمنا الانساني وكباره ، وما ذلك إلا لأن الخالق جل شأنه فطرمهم على قوانين حكيمة لا يتعدونها فهم يقضون حياتهم في سعادة مناسبة لهم تمام المناسبة . أما الانسان المفطور على غير هذه الفطرة فتراه جارياً على غير هذه السنة : تتناوله الجهالة من جميع جهاته ، من يوم ميلاده إلى يوم وفاته ، فتتقاسمه الأمراض والأوصاب ، وتتنازعه الأعراض والمعاطب حتى أن كثيراً من أفرادهم يموت على أنفاس حالة بعد أن يكون قد عاش حياة كلها نكد وكدر ، ومضى عمراً كان عبئاً ثقيلاً على البشر . لم هذا؟ هل خلق الانسان أخط من الحيوان ؟ هل متع الحيوان لجهاده الحيوي في العالم بأسلحة أمضى وانسب لنوال غايته من أسلحة الانسان ؟ هل كتب على الانسان الشقاء والبلاء وقضي عليه أن يمضي أيامه بين مزعجات الكون ومبيداته يقذفه تيار من المصائب ، ويتناوله آخر من النوائب ، وهو بينها لا يكاد يستفيق حتى يغشى عليه ، ولا يتخلص حتى يوثق من رجله ويديه ! فهل سألنا أنفسنا يوماً قائلين ما هو الانسان ، وما هي الحياة ، وما هي المصائب ، وما علاقتها بالانسان ، وما حكمتها ولم صبت عليه صبادون غيره من الكائنات الأرضية وكيف التخلص منها إن كان يمكن منها الخلاص ، وهل الخلاص معقود بأهداب العلوم أو مرتبط بعلائق الدين ، ما هو الدين وما هي الدنيا ، كيف يتحدان وكيف هما ضروريان لحياة الانسان ، ما هي الفضيلة وما هي الرذيلة وما هو كنه ارتباطهما بالانسان ، هل الانسان مقصور على هذه الحياة فقط أم له عالم آخر بعد هذا الشكل المحسوس ، ما هو ذلك العالم وما هي نسبة الانسان اليه وعلاقته به ؟ .

هذه كلها أسئلة يرى كل إنسان نفسه شيقة إلى حلها ، مغرمة برفع الحجب عن حقيقتها ، وشوقه وغرامه هذان دليلان حسيان على أنه مفطور على البحث عليها ، ومتمتع من القوة بما يمكنه من الوصول الى معرفتها ، لأنه لو لم يكن مستعداً ومتأهلاً لها لما خلق الله تعالى فيه الميل اليها . فما له اذن مقصر عنها وواقف على

ساحلها خائفاً من الخوض فيها ؟ ما له يئن ويتألم ، ويدوب طول حياته بين نيران المعاطب والجوائح ، ويموت في اليوم ألف مودة مما يحتف من شؤون الحياة ومصاعبها . ولا تتحرك فيه عاطفة همة تسوقه الى كشف المستور عنه من الحقائق التي ترتبط بها سعادته تمام الارتباط ؟ قلنا الحيوان سعيد لكونه فطر على حال خاص وله وظيفة محدودة ولقواه الادراكية دوائر محصورة ونجوم معلومة ، وسعادته كلها مقصورة على أكل وشرب وسفاد وتناسل ، فما للانسان وهو الانسان يريد أن تكون سعادته حيوانية وأحط ؟ فانه يريد ان (يسرف) في الأكل ولا يتعم ، وفي الشرب ولا يمتلىء ، وفي السفاد ولا يضعف ، وأن يعتدي ولا يعاقب ، ويجهل ولا يضل ، مع أنه لم يخلق حيواناً ولكن إنساناً ، له ذهن يحيله في ضمائر الكون ، وقوى يتسلط بها على النواميس فيأسرها ومواهبه تستخدم الجن والملائكة ، وله مستقبل لا يمكن لعقله مهما اتسع نطاقه تصوره ولا تحديده ؟ .

أليست هذه السعادة الموهومة التي نتطلبها صباح مساء وهي التي نستخدم لها قوانا ومداركنا ، ونستهلك في تمنيتها عواطفنا واحساساتنا ، وننقشها في أذهان أبنائنا ونبني عليها أشعارنا ودعواتنا وصلواتنا ؟ أليست هذه هي السعادة الحيوانية بعينها المبنية على الالتذاذ بالطاعم ، والاكثار من المشارب ، والتفاخر باللباس ، وعدم الشعور بالحياة ، بتمضية الوقت بين الدفان والحدائق ، والغزلان والكواعب ؟ هذه هي السعادة التي يطلبها أكثر النوع الانساني وليست هي سعادته المكتوبة له ، ولا المخلوقة مطابقة لاستعداده ومواهبه ، فمهما طلبها فلا يجدها لأنها لا تلتقي لسمو ملكاته ولا تتناسب مع علو عنصره . لذلك يموت أكثر الناس وفي قلوبهم من الحياة حسرة ، وفي أحشائهم من لواعجها نار . ولهذا يسب أكثرهم حظه ونجته ، ويمقت نفسه وجسمه ، ويدعي أن السعادة اسم لا مسمى له ، ولفظ لا يعني شيئاً . وليس ذلك فيما نعلم الا جوراً بيتاً في الحكم ، وشططاً ظاهراً في العقل ، فان الخالق الحكيم قرن بكل قابلية ما يناسبها من الكمال واللذة ، فكيف يعقل أو يتصور أنه يخلق الانسان وهو أكمل

الموجودات وأجلها مجرداً من غاية في الحياة يسكن اليها ، ويستتب أمره عليها؟ اذن لا بد من أن يكون للانسان سعادة عالية ، قطوفها دائية ، وحداثتها مزهرة زاهية ، وانه منح كل الأسباب التي تؤهلها ، ومنع بكل الأسلحة التي تسهل له الجهاد لنواها ، من أقرب الطرق وأمثلها ، فاذا لم يحصلها بعد ذلك فلا يكون ذلك دليلاً على عدمها ، ولكن حجة ناطقة على أنه سائر على غير صراطها وناهج غير سبيلها ، وثأته عن مطلوبه ، وموجه فكره لما ليس له ، أي أنه يريد أن تكون سعادته على ما وصفناه سابقاً على نسق حيواني ولم يخلق استعداداً مناسباً لذلك. فما هي اذن السعادة الانسانية ، وما هي شرائطها وكيف يسلك الانسان مناهجها ليصل اليها ؟ هذا مما يحتاج الى شرح طويل ، وتفسير كبير ، وتقديم مقدمات ، واستنتاج نتائج ليست من الفلسفة العويصة ، ولا من العبارات الضخمة ذات الألفاظ التي يذهب فيها الفكر مذهب الحيرة .

اذا انتهى معنا القارئ الى هنا تحقق أن الجزء الأول من مؤلفنا هذا لن يدع ان شاء الله تعالى شاردة من شوارد أحوال الانسان الاقيدها ، ولا مدركاً من مدركات الفلاسفة والعلماء فيه الا عقلها ، ولا رأياً من آراء أكثر الفرق المعروفة في كيفية نشوء الانسان وحياته وخلوده أو فنائه الا أثبتها ، ولا شبهة ولا شبه شبهة مما يقيمه غلاة المذاهب المادية امام حماة الفضائل ، وما يتدافع به الفريقان من البراهين والحجج الا سجلها . ثم يتبع كل فصل من هذه الفصول تحليلات فلسفية ، واستقراءات علمية ، ومحاملات جدلية ، يتضح منها للقارئ صالح الآراء من فاسدها ، وصحيحها من سقيمها ، ومشتبهاتها من صريحها ، وتنجلي له النفس الانسانية جوهره نقية صافية من كل درن ، مشخصة في اكمل صورها ، وأجلى مظاهرها ، في النفس المحمدية العلية ، التي هي النموذج الكامل لكل نفس بشرية تريد أن تتكامل وتنهذب لتستقيم على جادة الحق الأزلي الابدي وتصل بمحركاتها الذاتية الى ما أعد لها من مقاوم الرفعة ومكانات الكمال الأقدس . هنالك يعرف الانسان معنى قوله تعالى « انا هدينه السبيل » وقوله تعالى « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع الحسنيين » وقوله تعالى « ان هذا القرآن

يهدي التي هي أقوم « وقوله تعالى « طه ما انزلنا عليك القرآن لتشقى » وقوله تعالى « ولتعلن نبأه بعد حين ». وسيلي هذا الجزء جزء ثان هو تابع للأول في الحقيقة ولكننا فصلناه لأهمية موضوعه وسعة مجال بحثه وهو في مبحث المدنية .

المدنية لفظ شاع وذاع ، وملاً كما يقولون الأسماع ، وصالت به الأقلام في ميادين التعبير ، وجالت به القرائح في مجالات التحرير ، وسرى الى العامة ودخل في مصطلحاتهم فطال معناه مرة وقصر ، وقلّ محصوره آونة وكثر ، وعسر فهمه طوراً ويسر ، حتى أصبح الناس والمدنية أقل الالفاظ مدلولاً ، وايسر الكلمات مفهوماً ، فما هي في عرف الكثيرين إلا زخارف الصناعة الأوربية في الالبسة الجسمية ، والفرش البيتية ، والأواني الفضية والذهبية ، وما تقتضيه هذه المصنوعات من التهيؤ لاستعمالها ، والتظاهر بها من تعلم لغة القوم وتقليدهم في عاداتهم وطبائعهم ، وان شئت فقل وما تستدعيه من خفر ذمة الحشمة ، وخلع أزر التقية والجري وراء ما تهواه النفس تمتعاً بقانون الحرية الشخصية . هذا كل أو جل ما يفهمه الكثيرون من معنى المدنية . أما المدنية بمعناها الحقيقي من أنها روح سامية تهبط على النفوس المتهبئة لها فتزعجها الى الحركة والتقدم وتنتقل بها من أوج الى اوج حتى تجلسها على عرش الكمال الانساني سوريا ومعنويا ، فمما لم نعتد في بلادنا هذه على الخوض فيه كأننا قنعنا من كل شيء بقشره الظاهري وعلافه الخارجي ، اللهم الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم . بناء على هذا رأينا ان الانسانية تطالبنا على عجزنا بتلافي هذا النقص بدرس هذا الموضوع الهائل درساً مناسباً لأهميته مبتدئين بإيراد التعاريف الكثيرة التي حددوا بها المدنية ، مارين بالقارىء على معظم الاختلافات بين العلماء في امرها ، واقفين به على كل مرمى من مرامي مداركهم ، دالیه على جهات قوة كل منهم وضعفه ، ثم مشهديه بعد ذلك محاكمة دقيقة بين مذاهبهم فيها ليكتنه بنفسه كنه الحقيقة النقية .

هذا الدرس التحليلي الشاق يستلزم بالطبع الاستعداد من جملة علوم مهمة

مثل علوم العمران والنفس وأحوال الانسان وطبائعه والتشريع وأساليبه والسياسة وقوانينها والاقتصاد ودستوره ، هذا عدا عما يحىء عرضاً من مباحث التشريع أو الظواهر الجوية وطبائع البلدان والأمم المختلفة ، وما يستدعيه الحال من المرور على كل مدنية قامت في العالم القديم ، وما كان فيها من علل وجرائم أمراض وما كان من أمر هذه العلل من السريان في جسم الأمة ، وما كان من شأن تلك الجرائم من الكمون في جسمها ثم ظهورها وتفشيتها بالفواعل الاجتماعية المختلفة ؛ ويمر في أثناء ذلك طبعا الباعث الحقيقي لكل من تلك المدنات والدور الذي لعبته في الوجود والدائرة المحدودة التي حكم عليها بعدم تخطيها بسبب قصر نظر واضعها ، ومقدار ما جاءت به كل منها من النفع للعالم ، وما جنته من جناية عليه وكيفية تسلسل تلك المنافع والجنايات بحكم الوراثة الى يومنا هذا . كل هذه الابحاث ستكون بطريقة سهلة يفهمها الخاص والعام بعيدة عن مصطلحات الفلسفة والتعابير العويصة .

هذا النوع من البحث التحليلي وان يكن شاقاً متعباً الا ان فائدته كبيرة وعائدته لا تقدر فان الانسان لا يستطيع أن يتحلى بما يحمله ، ولا أن يتسم بما لا يعرف حدوده ؛ اليك مثلاً لذلك بسيطاً : ليس لدى الانسان أحب من المال بعد نفسه وولده ، وربما فاقها عند بعض افراده ، لأنه يعينه على كل رغبة سواء كانت ادبية أو مادية ؛ وليست أمم الشرق بأقل طلباً له وشرها فيه من أمم الغرب ، ولكنك مع ذلك تراهم أقل من سوامم فيه قسطاً ، وأهون من غيرهم منه نصيباً ! لماذا ؟ لأنهم يحبونه ولا يعرفون أساليب جلبه ، ويهوونه ولا يدرون طريق استدراجه . هذه حادثة اجتماعية محسوسة . كذلك الحال بالنسبة للمدنية فانهم يحبونها ويتمنونها وتنبسط نفوسهم الى رؤيا مجالسها ومعاهدها ولا يمكن أن يقال انهم لا يودون طلبها كما يطلبها غيرهم ، ولا أنهم مرتاحون من حالهم المخجل أمام مزاحمهم من أمم الغرب ، اذن ما المانع لهم عن الوصول اليها ، وما الآخذ بخناقهم دونها ؟ اليس ذلك المانع القاهر هو جهلهم سبيلها ، وعدم المامهم بحدودها واصولها .

الإنسان مفطور على التكامل والترقي فهو إن تدنى وهبط فلا يكون ذلك لمحبه للهبوط ، فهو لا يهبط الا رغم أنفه ، ويكاد فؤاده في كل دركة من دركات هويته يتمزق حسرة ، وتسيل مهبته أسي وأسفاً ، وأنه لو رأى وهو في تلك الحالة شبحاً يميل لجذبه بيده لا يأنف أن يضحي نفسه له ، تحمساً به وفرحاً بمعونته . ولكنه قد يعصى ناصحه الأمين ، ويستغش دليله الخريت ، ويهجو طبيبه وربما ضربه ؛ ولا يقال ان هذا عكس ما نقول ، لأن الانسان في تلك الحالة المتناقضة يكون غير فاهم ما يراد به ، ولا عارف بنتيجة أمره فان رحمته وعمرته حتى يفهم وصبرت عليه الى أن يؤوب الى رشده أذاك ثائباً ، وعانقك متحبباً متقرباً ، ورجاك أن تغفر له ما قد سلف .

هذه حالة الانسان في كل ما يحمله . فان قال قائل بأن الشرقيين ميتون ، أو أنهم لهذا الشكل البديع من المدنية لا يصلحون ، أو أن دورهم انقضى ونجمهم أفل ، فكل ذلك كلام يصح أن يكون شعراً لا علماً ، وخيالاً لا حقيقة . ولا يجوز لمسلم دستوره القرآن أن يصدقه فانه يحرم عليه ذلك ؛ بل ربما أداه اعتقاده ذلك الى الكفر ، فانه اليأس بعينه ، واليأس والاسلام لا يجتمعان في قلب رجل ، كيف ييأس مسلم يعرف أن واضع مجد هذه الأمة بأسرها وباني أسس عظمتها التي أدهشت بها العالم كله ولم تزل تدهشه حتى اليوم ، رسول قام بلا جند ولا مال ، ولا أعوان ولا أنصار ، في وسط أمة لم تعرف للمدنية اسماً ولا معنى ولم تستأهل بسبب قحولة أرضها وحالة حياتها الى شيء من الرقي الاجتماعي مطلقاً ، والدليل على ذلك انها لبثت فيما كانت فيه من يوم وجودها ليوم البعثة بدون اقل تغير في شؤونها ، ولا ترق في أمورها ، فلم يلبث فيها زمناً قصيراً حتى نهضت نهضة لو رام الشاعر لها من عالم الخيال صورة تحاكيها ، لضاق به على سعة ارجائه ضيقاً يرى معه أن الحقيقة لو تجملت في كالمها لأغنته عن تكلف الأكاذيب ولا غنت هي بذاتها عن كل تفخيم وتجسيم .

فالمسلم اذا تدبر في هذه الحادثة التاريخية وحدها يصبح وفؤاده مملوء أملاً

ورجاء بأن حياته مرتبطة بذلك الاكسير الأعظم ، والدواء المكرم ، الذي حمله الى العالم ذلك الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم ، وانه لو أدرك سره وتركيبه وتعاطاه كما تعاطاه من قبله آباؤه الأولون لم تضره المزاومات التي تحيط به من كل جانب ، ولم تعجزه المقاومات التي تحتف به من كل وجهة كما لم تضرهم مدنية الرومان والأعجام . ولم تعجزهم مؤثراتها عن مزاحمتهم في مضار العلاء وميادين الرقي والتقدم ، بل سبقهم وسيطروا عليهم بعد ان جاروهم وبزّوهم . فما هي تلك الروح العالية التي هبطت على هذه الأمة بواسطة نبيها ، وما هو ذلك السر العظيم الذي حمله اليهم ففرطوا في حفظه ؟ ذلك ما يجب ان يسأل عنه كل مسلم نفسه ؛ وهو ما سنجعله موضوع بحثنا في هذا المؤلف الضافي الذبول إن شاء الله .



اما الجزء الثالث من مؤلفنا هذا فقد أعدناه للبحث فيما وراء المادة وقصرناه على ذلك الا ما يمس الموضوع نفسه من المعارف المرتبطة به التي لا مندوحة للسير فيه من الاتيان عليها والالمام بها .

الانسان لما كان في دور الفطرة كان يعتقد أن له روحاً لها حياة أبدية في عالم غير هذا العالم ، وعلى حال غير هذه الحال لا يقربه في هذه العقيدة شك ولا يخالج صدره ريب ، ولكنه لما خرج من هذا الدور الطفلي إلى دور أرقى منه ، ودارت فيه القوة العقلية على محور البحث والتنقيب ، وتيقظت فيه عوامل اكتناه المساتير والمجاهيل ؛ وأراد أن لا يصدق العقيدة الملتصقة بضميره الا بدليل ، جعل أهم مباحثه البحث عن ذاته للوصول إلى حقيقتها ، لا سيما وهي أحب شيء اليه ، وأعز عزيز عليه ، فظل يسأل نفسه : ما هي الروح في ذاتها ؛ هل لها استقلال وتميز عن الجسد وقوام بدونه ؛ هل لها خلود في دار بعد هذه الدار ، ان كان نعم فبجسم أم بغير جسم ، ان كان يحسم فهل هو جسمها القديم أم يحسم آخر ينشأ لها جديداً ؟ ان كان يحسمها القديم ، فكيف يتأتى ذلك

بعد ما تضيع ذراته في أحشاء الأرض ، وربما دخلت في تركيب الأشجار والحيوانات بل وربما في انسان آخر ، وإن كان ينشأ لها جسم جديد فكيف يكون ذلك بدون خلق تدريجي وأدوار متتالية كما هي العادة المحسوسة ؟ وإن كان ذلك الخلود بغير جسم فكيف يحصل ذلك وعلى أي صفة يكون وكيف يتأتى السمع والإبصار والذوق واللمس بدون الحواس الموضوعة لها ؟

خلنا من كل ذلك ، الا يحتمل أن تكون الروح عبارة عن مجموع وظائف الجسم ولا استقلال لها في نفسها ؟ ألا ترى الانسان لو حرم الغذاء أم الهواء أو انقزف دمه مات وبطل حراكه كأن ما يسمى روحاً متعلق بذلك كله ؟ فما معنى وجود روح مستقلة في الجسم بعد هذه المشاهدات ؟ إنا نرى الرجل مثلاً اذا قتر على نفسه في الغذاء ، أو لو سكن في محل فاسد الهواء ، أو ولو توالى عليه الأدواء .. قل عقله وهبطت حركته وقرب من الزوال والتلاشي ، ألا يدل هذا الارتباط بين وظائف الجسم والعقل أن ما يسمى روحاً هو الخاصية العمومية الناتجة من كل هذه الوظائف والحاجات الجسمية ؟ اذ لو كانت فيه روح مستقلة عن الجسد لدام عقله مؤدياً وظيفته لآخر لحظة من حياته ولما وجد ذلك الارتباط التام بين مادة جسمه وقوى عقله . ثم دعنا من هذا أيضاً ولنسأل : لماذا قلنا ان لنا روحاً لها كيت وكيت من الصفات والامتيازات ، ولم نرض للحيوان ببعض شيء من ذلك ، بل حكمنا عليه حكماً قاسياً وشبهناه بالآلات الصناعية المحضة مع أنه يشاهد فيه ادراك وفكر واختيار ؟ ألا يعد هذا من الجور في الحكم ؟ ان كنا نحكم لأنفسنا بكل تلك الامتيازات بناء على ما لدينا من الادراك والفكر ، فلماذا لا نحكم بشيء من ذلك لتلك الحيوانات أيضاً وفيها ما هو أعقل وأحكم من كثير من متوحشي النوع الانساني ؟

كل هذه الشبهة ترددت في نفس الانسان من زمن مديد فكان يحاربها بما لديه من الأسلحة العلمية النظرية ، والقضايا الكلامية المنطقية ، ولكننا اليوم في عصر تشبعت الأفكار فيه بأن العقيدة اذا لم يسندوها من جهة الحس دليل ملموس ،

جاز أن تكون خرافة كما ثبت ويثبت مثله في عقائد المتوحشين ، فما المخلص
ليوم من هذه الشبه الهائلة والشكوك المتعاصية ؟

اضطربت هذه المسائل في عقول علماء الغرب اضطراباً شديداً ، استدعاه
غلواء أبناء ملتهم في التشدد في العقيدة ، والجمود على خرافات الأقدمين وتهالكهم
على تقليد أسلافهم ، ولو نابذ العلم وجافى البديهة العلمية ، فحملهم هذا التفريط
الى افراط أشد منه ، فنهضوا نهضة المنتقم ولم يدعوا صقعا من أصقاع الأرض
الا وذروا فيه من هذه الشبه ما لا يدع للعقيدة محلا في النفس ، وتذرع حزبهم
لذلك بكل وسيلة حتى زعموا أن العلم عدو العقيدة وعدو كل ما يثمره الفكر
المجرد ، وانه سينتهي أمر هذا التنازع بين العلم والعقائد الى تلاشي هذه الأخيرة
مرة واحدة ، وطفقوا يفسرون كل مجاهيل الوجود بالنواميس الطبيعية المعروفة ،
ويحلون جل المشكلات الكونية بالقوانين المكتشفة ، فوقعوا في تفريط مخجل
كانت غايته تشويه حياة الانسان وسلبه أغلى مسلياته ، والهبوط به الى عالم
الحيوانية السفلى ، وآل الأمر الى خلل في تركيب معناه السامي ، وفساد في
جوهره المكرم ، مما سنلم به ان شاء الله في موضعه المامأ لا يدع للاستزادة
مساغاً .

هذه الطائفة انكرت الروح والخلود والبعث والحشر والعقاب والثواب
وزعمت أن ذلك كله من خيالات الافكار القديمة وبقيّة من بقايا السالفين ،
سلاشها العلم والعرفان ، ويجعلها التمدن في زوايا النسيان ، فانهم لذلك
بوجون في قفص من الحيرة ، ويضطربون في غيب من الوحشة ، واذا بآية
عظمى ، وقارعة كبرى ، ظلت الأعناق لها خاضعة والرؤوس اليها منكسة
والألباب أمامها حائرة ، والعقول بازائها باهتة ، واذاهم بالتنويم المغناطيسي
والاستهواء ثم تلاء فن استحضار الأرواح وتجسدها ، فهوا ينابذون تلك الخوارق
جريا على سنتهم السابقة مع كل ما يشم فيه عالم ما وراء المادة . ولكن هيهات ،
تزل تلك الخوارق تحترق كل ما سدلوه أمامها من الحجب ، وتمزق ما وضعوه

حياتها من الأغشية ، حتى دخلت دور العلوم ، وغرف العلماء ، وقصور الملوك ، ومكاتب السياسيين ، وثكنات رجال الحرب ، ولم تدع مجالا من مجالات الحياة الا وجالت فيه جولة استلفتت لها الانظار والبصائر ، فلم يمر ربح من الزمن الا وعشرون مليوناً من العلماء والرؤساء يعتقدون بها ويرجونها بواسطة مائتي مجلة تطبع وتنتشر في العالم اجمع بجميع اللغات الحية . فماذا كان من نتيجة هذه القارعة العظمى ؟ كانت النتيجة انهزام الماديين هزيمة كبرى لا يقوم لهم بعدها علم ، ولا يرفع لهم صوت . ولكن اين الشرقيون من هذه الانقلابات المدهشة ؟ اين شبانهم الذين تعلموا اللغات الاوروبية وتشبعوا بفلسفتها الاحادية فينظروا كم في ضمائر الغيوب من آية وكم في رحمة الله من سعة ؟

يقول قائلهم اذا انتهى الى هذا الموضع : هذا تجسيم لوهم وتجسيد لخيال قام ببعض العقول الساذجة في أوروبا فطنطنوا به كما هي عادتهم في كل أمر ، فقام صاحبنا هذا يردد صدامهم ، ويؤمن لدعاهم ، بدون تحكيم العقل ، ولا استقصاء العلم . هذا مما يمكن أن يقوله بعضهم ممن لم يطالعوا في هذا الأمر سطوراً ، ولم يحيلوا فيه فكراً ، مع أن الحقيقة فوق ما صورناه ، وأهمية تلك المسائل اليوم بين العلماء أكبر مما ذكرناه ، وسيرى مطالع مؤلفنا هذا مما سنرويهِ عنهم ، ونسندهُ الى علمائهم وفلاسفتهم خاصة من الذين كانوا بالأمس ماديين لا يصدقون بشيء ، مما يجعله يقول كما قال الأستاذ الأمير كي الشهير (هيزلوب) « العالم على وشك حصول انقلابات كبيرة » ويردد ما فاه به العلامة (لودج) الانجليزي : « إن الحائط الموجود بين العالمين المادي والروحاني أخذ يرق شيئاً فشيئاً وسينتهي أمره بالزوال مرة واحدة » ويرجع ما قاله الأستاذ الألماني (كارل دوبرل) « العلوم الطبيعية تجارت على التكذيب بعقيدة الآخرة فسيقبها الله بأن يجعلها تقيم على وجودها البرهان القاطع »

أما كتابنا الرابع فسيكون موضوعه حياة سيد الوجود صلى الله عليه وسلم ...

ولا نعلم بحثاً أدق موضوعاً، وأدعى إلى العناية والاهتمام بالنسبة للعالم الإسلامي بل الانساني من هذا الموضوع السامي . اذا كنا نعتقد أنه لا سبيل الى صلاح حال المسلمين ولا طريق الى استردادهم لمجدهم القديم وسؤددهم الأثيل ، الا بالرجوع الى دينهم الفطري خالياً من درن البدع التي ألصقت به ، والقائمهم بأنفسهم بين يديه ، فلا يتأتى ذلك البتة الا بالمأمهم بماهيته واسرارهم ، ووقوفهم على حقيقته وأنوارهم ؛ ولا يمكن الوصول الى تلك الحقيقة النقية ، وذلك النور الناصع الا بدرس ذلك القلب السامي الذي أشرق فيه هذا الدين بادية بدء ثم انعكس منه على غيره . بهذه الطريقة نستطيع أن نعرف ماهية الدين في ذاته ونذكر كنه تأثيره على المعنى الانساني النقي من ران الوسوس ، فنكون بهذه الصفة قد درسنا الشيء في منبعه ، واستشرقنا البدر من مطلعته .

نعم إن درس هذا الفؤاد الكبير أمر عسير ، بل إدراكه على حقيقته مستحيل حتى من لم يبلغ مبلغه من السمو الروحاني ، ولم يضرب مثله بسهم من العلماء المملوكوتي لأنه لا يعرف الفضل الاذو والفضل ، وهيهات ان يحدد التصور درجة ذلك القلب العالي من - الم القدس ، أو أن يشرف على منزلته من حظائر الملأ الأعلى ؛ ولكن الخالق العليم إذ أراد أن يكون ذلك الرسول الكريم الواسطة العظمى بينه وبين عبادته ، والناشر الأمين لكلمته العليا ونورد الفياض بين مخلوقاته ، أبدعه على صورة ينجذب اليها كل نوع من أنواع العواطف الشريفة ، ويتعرف اليها كل جنس من أجناس العقول الانسانية ، ليصح أن يكون حجة الله على خليقته ، وسبباً لأفاضات الرحمة على عبادته ، ولو كان على غير تلك الصفة لكان للناس عذر في عدم التصديق به لعلوه عن متناول عقولهم ، ولعدم وجود نسبة بينه وبين عواطفهم وأميالهم يتوصلون بها إلى ادراك وظيفته ، ولجاز أن يرسل الله اليهم رسلاً من الملائكة وهو مما تأباه الحكمة الالهية ولم تجر به سنته تعالى بين البشر .

الانسان مهما سفل في حضيض النقص والخسة ، وانحط الى دركات النقي والدناءة ، فلا يعدم خاصية التمييز بين القبيح والجميل ، ولا يفقد صفة الانجذاب الى

الكمال حيث يراه . والنفوس وان كانت تتفاوت مراتبها في هذه الخاصة ، وتتفاضل احساساتها في تلك الصفة ، الا أن الجمال والكمال في ذاتها قوتان جذابتان ، ولو تجلستا لنفس من النفوس قاومتا كل ما يعترضهما من حجب الغفلة وأستار الحرمان ، وأثرتا على الفؤاد الانساني مهما كانت صفته تأثيراً لا يمكن محوه منه بوجه من الوجوه . ألا ترى أن أصحاب الدعارة واحلاس الحسة والدنايا من الناس لا يزالون يحترمون الفضلاء ويشعرون لهم في أنفسهم بإعزاز وإجلال مع ما بين الفريقين من التباين في المشارب ، والتخالف في النزعات والمذاهب ، ولو جردنا النفس الانسانية من هذه الخاصة فماذا نبقى لها بعد ذلك .

السنة الحكيمة التي نشاهدها في بعثة الرسل عليهم الصلاة والسلام ان الله جل وعز يصطفيهم في أمهم من أشرف معاصريهم نسباً ، وأعلام حسباً ، وأقوام جسماً ، وأزكاهم عقلاً ، وأنداهم بالعرف كفاً ، وأكرمهم خلقاً ، وأكثرهم علماً ، وأحكمهم سياسة ، وأرجحهم كياسة ، وأبسطهم بالكارم يداً ، وأوسعهم بالحلم صدراً ، وأضواءهم بالبشر وجهاً ، وأسمحهم بذلة العبودية نفساً ، وأتعهم في مرضاة الله جسماً ، رأفة بالناس ورحمة بضعفهم ، ليسهل الرضوخ لهم من الملك في سطوته ، والشريف في علو عنصره وسمو محتده ، ومن الشجاع في قوته ورباطة جأشه ، ومن الفيلسوف في نفوذ فكرته وسعة حكمته ، ومن السياسي في دقة أساليبه في سلوكه بين رعيته ، ومن السخي في كثرة بذله وتكرمه ، ومن الصالح في شدة تورعه ودقة تحرجه ، ومن العابد في كثرة تهجده وحسن تعبده .

هذه سنة الله عز وجل في إرسال الرسل الى خلقه أخذاً للناس الى طريقه بأشد ما يؤثر على عواطفهم ، وسوقاً له الى صراطه المستقيم بأكبر ما يطاق من كبرياتهم ، ويكسر من شرهم ، ويدلنا الاستقراء التاريخي ان الله عز وجل راعى في بعثة كل رسول أن يحليه من الصفات بأرقى ما اصطلاح قومه عليه من مفاخرهم ، وأسباب سؤددهم ، حتى توجد النسبة بينهم وبين نبيهم ، ثم يكون

هموه في كل تلك المفاخر والمحامد، وزيادته عليها بما يكرمه به الله من إشرافات النبوة، وسبجات الوحي، مدعاة الى الخشوع له، والخضوع لما يحيي به من الأوامر الالهية والحكم التشريعية. على هذه السنة الكريمة أرسل الله سيد البشر محمداً صلى الله عليه وسلم في الحين الذي بلغ فيه الجوهر الانساني غوه، وتم فيه لعقله المكرم نضجه وكاله، وتبينت فيه أشخاص الفضائل والكمالات، وتميزت فيه الحقائق من الخيالات، وعلم النوع الانساني بوقوع الحوادث المتوالية بأن له من الحياة غاية عالية، ونتيجة شريفة سامية. قلنا أرسل الله في ذلك الحين رسوله المصطفى جامعاً لأشتات الفضائل والسجايا، شاملاً لمتفرقات المواهب والمزايا.

ان تخيلت الملوك في عروشها، والقيصر في أهبتها، رأيت أنه صلى الله عليه وسلم أعلام في السيادة كعباً، وأعطفهم على رعيته قلباً، وأشدهم على أعدائه صولة، وأقوام عليه شوكة. وان تخيلت القواد وسط كتابتها، وغطاريف الحرب بين صفوفها، رأيت صلى الله عليه وسلم أشدهم لها مراساً، وأقوام في هيجائها بأساً، وأسرعهم في إدارة رحاها يداً، وأرحهم في إصلاها أسلوباً. وان تخيلت الفرسان في ثبات جأشها، والشجعان في جلد أفئدتها، رأيت صلى الله عليه وسلم أصبرهم في غمراتها، وأجلدهم في هياجها، وأطعنهم بالرمح في صفوفها وأضرهم بالسيف في نحور فرسانها. وان تخيلت الفلاسفة في حكمتها، والمتشرعين في دقة نظرها، في أدواء الأمم وعلاجها، رأيت صلى الله عليه وسلم أحكم العالم قولاً وعملاً، وأنفذ في علل الامم وطبها نظراً. وان تخيلت الشعراء في سعة خيالها، وسبحها في بحار الابتكارات وغوصها، رأيت صلى الله عليه وسلم أبعد منهم في مجال وصف الحقائق مرمى، وأكثر منهم لشوارد المعاني المبتكرة اصابة. وان تخيلت الخطباء في منابرهم، وهي تحلب الأفئدة بسحرها، وتأسر الألباب ببيانها، رأيت صلى الله عليه وسلم أحسنهم بضروب الكلام علماً، وأكثرهم لأفئدة سامعية أسراً. وان تخيلت الزهاد في صوامعها، والعباد في محاريبها، رأيت صلى الله عليه وسلم في الزهد صاحب العلم الأرفع والمقام الأول، وفي العبادة النموذج الاكمل، والمثال الاجل.

من أي جهة نظرت الى سيد العالمين صلى الله عليه وسلم رأيت فيهما نسيج
وحدته ، ووحيد عالمه فاق كل فائق في صفته وبز كل سابق في خاصيته ، وفات
كل ذي كمال كماله ، مما يدل على ذلك بالخص انه النسخة الكاملة للابداع الالهي في هذا العالم
والنموذج الكمالي الذي وضعه الله للبشر نوراً يعيشون اليه . وعلماء يهتدون به اليه .
سيكون موضوع هذا الجزء اذن درس حياة هذه الروح الكبرى درساً مناسباً
لدرجتها . وستكون العلوم العصرية الجديدة أقوى وسائلنا في تجلية هذه الحياة
الكريمة في مظهرها الباهر ، ومجلاها الأسر . متعنا الله بنعمة اتباعه ، وحلانا
من إشراقات روحه الكريمة بنفحة من تعطفاته . صل اللهم عليه صلاة أبدية
سرمدية ، وعلى آله وصحبه وأتباعه الى يوم الدين . آمين .

محمد فريد وجدي



الباب الأول

معرفة الإنسان نفسه

تمهيد

يشهد الوجود بتفصيله وجملته ، وينطق التاريخ الطبيعي بلسان حملته ، بل ويقر الانسان على نفسه بنفسه ، بأن الانسان أبدع الكائنات الأرضية من كل ناحية .

أما من جهة تركيب جسمه ، فهو الصناعة المدهشة للفكر ، الباهرة للمدارك ، قد ركبت آلاته تركيباً متناسقاً ، ورتبت على بعضها ترتيباً متناسباً . لا تجد فيها عوجاً ولا أمناً ، ولا تصادف فيها خللاً ولا عيباً ، اللهم الا ما تلحقه به العوارض التي يجرها على نفسه أو تجرها عليه الطبيعة وفي ذلك حكمة ليس هنا موضعها .

تتحرك هذه الآلات كلها حركات منتظمة ، خاضعة لمحرك فرد ، وفاموس واحد ، فيؤدي كل عضو وظيفته الخاصة به ويبلغ منها غاية خاصة ، فتجتمع كل تلك الغايات المختلفة الى بعضها ، وتأتلف اثتلافاً متناسباً مضبوطاً وتؤدي الجسم الى صراط العدل المستقيم ، وتفيض على جميع أجزائه روح الراحة والصحة الى حين .

عجيب أمر هذا الهيكل الانساني : حركات دائمة ، ومجهودات من أجزائه متواصلة ، لا تهدأ مطرف عين ، ولا تقف لحظة من زمان : قلب يرتجف ،

ومعدة تعمل وعصارات تفرز وسوائل تتحلل وتتركب وترشح وتتصعد .
وغازات تتكون وتصعد . وغدد تحتزن السوائل لحين الحاجة ، ودم دائب
الجريان في أجزاء الجسد ، وخلايا بسيطة تتلاشى وتتكون وتتكاثر الى غير نهاية ،
وكل هذا لا يهدأ لحظة ، ولا يسكن آونة من ليل أو نهار !

اليك من الجسم الانساني مثلاً عجبياً وقس عليه غيره : للانسان عين ترسم
الأشياء على شبكيتها ، كيف ترسمها بهذا الضبط ؟ وكيف تصغرها بكل
أجزائها الدقيقة ؟

يعلم كل من رأى التصوير الفوتوغرافي أن المصور يظل يقرب عدسة آلتة
مراراً ويبعداها ، بعد ما يكون قد أعد لنفسه غرفة ذات أستار محكمة
ونوركاف ، حتى يضبط البعد المناسب ثم يأمر من يريد أخذ صورته أمراً صارماً
بأن يلزم مكانه ويقف أمامه وقفة التمثال لأن أي حركة منه تؤثر على الصورة
فتفسدها حتى أنه ليفشى على بعض العصبيين من تلك الوقفة المضجرة ، وبعد
هذه العملية الثقيلة كلها قد يقف المصور أمام الشخص حانياً ظهره قائلاً : عفواً
يا سيدي ، أرجوك أن تقف مرة ثانية فقد أطارت الريح الستارة التي كنت
أقمتها لحجز الأشعة فدخل منها أكثر مما يلزم فجاءت الصورة على غير ما يجب .

أما العين وما أدراك ما العين ؟ فإنها قد ترسم لك في الدقيقة الواحدة ستين
مرئياً منتظماً مختلفة في القرب والبعد والطول والقصر ، والكبير والصغير ، بدون
أن تتكلف لها مشقة ولا تعباً .

المصور ان لم يتعهد آلتة ولا سيما عدستها الزجاجية بالتنظيف والجلاء كل يوم
فلا تؤدي وظيفتها الا على أسوأ حالة ، أما العين فقد يعمر الانسان مائة سنة
حافظاً لقوة الابصار وبلورية عينه لم تطالبه بشيء من ذلك . ولو أراد صاحبها
تنظيفها لما استطاع الى ذلك سبيلاً بل قد يعيش الانسان مائة وخمسين سنة ولا
يدري من تركيب عينه شيئاً ولا خطر بباله أن يسأل عنه غيره . هذا من حيث
العين وهي من أصغر الأشياء في الجسم . أما اللمس والذوق والمعدة والاعصاب

والأوتار والأوردة والشرابين والقلب والرئتان وغيرها من أجزاء هذا الشكل الانساني فما يحير الفكر ، ويبهز العقل ، ويقضي على الانسان بالدهشة والحيرة حقيقة . كيف لا وقد حيرت العلماء الذين قصروا أعمالهم وأعمارهم على تقصي عجائبها ووقفوا حياتهم لدرسها ، فسبحان « ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » القائل « انا خلقنا الانسان في احسن تقويم » (١) .

هذا حال الانسان من حيث جسمه وأنت تعلم أنه موضوع البحث والفحص منذ ألوف من السنين ، ولم يزل أعجوبة العلم ، ومعجزة الخليقة ، وطلسم الكائنات الأرضية .

أما حالته من حيث روحه ومعناه فبحر لا يدرك له ساحل ، ولانهاية يتوه في أرجائها الفكر ، وينقطع عنها العقل ، وتنحل دونها عزمات الروية ، وتقف أمامها البصيرة حيرى ، والعقل كليلاً .

إذا كانت منزلة الهيكل الانساني من العالم المادي نهاية الابداع ، وغاية الاختراع ، وزهرة الخلق والدليل الظاهر على وجود الحق ، فمكانة روحه من عالم الملكوت السر الالهي ، والنور الرباني ، وصورة الجمال الأقدس ، والكمال الأقدم ، سكنت وهي هي في جماها وكماها أبدع أشكال المادة تركيباً وهو هذا الجسد الانساني ، فناسب الخالق الحكيم بينها مناسبة أوجدت هذه الوحدة المحيرة للعقل التي نراها بين الانسان وروحه ليؤديا باتحادهما وظيفة شريفة في عالم المادة تتميماً لقانون إلهي أبدي . وتكميلاً لإبداع قدسي أزلي ، ان غاب عنا ادراك كنهه ، ففي درس بعضه تسلية في دار الغربة ، ومعز في قرار الهنة .

طبع الانسان على حب ادراك المجاهيل ، واكتشاف المساتير ، وهتك حجب المضمرات من الأشياء ، وتاريخه من أول وجوده لليوم أكبر شاهد على ما نقول .

(١) من أراد التوسع في عجائب جسم الانسان فليطالع في كتابنا (الفلسفة الحققة في بدائع الاكوان)

يشاهد هذا الخلق منه طفلاً وياقماً وشاباً وهرماً وفانياً كأن في صميم معناه زاجراً لا يهدأ يحدوه للبحث والتنقيب ، ووازعا قويا يزعه عن الوقوف في معلوماته عند حد ، فهو من هذه الجهة كأنه خلق ليعلم ، ولو كان غير ذلك لقمع من العلم بقسط معلوم ، ولرضي بأمد منه محدود ، ثم انه من جهة أخرى منهوم بالادراك ، مشغوف بالفهم ، يزيده إدراكه للشيء قوة على قوة فتضاعف خاصية إدراكه على نسبة ما أدرك من معلوماته فيزيد نهمه وينشد طلبه وينمو الى المدركات ولوعه وشغفه كأن خاصية إدراكه غير محصورة ، ومداه غير محدود ولو كان غير ذلك لكان كما ازداد إدراكاً للأشياء قرب من الشبع بما حصل ، والرضاء بما اليه توصل .

إذا جاع الانسان طلبت معدته الغذاء لحاجة الجسم وكان ألم الطلب على قدر عظم الحاجة ، ومتى بدأ الانسان بالأكل أخذ باعث الطلب يقل شيئاً فشيئاً على نسبة حصول الأكل حتى تكتفي المعدة فيفنى عامل الطلب .

أما طلب الروح للعلم وحصولها عليه فليست على هذه السنة ، نراها طالبة للعلم دائماً وكلما نالت منه شيئاً فلا يكون نوالها له مقللاً من شدة الطلب بل منمياً لعامله . ويرى الانسان روحه تدرك ولكن لا يقرب بها ذلك الإدراك من الرضاء بل يزيدها طلباً للإدراك ، وباعثاً عليه ، على عكس ما يحصل في الأمور المحسوسة . كأن غاية الروح أن تدرك علماً لا غاية له ، وكأله نوال كمال لا نهاية بعده .

ما من انسان في الوجود الا وهاله أمر الحياة ، وشق عليه شأنها واحتوشته من أول يوم من ميلاده لآخر لحظة من حياته ، أحوال يرى نفسه بينها كاللذرة الصغيرة ساجدة بين أمواج بحر عجاج تدفعه موجة الى الأمام ، وترده أخرى الى الوراء ، وتتلقاه واحدة ذات اليمين ، وتجذبه الثانية ذات الشمال ، ثم تضغطه كلها بمجموع قواها فتتنازعه في موقف لا أجد له من لغة الانسان وصفاً ، ولا يزال هكذا حتى تشتد عليه الأحوال فتضعف آلات جسمه ، وتهرم أجهزته أعضائه فيودع الحياة ويذهب الى حيث أتى . الى أين ؟

هذا موقف الحيرة ، وموضع الدهشة ، ومضطرب الذهن ، ومزدلق الفكرة .
يولد الانسان فيقوم بتربيته أبوان أو أب واحد أو مرب فيشرب بين تكاليف
ومشاغب يختلس منها اللهو اختلاسا ، وفي لهوه البلاء المحقق ، وهو يعلم ذلك من
نفسه فيشرب في وسط يشكو أهله عين شكواه ويلقي من حياته مثل ما يلاقون ،
فيكبر وفي نفسه ميل الى النجاة مبهم ، وفي قلبه سوق الى الخلاص مضمهر ،
فيفكر في وجه الحيلة ، ويعمل قواه الكامنة في ابتكار الوسيلة فلا يجد أمامه
الا ما يعطيه له ذلك الوسط الذي درج فيه فينساق بطبعه الى التقليد فيقع في
ما وقعوا ، ثم يقف حيث وقفوا ، ولا يسهه الا ان يضم صوته الى اصواتهم في
الأنين فيكون تسليته الوحيدة في دنياه انه تعيس بين تعساء ، وصريع
بين مصروعين .

هذا الموقف المدهش بعث الى قلب الانسان في الأجيال المتأخرة اليأس من
الطمانينة فجعله شعاره الحقيقي اللاصق بضميره ، أما الرجاء فجعله ثوبا عاريا
يتظاهر به بين اخوانه كما يتظاهرون به أمامه . فتجده ان ضحكك فلا يضحك
إلا رياء يتصنع الفرح وفي فؤاده نيران متقدة تحمשה أمور جلى ، وخطوب
عظمى ، يخفيها مضطرا لفقد الآسى وعدم الطبيب . وهو ان أكل وشرب أو
تزين فلا يفعل ذلك الا وهو سادل على صوت ضميره الف غشاء حتى لا يسمع
احتجاجه عليه ولا يعي ما يلقيه من القوارع والقوارص اليه ، فيفش على هذه
الصورة نفسه غشا له في محكمة قلبه عقاب صارم يعرفه ولكنه يتحمله دغم
أنفه لعدم امكانه العيش على غير هذه الصفة ، لأنه لو أصغى الى الصوت الجمهوري
المنبعث من معناه الانساني وعرف ماهية تكاليف الحياة لامتنع عن الأكل والشرب
ولجد مكانه من شدة الأسى على عظم المسؤولية ، وعدم الحيلة المنجية .

ما التاجر في حانوته يقاول ويبايع ، وما الزارع وسط مزرعته يحرق
ويزرع ، وما الصانع في معمله يتفقد ويجهتد ، وما الغني بين أملاكه يحسب
ويحتزن ، وما العاقل وسط الطريق يتمنى في نفسه الأمانى ، الا وهو حامل بين

جنبيه خطوباً تضطرم اضطراماً وأموراً تصطك ببعضها اصطكاكاً لا علاقة لها بأمور جثثانه أصلاً ولكنه لا يعرف لها تحديداً ولا يستطيع لها وصفاً ، ولا يفهم لها مضمرأً، ولكنها من الهول بحيث تريبه أن ما هو فيه من مال ومتاع، وخدم، وأتباع ، وقول مسموع وأمر مطاع ليس بشيء يذكر ، وما هو الا عرض حائل، وظل زائل، ويرى نفسه مفطورة على أن لا ترضى بشيء منها عظم شأنه وكبر أمره، ما دام بين جنبيه تلك العلل المعنوية، والأدواء القلبية .

ما هو هذا الداء الدفين الذي يحرم الانسان من التمتع بملذات حياته ولطائف معيشتة ؟ ما هي هذه العلة السرية التي تنغص قواده ، وتبلبل باله ، وترعجه في إهداء أحواله ؟ هل يصح أن يكون هذا حال الانسان في الوجود مع أنه أرقى الكائنات جسماً ، وأعلى الحيوانات روحاً ، وأقدر من كل ما عدها من الأنواع الحية على استخدام أشياء الكون لمصلحته ؟ كيف يعقل أن يكون حال الانسان على ما وصفناه من الألم والحيرة وهو زهرة الابداع الالهي في عالم الشهادة ، وغاية الاختراع التكويني في الوجود المادي بأسره ؟

كيف يتصور أن يكون الانسان وهو جمال الدنيا وكمال الموجودات، أحوج الى نادبة تندب حظه ، ومعددة تعدد له مصائبه ، وناثحة تنوح على بخته ، من مهنىء يهنئه على أنه انسان لا حيوان ، وذو روح تستخدم الملك والجان ، ووجدان يصور له الحكمة والعرفان ؟ كيف يصل الانسان من فقد التسلية واسوداد القلب لحد أن يعتمد لترويح نفسه إلى إزهاق عقله بشرب الأثرية المحرقة لكبدته ، المفقرة لأهله وولده ، المهلكة لأمنته وبلده ، مع أنه النسخة الكاملة للوجود كله ، والنقطة الجامعة لمتفرق جماله وكماله ؟!

كيف تعلل تسفل الانسان في مطالبه ، واسفاهه في ملذات جسده ، وسلوكه اخس الطرق لنوال مآربه : فيخدع ويكذب ويسرق ويرائي ويقتل مع أنه مستأهل من العلاء العقلي والجسداني لمنصة يقف أمامها الفكر كليلاً ، والبصر خاسئاً حسيراً ؟

لقد استعصى أمر الانسان على نفسه وعلى القائمين عليه من عقلاء بني جنسه . حتى صار عقدة الاشكالات ، ومعضلة الرويات ، وموضع الحيرة والريب ، وأصبح هو نفسه بعد ان كان لا يخشى الا مبيدات الوجود ومهلكات الطبيعة ، لا يرى لنفسه عدواً غير نفسه ، ولا لذاته خصماً غير من يحيط به من أهله وعشيرته .

كيف يصبح عدو نفسه وهي أحب الأشياء اليه . ووجودها أعز الوجودات عليه ؟ وكيف يضحي لا يأمن بني نوعه وهم الذين يجب أن يكونوا كما كانوا قبل المكملين لوجوده ، والمتتمين بأرواحهم لإنالته غاية ما يتمناه من لذة الحياة وطيب العيش ؟

نعم ، أصبح الانسان عدو نفسه على علم منه بما أوصل اليه حياته الشخصية والاجتماعية من الارتباك والتناقض فظل لا هم له الا العمل على ما يبيده ويبدده .

يشهد الانسان بأن الحق قوام كل أمر ، وروح كل موجود ، والناموس الأعم السائد على كل حركة وسكون من أكبر الأشياء إلى أصغرها ولكنه يرى نفسه مسوقاً لمعاكسة هذه العقيدة ، فتراه مرغماً ليركب متن الباطل في كل محاولاته : يكذب في قوله ، ويختل في عمله ، ويتظاهر بالصدق فيما يجبهه ، وبالقوة أمام ما لا يطيقه .

وجعل التصنع ديدنه فاستعمله ، في مشيته وقعدته ونظره وتسليمه وتكلمه وكتابته وغلا في هذا السبيل حتى كادت تكون حياته كلها مبنية على رذائل اخلاق اصطلاح عليها ، ودنايا صفات ألفها ومال اليها ، وانس بذلك لحد أن أصبح يعتقد أن الحياة المدنية تستلزمها وتستوجبها !

تراه يعلم علم اليقين أن للطبيعة قوانين يجب عليه ملاءمتها ، وتوفير مجهوداته على مقتضاياتها ، ولكنه يجد نفسه مسوقاً للسير على عكسها : فيأكل أكثر مما ينبغي ، ويتفنن في أشكال الاطعمة تفناً يسمه بدل أن يغذيه ، ولا يقنع بذلك

كله نبل يدخل الى جوفه من السوائل المحرقة ، والمخدرات المؤيقة ، ما يمتص قوى حياته امتصاصاً ، ويبدد روابط جسمانه تبديداً ، ولا يقنعه الرضاء بذلك على نفسه ، بل يعده بالتعود عليه احسن ما يكرم به صديقاً يزوره ، أو انساناً يود أن يتحبب اليه .

وأصبح الانسان عدواً لبني نوعه لأن الشكل الذي ورط فيه نفسه من أشكال الحياة صار يريه ويوحى اليه أن جميع أفراد جمعيته وبني جنسه مزاحمون له في الحياة لا مساعدون له على تذليل صعابها ، وتيسير مطالعها ، فأضحى يكبد ذهنه ، ويجهد قواه العقلية في وضع العقبات الممكنة أمام من يعمل مثل عمله حتى أن الشركة اذا نجحت في ملاشاة جارتها من الوجود وبلغت الغاية من تبديد شكلها ، عدت ذلك فوزاً عظيماً تنها عليه وتجنب من أجله . وصارت الحكومة من الحكومات اذا توصلت لتوريط جارتها في مشكلة من المشاكل الكبرى وهي أختها في العقيدة والمذهب تحسب ذلك فوزاً عظيماً ونصراً مؤزرراً تحلي من أجله صدور رجالها بالوسامات المرصعة ، وأجسامهم بالحلل المذهبة . وغلت في ذلك حق استباححت في هذا السبيل الكذب ، والرياء ، والمراوغة ، والحيانة !

هذا ما آل اليه أمر الأمم المتمدنة اليوم كما سندرسه درساً مدققاً ان شاء الله في موضعه ، مؤيداً بأقاويل عقلاء تلك الامم وفلاسفتها . ونخشى أن ينالنا ذلك الداء الدوي من طريق العدوى ان لم يقف عقلاؤنا أمامه وقفة حزم واخلاص .

انا لنعلم أن منا من يرى في كلامنا هذا شيئاً من الغلو لأنهم لم يروا بأعينهم ولم يبحثوا بعقولهم هذا الشكل الذي نحكي عنه . ولكنهم لو كلفوا أنفسهم مشقة البحث في حالة القوم من جهات متعددة ولم توقفهم سواحر الصناعة وانوار الكهرباء لعلموا أن الامر اهل مما نصف بكثير ، ولأدركوا ان مسائل الفوضويين وغيرهم من الأحزاب المتطرفة اصبحت جراحاً دامية في جسم تلك المدنية يتوقع منها خطر لا يرأب له صدع ولا يرتق له فتق البتة ، ان لم يتداركهم الله تعالى بشيء من رحمته . نظام حالة القوم الاقتصادية هي التي تضلل عقولنا

في أكثر احكامنا بالنسبة لحال هذه المدنية ، فان المتحمسين منا بشكل هذه المدنية المادية يرون نظام حالة القوم الاقتصادية فيحكمون بنظامها على سائر أحوالهم الحيوية مع أن هذا النظام الاقتصادي نفسه أشد ما تشكو منه أمم الغرب ؛ لانه نظام يجعل الملايين أسراء أذلاء لرجل واحد بيده اسعادهم واشقاؤهم . ولو رأى الشرقيون بأعينهم أن السواد الاعظم من تلك الامم حيارى لا يملكون لحياتهم تصريفاً ، ولا لأنفسهم من الحقوق الطبيعة شيئاً ...

ولو رأوا أن هذه المخلوقات رجالاً ونساء وأطفالاً أسراء مسخرين لرجال يعدون على الأصابع ولا ينالون قوت يومهم الا بشق الأنفس وبذل مهجة الفؤاد امام التنانير المحرقة ، وفي باطن المناجم المظلمة ، لاعتقدوا كما يعتقد فلاسفة القوم (وسترى أقوالهم ان شاء الله) إن وصول الانسانية لهذا الحد من الاثرة وعدم رحمة الضعفاء ، ومن احتقار النساء والأطفال لا بد له قارعة عظمى ؛ وصاخة كبرى ولو بعد حين !

فهل حظ النوع الانساني من الحياة أن توصله المدنية الى إحلال الرذائل محل الفضائل ؟ واستبدال الحق بالباطل ؟

هل يؤول أمر الانسان شيئاً فشيئاً لأن يكون قوام حياته المكر والخديعة والمداجاة والكذب والبهتان والمزاحمات ؟

هذا ما تنافيه البدهة وقدحضه المحسوسات ، إذن كيف وصل العالم المتمدن الى هذا الحد وما هي الأدوار التي دخل فيها فجرت عليه ؟ وكيف ينجو الانسان من الوقوع فيه ؟

وما يزيدنا قلقاً على حالة سجاياتنا الشريفة اننا أصبحنا نرى بأعيننا تسرب بعض تلك المكاريب إلينا تسرباً غير محسوس ! ألا نشاهد تهالك كثير من شباننا على تعاطي المسكرات وتعمير أفنية الملاهي والمنتديات العامة وشغل

ساعات فراغهم بالدنايا والفساسف ، مما يدل على حرج في الصدر وضيق في النفس
وهروب من وجه الحق !

فهل قضي علينا أن ندور في تلك الدائرة مع الدائرين ؛ ونطوف أطوارها
مع الطائفين حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً . أم لم يزل بين ثنيات قلوبنا محل
لقبول الأنوار المحمدية المملوكة تتشربها فتنير علينا مسالك الحياة ، وتحيي في
أرواحنا روح الأمل ، وتكشف لنا من مستور ضمائرنا سر البقاء
وطلمس الوجود ؟

الفصل الاول

العوامل الذاتية

للانسان في باحات حياته مواقف مختلفة تقيمه فيها أسباب شتى وعوامل لا تحصى ، ولكل موقف منها لوازم كثيرة تستولي من فؤاده وتتسلط على عواطفه ، فتجبره على سلوك السبيل الملائم لها الموافق لمراميها رغم انفه وضد ارادته ؛ وربما كان وهو في موقف من تلك المواقف يرى نفسه على هاوية حتفه ، فيريد أن يأخذ بيد نفسه ليحيدها الى ما يعتقد أن فيه سلامته ومنجاته ، فتخور ارادته وتخونه عزيمته ، ويجد نفسه مرغماً على الوقوف أو السير ، كأنه مسحوب من أنفه أو مقود على يده أو مدفوع من جميع جهاته .

الانسان كائن مفكر تقع عليه الحوادث فلا يدعها تمر بدون أن يتعقّلها على وجه ما وقد يقع في تعقّله وادراكه الغلط والقصور ، وقد يخطئ في تحديد نسب النفع والضرر وعلاقتها بوجوده ، وهو يعرف ذلك من نفسه ، الا أنه مطبوع على أن يفتكر في حوادثه ليدرك وجه العلاقة بينها وبينه .

العوامل التي تدفع الانسان بقواها ومؤثراتها فتقف به في ساحات وجوده

المواقف المختلفة ، كثيرة متنوعة متداخلة في بعضها منها ما هو طبيعي ، ومنها ما هو كسي ، ومنها ما وجوده معلق على ازدواجها ؛ ولكل هذه الفواعل سير خاص ، واتجاه خاص ، وتمرجات خاصة ، وتأثير لا يشتهه بغيره ، ثم لا يلبث أن تتلاقى هذه العوامل في نقط من سيرها فتتحد على وجوه وتشارك في أفاعيل وتصير شبكة لا يعرف أولها من آخرها ، والانسان يعرف ذلك في نفسه لأنه يحس بآثارها على جسمه وعقله ، ولكنه مع اعترافه بمعجز وسائله عن الالماس بها يجد نفسه محفوزاً الى تعليل ما هو فيه من صلاح أو فساد بعلم يدر كها ويفهمها ، فلا يرى بدأ من عزو ما هو فيه لسبب أو أسباب ، وتعليقه بفاعل واحد أو بفواعل عدة ، فيظل يقنع نفسه بصدق تعليله وكال إحاطته بأسباب بلاتة ولا يتجلى له قصوره الا لما تهم به الرغبة ، وتنفعل مشاعره للتخلص مما هو فيه ، مسوقاً بما ركب فيه من عاطفة الهرب من المييدات ، والتفصي من أنياب العوادي ، حيث يرى نفسه مجذوباً الى مركزه يحاذب كثيرة ، هنالك يتحقق أن فلسفته في أسباب دائه غير كاملة لإحساسه بأن ثمة فواعل لم تدر في خالده قد سيطرت على إرادته ، وتسلطت على اختياره ، فالزمته مركزه وقهرته على عدم التحول منه . وربما لم يصادف في مبدأ همه ما يجذبه الى مكانه فيجري تحت تصريف إرادته في المجال الذي تخيله أبقى لحياته ، وأحفظ لذاته ، ولكنه لا يكاد يفرح بانطلاقه حتى تصدمه في صدره دوافع ، وتقوم في وجهه حواجز ، لو قاواها تليلاً سحقته مكانه ، وذرت أجزائه في ذبول العواصف ، فيرى نفسه مرغماً على الهزيمة مكرهاً على النكوص على عقبه . إلا أنه مع هذا كله لا يرتاح الا اذا أدرك سبباً لما يؤله وينغصه ، فيعمل فكره ثانية وثالثة فإن كان مسلماً حقاً لا يتطرق اليأس الى قلبه ، بل يظل يلتمس العلة على مقتضى ما فطر عليه من طلب الخلاص وعدم الاستسلام للمهلكات حتى يجد العلة أو يموت باحثاً عنها ليوذع الحياة وداع رجل أدى الواجب ، ليجد بعد أن يخلع هذا الرداء الجسداني قوة في معناه يتابع بها خطته في المروج الى عالم الكمال والجمال ، في حياته الثانية وداره الباقية . وأما إن كان غير مسلم حقاً

يشس من وجود المخلص ، وقنط من رحمة ربه ، ورنًا للوجود بعين اليأس القانط ،
ونشر على حياته غواشي سوداء من أوهامه ؛ وكسفاً مدلهمة من سودائه ،
ويلتجئ لأن يداوي هواجسه ووسا سه بغير دوائها الطبيعي ، فيعمد لإزهاق
عقله وفكره بالسوائل المخدرة ، ويركن في الهاء نفسه الى الملهمات المادية من
مأكل ومشرب ومسكن وملبس ، فيحتاج للمال الكثير ليستطيع أن يعطي
اللهو حقه من العناية ، فيتكالب على إيجاده بكل ما تصل إليه قوته من
الوسائل : بالغش ، بالتدليس ، بالتزوير ، بالسرقة ، بقتل النفس ، وإذا يشس من
ذلك كله قتل نفسه وأرسلها للعدم ، أو عاش على أسوأ حالة يمكن أن يتصورها
خيال الشاعر !

اعتاد أكثر الخطباء أن يشكوا من أنهم لا يجدون لنصائحهم أثراً في قلوب
سامعيهم ، ولا نتيجة لها في تحويل مجاري أعمالهم ، ويبالغون جداً في الأسى
والأسف على صلابة القلوب وخود العواطف ، ويتعجبون جداً من رؤيتهم هذا
الأثر السيء ، ويزيدهم تعجباً ما يعرفون من أن أمثال هذه المواظ كانت تأخذ
بقلوب سلفهم الصالح فتثير كامن قواهم ، وتبعثهم لأقوم السبل الواصلة بهم الى
خيرى معاشهم ومعادهم . ولو سئلنا نحن عن رأينا في هذه الظاهرة النفسية ،
لقلنا إن هذا مما لا يستدعي العجب ، بل يستأزم البحث لمعرفة السبب . لأن
الانسان مفطور على الشفق بنفسه وبكاملها . ومطبوع على حفظها من المييدات
وصونها ، فإن شوهده منه خلاف هذه الفرائز بالنسبة لحال من أحواله ، فلا
يصح أن يقال أنه قد تغيرت فطرته فأصبح مدفوعاً لإهلاك نفسه وولده وبني
نوعه ، ولكن يجب أن يقال : لا بد من ان يكون هنالك عوامل تؤثر عليه
فتقمهه على لزوم مركزه ، وتجبره على عدم التحول من مكانه . وما مثل خطيب
يكثر العجب من هذه الظواهر ولا يكلف نفسه البحث في مظاهرها ليعثر على
أسبابها ، الا كمثل رجل يقوم بإزاء رجل ، مكتوف من يديه ورجليه ،
ويحاذيه تارتمد اليه بلهبها ، فيصبح به أن ابعد أيها الرجل عن النار ، فإنها قد

وصلت اليك أو كادت ، ولما لا يراه يستطيع الحراك ، يأخذ في تقريره وتأنيبه وشمته ويتهمه بالكسل ... أو بالجبن ... أو بعدم الشعور .. ولا يكلف نفسه الذهاب اليه ، وفحصه بيديه ليرى ان كان الحق في عدم حراكه له أو عليه .. ما هو الكسل والجبن وعدم الشعور الخ الخ من الألفاظ التي يعلل الناس بها ما يرونه من أمراض الأفراد والأمم ؟ الكسل ضد النشاط وهو داء كما اصطلاح عليه الناس يمنع الانسان من الاتيان بالحركات اللازمة للأمر المطلوب الحصول عليه . والجبن ضد الشجاعة وهو داء يقعد بالانسان عن مدافعة ما يراه عادياً على ذاته أو ما يرتبط بها ، وعدم الشعور داء يحل بالنفس ، فيمنع عنها نعمة الاحساس بما يلزم التأثير منه .

هذه هي كبرى الأدواء التي اعتاد الناس على تعليل جود العواطف الاجتماعية والذاتية بها ، ولكننا هل نرى الذين نصمم بالكسل في الأمور النافعة العائدة عليهم بالفوائد الصورية والمعنوية كسالى عن التردد على الملاهي والمراقص ، كسالى عن إعداد معدات الترف والسرف ، كسالى عن موجبات الزينة والزخرف ؟ أترى الذين نصمم بالجبن جنباء امام الخمر الذي يعرفون أنه مبيتهم وملاشيهم ، عن القمار الذي يتحققون أنه مفلسهم ومفقرهم ، عن الافراطات التي يتأكدون أنها مسرعه بهم الى خمود حياتهم ؟ أترى فاقد الشعور كذلك بلذات خلاعته وقصفه ، بنعيم مأكله ومشربه ، بلطائف ملبسه ومسكنه ؟

إذا كان الذي يقعد بالانسان عن الالتفات لمصالح ذاته وبني نوعه هي هذه العلل الاصطلاحية لوجب أن يكون الكسلان كسلان في كل اعماله ومحاولاته وعن جميع ما يرتبط بأمور حياته ، لا أن يكون كذلك أمام ما يرجع عليه بالمنافع المادية والمعنوية ، ويكون مثال النشاط والحركة أمام ما يهلكه ويتلفه . ويلزم أن يكون الجبان جبان حيال كل ما فيه مظنة الضرر عليه ، لا أن يكون كذلك بازاء الاخطار التي فيها حياته وحياة ذويه واشجع الشجعان

أمام ما فيه ثبوره وعطبه مما يرتبط بملاذ بدنه . ولكان المعقول ان يكون
الفاقد للشعور فاقدته بكل شيء ، لا أن يكون كذلك بالنسبة لما فيه تلف
ذاته وذوات أهله وبني جلدته ، وأشعر الشاعرين بما له علاقة بلذات بدنه
وسرف نفسه .

إن قيل ان تأثير الشهوات ، وفعل النزغات هي التي تذهب بالنفوس
مذاهب الخور والضعف أمام معالي الامور وشريف الاعمال ، وقيل بها نحو
السفاسف والدنايا ، قلنا : ما الشهوات ؟ ما النزغات ؟ ما الأهواء ؟ هل هذه
كلها الفاظ مجملة قنعنا بها في تعليل أعمالنا التي نرى أنفسنا مدفوعين لها رغم
أنفنا وضد إرادتنا ، وأنسنا بها حتى أخذت من خيالنا شكلا لا يجب أن يكون
لها ودفعنا هذا الشكل الذي تخيلناه عليها الى الخطأ في تكييفها وتصويرها ،
والشطط عن حدود سلطانها ، والبعد عن مداواتها وعلاجها ، حتى جردنا ذلك
الى محاربتها بالفاظ مثلها فاستحالت ادواؤها وعلاجاتها الى الفاظ نتفنن فيها
تفننا وتلاعب بها تلاعبا ، وهيئات ان تنجلي هذه المعارك اللفظية عن حقيقة ،
أو تقف بنا عند حد .

إذا كانت أمراضنا هي مدلولات هذه الالفاظ ، وعلاجاتها ما نطالعه في
الكتب وما نسمعه من قراء الخطب على المنابر وفي المحافل ، فلماذا لم يظهر لها
أثر في تقويم الملكات ، وتعديل الطباع ، والأخذ بأيدينا عن السفاسف ،
والصعود بأرواحنا الى مكانات الفضائل ، ومقامات المكارم ، مع علمك بأن هذا
التشخيص وذاك العلاج مستعملان فينا من منذ قرون عديدة ؟ هل عهد في
طبيعة الانسان ان يأنس بمرضه ويعتاد آلامه ، فلا يلتفت الى علاجه وهو بين
يديه ، ونصب عينيه .

لم يبق فينا رجل إلا وأحس بشر منقلبه ، وضلال مذهبه ومرارة مشربه ،
وتحقق انه مأخوذ به الى حتفه ، ومقود بأنفه الى تلفه ، وليس فينا رجل إلا

وهو يتنسم روح الخلاص بمجموع قوته ، ومذخور وسائله وحيله ، فلماذا لم يصادف من تلك العلاجات المستعملة علاجاً مرضياً ، ولا من القائمين بها طبيباً حفيظاً ؟ اذا كنت تستهجن فكر من يداوي السعال بمحض ذم السعال ، وتشهير ما يجر اليه من الأهوال ، ومجرد النصيحة بالاقلاع عنه بدون إمهال ، فليس من يداوي شهوات النفوس وعلل القلوب بسبها وسرد مخازيها ومشائنها ، والنصيحة اللفظية بالاقلاع عنها بأقل استحقاقاً من الأول لاهمال قوله ، والاغضاء عن مضجرات نصائحه . أليس المصائب اكثر شعوراً بالآلام دائمة ، وأحس به من أفصح خطبائه ؟ فان كانت تلك الآلام لم تهدد الى وسائل النجاة منها ، فكيف تهدد اوصافها ونعوتها ؟ واذا كانت جميع جوارحه ألسنة طالبة الخلاص منها ، وارادته شرهة الى الفكاك عنها ، ومع ذلك فلم يستطع التفصي من حباتها ، ولا النجاة من اشراكها ، فكيف يكفيه أمر من الواعظ بتركها وعدم اتيانها ؟ أليس ذلك يدل اجلى دلالة على أن هنالك عوامل مؤثرة على الانسان تجره على لزوم الصراط الذي ترسمه له ثم تدفعه اليه بمؤثراتها المختلفة دفعاً يسيطر على ارادته واختياره ، ويحكم على عزمته واقداره ؟ نعم ، هذا هو الذي يحسن به كل انسان عني ببحث نفسه ، وهو ما يمكن أن يفسر به سائر الاختلافات الانسانية في العوائد والطبائع ، والفضائل والذائل ، وهو ما يجب علينا أن نبحث عنه بحثاً دقيقاً ونتحسس منه تحسساً ذريعاً لأنه طب الانسان والانسانية ، وطلسم السعادة الذاتية والعمومية فنقول : ما هي تلك العوامل المؤثرة على الانسان ؟ ما طبيعتها ؟ ما حدودها وما وظيفتها ؟ ما هي وجوه اختلافها ؟ هل هي من ضمن نواميس الوجود الثابتة التي لا تتبدل ولا تتحول ، أم هي تابعة لنواميس أخرى متغيرة تظهر بظهورها وتعدم بعدمها ؟ هل هي داخلة تحت إرادة الانسان ويمكن له تغييرها وتحويلها لتفعل عليه فعلاً مناسباً لمصلحته ، أم هي خارجة عن ارادته لا يستطيع لها تحويلاً ولا تبديلاً ، ولا يملك لها تجويراً ولا تعديلاً ؟ ... إن كان الأول فكيف يسلط عليها ارادته ليغير مجاريها على مقتضى مصلحه ، ويحول قوتها على حسب منفعتها ؟

وان كان الثاني فهل هو متمتع بما يخرج به من دائرة سلطانها ليدخل تحت نفوذ فواعل ألقى منها بحياته ؟ إن رُمّت رأينا في هذه المسائل فأليك : إنا نرى نوعين من العوامل سائدين على الانسان ، أحدهما عوامل ذاتية ، والآخر عوامل عمومية . أما الذاتية منها فليست الا ما يحس به الانسان في تركيبه من المطالب المختلفة المتعلقة بحفظ ذاته وتكليفها . هذه العوامل الذاتية الكثيرة كان يمكن تقسيمها الى عاملين عامين فقط : عامل مادي جثائي سلطانه على الامور الجسدية ، وعامل معنوي روحاني سيطرته على الامور الروحانية ، ولكن لسنا في مقام التعميم ، بل نحن في صدد التفصيل حتى لا يضيع علينا شيء من جزئيات البحث ولذلك نقول : الانسان يحس بأنه محتاج للأكل والشرب والسكن والملبس ثم يحس مع هذا بعاطفة حب الموت على غيره في كل ما يشترك فيه معه ، فيحب ان يكون أعلم وأفصح وأجل وأغنى وأولد وأهل من كل من يقع تحت بصره من بني جنسه ، وهو مع هذا كله يشعر في بعض أوقاته عندما يرى الموتى أو يتذكر أنه لا محالة ميت ، أن كل مطالبه الأولى عرض حائل ، وظل زائل ، وإن الأجل من ذلك كله والأكمل ، أن يكون بينة وبين السماء صلة وسبباً ، وعنده من أحوالها علماً وخبراً ، وان ينال فيها بعد موته من الأرض جزاء وعوضاً . هذه أكثر عوامل الانسان الذاتية التي لها الأثر الظاهر في وجوده ، والطابع البين على حياته . فيندفع أولاً وراء ألصق الحاجيات به من مأكل ومشرب فإذا نالها ذهب وراء الملبس والسكن ، فإذا حصلها وارتاح باله من جهة مطالبه الوقتية ، علمت فيه العوامل الأخرى عملها ، وساقته إلى إشباعها ، فيجري أشواطاً بعيدة في مواميتها ، وبما أنه غير محدود القوى ولا مقيّد المواهب فيجري وراء كل منها في المجال الذي يهديه إليه علمه ، ويرى أن في غايته نوال أربه فإن عجز وجد من حيلته ما يساعده على إخفاء عجزه : فيمكر ويداجي ، ويتصنع ويرائي ، ويكذب ويدلس ، ويسرق ويفسد وإن اشتد به ألمه يقتل وقد ينتحر .

هذه العوامل الذاتية فطرية طبيعة لا يمكن تبديلها ولا تغييرها أي أنه ليس

للارادة الشخصية سلطان عليها من جهة الملاشة أو التعطيل ، ولكنها مثل كل شيء في الانسان قابلة للتهدب والترقي ، ورقبها وتهذيبها متعلق برقي الانسان في معارج العلم والمعرفة . فانها بصفقتها الأصلية أي قبل أن تتهدب وتتعدل بارادة الانسان قد تنقلب شر الشرور عليه ، وتكون أسرع في إهلاكه من كل ما يهرب منه من المبيدات والعوادي الطبيعية . ذلك لأنها مغروزة في جبلته على حالة مطلقة غير مقيدة . أودعها الخالق الحكيم على هذه الصفة ليكون أهلاً للمنصة العلية التي خصصها له في عالمي الملك والملكوت وليستحق خلافته على الأرض ، فان وجودها مطلقة يجبره على الاحتكاك بكل ما يقع تحت حسه من أشياء الوجود ، وهذا الاحتكاك يعرفه من أسرارها ويكشف له من ضمائرها ، ما لا يمكن الوصول اليه الا من هذا السبيل .

هذه الدوافع الذاتية دوافع إلهية ، وبواعث ربانية ، طبعت في جبلة هذا الانسان لترفعه إلى المكائات العلا ، والمنصات السامية ، ولتنتشر من سلطان روحه على الكائنات الأرضية ، وتقدم من أيدي حوله وقوته عليها وعلى نواميسها ما لا يتخيله أكبر فكر الآن ؛ ولكن ما أجمل الانسان بنفسه ، وما أهون ذاته في نظره ، وما أشد تغاضيه عن درس قواه ومواهبه ؛ هذه الغرائز والعوامل الذاتية صارت يجهل الانسان واغضائه عن تعديلها وتهذيبها وباهماله في درسها ومعرفة طبائعها ؛ عوامل شر عليه وعلى أهله وبني نوعه ... أحس بضرورة المأكل والمشرب والسكن والملبس ولما حصلها وجد من نفسه ميلاً إلى شيء مبهم ، وشعر بما يدفعه عن الرضاء بحالته والوقوف عند حدها ، فلم يسكن حق يعرف ماهية ذلك الميل إلى الشيء المبهم ، بل اعتراه داء العجلة فظن أن ذلك الشيء المبهم هو الافراط فيما حصله ، والغلو فيما ناله ، فوقف كل قواه على ذلك ، فتفنن في صنوف الطعام واشكال اللباس ، وفي بناء المساكن ورياشها ، وفي أنواع المشارب حق صار كل ذلك وبالا عليه بعد أن كان مقوماً لشخصه ، لما أدى إليه من أنواع الافراط والتفريط والأدواء النفسية القاتلة ، مع أن

المسألة بسيطة في ذاتها لا تعوز منه كل تلك الحمى الهائلة ، فان شعوره بعدم الرضاء بما حصل ليس سببه قلة ما وصل اليه ، وإنما هو باعث وجداني يلفته إلى أنه لم يخلق ليأكل ويشرب فقط فان ذلك مما يشاركه البهائم فيه وربما كان منها ما هو أقل جهاداً في نوال مقومات ذاته منه ، وإنما خلق لأمر عظيم يؤديه للعالم ، ولوظيفة كبرى لا تتم إلا به في عالم الشهادة ، فلم تذهب به هذه المذاهب المضللة إلا إهماله في درس مواهبه وملكاته .

كذلك غلط الانسان من جهة تكميل ذاته فتاه في متائه كلها خطر عليه وعلى بني نوعه : فانه لما أحس بعاطفة التكمل والاعتلاء حسب أنه يؤدي مطالب تلك العاطفة بالتفضل على غيره في المزايا التي يشترك فيها معه سواء فبذل غاية جهده في هذا السبيل ، ومال لأن يكون أغنى وأعلم وأفصح وأولد وأهل والخ الخ من مجاوريه ، فنشأ التحاقد والتحاسد والتباغض والتسافك ولو صبر قليلاً أو لو اصغى إلى الرسل الكرام الذين لم يحرمه الله منهم أو من تعاليمهم من أول وجوده لليوم ، لعلم أن اشباع تلك العاطفة العالية لا يتأتى بالتعالي على غيره بل بنوال مراكز روحانية هو مستعد لنوالها بالفطرة ، وأن أمثاله من بني نوعه ليسوا بمزاحمين له في الحياة بل هم أعوانه وأنصاره فيها ، فكان يحل بينهم الوئام بدل الخصام والسلام بدل الحرب ، والتحاب بدل التباغض ، والترافد بدل التناهب ، وكانت الحياة الانسانية أجمل أشكال الحياة لا أن تكون مجال صراع وقراع ، وميدان نضال وضراب ، ومضماراً لسفك الدماء وقيم الأبناء .

من يرد أن يعلم أن كل هذه العوامل بدل أنت تكون كما هي الآن أسباب الافراطات والتفريطات المبيدة للانسان ، كالتحاقد والتباغض بين الأفراد والشعوب ، يمكن أن تصير عوامل ملكوتية تبعث الانسان للرقى المادي والمعنوي ، والكمال الجسداني والروحاني بمحض تعديلهما وتهذيبها بالانصياح لأوامر خالقها وواقعها ، فلينظر إلى ذلك التبدل السريع الذي حصل في الأمة العربية في بضع وعشرين سنة . ألا ترى كيف استحال ذلك التباغض والتنازع

والافتراق إلى تحاب وتعاطف واجتماع ؟ كيف حصل هذا.. أتبدلت الفِطْرَة أم جاءها ما لم يكن فيها من قبل ؟.. لا شيء من ذلك.

وإنما هي روح التهذيب الالهي الذي أنزله الله على رسوله الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم سرت إلى تلك الأرواح فأزالت ما كان يحجب عنها نور الحق فدارت في مجاريها الأصلية فتأدت إلى تلك النتيجة الطبيعية ، وهي نتيجة أدهشت المؤمن والجاحد على حد سواء ، فكيف لا تهتز العواطف شوقاً إلى معرفة أسرار ذلك التهذب الذي يجعل قلوبنا وأرواحنا مستعدة إلى مثل هذا الكمال المحبوب ؟ وكيف لا تلتهب الحمية غيرة للوصول إلى مثل ذلك النعيم الملكوتي الجدير بحياة الانسان ؟ وكيف لا يهيم الانسان لمعرفة تلك الفواعل القاهرة التي تصدنا عن الانتفاع بتعاليم خالقنا الحكيم (الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) القائل (إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً) ؟ ذلك ما لا يمكن الخوض فيه إلا بعد معرفة ماهية العوامل العمومية .



الفصل الثاني

العوامل العمومية

أو

(روح الجيل العمومية)

ما قلناه في الفصل الماضي عن العوامل الذاتية التي تتنازع الانسان فتوقفه من باحات وجوده المواقف المختلفة رغم أنفه وضد إرادته ، لا يكفي في تفسير ذلك التناقض الهائل الذي يشعر به الانسان في ذاته بين علمه وعمله وبين عقله وإحساسه ، وليس فيه ما ينقع غلة الباحث عن كمال نفسه ، المغرم بالاستقامة على صراط العدل المستقيم . وقد أشرنا نحن إلى ذلك في بحثنا عن عواملنا الذاتية رعلقنا بلوغ الغاية من هذا البحث على العوامل العمومية التي هي موضوع كلامنا اليوم .

أصدق العلوم أثراً في تحسين حال الانسان من جهة صورته ومعناه ، وأقواها عاملاً في آفاته ما يتمناه ، من سعادة دينه ودنياه ، ما كانت أصولها مستمدة من حقائق الكون ومشاهداته ، وفروعه منتزعة من حوادثه التي تشاهد آثارها

في كائناته ، لا مما يتصيد الفكر تصيداً من أرجاء الخيال وخطرات الأفكار
المجردة . لهذا لا مناص لنا ، ما دمنا نرجي الوصول إلى نتيجة محسوسة ، من
سرد كثير من الحوادث سرداً استقرائياً ، وجمع ما تشابه منها إلى رابطة
واحدة ، والسعي في رد ما تخالف منها إلى أصولها الرئيسية ، واستنتاج القوانين
السائدة على كل نوع منها استنتاجاً تحليلياً محسوساً ، والاجتهاد في رد تلك
القوانين إلى مبادئها الأولية ، لإمكان تحديد روحها العمومية ، بطريقة يفهمها
الخاص والعام فهماً جلياً ، وهو عمل شاق جداً يستدعي من الكاتب عدم الطيش
أمام الحوادث ، وثبات الجأش حيال ما يصادفه من المتناقضات الكبيرة ،
ويستلزم من القارئ كثيراً من الصبر والجلد حتى تشرق له الحقيقة اشراقاً كاملاً .

رأينا أن مجرد معرفة الانسان بطريق العلاج لا يكفي في اقامته على
منهاجه ، ولا يجدي في تمشيته فيه ، وضربنا لذلك الامثال العديدة في فصلنا
المتقدم ، وقلنا لا بد من أن يكون هنالك عوامل عمومية تسيطر على ارادة
الفرد الواحد فتوجهه كيف شاءت ، بل على الامة برمتها فتسوقها الى الطريق
الذي ترسمه لها وتدفعها اليه دفعاً فتسلكه مضطرة لا مختارة ! فما هي تلك
العوامل العمومية ؟

مناقشة في التعليقات المصطلح عليها :

يقولون ان سبب ما يقع فيه الواحد والامة بأجمعها من الخبط في الأحوال ،
والخلل في الاقوال والاعمال ، واللوث في الشؤون الخاصة والعامة ، هو عدم
الدين الهادي الى سوء السبيل ، أو ضعف الارادة ، أو الجبن ، أو عدم التربية ،
أو الجهل الخ .

نقول ؛ كل هذا صحيح ، ولكن كل هذه العلل لوازم لتلك العوامل لا هي
بذاتها ، والمدار في مداواة المرض على معرفته بذاته لا مكان مكافحته مكافحة

حقيقية، أما مكافحة لوازمه رأعراضه فلا يكون من ورائها غير اضاعة الوقت في مصاولة شيء لا يتلاشى حتى يتجدد ، ولا يسكن حتى يتهيج .

فما هو ذلك العامل القوي الكبير ، أو العوامل القوية الكبيرة التي انتزعت منا الدين انتزاعاً ، وما هي تلك المؤثرات الخارجية الهائلة التي اخترقت اغشية أفئدتنا وسرت فيها سرىانا سحرىا حتى وصلت الى مكانه من صميمها فأجلته منها اجلاء غير محسوس ؟ وما هي تلك الفواعل الشديدة التي عدت على الفطر فمسختها ، وعلى الوجدانات فغيرتها ، وعلى العواطف فحولتها ، وعلى المشاعر فثلثتها ، وعلى الاميال فحورتها ، وعلى المدارك فضللتها ، حتى صرنا ونحن أبناء الدين ، واساطين العقائد ، واراكين الايمان ، وأحفاد بناء الحقائق ، نلتبس الدين فلا نجده ، وننشده فلا نهتدي اليه ؟ ما هي هذه العوامل المدهشة ؟ ما طبيعتها ؟ ما حقيقتها ؟ ما حدودها ؟ ما سلطانها ؟ ما آثارها ؟ كيف تنشأ وكيف تؤثر ؟ هل هي متعلقة بطبيعة الهيئة الاجتماعية ؟ هل مرتبطة بتطورات الافكار والمعارف ، هل هي نتيجة من نتائج العلم أو أثر من آثار الجهل أو هي لازم من لوازم الرقي المادي أو هي صفة من صفات طور مخصوص من أطوار الحياة ؟ هل هي في ذاتنا وفينا مادتها ومنا روحها ، أو هي عارضة علينا من سوانا ؟ ان كانت منا فكيف نشأت ؟ وكيف تطورت وتدرجت ؟ وان كانت عارضة علينا من غيرنا فكيف جاءت ؟ وبأي وسيلة عملت فينا هذه الافاعيل ، وكيف واجهت معاهد عقائدنا فحللتها ، وصادمت صروح تقاليدنا فهدمتها ؟

لا مشاحة في أن التنازع بين العقائد الراسخة والفواعل العارضة ، شديد عنيد فمتى بدأ ذلك التنازع ، ومتى شعرت به الامة ، كيف كانت الحرب بينها في أنفسنا وبأي وسيلة حصلت الغلبة للثانية دون الأولى !

اعتدنا أن نقول أن سبب هبوطنا عدم الدين ، ولكننا لم نكلف أنفسنا بالبحث عن ماهية الدين ولا عن مكانه من أفئدتنا ولا عن مادة بقائه ونمائه ،

ولا عن جرثومة فئائه وتلاشيه هل هو روح نحل بالنفوس من الخارج فتقيمها على طريق مخصوص ؟ أو عاطفة ذاتية من عواطف الفؤاد تتيقظ فيه بسبب من الأسباب ، وتنام وتتخدر بسبب آخر ؟ ان كان هو روحاً نحل بالنفس من الخارج فكيف يكون التهيؤ لقبولها ، وكيف يعد الانسان نفسه لتحل فيه ؟ وان كان عاطفة من العواطف المفروزة في جبلتنا فأين مكانها منا ؟ وما هي أسباب تيقظها وما هي علل نومها ؟

دعنا من كونه روحاً خارجية ، أو عاطفة نفسية ، فهل هو ضروري في ذاته ؟ هلا يمكن أن يقوم مقامه عامل غيره ؟ كيف قامت أمم اوروبا بدونه ، وادعت أنها استغنت عنه ؟

هذه كلها مسائل يجب حلها حلاً فلسفياً تحليلياً محسوساً ليخرج الانسان من تلك المجهيل المظلمة التي كونتها حوله تلك الألفاظ الضخمة ، والتعبيرات المفخمة ، التي لا طائل تحتها ولتنجلي أمامه هذه المتناقضات الكثيرة بين ما يسمعه من مرشديه وما يراه بعينه من الحوادث الكونية ، ولتنجلي له جلالة وظيفة الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام تجلياً باهراً في مجلالها المعجز . فلقد ساء فهم الناس في أولئك الرجال الفخام الذين اصطفاهم الله من بين سائر الأنام فظن كثير منهم أنهم لم يعملوا الا أن دعوا الناس الى شيء فاتبعوهم وقادوهم في طريق فانقادوا فيه ، ووجهوهم لغايات من الحياة فتوجهوا اليها ، فكان من شأنهم ما يرويه لنا التاريخ من جلائل الأعمال ، ومدهشات السير ، ويغيب عن أفكارهم أن معالجة أدواء النفوس وتمريض الأفتدة الغرقى في دياجير الفتن ، ومراس الطباع المتسمة بسموم المفاسد ، أمور لا يقدرها قدرها الا الذين سبروا علمي النفس والاجتماع البشري ، خصوصاً ما كان منها مختص بالعالم القديم أي في الزمن الذي أرسل الله تعالى فيه أولئك الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وقد تخيل بعض الناس أن معالجة تهذيب المتوحشين أسهل وأيسر من معالجة المتنورين ، وهو ظن فاسد ، فقد أثبت علماء الانسان ، أن المتوحشين

أشد الناس إباء لدعوة الدعاة ، وأكثرهم استمضاء على هدايتهم . وقد لبث
المبشرون المسيحيون فيهم آماداً طويلة ولم يبلغوا منهم ما يكافئ محاولاتهم ،
رغماً عما يبذونه لهم من اللطف واللين ، وما يبذلونه لهم من الرشا والهبات
وحسن اللبس والسكن ، وقد أثبت الأستاذ (أرثوردوليا) في كتابه
(الإنسان على حسب مذهب داروين) إن من المتوحشين الذين يخضعون للمبشرين
من يتظاهر بالدخول في المسيحية ظاهراً لينال قسطه من الخبز والتبغ والشاي
ولكنه في الباطن على مذهبه الأول لم يتحول عنه قيد شبر .

من هنا يرى أن حل المسائل التي أشرنا إليها كما يكون من ورائه نفع
للشخص من حيثية تكله وتهذبه ، كذلك يكون من ورائه ادراكه لجلالة
وظيفة الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام ، وتحقيقه بأن كل من لم يتبع
نهجهم خطوة بخطوة في سبيل ترقية الأمم لا يفلح في دعوته ، ولا ينال سوى
الحنية الفاضحة من وراء جهاده .

وإذا علق هذا الهبوط الذي نحن فيه على ضعف إرادتنا ، وقلة مادة همتنا ،
نقول لماذا ضعفت إرادتنا وقويت إرادة غيرنا ؟ وما هي الإرادة في ذاتها
بالنسبة للفرد في نفسه وبالنسبة للأمة في مجموعها ؟ كيف تنشأ وكيف تنمو ؟
كيف تقوى وكيف تضعف ؟ هل هي تابعة للزواج ؟ هل هي مرتبطة بصحة
الإنسان ومرضه وبقوته وضعفه ؟ هل يمكن أن تقوى الإرادة بعد أن تضعف ؟
وما هي الأسباب التي تقويها وتؤيدها ؟ ألا يكفي في تقوية الإرادة أن نرى
أنفسنا مسوقين إلى التلاشي ؟ وإذا كان هذا لا يكفي في تقويتها فأى شيء أشد من
ذلك تأثيراً عليها ؟ هل الأمم القوية الإرادة قوت إرادتها بنفسها ، أم نشأت
قوية الإرادة ولم تفكر في ذلك يوماً من أيام حياتها ؟ هل تقوية إرادة الأمة
متعلق بالفرد على حدة أم بالمجموع ؟ وهل أسباب ضعف إرادة الأمم آتية إليها
من ذاتها أم تأثيراً من الأمم المرتبطة بها ارتباطاً ما ؟

وهكذا يقال في الأسباب الأخرى التي نتخيلها لتعليل ما نحن فيه من الضعف كعدم التربية والجهل والجن وغير ذلك . ومهما ترقينا في انتحال العلل والأسباب فلا تزال نرى في أنفسنا داعياً الى اختراق صفوف تلك العلل الى العلة الرئيسية التي تهدأ اليها النفس ، ويسكن بها اضطراب الفكر ، ويركد منها جيشان الروية .

قلنا مراراً ولم نزل نقول أن اكتفاءنا في تعليل مضانكنا بالألفاظ الضخمة ، والمبارزات المفوّقة ؛ هو الذي ضلنا في مدركاتنا ، وصغر في أعيننا وظيفة تربية الأمم ، وشجع كثيرين منا على التكلم في علم الاجتماع البشري ولم يقرأوا فيه كتاباً بسيطاً ؛ لا جرم يكون نتيجة هذا أن يصبح الناس هنا كلهم فلاسفة اجتماعيين ، يشخصون أدواء الأمم ويصفون علاجاتها وصف الطبيب النظامي بغاية الجسارة والحرية . ولم لا يكونون كذلك وقد اختصروا العلل الاجتماعية في كلمتين : (عدم الدين وعدم التربية) وجمعوا سائر علاجات الأمم في نقطتين أخريين : (الدين والتربية) فصرت ترى أفكار الناس تتراوح بين وصف عدم الدين وعدم التربية ، وبين وصف مزايا الدين ومزايا التربية ، حتى اقتصرت أكثر الكتابات على ذلك وصار الكلام كله ترديداً في ترديد لا يختلف عن سابقه شكلاً ومعنى إلا على قدر نسبة اقتدار الكتاب في التصوير ، ومهارتهم في ابتكار أساليب التعبير والتجوير ؛ وإذا كان هذا كافياً في معالجة أدواء الأمم وبعث الحياة اليها ، فالأمم الشرقية اليوم أعلم أمم الأرض بدائها ودوائها ، وأقدرهم على النهوض بنفسها من وهبتها . وإذا كان الأمر كذلك فما الذي يأخذ على متنفسه فيكبحها عن العمل ، وما الذي يسكها في مركزها وينعها من التقدم خطوة الى الأمام ؟ ..

قول القائل ان تأخرنا سببه عدم الدين يشبه قوله ان سببه عدم الفضائل الاجتماعية والذاتية . وهو صادق في كلا الزعمين ؛ ولكن ما هو الدين وما هي الفضائل ؟ اذا سهل عليه أن يسرد بعض قواعد الدين وبعض أمهات الفضائل

ويقول ها هو الدين وها هي الفضائل ، فلا يدل ذلك على أنه فعل شيئاً غير
ترديد عبارات قرأها في بعض الكتب أو سمعها على السنة بعض الخطباء ، وهذه
التعبيرات الضخمة كما ليس لها أدنى تأثير في تحسين حالة القائل الشخصية ،
تعديلاً لطبعه ، وتهذيباً لنفسه ، كما يقر هو بذلك ويعترف به ؛ كذلك ليس لها
أقل أثر في المجموع كما يرى ذلك بعينه . وقد اعتلى الجبل الأول من المسلمين إلى
ذروة من الفضائل الذاتية والاجتماعية يكاد الانسان يعد أخبارها من الشعر ، ولم
يقرأ الفاضل منهم ولا كتاباً واحداً في علم الأخلاق ، بل ولم يكن يستطيع أن
يعد من أمهات الفضائل وحدودها وآثارها ما يستطيع اليوم أن يعده رجل من
أحلاس الرذائل يكون قد قرأ في علم الأخلاق كتاباً ؛ فهاذا أغنتنا تلك الألفاظ
الفارغة ، وماذا ضر آباءنا الأولين من عدم معرفتها .

يقولون : أن سبب تأخرنا عدم الدين ولا بد لنا من الرجوع إليه ، والتعويل
عليه ، ونحن وكل صغير وكبير ، وعالم وجاهل من المسلمين ، نقول ذلك . ولكن
ليست هذه هي النقطة الصعبة من المسألة ، بل النقطة الصعبة التي يجب حلها هي
ابتكار الوسيلة التي بها يرجع المسلمون إلى الدين بقوة طبيعية دافعة مثل سائر
القوى التي تدفع الأفراد والأمم إلى أي موقف من مواقف الحياة .

أقم نفسك متأملاً قليلاً فيما يدور حولك ، وتخيل أولئك القوم الذين يعمر
محلات الملاهي والمراقص والمواخير والحانات من بعد غروب الشمس إلى مطلع
الفجر ، وتدبر جيداً تلك الحركة النشيطة والروح التي تديرها وتدبرها ، وتبصر
في القوى ذات الأشكال الكثيرة التي تستهلك في تلك المجالات الابليسية الموبقة ،
وصور نفسك الناس وهم داخلون إلى تلك المحلات أفواجاً أفواجاً يتدافعون
بالمناكب ويتزاحمون إلى الصفوف الأولى تراحم العطاش على الماء . أو الجياع إلى
الغذاء ، ووجوههم تتألق بشراً وسروراً ؛ وجيوبهم تصيل لجيناً وتبرأ . ثم تأملهم
في خشوعهم وانصاتهم ، وسكون حركاتهم حيناً يغنيهم المغني أو تتأمل أمامهم
الراقصة يميناً ويساراً .

دع هؤلاء جانباً ثم صور لذهنك أولئك القوم الذين يعمرّون المساجد !
أنظرهم في قلة عددهم ، وفتور حركاتهم ، وانكماش كل منهم في نفسه ، حتى ليود
الرجل منهم أن يصلي في صف وحده من شدة ما يحس في نفسه من الاستقلال
وعدم الارتباط ، تأملهم في يوم الجمعة أثناء خطبة الخطيب ترى السآمة والكلال
قد ألقيا أستارهما على وجوه الكثيرين منهم ، وترى من القرائن ما يدلّك على أن
فكر كل منهم قد شطح في مجال من مجالات مصالحه الخارجية ، وان زدت في
انتقاد الوجوه بدقة وجدت منهم من تتراوح رأسه نعاساً فلا يهب حتى يقوم
الناس للصلاة ، فإذا تمت هرعوا إلى الباب كأنهم خارجون من سجن مظلم ، لا
يلوي أحد على صاحبه ، قد أخذ التقاطع منهم مأخذه ، وفعل التهاجر فيهم
فعله . تخيل حال هذين القسمين ثم فسر لنا سر هذا المعنى المدهش ، وأوضح لنا
طلسم هذا التناقض المستغرب ؟

الأولون من أصحاب الخلاعة يعلمون أن ما هم فيه سبب فسادهم وفساد بلادهم
ويسمعون عن ذلك كل يوم في الجرائد والمجلات من أنواع الزجر والوعظ
والنصح والارشاد ما يذيب الصخر لو يفهم ، ويسحق الحديد لو يدرك ، ومع
ذلك لا يزدادون الا جرياً وراء ما هم فيه من بذل ماء الوجه وماء الحياة ،
وانضاب معين الثروة والحط من كرامات الأسر ، والقضاء المبرم على الشرف
وحسن السيرة . ويعرف الآخرون من أصحاب التدين أن ما هم فيه هو عين
الفلاح والنجاح ، وبين أيدينا مئات من الكتب والجرائد تنشطهم في حركاتهم ،
وتصيح بالناس للانضمام اليهم ولكنهم رغمًا عن ذلك يحسون انهم الأقلون عدداً ،
والاضعفون جنداً ، ويأنسون من ذواتهم الضعف ومن أشخاصهم الضؤولة ، حتى
يكاد بعضهم يتوارى عن الناس كيلا يرونه في تلك الزمرة .

إذا حضر أحدهم في مجلس اعضاؤه من القسم الأول وخشي فوت الصلاة
فلا يجد من نفسه القوة الكافية لأن يقوم لتأدية مطلوب روحه ، وان وجدها فلا
يقوم من بينهم الا تسللاً ، وان دعوه الى الشراب فلا يجد من نفسه جسارة

يصرح لهم بها أنها حرام في دينه . بل يظل يبتكر لتركه لها الأسباب والعلل الصحية والمالية ويفيض فيما قاله عن ضررها علماء الأجانب وإذا صادف أحدهم في الطريق أو في بيت صديق تراه مع تشبع فكره بأنه جرثومة من جراثيم الخراب والمحن ، وأرومة من أرومات الفتن ، هش إليه وبش ، ودلس على ضميره وغش ، ومد له طنافس الحفاوة ، وبوأه مكانات الكرامة ورفعته على صديق بجانبه يشاطره حلو الحياة ومرها ، ويزامله في قطع مراحلها . وإذا نشأ له ولد سرت إليه مكاريب العدوى من أصحاب القسم الاول ، فكلف باللهو والقصف ، وغري بالشرب والرشف أمدته بالمال ، وأسدل عليه أستار الامهال ، وربما داخله الاعجاب به فوصف تفرنجه في المجالس بلسان الشكوى وهو ينوي التفاخر لما يتخلل عباراته من الابتسامات والفكاهات .

ما سبب هذا التناقض المدهش ؟ ما الذي ينفخ في أنوف أصحاب الخلاعة والاباحة هذه الروح فيجعلهم الأغلين الأغلين مع علمهم وعلم الناس بأنهم احلاس الرذائل ، وزوامل الباطل ، وجرائم دائنا القاتل ، وما الذي يرغم من معاطس أصحاب التدين فيجعلهم الأحطين الادنين مع ظنهم أنهم على الهدى وبمعزل عن الردى ؟

إن قيل لأن الاكثرين من الأولين متعلمون ماثرون وجلهم من أصحاب الكلمة النافذة والقول المسموع ، بخلاف الآخرين فسوادهم الاعظم جهلاء معدمون ، ومتى اجتمع العلم والغنى والمنصب مع شخص رجح في ميزان الحياة الانسانية ولو كان من النقص بحيث يأنف من نفسه ، وفاز على خصمه الصالح المجرد من تلك المواهب الثلاث ولو كان من الفضائل بحيث يكسف نوره ضوء الشمس ... نقول هذا تمحل شعري لا تعليل فلسفي ، ولو صدق هذا التعليل لما انتصر أبداً الحق على الباطل ولما قشعت أنوار الفضائل غياهب الرذائل ، مع أن تاريخ العالم مشحون بما فعله الانبياء والشهداء والصالحون من كسر شوكة المبطلين والغض من أعين الضالين ، والتنكيس لأعلام الطغاة المتمردين مع فقرهم

وضعف وسائلهم بمحض قوه الفضيلة الذاتية ، وصولتها الروحانية ، بل هـذا صفة الفضلاء والصالحين في كل زمان ومكان ، وبها عرف فضلهم في تاريخ الانسان .

الفضيلة قوة تمحل بالنفس فتخلع عنها غاشيات الباطل فتري صاحبها الحق في أجلا مجاليه ، وأنور جهاته ؛ فلا يتأتى ، بل لم يسمع في تاريخ العالم أن يستخذي الفاضل لماطل ، ولا يتصور أبداً أن يذل الصالح لطالح . وان أردت أن تقيم الدليل على أنه قد يتأتى أن يخشع الكامل لناقص فأقم الدليل أولاً على أنه قد يتغلب الضعف على القوة .

الفاضل لا يتصنع القوة ولا يتظاهر بها ، ولكنه يجد نفسه رغماً عنه متلألئة نابغة ، فتزاحم عليه العيون والظنون ، وهو لا يريد ذلك فيسعى في تبديل أشعة الأنظار والافكار المتوجهة اليه ، ولكنه لا يزداد الا إشراقاً ولألاء .

الفاضل يحس في نفسه نهاية العجز والضعف أمام الله وحده لا أمام أمثاله فتنفجر له من ذلك العجز والضعف قوة لا يعرف مستقرها من نفسه ، ولا يتخيل عليها من صميم سره . يراه الناس مهيباً قوياً ، وهو لا يرى نفسه الا عاجزاً ضعيفاً . يهابه الناس ويتوقونه ، ويرون في وجهه سمات تدل على علو روحه ، وسمو صفاته ، وهو لا يرى ذلك في نفسه ، ولا يبحث عنه ، وإنما يحس أنه هادىء السر من كونه عبد مليك قوي تذل لعزته الجباه والنواصي ، وتغنو لجبروته الوجوه .

ومن يتصفح تاريخ الرسل وأتباعهم لا سيما تاريخ خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم وتاريخ أصحابه ير العجب المعجب من تأثير قوة الفضيلة ، وتغلبها على الرذيلة تغلباً طبيعياً ، كما تتغلب القوى الطبيعية على بعضها في عالم المادة ، فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الارض .

إذا تقرر ما قدمناه رجعنا نسأل عما سألنا عنه آنفاً قائلين : ما سبب ظهور

المبطلين على المحقين ، وما سر غلبة روح الشريرين على الخيرين مع علمك بأن
الناموس الطبيعي ينادي بلسان فصيح « ألا إن حزب الله هم الغالبون » .

هذه مسألة من أكبر المسائل الفلسفية ولا نريد أن نحلها بألفاظ مجملة لا طائل
تحتها كقولهم مثلاً : سبب ذلك ان الناس أصبحوا كلهم مبطلين ، أو قولهم
سبب هذا قرب الساعة وهذا الحال من أشراتها . لأن الزعم الأول لا يعد حلاً
للمسألة بل يعد تعقيداً لها إذ ينبني عليه مسائل أعوص من الأولى وهي : لم أصبح
الناس كلهم مبطلين ، ولم يصبحوا كلهم محقين ؟ وهل الانسان مفطور على الشر
دون الخير ؟ وإذا عدم الخير الآن فكيف قامت الانسانية بدونه ؟ وهل هذا
يعد دليلاً للذين يحددون الفضيلة ويدعون امكان قيام الحياة بدونها ؟

هذا بعض ما ينبني على الزعم الأول . أما قولهم إن هذا من أشرط الساعة
فليس يعد حلاً للمسألة أيضاً ولا يفسر جبن انصار الحق أمام انصار الباطل ،
فان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (بعثت انا والساعة كهاتين) ، ومع
ذلك سعى في تحسين حال الانسانية سعياً لم يتفق قبله لنبي ولا بعده لمصلح ولا
ولي ، وأوصلها من السعادة الحقبة الى ذروة لم تصل اليها أبداً . وهؤلاء الخلفاء
الراشدون ، والأولياء الصالحون ، الذين عرفوا ذلك الحديث ونقلوه اليئالم
يقصروا لحظة عن محاربة الباطل ودحضه حتى خلص السلطان للفضيلة ،
وتقوضت أركان الرذيلة .

يتضح من هنا أن هذين القولين ليسا من الحلول في شيء وإنما هما من آثار
الجبن الذي وقع فيه اليوم انصار الحق وغفلوا عن سببه .

يصيح بعض الناس من حين لحين آخر قائلين : العلماء مقصرون عن الارشاد ،
والرؤساء عاثون في الأرض الفساد وعاسفون العباد والبلاد ، وأصحاب المهن
غافلون عن علوم الاقتصاد ، وواقفون من مهنهم حيث وقف الآباء والأجداد ،
ثم يسلفونهم بالسنة حداد ، ويقرعونهم بما يذيب الصم الشداد . ولكننا نغضي

عن ذلك كله ونسأل يهدوء وسكينة عن سبب هذا الخدر الذي نزل بالأعضاء فأضعفها ، وبالعقول فأتلفها ، وبالأفكار فأوقفها ، وبالأبصار فغشاها ، وبالنفوس قدساها ، وبالفنائل فأجلاها .

نسأل عن هذا السحر الذي حل بالأعيان فقلبها ، وبالأوهام فجسدها ، وبالوساوس فجسمها ، وبالأثار فغيرها ، وبالطباع فبدلها . ولا نزال نكرر السؤال عن منشأ هذا الخدر ، وعن مصدر هذا السحر حتى نعرفه فنداويه ، أو نغمر علينا فنترصده .

نبحث عنه أولاً في ذاتنا فإن لم نجده ففي أهل بلدنا فإن لم نجده ففي عموم أقاليمنا فإن لم نجده ففي الأمم المجاورة لنا ، فإن لم نجده ففي العالم أجمع .

داؤنا روح الجيل

قد بحثنا جهدنا عن سبب هذا الخدر فوجدناه في العالم كله ، ولا عجب فلكل جيل روح خاصة تعم عموم الناس بأثر واحد ولكن لا يظهر تأثيرها في الأمم الا على حسب استعدادها وقابليتها ، وقد تتخالف تلك الآثار في الأمم المختلفة تخالفاً لا يجعلك تتوهم وحدة الفاعل فيها ولكنك لو دقت النظر ، واخترقت الحجب الظاهرية ، لرأيت ان السبب واحد في ذاته ، وإنما هي آثاره التي تباينت على حسب تباين الأمم في قوتها وضعفها ، أو علمها وجهلها الخ كما ينتشر شيء من الرطوبة في الجو فيصيب الأجسام البشرية اصابات مختلفة : يصيب هذا بصداع ، وهذا بغثيان ، وهذا بانقباض ، وهذا بنزلة شعبية الخ ، مع أن المؤثر واحد في ذاته .

هذه الروح العمومية التي تنتشر في كل جيل في آفاق العالم فتعم الأمم كلها بأثر واحد ، قد تكون روحاً طيبة سامية أو رديئة سافلة أو مركبة من خير

وشر ، وتكون آثارها في الأمم على هذه النسبة بغاية الاحكام والضبط . هذه الروح لا تنتشر في الوجود من غير سبب ظاهر وإنما هي روح أقوى أمة في الجيل أو أقوى الأمم فيه . ففي القرون التي كانت فيها الأمة المصرية القديمة أقوى أمم الأرض كانت الروح العمومية مصرية لا تدع أمة من الأمم الداخلة في دائرة الاتصال بها الا طبعتها بطابع مصري في صنائعها وأفكارها ومداركها . فكانت الفكرة الفلسفية التي ترن في هيكل (آمون) يسمع لها صدى خاص في معبد (جوبيتير) بأثينا وغيرها من العواصم . وفي القرون التي كانت فيها العظمة للأشوريين والفارسيين واليونانيين والرومانيين والعرب والعثمانيين والفرنسيين كانت الروح العمومية آشورية أو فارسية أو يونانية الخ الخ .

هذه الروح العمومية التي تسيطر على أحوال الأمم في كل جيل هي التي يجب معرفتها جيداً ليتمكن مشايختها ان كانت روحاً طيبة سامية أو منابذتها ومحاربتها ان كانت رديئة سافلة ، وما دمنا لا نعرفها فلا نصل من بحثنا في أنفسنا وأمتنا الى شيء من الحقيقة ، ولا نزال نتخبط في علل ثانوية ، ونرتطم في اعراض نتخيلها امراضاً حتى يكل المريض ويسأم الطبيب وينتهي الأمر الى مثل ما انتهى بنا اليوم من عدم الاهتمام بالارشاد والوعظ ، لقلة فعلها على النفوس وعدم تأثيرها في تعديل القلوب .

هذه الروح العمومية المنبعثة من أقوى أمة تشبه السيل المغناطيسي المنبعث من الذي ينوم رجلاً أمامه نوماً مغناطيسياً . يحس هذا في مبدأ الأمر أن قوى أحاطت به من جميع جهاته ، وأن روحاً من الخدر تمشي في سائر أعضائه ، ولكنه لا يزال حافظاً ذاكرته وارادته وإنما يجده ميالاً للرضوخ لتلك القوى المحيطة به ومسوقاً للاستئمان اليها . ولا يزال به هذا الحال حتى تضمحل ارادته الذاتية وتفتنى في ارادة منومه فيكون تحت تأثيره مباشرة بوجهه كيف شاء ، حتى لو أمره بقتل ابنه بعد أن يوقظه لقتله .

كذلك روح الأمة أو الامم القوية التي تفتشر في أفق العالم فتم سائر الامم .
نجد هذه الأمم انها محاطة بقوى حولها غريبة عن ذاتها فتتكبرها وتشمئز منها هان
كانت قوية قاومتها وناذتها وبذلت وسعها في عدم الاستئمان اليها . وأما ان كانت
ضعيفة عديمة الوسائل الدفاعية هان أمرها على تلك القوة المحيطة بها فلا تزال
تساورها حتى تخدرها وتتسلط على ارادتها فلا تلتفت بوجودها ، ولا تعقب
بجبايتها ، وتكون كل حركاتها وسكناتها في صالح تلك الأمة أو الامم التي
اكتفتها بروحها من جميع جهاتها .

تقع امثال هذه الامم المستضعفة من جراء هذا التأثير الخارجي في اللوث في
شؤونها والخلل ، في أحوالها ، وهي ترى ذلك بعينها ، وتعرف طرق الخلاص
مما هي فيه ، ولكنها لا تستفيد من ارادتها بشيء كمن غشيه الكابوس يريد أن
يهم فلا يستطيع النهوض ، ويتخيل انه ملأ الأفق صباحاً وهو في الحقيقة لم
يسمع من حوله الا أنيناً خافتاً وهيناً مشوشاً .

يدعو الناس بعضهم بعضاً في امثال هذه الامم الى الاتحاد والوئام ،
ويكثرون في ذكر أمراضهم الكلام حتى يكادون يلسون داءهم بأصابعهم ، ثم
يتواصفون الدواء فيرونه أمام أعينهم وبين أيديهم ، ولكنهم لا يستطيعون أن
يمدوا أيديهم لتناولها كأن أيديهم مغلولة وما هي مغلولة ، فيرجعون الى بعضهم
يتساءلون عن السبب ، ويقضون منه بالعجب ، وربما زاد بهم الخلل فاتهم بعضهم
بعضاً بتبعية هذا الاحجام ، وتبادلوا من أجل ذلك التقرير والملام ، بل ربما
زاد بهم الحال وتدرج من التلاوم الى التخاصم ، ومن التهاور الى التشائم ، حتى
يعلو بينهم صوت التلاحي ، ويشد أوار التماري ، فيكونون بفعلهم هذا اظهر
مثال لما يعترى الامم الساقطة من التناقض في احوالها: يتهاجرون وهم يتداعون
للاتحاد ، يتخاصمون وهم يتنادون للتحاب ، يتشاقون وهم يتناجون في التسامح ؛
يتناهبون وهم يتصاحبون بالتواهب ، وقد يشتد بهم الامر فيكون حالهم أعجب
من هذا في شدة التناقض : يأمر الامر منهم بالمعروف وهو أول المنتهكين لهما ،

وينهى النباهي منهم عن المنكر وهو أول من يفشاء ، يذم الخمر وهو في ذنبا غريق ، ويؤري بالميسر وهو له زعيم . يدعو الى الصلاة وهو هاجرهما ، والى الزكاة وهو تاركها ، والى الصوم وهو متجاهر بالافطار . يعلم علم الاقتصاد وهو أول المسرفين ، وإمام المبذرين ، يعرف الناس قوانين الحكمة وهو لمبادئها قائد المقوضين ونقيب الهادمين .

في هذه الدرجة تكون ارادة الامة قد تلاشت وفنيت في ارادة الأمة أو الامم القوية المحيطة بها ويكون شأنها من بعض الجهات كشأن النائم نوماً مغناطيسياً لا استقلال له في ذاته ، وحياته تبع لحياة منومه .

وكما لا تنتفع الأمة بوجودها تحت تأثير هذه الروح الاجنبية العمومية كذلك لا ينتفع بوجوده الفرد الواحد منها . فيرى في نفسه أنه حي ولكن لا كالأحياء ، وله ارادة ولكن لا كإرادة المستقلين ، يحس أن هنالك شيئاً غير محسوس قد ران على فؤاده وأيقظ فيه عاملاً من الأرق والضجر لا يكاد يفارقه طرفة عين . يرى أن له عقلاً ولكنه غير سائد عليه ولا مهيم على أفعاله ، لشدة ما يرى نفسه مسوقاً الى مناقضة احكامه ، ومنابذة تعاليمه . ويرى أن له فكراً ولكنه لا رابط له ولا نظام ، يحول في بيد الخيالات حتى اذا اعياه الجولان خمد خموداً ، فاذا هب هب طائشاً أخرق لا يدبره علم ولا ينظمه قانون . ويشعر أنه مسؤول عن أفعاله وأن فيه قوة تحوله عن القبيح وتميل به الى الجميل ، ولكنه يرى نفسه مسوقاً رغم أنفه لعمل من يعتقد انه غير مسؤول وانه مجرد عن كل اختيار في أموره . يجد نفسه حراً رشيداً ذا عقل وعلم وبصيرة ، ولكنه يحس أنه مرغم لأن يعمل عمل الأسير القاصر المجرد من العقل والعلم والبصيرة . يرى التناقض الفاضح بين علمه وعمله ، وبين سيره وعقيدته فينسب تارة لتقصير نفسه وطوراً لتقصير غيره ، ولا يزال يكثر من العلل والاسباب حتى يخيل له أن الوجود كله يحاربه ، فتعثره رعدة من خوف يتغنى معها أن لو خلق بلا

فكر ولا روية ، فيجتهد في أن ينسى نفسه ولو بازهاق عقله ، ثم يقنع من العيش بمجرد البقاء ولو كان اليأس قرين شخصه .

أمثال هذه الامم لا تعيش لنفسها ولكن للامم ذات الروح العمومية ، فتكون كل قواها وقفاً على مصالح ممطسيها ، وهي تعلم ذلك وتتملئ منه على السنة كتابها وخطبائها فتراهم يذمون مظاهره كالقليد على أشكاله والسرف في ترويج زخارف صنائعها وموهات زيناتها وما يتبع ذلك من التراحم على ما يقيمه آحادها من الملاهي والمراقص ، والتغاير على أجابة دعوة كل قزم منهم يذمون ذلك كله ولكنهم يرون أنفسهم مسوقين اليه بقوة غير قوتهم الذاتية ، وكثيراً ما يكتب الكاتب منهم تلك النصائح وهو في وسط ناد من تلك المنتديات المحتاجة .

يبكي الناس على ما آل اليه أمرهم من التناقض وضعف الارادة والخلال الروابط وسوء المنقلب ويعرفون أسبابه القريبة جيداً ، ويكثر الكلام فيها سرا وجهراً ، تلميحا وتصريحاً ، بل وتراهم إذا جمعهم ناد أو ضمهم مجلس سمر ، لا يكادون يجدون حديثاً يقضون به الوقت غير ذكر ما هم فيه والافاضة في اسبابه وعلة وطرق شفاءهم منه ، ثم لما يرفض مجلسهم ترى كلا منهم محفوزاً بكلية لا الى الأخذ بأسباب الشفاء ، بل الى تقوية الداء وامداد جرائمه بما يحملها أشد فعلاً وأنكى أثراً كأنهم لم يكونوا بالأمس يتناجون في شيء . يحدث منهم كل هذا التناقض ولا يجدون في أنفسهم ما يحط من كرامتهم في نظرهم بل ربما أتوا بما يعتبرونه أقتل أمراضهم وهم في ذات المجلس ، عقب محاوراتهم في شؤونهم مباشرة ، ولا يؤاخذ بعضهم بعضاً على هذا التناقض الفاضح كأنهم رضوا بأن يكون حياتهم حالتان متميزتان : حالة كلامية وهمية وحالة حقيقية ، ولا علاقة لهما ببعضها ، في الأولى متمتعون بأدراك و ارادة ، وفي الثانية مجردون منها تماماً . وقد انفصل في نظرهم عالم القول عن عالم العمل انفصلاً ولم يعد من الميب عندهم أن يقول الرجل ما لا يفعل . أو يفعل ما لا يريد . حتى انهم

ليندهشون ممن يؤذى لاصراره على التوفيق بين قوله وعمله وبين عمله وإرادته ،
لشدة ما يحسونه في أنفسهم من صعوبة ذلك .

خلاصة ما تقدم ان لكل جيل روحاً عمومية تنتشر في أفق العالم وهي روح
أقوى أمة أو أقوى الامم في ذلك الجيل ، فتحيط بالامم الداخلة في دائرة
المواصلات العامة إحاطة السوار بالمعصم وتزاحم قواها كما يتزاحم الناس بالمناكب ،
فان كانت قوية قاومتها وحفظت استقلالها على نوع ما ، واما ان كانت ضعيفة
خدرتها كما تخدر بعض الحيوانات فريستها قبل صيدها ، وحينئذ تشعر تلك
الامم الضعيفة بأعراض وعلل يتوه فكر عقلائها في تحديدها وتصويرها ، ولا
تزال بها تلك القوة حتى تفقدها إرادتها وشخصيتها وهو ما يعبر عنه بفناء أمة في
أمة أخرى .

الروح العمومية السائدة اليوم على البشر روح أوربية مركبة من أرواح أمم
قوية كثيرة لها على الأمم الضعيفة أفعال وآثار مختلفة يطول شرحها في هذا
الفصل ، وربما فصلناها في فرصة أخرى ان شاء الله .

وظيفة الرسل عليهم الصلاة والسلام الذين يرسلهم الله لتغيير أحوال الأمم
هي انشاء روح جديدة في أمة من الأمم يختارها الخالق تعالى لذلك ، لتقاوم الروح
العمومية الموجودة وتكسر من شررتها وتحل مكانها ، كما قال تعالى «يلقي الروح
من أمره على من يشاء من عباده » فترى الواحد منهم لا يدعو قومه الى التقليد
لأنه لا معنى له الا الرضوخ لتلك الروح السائدة المراد ملاقاتها ، بل يواجهون
الأمة من جهة حياتها الكامنة فينفخون فيها روحاً طيبة صالحة فتنب في الأمة
عواطفها الذاتية بسرعة مذهشة وتسري الحياة الى مجموعها سرياناً غريباً ،
فيصبح الرجل وكأنه خلق خلقاً جديداً أو سرت فيه روح لم تكن فيه ولا في
آبائه ، فتتيقظ في نفسه عوامل النشاط والحركة ويمجد نفسه مدفوعاً لجلال
الاعمال وعظائم الامور دفعاً طبيعياً لا نزقاً تحمسياً . ومن يطالع سيرة خاتم

النبيين محمد صلى الله عليه وسلم يجد أصرح مثال لما نقول « وكذلك أوحينا اليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نوراً نهيدي به من نشاء من عبادنا وانك لتهدي الى صراط مستقيم » الآية .

ولما كنا في كتابنا على الانسان نريد أن نعرف أمثل الطرق للاستقامة على صراط الحق المستقيم فلان نجد بدأ من افاضة الكلام في الروح العمومية السائدة في جيلنا هذا لأن الفرد منا مرتبط بمجموعه ومن العبث البحث في سعادة الفرد قبل سعادة المجموع . فليس من العقل أن يسعى الرجل الضعيف في تقوية ساعده قبل أن يعرف سبب ضعفه العام فيداويه بعلاج عام مثله لتعم القوة ساعده وجميع أجزاء بدنه ، والا فيكون سعيه في تقوية عضو واحد منه من المستحيلات الواضحة .

انا نرى من خلال الحوادث ان الحرب التي أضرمتها الروح الأوروبية على روح الأمة الاسلامية شديدة مزعجة لم يسبق مثلها في تاريخ الأرواح العمومية ، ولكنها ستنجلي ولا شك عن هزيمة الروح الأوروبية وفنائها في الروح الاسلامية فناء أبدياً . وأن ما الأمة الاسلامية فيه اليوم من الفتن والمحن مها عظمت وتفاقمت ، فلا تعد شيئاً يجانب ما لقيته وتلقاه الأمم الضعيفة من تأثير أرواح الأمم القوية . فبينما تتخيل الروح الأوروبية أن السلطان قد خلص لها ترى الروح الاسلامية من وراء حجاب تكتسب عواطف الأفراد والأمم وينمو سلطانها على العقول يوماً بعد يوم ، وقد شعر بذلك كبار مديري الروح الأوروبية فأخذوا يتساءلون عن السبب ، وبعضهم يجد نفسه مدفوعاً ليقاظ الروح الاسلامية بيده بواسطة كتاباته وابحاثه على الاسلام والمسلمين مصداقاً للحديث الشريف « إن الله ليؤيد هذا الدين برجال ليسوا من أهله » .

قلنا ان البحث في هذا الكتاب خاص بالانسان ولكن طبيعة نظريتنا هذه تلجئنا الى الكلام على الروحين الأوروبية والاسلامية لارتباط حال الفرد الواحد

بشكل الحرب القائمة بينها ونتيجتها . لذلك سنبحث ان شاء الله في تصوير تلك الروح الاوربية تصويراً حقيقياً ، وتحديد تيارات آثارها في الامم عموماً وفي المسلمين خصوصاً تحديداً استقرائياً ، وتوضيح أحوالها في تطورها من القرن الخامس عشر الى هذا اليوم ، وتبيين ادوار تدرجها من روح إلحاد وعناد الى روح خضوع واعتقاد ، ثم سنختم ذلك كله ببيان كيف ان هذه الروح الاوربية سبنتها بها الامر الى مقابلة الروح الاسلامية في أفقها العالي ، وكيف انها ستفنى فيها وتدع لها السلطان المطلق على الارواح والاجساد معاً « ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله » ، « أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السموات والارض طوعاً وكرهاً واليه يرجعون » .



الفصل الثالث

الدين قبل ظهور العلم

تمهيد

صل الروح العمومية السائدة في هذا الجيل :

قلنا في الفصل الماضي ان لكل جيل روحاً عمومية هي روح أقوى أمة أو قوى الامم فيه وانا تحت تأثير روح عمومية مركبة من أرواح أمم قوية كثيرة، قلنا ان هذه الروح الاوروبية سائرة بالناس سيراً طبيعياً الى مقابلة الروح لاسلامية والفناء فيها وترك السلطان لها . وسنزيد على ذلك ان شاء الله بأن هذه الروح الاوروبية هي حركة من الروح الاسلامية العامة كما يقر بذلك قادتهم ولو لم يعرف ذلك دهاء المسلمين اليوم .

هذا البحث الذي تصدينا له لا يتأتى حصوله ولا ننال به من قرائنا ما نريد لا بالبسط الشافي ليكون القارئ من سلسلة هذه الحوادث الكبرى بمكان المشاهد لمركات الجنود من مرقب عال يلم بمجموعها لأول نظرة ولا يغيب عنه من دقائقها لا ما لا يخل بحكمه عليها . وهذا يستدعي منا قبل كل شيء امساك تلك سلسلة من طرفها الأقصى ولو كان ذلك يطوح بنا الى السريان في صميم التاريخ

سريانا دقيقاً ، والسبح في مناحيه سبعا طويلا ، فلا يحسن القارىء اننا شردنا عن الموضوع إذا أنس منا الذهاب به يمينا ويسارا ، فإن ذلك لحرصنا على أن لا يخرج من هذه الجولة الطويلة قانعا من الفنيعة بالإياب ، وراضيا من البحث بعظم حجم الكتاب ، والله المسؤول في هدايتنا الى الصواب .



الدين قبل ظهور العلم :

لا نريد من العلم مطلق ما يدل عليه اللفظ ، لأنه لا يتصور أن يكون الانسان قد عاش يوماً واحداً بلا علم ولو على ابسط أحواله ، وانما نريد منه أخص معانيه ، وهو النظر في حوادث الوجود نظراً مجرداً عن الصبغة الدينية والبحث عن علاقاتها ببعضها وترتيب تلك العلاقات على كيفية تستخدمها اليد في تحسين الحالة المعيشية ، ويعتضد بها الفكر في سبحه في موامي المسائل العقلية . تخصيص العلم بهذا التحديد يسمح لنا أن نقول انه مر على الانسان حين من الدهر لم يكن يذكر العلم بلسانه ، ولا يخطر بخلده ، فلم يكن له غير الدين قائد ، ولم يكن يعرف مصدراً لحياته سواء ، ولا قائماً على أحواله غير كهانه وحملته أسرار . فكانت الهياكل كما تعلمه كيفية الاختبات لمعبوده ؛ تعرفه ايضاً سبل المعيشة في جوده بل وتهيب له آلات تلك المعيشة .

في هذا الدور القديم كانت الامم منعزلة عن بعضها تقريباً وواقعة في أشد حالات تنازع البقاء ، حاجات أفرادها الجسدية مستوعبة مواهب عقولهم ، ومستولية بهولها على مشاعرهم ، ليس لافكارهم من الفراغ ما يسمح لها بأن تجول في فيافي النظر ، أو تخلق بهم في جو العبر . وكان القائلون عليهم عاملين على تكثيف الحجب عليهم كيلا ينفذ اليهم بصيص من نور الوجود فيخلعوا نير

سلطتهم ويتخلصوا من قيد سيطرتهم . وكان هؤلاء التابعون من الجهل بالكون والعماية عن أسرارہ بحيث لم يشكهم الشك في شيء من عقائدهم ، ولم ينلمم الريب في أمر من أمور دينهم ، ودام الناس في هذه الظلمات يخرجون من غيب ويدخلون الى غيب ، اللهم إلا في أزمنة النبوات ، حتى جاء القرن الرابع قبل ميلاد عيسى عليه السلام فجال الفكر على نفسه جولة كسرها كثيراً من اصفاءه ، وتقصى من حباثل كانت آخذة بقياده ، فكان له بعد ذلك شأن لا تكفي في بيانه الاشارة ، فاليك التفصيل ...

يقظة العقل :

كانت الامة اليونانية من حيث الدين مثلها كمثل سائر الامم الاخرى لا ميزة لها عليهم في شيء ، أخذت المدنية ومبادئ الصناعات والفنون عن المصريين الاقدمين فجرت على سمتها بما يناسب حالتها العقلية والاجتماعية وموقع بلادها ، وكان لها من صفاء جوها ورونتى الطبيعة المحيطة بها ، أكبر منشط لافكار بنيتها على متابعة السير في باحات الرقي العقلي والروحاني معاً ، مما صار له في تاريخ العالم الأثر الجليل الذي سيمر بك طرف منه ان شاء الله . قلنا انها كانت من جهة الدين على نفس الطريق الذي كان عليه غيرها من الاقدمين : تجسيم للقوى المدبرة للكون وتعداد للآلهة المهيمنة عليه ، وأساطير خيالية ، تناسب حال تلك الآلهة الجسدانية . وكان ادراكهم للوجود لا يتعدى ما تقتضي اليه مشاعرهم ، فكانوا يتخيلون أن السماء مقر الآلهة وهي موضوعة على جبال (أولامبيا) وهي سلسلة جبال أوروبا بعضها في مقدونيا وبعضها في تساليا . وكانوا يتوهمون أن الغيوم التي تحيط بأعلى نقطة منها البالغ ارتفاعها (٢٩٧٣ متراً) تستر مدخل السماء عن أعين البشر . وكانت آلهتهم مقسمة الى أربع رتب : الرتبة الأولى (الآلهة العلويون) وهم المكونون لمجلس شورى السماء وعددهم اثني عشر يجتمعون فيتداولون في الشؤون العامة والخاصة ويصدرون بذلك الاوامر

المناسبة . وكان من أعضاء هذا المجلس (جوبيتير) رئيس الآلهة و (نبتون) إله البحر و (أبولون) إله المعجزات والطب والأدبيات والصنائع النخ و (منيرف) ابنة جوبيتير إلهة الحرب والعقل . النخ .

الرتبة الثانية (الآلهة التابعون) وهم من الكثرة بحيث لا يحصى لهم عدد فقد كان لأمة الرومان وحدها منهم أكثر من ثلاثين ألفا .

الرتبة الثالثة (الآلهة الطبيعية) وهم السماء والأرض والقمر والنجوم النخ .

(الرتبة الرابعة) الآلهة الحيوية وهم الرجال الذين ينبغون منهم في الشؤون الكبرى فتمنحهم الآلهة رتبة الألوهية بعد موتهم ومنهم (هيركرل) البطيل الشهير . وقد كان هذا دأب الأولين في تأليه كل من يسمو على غيره منهم حتى لا تكاد تعثر على أساطير ديانة قديمة خالية من هذا الضرب من الجهل ، فقد كان الرومان يزعمون أن مؤسس مملكتهم (رومولوس) ابن الإله (مارس) ، وكان تلامذة أفلاطون المصريون يعتقدون أنه ابن الإله (أبولون) . ولما فتح الاسكندر مصر وخلصها من جور الاعجام زعم سدنة هيكل الإله (آمون) أن هذا الإله أخبرهم بأنه ابنه فكان المصريون والسوريون يقولون بذلك ويعتقدونه لدرجة لا يتصورها العقل^(١) .

كان إدراك اليونانيين لصفات الكمال اللانقطة بهؤلاء الآلهة لا تتعدى درجتهم في العلم ، فكان آلهتهم رجالاً ونساء مثلهم لهم أعين وأسماع وغير معصومين من الشهوات والجرائم ، فقد زعموا أن الإله (أورانوس) كره أولاده وجبسهم في جهنم فجاء ابنه (سارتون) فخلعه وحكم الكون بدله . أما سارتون هذا فعحدث منه أنه أكل أولاده ساعة ولادتهم وفاء لوعده كان وعده (للتيتان) وهو من القوى السفلية أولاد السماء والأرض فاحتالت (سيبيل) امرأته فوضعت حجراً

(١) كتاب (المنازعة بين العلم والدين) تأليف الاستاذ الاميريكي الشهير (درايز) .

مكان أحد أولئك الاولاد وهو (جوبيتير) فابتلع (سارتون) ذلك الحجر ظنا أنه ابنه فنجما الولد ثم ثار ضد أبيه وعزله وطرده من السماء وحكم الكون بدله . أما (سارتون) هذا فهبط في (اللاتيوم) وهو قطر قديم من ايطاليا الوسطى وصرف زمنه في تمضيد السلم وهبة البركات وتعليم الناس فنون الزرع وأساليب الحراثة .

هذا موجز يسير من أساطير اليونان الأقدمين جئنا به كنموذج لما كانوا عليه من جهة العقائد ، أما تفصيله فيحتاج لأسفار كثيرة لأن هذه الآلهة لما كانت لا تعمل في نظر اليونانيين عن الأدميين إلا في كونهم خالدين وان لهم التصرف في الكون، فلا جرم كان يصدر منهم كما يصدر من الناس انواع من التحاسد والتحاقد والتنازع، ولا عجب بعد ذلك إن كان لكل منهم سيرة طويلة وتاريخ مسهب صقله خيال اليونانيين بصقال التصورات ، وذهبوا من الابداع الشعري به كل مذهب فكان للشعب فكاكة ودينأ في آن واحد .

مبدأ النظر في الكون :

هذا كان حال اليونانيين من أول تكونهم الى القرن الرابع قبل الميلاد . فهاذا حدث بعد ذلك ؟ حدث ان طبيعة بلادهم القاحلة دفعتهم بوخزات الضرورة المعاشية لامتناء صهوة البحر والاتجار في السواحل القريبة للاستعاضة عن الزائد من محصولات بلادهم بما تستدعيه حالة الحياة من مصنوعات الأمم الأخرى ومحصولاتها، فارتقت لديهم مهنة الملاحة ونشأ لهم فيها غرام استحال الى ملكة راسخة في نفوسهم فصاروا يتوغلون في البحر المتوسط شيئا فشيئا ويجوسون خلال الجزائر والثغور فوققوا على ما كانوا لا يحملون بوجوده قبل ذلك ولا يتخيلونه تخيلا .

كان نتيجة هذه المشاهدات وغيرها ان اتسع نطاق فكرهم عما كان عليه

وصار إدراكهم للكون أوسع مما ورثوه من أساطير آباؤهم الأولين ، فنشأ تناقض بين ما وصلوا اليه من سمة الفكر وما عليه دينهم من حرج المدركات ، فسرى الشك الى نفوسهم ولم يبق للدين في نظرهم مقامه السابق . ما زالت الريب تفتقل من فؤاد إلى فؤاد حتى توجس حملة تلك الأساطير خيفة على مستقبل لعقائد ، فقرروا العقوبات المختلفة لأصحاب النزعات الالحادية بمصادرتهم في الأموال ونفسيهم من البلاد أو بقتلهم بالسم أو النار أو الرجم ، فلم تنجح تلك الوسائل بل استمر العقل آخذاً مجراه في التخلص من نير الضغط والحجر . وكان موقف العقائد القديمة بإزاء هذه الحركة من أخرج المواقف حتى انتهى الأمر بتلاشيها ، بالمرّة ولكن بعد أن جازت ثلاثة أدوار متوالية يلزمنا أن نهبط شيئاً من التفصيل لأنها من القوانين الثابتة التي تنتاب العقائد الباطلة .

الادوار التي تنتاب العقائد الباطلة :

لما سرى بين اليونانيين الشك في عقائدهم من جراء اتساع نطاق فكرهم ، وقف السواد الأعظم بازائها ثلاث مواقف متوالية يعد كل منها دوراً من ادوار ثلاثة : (١) زعموا أولاً أن الأقدمين لا يجوز عليهم تصديق الأباطيل ولا يتصور أنهم ينخدعون لخراف الخرافات مع رجاحة عقولهم وسوء مداركهم . قالوا : فلو لم تكن هذه العقائد حقة لا غبار عليها لما تمسكوا بأهداياها هذا التمسك الذي له في الكتب الأمثلة المدهشة . وضعوا هذه الثقة بأسلافهم نصب أعينهم وقاموا يحاربون الشاكين بكل ما يصل اليه امكانهم . ولبثوا على هذا الحال أمداً حتى ازداد تيار الشك في الأذهان وكادت تكون له الأغلبية واعتادته الاسماع فاستحال التشدد السابق بحكم الضرورة إلى شيء من التساهل في الدور الثاني . (٢) وذلك أنهم أخذوا يقررون بأن هذه العقائد لا يجوز أن تؤخذ على علاقتها بصورتها المادية فما هي إلا رموز لمدرجات عالية ليس المقصود منها مدلولاتها القريبة . فما الآلهة في تناسلهم وتنازعهم وتصرفاتهم ، وما السماء في عجائبها

إشارات لأمرار عظمى ، ورموز لمفاهيم جلى.. قرروا هذا الأصل ثم طفقوا يطبقونها على ما وصلت اليه افكارهم من الرقى العلمي والفلسفي وقنعوا بذلك أمداً مناسباً حتى نمت عليهم بالكون إلى درجة أصبح من العبث الجلود على الماضي ولرعاء قدسيته فدخلوا في الدور الثالث . (٣) وهو اعتقاد بطلانها بالمرّة .

هذه سنة الأمم كافة من جهة التصديق بالعقائد الباطلة : يحل الشك أولاً محل الاحترام المطلق لها ، ثم يتطور الشك ويتدرج في أدمغة المتحمسين إلى شرحها وتأويلها والسعي في تطبيقها على المدركات الجديدة ، ثم يقع أصحاب البصر في الخلاف والتلاحي من جرائها حتى ينتهي الأمر بتركها بالمرّة . وهذا بعينه ما حصل للأوروبيين بالنسبة لعقائدهم فان الحرب الصليبية التي شرعوا فيها في القرن الحادي عشر لكسر شوكة المسلمين وانتزاع بيت المقدس من يدهم سمحت لهم بالاشراف على تلك المدنية الباهرة التي أقامها المسلمون في سوريا أحد إيلات الملك الاسلامي الفخيم ، فأثرت في أفكارهم تأثيراً كبيراً وحولت من مجراها بعض الشيء فحدث الشك في العقائد وصار اللفظ به كبيراً فالتجأت رئاستهم الدينية لتأليف محكمة التفتيش لمعاقبة المبتدعة بالقتل والحرق والتمثيل حتى عدت على حياة أكثر من ثلاثمائة ألف نسمة من كبار الرجال وغيرهم . ومع هذه الشدة والصرامة لم تستطع أن توقف تيار الشك بوجه من الوجوه ، قال الأستاذ (دراير) في كتابه (المناظرة بين العلم والدين) « ان محكمة التفتيش لم تنجح في عملها رغمًا عن سلطتها الكبرى . ولما لم يستطع المبتدع النجاة من غوائلها كان يلجأ إلى كتمان شكوكه وعدم إظهارها فكانت نتيجة هذا أن انتشر الشك في جميع أرجاء أوربا » ...

ثم اعقب هذا الشك الذي عم الناس أن تحمس بعض المتدينين من ذوي البصر وتعصبوا للدين وقاموا في طريق وسط بين الحزبين وسعوا في إيجاد التوفيق بين العلم والعقائد ، ولكن انتهى الأمر باتساع مسافة الخلاف بين العلم ومقررات الدين ففسلوا فشلاً لم يقوموا بعده . قال الأستاذ (دراير) في كتابه المتقدم :

« لقد قام عدد عديد من رجال الخير ذوي النوايا الصالحة وسعوا في التوفيق بين مقررات خلق الكون من الكتاب المقدس وبين مكتشفات العلم ، ولكن كان الخلاف بينهما قد وصل الى حد أن أصبح في حكم المقرر انحاء أحدهما بالمرة . »

ثم انتهى هذا الدور في القرن السابع عشر وحل محله اعتقاد المنافاة التامة بين العلم والدين ، وتقرر لديهم بأنها عدوان لدودان ، وضدان لا يجتمعان ، وصرت تلك العقيدة من العلماء إلى الأمراء ومنهم إلى الخاصة فالعامة ، فلم يسع الناس إلا الانحياز لجهة العلم مدفوعين بالضرورة ، ومحفوزين بحكم الحاجة لما يرون من خيرات العلم وبركاته وما يتنعمون فيه من اكتشافاته وابتكاراته ؛ وسينتهي الأمر كما يكتبون في كتبهم بزوال الدين بالمرة ، ولا يريدون بالدين المطلق بل الدين بالمعنى الذي قام بحفظه سدنة اليها كل ، وخدمة المعابد ؛ أما الدين المطلق فهم يرازونه على أقسام شتى على حسب مذاهبهم مما سيجيء كلامنا عليه إن شاء الله تعالى .

نظرة على ما سبق

إذا تقرر هذا فهل نحن أيضاً على ذات الطريق الذي سارت الأمم عليه قبلنا ؟ وهل لا مناص لنا من التطواف على هذه الادوار الثلاثة حتى ينتهي بنا الأمر الى المروق التام من الدين ؟ يقول قائل « نعم ، وقد اجتزتم منه عقبة وأنتم اليوم في العقبة الثانية وليس بينكم وبين الدور الذي فيه أوروبا الا قارعة تنصب عليكم فترككم أن سبب انحطاطكم هو عدم العلم لا عدم الدين ، وأن أوروبا لم تأخذ بمتنفسكم ولم تمسك بأكظامكم في كل شأن من شؤون حياتكم إلا بوسائل العلوم الطبيعية ، والاكتشافات الفنية ، لا بالوسائل الاعتقادية ، والمقالات الجدلية . »

ولئن سألت هذا القائل عن تفسير ما قاله من أننا اجتزنا الدور الاول من الادوار الثلاثة ونحن في الدور الثاني وعلى مقربة من الثالث لقال : « لا اذهب بكم بعيداً ؛ ها هو قطركم المصري لبث تلك الاجيال الطويلة من عهد فتح مصر بالجيوش الاسلامية الى آخر عهد المماليك وهو جاعل من العقيدة حصنه الحصين ، وركنه الركين ، وقد توالى عليه الفارات والفتوحات ، وقد اولته الامم المختلفة وهو لم يتحول عن تلك الحالة حتى هلّ القرن الثاني عشر الهجري ودمته الجيوش الفرنسية ، وأعقب ذلك تكوّن حكومة منظمة في البلاد غيرة على صالح الأمة وترقيتها على مقتضى روح المدنية الأوروبية ، فشيدت دور العلوم والصنائع وأقامت معالم المعارف والفنون ، وأرادت اعطاء هذه الحركة المدونة حقها فأرسلت عدداً كبيراً من أبناء البلاد إلى أوروبا للاشراف على أسرار المدنية من قرب ، فلم يكده هؤلاء الشبان يشرفون على تلك المعاهد الفخيمة وينيفون على هاتيك المعالم الباهرة ويرتضعون ثدي العلم الجديد ، حتى أحسوا بالبون الشاسع بين ما ورثوه عن آبائهم من العقائد وبين ما عليه الوجود من الفخامة والجلال ، فسرى الشك اليهم سريان النار في الهشيم فجاءوا إلى بلادهم وفي نفوسهم من الهواجس والشبه ما فيها فتظاهروا بالتفرنج والتقليد ، وتركوا من العادات ما لا يتفق مع الفكر الجديد . »

« فماذا حدث من هذا الانقلاب السريع ؟ حدث أن حمي وطيس التحمس للدين في بعض الأدمغة الحريصة على ذكرى الماضي فأخذت تصيح بانطباق الدين على المدنية ، وعدم منافاة العقائد للعلوم الطبيعية ... وقد كتبت في ذلك المجلات والكتب ، واليتم فيه الابحاث والخطب ولم يزل كتابكم يزاوون هذه المجهودات الشاقة الى اليوم . فهل ينتظر بكم بعد هذا إلا الوقوع في الدور الثالث وهو تحقّقكم أن العلم ينافي الدين ؛ وأن العلم منبع الحياة الحقيقية ؛ وملاك السعادة الانسانية : وأن للأديان أزمنة خاصة في تاريخ الانسان تؤدي وظيفتها ثم تنتهي بانتهاء دورها ؟ وهل مثلكم بالنسبة للأدوار التي قدرت للانسان إلا كمثل غيركم ،

فاذا كان غيركم مر على هذه الادوار وانتهى إلى ما ترون، فلماذا تزعمون أنكم لا تنتهون إلى حيث انتهى وتقفون من الحياة حيث وقف .

هذا ما يستطيع أن يقوله قائل تشبع فكره، بأبحاث الماديين من هدمه العقائد الباطلة في أوروبا أو تقليداً لمن تشبع فكره بها، وأنا لنعلم ان القائلين بهذا القول في البلاد الشرقية قليل ، ولكنه في زعمنا من الشبه التي وقع الناس فيها بالعمل قبل ان يدركها فكرهم بالتصور وهي لفحة من لفحات المدنية المادية التي حكم علينا بالاحتكاك بها والاقتتان بظاهرها .

هذا القائل لو درى ما هي الغاية التي خلق النوع الانساني مسوقاً اليها ، وما هي الدوافع التي تدفعه في خلال القرون والحوادث للتوجه اليها ، وما هو سر الحياة الانسانية والعواطف القلبية ، ثم علم ما هو الاسلام في ذاته ، وما علاقته بالنفس البشرية وباحساساتها الداخلية ، وما الغرض منه ، لتحقيق ان شبهته هذه التي هدمت العقائد الباطلة وجعلتها خبراً لكان هي بالنسبة للإسلام أوهى من بيت العناكب ، وأضعف من أن تسمى شبهة ، بل لعلم علما يقينياً ان شبهته هذه هي ادل الأدلة على أن الاسلام دين الله ، وان العالم مسير اليه بدوافع الطبيعة ، ونواميس الحياة ، لأنه دين الفطرة الأصلية النقية من الأوهام والباطيل ، ومطلب الروح الاقصى المنزه عن الوسوس والأضاليل ؛ ولكن ماذا يعني هذا القول مجرداً عن الدليل ، وعارياً عن الشرح والتفصيل ، بل ماذا يفعل في خصمنا ان لم نقف في حيزه الذي هو فيه ليعلم أنا وإياه في مستو واحد ثم نساوره من قرب بنفس علومه ومقررات معارفه مما يتوهم انها أكبر هوادم العقائد ، وأقوى معاول الخيالات ، ليعرف أننا لا ندافع عن حقائقنا من وراء حجب تحامياً من صولة العلم ، وتحاشياً من مواجهة اصوله وقوانينه .

هذا وظيفة كتاب خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم ، فاقرأ حل هذه الشبهة هناك ولنرجع نحن الى متابعة الكلام على تاريخ نشأة الروح العلمية ...

الفصل الرابع

نشأة الروح العالَمِيَّة

التي يسيطر بها الغرب على الشرق

قلنا ان الأمة اليونانية القديمة مصدر نشأة الروح العلمية التي أيقظت العقل من سباته وفكته من قيوده ، حينما ألقت بنفسها على أسنمة الأمواج تجوب البلاد وتخترق الآفاق ، ورأت ما رأت من عظم الكون وجلالته مما شككها في دينها وأنزل من فؤادها مقام أساطيرها ، ولكننا وقفنا بالقارىء وقفة كان لا بد لنا منها صيداً لشاردة العبر ، وتأملنا في سنة البشر ، ونريد اليوم تكميم الكلام فنقول :

ما زال اليونانيون يحوسون خلال الثغور والأمم البحرية للتجار حتى مروا على السياحات وصارت لهم الملاحة ملكة راسخة ، وتبع هذا اتساع في نطاق مداركهم ، وتهذب في عواطفهم ، ورقية في طبائهم من كثرة إشرافهم على أجناس الشعوب في رحلهم ، وإناقضهم على مختلفات القوانين ومتباينات النظامات ، واحتكاكهم بصنوف الأمم المتخالفة في عوائدها وعقائدها وألوانها ولغاتها ، كل هذا وما وهبه اليونانيون من مضاء الفكر وحب النظر وحسن التأمل

بالمشاهدات قذفت بهم إلى باحات من الرقي العقلي فاقوا به سائر الأمم المعاصرة لهم .

كان اليونانيون في ذلك الوقت ، أي حوالي القرن الخامس قبل الميلاد منقسمين إلى قسمين : قسم في أوروبا وآخر في آسيا . الثاني كان راضخاً لنير الفارسيين لا يحدث نفسه بالاستقلال ولا يمينها بتغيير الحال . أما الأول فكان نشوان من خمرة الحرية ، عدواً للاستبداد والعبودية ، وكان منقسماً إلى ممالك عديدة لكل منها ملك خاص ونظام خاص ، وكان يقع بينهم النزاع كما يقع بين الأمم المتخالفة الأجناس ، ولكن ذلك لم يكن ليمنعهم من الاتحاد على بلوغ غرض عام أحياناً ، كما اتحدوا على مقارعة الفارسيين في القرن الخامس قبل الميلاد حينما أرادوا أن ينشروا عليهم سلطانهم . وكان هذا الانقسام داعياً لبعض ذوي الأطماع الواسعة من أولئك الملوك ، لمحاولة إخضاع إخوانه لسيطرته ، فكانت تقع بينهم الحروب من جراء هذا الأمر وتصلطم كثيراً من زهرة نشأتهم وتصدم بعض الشيء عن بلوغ نهاية ما قدر لهم .

فيليب المقدوني :

كان من أولئك الذين تاقوا إلى توحيد اليونانيين فيليب المقدوني لما بينهم وبينه من صلة الرحم فبدأ في تنعيم مشروعه بشن الغارة على المدائن المتاخمة لبلاده ، فلم يأبه به اليونانيون رغماً عن نداء خطيبهم الشهير (ديموستين) ولم يدركوا الخطر المحقق بهم إلا في سنة (٣٣٨ ق.م) فقاوموه بالقوة فهزمهم وأخضعهم لصولجانه ، وعين نفسه قائداً عاماً للجيش اليونانية وعزم على الإغارة على بلاد الفرس ، فمكن له يوناني فقتله ، فخلفه ابنه (الاسكندر) الأكبر سنة (٣٣٦ ق.م) وعين نفسه في كورنت قائداً عاماً لليونانيين ، وعزم على فتح بلاد الفرس وتتميم رغائب أبيه .

سبب ترقى اليونانيين الى فتح فارس:

كان مُلك المعجم في القرن الخامس ضريب ملك الرومان فكانت مساحته تبلغ نصف مساحة أوروبا يمتد من سواحل البحر الأبيض إلى سواحل البحر الأسود فبحر أيجه فبحر قزوين فبحر الهند فالبحر الأحمر ، وكان به ستة من أكبر أنهار العالم ، وهي الدجلة والفرات والأندوس والأكسوس وجاكسارت والنيل ، تفيض كل عام بالخيرات والبركات على البلاد التي تمر بها ، فتغمر أهلها من نعيم العيش وخفض الحياة بما يسمح لهم باستثمار قوة العقل واستثارة كنوز الفكر واستنباط غرائب الصنائع وعجائب الفنون ، فلا جرم كانت بلاد الفرس حديقة العالم الأرضي ونموذجاً لغاية ما يمكن الوصول اليه في تلك الأجيال من المدنية الصناعية والحضارة .

أمة هذا شأنها من العظمة وسعة السلطان وكثرة الجند والمال ، لم تكن تحسب لليونانيين حساباً في قلة عددهم ووهن وسائلهم ، فكانت من أمن جانبهم بحيث لا تتحامى أن تستخدمهم في جيوشها لمقارعة أعداء دولتها . ومن هنا أدرك اليونانيون جهة الضعف في جنديتها ، فصارت نفوسهم تحذرنهم بإمكان قلب سلطانها واكتساح كنوزها ، وكان فيليب ملك مقدونيا أكبر من حدث نفسه بذلك الأمر الجلل ولم يشته عن عزمه إلا طعنة ذلك اليوناني كما ذكرنا .

خلفه ابنه (الاسكندر) فلبث ريثاً استتب له أمر الحكومة ثم جال بخاطره ما كان يحول بخاطر والده من فتح بلاد الفرس ، فسار إليها بأربعة وثلاثين ألف راجل وأربعة آلاف فارس في سنة (٣٣٦ ق.م) ودخل آسيا الصغرى والتقى بجيش الفرس فكان النصر في جانبه في آسيا الصغرى ، ولبت بها ريثاً نظم حكومتها ثم اتجه لفتح سوريا فصادف جيش (دارا) ملك الفرس يموج في ستمائة ألف مقاتل فلم يفنه كثرة عدده شيئاً فولى الأدبار ، فاتجه الاسكندر للجنوب خوفاً من أن يقطع الفرس عليه خط الرجعة ، ثم جمع أركان حربه

وساورهم في الأمر ، فأجمعوا على لزوم فتح صور تحامياً من أن يشن الفرس الغارة على بلاد اليونان فيحملون على النكوص على أعقابهم وترك مغائهم فحاصرها ، فقاومته ستة أشهر ثم دخلها ، وسلمت له أورشليم ، فاتجه إلى غزة ففتحها عنوة ثم اتجه للقطر المصري فطوعه ونظم حكومته ، ثم رجع إلى سوريا بأربعين ألف محارب ، واجتاز نهر الفرات فصادف في الشاطئ الأيسر جيشاً فارسياً مؤلفاً من مليون ومائة ألف مقاتل فالتقت الفئتان ، وانتهت الوقعة بهزيمة الفرس وحدث أن قتل (دارا) بعدها بقليل ، فصفا الأمر لالاسكندر فجاست خيله خلال ذلك الملك البازخ بلا مزاحم ولا مقاوم وأخذت من خزائن الفارسيين وكنوزهم ما لا يقبل الاحصاء ، ولا يدخل في حسابان .

نتيجة هذا الفتح على اليونانيين وتأثير المدنية على العقائد الباطلة :

نشأ لليونانيين من جراء هذا الفتح نمو سريع في ملكاتهم وفكرة كبرى على عظمة الكون وجلالة الوجود ، وناهيك بقوم فيهم قابلية للحركة الفكرية والرقى العقلي مطبوعين على التأثر بالمناظر والمشاهد يرون في ربح قليل من الزمن على معاهد المدنيات القديمة ، ويجمعون في وقت واحد بين الينبوعين العظيمين للمدنية الانسانية ، أى النيل في مصر والجانب في الهند ، ويمرون بينها على تلك المدنيات الصغيرة التي استمدت حياتها من ذينك الينبوعين كأمم الاشوريين والميديين والليديين والبابليين وغيرها .

رأوا الأهرام القائمة تناغي السحاب وتسامر الكواكب ، وتلك النصب المنصوبة من منذ آلاف من السنين تخلد ذكر ملوك قادوا الكتاب ، وزافوا المروش والمواكب ، ثم شارقوا بعد ذلك منصات سلاطين الاشوريين المحفوفة بالأصنام ذوات الأجنحة ، وشاهدوا بقايا هيكل بعل ، وهو من العلو بحيث

تكنفه السحب من كل جانب . ورأوا فوقه مرصد الأفلاك ، لذا تنزلت منه على تلك الأمة أساطير دينها الذي باعت له أرواح بنينا ، وصحت من أجله أفلاذ أكبادهم ، ثم أبصروا ذينك القصرين الشهيرين بمجداثقهما المعلقة في الهواء على أعمدة متينة ، وفيها من ضخام الأشجار وعظام الدوح ما لا يقل عما على البسيطة منها . وبصروا ببقايا تلك الآلات الضخمة العجيبة التي كانت ترفع المياه إلى تلك الحداثق الهوائية .

ثم استعرضوا بلاد العجم ورأوا من عجائب المدنية ما هو أحدث عهداً من كل ما سبق : لحظوا أو اوين (بيسوبوليس) المعلقة على أعمدة محلاة بالنقوش الغربية وشهدوا تلك التماثيل الضخمة والأنصاب الباذخة ، ومروا من هناك بأكباتان مصيف الأكسرة الفخام وهي محاطة بسبعة أسوار مبنية بالأحجار المفصلة المصقولة ذات الألوان المختلفة ، وهي ترتفع لجهة المركز لتعطي بذلك صورة مدارات الكواكب السبعة . وأموا ذلك القصر الذي غشيت سقوفه بالفضة الناصعة وكسيت خشبه بطبقات من الذهب الوهاج ، وعانوا تلك الأهملة المصنوعة من النفط التي كانت تضيء ذلك القصر بما يشبه ضوء النهار .

نعم ، رأى اليونانيون كل هذا الملك الباذخ وتأملوه جيداً ، فكانوا يشرفون في كل خطوة يخطونها على مشاهد لم يخلوها بوجودها ولم تتولد في خيالهم صورتها ، ولما كانوا هم بطبعهم أميل الأمم للنظر والتأثر بعجائب المخلوقات ، فقد صادفوا في هذا الملك الواسع ما يبسل غليلهم ويشفي صدورهم . فبينما هم وسط صحراء رملية ، لا يتصور الوهم لها حداً ، إذا هم بسفح جبل ينقطع شعاع البصر دون بلوغ ذروته علواً وشموخاً ، هذا عدا ما كانوا يمرون به من التلال والظلال والوهاد والنجاد والحيوانات المختلفة الأشكال والألوان والأحجام والنباتات المتباينة الأجناس والفصائل مما لم يكونوا يتوهمون له وجوداً .

فماذا كان من نتيجة ذلك على عقائدهم ؟ كان ولا شك الحكم البات على بطلان

اساطيرهم والجزم بأنها من مخترعات كهانهم ، وبذلك أصبح الشك الذي كان
اغترامهم خلال رحلاتهم السابقة حكماً جازماً وعقيدة راسخة . وقد أثرت
عليهم هذه المشاهد تأثيراً أدام عاطفة الدين في نفوسهم مرة واحدة وقذف بهم
إلى متاهات الإلحاد المطلق ، فلم يعودوا بها يصدقون بشيء واعتبروا سائر
العقائد صوراً ولدها الخيال وجسمها الوهم ، وغلوا في الشك والتشكيك حتى
شكوا في وجود المحسوسات ووجود أنفسهم .



الباب الثاني

المدنية

رسم

الفصل الخامس

تأثير المدنية على العقائد

بعد أن جلنا بالقارىء هذه الجولة التاريخية ، يحسن بنا أن نسأل أنفسنا قائلين : ما هذا التلازم بين الرقي المادي والشكوك في الدين ؟ وما هذه العلاقة الأكيدة بين العلم بالكون والإلحاد ؟ لو كان هذا شأن أمة من الأمم لقلنا أن له سبباً عرضياً استدعته حالة من أحوالها الخاصة ، ولكنه يشاهد في جميع الأمم على حد سواء (إلا الأمة الإسلامية) وأظهر مثال لنا ما نشاهده بأعيننا من الأوروبيين فإنهم أصبحوا من ترك العقائد بحيث لا نستطيع أن نتخيل إمكان رجوعهم إليها ، وقد علقوا رقبهم كله على تركها ، وكل حين تردنا كتبهم ومجلاتهم مفعمة بالمطاعن الشديدة على البقية الباقية منهم على عقائدها ، فهل في هذا دليل على قول بعضهم من الملاحدة أن الدين باعته الجهل ومادته العمياء عن حقائق الكون ؟ وهل فيه حجة للقائلين بأن الأديان الموجودة هي حوادث تاريخية استلزمها أدوار خاصة ، وقد أدت وظيفتها وأخذت في الانحلال ولن يقوم لها في عصر العلم قائمة ؟

إن كان لا هذا ولا ذاك ، كما برهنا عليه في الفصل السابق ، وكما سنعود إليه إن شاء الله بصور مختلفة ، فهل في الرقي المادي شيء من السحر يعترى النفوس ، فيلفتها عن مطالب أرواحها ويعميها عن رؤية كمالاتها ؟

إن كان كذلك ، فما هو ذلك السحر في نفسه وما منشأه ، وكيف يؤثر على العقول هذا التأثير المدهش ؟ وهل لا يمكن أن يوجد على سطح الأرض مدنية مادية متحدة بكالات روحانية ، ويكون الانسان بينها مغموراً في نعم روحه وجسده ، متمتعاً بلذائذ مادته ومعناه ؟ إن كان لا يمكن ذلك ، فهل شرع الدين ليكون مقصوراً على الفقراء والمساكين وموقوفاً على المحرومين والمستضعفين ؟

وإن كان من الممكن جمع مدنية مادية ، أو كالات روحية ، فما بال بعض المسلمين الذين قضى عليهم بالاحتكاك في قشور هذه المدنية الأوروبية قد خلموا أعنة الدين ، وأملسوا من وشيجة العقيدة ؟

ليس من العدل أن نصمم كلهم بالعمية والطيش ، فإن منهم المتعلم الذي يفخر به معلموه ، والسمح الذي هام به محبوه ، والأريحي الذي يحمده قاصدوه ، فما الذي أمال أعناق هؤلاء إلى الهوى ودفعهم إلى الردى ؟ وإذا كان لا مناص من أن يكون الرقي المادي يقابله عدم الدين ، وقد رأينا بوادره في إخواننا الأقربين ، فانتظر إذن حيناً من الدهر لا تصادف فيه راکعاً في محراب ، ولا داعياً إلى غير شراب ، لأن المدنية الصناعية آخذة في الانتشار ومتسربة إلى سائر الأمصار ، وإنك ترى أنها تعدت من كبار الأفراد إلى من يليهم ، ومن يليهم إلى من دونهم ، حتى دخلت إلى قرى الفلاحين ، وكادت تطرق الباب على صغار الحراثين ، فإن كان كما قلنا : في المدنية شيء مما نسنيه سحراً ، فقد قرب الوقت الذي ندعو فيه إلى الدين ، فلا يخبينا غير الصدى ، ويذهب كل ما كتبناه في الحث على التخلق به سدى ؟

أليست هذه مسألة يجب التعمق فيها لإدراك سرها ، والوقوف على حقيقة أمرها ، لنعرف مكان الدواء وحقيقة الدواء تفادياً من التعب في غير متعب ، وهرباً من الذهاب في غير مذهب ؟

ما هي المدنية ، وما تأثيرها على الروح الانسانية ؟ ما هي الشهوات الجثمانية وما هي الكمالات النفسانية ؟ لماذا يفضل الإنسان الشهوات الفانية على الكمالات الباقية ؟ هل السبب في ذلك عدم الإيمان ؟ فما هو الإيمان ، كيف يقوى وكيف يضعف ؟ هل في العلوم المادية ما يقوم مقام الدين في إيتاء الروح حاجتها ، وتهدئة النفس في جيشانها ؟ هل فيها ما يغذي عواطف الروح ويجعلها تقنع بنعيم الحياة الأرضية ، وتكتفي بملاذمها الجسدية ؟ هل نمو القوة العقلية ينتهي بالإنسان إلى اعتقاد بطلان الأديان ، وإدراك فساد ما بنيت عليه من الأركان ، فيكون الشأن تأخر الدين كلما تقدم العقل ، حتى يتم الأمر بزوال الدين وانتهاء سلطته ، وقيام العقل مقامه في أداء وظيفته ؟ .. يمكن أن يقال نعم ، وأن يقال لا .

إن قيل نعم ، فما هو العقل وما هو الدين وما حدود سلطانهما على النفوس ؟ هل هما يتنازعا على الإنسان من جهة مشتركة فيكون هو للغالب منها دون الآخر ، أم لكل منهما دائرة نفوذ خاصة يؤثر على الإنسان من قبلها ؟ إن كانا يتنازعا على الإنسان من جهة واحدة ، فما هي تلك الجهة منه ؟ وإن كان لكل منهما جهة خاصة فما هي جهة سلطة العقل ، وما هي جهة سلطة الدين ؟

وإن قيل لا ، نقول : إذن ما هذا الأثر الذي نشاهده ؟ لماذا نرى كل من ازداد علماً بالكون وبالأمم من أصحاب الأديان سواء الأقدمين أو المحدثين ، يشكون في العقائد ويتهاونون في أمرها ، ولا يزالون كذلك حتى يتركوها بالمرّة ؟

إن قيل : ذلك لما تسهله المدنية لهم من أسباب اللهو والترف ، وما تجلبه لهم من المغريات على الخلعة والسرف ، نقول : وكيف يقوم لأمثال هذه الأمم قائمة ، وكل ما ذكر من صنوف اللهو محلل لروابط الهيئة الاجتماعية ، عاد على كيان حواظها الأصلية ؟ هل ذلك لأننا واهمون في تحديد ماهية الفضيلة وماهية الرذيلة ؟ ماذا يكون جوابنا لو استشكل علينا خصم فقال :

« إنكم سميت عاداتكم فضائل ، ودعوتم أصدادها رذائل ، وجعلتم ذلك قانوناً تحكمون به على الأمم والأفراد ، فيذهب كل يوم حكم أدرج الرياح . تطبقون عاداتكم على أمم الغرب فلا تنطبق عليها ، فتحكون عليها بأنها بعيدة عن الفضيلة ، وترون فيها أصداد عاداتكم فتحسبونها رذائل ، فتسرعون بالقضاء عليها بقرب الزوال والتلاشي . والحقيقة غير ما تحكمون وما تظنون .

« إنكم تنظرون الى الربا ، فتظنونه رذيلة محتاجة (هذا قول المعارض) مع أن عليه تدور دائرة التعامل في العالم المتمدن كله ، وبه تتوطد الدعائم الاقتصادية فيه . ولتفتنوا إلى الخمر فتعدونها رذيلة ، حتى الاعتدال فيها مع أنها المورد الأكبر للمالية الأمم المتقدمة . وترون الى مسألة تكشف النساء ، وحضورهن في مجالس الرجال ، فتخالونه رذيلة ، مع أنه أهم الأسباب التي رقت الأوروبيين ، وأخذت بأيديهم الى مكانات العلاء والرفعة . وهكذا سميت كل ما خالفكم فيه غيركم رذيلة ، وهي في الحقيقة فضيلة ، وصرت تثرثرون بها كل يوم حتى اعتادتها الأسماع ولم يعد لها تأثير .

إنكم تتعجبون من كونكم مسحوبين من أنوفكم الى تقليد الأوروبيين والأخذ بعاداتهم ، وتذهبون في تحليل هذا الأمر مذاهب الخيال ، والشعر ، فتسمونه سحراً ، أو تسمونه روحاً . وقد جعلتم التفييق بأمثال هذه الكلمات مادة لكم في ابجائكم وكتاباتكم . أتدرون ما تجدونه في أنفسكم من الاندفاع للتقليد أثر أي قوة هو ؟ هو أثر قوة الفضيلة في الأمم التي تحكمون بها ، لأن الفضيلة جذابة خلابة ، تؤثر تأثير السحر على العواطف والأميال ، فهي تجذبكم كل يوم إليها بقوتها الذاتية ، فترضخون لأحكامها بالفعل بينما تكون ألسنتكم وأقلامكم لائكة تلك العبارات الاستفهامية ، والجلل التعجبية ، اندهاشاً من كونكم مسحورين بالرذائل ، ومجبرين على ترك الفضائل . فعليكم أن تتبصروا وتجيئوا استعمال الروية ، قبل أن تقع على عاتق المتهورين من كتابكم المسؤولية ، مسئولية صد الشرق عن الاستفادة من خير المدينة . »

هذا ما يستطيع أن يقوله مجادل عنيد في مناسبة ما سقناه من النبذة التاريخية ، وما تساءلنا عنه من ذلك المؤثر الذي يؤثر على العقيدة الدينية في عصور المدنية . وهو من الشبه الرائجة في أيامنا هذه على ألسنة بعض الناس ، من يستطيعون التعبير . وفي ضmann البعض الآخر ، ممن لا يحسنون القول والقليل . فلا مناص لنا من حلها حلا جلياً تفصيلياً إن شاء الله تعالى ، لأنها من أحابيل شياطين الشرق اليوم ، التي وقع فيها كثير من أفراد النشأة الجديدة ، مسوقين إليها بتيارين : تيار سحر الزخرف الصناعي المنصب إلينا من أوروبا ، و تيار القوة والنفوذ اللذين هما في جانب الغرب اليوم .

هذان التياران ، وإن كنا في العادة دافعين هائلين للأمم المستضعفة إلى الانحلال ، إلا أنها لا يبلغان غاية قوتها ، إلا أمام الأمم الجاهلة الغافلة عن سر الحياة ، التي لا تسمح لها عمايتها بالتفكير فيما بعد يومها الذي هي فيه ، وتومها وسوسها بأن الحال لن يتغير عما هو عليه ، وإن العالم قد طبع بطابع نهائي ، أي أن القوي يبقى قوياً إلى الأبد ، والضعيف لا يبرح ضعيفاً إلى الأبد ، ولا معنى لهذا إلا اليأس بعينه ، وهو أشد درجات الكفر في مذهبنا .

فالعلم والحالة هذه ، يفتح للأرواح باب الأمل الواسع ، ويحلهم بساحة الرجاء المنعش ، فيطلبون الحياة بالديهم من الوسائل ، فإن أكدت الوسائل إليها ولو بالتعني ، واحتتموا بذلك من اليأس الذي هو طاعون الهمم ، وسرطان الشعوب والأمم ؛ ولو لم يكن في حلولنا لهذه الشبه ، إلا الإلمام بشيء من أسرار الحياة ، لكفى به نتيجة عظمتى ، ولا محل لتلك الحلول غير كتاب خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم ، عسى أن يصادفنا من نوره الأقدس ، شعاع نستقيم بلألانه على المنهاج السوي ، والصراط الإلهي ، والله مولانا فنعم المولى ونعم النصير .

* * *

الفصل السادس

أُشْرِفَتْح فَارْسِسْ عَلَى عِلْمِ الْيُونَانِيِّينَ وَفَلَسَفَتِهِمْ

درسنا في الفصل المتقدم الأثر الذي أحدثته على عقائد اليونانيين معالم المدنية المادية ، في بلاد الفرس ومستعمراتها الواسعة ، ثم وقفنا بالقارىء وقفة اعتبار وتأمل ، وقلنا في ذلك ما شاء الله أن نقول على مقتضى أسلوبنا في هذه المباحث ، ونريد اليوم العود إلى موضوعنا الأصلي ، لاستيفاء درس ذلك التأثير من جميع وجوهه العلمية والفلسفية فنقول :

وجد اليونانيون بإزاء تلك الكنوز الثمينة من اللجين والعقيان ، والجواهر والذهبان ، والأبنية التي كانت تناغى الكواكب ، وتسامي الدراري الثواقب ، كنوزاً أدبية أتمن قيمة ، وأغلائنا ، وأصلح لإقامة الحياة الإنسانية ، وألحق بمواطن الفطرة البشرية ، وهي نتائج أفكار تلك الأمم القديمة ، التي كانت يتكوّن منها ذلك الملّك الفارسي الضخم ، من الكلدانيين والبابليين ، وغيرهم من الشعوب العريقة في القدم ، من كانت مدنياتهم بين جدولي الدجلة والفرات ، تبهر الأنظار ، وتحير المدارك ، وتدلنا نحن ، ونحن أبناء القرن العشرين ، على مقدار ما كان يبذله قادة أفكار تلك الأمم ، من الجهود الفكرية ، والمحاولات النظرية ، مما يليق أن نعجب به ونعجب منه .

وجد اليونانيون في بلاد البابليين من ذخائر العلوم الفلكية ، جواهر لا تقاومها الجواهر ، وكنوزاً دونها الذهب الباهر ، كأسباب الخسوف والكسوف ، وطرق معرفة أوقات حصولها بالضبط ، وعثروا على جداول تبين مواقع النجوم من السماء ، ومواضعها من الأجواء ، مع بيان ثبات ثابتها ، وحركة متحركها ، ومنازلها بالنسبة إلى أخواتها ، مع معرفة مقادير الأبعاد الشاسعة التي تفصل بعضها عن بعض ، ووقفوا على غير هذا من الآلات الفلكية ، والمعدات الرصدية ، والمعدات المكبرة ، والمعادلات الرياضية النافعة ، مما لا يكفي في العثور عليه القرون المتطاولة ، والأحقاب المترامية .

رأى اليونان كل هذا ، ولا تسلم عما أحدثه على عقولهم ونفوسهم ، وهم قوم لم يكونوا لذلك الحين اعتادوا من أعمال المواهب الأدبية غير التأملات المطبوعة بطابع الأساطير الوهمية ، المقيسة على خرافاتهم الاعتقادية .

كان هذا تأثير ذلك الفتح العظيم على اليونانيين من جهة العلوم النظرية والتجريبية ، أما أثره عليهم من جهة الفلسفة والحكمة فمما لا يستهان به .

عاش اليونانيون تلك القرون كلها ، وهم بين يدي كهان الهياكل ، وسدنة المعابد ، أفكارهم أسرى تعاليمهم ، وعقولهم وقف على تصديقهم ، كأن رؤسائهم أرواحهم التي بها يتحركون ، ومشاعرهم التي بها يشعرون ويتأثرون ، كما هو شأن كل الأمم الطفلة بين يدي قادتها المتغلبين ، وسادتها الروحيين ، ولم يكونوا لذلك العهد قد وقفوا من أسرار الحكمة التي نزل بها الوحي على بعض الأمم ، أو من الأساطير المؤنقة التي ولدتها وصقلتها قرائح الشعوب الراقية ، على شيء يصلح لأن يحدث حركة في أفكارهم ، أو يستجيش من غيابة ضمائرهم مكنون ملكاتهم ، إلا أنهم لما شاربوا هذه الأمم ، التي ذاقت حلاوة الوحي الحق ، واستضاءت بنور الرسل والنبيين ، واجتازت دور الطفولية الأولى ، وإن كانت عدت على حقائقها بالتحوير والتبديل ، رأوا أنهم حيال بحر من الحكمة زاخر ، وفي وسط باحة من ثمرات الفكر ، ليس لها أول ولا آخر .

رأوا تعاليم ديانة (ذورو واستر) الفارسي الذي ولد ، كما يدعي اليونانيون ، قبل زمن جاهليتهم بخمسة آلاف عام ، ولم يهتد العلم التاريخي إلى تحديد زمن وجوده للآن . وأول تعاليم تلك الديانة ، فرض وجود إلهين مستقلين يحكمان الوجود ، إله للخير ، وله سبعة أعوان عظام ، يتلقون أوامره ويساعدونه في إدارة العالم ، يصرفون القوى الخاضعة لهم إلى الوجهة التي يريدونها ، وإله للشر ، وهو متسلط على عالم الظلمة وله أعضاء سبعة كالأول يوازرونه في تصريف شؤون عالمه الظلماني . هذان الإلهان في نزاع مستمر ، وتناظر دائم ، يتجاذبان بينهما هذا الإنسان الضعيف ويود كل منهم أن يخضعه لسلطانه ، فهو إذن لمن غلب منها . ولكن هذا النزاع ليس بأبدي لا آخر له ، بل له يوم ينقطع فيه بغلبة إله الخير على خصمه إله الشر ، هناك تنقطع مادة الشرور ، ويصل الإنسان من نعم الحياة ولذات الفضائل ، إلى حالة ليس بعدها غاية لطموح . ثم رأى اليونانيون بجانب هذه الديانة ، العقيدة المحوسية ، التي ترى في النار أعظم مظهر للقوة الخالقة المحيية للكون ، وناهيك بما في هذه الأساطير من صور خيالة ، وأشكال تصويرية ، وأحلام شعرية ، ومدارك فلسفية ، انتزعت من باحات المعاني الإنسانية ، واصطيدت من شوارد العواطف القلبية ، فكان مثلها مثل الشعر في تلطيف العواطف ، وتلين الشكاكم ، والتملق لإحساسات النفس وأميلها ، والتلف لمرامها وأمالها .

سبح فكر اليونانيين من كل هذه الثمرات الفلسفية ، في بحار تتراوح أمواجها ، وتتقاذف تياراتها ، فذهبت بأفكارهم مذاهب شتى ، وانتجت بمدركاتهم مناحي بعيدة ، وصارت لعقولهم صقلاً جلت عنها غاشيات الجهود ، وحجب العماية ، فجرت بهم في ساحات التصورات أشواطاً شاسعة نقلتهم من حالة إلى حالات أخرى ، وقذفت بهم في أطوار عدة ، أعدتهم لأن يكونوا المكان المناسب لتكوّن جرثومة العلم ، التي انتقلت منهم إلى العرب ، فأفرعت فيهم وبهم هذه الأفرع المثمرة ، التي من ثمراتها مدنية اليوم . هذه الأفرع

الوافة الظلال ، السابغة الأفياء ، وإن زاحم فيها الشوك ثمراتها اليانعة ، حق أصبح الجاني لا يصيب ثمرة حتى تصيبه شوكة ، فليس ذلك إلا من غلطات القائمين بحفظ غياضها ، وهو ما سنجعله إن شاء الله ، من بعض مباحثنا لتتجلى دوحة العلم طاهرة مما يشينها ويعيبها .

وفاة الاسكندر وتجزؤ ملكه :

توفي الاسكندر بعد أداء هذه الفتوحات الباهرة في سنة (٣٢٣) قبل الميلاد ، ولم يجاوز سنه إذ ذاك الثلاث والثلاثين سنة ، فأعقبت موته فتن قامت لها دولته وقعدت أكثر من عشرين سنة ، ثم انتهت بتجزؤ ملكه إلى ثلاثة أقسام : (١) مقدونيا ، (٢) آسيا الصغرى ، (٣) مصر . أما الملكتان الأوليان ، فليس لنا عليها كلام ، لعدم تعلقها بموضوعنا ، وأما الثالثة ، وهي مصر ، فهي مرمى غرضنا في هذه المعجالة ، لمساسها بما نحن فيه من كل وجهة .

وقعت مصر في هذه القسمة ، نصيباً لبطليموس أخي الاسكندر من أبيه ، وهو وإن لم يكن في مقام الاسكندر ، من حيث قيادة الجيوش ، وفض المعازل والحصون ، إلا أنه مؤسس دولة العلم ، وغارس علمه ، وهو أمر جعل اسمه مقروناً بالإعجاب والإكبار ، في تاريخ الحكمة والعرفان .

اتخذ هذا الملك الكبير مقر ملكه مدينة الاسكندرية ، التي بناها أخوه الإسكندر . وكان قد علم ، من حسن موقعها ، أنها ستكون نقطة الاتصال بين الغرب والشرق ، وحشر إليها أمة كبيرة من اليهود رجاء تعميرها ، فلما اتخذها بطليموس هذا الملقب (سوتير) ، مقر ملكه وعش دولته ، بعث إليها مائة ألف من الإسرائيليين ، وأظلمهم هم وأهلها الأصليين بأجنحة النظامات والقوانين العادلة ، والمساواة النادرة المثال ، وسهل لهم سبل المعاش والرغد .

فلم يعض عليهم طائفة من الزمن، حتى تهاطل اليونانيون إليها من كل حذب، طمعاً في الحياة تحت ظل هذه الحكومة العادلة، في خفض من العيش، وأمان من الظلم، وبهذا أصبحت الاسكندرية وأهلها من ثلاث طوائف مختلفة: المصريون الأصليون، واليهود المستعمرون، واليونانيون المهاجرون، والكل عاثشون في سلام ووثام، لا يفكرون في غير حفظ النظام، فلم تمر على تلك المدينة غير سنوات قليلة، حتى حلاها صناع اليونانيين ومهندسيهم بما لا يقبل الوصف من المعاهد والبنيان، والبساتين والجنان، والآثار الحسان، مما جعلها زهرة البلدان، ودرة ثغور اليونان. ولكن كل هذا، ليس بشيء يذكر في تاريخ بطليموس أخي الاسكندر، إذ أقسته بأثره الخالد الذكر، ألا وهو مشروعه في تأسيس (دار الآثار)، التي منها انبعثت أشعة العلوم والعرفان، وتدفقت جداول الحكمة والبيان، وفيها حفظت ذخائر الأولين من الدور والزوال، فكانت منبتاً لشجرة العلم الوارفة الظلال، التي من ثمراتها ما نحن فيه اليوم من وسائل الصناعة، وأساليب سهولة المعاش.



دار آثار الاسكندرية وكليتها العلمية

وضع مشروع هذه الدار الخالدة الذكرى، وأقام جذرائها (بطليموس سوتير) في أجود بقاع الاسكندرية هواء، وأحسنها منظراً ورواء. وأتم بناءها ابنه (بطليموس فيلادلف) السالك على قدم أبيه، ولا عجب بعد هذا، في دار يتولى أمرها ملكان، ويبذلا دونها خزائن العقيان، ويقفا عليها قرائح المهندسين العظام، والصناع الكبار، أن تجيء من الرواء على أحسن

الأشكال ، ومن الفخامة على أكمل حال ، فلا تسل عما أودعته فيها يد الصناعة من الانصاب والتأثيل ، وما وشته بها أنامل الفنون الجميلة من النقوش والتلوين ، وما أودعته بها أدوات الإبداع من التنسيق والتنظيم ، وما نشرته عليها راحات الغنى ، من رواء الفخامة المهيبة ، ورونق الظرف العجيب الغريب ؛ دع كل هذا جانباً ، فإن ما حشر إليها من نفائس الكتب ، وذخائر مجهودات العقول ، وجواهر القرائح والأفكار ، لما يدهش الواقف عليه ، والمطالع لأخباره ، وناهيك بما يستدعيه جمع سبعمائة ألف مجلد منسوخ من نوادر المؤلفات ، وشوارد المباحث ، في وقت لم تكن للطباعة فيه أثر ولا خبر ، ولا من المصاريف الباهظة ، والكلف البالغة حد الكثرة . إلا أنه لو عرف الغرض من هذا التبذير والاسراف ، لقليل التبذير في أشرف الأغراض قصد واعتدال .

كان الغرض من إقامة معالم هذه الدار ، ثلاث أمور مهمة : (أولاها) صيانة ثمرات العقول والأفكار الإنسانية من أن تفتالها يد الضياع ، أو تلعب بها أنامل التبديل والمسخ . و (ثانيها) إنماء تلك الثمرات ، واستثمار جرائمها على مقتضى ناموس الترقى . و (ثالثها) نشرها بين العالم ، وإشراقها للعقول لتحسين حال الحياة الإنسانية .

أما ما يختص بالأمر الأول ، فقد وكل إلى من كان يديرها من قادة الأفكار ، وملوك العقول ، شراء كل ما يقع تحت أيديهم من الكتب مهما بلغ ثمنها ، وإيداعها في محلها من المكتبة ، ولا تسل عما كان يتبع ذلك من عدد النساخين والمصححين والمرتبين الخ ... مما لا قبل للقلم بوصفه ، كالمجهودات التي كانت تبذل للحصول على المؤلفات النادرة من العواصم المتناثية ، والبلدان البعيدة .

أما ما يختص بالأمر الثاني ، أي بإنماء تلك العلوم واستثمارها ، فقد وكلت إلى رجالها من أئمة الأفكار ، وسلاطين المدارك ، الذين أسكنهم الملك تلك

الدار ، وأحلمهم بها في أمنع جوار ، وأعد لهم فيها ما يلزمهم من حجرات ومطاعم ، وأجرى عليهم الأجور والمرتبات ، وكان كثيراً ما يحيي الملك إليهم ويشاركهم في غذائهم ، إكباراً لشأنهم ، وتقخيماً لأمرهم .

أما العلوم كلها في هذه الجامعة ، فكانت تنقسم إلى أربعة أقسام :
(١) العلوم الأدبية ، (٢) العلوم الرياضية ، (٣) العلوم الفلكية ، (٤) العلوم الطبية . وكانت الفروع العلمية الباقية تابعة لهذه الأصول الأربعة .

كان لهذه الدار حديقة كبرى ، غرس بها كل ما أمكن الاهتداء إليه من النباتات التي يقبلها الجو المصري ، لتسهيل دراسة علم النباتات ، كما أنه كان بها محل خاص بالحيوانات ، حشر إليه كل ما وصلت إليه يد الثروة من أنواعها ، لتكامل درس التاريخ الطبيعي ، وزيادة عما مضى ، فقد أودع هذا الصرح العلمي الفخيم ، كل ما كان معروفاً من آلات الأرصاد ، وعدد الكيما ، ومعدات سائر الفنون المعروفة ، مما يستحيل وجوده مجتمعاً في مكان واحد .

أما فيما يتعلق بالأمر الثالث : أي نشر أنوار المعلومات الإنسانية في سائر طبقات العالم ، فقد ساروا فيه بإعداد محلات للمطالعة ، وسماع الخطب ، يحضره من شاء من كل صنف وجنس ، وزيادة عن ذلك ، فقد كان فيها من طلبة العلم ، ما يزيد عن الأربعة عشر ألفاً من أقاصي الأرض وأدانيها .

دستور العلوم الطبيعية في كلية الاسكندرية :

بالنسبة لما كان بين الاسكندر وأخيه بطليموس ، وبين الفيلسوف الشهير أرسطو من المحبة الأكيدة ، ونظراً لما كان يحفظه هذان الملكان في قلبيهما لهذا الرجل الكبير ، من الشعور بحقوق التربية والتعليم ، سادت تعاليمه وأفكاره في زمانيهما ، وكان لها السهم العالي من الإجلال والإعزاز ، حتى أنه لما تم بناء مدرسة الاسكندرية ، جعل دستور التعليم فيها مطابقاً لدستور أرسطو ، وأسلوب البحث تابع لأسلوبه .

أما دستور أرسطو هذا ، في مباحثه لاستكناه المجهولات ، واستطلاع خفايا المسابير الكونية ، فقد كان النظر في الحوادث الجزئية ، ثم التدرج منها إلى الأمور الكلية على معراج الاستدلال والاستقراء ، ومن كان هذا أسلوبه في مباحثه احتاج الى مشاهدات كثيرة ، وأعوزه السدأب والسهر وراء اصطياد نوادرها وتقييد شواردها ، وإعمال قواه في الفحص والتدقيق ، والمقارنة والتوفيق ، وبذل الوسع في التأمل ، ليستطيع تبين علائها ، وإدراك نسبها بعضها إلى بعض ، واستشراق قانونها السائد عليها . ورد ما شذ عنه إلى القانون الملائم له ، ولا يخفى ما في هذا من المشقة ، لأنه يرتكن على صفاء العقل ، وجودة التفكير ، لا على قوة الخيال وحسن التصوير . وما يعد على أرسطو من الأغلاط الكبيرة ، فلا يدل على فساد مبدئه ، بل هو يؤيده ويقويه ، لأن منشأها قلة المشاهدات التي ارتكز عليها في الحكم ليس إلا .

هذا الدستور ، الذي وضع أرسطو دعائمه ، هو بعينه دستور العلم الحالي ، وبسببه نشأت هذه المدينة الصناعية الساحرة ، التي أصبحت فتنة الأعين والقلوب ، وكادت تنسي الإنسان جمال العالم المعنوي الذي خلق للبحث عنه واستشراقه « والله غالب على أمره » .

دستور العلوم الادبية في كلية الاسكندرية :

بينما كانت العلوم المادية تابعة أسلوب فيلسوف (أثينا) في كلية الاسكندرية ، كانت العلوم الأدبية سائرة على مقتضى فلسفة (زينون) ، التي كان لها المقام الأول مدى قرون كثيرة ، في تعزية الانسان على مصائبه ، وتشجيعه على خوض غمرات الحياة ، واقتحام حزونها ، مطمئن الجأش ثابت التزيمة .

أول غرض وجه (زينون) إليه سائر قواه ، ووضعه نصب عينه ، هو إيجاد قاعدة قديمة حكيمة ، إذا سار عليها الإنسان ، وأدمن عليها ، أدته إلى كمال الفضيلة ، وأجلسته على كرسي السعادة والطمأنينة . الأساس الذي بنى عليه

هذا الفيلسوف فلسفته في تكميل الانسان ، هو التربية ، فقد سمع يقول : « إذا كنا نعرف الخير ، لمنا إليه ميلاً فطرياً ، وعملنا به لا محالة . فيلزمنا أن نركن إلى مشاعرنا في تهيئة العلوم الأولية لنا ، وهدايتنا إلى مبادئ المعارف الضرورية ، وأن نتمتع بعد ذلك على عقلنا ، ليكون لنا من مجموعها ، ما يحسن بنا السير عليه في إقامة أمر الحياة وتحسينها . فإن الحسد ، والميل للشهوات ، والشره ، أدواء لم تنشأ فينا إلا من نقص معارفنا . أما أجسامنا ، فإنها وإن كانت خلقت على نظام ومزاج لا دخل لنا في كسبه ، إلا أننا يجب علينا ، مع ذلك ، أن نتعلم كيف نحكم على شهواتنا ، وكيف نعيش أحراراً عقلاء فضلاء ، خاضعين لأحكام العقل في كل حركاتنا وسكناتنا . أما حياتنا ، فيجب أن يسود فيها سلطان الفكر على سلطان الجسم . وبناء عليه ، فيلزمنا أن لا نحفل بالذات ، ولا بالأوجاع البدنية ، ويحذر بنا أن نروض أنفسنا على استصغارها ، وعدم الخشية منها ، مهما تفاقت وعظمت ، وإن كان في أعقابها الموت نفسه ؟ ويجب علينا أن لا نغفل هذه الحقيقة ، وهي أن الطبيعة مسوقة إلى الكمال العام ، وأنها تضحي الجزئيات في سبيل الكلليات ، فليس أمامنا ، والحالة هذه ، إلا الرضوخ لهذا القضاء والرضاء به ، فلنجعل كل همنا موجهاً إلى زيادة معارفنا ، وتقوية عاطفة الاعتدال والحكمة في نفوسنا ، فإن المعارف هي العناصر الأولية للفضيلة اللازمة لنا ، التي هي رأس مالنا في هذا العالم .

« إذا لنرى أن كل ما حولنا من العالم ، يفتابه التغير والتحول ، وإن الموت يعقب الحياة ، وإن الحياة تعقب الموت ، فمن الجهل إذن أن لا نريد الموت في عالم كل ما فيه صائر إلى الزوال والتلاشي . وكما أن التيار الجاري ، يحفظ شكله وقوامه دائماً ، مهما تبدلت مياهه وتجددت ، فكذلك الطبيعة ، يمكن تشبيهها بتيار دائم الجريان تتبدل كائناته وتتغير ، وهو حافظ صورته إلى الأبد . (كذا) . وإنك ، إذا نظرت للوجود في مجموعه ، وجسده لا يتغير ، ولكن الخالد منه في الحقيقة هو الفضاء ، والجوهر الفرد ، والقوة ، أما صور الكائنات فهي أشكال وقتية معرضة للزوال والتلاشي .

« يلزمنا أن نعلم ، أن أكثر الناس على فساد عظيم من حيث التربية ، وبناء عليه ، فيجب علينا أن لا ننمي عليهم ما هم فيه من العقائد والتعاليم الراهنة . أما نحن ، فيكفيننا من العقيدة ، أن نعترف بأنه ، وإن كان يوجد في الكون قوة أسمى من أن يحددها التصور ، إلا أنه لا يوجد فيه ذات مشخصة ، أي أنه يوجد في العالم أصل محبوب عن نواظرنا ، ولكن ليس هو إلهاً مكيفاً ذا شخصية يوصف بصورة وإحساسات وأهواء ، كما للإنسان من ذلك . ذلك مستحيل ، بل كفر صراح . من هنا ، فلا وجه لتصديق ما يسميه الناس وحياً (كذا) . أما ما يدعوه الناس (صدفة) فليس إلا نتيجة لسبب مجهول ، فإن للصدفة نفسها قانوناً . ثم ذكر كلاماً دل على جعوده بالعناية الإلهية ، وعلى أن الكون سائر على مقتضى نواميس طبيعية . ثم عزي إليه بعد ذلك قوله : « إن التغيرات التي تفتاب الكائنات ، تحصل بطريقة لازمة ضرورية ، حتى أنه يمكن أن يقال ، أن العالم في ترقيه وتدرجه ، مثله كمثل الجرثومة التي لا تستطيع أن تنمو إلا على صفة محدودة .

« أما الروح فهي شعاع من الشمس الحيوية التي هي الأصل العام لجميع الكائنات ، وهي تنتقل كالحرارة من فرد إلى فرد ، وتنتهي بأن ترجع ثانياً إلى محددها العام التي جاءت منه . وبناء عليه ، فليس حظنا بعد الحياة العدم والزوال ، بل الاجتماع والانضمام . وكما أن الرجل إذا أعياه الكد بالنهار يلجأ إلى النوم والسبات ، فكذلك الفيلسوف متى تعب من مجهودات الحياة وتكاليفها ، يتمنى الموت والراحة . على أنه ، ليس لدينا إلا معلومات تافهة على هذه الأمور المجهولة ، لأن العقل لا يستطيع أن يدرك نفسه بنفسه . ومن الأمور المضادة للفلسفة الحققة ، أن يدأب الإنسان للبحث عن أصول الأسباب ، فالواجب القنوع بدرس الحوادث في ذاتها . وبما يجب علينا وضعه نصب أعيننا ، هو أن الإنسان لا يستطيع أن يصل إلى الحقيقة المطلقة ، مهما حاولها وتطلع إليها . وأن الثمرة النهائية لمجهودات الإنسان وراء اكتناه أسرار المادة ، هي تأكيده

بأنه لا يصلح للإمام بكل شيء . وأننا على فرض وصولنا إلى حقيقة من الحقائق ، فلا نزال نشعر بالحاجة الى دليل على أنها حقيقة . إذن فماذا بقي علينا بعد هذا من الواجبات ؟ بقي علينا العلم بالكون على الطريقة التي يهبطها لنا البحث العميق ، والفضيلة والصدقة ، وحب الحقيقة ، وصدق النية ، وقبول تكاليف حياتنا بالصبر والثبات ، والمعيشة على صفة ثلاث قوانين العقل ونواميس الحكمة . »

هذا ملخص فلسفة (ذينون) . على أن تلك الجامعة لم تكن قاصرة على فلسفة أرسطو ودينون ، بل كانت تتناول من سائر المذاهب حصصاً مناسبة ، بحيث أنها كانت ملتقى لأشعة أفكار سائر الأعلياء من النوع الإنساني .

* * *

نظرة على ما سبق

نحن بإيرادنا تاريخ العلم من أول نشأته ، وتنقيبنا عن أصول المذاهب الفلسفية والوصول إلى جرائمها الأصلية ، لا نقصد بسط مجرد تاريخها .. بل نقصد بذلك أن نواتي مقتضيات نظريتنا التي بسطناها في كتاب (خاتم النبيين) صلى الله عليه وسلم ، وهي أن الإلحاد حال من الأحوال الإنسانية ، تقتضيها الفواعل الاجتماعية والأدبية والدينية ، التي تحتوش الأمة ، حتى إن تلك العلوم ، التي يقصد بها الإلحاد والجحود (تأمل) هي نتيجة الحال لا سببها المولد لها .

قلنا ذلك ، ووعدنا ببذل الوسع في السلوك في هذا الموضوع ، المسالك التي تلائم وتوافق ، من اختراق غلف الظواهر والنفوذ إلى سرائر المسائل وضمائرها ، لنحصر ان شاء الله تلك الحال الإلحادية التي لا توافق مطالب الروح الإنسانية في دائرتها الضيقة ليتمكن علاجها فيها واستئصال شأقتها . ذلك أولى من أن نتابع

الخطوة المعروفة في محاولة حل مسألة الإلحاد بالحجج والبراهين التي لانصيب لها من التأثير على الأفعال الإنسانية إلا ما نراه من التناقض بين العمل والعقيدة .

وقد رأينا أننا لا نستطيع أن نوفي حق أسلوبنا هذا ، إلا بدرس الأحوال الإنسانية المختلفة من لدن تكوئها ، ومشاركة العلوم والمعارف من أول نشأتها . وقد وفينا بعض ذلك بدرس أحوال اليونانيين ، وهي الأمة التي نشأ فيها العلم ، ثم طفقنا بها في فتوحاتها حتى وصلنا إلى تأسيسها لجامعة الإسكندرية ، التي جمعت فيها جرائم المعارف المنثورة في الآفاق . ومن هنا نرجو أن نوفق لتتبع حركة نمو هذه الجرائم العلمية في مدى القرون والأجيال ، مع درس الأحوال الإنسانية التي اقتضته . مجلين في كل دور من هذه الأدوار ، مكان العاطفة الدينية من القلوب ، وكنه ما تأثرت به من تلك الحال ، حتى نصل بهذا السير إلى عصرنا الحالي ، إن شاء الله ، فنقف بالقارئ موقفاً يطلع منه على حال الإنسانية في علومها ، وصنائعها ، وفلسفاتها ، ومكانة الدين لديها ، وعلى السبيل التي تسيره بمجموعها ، وعلى آثار مدينتها في تعديل أو تعويج أمورها .

أما كتاب خاتم النبيين ، صلى الله عليه وسلم ، فسيكون من وظيفته في كل دور من هذه الأدوار ، تتبع كل بحث من هذه الأبحاث ، بما يحله ويحليه من كتاب الله تعالى ، ليتجلى للقارئ بأوضح بيان قوله تعالى : « ما فرطنا في الكتاب من شيء » ، ولقد صرنا في هذا القرآن للناس من كل مثل وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً . وليسطع أمام عينيه البرهان المحسوس ، على أن لا حياة للعالم ولا قوام له ، على الحال التي تليق بالإنسان الراقى ، ولا عدالة تسود على جميع أفرادهم بالفيض الإلهي على السواء ، إلا بالاعتقاد برسالة المصلح الأعظم خاتم النبيين ، صلى الله عليه وسلم ، واتخاذ القرآن دستوراً للنظام والمدينة في كل الأزمان . ومن الله نستمد العون والقوة .

* * *

الفصل السابع

تاريخ الفلسفة

وصلنا بالقارىء من تاريخ ارتقاء الفكر الإنساني ، وتدرجه في معارج الكمال ، إلى ذكر تأسيس مدرسة الاسكندرية الجامعة التي بدأها بطليموس سوتير ، وتم بناءها ابنه ووريثه في الملك (بطليموس فيلادلف) ملك القطر المصري . وقلنا عند ذاك : « ومن هنا نرجو أن نوفق لتتبع حركة نمو هذه الجرائم العلمية في مدى القرون والأجيال ، مع درس الأحوال الانسانية التي اقتضتها ، مجلدين في كل دور من هذه الأدوار ، مكان العاطفة الدينية من القلوب ، وكنه ما تأثرت به من تلك الحال ، حتى نصل بهذا السير ، إلى عصرنا الحالي ، إن شاء الله ، فنقف بالقارىء موقفاً يطلع منه على حال الإنسانية في علومها ، وصنائعها ، وفلسفاتها ، ومكانة الدين لديها ، وعلى السبيل الذي تسيره بمجموعها ، وعلى آثار مدنياتها في تعديل أو تعويج أمورها . »

قلنا ذلك في الفصل المتقدم ، ونود اليوم أن نسير على الطريق الذي رسمناه لأنفسنا ، سيراً يناسب موضوعنا من جميع وجوهه ، بحول الله تعالى وتوفيقه . ولذلك رأينا أن نأتي على مذاهب الفلاسفة اليونانيين ، الذين اتخذت أساليبهم في البحث والنظر ، دساتير محترمة سار على مقتضاها من جاء بعدهم من كبار العقول وأئمة الفلسفة ، ولن نتقيد بمن سارت جامعة الإسكندرية على مذهبه رسمياً ،

كأرسطو ، وأفلاطون ، وذيونون ، ولكن سيتناول كلامنا ، إن شاء الله ، غيرهم من فلاسفة اليونانيين السابقين والتالين ، لينتكون للقارىء من ذلك صورة محكمة التركيب ، من شكل الفكر الإنساني في عهد خلافة الأمة اليونانية في الأرض ، أيام كانت (أثينا) عاصمتها مثابة كبار الرجال ، ومحط رحال الأقيال ، من سائر آفاق الأرض ، يطلبون فيها العلم ، ويقابلون العلماء ، ويستشرقون منها شمس المعارف وأنوار المعلومات ، ليكون قارئنا على بيّنة من مبدأ تكون الجرثومة الأولية لدوحة العلم الوارفة الظلال ، وليستطيع أن يتتبع معنا ، سلسلة هذا التاريخ العلمي الحافل من أقرب الطرق وأيسرها ، وبالله التوفيق .

هنا ننبه القارىء ، أننا لن ننقل من مذاهب الفلاسفة اليونانيين إلا عدداً يعد على الأصابع ، ممن لهم أثر ظاهر في حركة الفكر الانساني ، ولأساليبهم في البحث اعتبار إلى يومنا هذا . وقبل أن نتكلم على مذهب كل فيلسوف من هؤلاء ، يحسن بنا أن نقدم للقارىء طرفاً من ترجمته .



فيثاغورس

(بيتاجور)

ولد فيثاغورس في سنة ٥٦٩ قبل الميلاد ومات سنة ٤٧٠ ، أي عاش تسعاً وتسعين سنة . ولد بمجزيرة (ساموس) من جزائر الأرخييل اليوناني ، وكان أبوه نقاشاً اسمه (أمينزارك) وقيل أن موطنه (توسكان) .

تعلم فيثاغورس صناعة أبيه ، وصنع بنفسه ثلاثة كؤوس من الفضة ، وأهداها لثلاثة من قسوس المصريين . معلمه الأول الفيلسوف (فيرسيد) ،

وكان يجب أحدهما الآخر جماً حتى أن أستاذه لما مرض المرض الذي مات فيه ، ونحل جسمه جداً ، خاف أن يكون مصاباً بمرض معدٍ فيعدي تلميذه المخلص فيثاغورس . فلما جاءه ليعوده على حسب عادته ، أغلق دونه الباب رغماً عن حبه الشديد له ، وأخرج إليه أصابعه من شقوق الباب قائلاً : « تأمل نحول أصابعي ، تعلم منه حالي » . ولما مات أستاذه فيرسيد ، لزم فيثاغورس الفيلسوف (هرمودامنت) بجزيرة ساموس مدة من الزمن . ثم هزه الشوق للسياحة ، وتعرف أخلاق الأمم ، والأخذ عن فلاسفتها وعلمائها . فتوجه إلى مصر بوصية من الملك (بوليكرات) ملك ساموس إلى الملك (أمزيس) ملك مصر بشأنه ، فمكث في مصر مدة ، يتردد فيها على كهان المعابد المصرية ، ويلقف منهم أسرار العلوم والمعارف التي يسمحون له بها ، ثم سافر من مصر إلى بلاد الكلدانيين ، ليتعلم علومهم ويقف على مساتيرهم . ثم اتجه من هنالك إلى كثير من البلاد الشرقية ، الشهيرة بالآثار والفنون ، ثم آب من هنالك إلى مملكة (اكريطه) ، ولأذ بالفيلسوف (ايمينديس) وتودد اليه ، ثم رجع من هناك إلى وطنه الأصلي ، جزيرة (ساموس) ، فرأى أن الملك (بوليكرات) قد أحل قومه محلة البوار ، وأوغل فيهم عسفاً وظلماً ، فهاله ذلك الأمر ولم يطق الصبر على تلك الحالة المريعة ، فهاجر إلى إيطاليا ، وسكن (باكروطون) ، وأخذ يعلم الناس الفلسفة والأخلاق . فنشأ من ذلك أن مذهبه سمي (إيطاليا) . فانتشر من صيته وذاع ، واشتهر اسمه ، وكثرت تلامذته وطلابه ، حتى صار من يلازمه منهم أكثر من ثلاثمائة ، كوّن بهم جمهورية صغيرة مرتبة ترتيباً جميلاً . وذهب بعض المؤلفين إلى أن (نوما) الذي تولى امبراطوراً على الرومان ، كان أحد أولئك التلامذة ، والحقيقة هي أن نوما كان سابقاً فيثاغورس بعدة قرون ، ولم ينشأ هذا الغلط إلا من وجود تشابه كبير بين آراء نوما وفيثاغورس ، فظن بعض الناس أن ذلك جاء من كونه تلميذه وليس الأمر لذلك .

كان فيثاغورس يقول أن أشياء المتحابين يجب أن تكون شيوخاً بينهم ،

بحيث يكونون كلهم سواء في الانتفاع والمتاع بها . لذلك كان تلاميذه متبعين هذه القاعدة تمام الاتباع ، ولم يكن لأحدهم ملك خاص ، ولا مال ذاتي ، بل كان كل ما يملكونه عاماً بينهم على حد سواء . وكان من القوانين التي وضعها للأخذ عنه ، أن الطالب الجديد يكلف بأن يصبر خمس سنوات متوالية في تلقي كل ما يلقى إليه ، بدون أن ينطق ببنت شفة طول تلك المدة ، حتى إذا وفي هذا الامتحان على ما يرام ، ويقتظر ، أدخل إلى فيثاغورس نفسه ليزوره ويحاوره في العلوم والمعارف .

أوصاف فيثاغورس الشخصية : كان معتدل القامة ، وسمي الطلعة ، تلوح عليه المهابة والوقار ، وكان من عادته أن يلبس ثوباً رقيقاً من الصوف الأبيض البالغ الحد في النظافة . وكان عفيف النفس حاكماً عليها ، لا يميل لأهوائها وخطوطها . يحافظ على السر إذا استودعه ، ويبالغ في كتمه . ويؤثر عنه أن لم يُرَ ضاحكاً قط ، ولم يسمع أحد منه مزاحاً ولا هزلاً قط . وكان إذا غضب لا ينتقم ممن أغضبه ، حتى أنه كان متى أثم بعض عبيده ، ووقع منه ما يستحق التأديب ، يكبر عليه أن يضربه بيده . لهذا كان تلامذته تعتقد ألوهيته . ولا عجب ، فقد غلا القدماء في تأليه كل رجل يرون فيه فضل عقل وحكمة ، حتى أنه قد لا تخلو أمة من مثل هذه الكبوة المردية . وكان الناس يقصدونه من آفاق الأرض ، لسماع كلامه والحظوة بالتقرب إليه . حتى قيل أنه كان يأتي إلى (كروتون) في كل عام ، نحو من ستمائة من الناس لهذا القصد ليس غير . ولقد شاع ذكر فيثاغورس في البلاد بالعقل والحكمة ، حتى أن كثيراً من الأمم طلبت منه أن يسن لها قوانين تصلح به أمر حكومتها ، وتبني به هيئة اجتماعها ؟ وما أثر عنه من صفاته ، أنه كان يحرم الحلف بالآلهة والاستشهاد بها في جميع الأحوال تحريماً . وكان يقول يجب علي كل إنسان أن يؤدب نفسه ، ويروضها على الكمالات ، حتى تتصف بها ، لكيلا يكون في حاجة إلى الحلف لأجل أن يصدقه الناس .

حياته السياسية ومذهبه : - قلنا إن فيثاغورس نزل من إيطاليا بمدينة (كروتون) ، واتخذ بيت (ميلون) مدرسة له ، وحشر اليها مع النفر الذين كانوا معه من اليونانيين ، شردمة من أهل تلك البلدة ممن التفوا حوله ولازموه ، رجاء الوصول إلى لباب الحكمة على يديه .

في عصر هذا الفيلسوف ، كان جنوب إيطاليا وهي القطعة التي اختارها دار هجرة له ، شاملة لجملة حكومات (أريستوكراسية) ، أي إن الحكومة فيها بيد الأعيان والأشراف . ولكن فيثاغورس كان فكره متشعباً منذ صغره ، بأفكار الشعوب الشرقية المتبعة في الحكم المبدأ (التيو كرامي) ، وهو المبدأ الذي يستبد بالحكومة فيه نفر قليلون استبداداً كلياً ، بدون حق للشعب في الملاحظة عليهم بهذا السبب ، نشر فيثاغورس هذا المبدأ بين تلك الشعوب ، فاتبع نصائحه كثير منها ، وأكسب المبدأ الأريستوكراسي صبغة (تيو كراسية) جديدة ، تميزت به عن بقية تلك الحكومات ، وكان قصده من كل ذلك حصر السلطة والحكم في يد طائفة منتخبة من صفوة الأمة ، وقصر أسرار العلوم والمعارف عليها دون العامة ، لتعتبرهم الأمم ملوكاً معصومين من الخطأ ، كما عليه الحال في بعض الفرق الدينية بالنسبة لرؤساء دينها . هذا المبدأ بعينه ، كان أنشودة سائر فلاسفة اليونان ، فلقد كانوا لا يودون إعطاء السلطة لرجل واحد ، ولا لأمة بأجمعها ، ولكن للفلاسفة منها . هذه كانت أمنيتهن ، وكثيراً ما سعوا في تحقيقها ، ولكن لم يتح لواحد منهم ما أتيح لفيثاغورس من النجاح في تقريرها .

نجاح فيثاغورس في مشروعه الاجتماعي هذا أكسبه شهرة فائقة ؛ فانتخب رئيساً للحزب (الأريستوكراسي) في مدينة كروتون . واتفق في ذلك الحين أن الحزب (الديموكراسي) أي الجمهوري ، تغلب على الحزب (الأريستوكراسي) في مدينة (سيباريس) ، ففر أنصاره إلى (كروتون) واستجاروا بإخوانهم في المذهب ، فأرسل الفيلسوف وفداً إلى أهل تلك المدينة يدعوم إلى مذهبهم ،

غضبوا وقتلوا الوفد ، فلم يسع الفيلسوف غير شن الحرب عليهم . ثم جهز إليهم جيشاً من ساعته ، وهو وإن كان أقل عدداً من جيش الأعداء ، إلا أنهم صبروا صبر الأبطال وهزموا عدوهم شر هزيمة ، واستولوا على المدينة ، فخرّبوها إلا قليلاً ، واستعبدوا أهلها ، وقسموا ما فيها على المقاتلة ، فخص فيثاغورس حداثق زاهرة ، فابتنى فيها مدرسة جامعة على الشكل الذي رآه في مصر وبلاد الكلدانيين ، واشتهرت هذه المدرسة باسم مجمع فيثاغورس العلمي . وוכל إلى تلامذته أن يجعلوها منبعاً لنشر مذهبه وتخرّيج خلاصة الناس عليه ، ليتكوّن منهم طائفة صالحة لأن تحكم الأمم والشعوب .

وقد نقل عنه كثير من الرواة أشياء خرافية ، ولكن ثبت الآن أنها موضوعة عليه وأن كثيراً منها لم يعرف إلا بعده بزمان طويل . والذي أجمع الرواة عليه ، أنه كان يصدر منه كثير من الخوارق للطبيعة أمام تلامذته ومريديه . أما مذهبه ، فقد حفظ عنه ودونه تلامذته بالدقة فيما يقال ، وهو أنه كان يعتقد بالتناسخ ، وإن النفس الفاضلة متى خرجت من جسم صاحبها تلبست بجسم شخص فاضل ، وبخلاف ذلك ، لو كانت شقية فإنها تنقص جسم حيوان قدر . وكان يقول أنه يتذكر الحالات التي كان فيها هو نفسه في أجساد مختلفة .

هذه العقيدة قديمة جداً ، ومبدؤها فيما يرجح الهند . ومما يحسن ترجيحه جداً أن فيثاغورس كان له عقائد عالية في الحكمة الإلهية والعناية الربانية والوحدة الذاتية ، وإن كانت تعليماته العامة مخلوطة بأشياء خرافية كثيرة فيما يقال . والذي يميز مذهب فيثاغورس عن كثير من المذاهب الأخرى ، هي صبغته العلمية ، فإن تلامذته كلهم كانوا يتعمقون في درس الرياضيات تعمقاً كلياً . ولقد كان فيثاغورس رياضياً من الطبقة الأولى ، وينسب إليه جملة نظريات هندسية ، وهو أول من قال بحركة الأجرام السماوية حول الشمس ، وهو الأمر الذي ثبت بالحس في القرن الخامس عشر بواسطة الفلكي (كوبرنيك) .

ولكن ، رغماً عن كون تعاليم فيثاغورس ومدرسته انتجت للمدنية أعظم الآثار ، وطبعت تاريخ الرقي الإنساني بطابع لا يزول أثره ، لم تبق زمناً بعد تأسيسها . وذلك في العادة شأن كل جمعية تتكون بقصد الاستيلاء والحكم . فإن محض رؤية شكل الترتيب الذي كان مسنوناً لتلك المدرسة ، كان يدعو للارتباب في أمرها . ألا ترى أنه مما يريب الأمم والشعوب ، أن يروا جمعية من الشبان ملتثمين غاية الالتئام فيما بينهم ، ومنفصلين تمام الانفصال عن الهيئة الاجتماعية ، ومشتغلين الليل والنهار بالأشغال العقلية والعلوم الرياضية ، يبدون أنفسهم لمنصات الحكم وأرائك السياسة ؟ نعم ، كان ذاك سبباً لارتباب النفوس واضطرابها على مدرسة فيثاغورس ، حتى ثار ضدها الناس في ثورة عامة ، بمدينة (كروتون) ، وصاروا يقتلون من وصلت إليه أيديهم من تلامذة فيثاغورس وفي أي جهة صادفهم ، ونفوا كثيراً منهم ايضاً إلى البلاد الأخرى ، ولم يعفوا إلا عن فيثاغورس نفسه ، وقد كان وقتها بلغ الثمانين من عمره . فعرض على كثير من المدائن ان تقبله نزلاً فيها فلم تفعل ، وأخيراً قبلت منه ذلك مدينة (ترانت) ، فرحل إليها وأقام بها حتى توفي . وما بقي من تلامذته لم يناموا عن نشر مذهبه في كل جهة حلوا بها .

هذه الترجمة نقلناها عن علماء أوروبا ، والعهدة عليهم في روايتها ، فربما كانت سيرة هؤلاء الرجال أرقى مما قالوه عنهم ، ولكنهم حرفوها ، وتصرفوا فيها ، كما فعلوا في سير أكابر الأنبياء صلوات الله عليهم .



أفلاطون

ولد هذا الفيلسوف الشهير (بأثينا) ، ويقال في جزيرة (أجين) سنة ٤٣٠ قبل الميلاد ، وتوفي سنة ٣٤٧ ، فيكون قد عاش ثلاثاً وثمانين سنة . وكان اسمه (اريستوكليس) ثم لقب بعد ذلك أفلاطون واشتهر به . وهو من عائلة عريقة في النسب . مال أولاً إلى الشعر ، ويقال وللتصوير أيضاً ، ثم لما تعرف إلى الفيلسوف (كراتيل) تلميذ (هيروكليت) وإلى (سقراط) ، مال بكليته إلى الفلسفة ووقف حياته عليها . فاتخذ سقراط تلميذه الأول لما تفرسه فيه من النجاسة والفتنة ، ولكنه لم يعيش حتى يرى ما هي غاية استعداد تلك القرينة العالية . لازم أستاذه ثمان سنوات ، ثم حدث بعدها أن فرقة السوفسطائية اتهمت سقراط بالإلحاد في صفات الآلهة ، فقام بالذب عنه أفلاطون ، حتى صعد على منبر مجلس النواب . وابتدأ يخطب في الدفاع عنه ، حتى إذا كاد يتغلب على الأميال ، ويخلب بسحره عقول الرجال ، أخذ أعداء سقراط يلغطون لكيلا يسمع الناس بلاغة الخطيب ، فيقرروا عدم قتله . فلما لم ينجح في دفاعه ونفذ الحكم على أستاذه ، هجر وطنه غماً وكدراً وذهب إلى ميجار ، وحددته همة بعدم ادخار شيء من حوله في طلب العلم ، حتى لا يبقى منه شيء يند عنه . وكانت إذ ذاك المذاهب الفلسفية مشتتة في أصقاع الأرض ، فقصده أولاً إيطاليا ولحق بتلامذة فيثاغورس ، فأشركوه في أسرار مذهبهم ، ثم رجع منها إلى سيرين للدرس هندسة (تيودور) ، ثم يم مصر ومكث مدة في مدينة (هيليو بوليس) ، ويقال أن كاهناً مصرياً لقنه علم الفلك . ثم رجع إلى أثينا وأسس بها دار العلوم ، فحازت شهرة فائقة ، وكان كثيراً ما يتركها ويسافر طلباً لتعرف أحوال الأمم والشعوب المختلفة .

ذهب مرة إلى جزيرة سيسليا ، فاستجلب سخط ملكها (دونيس) لحريته وجرأة فؤاده ، فأسره وباعه عبداً ، فرآه بعض أصحابه فاشتراه وأعتقه ، فأب إلى وطنه . ثم ذهب إليها ثانياً وسافر مرة أخرى إلى (سيراكوز) .

أما فلسفة أفلاطون ، فكانت هي بعينها فلسفة أستاذه سقراط ، إلا أنه بما اكتسب من العلوم الكونية والوجودية ، ألقاها على الناس بصفة جديدة ، وبشكل لم يكن معهوداً قبله ، وأضاف إليها أفكاره الخاصة ، فجاءت أكمل فلسفة وجدت لذلك العهد . وقد ذاع صيته في البلاد ، وانتشرت شهرته في المدن ، وعرف بسمو العقل وبعد النظر في الشرائع والقوانين ، ولذلك كانت تطلب إليه كثير من الحكومات ، أن يسن لها من القوانين ما يستصلح أمرها وتطرد به عماريتها . وقد لقب بالالهي ، وكانت فلسفته وأفكاره محترمة معتبرة ، لدرجة أن كل العقلاء كانوا على أفكاره وآرائه . وكان كأستاذه سقراط لا يميل للمناصب ، ولما توفي ترك مجمعه العلمي لزعامة حفيده (سبوزيب) .

كل كتابات هذا الفيلسوف وصلت إلينا ولكنه كان يلقي دروسه شفهاً ، وكان يقول :

« كل كتابة على الورق ، يجب أن تكون مذكرة فقط للذي تعلم وانتهى ، لا أن تتخذ واسطة للتعليم ؛ فإنها لا تنطق إن سئلت ، ولا تدافع عن نفسها إن فندت . فكل موضوع مكتوب باليد ، هو بناء على هذا عمل خفيف الوزن ، وتذكر غير كامل ، مخلوط بكثير من الغلواء . فليس للأفكار إذن من ثمرة جنية نافعة ، إلا خطابة مرتجلة موضوعها العدل والجمال ، وتكون منقوشة في صميم الفؤاد » .

ولقد كانت تروقه الخطابة ، لدرجة أن مؤلفاته شبيهة بالخطب ، وكل كتاباته ما عدا رسائله ، عبارة عن محاورات فيها سقراط أحد من محاوريه . وكثيراً ما تكون الأفكار فيها أفكاره الذاتية ، ولكنه كان يضعها في المحاوره في فم أستاذه ويجعله هو البادئ بها .

لم يدون مذهب أفلاطون بصفة مضبوطة وخالصة من الخط واللوث ، لأن المشهور عنه أنه كان له مذهبان . مذهب عام ظاهر فيما بينه وبين الناس ، ومذهب خاص به ، لا يفتح به إلا نفراً من أهل خاصته ممن يشق بعقلهم وثباتهم .

الفلسفة عنده هي معرفة العموميات والإلمام بالضروريات ، وكان يقسمها إلى جدليات وطبيعيات وأخلاقيات . وكان يقرر ، أن للعقل ثلاث خصائص وهي الإحساسات ، والمدركات ، والأفكار . فالإحساسات تقابل الأشياء المتغيرة والمتشخصة والمدركات تقابل الأشياء المتغيرة أيضاً ، ولكن مع تجريد أشخاصها من الحسن بها . أما الأفكار فتقابل الأشياء الثابتة والحقائق العامة . وعنده أن أن الأفكار في ذاتها ليست مدركات بسيطة للعقل ، ولكنها أصول الأشياء وحقائقها ، بمعنى أنها كل ما في الكائنات من حق وباق وعام . وكان يقول أنها عالم قائم بذاته ، فوق عالم الكون والفساد ، وهي واصلة إلينا من الله مباشرة ، وهي القوالب التي شأ الله تعالى على قوالبها جميع الأشياء . ولما كانت الأفكار على رأي أفلاطون هي الأشكال الحقيقية السرمدية لكل ما هو موجود ، فقد سماها (بالنموذجات) . قال : وأنه يوجد خارجاً عن الله تعالى أصل متغير ناقص قابل للفناء ، موجود بذاته ، هو المادة العمياء الصماء التي لا شكل لها ولا صورة . فبأثر الله تعالى الذي أوقعه عليها ، ازدوجت النموذجات التي هي الأفكار المجردة بالمادة عديمة الصورة والشكل ، على درجات مناسبة ، فنشأ منها جوهر متوسط مشترك بين خصائص كل من هاتين الطبيعتين . وهذا الجوهر روح العالم ، فروح العالم هذه بتشخصها وانقسامها إلى أرواح مختلفة ، تكون الآلهة التي يعبدها العامة وتولد الناس ، وهم الكائنات المتمتعة بعقل وإدراك . وفي رأيه ، أن الكون المادي مكون من عنصرين متضادين : التراب ، وهو أصل لمجود العالم وجعله محسوساً . والنار ، وهي سبب صيرورته مرئياً . هذان العنصران الترابي والناري ، ملتزمان ببعضهما بواسطة عنصرين وسطين بينهما هما

الهواء والماء . ومما من جهة متشابهان في صفة مشتركة هي السيالية ، ومن جهة أخرى ، كل منهما مشابه للطرفين الآخرين ، فالهواء يشبه النار ، والماء يشبه التراب .

أما روح الانسان في نظر الفيلسوف ، فهي حياة غير قابلة للفناء ، محصورة في سجن فان هو جسد الإنسان . وهي متمتعة بثلاث قوى مختلفة : الإدراك أي العقل . والقلب أي الشجاعة . والرغبة أي الشهوة . فأما الجزء السامي من النفس التي هي حية بالأفكار والمطالب التي توافقها وتلائمها فمحلها الرأس . أما الشجاعة فموطنها القلب . وما سفلى من قوى النفس فموضعه الأمعاء .

وكان يقول أن الفضيلة هي مطابقة عمل الانسان لأصل الخير المحض . والدستور العام للأخلاق هو التخلق بأخلاق الله تعالى . وكما أن الله تعالى ، يحب الأفكار التي استخدمها قوالب لتكوين الأشياء بمحافظتها ، فيجب على الإنسان أن يغلب حبه للأفكار ، أي للخير المطلق على حبه للسفليات واللذات الجسدية ، وأن لا يأتي بمحركة إلا في سبيل تحقيق الأفكار الإلهية بقدر ما تسمح به قوته ، أما الجميل في نظر أفلاطون ، فهو رونق الحقيقة وبهاء الأفكار التي جعلها نموذجاً للأشياء ، وقال عنها أنها عالم قائم بذاته . والجمال المادي في نظره ، ليس هو إلا صورة مرئية آتية من الجمال السرمدى .

هذا موجز من فلسفة أفلاطون ومذهبه ، ومنها يتبين للقارىء مراميه الفكرية على الإنسان والنفس والأخلاق . أما اقتداره في التشريع والتقنين فما لا يستهان به أيضاً . وكتبه في ذلك كانت في زمانه ، المورد الوحيد العذب لطلاب الشرائع ورواد القوانين ، وبقيت بعده قروناً كثيرة مثابة لعقول المشتغلين بقيادة الأمم وزعامة الشعوب والممالك . وأحسن ما يبل صدى الباحث في تشريع أفلاطون هي كتبه التي بقيت الى اليوم ككتابه المسمى « الجمهورية الفاضلة » ، وكتابه « السياسة » ، وكتابه « القوانين » ، فإنه بسط فيها

أفكاره بسطاً جلياً واضحاً . فكتابه « الجمهورية » عبارة عن محاوراة طويلة مقسمة إلى اثني عشر باباً ، جعل أكبر مخاطبيه فيها سقراط . وسواء كانت هذه المرامي التشريعية هي له ، أو لأستاذة ، فإنها تكون نظمات جمهورية فاضلة ، اتخذها قادة الإصلاح وطلاب العدالة في الحكومات مرجعاً يرجعون إليه للاستقاء من حياضها في تأييد مطالبهم وتدعيم نظرياتهم . وبما لسنا في حاجة الى التنبيه عليه ، هو أن كل ما في تلك الكتب التشريعية ليس اختراعاً لأفلاطون أو لأستاذة بحيث لم يسبقها فيه أحد ، فإن المعلوم أن أفلاطون أخذ شيئاً كثيراً عن نظمات ليكورج مشرع (اسبارطا) من ممالك اليونان القديمة ، وأخذ أيضاً عن قوانين السفسطائية القدماء حصصاً مناسبة . وقد نقل تلميذه (أرسطو) نفسه أن (هيبوداموس) هو أول من كتب كتاباً في « الجمهورية الفاضلة » .

كان مذهب أفلاطون في الحكومة ، مثل مذهب سائر الفلاسفة الأقدمين ، وهو أن يكون مبدأها سيادة الأعيان والأشراف ، وهو المبدأ الأريستوكراسي بعينه الذي تكلمنا عنه في تاريخ (فيثاغورس) ، وهم لا يريدون من الأعيان كما قلنا هنالك أيضاً الأغنياء وذوي الجاه والقوة ، بل الفضلاء النبلاء أي الفلاسفة . فأين حولت بصرك في كتب الشرائع الفلسفية القديمة ، وجدت هذا المبدأ واضحاً جلياً فيها بطريقة لا تسلم به الفلسفة الحقة ، فإنهم يفرضون للطبقة الحاكمة ، وهي بالطبع منهم ، كل إكبار وإجلال بما يشبه العبادة ، وبإزاء ذلك ، لا ترى للعمامة والمحكومين إلا الازدراء والاحتقار . هذه صفة عامة لجميع كتب الفلاسفة الأقدمين ، الذين تكلموا في الشرائع . والجمهورية الفاضلة لأفلاطون غير مستثناة من هذه القاعدة العامة أيضاً ، فقد حكم فيها على طوائف مجذافيرها أو على أنواع برمتها ، بالطاعة الدائمة والجهالة الخالدة . على أن (الجمهورية الفاضلة) لأفلاطون ، على ما بها من خلط بين المدركات العالية والمدركات الضيقة ، وبين النظريات الفلسفية الجليلة والخياليات المحترقة ، وبين

الحرية المعتدلة والاستبداد الجائر ، كانت رغماً عن هذا كله ، فذلكة موجزة للحكمة القديمة ، وكانت المرجع الأصلي الذي ورده كل الفلاسفة الذين اشتغلوا بأمر الاجتماع الانساني .

في الجمهورية الفاضلة ، يفضل أفلاطون الحكم الملكي أي حكم الفرد بالواحد ، على مبدأ حكم الأعيان أي (الأريستوكراطي) ، وعلى المبدأ الجمهوري أي (الديموقراطي) . قال : لأن الملك الصالح يحكم أمته أحسن من أن يحكمها أي قانون كان ، لأنه صالح لأن يلم بكل التغيرات الطارئة والعلاقات المتجددة ، ويقابلها بما تتطلبه من رأي أو عمل ، بخلاف القانون ، فإنه ثابت لا يتغير وجامد لا يلين . ثم قال : ومع ذلك فالقانون لازم ينطبق على الجماهير ، والملك لا يستطيع أن يعرف كل إنسان بشخصه ، ولكنه مع ذلك يجب أن يكون القانون تابعاً للملك مباشرة دون غيره . ويولي هذه الحكومة في نظر أفلاطون ، الحكومة المتمسكة بالقانون التي لا تحيد عنه في شيء . قال : لأن القوانين لم تتقرر ولم تستتب إلا بعد تجارب طويلة واختبارات عديدة في أحوال شتى . وبناء عليه ، فيجب أن تكون محترمة مرعية ، ولا يجوز عصيانها بوجه من الوجوه . ومن رأي أفلاطون في الصنائع ، أن يحجر عليها في قواعد ثابتة لا تتغير وهذا معناه تقييدها ووضع العقوبات الكؤود أمام رقيها .

قسم أفلاطون الناس في جمهوريته إلى ثلاثة أقسام : (١) المشرعون أي الفلاسفة ، (٢) المحاربون ، (٣) الصناع . أما الأولون ، فهم المخلوقون للحكم الصالحون له دون غيرهم ، وأطلق عليهم الصنف الذهبي . وأما المحاربون ، فهم حراس المملكة وخفراؤها وأطلق عليهم الصنف الفضي . وأما الأخيرون أي الصناع فهم المخلوقون للطاعة العمياء للصنفين المتقدمين ، وأطلق عليهم الصنف الحديدي . أما العبيد ، فقال عنهم أنهم ماشية الأمة ، مثلها فيها كمثل البهائم العاملة . وهذا رأي الأقدمين كلهم في الرقيق ، فإن لهم عليه أحكاماً جائرة لا تنطبق على عقل ولا على عدل ، حتى جاء الإسلام بدستور المساواة والحرية ،

فرفع عن عاتق العبيد آثاراً ثقيلة ، مما استراه مفصلاً في محله من هذا الكتاب
إن شاء الله تعالى .

الناظر لجمهورية أفلاطون هذه يرى أن حكومتها تشبه الحكومات الشرقية
القديمة ، ذات المبدأ (التيوكراطي) ، أي التي يخول فيها حق الحكم لطائفة من
رؤساء الدين ، ويفرض على العامة والخاصة إطاعتهم إطاعة عمياء بدون رقابة
على أعمالهم ولا هيمنة على إرادتهم . وإنما الفرق بين هذا المبدأ ومبدأ حكومة
الجمهورية الأفلاطونية ، أنه أبدل فيها الموبدان والبرمهي بالفيلسوف والمشرع .
ومن نظمات جمهورية هذا الفيلسوف ، أن المحاربين يجب أن يكونوا دائماً على
أهبة تامة ، متخفين إما لقمع فتنة داخلية ، أو صد غارة خارجية . وهؤلاء
المحاربون لا يجوز لهم أن يملكوا عقاراً ولا أن يكتنزوا ديناراً ، بل يجب عليهم أن
يعيشوا أحراراً من كل التكاليف الشخصية والعائلية ، وعلى بيت المال أن يجري
عليهم ما يلزم من غذاء وملبس ومسكن ، وما تقضيه سائر الحاجات المعيشية .
أما العلوم التي يجب عليهم تعلمها ، فهي كيفية تمرين أجسامهم على الألعاب
الرياضية ، وفن حفظ الصحة ، والموسيقى ، والأخلاق ، ويلزمهم أن يتربوا
ويتعلموا على الخضوع والطاعة للقواعد العسكرية الصارمة ، ليكونوا بذلك
مثال النظام والأحكام أمام الناس أجمعين .

أما بالنسبة للنساء ، فقد فاه عنهم الفيلسوف بكلمات فاق بها في الشعور أهل
زمانه بمراحل ، وإن كان مقلداً في ذلك ما علمه من حالة النساء وحريرتهن في
جمهورية (اسبارطا) اليونانية ، وذلك أنه وهبهن حقوقاً لم تكن لهن من قبل ،
واعترف لهن بمزايا كانت لذلك العهد ضائعة لا يسلم بها أحد . فقد قال : « إن
هذا الجنس (أي النساء) الذي نجبر عليه ، ولا نسمح له في العادة إلا بالاشتغال
بالأشياء التافهة والشؤون المنزلية .. أليس فيه استعداد لأمر أشرف ، ووظائف
أرقى ؟ ألم يعطنا أمثلة كثيرة من الشجاعة والعقل والرقى ، في كل ضرب من

ضروب الفضيلة ؟ . ولكنه لم يغال في السير في تيار هذا الشعور الجميل الذي خالف فيه عموم أهل عصره ، بل رجع فاعترف بأنها أخط من الرجل منزلة ، وأقل منه درجة . ولم يقصر في الإشارة والنصيحة بإعطاء النساء ذات العلوم التي تدرس للرجال كما كان الشأن في مدينة (لا سيديونيا) اليونانية عاصمة جمهورية (اسبارطا) ، وقرر بأن يشارك الرجال في الألعاب الرياضية ، وفي التمرينات العسكرية أيضاً .

أما المتشرعون ، فيجب أن ينتخبوا من صنف المحاربين ، فيرتقون من الصنف الفضي إلى الصنف الذهبي . والنسل الحاصل من هذا الصنف الفضي يجب أن يؤخذ ويربى تربية خاصة ، تؤهلهم للانخراط في سلك الطبقة الحاكمة ، ولا يجوز أن يربى هذه التربية وهياً هذا التهيؤ إلا الأطفال الذين تتوفر فيهم شرطي حسن الخلق والخلق ، ويكونون حاصلين على مواهب طبيعية جليلة . وتلك التربية الخاصة هي تخريجهم في كل العلوم والفنون المعروفة ، وإدخالهم في قواعد شاقة وتحميلهم تكاليف صارمة ، ليشبوا متعودين على الحشونة والنظام ، وليصلحوا أن يكونوا بأفعالهم وأقوالهم أمثلة في الفضيلة والزهادة ، حتى إذا صبروا على كل هذه المشاق في التربية ، وخرجوا من كل دور منها لابسين تيجان النجاح ، ألحقوا بذلك الصنف الذهبي الحاكم على غيره ، وسلموا مقاليد الحكومة عفواً بغير تعب .

أما العامة ، وهو الصنف الحديدي ، فلم يشر عنهم الفيلسوف أقل إشارة ، لأنهم في نظره وفي نظر سائر الفلاسفة الأقدمين ، خلقوا للطاعة العمياء للأوليين ، ووجدوا لأن يحبوا بحياتهم ويتحركوا بحركتهم .



أرسطو

الفيلسوف أرسطو أشهر فلاسفة اليونان ، بل فلاسفة العالم كله . وهو أكبر قريحة ظهرت في العالم القديم ، ولذلك يلقب بأمر الفلاسفة . ولد بمدينة (ستاجير) من مملكة مقدونيا في سنة ٣٨٤ و توفي سنة ٣٢٢ ، وله من العمر ثلاث وستون سنة . كان أبوه طبيباً شهيراً اسمه (نيكوماك) ، عني بتربية ابنه أرسطو وهياه لدراسة الطب ، ولكنه لم يعيش حتى يرى المواهب العظمى التي وهبها الله لابنه ، وتركه ولم ينأهز السابعة عشر من عمره ، فكفله صديق لأبيه ، وقام له مقام الوالد ، وهو ما جعل أرسطو يذكر طول حياته برّ هذا الرجل به ، ويثني عليه بما هو أهله .

روى ثلاثة من المؤرخين الأقدمين أنه لما مات كفيل أرسطو ، جمع هذا كل ما آل إليه من ميراث آبائه وأقربائه ، وأطلق لنفسه غنان الهوى في ميادين اللهو ، حتى أتى على آخر ما يمتلكه ، ولم يبق له ما يسد به حاجة الحياة ، فلما ضاقت به حلقات العيش ، ألحق نفسه بخدمة الجنديّة ، ولبت بها مدة ، ولكنه لما يطق مشقاتها وصرامتها تركها وألقى بنفسه بين يدي الفلسفة .

يقول أنصار أرسطو أن هذه الرواية واهية السند ، لا استطاع إثباتها لانقطاع أسنادها ، ومع ذلك فلو فرض أنها صحيحة ، فلا تؤثر كما يقولون ، على مقام الفيلسوف بشيء ، ولا تنزل من اعتباره ، فما بالك وهي من الضعف حيث رأيت .

الذي لا شك فيه من بدايات أرسطو أنه تعاطى ، في أول أمره ، صناعة الطب طلباً لإقامة أمور المعيشة ، ولقد حفظ لهذه الصناعة أثراً جليلاً في نفسه ، حتى أنه لما اتصل بالاسكندر بصفة مرب له ، نقش في فؤاده حبها وإكبارها ،

فشب الإسكندر على ذلك . وقد ألف أرسطو في الطب كتاباً نفيساً اسمه
الصحة والأمراض .

دعنا من هذا كله ، فكله قليل الخطر وأكثره واهي السند ضعيف
الرواية ، أما الذي لا شك فيه ولا غبار عليه من ترجمة حياة أرسطو ، هو أنه
حضر إلى (أثينا) في العصر الذي كانت تتلأأ فيه علماً وفلسفة ، وتهادى
مدنية وحضارة ، وكان علمها الخفاق في العلم في ذلك الحين ، الفيلسوف
(أفلاطون) ، فلم يكذب يضع أرسطو قدمه في أثينا ويرى ذلك ينبوع العلمي
الفياض ، حتى التحق به ، واكتتب في مدرسة أفلاطون ، ولازم الفيلسوف
مجدداً في الدرس دائماً في البحث والنظر ، حتى لحظ ذلك منه أستاذه ، وتحقق
من مكانته في توقد الذهن وبعد النظر وسعة مجال الفكر ، فقال عنه لبعض
خواصه : إنه ليس مثل (أكسينوكرات) محتاجاً إلى مهاز يحثه ، بل إلى الجام
يوقفه . فلازم أفلاطون عشرين سنة يتلقى عنه العلم والفلسفة ، ويسمع منه
الحكمة والخطابة ، ثم تركه فجأة ، فكان ذلك مساعاً لأعدائه في الطعن عليه
وتنقصه ووصمه بما هو براء منه من ذمائم الصفات ومشائن الخلال . قائلين :
ليس من الإنسانية أن يلزم الرجل أستاذه عشرين سنة ثم يتركه ، غضباً عليه
منكراً فضله وجاحداً أتعابه . والذي حققه المحققون أن الأمر بخلاف ذلك ،
وأن أرسطو لم يترك معلمه ومربيه على صفة غير جديرة بمثله من رجال الحكمة
والعلم ، ولكن الذي أتاح لأعدائه أن يظنوا هذا الظن السيئ ، الخلاف الذريع
الذي بين فلسفة أرسطو وفلسفة أستاذه ، وهو خلاف جوهري لا يسمح للمطلع
أن يحكم بأن أحدهما تلميذ الآخر . ذلك لأن فلسفة أرسطو مبناها المشاهدات
والمحسوسات ، وأسسها التجارب والمقارنات . فهو فيلسوف حسي من الطبقة
العليا ، لا تفرق فلسفته عن فلسفة الفرق المعاصرة لنا في شيء . أما أستاذه
أفلاطون ففلسفته على خلاف ذلك ، فإن دعائمها التصورات ، وسنادها
الأفكار والتأملات ، فهو فيلسوف عقلي من الطراز الأول .

هذا هو الذي حكم به العرفاء في هذا الموضوع ، وزد عليه أن أرسطو لم يذكر قط أفلاطون في كتبه ، إلا بما يستحقه من الإعجاب والإجلال ، حتى أنه لما التجأ بحكم وظيفته أن يدحض مذهب أستاذه ، أمام تلامذته قال لهم : وإنه وإن كان قد قال هذا المذهب قوم نعزم ونجلهم ، إلا أن الحق أولى بالاتباع وأجدر بالاحترام والدفاع .

لث أرسطو في أثينا مدة حياة أستاذه أفلاطون ، ولما مات رحل عنها مدفوعاً بما كان يلحق المقدونيين من الأذى والاضطهاد بسبب الحقد على مقدونيا وملكيها فيليب أبي الاسكندر ، فلحق (بهرمياس) الظالم الغاشم ملك بلاد (اثينا) هرمياس وكان مملوكاً سميت به همتة إلى أن ارتقى عرش الملك في بلاد (اثينا) ، ولكنه كان مع همتة هذه ظالماً عتياً ، فلما لحق به أرسطو زوجه أخته وأكرمه غاية الإكرام ، فمدحه أرسطو مدائح خلدت له اسمه في التاريخ . وهذا من أكبر ما يتذرع به أعداؤه للحط من كرامته . ولم يزل الملك هرمياس هذا يسوم الناس الخسف ويذيقهم الحيف والعسف ، حتى حاقت به سيئاته وارتكست عليه نياته ، فقتله الفرس شر قتلة . عند ذاك رحل الفيلسوف المقدوني إلى جزيرة (لبيسون) ، وبينما هو بها إذ جاءه كتاب من الملك فيليب المقدوني يستدعيه لتربية الاسكندر ، وإعداده لحكم مملكة مقدونيا . فشخص ملياً طلب الملك إلى مقدونيا ، وأقام بها اثني عشرة سنة ملازماً للإسكندر ، يغذوه لبان الحكمة ويرشفه ندي الآداب والفلسفة ، ثم رجع بعد ذلك إلى أثينا وأسس بها مدرسته الشهيرة بمدرسة المشائين ، لأن من عادة أرسطو التدريس ماشياً .

حلّ أرسطو بأثينا بعد هذه الغيبة الطويلة عنها ، وقد فاض صدره علماً وتجارب ، فأراد أن يشارك العالم أجمع في ثمرات حياته ، فأكب على التأليف والتصنيف واخترع علوماً جديدة لم تكن موجودة ، وساعده على هذا الجهد العالي تلميذه الملك إسكندر ، فإنه أمر الألوف المؤلفة من جنوده وضباطه أن

يتلقطوا له أينا حلوا ونزلوا ، أنواع النباتات وصنوف الحيوانات ، ويحملوها إلى الفيلسوف المقدوني بأثينا ، لتساعده وتعينه على دراسة التاريخ الطبيعي والتعمق في أسرارهِ ولبابهِ . هذا فضلاً عما أعده له من المال الجُم لشراء الكتب وتأسيس المدرسة ، وما يستدعيه ذلك الشأن من الأمور . ولكن لم يدم تعضيد الإسكندر له ، بل حدث ما يكدر صفو الحب بينهما . وذلك أنه كان لأرسطو ابن عمته اسمه (كالثينوس) ، رباه واعتنى بتربيته حتى صار حكيماً ، فلما انفصل أرسطو عن الإسكندر ورجع إلى أثينا ، استودعه ابن عمته هذا على أن يتبعه في غزواته وغاراته ، وأوصاه عليه كثيراً ، فلم يحفظ (كالثينوس) هذه المنزلة على ما يروى عنه فإنه كان لا يباي بالملك ، ولا يقدم له الاحترام الواجب ، فغضب عليه الإسكندر وحدث بعد ذلك أنه قتله لجُرم ارتكبه يستحق عليه القتل في نظر الإسكندر . ولكن أرسطو لم يقتنع بصحة ذلك . فكانت النتيجة أن تكدر الفيلسوف من هذا الأمر وقاطع الاسكندر .

حدث بعد ذلك أن هبت ثورة عامة في أثينا ، ونزع أهلها إلى استرداد استقلالهم من المكدونيين ، واستدعى الأمر بعد ذلك بحكم الضرورة أن يلحظوا المكدونيين الذين بين أظهرهم شزراً ويوسعوم اضطهاداً وعسفاً . وبما أن أرسطو مقدوني الأصل وقوة كبرى من قوى مقدونيا ، تذرعو إلى قتله .. تذرع السوفسطائية لقتل (سقراط) وذلك أنهم اتخذوا مدح أرسطو للملك (هرمياس) الظالم واسطة لاتهمه بالإلحاد . فلما رأى أرسطو هذا التآلب عليه خاف من أن يصيبه ما أصاب (سقراط) ، فأوى إلى جزيرة (أوبيه) وصدر عليه الحكم بالقتل من محكمة أثينا ، ولم يكن بها . وعلل انسحابه من أثينا وتجنبه لحكم القتل بقوله : « فعلت ذلك لأحول بين الاثينيين وبين العود الى إهانة الفلسفة » ، يشير بذلك الى إهانتهم الأولى للفلسفة بقتل سقراط . ولم يعيش بعد هذه الهجرة طويلاً ، بل مات في تلك السنة . وقيل أنه انتحر سأمًا من الحياة . وروى بعض قسوس النصرانية ، أنه لما يئس من تعليل ظاهرة المد والجزر ألقى بنفسه في اليم ، وليس من مستند لهذه الرواية والله أعلم .

كان أرسطو ضعيف الجسم نحيف الساقين ، ذا صحة مضطربة يشكو من معدته كثيراً ، ولقد كان ضئيل الصحة لحد أن معاصريه كانوا يمجّبون من احتمال مثل بدنه. لأعباء الحياة وتكاليفها ثلاثاً وستين سنة .

من حكم أرسطو الشهيرة التي تستحق الذكر قوله : « جذور العلم مريرة ولكن ثمراته حلوة » .

« الفرق بين العالم والجاهل ، كالفرق بين الحي والميت » .

« لا شيء يهزم الإنسان أسرع من الإحسان » .

« الأمل حلم اليقظان » .

« لنحفظ حب سقراط وأفلاطون ، ولكن لنحب الحقيقة أكثر منهم » .

« رسائل الإخوان زينة في السراء وتعزية في الضراء » .

« لا فضيلة إلا في التوسط » .

مذهب أرسطو

يمكن اختصار مبنى مذهب أرسطو في هذه القاعدة الأساسية وهي : « لا يصل إلى العقل إلا ما يمر أولاً بالحواس الخمس » ، وهي قاعدة كما لا يخفى تجعل الحواس أصلاً للأفكار ومنبعاً للمدركات . ومن هنا ، ترى أن أرسطو ألح في تمييز الواجب عن الممكن ، والمطلق عن المقيد . وبما أن الممكن والمقيد تقابلها الحواس الخمس في الإدراك الإنساني ، فتكون المدركات التي تقابل الواجب والمطلق ، تشبه ما كان يسميه أفلاطون (أفكاراً) . وكان أرسطو يريد من ذلك أن يؤسس فلسفة وسطاً بين المذهب الفكري والمذهب الحسي ، ولكن غاب عنا الآن ماهية ذلك التوسط وكيفيته حتى إنها عميت على بعض أتباعه ، فوقعوا في

المذهب الحسي المطلق ، ونحن لأجل إيراد موجز من فلسفة أرسطو ، يحسن بنا أن نورد لها من أصدق مصادرها ، صارفين النظر عما نالها من جدل المجادلين وآراء المحصنين ، فلسنا بصدد إيراد تاريخ الفلسفة على الطريقة التاريخية ، وإنما غرضنا الإلمام بجوهرها وروحها على الطريقة الفلسفية المحضة .

يفرض مذهب أرسطو أن للعقل الإنساني جزأين متميزين عن بعضها تمام التمايز ، وهما الأشكال العقلية ، والاصول التي تتأثر بها الحواس من الخارج . فالعقل بما وهب من تلك الأشكال الأصلية فيه ، يصدر أحكاماً عامة ضرورية يصبغ بها المتغير والشخصي بصبغة الضروري العام ، كإدراكه استحالة المستحيلات وجواز الجائزات ، ولكن هذه الاشكال العقلية التي تصدر منها ، تحتاج لمادة تنطبق عليها هذه المادة يهيئها الأحساس والتجربة .

إذا تقرر هذا ، يعلم من أول وهلة أن مذهب أرسطو يوافق من بعض الجهات مذهب أفلاطون ويلانم مذهب (أبيقور) من جهات أخرى ، ولكن مع حفظه شخصيته وصونه استقلالة عن كليهما .

أما موافقته لمذهب (أفلاطون) ، فذهابه الى وجود عنصر في العقل الإنساني ، يتميز تمام التميز عن الإحساس ، وأما موافقته لمذهب (أبيقور) فلتسليمه بأنه لولا الإحساس ، لما أمكن الإنسان أن يعلم عن الوجود شيئاً ولا أن يحصل عنه خبراً . أما كونه مع ذلك حافظاً لشخصيته صائناً لاستقلاله ، فلكونه يتبعد عن كلا هذين المذهبين بعداً شاسعاً في بقية مستلزمات هذه المبادئ . فإن أفلاطون يذهب إلى أن (الأفكار) التي هي منابع الأحكام المطلقة ، هي حقائق أبدية ، مستقلة عن العقل وخارجة عنه ومشرفة عليه فقط ، ويذهب (أبيقور) إلى أن أحكام العقل ، ليست إلا تعميماً لإحساس الحواس ، أما في مذهب أرسطو فالأمر بخلاف هذا ، فإن الأشكال العقلية في فلسفته وإن لم تستطع أن تنطبق إلا على الحواس فقط ، إلا أنها تضيف إليها عنصراً خارجياً مستفاداً من التجربة ليمر الإدراك والعلم .

من هنا ، يعلم سر تشدد أتباع أفلاطون في الاستقلال عن فلسفتي (أفلاطون) و (أبيقور) ، فإنهم كانوا ينصبون أنفسهم منصب الموقفين بينها ، الموجدین خط الوسط بین تطرفیهما .

وقد اختلف بعض الفلاسفة في تقرير مبادئ أرسطو هذا اختلافاً ذريعاً ، فمنهم من جملة فكرياً محضاً ، ومنهم من صورته حسياً صرفاً ، وهو تناقض شديد تكبر عنه ، كما يقول بعض الفلاسفة ، فلسفة أرسطو ، وهي تلك الفلسفة التي كان لها المقام الأول في زمانها إلى ما قبل أربعة قرون ، ولم تنزل لليوم رائجة لدى بعض العقول التي تحب الأمور القديمة .

إذا تحقق أن ما أوردناه هنا عن أرسطو عن أئمة الفلسفة في أوروبا هو حقيقة مذهبه ، فيكون مبناه إذن تحديد القوانين الداخلية السائدة على العقل الإنساني ، أو بعبارة أخرى ، يكون معتمده الأول علم المنطق ، وهو أعظم عمل عمله أرسطو ، وبه يمكن معرفة سائر تأملاته ، ويستطاع التوفيق به بين جميع أجزاء مذهبه الكبير الواسع . ورغماً عما نال مدركات أرسطو فيما وراء الطبيعة من عدم الثبات بعد ظهور لألاء العلم المصري ؛ فإن المنطق لم يزل حياً معمولاً به في بعض المذاهب الفلسفية ، ولقد كان في القرون الوسطى الآلة الوحيدة في الجدليات وتقرير الدليل .

العلم في نظر (أرسطو) هو حركة العقل ، وهذه الحركة لها شكلان رئيسيان : وهما النظر والعمل . ومن هنا قسم العلم إلى قسمين : علم نظري تأملي ، وعلم عملي . فالعلم الأول تدخل تحته العلوم النظرية (علوم ما وراء الطبيعة والعلوم الرياضية) ، والعلوم التجريبية (التاريخ الطبيعي وعلم النفس) ، والعلوم المختلطة (علم الطبيعة العمومية التي ليست في ذاتها إلا تطبيق علوم ما وراء الطبيعة على الحوادث العامة للكون) ، أما القسم الثاني وهي العلوم العملية فعمل الأخلاق والسياسة والاقتصاد .

هذا هو التقسيم الذي يمكن استنتاجه من فلسفة أرسطو وكتبه ، ومن يعتني باستقصاء مرامي أتباع هذا المذهب على الاخلاق والفضيلة والسياسة والاقتصاد والعمران ، يرى أن مبدأهم في الاخلاق التوفيق بين أحكام العقل ومطالب الشهوة ، وتوخي الاعتدال في تلك المطالب حتى تكون خاضعة لأحكام العقل تمام الخضوع .

أما الفضيلة في نظرهم ، فقد خالفوا فيها (أفلاطون) الذي جعلها في أداء الواجب المطلق ، وخالفوا (أبيقور) أيضاً في قوله : إنها اللذة المعتدلة ، وقالوا إنها القيام على الخط الوسط بين الشهوات المتعاكسة في النفس . والغرض من الأخلاق في نظرهم هي الراحة التي تنتج من الاعتدال في الشهوات الجسمية .

أما قاعدتهم في السياسة ، فكانت اجتلاب المنفعة من وجوها المعتدلة ، ويعلم ذلك من قاعدتهم الأخلاقية وهي التوسط في مطالب البدن لتحصيل السعادة الجسدية ، وهي الراحة والصحة ، ولما كان قاعدة سياستهم النفع ، فقد قرروا الاسترقاق في قانونهم وعدوه أصلاً من الأصول التي يقوم عليها بناء الهيئة الاجتماعية .

أما قاعدتهم الاقتصادية العائلية ، فكان قسط الحرية فيها ضعيفاً ، وذلك أنهم كانوا يعتبرون العائلة مملكة مستقلة ، فيها الحكم بين الزوج والزوجة على الأسلوب الأريستوكراسي ، أي الحكومة التي يكون فيها رجاله قلائل مالكين زمام الاحكام ومخولين سيادة مطلقة على سائر أفراد الشعب ، وبهذه الصفة ، كانت الزوجة تحت سلطة الزوج مباشرة ، ولا يخفى أن تلك السلطة قد تكون استبدادية عسفية ، على حسب أخلاق الرجال وعادات الجيل ، وهذا ليس من العدل في شيء . هذا بالنسبة للزوج والزوجة . أما بالنسبة للأب وأولاده فكانوا على سنة الحكومة المطلقة الاستبدادية ، أي أن للأب على أولاده سلطة غير محدودة ، وإرادة نافذة لا تقف عند حد . أما الأولاد فيما بينهم ، فكانوا على الدستور (الديموكراسي) ، أي المساواة المطلقة في جميع

الحقوق . وفي مذهبهم أنه لو كان لهم الأب تربية أبنائه ، أو تقوية أجسام أرقائه ، فما ذلك إلا لأنهم مكونين لركني مملكته .

فلسفة أرسطو هذه ، دخلت الى أوروبا بواسطة ابن رشد الفيلسوف الاسلامي ، فقبِلت من بعض الفرق النصرانية هنالك بالحماسة والحفاوة . فتردد علماء اللاهوت في قبولها أولاً ، ثم قبلوها نهائياً وتحمسوا لها تحمساً غريباً ، وتعصبوا لذلك الفيلسوف تعصباً مدهشاً ، حتى أنهم كانوا يعتبرون أقل كلماته وأصغر أحكامه غير قابل للنقض . فلم يستطع أحد أن يجاهر بفلسفة غير فلسفة أرسطو مهما كانت صفته . ولما جاء أوان يقظة أوروبا ، حوالي القرن السادس عشر ، أخذت تلك الفلسفة في السقوط شيئاً فشيئاً . فقام فيلسوف اسمه (راموس) فرنساوي الأصل ، ونقض أصول تلك الفلسفة بالدلائل والبراهين فقتل في مقتلة (سان برتلمي) التي حصلت في فرنسا ، بين الكاثوليك والبروتستانت ، وقتل فيها من هؤلاء عدد عديد^(١) . ثم ظهر بعده (باتريزي) ، فسار على خطه (راموس) ، ثم نبغ (كامبانيلا) وشن على تعاليم أرسطو غارة شعواء فحكم عليها بالحرق ، ولكن ما الحيلة ولكل شيء أجل ، ولكل نابغة جيل أو أجيال معدودة ، فلا يستطيع إماتة شيء له في الحياة نصيب ، كما لا يستطيع إحياء شيء قضى عليه الله بالموت . فرغماً عن هذه السلطة الهائلة ، التي أيد بها علماء اللاهوت في أوروبا فلسفة أرسطو ، حتى قتلوا وأحرقوا أضدادها تلاشت تلك الفلسفة تحت أنظارهم بتوالي ظهور العقول المضادة لها توالياً عجيباً . فقد نبغ بعد الذين تقدم ذكرهم (باكون) الانجليزي ، و (ديكارت) الفرنساوي وغيرهما من رجال العلم والفكر ففضوا على تلك الفلسفة قضاء نهائياً . ولكن لما كان لم يزل لها أنصار متحمسون للدرجة القصوى

(١) حصلت هذه المقتلة الهائلة في فرنسا في ٣٤ أغسطس سنة ١٥٧٢ تحت حكم شارل التاسع ، وسببها تحاد الطوائف الدينية فيما بينها ، فاستمرت مدة أيام متوالية في سائر البلاد الفرنساوية وخصوصاً في باريس .

من رجال الدين الاقوياء ، فقد تحصلوا على أمر من مجلس نواب باريس سنة ١٦٢٤ بقتل كل من تجاسر على تعليم فلسفة تناقض فلسفة أرسطو . ولكن هيبات . لكل نبأ مستقر . فلم تفعل تلك العقوبات شيئاً فإن العقوبة لا تنصر ما قضى عليه الحق بالزوال ، فنبغ (موليير) بأسلوبه المضحك المر ، وتلاه (بوالو) بطريقته الاستهزائية القاسية ، وأدخلوا ذلك من ضمن أضحائك رواياتهم ، حتى جعلوا تلك الفلسفة التي كانت بتلك المنزلة من الاحترام مضغة في الأفواه وسخرية في السهرات والتيارات والنوادي . ذلك كله جزاء الغلو السابق في الانتصار لهذا المذهب ، فسبحان الملك الحق الذي لا يزول كلامه ولا يحول . ولا يعترى أحكامه الأفل .



أبيقور

ولد هذا الفيلسوف الشهير سنة ٣٤٢ وتوفي سنة ٢٧٠ قبل الميلاد ، وهو من عائلة عريقة في الشرف ، قديمة في النسب . وكان مولده في (جارجينوس) وهي قرية من قرى مقاطعة (أتিকা) اليونانية ، فلما بلغ الثانية عشرة سنة ، شخص الى أثينا ، ولم يطل مكثه بها ، فغادرها قاصداً (كلوفون) في آسيا الصغرى مع أبيه ، وهناك أسس مدرسة لتدريس اللغة والقواعد النحوية .

مال أبيقور منذ نعومة أظفاره لدراسة الفلسفة ، فاشتغل بها ولم يتجاوز عمره الأربعة عشر ربيعاً ، وظل مكباً عليها ست سنين ، ثم أخذ في تدريسها ونشرها بين مواطنيه على قدم كبار الفلاسفة وعظماء المفكرين . يقال أنه لم يترك علم البيان الذي كان يشتغل به في مبدأ أمره إلا احتقاراً له وازدراء به ، حيث لم يجد فيه ما يكشف له عن كنه هذا الفراغ الشاسع الشامل للكائنات كلها .

وذلك أنه بينما كان يتلقى عن معلمه قول (هبزيود) : « أول ما حدث في الكون هو الفضاء » ، سأل معلمه ومن أين نشأ الفضاء ؟ فلما لم يجد جواباً علم أن العلوم النحوية لن توصله إلى شيء من المعلومات الضرورية لحياة الانسان ، فمال عنها إلى دراسة الفلسفة .

هذه رواية من روايات كثيرة بشأن تحوله من العلوم النحوية إلى العلوم الفلسفية . وقد نسب كثير من الكتاب الأقدمين تعلقه بالعلوم الفلسفية إلى الصدفة . وذلك أنه وقع بين يديه يوماً من الأيام كتب ألفها الفيلسوف (ديموكريت) فأنعم النظر فيها . فارتاح إليها خاطره ، وثلج عليها صدره ، ووجد من نفسه باعثاً شديداً إليها وحنيناً قوياً لها ، فانضم إلى الفلاسفة ، وسواء صحت هذه الرواية الأخيرة أو لم تصح ، فإن كتب (ديموكريت) أثرت على (أبيقور) تأثيراً ظاهراً جداً لا سيما مذهبه في الجوهر الفرد .

لا يعلم بالضبط التاريخ الذي غادر فيه (أبيقور) كولوفون ورحل إلى (ميتلين) ثم إلى (لاسالا) ، وهي تلك البلدة التي كانت معروفة بالثروة والرونق والعلم ، ولكن مما لا شبهة فيه أنه عاد إلى أثينا سنة ٣٠٦ قبل الميلاد ، وسنه إذ ذاك خمساً وثلاثين سنة ، فاشترى بها في وسط الاحياء حديقة غناء بثمانين ألف مين (المين سكة قديمة الثمانون ألفاً تساوي ٧٥٠٠ فرنك) ، عرفت هذه الحديقة بحديقة (أبيقور) .

صفات أبيقور : كان أبيقور حاوياً الصفات التي تحببه إلى الناس وتأسرهم ، فقد كان هادئ النفس ، سليم النية ، ثابت الجأش ، متواضعاً ، لا يقابل إنساناً بالمعارضة والملاجة ، سمحاً هيناً ليناً ، ذا صحة ضعيفة ، كثير الأمراض ، لا يحابي ولا يمحور . مما حفظ عنه من الخلال النادرة ، أنه لما أصاب بلاده مجاعة صرف كل أمواله في تقويت تلامذته ، حتى صار معدماً لا يملك شيئاً ، وهذا من السماحة التي لا تصادف في الناس إلا قليلاً ، ولم يلبث على التدريس إلا سنين قلائل حتى ذاعت شهرته في جميع البلدان ، وتحدثت بسعة مداركه الركبانية ، وجابت سمعته أوروبا وآسيا وأفريقيا ، ورغماً عما تقول الناس على هذا الفيلسوف ،

ونسبوه إليه من الميل للملاذ البدنية فإنه كان على جانب كبير من البساطة في المأكل ، فقد كان يأكل في العادة خبز الشعير مغموساً في الماء ، ومتى أراد في بعض الأيام أن يأتدم كان لا يتعاطى إلا قليلاً من الجبن مع ذلك الخبز الخشن ، وكان يقول : « يجب أن يكون العيش الكفاف كافياً لإسعاد الرجل الحكيم ، وأرى أن خبز الشعير والقليل من الماء يكفيان لإيتاء الإنسان مثل سعادة جوبتير » .

هذا ما كان يرويه عنه تلامذته من صفات القناعة ، وخلال العفاف . أما من لم يكونوا تلامذة له فقد نقلوا كثيراً من حوادث تمس شرفه وتزري بمقام الفلاسفة من الإفراطات والتفريطات الخلقية ، ولكن (ديوجين لايرس) المؤرخ الشهير نقل عنه أنه حصل على جميع الفضائل النفسية التي تجعل الإنسان محبوباً محترماً .

شيخوخة (أبيقور) كانت أليمة جداً ، فإنه أصيب بالشلل في آخر أيامه ، وأصابته قبل ذلك آلام أخرى ، ومات وعمره إثنان وسبعون سنة ، وخلفه في رئاسة مذهبه تلميذه (ميتروودوردولساك) ، ولم يعيش بعده كثيراً ، فآلت رئاسة المدرسة الأبيقورية إلى (أبوللودور) أحد مشاهير تلامذته .

فلسفة أبيقور

لا تعرف فلسفة في العالم ، خرجها أعداؤها عن أصولها وبعدها بها عن حقيقة مراميها ، وصوروها صورة تخالف صورتها الحقيقية ، مثل فلسفة أبيقور ، فقد ادعوا أن الرجل شهواني محض ، وفلسفته شهوانية صرفة ، لا هم لتبعية إلا الانغماس في لذائذ الشراب والطعام والانغمار في لجج اللهو والغرام ، والحقيقة فوق ما يتوهمون ، فإن هذا الفيلسوف كما نقله عنه الثقات ، كان من الزهد في الملاذ البدنية بحيث كان يكتفي بنخب الشعير غذاء اعتيادياً ، وفلسفة توصل

رئيسها إلى هذه القناعة والزهد ، لا شك لا يكون من أصولها الدعوة إلى الانهالك في الملهذات والإغراق في الشهوات . إن فلسفة زينون ، التي درسنا أصولها في مقالة سابقة ، لم توصل ذوقها إلى مثل هذه الظلافة النفسية ، فكيف بما يدعونه على أبيقور من المبادئ الشهوانية ، والأصول الإفراطية ؟ لا شك في أن هذه المزاعم ، إما نشأت من التقول عليه بالباطل حسداً وحقداً ، وإما من سوء فهم مراميه الفلسفية ، وكثيراً ما يؤدي سوء الفهم إلى هذا الشطط في الحكم .

لسنا نقول هذا إطراراً لفلسفة أبيقور ، وذهاباً بها فوق ما تستأهله من الإجلال والاحترام ، فإننا على بينة من النقص الذي فيها ، هي وسائر فلسفات الفلاسفة الأقدمين ، كما تراه في فصل خاتم النبيين إن شاء الله تعالى ، وإنما نقول ما قلناه ، دفاعاً عن الرجل ، فقد هضموا حقه ، وألبسوه غير ثوبه ، ووصموه بما هو منه براء ، ولقد كانت مبادئه الأخلاقية في مذهبه مذبذبة لكثير من أتباعه ، فقد نبغ على يديه فضلاء كثيرون يحفظ التاريخ إسمهم الآن . على أن تلك الفلسفة ليست فلسفته الخاصة وإنما هو نشرها وعمها . ومن يطالع كتب (ديموكريت) و (لوسيب) يجد أن أبيقور قد استقى منها شيئاً كثيراً ، ولكن فاقها في نشر تلك المبادئ وإشرابها في العقول ، ولا يخفى أن هذه صفة أخرى من صفات الكمال البشري ، تتفاضل النفوس فيها إلى ما لا نهاية . فمن العلماء من لا يشق لهم غبار في العلم والحكمة ، ولكنهم من موات العزيمية عن نشر علمهم ، بحيث يرحلون عن الدنيا وهم لا يفترقون عن عامة جيلهم في شيء ، ويتلاشى إسمهم على أول الزمن ، ولا يبقى لهم في الوجود الذي وردوا إليه أثر يذكر ، ومنهم من فتح الله لهم خزائن العلم وكنوز العزيمية أيضاً ، فأخذوا من هذه وتلك فأصبحوا النجوم السواري يهتدي بها الضال ، ويؤوب إليها التائه ، ولسنا نرى على سطح الكرة في جميع أدوار التاريخ الإنساني إنساناً نال من هذه القوة ، ما ناله خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم ، فقد نشر ديناً جديداً في أمة تعد بالملايين الكثيرة ، في مدة ثلاث وعشرين سنة ، ولا يخفى الفارق

الجسم بين نشر دين وبشر فلسفة ، فإن نشر الدين يستلزم أن يخلع الإنسان عاداته الوراثية ، وفي ذلك ما فيه من الصعوبات ، خصوصاً في الأمم الجاهلية الشديدة البأس ، كالأمة العربية ، فنجاحه صلى الله عليه وسلم ، لم يكن إلا تأييداً إلهياً . وعوناً ربانياً . ومن ادعى غير ذلك ، فليرنا مستنده من نواميس الطبيعة أو قوانين النفس ، وهيات « لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم » .

إذا نظرت لفلسفة (أبيقور) نظرة إجمالية ، لم تجد فيها تلك الأصالة والجددة التي تصادف عادة في مؤلفات كبار فلاسفة اليونانيين ، هذا النقص ، يمكن عزوه إلى ما كانت عليه حالة البلاد اليونانية في ذلك العهد من القلاقل والاضطرابات الداخلية . يقول العارفون أن العصر الذي وجد فيه (أبيقور) وهو العصر الذي كان يتنازع فيه السلطة خلفاء الإسكندر الأكبر ، بين قارتي آسيا وأوروبا ، وكانت الجيوش الرومانية تتقدم إلى الأمام في كل جهة ، تبتلع الأمم والمعاصم ، لم يكن أهله صالحين لظهور أفكار كبيرة بين ظهرانيهم ، ولا لنبوغ قرائح قوية يستضيئون بنبراسها ، ويحيون بحياتها العالية ، فالتجأ (أبيقور) أن يسالم السنة الطبيعية ويسير كما شاء القدر .

كان مثل (أبيقور) في هذا الجيل المشحون بالقلاقل والمشاغب ، الخالي من الفلاسفة والعقلاء ، كمثل قائد تفرقت عنه أجناده شذر مذر ، فأراد أن يجمع شملهم ، وينظم عقدهم ، فلم يرَ أحسن وسيلة لأداء مهمته هذه ، من أن يجعل الفلسفة إلى معناها الحقيقي ، ويوصلها إلى غايتها الأصلية ، وهي تهذيب ملكات الانسان ، وترقية مواهبه الطبيعية بالرياضة والعمل ، لا بالنظريات والعبارات لفارغة ، كما كان يفعله أكثر الفلاسفة . حيث ينبغ منهم فيكون همه ابتغاء القصور والعلالي الفكرية الخيالية ، ثم يورثها لتلامذته ، فيصقلونها شرحاً وتنقيحاً ، ثم يدعونها لأخلافهم مثلها كمثل ألعبوبة عقلية ، أو رياضة تصورية

ليس إلا . فلأجل أن يصل (أبيقور) بالإنسان إلى هذه النقطة من الفلسفة العملية التطبيقية ، جعل منه الوحيد دراسة الإنسان والطبيعة معاً .

نعم إننا لو استعرضنا أفكاره على الطبيعة بعلمنا الحالي لرأينا أكثره حديث خرافة ، ولكن مثله في ذلك كمثل سائر الفلاسفة الأقدمين ، فلم يكونوا أقل منه غلطاً على مساتير الطبيعة وضللاً عن أمرارها . ولكن رغمًا عن هذا فإن طبيعيات (أبيقور) تحتوي على حقائق طبيعية من الطبقة العليا جداً ، ذلك كوجدانه ناموس الجاذبية العامة ، وناموس التجاذب بين الجواهر الفردة في الأجسام ، ولا يخفى أن على هذين الناموسين ، قامت صروح العلوم الطبيعية والكياوية في هذا العصر .

قبل أن يبدي فكره على شيء من الكون ، سأل (أبيقور) نفسه عن مصدر علمه وإدراكه ، فلم يره في غير (الشعور) ، الذي بتشكله وتطوره على حسب الأحوال والمناسبات ، يسمى بأسماء مختلفة ، كاللذة والفرح والحزن وغير ذلك ، وليست كل هذه الإحساسات في الحقيقة إلا الشعور بذاته مصبوغ بصبغة مختلفة .

فمذهب (أبيقور) والحالة هذه ، هو المذهب الحسي الذي لا يعتمد إلا على الأمور المحسوسة والدلائل العيانية ، المشاهدة بإحدى الحواس الخمس .

هذه قاعدة فلسفة (أبيقور) ، وهو بعينه مذهب (لوك) و (كوندياك) و (ديستوت) ، (وتراسي) ، من فلاسفة هذه العصور المتأخرة .

أما عقائد (أبيقور) في أمور ما وراء الطبيعة ، فلا يعلم لنا منها شيء يركز إليه ، والظاهر أنه كان لا يصدق بشيء منها ، ولكن لم يرو عنه أن نابذها وهم بدحضها علناً ، بل أثر عنه أنه كان يتكلم عن الآلهة باحترام وتبجيل ، ولكر قيل أن ذلك كان منه مشايعة للعامة فقط ، وقد عدّه الفلاسفة (الذينونيون) أتباع دينون ، من ضمن الفلاسفة الذين لا يعتقدون بالصانع ، وقد عجب بعض

الفلاسفة من دعواه أن الروح الإنسانية جوهر لطيف له خصائص عالية ، وأنه وجد في هذا الجسد أمدأ محدوداً ، واستخدمه حتى إذا ما صار البدن عديم الفائدة واختل ، خرج منه وتحلل هو أيضاً (أي الروح) وتلاشى في الوجود .

عجب بعض الفلاسفة من دعواه هذه لمخالفتها لأصول مذهبه ، فإنه لم يرَ ذلك الجوهر اللطيف ، ولم يحضر تحلله وفناءه . قالوا : وما دام هو حسيّاً لا يعتد بغير المادة ، أفما كان من السهل عليه أن يزيد المادة صفة فوق صفاتها التي عرفها بها ، ليستطيع أن يفسر مسألة الحياة الإنسانية ، بدل أن يفرض هذه الفروض الغريبة ؟

الغرض من فلسفة (أبيقور) ، البحث عن ماهية الأخلاق الفاضلة التي توصل الإنسان إلى الحياة الدنيوية السعيدة . فما هي تلك الأخلاق الفاضلة ؟ هي البحث عن السعادة . وما هي السعادة ؟ السعادة قد عرفها فلاسفة الأقدمين بمحدود كثيرة اختلفوا بها اختلافات بعيدة . فقد قال (أفلاطون) : هي التخلق بأخلاق الله تعالى . وقال (زينون) ، هي ملائمة العمل لنظام الكون ، وقال (أريستيب) : هي اللذة . أما رأي (أبيقور) في السعادة فهي : سكينة النفس وسلوك جادة الفضيلة .

روي عن (أبيقور) أربعة أصول خلقية تهذيبية ، بسببها كذب عليه الكاذبون واتهموه بأنه طالب للشهوات ليس غير وهي :

١ - أطلب اللذائذ التي لا يكون وراءها ألم .

٢ - إياك والألم الذي لا يجلب لذة .

٣ - إياك واللذة التي تحرمك من لذة أكبر منها ، أو تكون عاقبتها ألماً أكبر منها .

٤ - إحتتمل الألم الذي ينجيك من ألم أكبر منه . أو الذي يكون من ورائه لذة كبرى .

هذا ما يروونه عن (أبيقور) وينسبونه به إلى الانهاك في الشهوات ، يصمون مذهبه بما هو براء منه . ولكن (أبيقور) يزيد عن هذه الأصول الأربعة ، أصولاً أجلّ منها وأفضل ، فإن هذه الأصول الأربعة لا تشير إلا إلى فضيلة واحدة ، وهي الاعتدال ، ولكن لا تنس أن (أبيقور) كان يوصي باتباع ثلاث أصول أخرى بجانب هذا الاعتدال ، وهي : التبصر والحزم والعدل .

السبب في إعطاء (أبيقور) هذه العناية للذات الإنسانية ، هو أنه أطال بحثه في أحوال الإنسان ومراميه البدنية والعقلية ، وأمياله المادية والأدبية ، فرأى أنه تحت سلطان كثير من مطالب جسدية ، ركبت فيه بالفطرة ، وسلطت عليه تسليطاً طبيعياً ، فلم يرد أن يفغل البحث عنها ، ولو فعل لما استطاع أن يصل بالإنسان إلى شيء مما يوده له من السعادة النفسية ، فجعل درسها من بعض اشتغالاته ليصل إلى حدود الاعتدال منها . وليكسر من سلطتها على هذا الإنسان الضعيف . فاعتبر للذات أموراً مشروعة حقّة ، ولم يحرم على أحد من أتباعه شيئاً منها ما دام الاعتدال رائدها .

قسم (أبيقور) المطالب الجسدية إلى أقسام : وهي طبيعية ، وضرورية ، وغلبة كالجوع والعطش . وهناك مطالب أخرى وإن كانت طبيعية ، إلا أنها شهوية ، كطلب صنوف الأطعمة ، وأنواع الحلوى والأشربة وغير ذلك ، وزاد عليها مطالب سماها صناعية تعودية خطيرة ، كطلب شرب الأشربة الروحية ، والحشائش المخدرة وغير ذلك . والاعتدال في نظره هو إبتاء النفس المطالب الطبيعية والضرورية والغلبة . والاحتراز من المطالب الشهوية ، ومكافحة المطالب الصناعية بكل سلاح . ففرضه الأول من الفلسفة إذن ، هو الحكم على الحواس لا الخضوع لها .

بظهر أن أبيقور غالى جداً في بعض الأمور بحثاً عن الراحة والسعادة ، فقد حرم على نفسه الاشغال بالأمور العامة ، وحرم ذلك على أتباعه ، وقد سلك هذا المسلك في هذه العصور المتأخرة ، الفيلسوف الفرنسي (مونتني) ، حيث كتب في ذلك فصلاً بديعة سماها معاصروه قانون الأثرة الظريفة . ولكن مما يجب أن لا ينساه أحد أن كلا هذين الفيلسوفين ، اليوناني والفرنساوي ، عاش في جيل مشحون بالقلقل والفتن ، غاص بالاضطرابات والهن ، بحيث يعذر من يعتزل الناس ويتركهم جانباً .



بيرون

هو الفيلسوف اليوناني الطائر الصيت ، ولد بمدينة (اليس) من البلدان اليونانية سنة ٣٨٤ قبل الميلاد ، ولا تعلم بالتحقيق السنة التي مات فيها ، واختلف المؤرخون في اسم أبيه . فقال (ديوجين لايرس) أن أباه اسمه (بليستارك) ، وقال (بوزانياس) أن اسمه (بيستوكرات) .

ولد (بيرون) فقيراً لا يملك شيئاً ، واشتغل في حداثة سنه بفن التصوير . نقل معاصره وكاتب سيرته (أنتيجون دوكاريست) ، أنه رسم في شرف مسقط رأسه صورة شعية (شمعدان) ذات جملة شعب ، فأعجب بها العارفون إعجاباً كبيراً .

فلسفة بيرون : يقال أن الذي أثر على فكر (بيرون) وحوّله عن الرسم إلى الفلسفة ، هي كتب الفيلسوف ديمكريت ، فلقد كان مكباً على مطالعتها ، مشتغلاً بفك رموزها ، وكان قبل ذلك متبعاً سير الفيلسوف (بريزون) تلميذ (سيتلبون) ، ثم اقتفى نهج الفيلسوف (أنا كزارك) وهو تلميذ (ميتروودور) ، وميتروودور هذا هو أحد قادة المذهب الديموكريتي .

ويقال أن (بيرون) هذا ، لحق يحيوش الاسكندر في غزوته لآسيا ودرس الفلسفة الفارسية من موابذتها أنفسهم ، كما أخذ الأمرار الهندية عن ذات الهندين في بلادهم . فكان مثال فلاسفة الهند في سكينه أنفسهم وهدوء خواطرم لا يغيب عن ذاكرته ، حتى إن أستاذة (انا كزارك) الذي كان يعلمه كيفية تسكين نفسه وتهدئتها ، كان يوقظ في نفسه دائماً ذلك الحنين إلى مذهب الهنود في السكينة ، حتى قوي على تأسيس مذهبه الشهير ، كما ستراه بعد قليل إن شاء الله .

رجع (بيرون) إلى مسقط رأسه (أليس) ، فاجتذب قلوب مواطنيه إليه واكتسب احترامهم وتبجيلهم بأخلاقه العالية ، وشمائله الطيبة ، وفقره المدقع ، واستجماعه الصفات التي يعرف بها الفاضل في زمنه ، فلم يلبث غير قليل حتى عينه أهل بلده رئيساً للكهنة : ولأجل حبه أعفت تلك المدينة سائر فلاسفتها من سائر الضرائب .

معاصره وكاتب سيرته المؤرخ (انتيجون دو كاريست) ، نقل عنه حوادث مضحكة ونسب إليه خلافاً في القوة العقلية ، ولو كان كذلك لما انتخبه أهل بلده رئيساً للكهنة في زمن كان اليونانيون فيه شديداً التمسك بالدين . أما (انيسيديم) ، فقد فند كل التفنيد سائر ما نسب إلى هذا الفيلسوف من خلل العقل ، ولكن لم يمغه من داء التشكك وعدم العقيدة . وكذب القائلين بأن من مبادئ مذهب أن يترك الإنسان نفسه للحوادث تقذفه حيث شاءت . الأمر الذي يشير إلى إغفال الإرادة وإهمال العزيمة .

مات (بيرون) بالغاً من السن أكثر من تسعين سنة ، وهو حاصل على احترام اليونانيين عموماً .

اخلاق بيرون : كان بيرون يحب العزلة والانفراد ، وهما للفيلسوف مهبط التأملات ومسقط الإفاضات ، ويهوى البساطة التامة في معيشته الداخلية حتى

ضرب به المثل في ذلك . وكان يشتغل مع أخته في الشؤون البيتية ، وروى أكثر من واحد من المؤرخين ، أنه كان يحمل إلى السوق الدجاجات والخنازير بنفسه .

يروى أنه رؤي يوماً غضباناً يؤنب أخته على أمر فعلته ، فقيل له : أيها الفيلسوف ، ألسنت القائل بأن العاقل يجب أن لا يحفل بشيء ، وأن لا يهتم لحادث ؟ ، فأجاب على الفور : « أتظن أن فلسفتي تنطبق على النساء ؟ » . وكان يكره الأطماع في أي موضوع كانت ، سواء في الثروة أو الجاه ، وعلى الخصوص في المدح والمجد ، ولا يخفى أن هذه الصفة الأخيرة هي طلبة الفلاسفة وأنشودتهم الوحيدة ، قنعوا بها عن سائر الصفات والمواهب المادية الأخرى .

وقد علل (بيرون) كراهته للمدح بعبارة يحسن إيرادها ، قال : « إن الناس في أحوالهم وشؤونهم يشبهون أوراق الأشجار الدائرة مع الرياح ، تبقى خضراء هينة ثم يعثرها الجفاف واليبس فتصير هشياً ، ومن كان هذا شأنه فأجدر به أن لا يؤبه بمدحه ولا لذمه » .

(أبيكتيت) الفيلسوف ، كان فيلسوفاً اعتقادياً متعصباً لمذهبه متعصباً شديداً ، وكان بالطبع عدواً للملحدين واللاأدريين الذين يرأسهم (بيرون) ، ولكنه مع ذلك كان يعترف لحصمه بثبات الجأش ورباطة الفؤاد ، وكان كثيراً ما يظهر إعجابه بذلك .

يروى أنه كان يلقي على تلامذته يوماً قوله : « يستوي عند العاقل الموت والحياة » ، فقال له أحد تلامذته : « ولماذا لم تفضل الموت أيها الاستاذ ؟ » قال : « لأنها يستويان » .

ويروى أنه كان مسافراً على البحر ، فهب إعصار شديد انخلت له الأفئدة ، وانخلت أمامه العزائم ، وأشرفت السفينة معه على التردى في مهاوي التلف ، فصاح بيرون بمن في السفينة قائلاً : « أنظروا إلى ذلك الخنزير الذي يشتغل بالأكل

وسط هذا الخطر المزعج ، واعلموا أن هذا ما يجب أن يكون عليه الفيلسوف من الهدوء والسكينة .

يظهر أن (بيرون) لم يكتب شيئاً غير قصيدة مدح بها الاسكندر الأكبر ، كما رواه « سكتوس » و « بلوتارك » ، أما كتبه الحقيقية فكانت تلامذته أمثال : « أوريلوك » ، و « فيلون داتين » ، و « هيكاثيه دابدير » .

قلنا إنه مال لمطالعة فلسفة « ديموكريت » والفوص في بحارها ، ولكنه تركها واتبع فلسفة « ميچار » ، ثم تركها هي الأخرى واتبع فلسفة « السوفسطائية » ، ثم يئس من الوصول الى الحقيقة بواسطة كتب الفلاسفة ، فتركها جميعاً والتفت إلى الطبيعة نفسها ، فهي كتاب الكتب لمن يستطيع أن يفهم عنها . لذلك رحل مع الإسكندر الأكبر إلى آسيا في حملته على دارا ، وتكبد مشاق هذه الرحل الشاسعة في سبيل العلوم والمعارف . وقد كان « لبيرون » الحق في ما طرأ عليه من سوء الظن بالنسبة للفلسفة ، فقد كانت في زمنه في اضطراب لم يسبق له مثيل في زمن من الأزمان .

وذلك أنه مات أفلاطون فخلفته الجمعية العلمية التي أسسها ، فلم تستقم على آرائه ومبادئه ، بل مال بعضها إلى مذهب « فيثاغورس » ، وبعضها إلى مذهب اللأدرية . وكان أرسطو في ذلك الوقت ، وهو رئيس الحزب المضاد للحزب السابق ، ساقط الآراء والمبادئ ، لاستناد مذهب على الحس والتجربة ، ومجافاة ذلك لميل اليونانيين لا سيما أتباع الفيلسوف سقراط .

(والسينيكيون) ، رغماً عن احتقار الناس لهم كان لهم مستقبل كبير أمامهم . وقد كان هؤلاء الفلاسفة شأنهم عجيب جداً ، وذلك أنهم كانوا يعيشون عالة على الغير ، معفين أنفسهم من سائر التكاليف الاجتماعية ، وكانوا يهزأون بالحضارة والمدنية ، ويسخرون بالشرائع والقوانين الإدارية ، ويتربصون للمارة يوسعونهم هجواً وشتماً ، ولم يكن يجمعهم ببيرون إلا توافقهم على ذم الحياة المدنية وقسوي سمعتها .

وكان أتباع الفيلسوف ذينون متبعين نهج « السينيكيين » في هجر العقل والمعقولات ، وزاعمين أن معتمد في الحياة أداء الواجب ليس غير ، ولم يكونوا كذلك ، بل كانوا رغمًا عما يقضي به عليهم مذهبهم من الخشونة المعيشية والظلافة النفسية ، متبعين سيرة الأبيقوريين في ترف الحياة ولذات الجنس .

فكان « بيرون » بين هذه الزعازع الفكرية كلها ، في غاية التردد والذبذبة ، لا يدري أي فيلسوف يتبع ، ولا أي فلسفة يدافع عنها ، فلم يسمعه إلا أن جعل ذلك التردد مذهباً فلسفياً ، ودعمه تدعيماً منطقياً ، واتبعه فيه ناس كثيرون ممن هم على شاكلته في ذلك التردد بين المدركات المختلفة . فكان في نظره الاعتقاد مستحيلاً ، وكذلك الإنكار ، ولم يكن أمامه إلا خطة الحياد بين الطرفين والتردد والشك .

ليس بيرون هو أول شاك في العالم ، ولا أول من رأى الشك أسلم الطرق له ، بل هو أول من جعله مذهباً فلسفياً ، وأسس على دعائم علمية بقي قائماً عليها اليوم .

إليك كيف وضع « بيرون » أول حجر لاقامة صرح مذهب ، قال : الانسان متى خرج من غيابة العدم إلى نور الوجود ، وأراد أن يسبر غور هذه المساتير المحيطة به من كل جانب ، فلا يجد أمامه إلا أحد أمرين : فإما أن يصدق كل ما يراه وما يستنتجه ، ويعدّه حقائق غير قابلة للنقض ، وإما أن ينكر كل ذلك ويدعي أن ليس هنالك شيء . ولا يخفى أن كلا هذين الأمرين ، تطرف ينافي طبيعة الإنسان ، ويماكس فطرته الأصلية . إذن فليس للإنسان إلا خطة الاعتدال ، وهي الامتناع عن الحكم على الأشياء .

هذا المبدأ يحسن كثير من الناس فهمه كما يريد « بيرون » نفسه ، فظن خصومه أن يخصموه بأقل الحجج وأصغر البراهين فقالوا له مثلاً :

إما أن يكون شكك عاماً ، وبذلك فأنت شاك في وجود نفسك ، وكفاك

بذلك تناقضاً في مذهبك ، لأنك بشكك في نفسك أقررت على أنك تفكر وتبحث ، وبناء عليه فأنت موجود . وإما أن يكون شكك ليس عاماً ، وتقر بوجود نفسك ، فتكون قد أثبتت شيئاً وناقضت مذهبك .

يقول العارفون أن أمثال هذه المقالات تدل على عدم معرفة قائلها بمذهب « بيرون » ، فإنه لا يقول أنا أثبت ، ولا يقول أنا أنفي ، وإنما يقول أنا أشك فقط ، ذلك لأنه كان يقول أن كل شيء أمامه سر غامض ومساير مغلقة ، يقضي العقل والتبصر أن يكون الانسان بإزائها متبصراً حكيماً ، فلا يصدر عليها حكماً ربما كان غلطاً وناقصاً .

هذه ما رآه « بيرون » أليق بالتبصر ، وأدعى لعدم الجور في الأحكام على الكون وما فيه .

هذا الشك الذي جعله « بيرون » مذهباً فلسفياً ، لا يقتضي أن يكون الانسان متردداً متذبذباً في سائر أحواله المعيشية ، وفي كل حركاته وسكناته ، فلقد كان من قواعد فلسفة هذا الفيلسوف ، الدعوة إلى الاعتدال في المطالب الجسدية ، والشهوات البدنية . وإنما جعل الشك فقط منظماً لسير الفكر أمام البحث وفي اثناء التنقيب على مسابير الكون .

قالوا إن بيرون لم يكن عدواً للدين ، ولا خصماً للفضائل ، كما يريد أن يدعيه السوفسطائية الخياليون الذين جعلوا الفلسفة آلة لتضليل الأفكار ، وتغوير العقول ، وإنما كان كل اهتمامه موجهاً لمنع الإنسان من تراميه بالاعتقاد ، وتهالكه بالتصديق ، على كل ما يقال له ويقدم اليه ، من قبل قوم لا حظ لهم من العلم إلا جملاً أتقنوا التفييق بها ، ومرتوا على حسن أدائها وتصويرها ليس إلا . وهي بعيدة عن الحقائق الثابتة كل البعد . فلم يرد « بيرون » من هؤلاء الناس إلا إرجاء الحكم على تلك الاعتقادات والمرامي الفلسفية ، والوقوف بها موقف البحث والتنقيب ، لا الذهاب مذهب الأثر والبطر ، زعماً أنها حقائق ، وهي ضلالات وأوهام .

يزعم بعض الناس أن (بيرون) ينكر وجود الحقيقة ، وهو زعم كما يقول بعض المحققين ، لا مستند له البتة ، فإن بيرون لم يقل ذلك ، وإنما قال أنه استعرض فلسفات سائر الفلاسفة فلم يجد الحقيقة في واحدة منها ، ولا في مجموعها ، فتركها كلها لعدم فائدتها واتبع طريق الشك فوجد فيه راحته ، وثلج عليه صدره .

بالنسبة لما كان عليه « بيرون » من المبادئ المتقدمة اتهمه أعداؤه بأنه مثل بعض السوفسطائية ، كان ينكر العدل والظلم ويدعي أن الكل وهم في وهم . وهذا كله افتراء عليه كما تدل عليه فلسفته . وللقول المعتمد أنه ما كان ينكر وجود الحقيقة ، ولكنه ما كان يسلم بها إلا للحوادث المشاهدة المحسوسة ، وكان لا يأنف من أي شيء يقال ، على شريطة أن يبدأه قائله بكلمة : « يظهر لي » ، وكان يسلم بالموجودات ، ولا يدعي أنها خيالات أو أوهام ، كما يتهمه به خصومه ، وكان يعترف بالفطرة الإنسانية والنواميس الأدبية العامة ، ويرى أنها منقوشة في صميم المعنى الإنساني .

والذي يؤاخذ به (بيرون) ، هو أنه جعل الشك غاية لمذهبه ، ونهاية لمطلبه ، لا وسيلة يتقدم بها نحو البحث ، ويسلك بها في فيافي النظر .

أما ما يقوله عنه أضداده من أنه كان ينكر المحسوسات ، ولذلك فكان طول حياته محتاجاً لمن يمشي معه في الطرقات مخافة أن يتردى في هاوية أو يصطدم بجائط ، من شدة ما علق بفكره من أنها خيالات لا حقائق ، فهتان لا حقيقة له .

خلاصة مذهب بيرون :

من مبادئ هذا المذهب التصديق بالشيء الواقع أي الحادثة . فإذا حدثت حادثة طبيعية وأحس بها الإنسان ، فلا يجوز له أن يقول : إنها شديدة أو هينة ، باردة أو حارة ؛ وإنما يقول : يظهر لي أنها شديدة أو هينة ، ويظهر لي أنها باردة أو حارة .

وقد أبى « بيرون » ، أن يضع لمذهبه قواعد بنفسه ، قائلاً : ما من شيء إلا ويمكن معارضته ودحضه ، وقد أدهشه ما وصل إليه علم الجدل من الرقي الباهر ، حتى أنه كان يقول أنه يخشى أن يبرهن علم الجدل للناس « أن مقطعاً من الحروف الهجائية أكل جبناً » ، كما كان يفعله بعض السوفسطائية لأعدائهم المغلوب على أمرهم .

قالوا : وليس من شأن مذهب « بيرون » أن ينكر شيئاً ، ولو فعل لسقط أساسه وانهار ركنه ، ولذلك متى قال « البيروني » : أنا لا أفرض شيئاً . يجعل بقوله : بل ولا أقول إنني لا أفرض شيئاً .

إليك الأسباب العشرة التي يستندون عليها في عدم حكمهم على الأشياء :

١ - إختلاف الأحياء من حيث السن ، وتركيب الجسم ، وقوة المشاعر ، ودرجة الإحساس أمام الشيء الواحد .

٢ - إختلاف الناس في الصفات الأدبية والفزيولوجية « التشريحية » .

٣ - إختلاف الأعضاء الحساسة في الإنسان الواحد ، الأمر الذي ينتج منه أن كل حاسة من تلك الحواس تنتج له كمية محدودة من الشعور بالشيء الموجود ، فلا يدري الإنسان أذلك القدر من الشعور خاص بعضوه الذي أحس أم طبيعي في الشيء المحسوس .

٤ - إختلاف الشعور في الجسم الواحد بالنسبة للأحوال المختلفة ، كالمرض والنوم والحزن والهرم .

٥ - الاختلاف في الحكم على حسب كمية الشيء المحسوس : فإن زيادة البرودة وقتلتها ، أو سرعة الحركة وبطؤها ، أو شرب قليل من الخمر ، يغير الحكم السابق عليها كل التغيير .

٦ - إختلاف الناس في أساليب التربية ، وفي الشرائع والمقائد .

٧ - اختلاط الأشياء ببعضها بحيث يستحيل الحكم على كل شيء منها على حدة . كاستحالة وزن الحديد مجرداً عن الهواء المحيط به ، أو إدراك الألوان إلا تبعاً لأخلاط العين التي يخترقها الشعاع أثناء سيره .

٨ - استحالة مواجهة الأشياء مجردة ، فلا مناص من رؤيتها على مساند أو في أماكن أو أوضاع أو أحوال مختلفة .

٩ - ندرة أو كثرة الحوادث التي تحدث لمستجلبها الجود عن رؤيتها أو عدم العناية بها .

١٠ - القيود التي لا يمكن الافتكاك عنها في حكم من الأحكام على الموجودات . فإن الأشياء متعلقة ببعضها . والحكم على الشيء لا بد من أن يكون مقيداً بحالة الحاكم عليه .

هذه هي الأصول العشرة التي يستند عليها أتباع (بيرون) في عدم حكمهم على الأشياء . ويؤيدون بها دعواهم من عدم إمكان الوصول إلى حقيقة ما . وهناك أصول أخرى خمسة ، نشأت بعد العشرة الأولى بقصد إسقاط فلسفة أرسطو وهي :

١ - إحساسات الناس تختلف بالنسبة لكل موجود من الموجودات .

٢ - كل برهان يسوقه الإنسان لإثبات شيء يحتاج إلى برهان يثبتته ، وإلا فعلى أي دعامة يستند في كونه حقاً ؟ فإذا أقمت الدليل الثاني ، احتاج هو أيضاً إلى دليل ثالث يثبتته ، كما احتاج الأول إليه ، ثم يحتاج الثالث إلى رابع وهكذا ما لا نهاية له .

٣ - الذي يبرهن على وجود المحسوس بالدليل المعقول ، يلزمه الدلالة على بقية برهانه الأخير ، ولكن لما كان لا يمكن الدلالة عليه ببرهان عقلي - بناءً على الأصل المتقدم - ، وجب الدلالة عليه بالمحسوس ، وهذا أمر يقتضي الدور التسلسل .

٤ - الفرض الذي هو كما يقولون حقيقة يجب التسليم بها بدون دليل لتكون ركناً لدليل آخر لا تقبل ، ولا يمكن التسليم بها ، لأنه لا دليل لهم على أن ما يجب أن يكون أساساً للدليل ، لا يحتاج لدليل يثبتته .

٥ - كل معقول تابع للعاقلين الذين يدركونه ، وكل محسوس تابع للكائنات المتمتعة بالحساسية ، وكل شيء تابع لما لا يمكن أن يعرف إلا به .

هذه الأصول الخمسة الأخرى التي يعتمد عليها اللاأدرية في حقبة مذهبهم . نقلناها عن مواطنها الصحيحة المستخلصة عن شوائب الافتراء والتعصب الذمير .

أشهر اتباع « بيرون » من أهل القرون المتأخرة « انيزيديم » اليوناني ، الذي كان عائشاً في القرن الأول الميلادي . فقد كتب هذا الفيلسوف كتاباً كبيراً في مذهب اللاأدرية سماه « حجج البيرونيين » ، قسمه إلى ثمانية أبواب :

الباب الأول ، عرض فيه الأصول العامة للمذهب اللاأدري . وبين الخلاف بينه وبين مبادئ الجمعية العلمية الجديدة التي تشكلت في البلاد اليونانية للمبادئ اللاأدرية . وكتب في الفصل الثاني تحليلات فلسفية على المدرجات الآتية : الحقيقي ، والعلة ، والشهودة ، والحركة ، والتوليد . وزعم أنها غير قابلة للحل . في الفصل الثالث ، سرد وجود التناقضات الموجودة في مدرجاتنا على الحركة وعلى الإحساس . في الفصل الرابع ، جادل ضد أفكارنا على العالم والعقائد . وفي الخامس ، درس العلة أي السبب من حيث هو ، وعرض الثمانية أشكال المعيبة . أما الثلاثة فصول الباقية ، فدرس نهاية الإنسان ومصيره ، ولم يذكر عنه إلا أشياء سلبية محضة .

كتب الفيلسوف « انيزيديم » غير هذه الكتب على مذهب « بيرون » ، كتباً مهمة أخرى منها : « كتاب الفروض البيرونية » ، وكتاب ضد العلم ، وكتاب في البحث .

بعد موت « انيزيديم » انتشر مذهب « بيرون » بسرعة في الاقطار العالية

من المملكة الرومانية ، ونشبت في أذهان أعلیاء القوم هنالك ، وقام بالدفاع عنها وحفظها عقول من الطبقة العليا توالى بدون انقطاع مدة من الزمن ، مثل « زوكسيس دوتارس » ، و « انتيوكوس دولا أوديسي » ، و « مينودوت » ، و « هيرودوت دوتارس » ، و « سكتوس » الذي كان في عصر الامبراطور الروماني الشهير « ستم سيفير » . وسكتوس هذا ، هو الذي جمع في المذهب اللا أدري كتاباً كبيراً حشر إليه ما وقف عليه من أقوال الفلاسفة البيرونيين . وليس لهذا الكتاب أثر الآن .

ومما يحسن الالتفات إليه أن أكثر أشیاع « بیرون » الأخيرین هم من الأطباء ، وكان في المذهب الذي اختاروه لأنفسهم فذلکة الفلسفة اليونانية القديمة القریبة منهم .

لما تأسست جامعة الإسكندرية ، التي تكلمنا عنها في بعض فصولنا الماضية ، لم يستطع مؤسسو نظامها العلمي أن يجدوا محلاً فيها لفلسفة « بیرون » ، فتركوها لنفسها فوجدت أنصاراً كثيرین من الخارج في كل مكان وكل زمان ، حتى أنها دخلت الهيكل واتبعها بعض رجال الدين في أوروبا . وقريب منّا « مونتني » و « بسكال » الفيلسوفین الفرنساویین كانا تابعین لهذه الفلسفة اللا أدرية ، وفي العالم اليوم كثيرون غیرهم .



نظرة على ما سبق

إلى هنا ، انتهى بنا الكلام على موجز فلسفة الأقدمین ، فقد عمدنا إلى أصولها الرئيسية فأتينا بها معزوة إلى قائلها من قادة الحكماء اليونانيين . ونظن أننا بهذا البسط قد استعرضنا أمام نظر القارئ درجة رقي الفكر الإنساني في تلك

القرون البعيدة ، وأشرفنا به على مبلغ حظهم من العلم بالحياة الإنسانية في جميع أشكالها وأطوارها ، وبالكون في جلته وكنيته ، ولكننا لن نكتفي بذلك ، فسنعقد فصلاً مطولاً نحشر إليه إن شاء الله ، خلاصة مجموع تلك الفلسفة القديمة على المسائل الفلسفية الكبرى في فصول متعددة .

وذلك أننا سنشرح مبلغ مداركهم في اللاهوت ، ثم في الروح والخلود ، ثم في الإنسان وأخلاقه وأطواره والفضيلة وماهيتها وعلاقتها به ، ثم في الكون يحملته ، ثم في أفرع العلوم الكونية الخ ... لنستطيع أن نحاكمهم على مدركاتهم تلك ، في كتاب خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم ؛ على كل نوع من أنواع تلك المدركات ، ثم نخرج إن شاء الله من هذا البحث إلى اتباع حركة سير العلم في خلال القرون التي توالى بعد اليونانيين ، حتى نصل إلى الأمة العربية ، فندرس مقامها في العلم الطبيعي في جميع فروعها ، وفي الفلسفة ، ومواهبها بالنسبة لكل فرع من أفرع المعارف الإنسانية الخ ... مما يعز علينا مرده الآن ، والله المستعان .

ثم نخرج من هذا البحث إلى إيراد تاريخ العلم والفلسفة عند الأوروبيين ، فنورد إن شاء الله ، أشهر مذاهبهم الفلسفية وآرائهم في كل فن من الفنون الإنسانية ، رادين عليهم بحول الله ، كل ما تطرفوا به عن جادة العلم الصحيح ، وسلاحنا في ذلك كله كلام الله العزيز ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

* * *

مبلغ حظ الفلاسفة الأقدمين

من إدراك الحقائق الأولية

درسنا في فصولنا المتقدمة ، تاريخ ما وصل إليه النوع الإنساني من مبلغ الإدراك في العصور البعيدة ، وهي فلسفة اليونانيين ، وقصدنا من ذلك كله تتبع حركة رقي العقل الإنساني وتدرجه في إدراك الحقيقة جيلاً بعد جيل حتى يومنا هذا ، ليرى قارئنا بالبرهان المحسوس إن شاء الله ، أن الإسلام هو الحقيقة المطلقة التي ليس وراءها مرمى ولا بعدها مطلب ، بل هي عامات الغايات ، ونهاية النهايات ، ولا نستطيع ذلك إلا بالطريقة التي سلكناها هنا ، وهي استعراض معقولات النوع الإنساني كله ، أمام نظر مطالعنا جيلاً بعد جيل ، ليكون على بيّنة من قوله تعالى : « إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم » . وقد بدأنا بالعالم اليوناني ، لأن الفلسفة لم تتكون مستقلة عن تعليم الدين إلا فيه ، ولقد سردنا أمام نظر القارئ كثيراً من رؤساء المذاهب الفلسفية المختلفة ، من اعتقاديّين وملحدّين ولا أدريّين ، رجاء أن يكون لقارئنا فكرة عامة على مبلغ ما كان وصل إليه العقل الإنساني في تلك القرون ، ولكننا نخشى أن يكون قد طال الكلام ، وصار تطاول الزمن على الموضوع وتشعب فصوله مانعين من وصول قارئنا إلى النقطة التي نرمي إليها ، لذلك رأينا أن نعقد هنا فصلاً كبيراً ، نحشر إليه مقالاتنا السابقة المبعثرة في أطواء الصحف الكثيرة ، لتكون النقطة التي نود أن يشرف قارئنا عليها ، مشخصة أمام نظره في حيز محدود . هذا لا يعد تكراراً لما سبق إيرادُه وإنما هو استخلاص لجوهره ، وتصفية للبابه ، وإيضاح لما غمض في أثناء العبارات ، واستتر في طي التقريرات ، وسنزيد عليه إن شاء الله ، ما لا بد منه للوصول إلى هذه الخلاصة الجوهرية ، ونقسم الكلام في هذه الخلاصة إلى أقسام عدة ، سنبدأها بمبلغ مدارك الأقدمين على مسألة اللاهوت ، ثم ندرج منها إلى مبلغ علمهم بمسألة النفس

والخلود ، ثم بمسألة الكون المحسوس وما فيه ، ثم بمسألة ما وراء الطبيعة ، ثم بالأخلاق ، ثم بالسياسة ، ثم بالشرائع الخ ... وهو بحث كما يراه القارىء يحتاج من المؤلف لكلام جديد وتحليل جديد ، يستدعي من القارىء التفاتاً ونظراً .

* * *

مبلغ مدارك فلاسفة اليونانيين « بالمسألة اللاهوتية »

الفلاسفة اليونانيون الذين أتينا على فذلكات من فلسفاتهم في فصولنا المتقدمة ، يشخصون مبلغ ما وصل إليه الأقدمون من المدارك الفلسفية على الأصول الأولية ، والحقائق العلمية . ولقد كانوا ينقسمون إلى ثلاثة أقسام : قسم يعتقدون بوجود الصانع جل وعز ، وقسم ينكرونه ويكفرون به ، وقسم شاكون لا يقررون نفيًا ولا إثباتًا .

القسم الأول أكثرهم عددًا ، وأقوام جنداً لميل فطرة العالم الإنساني إلى العقيدة ، واحتياجها إليها كل الاحتياج .

أما الكافرون والشاكون ، فقد كان كفرهم سبباً لسقوط مبادئهم ، وموجباً لانقراط القلوب عنهم ، وأي جنائية يحنيتها الرجل على العالم الإنساني أشد من حرمانه من نور الإيمان ، الذي هو مصباحه المنير في ظلمات هذه الحياة القصيرة الأمد ، وكيف لا يظهر الإنسان أشد الكراهة والمقت لمن يسمى في إطفاء ذلك المصباح الطبيعي المتلألئ في ضمير هذا القلب الواجف ؟

لا يوجد برهان ولا شبه برهان على نفي العقيدة بالصانع جل وعز ، وقد تتبعنا آثار أقوى العقول الملحدة ، وأشد الأفكار جاحاً وعناداً في هذه المسألة ،

وأتينا على نزغاتهم واحدة بعد أخرى ^(١) فلم نجد من بينها شيئاً يستحق العناية به ، فما هي إلا ظنون وهواجس ، تلم ببعض النفوس المظلمة لأسباب خلقية طبيعية ، أو عارضة اكتسابية ، فتخرج صاحبها عن الطور المعتاد ، إلى أطوار أخرى ظلمات بعضها فوق بعض ، نعوذ بالله منها ، لذلك لا نرى موجباً لإيراد أقاويل كفار الفلاسفة الأقدمين في نفي عقيدة الصانع ، لا سيما وأنهم لوجودهم في عصر كان للدين فيه سلطة تامة ، ما كانوا يستطيعون أن يتكلموا بتمام الصراحة في بسط عقائدهم الإلحادية ؛ ولقد كان الملحد منهم يكتم ما به من الشكوك والهواجس ، ويتظاهر بالدين واحترام المعتقدات ، كما كان شأن أبيقور على ما يقال ، فلقد كان كما قررنا يتكلم عن آلهة اليونانيين بتبجيل واحترام ، وهو في الحقيقة على ما يدعيه أتباع دينون ، ملحد لا يعتقد بوجود الصانع .

سنأتي هنا إن شاء الله ، من بين أقوال سائر الفلاسفة اليونانيين على ثلاثة أقوال في هذا الموضوع السامي ، وهي أقوال سقراط وأفلاطون وأرسطو ، وهي تدل المطالع بأجلى بيان على مقدار ما بلغ إليه العقل الإنساني في عصر الفلسفة اليونانية من الرقي في ذات العقيدة والبرهان عليها .

*

مدارك سقراط في المسألة اللاهوتية

سقراط ، كما يعلم قارئنا من فلاسفة القرن الخامس قبل الميلاد ، وهو عصر كانت الشكوك قد كثرت فيه بواسطة السوفسطائية الذين استعملوا أسلحة الجدل في التضليل والتفجير ، حتى زلزلوا عقائد بعض الناس ، فكان سقراط أقوى ناصر للعقائد في زمنه ، أصلام حرباً عواناً ذاقوا لواعجها سنين كثيرة ،

(١) انظر مؤلفنا الحديقة الفكرية في إثبات الله بالبراهين الطبيعية .

ثم توصلوا إلى الواقعة به ، فرموه بالإلحاد وقتلوه بالسهم في السجن ، وهو وسط بعض تلامذته وأصدقائه يقرر لهم خلود الروح وذهابها من هذا العالم إلى عالم آخر بعد الموت ، وقد احتمل مضض السجن وآلام التسمم بصبر وجلد ضرب بها المثل ، وعرف بها كنه نفسه العالية ، ومهته الكبيرة .

سقراط لم يؤلف كتاباً قط ، وإنما كانت كتبه تلامذته ، وخيرهم (أفلاطون) ، فقد نقل عنه مذهب كله وزاد عليه ، ونحن هنا نورد أقواله عن (أكسونوفوت) ، الفيلسوف اليوناني المعاصر له ، قال :

« سأقص عليكم المحادثة التي حصلت ذات يوم بين (سقراط) وبين أريستوديم الملقب بالصغير بشأن مسألة اللاهوت . فقد كان سقراط علم عن (أريستوديم) هذا ، أنه لا يقرب للآلهة القرابين ^(١) ولا يتقرب إليهم بالصلاة والدعاء ، وأنه لا يستقسم (يستقسم أى يعرف ما قسم له في المستقبل) ، بل وأنه يهزأ بمن يمارس تلك الأمور .

قال سقراط : « قل لي يا أريستوديم ! أترى أنه يوجد رجال يستحقون منك الإعجاب في مهارتهم وحسن أعمالهم ؟ »

قال أريستوديم : بلى .

قال سقراط : ألا نخبرنا عن أسمائهم ؟

قال أريستوديم : « إني في نوع الشعر التاريخي أعجب (بهوميير) ، وفي الحماسة يطربني (ميلاتييد) ، وفي المراثي يشجوني (سفوكل) ، وپروقي في التائيل (بوليكليت) ، ويعجبني (زوكسيس) في فن التصوير . »

قال سقراط : « قل لي أيهما أحقهم من إعجابك بالقسط الأكبر ، الذين

(١) كان اليونانيون معدين للآلهة ، مثل كل الشعوب القديمة التي لم تقف عند حدود الوحي الإلهي ، وسيجيء في أقوال سقراط لفظ آلهة كثيراً ، ولعله كان يجاري العامة في تلك اللهجة ، أما هو فلا نظنه إلا مرحداً .

يعملون صوراً لا شعور بها ولا حراك ، أم الذين يخلقون الكائنات الحية المتمتعة بالإدراك ؟ .

« قال أريستوديم : وحق الإله ، إن الأحق بالقسط الأكبر من الإعجاب هم الذين يخلقون الكائنات المتمتعة بالحياة ، إذا لم تكن تلك الكائنات نتيجة الصدفة ، بل كانت نتيجة حكمة وإرادة .

« قال سقراط : أرايت لو عرضت عليك مصنوعات مختلفة منها ما هو خفي المنفعة ومنها ما له منفعة ظاهرة وحكمة في الوجود باهرة ، فأيهما أولى بأن تظنه من نتائج الصدفة والاتفاق ، أو من نتائج العقل والحكمة ؟ .

« قال أريستوديم : تقضي علينا بداهة العقل ، أن نقول أن الذي له حكمة في الوجود ظاهرة ، ومنفعة في نظام العالم بيّنة ، هو من فعل العقل والحكمة .

« قال سقراط : ألا ترى معنا أن الذي خلق الإنسان وسواه ، قد أعطاه كل عضو من أعضائه لمنفعة خاصة وفائدة بيّنة ، وامتعه من الأجزاء والأجهزة بما يحس ويشعر بواسطته . فتمتعه بعينين ليرى بهما المحسوسات ، وبأذنين ليسمع بهما الأصوات . وبماذا كانت تفيدنا زكيات الروائح ، لو لم تكن لنا أنوف تدركها وتحس بها ؟ أترى أنا كنا نتمتع بإدراك الحلو والمر من الطعام ، وبالاتذاذ بمحبوبات الفم ، لو لم يكن لنا ذلك اللسان الذي وضع لتمييزها والحس بها ؟ ألا ترى أن من دلائل التدبير والحكمة ، أن تمتع العين وهي ضعيفة يجفون تنفتح وتنغلق عند الحاجة وتنطبق عند النوم طول الليل ، وأن توهب تلك العين غربالاً من أهداب لتقيها فعل الرياح الشائثة ، وأن تمنح لها تلك الحواجب كميزاب يمنع عنها غوائل العرق المتساقط من الرأس ، وأن تصنع الأذن على صورة لا تكل من سماع الأصوات ولا تعيا من الحس بها ، وأن تعطى جميع الحيوانات أسناناً أمامية لقطع الأغذية ، وأضراساً جانبية لسحقها ، وأن يكون الفم الذي تدخل منه الحيوانات الأغذية الصالحة لها إلى اجوافها موضوعاً قريباً من العينين والمناخير ، وأن المهل الذي يحصل منه الإفراز للمواد المستقدرة ، بعيد عن مرمى النظر ومعكوس

الوضع ، وعلى أبعد ما يمكن من الأعضاء الرئيسية . أتري نفسك بإزاء كل هذه الأعمال التي تدل على تدبير وحكمة ، لا تزال متردداً بين عزوها إلى الصدفة والاتفاق ، وبين إسنادها للحكمة والعلم ؟

« قال أريستوديم : لا والإله ، فإن أقل نظر في هذه الكائنات الحية ، يدلنا على أن هنالك ذات عالم رحيم خلقها وعدها .

« قال سقراط : زد على هذا الميل المودع في الطبائع للتكاثر ، والرحمة المودعة في قلوب الأمهات لتغذية صغارها وإعالتهم ، وما غرس في نفوس تلك الصغار من عواطف حب الحياة والهرب من الموت ؟

« قال أريستوديم : لا شك أن كل هذا يدل على أنه اختراع موجود حكيم ، أعد الأرض وهياها لسكنى الحيوانات .

« قال سقراط : أنتظن بعد هذا ، إنك وحدك الكائن المتمتع بحكمة وعلم ، وأنه لا يوجد غيرك في هذا الوجود كله عاقل ولا حكيم ، وأنت تعلم أن جسمك هذا ، هو قطعة لا قدر لها من حجم هذه الأرض ، ونطقة من مياه هذا المحيط الزاخر ، وأن الذي أقام أودك وكون شكلك هذا ، هو جزء لا يؤبه به من هذه المواد العظيمة الحجم ، الكبيرة المدد ؟ أنتظن أنك وحدك قد استلبت من هذا الوجود حكمة وإدراكاً ليسا فيه ، وأن كل هذه الكائنات التي لا نهاية لها بالنسبة لك في العدد والعظم قامت كلها في هذا النظام البديع ، بقوة ليست متمتعاً بحكمة وعلم ؟

« قال أريستوديم : أنا أنكرها والإله ، لأنني لم أرَ صناعها ، كما أرى الصانع للأعمال الأرضية .

« قال سقراط : إنك لا ترى روحك التي هي سلطنة جسمك ومديرته ، وعلى هذا ، فيمكنك أن تقول قياساً على قولك السابق ، بأن أفعالك كلها تصدر عنك عن غير حكمة ولا تدبير ، ولكن عن الصدفة والاتفاق . »

يرى القارىء من هذه المحاوره بين أريستوديم وسقراط ، أن الفيلسوف قد أحال خصمه بقوة حجته للإقرار معه بوجود الصانع الحكيم ، ولكن بقيت لديه شبه أخرى ، فلم يرد سقراط أن يدعها تجول في فؤاده ، فاستأنف معه المحادثة ، مثبتاً له عناية الخالق بمخلوقاته ، فقال :

« كيف تزعم أن الآلهة لا تعتني بمخلوقاتنا ، مع أنك تعلم ، أنها قد وهبت الإنسان من بين سائر الحيوانات خاصية الوقوف على قدميه ، وهي تلك الخاصية التي تسمح له ببقاء نظره الى أبعد ما يصل اليه ، والتأمل في المراتب التي فوقه ، وهي مع منحها للحيوانات اللاصقة بالأرض تلك الأرجل التي لا تسمح لها إلا بالتحرك وتغيير أوضاعها فقط ، أعطت الإنسان دونها أيدياً بواسطتها تحدث أكثر الأعمال التي تجعلنا أسعد حالاً من الحيوانات . انك ترى أن لجميع الحيوانات ألسنة ، ولكن لسان الإنسان من بينها كلها ، متمتع بخاصية إظهار الأصوات المختلفة بانتقاله في مواضع مختلفة من الفم ، وبهذه الوساطة نستطيع أن نعبر لغيرنا عما يضطرب في ضمائرنا من الأغراض والأحاديث . »

إلى أن قال :

« لم يحدد الخالق عنايته بأمر الجئان الإنساني فقط ، بل أنه أبدع الروح الإنسانية ! وهي المقصودة بالذات ، على أكمل الصفات ، وإلا فأرني أي حيوان من الحيوانات يستطيع أن يدرك وجود تلك الآلهة التي فطرت هذه الأجسام العلوية العالية ، على هذا المثال البديع والشكل الآسر ؟ قل لي أي حيوان آخر ، ما عدا الإنسان ، سما به عقله إلى عبادة الآلهة والاختبات لها ؟ أخبرني أي روح تضارع الروح الإنسانية ، في اتقاء غوائل الجوع والعطش والبرد والحر ، ومداداة نوازل الأمراض والأعراض ، وملافاة فقد القوى بأنواع الرياضات الجسمية ، والكد والكدح لنوال العلم ، وتذكر ما رأته وما سمعته وما علمته ، أليس من الجلي الواضح بعد هذا البيان ، أن أفراد الإنسان مثلهم بين أنواع الحيوانات كمثل الآلهة لعلوم عنها جسماً وروحاً ، أترى أنه لو وهب الإنسان

جسم ثور وعقل رجل ، يستطيع أن يحدث من الأعمال ما تحدثه به نفسه ، ومن جهة أخرى ، فأي فائدة تعود على حيوانات متمتعة بأيدٍ كأيدينا ولكن لم توهب بإزائها عقلاً مناسباً لها ، وأنت أيها الكائن الذي وهب المنحتمين وقمعت بالنعتمين الغاليتين ، تريد أن تظن أن الآلهة لا تعني بك ولا تهتم بشأنك . وأي شيء تركته تلك الآلهة من الدلائل اللازمة لإقناعك بذلك ؟ .

فأجابه عند ذلك أريستوديم بحواب حمل سقراط على محاولته من طريق آخر ، وألجأه إلى محاربته بشهادة النوع الإنساني في خلال القرون . قال أريستوديم :

« لترسل لي الآلهة خبراً بما يجب علي عمله أو تركه ، كما تدعي أنها أرسلت لك أنت . »

فأجابه سقراط قائلاً :

« لما خاطبت الآلهة الآثنتين بواسطة الاستقسام ^(١) أتظن أنها لم تخاطبك في زميرهم ؟ أترى أنها لما أظهرت لليونانيين ولجميع العالم مكنونات إرادتها ، بواسطة المعجزات والآيات ، كنت أنت وحدك الرجل الذي تركته نسياً منسياً ؛ أتظن أن الآلهة وضعت في أعماق الفطرة الإنسانية عقيدة الاقتدار على إحداث الخير أو الشر ، ولم تهيبها قوة تمكّنها من إحداثها ، وأن النوع الإنساني قد انخدع بذلك كل هذه القرون ، ولم يشعر بانخداعه لليوم ؟ ألا ترى أن أقدم التأسيسات

(١) الاستقسام هو أن يطلب الإنسان معرفة ما قسم له في عالم الغيب بواسطة الآلهة ، وقد ولع بذلك الأقدمون واختلفوا في كيفية عمله على حسب عقائدهم وألهتهم . أما العرب ، فكانوا يحيثون بثلاث قداح يكتبون على أحدها أمرني ربي ، وعلى الآخر نهاني ربي ، ويتركون الثالث غفلاً بدون كتابة ، ثم يرمونها ، فإن ظهر القدح المكتوب عليه نهاني ربي ، ألقه عن العمل ، وإن ظهر الذي هو مكتوب عليه أمرني ربي ، مضى فيه ، وإن ظهر الخالي من الكتابة أعادوا الإلقاء حتى يظهر لهم شيء . هذا كان حال العرب ، أما اليونانيون ، فكان الاستقسام عندهم على غير هذه الصفة .

الانسانية وأحكامها ، والممالك القائمة والأمم العظيمة ، هي أكثرها تمسكاً بالدين واعتقاداً بالآلهة ، وأن أكثر العصور نوراً ولألاءً ، هو أكثرها وأشدّها تعلقاً بالتقوى والطاعة . إعلم يا صاح ، أن روحك كما لها السلطة التامة على جسمك تدبره وتدبره كما شاءت ، كذلك الحكمة المحيطة بهذا الكون ، لها التصرف والإرادة النافذين فيه كله . ما هذا ! أيصح أن يكون مرمى نظرك يصل لجملة مراحل ، ونظر الإله لا يلم بكل المخلوقات جملة واحدة؟ وهل يتصور أن روحك تستطيع أن تشتغل في آن واحد بما يحصل هنا وفي مصر وصقلية ؛ وأن العلم الالهي لا يحيط بكل شيء في لحظة واحدة ؟ نعم إنك متى أردت أن تصنع معروفاً مع الناس لو عرفت من منهم يريد أن يكافئك عليه ، ومتى أدبت إليهم خدمة من الخدم لو علمت من منهم يود أن يقابلك بمجزائها ، ومتى استشرت الناس لو ميزت من بينهم أهل البصيرة والتسديد ، وكذلك متى قدمت واجبات العبودية للآلهة لو بحثت أن تدرك إلى أي درجة تريد تلك الآلهة كشف مكونات العلم لك ... عند ذاك ، تدرك ماهية صفات الإله العلمية وعظمته الحقيقية ، ذلك الإله السميع البصير ، المحيط بكل شيء ، المهيمن على كل شيء .

من هذه المحاورة ، يتضح لقارئنا مبلغ قوة الفيلسوف (سقراط) في إثبات الصانع ، ومنها يرى أنه لم يستند إلا على (البرهان الطبيعي) و (البرهان التاريخي) ، وهما نوعان من البراهين المستعملة في إثبات الصانع . أما البرهان الطبيعي ، فموضوعه بسط حوادث الكون وصنائه الباهرة أمام نظر الخصم ومحاجته بها ، والاستدلال منها على لزوم وجود واضع لها ومهيمن عليها . وأما البرهان التاريخي ، فموضوعه الاعتماد على شهادة النوع الإنساني وميله الفطري إلى الإعتقاد منذ خلقه للآن ، واستبعاد اجتماع كل فطر النوع الإنساني على غير الحقيقة . كيف لا ، واجتماعهم على هذه العقيدة مع تخالفهم في الألسن والصور والألوان والاستعدادات والأزمان ، ودرجات المعلومات ، يدل تمام الدلالة على أن تلك العقيدة حاجة طبيعية من حاجات الروح الإنسانية ، وميل غريزي

فطري ، منقوش في أعماق الفؤاد الإنساني ، مثله فيه كمثل سائر الفرائز
والمواطن البشرية .

هذان هما البرهاتان اللذان استند عليهما (سقراط) في محاورته لأريستوديم ،
وهناك أنواع من براهين أخرى في إثبات الصانع ، استعملها فلاسفة اليونانيين ،
سيأتي كثير منها في أثناء هذا الموضوع إن شاء الله .



مدارك أفلاطون في المسألة اللاهوتية

أفلاطون تلميذ سقراط الأول وكتابه الناطق الذي نقل عنه جميع مبادئه
ونظرياته ، وهو أحد أراكين الفلسفة في العالم القديم . وقد سلك مذهباً في تقرير
فلسفته ، أعلى من المذهب الذي علمه أستاذه . فإن صح ما يقال ، من أن لسقراط
مذهبين : مذهباً بينه وبين العامة ، لا يعلو به عن مداركهم في كبير شيء ،
ليجعل لفلسفته خصيصة تنطبق بها على الناس أجمعين ، ومذهباً خاصاً بينه وبين
خاصته من أصحاب العقول القوية والأفكار البعيدة المرامي . إن صحّت هذه
الرواية ، كان فضل أفلاطون في مذهبه ، مشتركاً بينه وبين أستاذه ، وإن لم تصح
وهو الأرجح ، كان لأفلاطون الفضل وحده في مبلغ الرقي الفلسفي المشاهد في
مذهبه .

رأينا من برهان سقراط ، أنه سلك بالذهن مسلك المحسوسات والملموسات ،
فلم يشق كلامه على أبسط المدارك وأخلاها من العلم ، وهذا لا ينافي كونها قوية
سليمة من العيوب ، ولكن تلميذه أفلاطون لم يقف عند هذا الحد بل اكتشف
نظرية (الأفكار) ، كما قرئناه في ترجمته في بعض الفصول الماضية ، وعلل بهذا
النحو وجود المحسوسات بتلك المعقولات ، وجعل محض الإدراك الإنساني
المجرد ، تابعاً لعالم قائم بذاته غير متلبس بالمادة . هذه النظرية التجريدية ، هي

أساس فلسفة أفلاطون وركنها الركن ، وآثارها فيها لا تحتاج لكثير تأمل في جميع مبادئه وأقواله . حتى أن براهينه في إثبات الصانع ، مصبوغة بتلك الصبغة أيضاً ، كما سيتضح إن شاء الله للقارىء .

قد تدرج أفلاطون في إثبات الصانع بتحليل درجات العلم . ولأجل ذلك ، قسم العلم إلى قسمين عامين : علم بالمحسوس وعلم بالمعقول . أما العلم بالمعقول فينقسم إلى نوعين : الفكر التعقلي (الذي لا يحدث إلا بالتعقل والنظر) والإدراك ذاته . فالقسم الأدنى ، أي الفكر التعقلي ، يذهب في الإدراك مذهب الاستدلال والاستقراء ، ويعرف بتلك الطريقة حقائق ثابتة ، وأحكاماً ضرورية عامة ، ولكنه لا يصل بها إلى حقيقتها الأولى ، ولا يصعد بها إلى الله تعالى .

أما القسم الأعلى ، وهو الإدراك ذاته ، فيسلك مسلك الجدل ويصعد بكل حقيقة إلى أصلها الأول ومصدرها الجوهرى . ومن هذا القسم ، العلم الذي ينير على الإنسان حوالب الأمور ، ويضيء عليه مشكلات المسائل . ولكن هل هذا القسم الأعلى من الجوهر الإنساني ، هو نهاية كل ما يمكن بلوغه من درجات الإدراك البشرى ، أم هنالك درجات أخرى يمكن الوصول إليها ؟ ألا يوجد مرمى وراء هذا العلم الذي يثير على الإنسان دياجير أموره ، ويكشف له مكنونات المعارف ؟

يقول أفلاطون : بلى ! يوجد وراء ذلك كله الذات نفسها والحقيقة عينها ، وهما اللذان يعطيان الحقيقة للأشياء والقوة للمعقول . فإذا كان العلم والحقيقة ، على ما يعهد الناس من جمال وكمال ، فمصدرهما أجل وأكمل . وكما يغلط من يظن أن الشمس هي النور والنظر ، كذلك يخطئ من يظن أن العلم والحقيقة هما الخير المطلق بذاته . ولكنها صور وظلال للخير المطلق . فنهاية الكمال العقلي ، وأرقى مرمى لعلم الجدل ، هو أن يصل الإنسان إلى رؤية ظلال العالم الإلهي ، فيريانه بأنها صور تقابلها شمس مضيئة .

وقد مثل أفلاطون العقول التي تعلو عن مداحض الحس إلى التمتع بمجالي عوالم المعاني المجردة ، بمثابة عجيب وضعه في مقدمة الفصل السابع من كتابه في «الجمهورية» ، قال : إن الذي لم يعمل به فكره عن عالم الحس بل ارتطم فيه وتورط في أحواله ، كمثل رجال بؤساء نشأوا في غار مظلم ، وربطوا فيه بحيث لا يستطيعون فككا ، ووضعت نار من خلفهم ، فهي تضيء عليهم ضوءاً ضئيلاً تنعكس بسببه ظلالهم على الجدار المقابل لهم ، فيحسبون أن تلك الظلال كانتات حية متمتعاً بعقل وإرادة وحركة وكلام ، ويظنون على ذلك الزعم ما داموا في الغار ، ولكن أي دهشة تلم بهم وأي حيرة تأخذ بمتنفسهم ، متى أخرجوا من قاع ذلك الغار المغم ، وعرضوا على أنوار الشمس الساطعة ، ورأوا الحياة بأعلى مظاهرها تحت هذا الجو الباهر ؟ فأأي فرح يحل بفؤادهم ، ويطفح من أفئدتهم ، متى قارنوا بين الحالة التي كانوا عليها ، وبين ما صاروا إليه من طيب الحياة ورؤية حقائق الأشياء ؟. قال أفلاطون : هذا مثل حالة الإنسان في هذا العالم الحسي . فإن ذلك الغار المظلم هو العالم الحسي ، وتلك النار الضئيلة التي كانت تضيء عليهم هي هذه الشمس ، وإن الذي يصعد منهم على سطح الأرض ويتأملها ، هي الروح الإنسانية التي تعلو عن عالم الحس ، وتتصل بعالم المعاني والمعقولات ، ومتى انتهى الإنسان إلى قمة ذلك العالم ، أدرك معنى الخير ، وهي قمة لا يصل إليها الإنسان إلا بشق النفس وإجهااد القوى ، ولكنه لا يستطيع أن يدرك ذلك المعنى السامي إلا إذا أدرك قبل ذلك أنه الأصل الأولي لكل جمال وخير في الوجود ، وأنه هو الذي في هذا العالم الأرضي يعطينا النور المنبعث من كوكب الشمس ، وأنه هو الذي في العالم المعنوي يمنحنا الحقيقة والإدراك .

مجرد النظر في هذه المبادئ الأفلاطونية ، يكفي المطالع في فهم مرامي هذا الفيلسوف ، بالنسبة لهذه المسألة الهامة ، المسألة اللاهوتية .

أما براهينه في إثبات الصانع ، فقد كتب في بعض كتبه ما معناه :

« من الواضح الضروري ، أن كل ما يتولد يجب أن يكون له سبب يولده .

ومن المعلوم أن الدنيا قد تولدت ونشأت بعد أن لم تكن لأنها مرئية ملموسة وجسمية ، وكل هذه الأوصاف محسوسة فيها ، إذن فكل محسوس يظهر أنه متولد وناتج... وبما أن الكون أجل الموجودات وأكملها ، فلا مناص من التسليم بأن موجدها أكمل الأسباب ، وهذا الكون لا بد من أن يكون مصنوعاً على نموذج بديع على مقتضى الحكمة والعلم .

هذا النموذج الذي يقول عنه أفلاطون ، هي المعقولات الأصلية التي يسميها أفكاراً ويعزوها لعالم مستقل قائم بذاته متميز عن هذا العالم .

ولئن سئل أفلاطون ، عن حكمة إيجاد الخالق جل وعز للمخلوقات ، لأجابه كما كتبه في بعض كتبه : « لإظهار كماله الإلهي ، ومن كان كاملاً كان منزهاً عن الأغراض والشهوات ، وهو مع تنزهه عن النقائص كلها يود أن كل شيء يشبهه في كماله على قدر الإمكان . »

هذا هو (البرهان السببي) في إثبات الصانع ، توصل به أفلاطون لتقرير تلك الحقيقة الكلية كما ترى ، فأداه إلى وجود إله واحد حكيم عليم قادر ، منزّه عن الأغراض والشهوات . مكوّن الكائنات ومدبرها .

أما في كتابه (القوانين) فقد جاء أفلاطون ببرهان جديد في إثبات الصانع ، وهو ضرورة وجود محرك أول للوجود متحرك بذاته . وقبل أن يقرر أفلاطون برهانه هذا ، أصلى الملاحدة حرباً عواناً ، بكلمات خلدت له الذكر ولهم الخزي . قال : أي كدر وغيظ يلم بالنفس ، متى رأى الإنسان أنه قد ألجىء لإثبات وجود الآلهة ^(١) . لا يستطيع الإنسان أن يمنع نفسه عن مقت وازدراء

(١) رأى القارئ من البرهان السببي الذي قدمه لنا أفلاطون ، أنه مقر بوجدانية الخالق جل وعز ، فلا يتعجب القارئ من ذكره كلمة آلهة ، فإننا اعتاد فلاسفة اليونان على مجازاة الصامّة في بعض الأحيان .

هؤلاء الناس، الذين هم الباعث اليوم لنا على الجدل في هذا الموضوع. إلى أن قال: « ولكن يجب علينا أن نكلمهم ونحن بغاية الهدوء والسكينة، لكي لا يقال بأنه كما أسكرتهم حميا الشهوات، قد ضللنا نحن مثلهم سورة الغضب. فلنوجه إذن لمن فسدت عقولهم بمثل هذه الأصول الملحدة، معارفنا هادئة ثابتة، ولنأخذ أحد أولئك الإباحيين على جانب، ولنقل له يهدوء وبعد أن نتغلب على سورة الغضب في نفوسنا: يا بني إنك شاب، وكلما كبرت وطعنت في السن، تغير فكرك على كثير من الأشياء وستذهب بفكرك ضد ما تذهب إليه الآن، فانتظر نماء عقلك وكال سنك، حتى تستطيع أن تحكم على عقيدة هي أمس شيء بحياتك، وإن ما تعده الآن عديم الجدوى لدى البحث والنظر، هو أفيد ما تتصرف إليه همك وتعلق به عزيمتك، تلك المسألة الهامة هي أن يكون للإنسان عقيدة نقية من البدع في ذات الله خالية من الخرافات، فإن عليها مدار السيرة الإنسانية، وبها يتعلق أمر الصلاح والهدى، كما ينبني على ضدها الفساد والردى. وإني لا أخشى التكذيب لو قلت لك في هذا الموضوع أمراً جديراً بالنظر، وهو أنك لست أنت وحدك ولا أصدقاؤك معك، أول من ألحد في الآلهة، فإن في كل زمان ومكان يوجد أقوام قليلون أو كثيرون، يصابون بهذه العلة. ولا أدري بأي يمين أقسم لك، بأني قد شاهدت كثيرين أصيبوا بهذه العلة في شبوبيتهم وظنوا أن لا آلهة في الوجود، فلم تثبت معهم تلك العلة في سن الشيخوخة ».

إليك محاورة من محاورات أفلاطون، تريك كنه المناهج التي نهجها في إثبات الصانع، وإلى أي مدى بلغ به تصويره من ميدان هذه المسألة الهامة. في هذه المحاورة الملقب بالآتينى هو أفلاطون.

الآتينى: الحركة نوعان: إحداها، مواد في إمكانها إعطاء حركتها لسواها ولكنها هي نفسها لا قبل لها بتحريك نفسها، والأخرى مواد متحركة على الدوام بنفسها، وفي استطاعتها إعطاء حركتها لمواد أخرى بالتركيب أو

التقسيم ، وبالإضافة أو التقليل ، وبالتوليد أو الإفساد ، فأبي هاتين الحركتين يجب علينا وضعها فوق أختها في الدرجة ، وأيهما أقوى وأنشط من الأخرى بما لا يقدر ؟ .

كلينياس : لا شك أن النوع الذي حركته حركة ذاتية وغير مستعارة ، هو النوع الذي يفوق غيره بما لا حد له .

الآتينى : لنسأل سؤالاً آخر ولنسحّ في الإجابة عنه ، إذا سلمنا جدلاً بما يحسر خصوصنا على قوله ، من أن كل الأشياء الكونية أتت عليها حين من الدهر كانت في غاية السكون ، فمن أين نشأت فيها الحركة الأولى ؟

كلينياس : يجب أن تكون الحركة ابتدأت من المواد التي تتحرك بذاتها ، لأنه من الواضح الجلي أن لا داعي للمواد الأخرى يجبرها على أن تغير من أوضاعها قبل تلك اللحظة ، فإنه قبل تحرك تلك المواد المتحركة بذاتها لا يطرأ أي تغيير في سائر المواد الأخرى .

الآتينى : لنفرض أن أصل كل الحركات وكل التغييرات ، سرى في كل ما هو ساكن وصار المحرك الراهن لما هو متحرك الآن ، وهذا الأصل متمتع كما قلنا بالحركة الذاتية ، فمتى رأينا مادة من المواد متحركة ، فكيف نستطيع أن نقول أن تلك الحركة مستعارة ؟

كلينياس : أتريد أن تسألني عما إذا كانت تلك المادة حية متى تحركت بذاتها ؟

الآتينى : نعم ، هل هي حية ؟

كلينياس : بلا شك .

الآتينى : ولكن متى رأينا مواد حية ، أليس من الضروري الاعتراف بأن أصل حياتها هي الروح ؟

كلينياس : لا يمكن أن يقال غير هذا .

الآتينى : فما هو تحديد الروح إذن ؟ هل هي شيء غير ما سبق لنا قوله ، وهو أنها جوهر فيه خاصية التحرك من ذاته ؟. إذا تقرر هذا ، أفلا تكون النتيجة الواضحة ، بأن الروح هي مبدأ كل توليد وحركة ، وكل إفساد وسكون في كل الكائنات الماضية والحالية والمستقبلية ؟ ومن هنا ، أفلا يحق لنا أن نقول أن الروح قد وجدت قبل الجسم ؟... أو لا يجب على خصوصنا التسليم أيضاً ، بأن الروح الساكنة في كل ما هو متحرك لتدبير حركاته هي أيضاً الحركة والمدبرة للساء ؟

كلينياس : نعم .

الآتينى : فالروح إذن في الحالة هي الحركة والمدبرة لكل ما هو في السماء وعلى الأرض وفي البحر ، كل بالحركات الملائمة له ، وهو ما نسميه نحن ارادة ، وامتحان ، وعناية ، وشورى ، وحكم صادق أو كاذب ، وفرح وحزن ، واثمان ، وخوف ، وكراهة ، وحب ، كما أن الروح تحكم وتدبر بحركات أخرى مشابهة ، هي الأسباب الأصلية ، فتولد في الكائنات بواسطة أسباب ثانوية النمو أو الضمور ، والتركيب أو الانقسام ، والصفات التي تنتج منها : كالحر والبرد ، والثقل والخفة ، والجود والرخاوة ، والأبيض والأسود ، والحامض والحلو والمر . ولكن مع هذا يمكن أن يفرض وجود نوعين من الروح : الأولى روح تعترض بالعقل والحكمة في إدارة شؤون الحركات وتدبيرها ، فتحكم بذلك كل شيء على مقتضى العدالة والحكمة ، وتهيبه لسعادته الحققة . والثانية روح لا تأتمر إلا بما يصدرها لها عدم التبصر والجنون من الأحكام الجائرة . فأى روح من هاتين يظهر لنا أنها الحاكمة على السماء والأرض وجميع هذا الكون ؟ هل الحاكمة فيه هي الروح المتصفة بالحكمة والكمال أو المجردة منها ؟ لأجل الإجابة على هذا السؤال ، يجب علينا أولاً معرفة ما إذا كانت كل هذه الحركات الكونية ، والتغيرات العلوية في الاجرام السماوية ، منطبقة على حركات العقل وتغيراته وبعقلاته ، فإن كانت الروحان متشابهتين في سيرهما ، كل في عالمها ، وجب علينا أن نستنتج من ذلك ،

أن الروح التي تحكم هذا الكون هي الروح الكاملة ، وأنها سائرة به في طريق الكمال .

كلينياس : هو ذاك

الآتيني : وبالعكس ، تكون هي الروح المضادة لها لو كان كل ما على الأرض يدل على الخلل والفساد .

كلينياس : هذا حق .

الآتيني : فما هي إذن طبيعة حركة العقل ؟ ... من بين كل الحركات المعروفة ، الحركة التي يكون لها محل وحاصلة حول مركز هي الحركة المشابهة كل الشبه لحركة العقل ، لأنها حاصلة على مقتضى قاعدة ثابتة متماثلة ، حافظة دائماً علاقات ثابتة بينها وبين مركزها وبين الأجزاء المحيطة بها ، على مقتضى نسبة وترتيب لا يتغيران .

كلينياس : إنك قلت الصواب .

الآتيني : وبالعكس ، الحركة التي لا تكون منتظمة ولا هي على مقتضى قواعد ثابتة ، وليس لها مركز ثابت ، ولا علاقة معلومة بينها وبين الأجزاء المحيطة بها ، وبالاختصار ، الحركة التي لا قاعدة لها ولا ترتيب ولا نظام ، تشبه تمام الشبه للحركة المنبعثة من عدم التبصر والجنون .

كلينياس : لا شيء أصدق مما تقول .

الآتيني : الآن لا يصعب علينا أن نجيب على تلك المسألة بغاية الضبط والإحكام ، بقولنا أنه لما كانت الروح السائدة على الكون قد طبعته بحركة مستديرة ، وجب بالضرورة أن تكون التغيرات الحاصلة في الأجرام العلوية ناشئة من قبل الروح الكاملة لا محالة .

كلينياس : إن ما قدمته كله ، لا يسمح لقائل أن يقول بغير تلك النتيجة ، وهو أن هنالك روحاً ، أو أرواحاً ، متصفة بكل صفات الكمال ، تدير حركات الأجسام العلوية .

الآتينى : إنك قد أدركت صميم ما أريد أن أقوله يا عزيزي كلينياس ،
فأرجوك أن تعبرني التفاتك لما يأتي ...

كلينياس : وما هو ؟

الآتينى : إذا كانت الروح كما قلنا هي الحركة لأجرام السماء ، أفلا تكون
هي أصل حركات الشمس والقمر وكل كوكب على حدته ؟ .

كلينياس : لا شك في ذلك .

الآتينى : لنبحث في كنه الحركة الحاصلة في أحد هذه الأجرام ، بحيث
ينطبق حكمنا عليه على سائر الأجرام الأخرى .

كلينياس : أيها تختار ؟

الآتينى : أختار الشمس ، فاسمع . كل إنسان يشاهد جسم هذا الكوكب ،
ولكن لا يرى أحد روحه التي تديره وتدبره ، كما لا يرى روح أي حيوان حي
أو ميت . ولكن لنا أن نقول ، أن هذا الجوهر الروحاني هو من طبيعة لا
تدركها مشاعرنا الجسمية ، ولا تتراءى إلا لعين العقل وحده ، فلنجهتد في إدراكه
بالعقل والفكر .

كلينياس : كيف ذلك ؟

الآتينى : إذا كانت هذه الشمس دائرة ومدبرة بروح الأرواح ، فلا يخلو
الأمر من أن يكون حاصلًا بأحد الطرق الثلاث الآتية : فإما أن تكون تلك
الروح في داخل ذلك الجرم الكروي ، فهي تحمله إلى كل جهة كما تحمل الروح
الإنسانية الجسم ؛ وإما أن تكون مكتسبة بجسم آخر من النار أو الهواء ، كما
يدعيه بعضهم ، فهي تتوصل بقوة ذلك الجسم إلى دفع الشمس حيث تريد ؛ وإما
أن تكون منزهة عن الجسمية ومنفصلة عن الشمس تمام الانفصال ، وإنما تديرها
وتحركها بخافية فيها لا يديرها العقل . ولكن ، هب أن تلك الروح تحمل
الشمس في عربة وتوزع بتلك الواسطة نورها على المباد ، أو أنها تؤثر عليها بقوة

خارجية على صفة وأسلوب لا ندرية ، فكل منا يجب أن يعلم أن تلك الروح لا بد من أن تكون من عالم عال ، وأنها تقرب من أن تكون (آلهة) ، أليس ذلك صحيحاً ؟

كلينياس : هذا لا يشك فيه أحد .

الآتينى : وماذا نقول بالنسبة للقمر والكواكب ، وبالنسبة لتعاقب السنين والشهور والفصول ، أليس كل ذلك مصدره روح واحدة ، أو أرواح عدة ، بالغة نهايات الكمال وجميع صفات الجلال ، وإن هذه الأرواح هي آلهة ، تارة تسكن الأجرام وتتشكل بأشكال بعض الحيوانات ، فتتنظم كل ما يحصل في العالم العلوي من حركات وانتقالات ، وتارة أخرى تؤدي أعمالها على غير تلك الصفة ، ؟ إني سائلك الآن ، أيستطيع الإنسان أن يقر معنا بهذه الحقائق ، ولا يعتقد أن العالم مملوء آلهة ؟

كلينياس : لا ، الناس أعقل من ذلك .

الآتينى : لنتم الآن بحثنا هذا الذي وجهناه إلى الذين يزعمون عدم وجود صانع للكون ، بعد أن نريهم الحدود التي يجب عليهم الوقوف عندها في الرد علينا .

كلينياس : أي الحدود ؟

الآتينى : يجب عليهم أن يثبتوا لنا فساد ما قلناه ، من أن الروح هي أصل توليد وأصل كل شيء ، وأن يبرهنوا لنا بتلك الوسطة ، بطلان كل ما استنتجناه من هذا الأصل ، أو فليقروا بأنهم لا يستطيعون هدم ما قدمناه ، فيرجعوا إلى ما قلناه ، وليعيشوا معتقدين بوجود (آلهة) .



براهين أرسطو

أرسطو كما يعلم قراؤنا تلميذ (أفلاطون) ، وكان ينتظر مع هذا أن يكونا متحدين في فلسفتيهما من بعض الوجوه ؟ ولكنهما من العجيب مختلفان كل الاختلاف ؟ لأن كلا منهما رسم لنفسه مبادئ لا تتفق مع صاحبه . فإن أفلاطون جعل مدار نظره العموميات والكلييات ، ثم تنزل منها على الجزئيات . ولكن أرسطو جعل وجهة بحثه الجزئيات ، والتدرج منها إلى الكلييات ، ليأمن من الخطأ في الحكم ، ومن اللبس في التصور . من هنا نشأ ذلك الخلاف الجوهري بين أفلاطون وتلميذه أرسطو ، حتى كأنهما خلقا ليتعارضا ولا يتحدان .

العالم في مذهب أرسطو قديم أزلي أبدي ضروري ، موجود من القدم ولا يزال كذلك ، على الحالة المنتظمة المدبرة التي يرى عليها الآن حاصلًا على جميع قواه ونواميسه ؟ وحاصل بطبعه على القوى التي تحركه وتدبره . ولكن يكون الكون في حالة خدر وخمود لو لم يكن لتلك القوى المحركة له مدد يعطيها القوة ويهبها الحركة . إذن وجب أن يكون محرك أول للكون ، ويجب أن يكون ذلك المحرك الأول ثابتًا ساكنًا ؟ لأنه لو كان متحركًا لاحتاج إلى قوة تحدث فيه تلك الحركة ، ولاحتاجت تلك الأسباب المحدثثة للحركة إلى أسباب أخرى ، وهكذا إلى ما لا نهاية وهو محال .

من هنا يرى أن أرسطو توصل إلى إثبات الصانع بنظرية الحركة ، وهي من المشاهدات العيانية كما لا يخفى ، ولكنه وضعها في قالب يعلو عن فكر العامة ، فقال : « لا مناص من التسليم بأنه يوجد شيء متحرك حركة دائمة ، وتلك الحركة دائرية . هذا ما أثبتته الحس لا الدليل العقلي وحده . ينتج من هذا أن السماء الأولى يجب أن تكون أزلية . ثم لا مناص من التسليم بأنه يوجد شيء آخر يعطي تلك الحركة بطريقة مستمرة ، وبما أنه لا يوجد إلا ثلاثة أنواع من الكائنات وهي : الكائن الذي يحركه محرك ، والكائن الذي يعطي الحركة للمتحرك ، والكائن الوسط بين المتحرك والمحرك ، وهو كائن يجب أن يهب الحركة ولا يتحرك هو ، فهو أبدي أزلي ، أصل لغيره ، منزّه ، فعال مؤثر .

« إليك كيف يهب الحركة للكائنات . لا يخفك أن الشيء المرغوب والمعقول يهبان للراغب والعاقل الحركة بدون أن يتحركا . وأول مرغوب مشابه لأول معقول ، لأن موضوع الرغبة والحامل عليها هو الشيء الذي يظهر أنه جميل . وأول غرض للإرادة والمؤثر عليها هو ما يظهر أنه جميل أيضاً . وعليه ، فنحن لا نطلب الشيء إلا إذا تراءى لنا جميلاً ، لا أنه جميل لأننا نطلبه . فأصل الموضوع إذن الفكر . وهذا الفكر يتحرك لما هو معقول ، كما يتحرك لما هو جميل ، فيكون كلاهما في صف واحد من حيث أصلها . ولا يخفى أن أصل الشيء ، يجب أن يقدم على غيره من العلاقات والخصائص الأخرى الملازمة لذلك الشيء ، كما لا يخفى أن أكمل الأصول هو أبسطها وأفعّلها . إذن فقد دخل الجميل في ذاته ، والمعقول في ذاته ، في دائرة المعقول . ولا يخفى أن ما كان أول ، كان أكمل ، سواء كان مطلقاً أو مقيداً . وبناء على هذا ، وجب أن يكون سبب الأسباب كلها موجوداً ثابتاً لا يتحرك . وهذا هو الفرق بين هذا السبب الأولي والأسباب الأخرى . فإن الأسباب نوعان ، نوع مطلق ونوع غير مطلق . والكائن الثابت يهب الحركة للأشياء بالصفة التي يهبها الشيء المحبوب ، وما يتحرك يهب الحركة للمجموع كله . من هنا ترى كل كائن متحرك جازئ عليه التغير والتحول . فإذا كانت أول حركة هي حركة الانتقال من مكان إلى مكان ، فالكائن المتحرك يحصل فيه تغير ، إن لم يكن في أصله ففي موضعه . ولكن بما أنه من الضروري وجود كائن يحرك وهو ثابت ، وثباته لا يمنع كونه فعالاً مؤثراً ، فيكون هذا الكائن غير قابل للتغير ومنزهاً عن التحول . ودليل ذلك أننا قلنا أن أبسط التحولات وأولها ، هو الانتقال من مكان إلى آخر . وقلنا أن أول الحركات الأولية هي الحركات الدائرية . ينتج من ذلك ، أن الكائن الذي تصدر منه تلك الحركة الأولى يجب أن يكون ثابتاً ، فالمحرك الثابت إذن ضروري الوجود . وبما أنه واجب الوجود ، فهو الكمال المحض . وبناء عليه فهو أصل . ولأجل أن تدرك ذلك ، إليك أنواع الضروري وهي : ضرورة قاهرة وهي من نوع الضرورات التي تبعث أميالتنا الطبيعية نحو مطالبها . وضرورة هي في الحقيقة سبب لنيل الكمال . ثم هناك ضرورة أخيرة ، وهي ما كانت ضرورة في ذاتها ، ولا يمكن أن تكون إلا كذلك . »

نظرة على ما سبق

نقلنا ثلاثة أقوال في المسألة اللاهوتية ، عن ثلاثة فلاسفة هم دعائم الفلسفة اليونانية وأركانها ، لينضح للقارئ مبلغ مدرك الأقدمين في تلك المسألة الكبيرة ولا بد أن يكون قارئنا قد لاحظ معنا ، أن كل واحد من هؤلاء الثلاثة ، ذهب مذهباً خاصاً به في تقرير تلك الحقيقة ، فتأدوا إلى نتائج وإن اتحدت في الإيجاب والإثبات ، إلا أنها اختلفت من حيث النعوت والصفات .

أما سقراط ، فقد سلك في بحثه مسلك البساطة والوضوح ، فاستجلى أمام سامعه مشاهد الطبيعة ، ومعاهد آثارها البديعة ، وجال بفكره في مناحيها جولة المفكر الباحث ، فرأى أنه لاشك في وجود واضح لهذا النظام البديع ، موجود لهذا الكون الفخم ، فأمن به إيماناً فطرياً ، يستوي فيه سقراط الفيلسوف وأجمل الجاهلين من هذا النوع الإنساني . ثم إنه قوى برهانه الطبيعي هذا بالبرهان التاريخي ، فاستعرض لذلك أحوال الأمم ، ودرس شيوع تلك العقيدة بينها جيلاً بعد جيل ، مع اختلافها في اللغات والأجناس ، وتفاوتها في الفكر والعلم ، فاتخذ سقراط هذا الإجماع دليلاً قوياً على أن العقيدة بوجود الصانع حاجة من حاجات الروح ، وغريزة من غرائز العقل ، لا يمكن الإنسان أن يلفت نفسه عنها إلا بعارض من النقص ، كما لا يستطيع أن يلفت نفسه عن خاصية من خصائص جسمه إلا بعارض من الخلل فيه . هذه الحاجة العامة في النفوس ، عالمها أو جاهلها ، متمدنها ومتوحشها ، قديمها وحديثها ، دليل محسوس على أن موضوعها حق ، إذ لا يعقل ولا يتصور أن تحتاج النفوس إلى وهم ، وترتاح إلى خيال مجرد ، وهي مجمعة عليه هذا الإجماع المطبق .

هذان برهانا سقراط ، وهما من البساطة والوضوح بحيث لا يعز إدراكهما على أي عقل ، ولا يعلو متناولهما عن أقصر فكر . أما ما ورد في أثناء عباراته مما يشمر بتعدد الآلهة ، فنعتذر عنه بأنه إنما كان يتسامح في ذلك أحياناً بمجاعة

للعمامة ، واحتراماً لأميال الأمة ، وإن كان ذلك يعد نقصاً في كماله - إن صح ذلك عنه - ويريك رأي العين ذلك الفرق الشاسع بين النبي والفيلسوف . الفيلسوف كما ترى ، يسائر في العقيدة أحياناً ، فيكتم إيمانه ويخفيه ثم قد يذيعه ويفشيه ، وقد يكون بينه وبين العمامة شأن يخالف شأنه بينه وبين الخاصة الخ ... من أمثال هذه الأحوال التي سببها ضعف القوة البشرية . أما النبي ، فيذيع إيمانه لا يخاف لومة لائم ، ولا يخشى صولة ظالم ، يواجه بها الملوك في أبهتها والرؤساء في سطوتها ، ويصادم بها الأمم في عقائدها ، لا يتخيل بطشاً ولا هضماً ، ولا يخاف بغياً ولا صدماً ، ولا يزال كذلك حتى يظهره الله على أعداء أنفسهم ، أو يحلو عن الوجود وقد أحدث فيه أكبر الآثار وأعظم الحوادث ، ولسنا نرى من بين سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، نبياً مرسلًا نال مثل ما ناله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم من هذه الخصلة الكريمة كما ستراه إن شاء الله .

أما أفلاطون ، فبرهانه يحتاج الى شيء من العلم والحكمة ، فهو بعيد عن البرهان الفطري على قدر بعده عن متناول العقل العادي ، وهذا كما لا يخفى عيب في الدليل لا يغيب على بصير . إذ لا يخفى أن الخالق جل وعز ، أكبر من كل كبير وأظهر من كل ظاهر ، فكيف يليق أن يكون البرهان على وجوده من الخفاء بحيث يدق على كثير من الأفهام ، ولا يهتدي اليه بعض العقول إلا بوسائل من العلم غير متيسرة للعالم كله ؟

إن قيل : إن ذلك البرهان خاص بأهل العلم ، أما العمامة فأمرهم سهل وخطبهم هين . قلنا : إن خفاء الدليل مهما كانت وسائل العلم المستعملة له ، لا يليق إلا بالشيء الخفي الذي يعوز شيئاً من الجهد في إدراكه والحس به . أترأى يوماً من الأيام ، في حاجة لاستنباط خفايا النظريات الفلسفية من باحات المجالس الفكرية لتقيم البرهان على وجود الشمس تتلألاً في رابعة النهار ، أم ترى من نفسك الاكتفاء بالإشارة إليها ، واستلفات النظر إلى الضوء الذي حوالها ؟

إن قلت : إنما أكتفي بالإشارة إليها لمن هم وإياي في مستوى واحد من الشعور .

أما بالنسبة للمحجوبين الذين لا يستطيعون إدراكها إلا من تلك الطريق، فالتجىء أمامهم للغوص في سرائر الفلسفة لاستنباط أدق البراهين إرغاماً لهم، وكبحاً من شرزتهم . قلنا : ان إغماضك في الدليل على هؤلاء المحجوبين ، لا يزيدهم الا مضياً في عشوائهم ، واسترسالاً في ضلتهم ، ويكون اغماضك هذا عليهم مغرياً لهم على مقارنة دليلك بمثله ، وتوهم الظهور عليك ، فلا تزال بينهم في أخذ ورد، ومحااجة وملاجة ، حتى تجدون أنفسكم قد خرجتم عن الموضوع الأصلي ، الى متاهات يحار فيها الفكر ، ويضل فيها العقل ، فترجعون من تلك الجولة المتعبة ، لا يمتاز أحدكم عن الآخر في الإعياء والمعجز ، وتكون النتيجة غالباً تثبيت الضال في ضلاله، وفرحه بزخارف أقواله . وهلم جرا .

* * *

الباب الثالث

حياة خاتم المرسلين
محمد صلى الله عليه وسلم

تمهيد

نحن اليوم بإزاء موضوع يحفى القلم دون توفيته بعض حقه ، وتضييق مجالات التعبير عن تصوير شطر من حقيقته ، وتكلل عزمات الروية عن خوض لجج باحاته ، وتنقطع أنفاس التصور عن السبح في سباحات أنواره .

إذا كانت النفس الإنسانية في ذاتها معضلة العلم ، ومشكلة الفلسفة ، وعقدة الحكمة من القدم إلى اليوم ؛ وإذا كانت المعارف الإنسانية بأجمعها ، وقوانين علوم النفس برمتها ، لم تزل قاصرة عن تتبع سير النفس في حركتها وسكناتها ، والإشراف على سر تطوراتها في صلاحها وفسادها ، وعاجزة عن الإلمام بصفة عروجها في عالمها على أجنحة الفضائل ، أو هبوطها بدوافع شهوتها إلى حضيض النقص والردائل ، فكيف يطمع باحث أن يقف على حقيقة روح نزلت من حظائر الملأ الأعلى ، وانفصلت من مرادقات العالم الأسمى ، واتصلت بأبدع وأكمل صورة من صور المادة ، لتأخذ في الأرض بيد أرواح غرقى ، وتنجي من الغمم نفوساً هلكى ، وتشفي بسباحات جماها عيوناً عميا ، وتخلص من الأدران قلوباً غلفاً ، وتفتح لسماح الحقيقة أصمخة جامدة وآذاناً صما ، وتنطق بفصاحتها ألسنة أصبحت عن غير المفاصد بكما ، وتنقي بمطهرات حكمتها مدارك غدت بأوضار الوسوس رجساً ، وتفك أصفاد عقول أوسعها رؤساء العقائد ضيقاً وضغطاً ، وتحلل أغلال أفكار قتلها حفظة الأباطل ذلاً وأمراً ، وتدحض من حملة الشرائع ضلالاً وزيفاً ، وتقيم من الفلسفة عوجاً وأمتاً ، وتتم من مكارم

الأخلاق خداجاً ونقصاً ، وتذك عروش ملوك ساموا الأمم خسفاً ، وأحرقوا الضعفاء عسفاً ، وتلصق بالأرض جباهاً ادعت أن بينها وبين السماء صلة ووداً ، وأن بيدها من أمور الناس حلاً وعقداً ، وتلحق بمصاف العامة أقبالاً زعموا أن لهم من الربوبية قسطاً ، ومن التسلط على رقاب المخلوقين حقاً ، وتنسف قصوراً شيدت بمهج الأرامل واليتامى جوراً ، وترد حقوقاً اغتصبها الرؤساء عدواناً وظلماً ، وتضع للعدل في الأرض ميزاناً فصلاً ، وللقسط قسطاً عادلاً ، وتكشف عن جوهر الإنسانية خبئاً ران عليه فجعله فحماً ، وتجلو عن أرواحها غمماً سوداً ، وعن ضمايرها غيامب سحماً ، وتبيء بذلك الأرض لقبول نور يفيض عليها من سماء الرحمة فيضاً ، ويعد النفوس لكالم طالما حنت إليه حنيناً وبكت عليه الضمائر شوقاً ، وتشرح الصدور لدين ترتع فيه الأرواح رتماً ، وتسبح في سبحاته القلوب سبجاً ؟

درس هذه الروح يستلزم معارف جلى ، وعلماً جمياً ، ويستدعي من الباحث بعلم النفس إحاطة كبرى ، وبضمائر المساتير معرفة عظمى .

دعنا من قوم يظنون أن للشعريات في هذه الأقاويل حظاً ، وللخيال في هذه العبارات سهماً ، وهلم بنا نستجوب الحوادث ، فإن لها بالحقائق ألسنة فصحة ، وأجوبة مثلى .

من ينكر علينا أن هذه الروح المحمدية الطاهرة الكريمة ، نشأت بين قوم كانوا من الدين في وثنية ، ومن الأخلاق في همجية ، ومن العادات في وحشية ، ومن الاجتماع في إنقسامات قبيلية ، وتحزبات عصبية ، ومن المدارك في جهالة ، ومن الأفكار في ضلالة ، ومن الوجود في عماية ، ومن العقائد في غواية ، ومن النظمات في فاقة ، ومن القوانين في حاجة ؛ حروب متواصلة ، وأحقاد متوارثة ، ودماء مهددة ، ومهيج مهراقة ، وعادات نشبت فيهم نشوباً ، وغرست فيهم عيوباً ، وجرت عليهم خطوباً ، وطباع خلعتهم عن مقتضى الفطرة ، وثبت بهم عن مطالب الخلقة ، واصطلاحات بعدت بهم عن قوانين الطبيعة ،

وألقت بهم إلى مطارح الرذيلة ، وأشربت نفوسهم سموم القطيعة ، صناديد لا يفكرون في غير الفارات ، ولا يفاخرون إلا بطعن الردينيات وضرب الشرفيات ، شعراء ولكن في الدعوة إلى القتال ، وتيتيم الأطفال ، وإفناء الأهل والمال ، أقوياء ولكن في نفس المعالم ، واكتساح المغانم ، نجداء ولكن ضد بعضهم ، شجعان ولكن على أنفسهم . ولكني مع هذا لا أنكر أنهم كانوا أقل من سائر الأمم عيوباً ، وأهون منهم في الرذائل نشوباً ، وأولى بأن يؤدبهم الله بوحيه ويحملهم إلى خلقه أنوار دينه . ومن ينكر علينا ، أن هذه الروح الحمديدية الشريفة ، قامت في مبدأ الأمر وحدها بدون مرشد ولا نصير ؛ وبغير مشير ولا وزير .

ومن ينكر علينا أنها لاقت مما يحيط بها من الأرواح مقاومات عنيفة ، ومخاصمات شديدة ، وفتناً مظلمة ، وإحنًا حالكة وصدوراً وغرة ، وأعداء فجرة ؟

ومن ينكر علينا أنها صبرت تجالده هذه الأرواح سنين متوالية ، تأخذها بالنصيحة مرة ، وبالترغيب أخرى ، وبالتهيب حيناً . وبالجدال أحياناً ، فكانت بذلك وحدها أمام أمة بأسرها ، ترمقها عن بكرة أبيها شزراً وتتوعدها شراً ، وتهدها سراً وجهراً ، وتنصب لها الجبائل ، وترصد لها المخاتل ، وتغري بها اللثام والرعاع ، وتثير عليها الإحن والأحقاد ؟

ومن ينكر علينا ، أنها فازت في النهاية على جميع مجاوراتها ، وأخضعت لسلطانها جميع عدواتها ، وسائر حواسدها ، وأتمت كل وظائفها ، ثم صعدت إلى حيث أتت ، قريرة العين مرتاحة البال ، لم ينلها من تألب أعدائها شيئاً ، ولم يلحقها في أداء وظيفتها فتور ولا وقي ، ولم تصعد ، حتى نقشت إسمها في صفحات الوجود نقشاً لا يمحي ، وأبقت فيه أثراً لا يبلى ، واستخلفت فيه روحاً لا تزهق ، وحياء لا تضمحل أفاعيلها في تابعها إلى يومنا هذا .

من يرد أن ينكر علينا كل هذه الحوادث فلينكر ، الشمس طالعة والنجوم ساطعة ، ونفسه الجاحدة .

إذن ، كيف نشأت هذه الروح على غير سنة الوسط الذي ولدت فيه ، وكيف احتمت من مؤثرات ما يحيط بها من العادات والأخلاق ، وكيف نجت من مشائن الفرائز التي كان يجب أن تنشأ فيها بطريق الوراثة ، ثم كيف سلكت وحدها هذه المسالك الوعرة ، وذلت كل هذه الصعوبات الهائلة ، واجتازت كل هاتيك العقبات الكثود ..؟

ثم كيف نجحت في مشروعها ، واستطاعت أن تخضع تلك الملايين من الأرواح لسيطرتها ، وتجعل كل تلك الإرادات القوية تحت سلطان إرادتها ؟ ألا ترى معي الآن ، أن هذه الروح أكبر روح ظهرت في العالم ، وأن إرادتها أقوى إرادة عرفت من بني آدم . وأن عزمها لما تندك أمامه الجبال الشمخ ، وتهبط منه العرائن البذخ ، وأن علمها لما لا يدخل تحت نطاق فكر ، ولا ينحصر في دائرة روية .

إذا كنا نحن أمام هذه الروح حيارى لا نستطيع كيف ندرکها ، مع اعتقادنا بأنها روح نبي مكرم ، ورسول معظم ، له من جانب القوة الإلهية عون جبروتي ، ومن الملائكة المقربين عضد سهاوي ؛ فكيف تكون حيرة جاحد لا يعتقد بنبوة صاحبها ، ولا يصدق بأن له من جهة العالم العلوي توفيقاً يده ، ونصيراً يدفع عنه الفشل ويرده ؟

كيف يعلل الملحد هذا التأثير الهائل الذي لم يسبق مثله للأنبياء والتاريخ أصدق شاهد ، وحوادث الكون أعدل ناطق ؟ ألا يكون المكذب به أحر من تحت السماء في تعليل هذه المدهشات ، وتفسير هذه المعجزات ؟

إذا كانت هذه الأعمال العظمى ، تتم لغير نبي وتمكن لمن ليس له عون رباني ومدد إلهي ، فما هو فضل النبوة على السياسة ، وما هو امتيازها على حيل طلاب التسلط وعشاق السلطة ؟ نعوذ بك اللهم من الجلود على أحقاد الآباء ، والتأثر بوراثة الأسلاف .

نحن لا نكتب السيرة الحمديد الكريمة كتاريخ يقرأ لتضية الوقت ، ولا نود أن نجعله تسلية للنفوس في أوقات فراغها ، ولكننا نود درسها من وجهة فلسفية حيوية ، نتعلم منها ماهية الإنسان ، ومقدار ما وهب من ملكات ومواهب ، وكيف نسلك بأرواحنا سبل المطالب ، وكيف نأخذ نفوسنا بآداب الدنيا والدين ، ونجمع بينها في مسلك واحد . ومن ذا الذي لا يرضى بأن يكون تابع أشرف روح برهنت على حقيقتها وفضيلتها ، وسلكت في الحياة كل السبل الممكنة ، وكانت في كل سبيل منها نوراً يعشو إلى ضوئها التائه ، وعلماً يهتدي به الخابط ، وبزت في كل مجالة من مجالات المجهودات الإنسانية كل مزاحم ، ونالت من مسألة الوجود لها ، وموافقة مقتضياته لآمالها ، ما لم يبلغه حي قبلها ولا بعدها ألقى بنفسه في معمعان هذا العالم ؛ ثم عرجت بعد ذلك كله إلى محدثها العلوي ، نقية الجيب طاهرة الذيل ، لم ترتكب إثماً ولا شططاً ، ولم تكتسب إلا ما يخلد لها حسن الأحداث وجمال الأثر .

من ذا الذي لا يرضى بأن يكون تابع هذه الروح العالية في حركاتها وسكناتها ، وسلمها وحررها ، ورضائها وغضبها ، وانبساطها وانقباضها ؟ لا جرم أن هذه الروح لا تتحرك إلا لنوال كمال ومحامد خصال ، ولا تسكن إلا عن حرام وضلال ، ولا تسالم إلا الفضيلة والجمال ، ولا تحارب إلا الرذائل وذميمة الحلال ، ولا ترضى إلا الحق والاعتدال ، ولا تغضب إلا لله في جميع الأحوال ، ولا تنبسط إلا لمشاهدة سبحات الملك المتعال ، ولا تنقبض إلا لمن لحظ سواء في الأقوال والأفعال .

من منا لم يؤلمه التناقض بين إحساسه وعقله ، ولم ينغصه التعاكس بين عقيدته وفعله ، ولم يسخط على نفسه التباين بين دينه وميله ؟

يرينا العقل أن وقفنا لأنفسنا على الفانيات غاية الغوايات ، وشر البليات ، فإن همت بنا الرغبة إلى الإصاخة لصوته ، والعمل بنصحه ، جذبتنا من الإحساسات الشهوية تيارات ، ولعبت بنا من نزغاتها نزوات ، وحالت بين

أنفسنا وبيننا حيلولة تدق عن أن يتصورها الفكر بصورة ، أو يقع منها التعبير على كيفية .

ترينا العقيدة أن ذلك الأمر رجس حرام ، وتبرهن لنا الحوادث على أن فيه الآلام والأسقام ، بل الموت الزؤام ، فترى أنفسنا مسوقين لإتيانه ، مرغمين على غشيانه ، كأننا موجورون على إتلاف أنفسنا وأموالنا ، ومرشون على إهلاك ذاتنا وأشخاصنا !

ليس هذا قامراً على من كان له دين وعقيدة ، فإن كل الأمم حتى في هذا العالم المتمدن ، يرى منها هذه الآثار المحزنة من التناقض والتباين في كل حيثية . فلقد أرثها معارفها ضرر الحمر وويلاته ، وشروره وموبقاته ، ومع ذلك فهي تعتصمه وتتشط العاملين عليه ، وتبيعه وتستلفت الأنظار بكل الحيل إليه .

دلتها معلوماتها وأرشدتها التجارب أن القمار سبب الدمار والخراب ، ومبيد الأسر العالية الأطناب ، وملصق الجباه الشفاء بالتراب ، ومكثرات الانتحار بين الشيب والشباب ، والرجال والكماب ، ومع ذلك فهي تأتيه جهرة ومن وراء حجاب ، وتعلن عنه في الجرائد إعلانها عن فوائد أعظم كتاب !

دلتها المثلاث أن تكشف النساء ودورانهم في الطرقات ، ورقصهن مع غير أزواجهن في المنتديات ؛ مجلبة لما لا يعد من الخزيات والمنكرات ، وقد أرشدتها الحوادث المتكررة لتلك السيئات ، بقوارع تنفتت منها الأكباد ، وتذوب الإحساسات حسرات ، ومع ذلك فهي سائرة في سبيلها سيراً حثيثاً . وعاملة على بقاء ذلك واستشرائه بكل الوسائل . إلى غير ذلك مما يطول شرحه ، كما سيراه القراء إن شاء الله في موضعه من كتاب الإنسان والمدنية .

فلم هذا التناقض الهائل بين مطلب إحساساتنا وأحكام عقولنا ، ولماذا هذا التعارض بين عقائدنا وأفعالنا ؟ هل قضي على الإنسان بأن يكون عمره متذبذباً متردداً ، لا يركن إلى شيء حتى يزجج عنه ، ولا يعتمد على أمر حتى يطرد منه ، ولا يقف لحظة حتى يساق للأمام ، ولا يساق للأمام حتى يجذب إلى الوراء ،

ولا يكون كذلك حتى تتوزعه القوى المختلفة من جميع جهاته ، وهو مع ذلك يزعم أنه حر رشيد ، وأنه مختار مريد ، وأنه بطل صنديد ، وأنه ذو عزيمة تقدر الحديد وتذيب الصياخيد ، وأنه بما طالت فيه دعاويه ، وكثرت عليه من نفسه شكاويه .

هل للإنسان عذر في الحال المرتبك ، والأمر المشتبك ؟ هل له أن يقول عن نفسه مدافعا : أنه ضعيف ألقى به في وجود قوي العوامل ، قصير مدى الفكر ، تكنفه في الكون ألوف من الفواعل ، محدود العلم ، قضي عليه أن يسير من حياته في مراحل بغير زاد ولا رواحل . عديم الخبرة بالطبيعة ، قذف به منها في مجاهل ، ظامى الفؤاد لكمال مجهول سيق لأن يعرف منه المناهل ، فاتجه إليه من غير دلائل ، تمتع بصفات متباينة ، حتم عليه أن يختار منها الفضائل ويقاوم الرذائل ، وهو مع ذلك بين أمثاله في حياة لها قوانين وشرائط ، وعليه منها تكاليف ومفارم ، تشتبك فيها مطالب حياتهم بمطالب حياته ، وأغراض نفوسهم بأغراض نفسه ، فتتجلى له الحياة على صور شتى ، وأشكال عدة ، لابس من جهله وجهلهم ثيابا متنوع وتباين ، وتتلون وتتخالف ، على نسب يلتوي عليه أكثرها ، ولا يدرك منها إلا جزءها ، فيرى نفسه مرغما على إتيان ما ينكره عقله ، وغشيان ما يستهجنه فكره ، إن رغب في إصلاح نفسه قاومته مما يحيط به عقبات عدة ، وصدمته في صدره صعوبات وشدة ، فيكره نفسه على أن يعيش ناقصا وهو يرى الكمال بعينه ، ويمضي عمره في تعاسة وهو يرى السعادة بين يديه ، ترنو بنظرها إليه ؟

قلنا ، هل للإنسان أن يقول هذا مدافعا عن نفسه ، وملصقا العار في نقصه على بني جنسه ؟

كان يمكن أن يقول هذا ، لو لم يكن الله تعالى قد أقام سيد المرسلين محمداً صلى الله عليه وسلم ، مثلاً يرسم الطريق للخاططين ، وعلماً على سبيل السائرين يتتبع التائه أثر قدمه ، ويسير مسترشداً بعلمه ، قطعاً لعذر المعتذر بوهوارة

المسالك، ودحضا لحجة الزاعمين بأن الإنسان مكروه على تقحم المهالك، والتردي في المضانك .

ليس على الذين رعبتهم مفازات الحياة ووعوثتها، وهالتهم عقباتها ومعاطبها، إلا أن يتبعوا ذلك المثال الكامل في سيره ويقتدوا بهديه في جميع أمره ، فإنه جاء ليعلم الإنسان كيف يسلك بنفسه الحياة بدون أن يدنسها ، وكيف يطير بروحه الى الغايات بدون أن يتعبها ، وكيف يجري في باحات المطالب المختلفة بدون أن يلامسه الجور بذلة ، ويركض في ساحات الجهد غير خاش أن يصدمه الغلو في صدره .

قضى الله على سيد المرسلين ، صلى الله عليه وسلم ، أن يطوف جميع أدوار الحياة الممكنة ليكون للناس في جميعها مرشداً أميناً ، ودليلاً خبيراً ، فكان (فرداً) في أسرة ، و (واحداً) من قبيلة ، و (نقرأ) في أمة ، و (زوجاً) و (أباً) و (تاجراً) و (مربياً) و (مرشداً) و (واعظاً) و (جندياً) و (قائداً) و (مشرعاً) و (قاضياً) و (حكماً) و (إماماً) و (سياسياً) و (ملكاً) و (مسلماً) و (محارباً) و (معاهداً) و (عابداً) و (زاهداً) و (نبياً) و (مرسلأ) ، وهي وظائف حيوية يستحيل أن تتفق كلها لبشر ، ولكن لا يخرج من أن يكون له بعض صفات منها ، فلم لا يقتدي بهذه الروح العالية الكريمة التي برهنت للعالم أجمع أنها جازت كل عقبات الحياة نقية طاهرة ، ومرت بين أمواج المصاعب والفتن نقية زاهرة ، ثم صعدت إلى عالمها تاركة وراءها من حسن الذكر؛ شذى أعطر من أرج الزهر في السحر ، وأثرأ يكشف بلألائه كل أثر ، ولم تزل قوتها في الأرض تعمل أعمالاً تدهش البشر ، ونورها بين الأنوار يحسر البصر .

فهل يصح ، أن يعد المسلمون هذه السيرة من ضمن السير ، ويجعلوها مجرد فكاكة في السهر، ورقائق يوشون بها أطراف السمر، أم يجب أن يدرسوها من جهة فلسفية حيوية، ليتخذوها دستوراً للعمل ، ونبراساً يحلون به عن حياتهم ظلمات الخطل، ويحتمون به التدهور في الزلل، وعلماً يعشون إلى ضوئه في كل أمر جلل؟

فالفرد في أسرته ، والواحد في قبيلته ، والنفر في أمته ، والزوج مع زوجته ، والأب بين أهله وصبيته ، والتاجر في تجارته ، والمربي أمام تلامذته ، والمرشد بين زممرته ، والواعظ أمام حلقة ، والجندي في مهنته ، والقائد في رتبته ، والمشرع في وظيفته ، والقاضي في ولايته ، والحكيم لدى طلبته ، والإمام حيال حشده ، والسياسي في حكومته ، والمملك في رعيته ، والمسلم أمام أوليائه ، والمحارب قدام أعدائه ، والمعاهد بإزاء أهل ذمته ، والعابد في محرابه ، والزاهد في دنياه ، يجد من سيرته صلى الله عليه وسلم نوراً يهتدي به في شرعته ، وروحاً يقوى بها في مزاولة صناعته ، ودستوراً يسير عليه لتحقيق أمنيته ، وقانوناً يرجع إليه في حيرته .

كيف لا يجعل المسلمون هذه السيرة المثلى لهذه الروح العظمى كحلاً لأعينهم ، وشغافاً لقلوبهم ، ودخيلاً تحت ضلوعهم ، وشعاراً على جسومهم ، ودثاراً فوق لباسهم ؟

وكيف لا يجعلونها مرجعاً لفخارهم ، وأصلاً لمجدهم وسؤددهم ، ودواء لأدوائهم ، ومرهماً شافياً لجراحهم ، ومنشطاً لفتورهم ، وسلماً لأوليائهم ، وحرباً لأعدائهم ، وحجة على صحة دينهم ، ودليلاً على وضوح طريقهم .

نعم ، إن تجلية هذه السيرة الكريمة على الصورة الحيوية المؤثرة ، بالنسبة لأبناء هذا العصر ، الذين اشتبكت أمور حياتهم وتداخلت حلقاتها ، وامتدت مصالحهم وتشعبت فروعها ؛ حتى يستطيع كل فرد منهم أن يجد منها الهادي المرشد ، والدليل المبين لما يحتاج إلى بحث وتنقيب ، وتفصيل وتبويب ، وأبحاث في أساطير الحياة طولى ، ودروس في أسرار القوى النفسية جلى .

هذا مما سنتوخاه في كتابنا هذا والله المعين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، وآله وصحبه وتابعيه أجمعين إلى يوم الدين .

* * *

الفصل الثامن

لزوم السيرة المحمدية لجبالستان

كل مجهودات الإنسان ومحاولاته ، متنازعة بين عاملين عامين يتقاسمان فؤاده ويتوزعان سائر قواه المفروزة في طبيعته . عامل مادي جثائي ، وعامل أدبي روحاني . الأول يدفعه لتأييد مركزه في هذا المشهد المحسوس ، ويبعثه لأداء وظيفته فيه بحيث لا يستطيع الفكاك منه ، وله مما ركب في الجثمان من الضروريات الكثيرة كالغذاء والمسكن واللباس والتحفظ من عوادي الأمطار والرياح والهوام ، وما غرز فيه من العواطف نحو أهله وولده وبني نوعه جنود وأعوان تقوي فعله وتشد أزره ، وتزيده قوة على قوته ، وكلما تدرج الإنسان في تذليل صعوبات حياته المادية ، زاد هذا العامل تأثيراً ، وصار أحشد جنوداً وأكثر نفيراً ، وتشكل وقطور على حسب تشكلات الحياة المادية وتطوراتها . ومن يرد الدليل المشاهد فعليه بالتدبر في حالتي المتوحشين والمتمدنين ، فإن المدنية مع ما أحدثته من التسهيلات في أمور الإنسان الجسدانية ، لم تقلل من شدة ذلك العامل ، بل زادت أيداً على أيديه ، فصار أقوى مما هو عند المتوحشين ، بما فتحت لذويها من باحات المطالب ، وما أيقظته في نفوسهم من الحاجيات والرغائب .

هذا العامل يحلي للإنسان اللذائد العاجلة ، ويصور له المشتبهات الفاتنة ، ويكسوها من سحر التموهيات والزخرف ثياباً يأخذ بالبصر رواؤها ، ويميل

بالأعناق زبرجها ، ويتوجه بمجموع هذا السحر الفائق إلى ما عرز في طبيعة الإنسان من عاطفة العجلة ، ويظل يواجهها بهذه المرائي الفاتنة ، والمظاهر الساحرة حتى يستولي على إرادتها ، ويتحقق من إثارة حميتها ، ثم يسلطها على الإنسان نفسه فيقيم فؤاده ويقعده ، وينسيه ذاته ويذهله ، فيشمر عن ذيله ، سعيًا لنوالها ، وجدًا للحصول عليها على الصفة التي تصورها في خياله فيدأب وينصب ، ويفتكر ويتخيل ، فإذا لم تنجح هذه الوسائل كلها في إنالته أمله ، وتكليل عمله ، ووجد من مصالح معاشريه ما يقاومه في سبيل رغباته ، ويصادمه في محاولاته لعدم اعتداله فيها ، تذرع بالدخائل ، وتوسل بالدسائس ، ومت بالحيل ، وأدرع بالتمويه والكذب ، فنافق ومكر ، وداجى وستر ، ثم خلب وختل ، وسلب بعد ما قتل ! هذا ما يشاهد يوميًا من أسرى هذا العامل المادي ، وهو في العالم المتمدن أكثر ، وأثره في تشويه الفطرة الإنسانية هنالك أظهر .

أما العامل الروحاني ، فهو عامل قلبي وجداني ، يناجي الإنسان في ضميره ، ويناغيه في صميم معناه ، ويناقشه في سويداء قلبه ، فيبين له علو عنصره وسمو جوهره ، ويكاشفه بجمال ذاته ولألاء روحه ، ويفضح له من سوءات الدنيا قصر مدتها ، وكثرة آلامها وشدة محنتها ، ويستلفتة إلى الذين وقفوا قوام في حبها ، وسروا أنفسهم لفتنتها ، كيف عاجلتهم المنية ودهمهم الفناء ، فتركوا المال والولد ونزحوا من الدار والبلد ، ونزلوا بعد سكنى القصور الشاحخة ، والعلاي الباذخة ، إلى حفرة ضيقة ، ومحلة خشنة ، مثلهم كمثل القذر يؤنف من رؤيته ، ويهرب من ريحته ، ولم يزل به ذلك العامل حتى يوقظه من سكرته ، ويبعثه من غفلته ، ويستولي على كليته ، ثم يفتح له من جانب روحه نافذة تطل به على كنوز معناه من ذخائر الجمال المعنوي ولطائف النعيم الروحاني ، ولذائذ السعادة الأبديّة ، وحدائق الكالات الحقيقية ، ما يذيب فؤاده شوقًا إليها ، ولهفًا عليها ، ويأخذ بلبه هيأما بها وغرامًا فيها . ولكن ، دون ذلك جهاد ونصب ، وسهاد وتعب ، دون ذلك العدل والاستقامة ؛ عدل في استعمال المواهب ، عدل في أعمال الحواس الظاهرة ، عدل في وظائف المشاعر الباطنة ، عدل في توجيه القوى الخارجة ، عدل

في إثارة الإحساسات الكامنة ، عدل في مرامي الأفكار ، عدل في خطرات الحواطر ؛ واستقامة في معاملات الخلق ، إستقامة في منهاج الحق ، إستقامة في التوجه لنوال المآرب ، إستقامة في النكوص عند فوات الرغائب ، إستقامة حين الفتن ، إستقامة وقت المحن ، إستقامة في كل حركة وسكون !

هذان العاملان العامان ، المادي والمعنوي ، لهما في صميم فؤاد الإنسان مجال واسع يتصاولان فيه ويتجاولان ، ويتدافعان في أرجائه ويتجاذبان ، والإنسان بينها واقف وقفة المستكين ، ينصاع لإشارة الغالب منها ، ويرضخ لسلطان الأقوى فيها ، ولكن لا يلبث المغلوب منها أن يثور على خصمه ، ويعيد الكرة عليه ، فيرتفع بينها الصخب واللجب ، ويتجدد العداء والشغب ، ويتنازعان الإنسان بينهما من كذب ، فيميل مع من غلب ، وهكذا حتى يحییء يومه فيذهب مع من ذهب !

هذان العاملان العامان ، قد تقاسما الأفراد والأمم وتوزعا العواطف والههم ، حتى يعز عليك أن ترى رجلاً توصل إلى إيجاد الصلح بينها ، فعاش حرأمن نزاعها ، وما الناس إلا أحد رجلين : رجل يطلب الدنيا قد تكالب على حطامها ، ووقف كل قواه على التمتع بلذائدها ، فأعمل لذلك ما استطاع من حيل ووسائل ، وما أمكنه من حبال ومخاتل ، ولم يبال عدل أم جار ، أحسن أم أساء ، وكلما أصاب شيئاً مما طلب ، ونال رشحة مما إليه دأب ، زاد نهمه وكلبه ، ونمى لهفه ولهبه ، واستشرى جشعه وطمعه ، وثار ثوران الحصان الجروح يدوس كل ما صادفه من حقوق وأعراض ، ولم يزل في سورة جماعه حتى تقابله سهام المنايا في صدره ، فيكون قد أنضب الجهاد ماء قوته ، ونكر الجشع والظلم جمال صورته ، ولأحت أمام عينيه أشباح ضحاياه من بني جنسه ، وأشلاء صرعاه من إخوان حياته ، فتكبكب في مهاوي عمله ، فيودّع الحياة وفي قلبه ما فيه من حسرات لا نعرف لها من اللغة وصفاً !

أو رجل - وهذا الصنف أقل من أن يعد - تشبع فكره بسوءات الدنيا وشدة

محنها ، وتذوق عقله تفاهة أشياءها وقصر مدتها ، وأحست مشاعره الداخلية
بماهية الذات الروحية وجلالتها ، فصدف عن الدنيا نفسه ، وقصر على الآخرة
جهده ، فترك الشغل والعمل ، وصرف مجهوده للفكر والأمل ، ولم يبال عضته
الفاقة بناب ، أم راشته الحاجة بسهم ، ولم يسأل أنفحه البرد بزهريره ، أم لفحه
الحر بهجيريه ، بل غرق في لجة التأملات الذاتية ، وأشرف على عجائبه القلبية ،
وترك مادته تحت تأثير الفواعل وسلطان العوامل ، وقنع بنعيم روحه عن كل نعيم ،
وعن لذائذ الجسانيات بالصفاء المستديم .

دلنا تاريخ الأمم كلها ، أن الإنسان لا يقوم أمره ولا ينتظم حاله بواحد
من هذين العاملين على انفراده ، ولا بد من أن يكون كلاهما متسلطين عليه . شوهدت
أمم قامت بالعامل المادي ، فنالت من خير الحياة الأرضية ما نالت ، ولكن لم
تلبث أن جار بها ذلك العامل عن قصد السبيل ، فورطها في أنواع من الإفراطات
والتفريطات كانت السبب في تلاشيها وفنائها . وشوهدت أمم قامت بالعامل
الروحاني فنالت من رقي الروح المكنانات العلى ، والمقامات الفضلى ، ولكنها لم
تأمن عدوان جيرانها ، وجور متآخميها من الأمم ، بل ولم تطق فطرتها الصبر على
تلك الحالة ، فجاءها الفساد من ذاتها ، وعدى عليها عامل جسدها فذهبت إلى
حيث ذهب السابقون .

فانتظام حياة الإنسان واستتبابها ، متعلق بإيجاد الصلح بين دينك العاملين
المسيطرين على كيانه ، وهو مجهود أصبح الشغل الشاغل اليوم للعالم الإنساني في
الغرب خصوصاً ؛ فقد أرشدتهم المثالات والحوادث إلى ذلك ، كما سيمر بك إن
شاء الله تفصيله ؛ ولكن كيف نجد تلك الطريقة وأنسى نبحت عنها ، ومن نتعلم
حدودها وشرائطها ؟

يدل تاريخ الإنسان من أول نشأته لليوم ، أن الحقائق الكبرى لا تسري إلى
فؤاده ، ولا تأخذ مكانها اللائق بها منه ، إلا إذا رأى لها مثلاً محسوساً يحس به
وينظر إليه ، وتتفعل به نفسه وتنتقش في ذهنه صورته . فما هو ذلك المثال
المحسوس ، الذي يتعلم الإنسان منه كيف يوجد الصلح بين عاملي مادته ومعناه ؟

لو كانت المسألة تصورية فكرية ، لكفاه ما هو موجود في بطون الكتب من الحث على العدل بين مطالب الروح والجسد ، ولكن المسألة عملية أكثر مما هي عملية ، ولا يوجد الآن من يشك في أن التربية الحققة هي ما كانت بالقُدوة الحسنة والأسوة الصالحة ، لأنها هي وحدها التي تستطيع أن تستولي على مشاعر الفرد ، فتقوده إلى صراطها رغم أنفه وضد إرادته ، بخلاف التربية بالأقوال فإنها تذهب على الأكثر أدراج الرياح ، ولولا ذلك لكانت الأمة المصرية اليوم أرقى الأمم في معارج الكمال الخلقي ، لكثرة ما يذيع فيها الآن من ألفاظ التهذيب والتربية . ذلك لأن الإنسان حسي بطبعه ، لا يستطيع أن يرضخ إلا للحوادث نفسها والمحسوسات بذاتها . يظهر هذا الخلق منه في كل حركاته وسكناته ، حتى في الحين الذي (يعتقد) فيه أنه (يعتقد) مدركاته بدون شك ولا ارتياب . وإلا فإلى أي علة تنسب إتيانه للإفراطات ، وهو يدعي أنه (يعتقد) ضررها على جسمه وعقله ، وبماذا تفسر غشيانه للتفريطات ، وهو يزعم أنه (يعتقد) أنها عادية على كمال مادته ومعناه ؟ لماذا لا يسبك النار المحرقة بيديه ؟ لماذا لا يلقي بنفسه في لجة بحر ؟ لماذا لا يرمي بنفسه من مأذنة ؟ أليس لكونه يعتقد أن كل عمل من هذه الأعمال عادي على حياته ، وعائد عليه بالضرر المحقق ؟ فإن كان يعتقد بدون شك أن كل إفراط وتفريط له على تركيبه المادي والمعنوي مثل ذلك الضرر ، لانس من طبيعته النفرة عنه والهرب منه ، وإن غشي شيئاً من ذلك يوماً أو أياماً ، فلا تزال عقيدته تراحم عاداته حتى تتغلب عليها تماماً . كل هذا يثبت أن الإنسان مرغم على أن لا يعتقد إلا على الأسلوب الحسي العملي ، حتى في الحين الذي يدعي ويحلف فيه أنه على غير تلك الصفة ، ولولا هذه النظرية للزمنا أن نقول بأن أكثر المتدينين مجانين ، لأنهم يأتون ما (يعتقدون) ضرره الديني والأخروي ، ويكسلون عما (يعتقدون) نفعه وضرورته في كليهما ، ولا حيلة لهم بعد ذلك إلا أن يجلسوا إلى بعضهم فيكونون ويولولون على سوء طريقتهم وشر مآلهم ومنقلبهم . ألسنت ترى أن أكثر الذين يدعون أنهم معقدون ، يخاتلون طول النهار ، ويكذبون ويسرقون ، ويراثون ويمنعون

الماعون ، ثم لما يخلون ببعضهم يتحسرون ويتأفون ، ويحوقلون ويسترجعون ، ويقولون ضاع الدين وعدم الإيمان ، وذهبت كالاتها إلى الأوربيين فعملوا بها وسادوا علينا ، وتركناها نحن فهبطنا وانحططنا ، ويظنون يظهرون من هذا الأمر غاية العجب ، ولا يدرون ما حقيقة السبب ، وهو ما نقوله من أن الإنسان حسي بطبعه لا يعمل إلا ما يعتقد (بالحس) نفعه . فترك المتدينين لفضائل دينهم وتأسفهم على عدم إمكانهم العمل بها ، لا يشعر بأنهم يعتقدونها بقلوبهم ، فإن عمل جوارحهم على ضدها يبين أوضح بيان أنهم شاكون في فائدتها ، مرتابون في حسن نتائجها . كما أن تحلي الأوربيين بها لا يدل على أنهم متدينون ، وإنما يدل كما يقرون بذلك ، على أنهم اختبروها فوجدوها أليق الصفات بالإنسان ، وأمسها بتحسين حياته ، فلصقوا بها لما أحسوا بآثارها الجليلة عليهم . هذا بحث مهم لذيذ يفصح كثيراً من تلبيسات الشيطان على الإنسان ، موضعه في الجزء الأول من كتابنا ، وإنما جئنا به هنا تمهيداً للبحث المهم الذي نحن بصدده .

قلنا ، أصبح الإنسان بدوافع الحوادث المتكررة في القرون المتوالية ، يميل ميلاً اضطرارياً لأن يجمع بين مطالب روحه وجسده في سلك واحد ، ويؤاخي بينهما مؤاخاة طبيعية ثابتة ، وقد دل على هذا الميل الاضطراري بلسان قادة معارفه المادية أنفسهم ، كما رأيت وسترى أقوالهم إن شاء الله ، فما الذي يمنعه من إحداث تلك المؤاخاة المرجوة ؟

لو كانت المسألة من المسائل التي تتم بالأقوال ، لرأيت بعينيك اليوم أساطين دنيا ودين ، وأراكين علم ويقين ، قد اتحدت مطالب أرواحهم وأجسادهم ، فاستقاموا على منهاج الذين خلوا من الأنبياء والصديقين والشهداء ، لأن الأقوال فيها قد بلغت الغاية من إصابة جوهرها ، والإشراف على لبائها ، ولكن المسألة عملية شاقة ، تحتاج لأستاذ كبير لحل دقائقها ، وعرف طبائعها ، وخبر أجزائها ، وأدرك نسبها في ذاته بالاختبار والحس ، لا ترديداً من كتاب ولا حكاية من خيال . وإذا كان الترديد من الكتب والحكاية من الخيال ، لا يفيدان في إحداث

أبسط الأمور العملية ، فهل يفيدان في إحداث أكبر الأعمال ، التي من بعض نتائجها إقامة الإنسان على منهاج الفطرة ، وإيجاد الصلح والوثام بين عاملي طبيعته الروحية والجسدانية ، اللذين جعلاه بتنازعهما يحسد الحيوان في هدوه ضميره ، ويغبط النباتات في عدم إدراكها : «إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً .»

إليك مثلاً محسوساً : عرف كثير منا أن الماء مكون من جوهرين بسيطين وهما الأكسجين والهيدروجين ، فاعتقدوا ذلك قلباً وقالباً لما عرفوا من أنه صحيح بالاختبار ، ولكن إذا مست الحاجة إلى إيجاد الماء منها استحال الأمر عليهم ، وأدركوا عندئذ أن مجرد العلم بالشيء لا يكفي في إيجاده ، وعلّموا أنهم يحتاجون لجملة أمور عملية تشق عليهم بل تستحيل على قوتهم : (منها) استخراج كل من هذين العنصرين على حدة من الأجسام التي هما من مركباتها ، وهو يستلزم المعرفة التامة بوجوه استخلاصها بالطرق الكيماوية وبوسائل الحصول عليها فنيين غير مشبوبين بمركبات أخرى تحول دون نجاح العملية ، ثم يحتاج الأمر لإحداث الحرارة اللازمة لإحداث ذلك الاتحاد لأنها لا يتعدان على الدرجة العادية .. والخلاصة ، لا يمكن إيجاد الماء منها إلا بتوقيف الأستاذ الكيماوي وإرشاده وإرشاداً عملياً . هذا ما يعوزه إحداثك التآخي بين عنصرين بسيطين كثيري الانتشار في الكون وميالين لبعضها كل الميل ، وقد رأيت أن مجرد العلم بذلك لا يفنيك من العمل شيئاً ، فما بالك بإيجاد الوحدة بين مطالب الروح والجسد ؟ للروح مطالب لا يستطيع أكبر الفلاسفة إحاطة بعلم النفس سردها سردها ، فضلاً عن الإحاطة بمحدودها ومعرفة نسبها إلى بعضها ، وللجسد أيضاً مطالب عدة ، وهي إن كانت أيسر عند الباحث من الأولى ، إلا أنها تستلزم علماً جماً بالمسائل الفيزيولوجية (علم وظائف الأعضاء) ، والزولوجية (علم الحيوانات) والتشريحية ، فإن كانت عملية إيجاد الاتحاد بين ذينك العنصرين البسيطين ، الأكسجين والهيدروجين ، تعوز العمليات التي سردها عليك ، فإن المؤاخاة بين الروح والجسم تستدعي من العمليات ما يتلاشى بجانبه كل ما

رأيت ولا يعد شيئاً يذكر . ألا ترى معي أنها تستوجب إحاطة كبرى بقوى الروح وأنواعها ونسبها إلى بعضها ، وما منها مقدمة لتاليه ، وما منها نتيجة لسابقيه ، وما منها مستقل ، وما منها تابع ، وما منها متبوع ، وما منها متغير ، وما منها ثابت ، وما منها متعادي ، وما منها متوافق ؛ ثم إن كل هذا يستدعي إلماماً كلياً بمجاري سيالات كل منها ، ومنابعها وغاياتها ، وتفرجاتها في سيرها ، ونكوصها على نفسها ، ثم تستلزم إدراكاً ذريعاً بمحاجيات الجسد ومسارب تياراتها ، وما منها جوهرى طبيعى ، وما منها عرضي وهمي ، وما منها صالح وما منها فاسد ؛ ثم تقتضي وقوفاً تاماً على وجه نسبة كل قوة روحية بما يقابلها من حاجيات الجسد ، وتحرياً مضبوطاً في كيفية توفيق نتائج تلك النسب الجزئية مع بعضها ، لتنضم كلها إلى نتيجة واحدة ، يكون من أثرها المؤاخاة التامة بين مادة الإنسان ومعناه ، وانقطاع تلك المنازعة الشديدة بينهما ، وهي التي حرمتها من الغبطة بنفسه ، والتنعم بجمال روحه .

نعم ، إن هذه العملية الإنسانية الجليلة ، لاحتاج إلى أستاذ مجرب وموفق ذاقها في ذاته وصار هو نفسه النموذج الناطق بها ، فما هو ذلك الرجل الذي يصح أن يتخذ مثلاً لهذا الكمال الإنساني المحبوب ؟ هو عبد الله ورسوله خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم . لسانا نقول هذا مجرداً عن الدليل ؛ أو عارياً عن الحججة ، فإن الوجود وما فيه شهود عدول ودلائل ناطقة ، وما علينا إلا أن نتناول منها بأقلامنا ما نشاء ، فانتظر ترَ العجب العجائب إن شاء الله . نحن في سيرنا في السيرة المحمدية الكريمة على الأسلوب العلمي لا نريد أن نقيم أعدل الحجج العلمية على نبوة خاتم النبيين فقط ، بل نريد أيضاً أن نعرف إن شاء الله السبيل الذي يجب على كل مسلم أن يسلكه لنجاة نفسه واستئصال الرحمة الإلهية على قلوبنا التي تسممت بسموم ما يحيط بنا من هذا البدع الجديد الساحر . من هذه الحيشة نرى أنفسنا في حاجة كبرى في كل خطوة نخطوها في بحثنا إلى مدافعة حجب كثيرة حالت بين النفوس وبين القلوب ، فغيرت في نظرنا كل شيء ونكرت في بصائرنا كل صورة حتى تكاد تلبس الألفاظ غير مدلولاتها . ولئن

تعجب متفلسف متعسف من قولنا أن نبينا صلى الله عليه وسلم هو الكمال
المجسم والنموذج الذي يجب تعلم كيفية إيجاد الوحدة بين الروح والجسد منه ،
فقد قالت مثل ما نقول أمة بأسرها بعد أن كانت من الشك بحيث يقول الله
عنها : « ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت
أبصارنا بل نحن قوم مسحورون . » ثم انتهى أمرها بالخضوع له والاقتداء بهديه
وسنته ، فصارت بعد أن لم تكن أمة عدت خير أمة أخرجت للناس ، ونالت
من بسطتي الحياة المادية والروحية ما لم تنله أمة قبلها ولا بعدها . هذه الظاهرة
الاجتماعية الكبرى كادت الفواشي المدنية والألفاظ العلمية القشرية تنسينا عظمتها
بل تعمينا عن جلالها . لو صحت وأنا في القرن العشرين بأعلى صوتي ، وبين
قادة العلوم الاوربية أنفسهم ، وقلت : روح محمد أكبر روح ظهرت في بني آدم
منذ نشأتهم لليوم لما استطاع أحد أن يتردد في صدق قولي ، ولو ترددت لقلت له :
أرني رجلاً فرداً نجح وحده في أمر واحد فقط من هذه الأمور : (١) توحيد
أمة منقسمة إلى قبائل متعادية . (٢) سن قانون كفل لها السلطان على جميع الأمم
بعد أن كانت لا تعد في مصافها . (٣) ملاشاة رذائلها الوراثية وإبدالها بفضائل
اتخذت مثلاً للكمال الإنساني . (٤) نسف عقائدها الباطلة وإبدالها بدين لا يزال
يزيد وينمو بصفة مدهشة إلى اليوم ، وينتظر أن يرث كل الأديان الباقية . فعل
كل ذلك ولم يفقد من طهارة نفسه ولا سمو روحه مثقال ذرة ، أي أنه عاش
وسط هذا النجاح الذي يفتن أقوى الأفئدة زاهداً عابداً عادلاً ، كما كان في أول
يوم من دعوته . وكان في كل أفعاله المثال الكامل والنموذج الناطق والميزان
العادل ؟ إذا كانت هذه الفتوحات المادية لم تستطع أن تؤثر على الفؤاد المحمدي
العظيم ، ولا أن تفتن نفسه الطاهرة ، مع علمك بأن عشر معشار هذا النجاح في
شق صغير من مثل عمله ، قد فتن الملوك والمشرعين والفلاسفة والقواد ؛ أفلا
يكون هذا أقوى دليل محسوس على أن لديه صلى الله عليه وسلم ، السر الذي من
عرفه أمن على نفسه سلطان الفتن ، والاكسير الذي من تعاطى منه جرعة وفي
الحسن ، واستقام على أعدل سنن ؟

الفصل التاسع

كَيْفَ كَانَ الْعَالَمُ قَبْلَ بَعْثَةِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ

قلنا في فصلنا الثالث من كتاب (الإنسان) أن لكل جيل روحاً عمومية تنتشر في أفق العالم فتعم سائر الأمم الداخلة في نطاق الاتصال بأثر واحد ، تظهر نتائجها فيها على حسب قابليتها ، وقلنا إن تلك الروح قد تكون سامية شريفة أو سافلة وضیعة ، أو مختلطة من هذه وتلك ، وقلنا إن وظيفة الأنبياء محصورة في إيجاد روح جديدة في الأمم التي يرسلون إليها « يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده . » لتقاوم تلك الروح السائدة وتلاشيها لتحل مكانها فترفع الأمم من معارج التقدم إلى الدرجات التي قدرت لها ، وقلنا إن أظهر مثال لنظريتنا هذه أعمال خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم « وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا » .

قلنا ذلك في الفصل المشار إليه ، ونريد من هذا الفصل أن نجلي لقرائنا تلك الروح العمومية التي كانت منتشرة في أفق العالم قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم ، لنبين لهم بطريقة محسوسة أن حال الأمم كافة كان يستدعي الإصلاح والتعديل ، ويستلزم قارعة عظيمة تقيمهم على نهج السبيل ، وليتجلى لهم بأدل دليل أن رسالته كانت للعالم كافة ، كما قال الله تعالى : « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون . »

بما رأيناه بالبحث والاستقراء أن روح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما لبثت تقاوم الأرواح المحيطة بها وتجاهدها ثلاثة عشر سنة من عمر الفرد الواحد ، ثم ظهرت بعد ذلك عليها ظهوراً سريعاً مدهشاً ودانت لها أرواح العرب كافة في عشر سنين آخر ، كذلك بقيت روحه الكريمة تصاول الأرواح العامة المحيطة بأمته من كل جانب ثلاثة عشر قرناً من عمر العالم ، ثم ابتدأت بعد ذلك في الظهور والجللاء والتأثير على العواطف والإحساسات بطريقة في غاية الغرابة . ومن يتأمل في الثلاثة عشر قرناً الماضية ، ويطلع على ما كتبه أعداء الإسلام على الإسلام والمسلمين تحريفاً لتعاليمه ، وتشنيراً على قواعده وأصوله ، ووشاية وإيقاعاً بأهله ، ووصمهم بما لا يتصوره العقل من الوصمات الفاضحة ، ثم يتأمل في مجموع الحركة الإسلامية المنبعثة من ذات أوربا في هذا القرن ، يرّ أن الشبه تام بين تأثير الروح الحمديّة العظيمة في عمر الفرد الواحد ، وبين تأثير الروح العامة التي أودعها في أمته في عمر العالم . وبما أن المدة بين بدء انجلاء هذه الروح الكريمة الى تمام ظهورها وكال سطوعها ، كانت عشر سنين من عمر جيله ، فكذلك نظن أن المدة بين بدء تجلي روحه في العالم أجمع إلى تمام إشراقها سيكون عشرة قرون ، فلا يأتي القرن الثالث والعشرون من الهجرة حتى يكون القرآن دستور الأمم كافة ، يتلوه التالي في المشرق فيرن صدهاء في المغرب ، وليس هذا بمعجيب لأنه الحق الصميم . والأمم بمجموعها مسيرة سيراً اضطرارياً نحو الحق بعامل ناموس الترقى فلا بد من أنها ستنتهي إلى القرآن ، كما قال تعالى : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » .

وبما أننا وصلنا من بحثنا إلى هذه النقطة ، فسيكون بحثنا على الإنسان والإنسانية في الجزء الأول سائراً مع بحثنا في حياة سيد الأنام صلى الله عليه وسلم ، لأننا رأينا كما سيراه قارئنا معنا أن الروح الحمديّة التي أدبت الأمم كافة حين ظهورها ، هي بعينها التي تؤثر عليها اليوم وتجذبها إلى نورها شيئاً فشيئاً . وبما أننا تكلمنا اليوم في فضل الإنسان على الأرواح العمومية ، فنريد أن نحلي للقارئ الروح العمومية التي كانت قبيل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم ، بشهادة علماء أوربا أنفسهم ليكون الكلام أعجب فنقول :

كتب المسيو (جول لا بوم) في مقدمة فهرسته الذي جمع فيه الآيات القرآنية الشريفة المتأثلة ، تحت عنوان محمد ما يأتي :

« لأجل أن يفهم الإنسان تمام الفهم أي دعوة من الدعوات ، يلزمه أولاً الإلمام بحال الداعي في ذاته ، ولأجل أن يقدر قدر دعوته ، يجب عليه أن يدرس الجهة البشرية التي وجه همته للتأثير عليها . هذا هو الغرض من هذه النبذة الوجيزة التي خصصناها للشعر العربي ، مؤسس ما يمكن تسميته بالجامعة الإسلامية .

«حوالي ميلاد محمد (صلى الله عليه وسلم) في القرن السادس الميلادي ، كان جو العالم متلبداً بغيوم الاضطرابات والفتن . فكان شعب (الـويزيجو) الآريين في إسبانيا وفرنسا الجنوبية يصاولون الملك (كلوفيس) وأولاده الكاثوليكين ، فكانوا من أجل ذلك يطلبون مساعدة امبراطور مملكة الرومان للشرقية المدعو (جوستنيان) ، ثم جبروا بالدخول معه في حرب جديدة تخلصاً من سلطة القواد الذين جاؤوهم بتلك المساعدة ، فقد كانوا يزعمون أن لهم حق الفاتحين لا مجرد ولاء المساعدين الهاميين .

« أما في فرنسا نفسها فكان أولاد (كلوفيس) هذا متغادرين متسافكين ، وكانت الحروب التي شبت نيرانها بين الملكة الـويزيجوتية (برونو) والملكة لفرنكية (فيريديجوند) ، تهيء للتاريخ أشد الصعائف إثارة للأسى والكمد .

« أما في إنجلترا ؛ فكان (الأنجلو) ينازعون (السكسونيين) الأرض التي احتلوها واستعبدوا فيها ذرية (كيمريس) ، وهم أقدم المغيرين على تلك الجزيرة التي تتطلع اليوم للوقوف في مقدمة الأمم علماً وصناعة وقوة ، وهي التي كانت في ذلك الوقت مجالاً للقوة الوحشية السائدة في تلك الغياهب الحالكة .

« أما في إيطاليا ، فكان اسم (الرومان) وهو ذلك الاسم الشامخ قد فقد أهميته القديمة ، وكانت رومة وهي الشظية الأخيرة أو رأس ذلك التمثال الكبير المنهشم (يعني مملكة الرومان) ، في حالة تمللها من استحالة أمرها إلى مركز ديني بسيط ، ترتج وتضطرب كلما ألم بها طائف من ذكرى عظمتها القديمة أيام

كانت مركزاً دينياً أصلياً ، فكانت تهىء نفسها لأن تكون مركز البابوية وهي تلك السلطة الزمنية كما اقتضت سياسة (شرلماني) أن يجعلها كذلك بعد قرنين من الزمان ؛ ولكنها مع ذلك لم يسمها حمل نير (الهيروليين) و (الاستروجوتين) وأباطرة المملكة الرومانية (واللومباردين) الذين تداولوا السلطة عليها تداولاً .

« أما مملكة اليونان التي كانت قد نسيت مجدها القديم ، فكانت تابعة لمملكة الرومان الشرقية مثلها منها كمثل الزينة ذات الضوضاء . وكان شرق أوروبا مقلقاً جنوبها من أول مصب نهر (الران) من جهة الغرب ، لغاية مصب نهر (الدانوب) من جهة الشرق . فكان (الإسكندينافيون) و (النورفيجيون) و (الداغاركيون) يتزاحمون في الطريق الذي سلكه (الجوتيون) و (الهونيون) الذين احتلوا (تارس) و (مكدونيا) و (لومبارديا) و (إيطاليا) سواء بالقوة أو بالخديعة . في ذلك الوقت بدأ ظهور الأتراك من أعماق آسيا الصغرى ، وهي تلك الأمة التي حصرت فيما بعد مملكة اليونان حوالي أسوار القسطنطينية .

« التصوير البديع الذي جادت به قريحة المسيو (رينان) لبيان مركز الامبراطورية الرومانية في القرن الأول من التاريخ المسيحي ، لا علاقة له البتة بالتصوير الممكن عمله لتجلية حال أوروبا في القرن السادس : تلك كانت مفسد قيصرية مختمرة ، أما هذه فوحشية حربية تلعب بالأرواح وتتمرغ في الأوحال ^(١) .

« أما آسيا فلم تكن أهدأ بالاً من أوروبا في شيء ، فمملكة (تيب) و (الهند) التي اقتبست منها الأمم السائدة في أوروبا الآن قرائحها وأفكارها العامة ولغاتها ، والصين التي تعد مسألتها أغرب المسائل السياسية والفلسفية ، وبالاختصار أغرب المسائل الاجتماعية ، كانت هذه الممالك كلها متمزقة الأحشاء بالحروب الداخلية والخارجية المتضاعفة بالمنازعات الدينية .

(١) كتاب الانبياء الفصل السابع عشر .

أما السفح الشمالي من الهضبة الآسيوية العالية ، التي هي في حوزة روسيا الآن ، فكانت غير معروفة على الإطلاق . أما مملكة الفرس التي كانت أحوالها مرتبطة بأحوال الغرب ، خصوصاً من لدن تجريدة الاسكندر المقدوني ، فكانت مشتبكة في حرب مع اليونان الرومانيين في القسطنطينية الذين كانوا أصحاب السلطة على آسيا الغربية .

« أما في افريقيا فكان هؤلاء اليونان الرومانيون أنفسهم وهم أخلاط من عساكر وتجار وحكام مجموعون من آفاق مختلفة ، دائبين على امتصاص دم القطر المصري ، وعاملين على جعل مصر العلمية ذات المجد القديم كالجنة المصبرة عديمة الحس والحراك . وكان هذا شأنهم أيضاً في الأقاليم الخصبية وقتند ، الواقعة في الجهات الشمالية من افريقيا التي انتزعوها من أيدي (الفنداليين) .

« والخلاصة ، كان جو العالم الأرضي متلبداً بسحب الاضطرابات الوحشية في كل جهة ، وكان اعتماد الناس على وسائل الشر أكثر من اعتمادهم على وسائل الخير ، وكان أجمع الرؤساء للثقة والطاعة أشدهم صيحة في إصلاء نيران الحروب والمعارك . ولم يكن يأخذ بعواطف القلوب ولا يؤثر عليها تأثيراً حاداً وإن كان وقتياً إلا شيء واحد وهو : الغنيمة وسلب الأمم والشعوب والمداخن والأعيان ورجال الحروب وفقراء الحراثين وبسطاء المتسولين . ولولا شعاع ضئيل من الحكمة كان يتألق في بعض صوامع الكهنة وبعض الجرائم الفلسفية التي كانت بمعزل عن أعاصير تلك المشاغب وانتقلت من روح إلى روح أخرى بواسطة بعض أصحاب الجسارة من رسل الرقي في المستقبل ، لكانت البربرية أسرع في خطاها مقودة بفطرسه زعماء البهيمية واستحالت إلى وحشية محضة .

« مع هذا كله كان هنالك ركن من أركان الأرض لم يصبه لفحة من هذه الحركة ، ولكن لم يكن ذلك لحكمة أهله ورجاحة عقولهم ، بل بسبب موقعهم الجغرافي البعيد عن مضطرب الأمم التي كان يقال إنها متمدنة . ذلك الركن هو شبه جزيرة العرب ، التي ما كانت تسمع انفجار أعاصير تلك الفتن الهائلة في أوروبا

إلا عن بعد ، وما كان يصلها ذلك اللفظ إلا في غاية الضعف والضعف . وكانت تجهل وجود الهند والصين فلم تكُ تتعدى علاقاتها مع آسيا حدود بلاد الفرس ، ولم تعرف لديها الفرس إلا بواسطة أخبار الانتصارات أو الهزائم التي كانت من ورائها رد بعض الوديان العربية القريبة من سوريا إلى تبعية أباطرة القسطنطينية تبعية إسمية ، أرفع نير تلك التبعية الإسمية عنها ، على أن ذلك الوادي الأخير كان يهم بلاد العرب جداً ، لأن أبناءها كانوا يذهبون إليه للتجارة ، وكان لها فيه أبناء استعمروا الشاطئ الغربي من نهر الفرات وصعدوا رويداً رويداً إلى بحر قزوين . ومما يشبه المساتير الدينية أنها بقيت منفصلة عن القطر المصري الذي أغار على جنوبه العرب الرعاة ولم ينجلوا عنه تماماً إلا بعد أن انجلى عنه بعض إخوانهم المتأخرين وهم الإسرائيليون تحت قيادة موسى (عليه السلام) حينما استرد المصريون السلطة وعاملوهم معاملة البائم .

« أما المملكة الوحيدة التي كان بينها وبين العرب صلة وعلاقة فهي بلاد الحبشة . أما الجهة الشمالية من إفريقيا التي أغاروا عليها مرتين والتي كانت بجانب نقطة النزاع بين الرومانيين والقرطاجيين ، وبين يونان القسطنطينية والفنداليين فكانوا لا يحملون بوجودها .

ثم قال : قال المسيو (كوسان دوبرسوفال) في كتابه تاريخ العرب : « إن المتحضرين من عرب البحرين والعراق كانوا خاضعين للفارسيين ، أما المتبدون منهم فكانوا في الحقيقة أحراراً لا سلطة عليهم . وكان عرب سوريا دائنين للرومان . أما قبائل بلاد العرب الوسطى والحجاز ، الذين ساد عليهم التبابعة وهم ملوك حمير سيادة وقتية ، فكانت تعتبر أنها تحت سيادة ملوك الفرس ولكنها في الحقيقة كانت متمتعة بالاستقلال التام الذي لا غبار عليه . »

ثم قال (جول لا بوم) : « ولم يكن العرب أحسن استعداداً من غيرهم لقبول أي دين من الأديان . قال المسيو (دوزي) في كتابه (تاريخ عرب اسبانيا) : كان يوجد على عهد محمد (صلى الله عليه وسلم) في بلاد العرب ثلاث ديانات :

الموسوية والعيسوية والوثنية ، فكان اليهود من بين أتباع هذه الأديان أشد الناس تمسكاً بدينهم وأكثرهم حقدًا على مخالفي ملتهم . نعم ، يندر أن تصادف اضطهادات دينية في تاريخ العرب الأقدمين ، ولكن ما وجد منه فمنسوب إلى اليهود وحدهم . أما النصرانية فلم يكن لها أتباع كثيرون ، وكان المتمذهبون بها لا يعرفونها إلا معرفه سطحية ... وكانت هذه الديانة تحتوي على كثير من الخوارق والأسرار بحيث يعز أن تسود على شعب حسي كثير الاستهزاء . أما الوثنيون الذين كانوا هم السواد الأعظم من الأمة ، والذين كان لكل قبيلة بل أسرة منهم آلهة خاصة ، والذين كانوا يصدقون بوجود الله تعالى ويعتبرون تلك الآلهة شفعاء لديه ، فقد كانوا يحترمون كهانهم وأصنامهم بعض الاحترام ولكنهم مع ذلك كانوا يقتلون الكهان متى لم يتحقق إخبارهم بالمغيبات أو لو عولوا على فضحهم الأصنام بأن قربوا لها ظبية بعد أن نذروا لها نعمة . وكانوا يسبون أصنامهم إذا لم تنلهم مطالبهم ولم تسعفهم بآمالهم . قال المسيو (كوسان دو برسوفال) : « من العرب من كان يعبد الكواكب وخصوصاً الشمس ، فكنتمان كانت تدين للقمير والدبران . وبنو لخم وجرم كانوا يسجدون للمشتري ، وكان الأطفال من بني عقد لعطارد ، وكان بنو طي يدعون سهيلاً وكان بنو قيس عيلان يتوجهون للشعري اليمانية » . وكان علمهم بما وراء الطبيعة على نسبة أفكارهم الدينية . قال (كوسان دو برسوفال) في كتابه تاريخ العرب : « كان من العرب من يعتقد بفناء الإنسان إذا خلعت المتون من هذا العالم ، ومنهم من كان يعتقد بالنشور في حياة بعد هذه الحياة ، فكان هؤلاء الأخيرون إذا مات أحد أقرابائهم يذبحون على قبره فاقة أو يربطونها ثم يدعونها تموت جوعاً ، معتقدين أن الروح لما تنفصل من الجسد تتشكل بهيئة طير يسمونه الهامة أو الصدى ، وهي نوع من البوم لا تبرح تطير بجانب قبر الميت فائحة ساجمة تأتيه بأخبار أولاده فإذا كان الفقيد قتيلاً تصيح صداه قائلة : « اسقوني » ، ولا تزال تردد هذه اللفظة حتى ينتقم له أهله من قاتله بسفك دمه . »

قال المسيو لا يوم بعد إبراده هاتين الجملتين من الأستاذين السابقين : « كانت

طباع العرب وأخلاقهم لا تدل الناظر إليها إلا على أنهم شعب لم يكادوا يجوزون العقبة الأولى من عقبات الاجتماع ، لو لم تكن الأسرة عندهم بل القبيلة أيضاً - وهي نقطة تستلفت النظر - تهتم اهتماماً عظيماً بحفظ سلسلة نسبها، ولو لم يكن - وهو أمر أغرب من سابقه - إدراكهم للقوانين وسعة لغتهم من جهة أخرى ، داعياً إلى الالتفات بنوع أخص ، ثم قال مباشرة « قال المؤلف المحقق الذي اقتبسنا منه أكثر هذه التفصيلات المتقدمة : كان العرب مغرمين بشرب الراح . .

» ويوجد من الشعر ما يدل على أنهم كانوا يفخرون ويعجبون به وبلعب الميسر . وكان من عوائدهم أن الرجل له أن يتزوج من النساء بقدر ما تسمح له به وسائله المعيشية ، وكان له أن يطلقهن متى شاء هواه ، وكانت الأرملة تعتبر من ضمن ميراث زوجها، ومن هنا نشأت تلك الارتباطات الزوجية بين أولاد الزوج ونساء الأب ، وقد حرم ذلك الإسلام وعدّه زواجاً بمقوتاً وكان هنالك عادة أفظع من كل ما مر وأشد معارضة للطبيعة وهي وأد الأهل لبناتهم . (أي دفنهن أحياء) .

» هذا كله لا يشير إلى أن العرب لم يكن فيهم أي جرثومة خلقية صالحة يمكن تقويمها وتهذيبها ، فقد كانوا يحبون الحرية حباً جما ويمارسون فعائل الكرم وبذل القرى .

» الافراد الذين كانوا تابعين لأمم أرقى من الأمة العربية ، والذين كانوا مبعثرين هنا وهناك من جزيرة العرب كانوا قليلي العدد جداً، ولا يظهر أنهم كلفوا أنفسهم بوظيفة الدعوة إلى مللهم . فاليهود الذين كانوا متشبعين بالأثرة الشعبية على مثال الصينيين واليابانيين والمصريين ، لا يرى منهم اليوم خاصية التأثير على غيرهم إلا بالخصوع لقوانين الأمة التي يشتغلون تحت ظل حمايتها بالأموال المالية . ولئن شوهد أنهم أدخلوا إلى ملتهم بعض العرب ، فلم يكن ذلك إلا نتيجة بسيطة لاشتراكهم في الأساطير التاريخية ، وهو اشتراك يدل على قرابة قريبة بين الأمتين ؛ تلك القرابة يستدل عليها أيضاً بتساويهم في حب الكسب ، وتآزيمهم في الاستعداد

لعدم الأنفة من سلوك أي طريق من الحيل والمكر لنوال كسب أو حطام . ولا ينتظر أن يكون من نتيجة الاجتماع بهذه الإعتبارات أدنى ترقّ أدبي . أما المسيحيون فكانوا يفدون شيئاً فشيئاً إلى بلاد العرب ، هرباً من الاضطهادات الدينية التي كانت في مملكة الرومانيين ، ولكن لم يكن في حالهم نور يستلفت البصر تألقه ، وفي حالة مسيحي الحبشة اليوم نموذج لذلك ، فإنه لا يمكن أن يتحلى الإنسان بمدرجات العقائد السامية من دين بمجرد التسليم بنص تلك العقائد .

« في عهد هذه الأحوال الحالكة ، وفي وسط هذا الجيل الشديد الوطأة ، ولد محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم) في ٢٩ أغسطس سنة ٥٧٠ . هـ . ١ . هـ .

هذه هي الروح العمومية التي أرسل المصلح الأعظم محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم لملاشاتها وتخليص العالم من غوائلها ، وقد رأيت بلسان الأجنبي عن الإسلام أنها كانت محتاطة بالأمم الداخلة في نطاق المواصلات العامة إحاطة السوار بالمعصم ، وفاعلة فيهم الأفاعيل المحزنة ، بحيث تدل الراي لأول وهلة أن بقاء الإنسانية على تلك الحالة يؤدي بها إلى التلاشي العاجل ، ويريه بطريقة جلية أن لا بد من صاخة كبرى تنزل على تلك الأدمغة الجامدة والقلوب الصلدة فتردها عن غيها ، وتكبحها عن جماحها ، وهذا ما حصل على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين وإمام المصلحين ، وفي التفصيل بلال الغلة ، وشفاء النفس ، فانتظره ترّ العجب إن شاء الله .

* * *

الفصل العاشر

الإسلام والأدوار التي تشاب العقائد

قلنا أن كتابنا في حياة خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم ، سيكون إن شاء الله تعالى كمرآة تتجلى فيها صورة موجزة من أعمال تلك الروح العظيمة في العالم ، وأننا سننهج لذلك المناهج التي نستفيد منها في تعديل عوجنا وتقويم أودنا ومدواة عللنا ، لهذا نرى أنه لا مناص من أن نخطط لأنفسنا خطة جديدة لم يقم عليها من سبقنا من كتاب السيرة الشريفة ، وفاءً بطلوب الروح العلمية الجديدة واستشراقاً لسبحات الأنوار المحمدية من جهتها التي تنطبق على أحوالنا في العصر الذي نحن فيه . وبما أننا وصلنا من بحثنا في كتاب الإنسان إلى تفصيل حوادث تلك الحرب القائمة بين الاعتقاد والعلم ، وبسط الأدوار المختلفة التي دخل فيها الإنسان تدريجاً تحت تأثير ناموس الترقى مما لا نشك في أننا داخلون فيه أيضاً فلا بد لنا من التعميل في حياة المصلح الأعظم صلى الله عليه وسلم ، على أسلوب ينطبق على تلك الأدوار نفسها لنجد منها الدواء المناسب لنا فنقول :

هل يمكن أن يعيش الإنسان بلا دين ؟

الجواب على هذا السؤال يستدعي أولاً معرفة كنه الدين . لأنك لو حددته بأنه مجموع العقائد التي يتلقاها الإنسان عن أمه وأبيه ، وينقشها في ذهنه معلمه ومربيه ، ويزيدها الوسط الذي يعيش به نشوباً فيه ، أو أنه تلك الأساطير التي

تفرقت عليها الأمم أحزاباً ، وانشقت بها الشعوب أسراباً ، وكثر فيها الجدل
أحقاباً ، وصقلت القرائح فصارت فصولاً وأبواباً ، فلا تعدم قائلاً يقول :

« تلك أيام خلت ، وسنين مضت ، وأدوار حدثت وانقضت . وقد استقام
الإنسان بعد ما تجاذبته الأدوار والأطوار وتنازعت المذاهب والأحزاب ، على
طريق العلم الذي لم ينله إلا بعد ما بذل مهجة فؤاده وضحى في سبيله عزيز حياته ،
وبهذا قد دخل في دور نهائي ليس للدين عليه فيه سلطان ، ولا للعقائد في فؤاده
مكان ، وصارت الأديان في نظره من ضمن أساطير الماضي يلقي نظره عليها تفكها
بسير من غير ، واستجلاء لوجوه العبر من مقادير البشر . ألا ترى أن التدين اليوم
قاصر على الأمم الشرقية ، المتأخرة في ميادين المدنية . ومن تراه من الأمم
الغربية على شيء من العقيدة الدينية ، فسهمها من الحضارة أنقص من سهم من
تخلصت منه تماماً ، وليست فيها تلك البقية إلا لتأخرها عن غيرها في مجال
العلوم والفنون ، وإبطائها في ترك ما كان عليه الأقدمون ، وليس بينها وبين
مساواة غيرها في عدم الدين إلا تعميم العلم في البنات والبنين ، وأنتم معاشر
الشرقيين ، لا سبب لتأخركم عن غيركم وجودكم على حالكم ، إلا أنكم تريدون
أن تميدوا مثل الأولين ، وترجعوا سنة الماضين في الحياة بتعاليم الدين ؛ وكيف
يتأتى ذلك وحياة الأمم كحياة الأفراد أطوار بعد أطوار ، ورقبها أدوار بعد
أدوار ، ولكل طور لوازم ومقتضيات ، ولكل دور حالات ومناسبات ، فما
مثلكم في نشوبكم بالدين وأحكامه ، وتعلقكم بأدابه وأهدابه ، إلا كمثل من
أراد أن يعيش طفلاً وقد دخل في دور الشبوية ، فكما أن للشباب آميالاً وعواطف
لا يحس بها الطفل ولا يتخيلها حتى يستحيل أن يتصنع أحدهما حالة الآخر ؛
كذلك للأمم في كل دور من أدوار حياتها آميال وعواطف يستحيل معها أن
تتصنع أنها في دور غير دورها ولو بذلت في ذلك غاية وسعها .

« هذا هو سر جمودكم وهبوطكم ، وما دمت لا تعرفونه ولا يقوم فيكم رجال
جسورون يدعونكم إلى تقليد الأوربيين في ترك الدين للمرة أو بالأقل لفصله عن

حياتكم الاجتماعية كما فصلوه هم قبلكم ببضعة قرون ، فلا يرجى لكم إصلاح مطلقاً .

« وما يستغرب من أحوالكم ، أنكم تريدون أن تجاروا أوروبا وتساموها في حركتها ومدنيتها ، وأنتم كارهون دورها الذي هي فيه فكأنكم تريدون أن تباروها وتسبقوها وأنتم على ما أنتم عليه من الجهد على دور سابق . مثلكم في ذلك كمثل شخص جاز دور الطفولية ولكنه عز عليه أن يخلع مناسباته عنه ، وهو مع ذلك يريد أن يسابق شاباً آخر رضخ لأحكام الطبيعة ولم يعارض فعلها عليه فقادته إلى طريق الحياة الكاملة ورفعته من الكمال إلى الدرجات المقدرة له . لا جرم تذهب أتعاب الأول أدراج الرياح ولا يكون حظه من الحياة إلا الأسر والانقلاب ، والرضوخ للأقوى وحمل نيره على عاتقه . »

هذا ما ييجش في صدر بعض من شربوا من دنّ المعارف الأوروبية في القرن الماضي ، وهو بعينه ما يتغنى به على وتر الفلسفة بعض الكتاب ويحتالون على بثه في الأذهان بكثير من الوسائل : تارة في أطواء المقالات العلمية في المجلات الدورية ، وطوراً في الأبحاث السياسية على صفحات الصحف اليومية ، وقد نجحوا بعض الشيء في إشرايحها في نفوس كثير من الأحداث حتى أخرجوهم عن دائرة الجامعة التي تربطهم بماضيهم . وهي من أقوى الشبه التي لو نشبت في الأذهان حلت معاهد العقائد منها ، وأصبح تعب الكتاب الإسلاميين في إرجاع الدين إلى الأذهان كالضرب في الهواء أو الكتابة على الماء .

لهذا لا نرى بدأ من بسط أمثال هذه المدركات المضرة بغاية الحرية والصراحة ، لأنها المكاريب الكامنة في النفوس الناشئة بالأفئدة ، بل الرجز المنتشرة جراثيمه في الهواء مما لا مناص لكل حي من تنسمه ، فهي إن صادفت رثتي ناشقها ضعيفتين سممتها وحللتها تحليلاً ، وإن وجدتتها قويتين ساورتها من مكان قريب وعطلت من حركة صاحبها بعض التعطيل .

ولما كانت الحكمة في معالجة الامراض تقضي بإبادة جراثيمها أولاً بدل مكافحة

أعراضها التي لا تزول حتى تظهر ولا تضمحل حتى تستشط، فقد رأينا أن نتعقبها في مكانها ونفتق دونها الحجب حتى نصل إلى مواطنها ومساقط ويلاتها .

ما هو الدين ؟ :

ليجرد الإنسان نفسه ولو لحظة من آثار الوراثة المختلفة التي لها السلطان الأقوى على فكره وخطرات هواجسه وعلى كل حركة وسكون فيه ، وليمحُ من لوح ذاكرته كل ما نقشته فيها المؤثرات المختلفة في المكان الذي يعيش به وفي الأسرة التي هو فرد منها وفي الجمعية التي هو من أحادها، وليتناس كل ما علمه عن الوجود وكنائنه وما أدركه من مخلوقاته ، وليحسب نفسه خلق من ساعته ، ثم لينظر إلى الوجود نظر الذي لا يملك من العلم إلا ما تهديه إليه مشاعره الظاهرة ، وإحساساته الباطنة ، وليبدأ بتسريح نظره في تلك القبة الزرقاء التي تحيط بالكون من كل جانب ، ثم ليمر به على ما يحيط به من الخلاء المترامي الأطراف إلى كل جهة يوجه إليها بصره . ثم ليلقِ نظره على نفسه بعد ذلك ، فماذا يبيش في صدره من هذه الجولة السريعة ؟ لا مشاحة في أنه يؤوب وفي نفسه رعدة من الخوف والدهشة ، وألم من الفرق والوحشة ، لما تبين له من عظم الكون وشيوع أكنافه ، وحقارة شخصه وضوولة جثائه .

رأى تلك اللانهاية فوق رأسه ، فوقف عقله منها حيث انتهى بصره ، وارتد فكره منهزماً يرجف من شدة ما أصابه من فخامة هذا المجهول الهائل المسدول عليه من كل جانب !

أراد تصوره بما فطر عليه من حب اكتناه المساتير أن ينفذ إلى صميم ذلك الأمر الجلل ، فانحلت عزماته انحلالاً ، وارتخت معاقدهمته إرتخاء . وأخذ الفرع بمتنفسه أخذاً كاد يفقده حسه من شدة ما شعر بحقارة ذاته وتفاهة أمره ، في وسط هذه اللانهاية الفخيمة !

رثا ببصره إلى ما حوله ، وما بين يديه وخلفه ، فرآه محاطاً بفضاء تضيق

عنه سعة خياله ، ويخرج دونه متسع وهمه ، فأنزل نفسه منه على قدر ما أخذه جسمه من حيزه غير المتناهي ، فكاد يصعق من الوجل أمام هذا السكون المطلق ! فإذا جن عليه الليل وهو في تلك الحالة الساذجة ورأى أديم السماء قد تلون بذلك اللون القاتم ، وتلألأت في أرجائه النجوم والكواكب ، وبرزت تلك القبة السماوية في ذلك المعرض المرصع ، وزادتها مهابة الليل فخامة وعجباً ، ازداد أمرها غموضاً على فكره وتبين له أنه وسط بحر من مجاهيل وأسرار ، أيسر ما يستطيعه أمامها الإقرار بمعجزه وضعفه ، والختنوع بمقارنته وضوؤة شخصه ، واحتياجه المطلق للمجا يلجأ إليه ، وموئل يعمل في النجاة عليه ، وفقره لقوي يهبه من قوته ، ورحيم ينشر عليه من إفاضات رحمته .

هذا هو مبدأ التدن والباعث الطبيعي على العقيدة ، والسائق القاهر للبحث عن خالق الكون جل وعز ، وهو بعينه الدافع الذي دفع الأمم لتكوين الأديان ، والرضوخ للكهان ، وتسليمهم أمرهم في كل شأن ، وهو بذاته أيضاً الداعي لإرسال الله تعالى رسله تترى إلى الأمم بالهدى ودين الفطرة .

ربما يقول قائل : « إن هذا التصوير البديع إن صدق على الإنسان مجرداً عن آثار العلم فلا يصدق عليه وهو كما نراه اليوم مثلاً من رحيق المعارف ، نشوان من سلافة المعلومات ، مدعياً أنه أدرك المعلومات والعلل ، ووقف من أمور الكون على ما لم يحلم به الأول ، ولا اضطرب لهم به أمل » . نقول لهذا المعارض هوّن عليك ! جرد نفسك من كل ما ذكرته لك من آثار الوراثة والعقائد ، وما قرأته في كتب الملاحدة من الظلمات الكثيفة ، ثم قف ذلك الموقف بما لديك من العلم ، وابدأ بنظر الفضاء المحيط بك من كل جانب ، واستورد إلى فكرك النظريات الرياضية التي تثبت لك أن الفضاء ممتد إلى ما لا نهاية... أي أنه ليس له حد... وأنه مشحون بعوالم لا تحصى من نجوم وكواكب وتوابع وذوات أذئاب ، وأن الأرض التي أنت عليها ليست إلا كالذرة بالنسبة لتلك الأجرام الضخمة ، وتذكر ما قرأته في أبحاث (كبلر) و (كوبرنيك)

و (هرشل) و (زولنر) و (فلأمريون) من أن الأرض كوكب من الكواكب السيارة السابحة في الفضاء حول الشمس بسرعة ثلاثين كيلو متراً ونصفاً في الثانية الواحدة، وأنها ذات شكل كروي محيطها ٤٠٠٠٠ كيلو متراً، وأنها واحدة من سيارات أخرى أكبر منها حجماً ، دائرة كلهما حول تلك الشمس المضيئة التي هي أكبر من الأرض مليوناً وأربعمائة ألف مرة ، وأن المسافة التي تفصلها عن الأرض هي ثمانية وثلاثون مليوناً من الفراسخ ، وأن هذه الشمس بهذا الحجم الهائل لا تقارن بالشموس الأخرى التي تسبح مثلها في هذا الفضاء المدهش .

وإذا أردت أن يكون لك فكر عام على حجمها، فاعلم أن أقرب نجم إلينا يصل إلينا ضوءه في ثلاث أو أربع سنين ، فإذا كان ضوء الشمس يصل إلينا في أقل من أربع دقائق ومع ذلك فهي أكبر من الأرض بمليون وأربعمائة ألف ضعف ، فكيف يكون حجم نجم لا يصل ضوءه إلينا إلا في أربع سنين أي في ٢٠٧٣٦٠٠ دقيقة ... ثم ماذا يكون حجم الشعري التي يصل إلينا ضوءها في ٢٢ سنه ... خل هذا جانباً ، وقل كيف تتصور أحجام تلك النجوم التي تكتشف جديداً ويزعم علم الفلك أن ضوءها لم يزل سابحاً في الفضاء من يوم تكونها إلى يوم وصول ضوءها إلينا ، أي في ملايين من السنين ... أليس في هذا التخيل ما يرعد الفرائص ، ويأخذ بمخنتك التصور ؟

هذا بالنسبة لما فوق رأسك، أما ما هو بين يديك وخلفك من ممالك الطبيعة من جماد ونبات وحيوان وإنسان فليس أمرها بهين عليك ، لأنك لو استعرضت شيئاً قليلاً من عجائب النباتات ورأيت أنك تلقي إلى الأرض بذرة لا تكاد تحس بها بين أصابعك ، فتراها بعد سنين شجرة ذات جزع غليظ وفروع ممتدة إلى أمتار عديدة وأوراق وأثمار ذات ألوان وطعوم وأريج يفعم الأنف من مسافات بعيدة ؛ ثم لو طفت على مملكة الحيوانات واستحضرت إلى فكرك تلك الكائنات المختلفة في الصور والاحجام والاشكال والطباع والفرائز والحيل ، مما لا تكفي المجلدات لشرح عجائبه ، ثم لو تفكرت في أن المادة التي هي أصل

كل هذه الصور البديعة مجهولة لديك بالمرة ، لرجعت و كللك شعور بضعفك وعجزك ، وإحساس بوهن طبيعتك وحقارة شخصك ، ولوجدت فؤادك ساجداً بفطرته أمام هذه القوة العظمى التي أبدعت هذا الوجود المدهش ، ولتحققت أنك كلما ازددت بالكون علماً ازددت إحساساً بجهلك وشعوراً بضعفك ، واحتياجاً لمن يأخذ يدك ، ويسكن جيشان صدرك : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » .

ثم إنك كلما رنوت إلى أجزاء هذا الكون، ورأيتها تتلاشى وتتجدد وتتفرق وتتجمع ، ووقفت على حركة سريان الحياة من النبات إلى الحيوان إلى الإنسان وجدت نفسك مسوقاً لأن تتساءل عن حظك من هذه الحياة وعن مصيرك بعد ثلاثي هذا الجسم السريع العطب . ولو خزك حب الحياة المرتكز على أجمل عواطف نفسك ودفعك لأن تجول بفكرك في مضمرات الأشياء ومستورات المعارف ، لتشق الحجب التي تحول بينك وبين مطلوب روحك حتى تجد ضالتك فتعيش سعيداً ، أو لا تجد لها فتبقى في هذه الأرض العمر الذي قدر لك بين فزع وجزع ، ووحشة ووهل ، تعالج من اضطراب نفسك ما لا تعبر عنه ، حتى تجيء تلك الساعة المنتظرة على صفة لا أستطيع أن أتخيلها .

ألا ترى بعد هذا أن الإنسان على أي حالة من أحواله ، سواء كان جاهلاً لا يعرف شيئاً أو عالماً يعلم شيئاً ... لو جرد نفسه من آثار الوراثة المختلفة ، ومحا من ذهنه كل ما يربطه بالمكان الذي عاش فيه ، وبالمذهب الذي ينتمي إليه ، ثم تفكر بعد ذلك في الكون وفي نفسه ، لاندفع بفطرته وطبيعته اندفاعاً اضطرارياً إلى إلقاء نفسه ساجداً أمام خالقه ، ولو لم يستطع أن يتصوره بصورة ، أو يقع فكره منه على كيفية .

هذا هو الدين الفطري الذي خلق الإنسان مطبوعاً عليه بطابع الخالق الحكيم الذي أقام الإنسان على هذا المركز الوسط وقدر عليه ما قدر ، من الكمال الصوري والمعنوي . فالدين على هذه الصورة الطبيعية لا يتصور زواله

بوجه ، لأنه مرمى كل عواطف النفس وغايتها ، وقد أدرك ذلك أهل البصر من الغربيين ، فقال غطريف الفلسفة الأوربية (إرنست رينان) في كتابه (تاريخ الأديان) : « من الممكن أن يضمحل ويتلاشى كل شيء نجبه وكل شيء نعدده من ملاذ الحياة ونعيمها ، ومن الممكن أن تبطل حرية استعمال القوة العقلية والعلم والصناعة ، ولكن يستحيل أن ينمحي التدين أو يتلاشى ، بل سيبقى أبد الأبدين حجة فاطقة على بطلان المذهب المادي الذي يود أن يحصر الفكر الإنساني في المضائق الدنيئة للحياة الطينية » .

وقال الفيلسوف الشهير (أجوست سباتيه) في كتابه (فلسفة الأديان) : « لماذا أنا متدين ؟ إني لم أحرك شفتي بهذا السؤال مرة إلا وأراني مسوقاً للإجابة عليه بهذا الجواب ، وهو : أنا متدين لأنني لا أستطيع خلاف ذلك ، لأن التدين لازم معنوي من لوازم ذاتي . يقولون لي : ذلك أثر من آثار الوراثة أو التربية أو المزاج . فأقول لهم : قد اعترضت على نفسي كثيراً بهذا الاعتراض نفسه ، ولكنني وجدته يقهر المسألة ولا يحلها . وأن ضرورة التدين التي أشاهدها في حياتي الشخصية ، أشاهدها بأكثر قوة في الحياة الاجتماعية البشرية ، فهي ليست أقل تشبهاً مني بأهداب الدين . إلى أن قال : « إذن ، فالدين باق وغير قابِل للزوال ، وهو فضلاً عن عدم نضوب ينبوعه بتمادي الزمن ، نرى ذلك ينبوع يتزايد اتساعاً وعمقاً تحت المؤثر المزدوج من الفكر الفلسفي والتجارب الحيوية المؤلمة » . ا . هـ .

وهذا كله نفحة من نفحات هذا الناموس الكبير الذي أوحاه الله لحاتم أنبيائه صلى الله عليه وسلم : « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

الاسلام هو الدين الفطري

الفطرة لغة الخلقة ، والخلقة في اللسان المصري الطبيعية ، فالدين الفطري يمكن تعبيره باللسان المصري بالدين الطبيعي ، ومعناه أنه لا يكلف الإنسان إلا

بما ينطبق على طبيعته ويناسب حال جبلته ، وقد سعى في القرون المتأخرة أرومات العلم الطبيعي في أوروبا، وكونوا لهم ديناً سموه بهذا الاسم، ولم يدخلوا إلى أصوله إلا ما تقتضي به الفطرة الإنسانية ، وتقر على حقيقته العلوم الطبيعية ، خالصاً من الاختلافات والتأويلات ، منزهاً عن الرموز والأسرار ، عملاً بقول شيخهم الكبير (كانت) الفيلسوف الألماني حيث قال : « الديانة الحقيقية الوحيدة لا تحتوي إلا على قوانين ، أعني قواعد صالحة للجري عليها نشعر من ذاتنا بضرورتها المطلقة ، وتكون مجردة عن الأساطير والتعاليم الكهنوتية » (١) .

سلك هؤلاء هذا المسلك في القرون المتأخرة بعدما سئموا من تناقض الأديان ، وأنفوا من الرضوخ للكهان ، ولم يعلموا أن الدين الطبيعي قد أوحاه خالق الطبيعة على أشرف عبادته قبلهم بأكثر من عشرة قرون . فلندع هؤلاء الآن وشأنهم فسيتبينون الحق بعد حين ، كما وعد بذلك الخالق في كتابه المبين . ولنثبت لقرائنا أن الإسلام هو الدين الفطري الذي لا يعتريه الزوال ، ولا يلحقه الاضمحلال فنقول :

تبين لنا أن الإنسان على حالة البساطة الأولية ، والسذاجة المبدئية ، شعر بازوم الإخبات لخالق ذاته ، وأحس بضرورة الاعتصام به لنجاة حياته ، فلم يحرمه الله من إسعافه بعبادته له كان يصطفيهم لحل أمانته ، والقيام بتبليغ أمره إلى خليقته ، فكانوا يحيثون أقوامهم بدين الفطرة ، لأن الله لا يكلف عباده بما لا ينطبق على طبيعتهم (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) ، ولكن الناس في تلك الأحيان كانوا من سن الحياة العمومية في دور الطفولية ، تؤثر عليهم الخيالات أكثر من الحقيقة ، فكانوا لا ينصاعون لرسولهم إلا ما دام فيهم ، ومضى انتقل إلى العالم الآخر ارتكسوا إلى عقائدهم الأولى مكسوة بثوب جديد ، حتى إذا جاءهم رسول آخر قاوموه وناذبوه ، ومكروا به وصاولوه ، وماروه بكل

(١) دائرة معارف القرن التاسع عشر .

حجة وجادلوه ، وفيما يحكي الله عن حالهم صورة من أمرهم مع رسلهم ، قال تعالى : « وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد . ألم يأتكم نبي الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود ، والذين من بعدهم ، لا يعلمهم إلا الله ، جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم في أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لنفي شك مما تدعوننا إليه مريب . قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى ، قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين . قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله ينزل على من يشاء من عباده ، وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون » .

هكذا كان حال الأمم مع رسلهم في خلال تلك القرون المتوالية ، حتى جاء القرن السادس ، وقد درسنا حال الأمم فيه في الفصل المتقدم ، وقد رأيت أن حالتهم كانت تدعو إلى قارعة كبرى تردهم عن غوايتهم وتوقفهم من سكرتهم ، وقد كان ذلك ، فأرسل الله تعالى خاتم أنبيائه بدين الفطرة الذي أرسل الله به رسله من قبل (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً) ، فخطب الناس قائلاً عن ربه : (يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً ، فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً) ، فدخل الناس في دين الله أفواجاً أفواجاً لأنهم كانوا قد سئموا الخيالات المضلة التي مزقتهم أحزاباً ، وفرقتهم أفذاذاً ، فدخل فيه من غير العرب في قرن واحد ما يزيد عن مائة مليون ، ولم يزل ينمو لليوم بصفة مدهشة بتأثير المدنية الأوروبية نفسها . وإن تعجب من ذلك ، فإليك التفصيل : قد رأيت أن الفارق بين الدين الفطري أي الطبيعي والأديان الأخرى هو أن الأول يرتكز على الحقائق المحسوسة ، والثاني على الخيال ، فيكون الإنسان متقرباً للحق على قدر ضعف سلطان الخيال عليه ، والأمم قبل سريان الحركة الأوروبية الاستعمارية في العالم كانت كل أمة منها جامدة على دينها ، مستنمية إلى أساطيرها لا بزعجها عنها

شيء ، تؤله ما شئت من الرجال ، وتعبد ما أرادت من الحكماء والأبطال ،
والخلاصة أنها كانت من الدين على خيال ومن المدركات في ضلال . فلما جاء دور
الأوربيين وجاسوا خلال الممالك بالحديد والنار ، والكهرباء والبخار ، أقاموا
لتلك الأمم بأفواه المدافع والبنادق ، وبألسنة المشرفيات الصوارم ، أكبر البراهين
الحسية على أن عهد الخيالات قد مضى ، وأن ما كانوا فيه من الاعتماد على معجزة
ذلك الإله أو كرامة ذلك الكاهن ، خرافات باطلة ، وترهات فاضحة ، فانجلى
الدين عن أفئدتهم وخوى جنانهم من العقيدة ، فاستعرضوا الأديان التي وصلت
إليهم فلم يرتضوا منها غير الإسلام ديناً لحلوله من الخيالات ، وارتكازه على
المحسوسات ، فدخلوا فيه أفواجاً أفواجاً ولم يسمع في تاريخ الإنسان أن القبائل
بمخاديفها تدخل إلى دين في زمن ضعف سلطة أهله غير الدين الإسلامي . وبناء
على هذا ، فكلمنا توغلت مدافع الأوربيين في أحشاء البلاد الوثنية ازداد انتصار
الحقيقة على الخيال ، وفتحوا لدين الله أكبر مجال « إن الله ليؤيد هذا الدين برجال
ليسوا من أهله » .

الإسلام الدين الفطري أو الدين الطبيعي ، لأنه لا يكلف الإنسان إلا بما هو
مطبوع على البحث فيه واعتقاده ، ولا يجهته من العقائد إلا بما لا يقف حجر عثرة
في سبيل تقدمه وترقيه ، لأن غرضه الأول تخليص النفس الإنسانية من تلك
الكسف الظلمانية التي أسدلها عليها حفظة العقائد ، وسدنة المعابد ، والزاعمين بأن
لهم حق الوساطة بين المخلوق والخالق ، وليطهر الأفئدة مما ران عليها من آثار
الوراثات والتقليد ، وما تراكم على سويداواتها من غلف التعصب والجهود .

كان الناس من جهة الدين في غيابة من الوهم ، وظلمات من الجهل ، يقدسون
أساطير جمعت من مدركات الماضين ووساوس المتقدمين ، ما لو أرادت البصيرة
أن تتنسم منها روح اليقين لارتدت على عقبها ترسف في أصفاد اليأس ، وأغلال
اللبس ، من هول ما وضع أمامها من عقبات وما أحيطت به من غياهب وظلمات ،
فكانت بين أمرين ، إما أن تقتنع من الحياة بمجرد البقاء ولو كان العمه لزيها ،

والحيرة صفتها ، وإما أن تحاول أن ترى النور فتعرض نفسها لخطر أيسره أن تضاعف عليها تلك الكسف فلا تعود بعدها تذكر النور ولو توهماً . جاء الإسلام والبصيرة في هذا الأنين من ثقل نير الدين ، وفي لهف شديد إلى نور جديد ، فصاح بالناس : « يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً ، فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً » .

كانت النفوس حيرى في معنى الدين ؛ لا تعرف من آثاره غير هذا الضغط المشين والحال المهين ، فقررت لها الإسلام بأن الدين ضالة الأرواح وأنشودة العواطف ، ولبس جراح الحياة ، ونسم الراحة والطمانينة ، ومهب نفحات الحق ، وهو واحد لا تعدد فيه ، بعث الله به كافة الأنبياء إلى الأمم رفعاً لما طرأ عليهم من الخلاف ، وحسماً لما احتوشهم من روح النزاع : « كانت الناس أمة واحدة فاختلّفوا » .

أما ذلك الدين فهو الإسلام ، أي الاستسلام إلى أحكامه بالقيام على صراط الفطرة المجردة عن الأوهام والأفكار البشرية التي هي داعية الخلاف ، ومثيرة التنابد بخلاف الفطرة ، فإنها واحدة في عموم النوع الإنساني ، فلا يعقل نزاع بالاستقامة عليها ؛ ولا يتصور شقاق بالانصياع لمقتضياتها « إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ومن يكفر بآيات الله فلإن الله سريع الحساب . فإن حاجوك (أي جادلوك) فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن ، وقل للذين أوتوا الكتاب والإيمان أأسلمت ، فإن أسلموا فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد » ، « بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدي من أضل الله وما لهم من ناصرين . فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون . منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً ، كل حزب بما لديهم فرحون » .

التفت إلى أولئك الذين استعبدوا أنفسهم للأهواء ، وخضعوا لسلطان
الأوهام ، وحصروا عقولهم في مضائق الخرافات ، فتمى عليهم سذاجتهم قائلاً :
« إن هي إلا أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، إن يتبعون
إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى » ، ثم طالبهم بالدليل على
ما حملوه عقولهم من هذه المدارك الفاسدة قائلاً : « إئتوني بكتاب من قبل هذا
أو آثارة من علم إن كنتم صادقين » ، « هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن
تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون » ، « هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » .
ثم سجل عليهم أنهم أسراء الوهم ، وعبداء الظن فقال : « وما لهم به من علم
إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً » .

ثم بيّن لهم الفرق بين المعتقد بالدليل والبرهان ، وبين المستسلم للخوارف
الخيال ، الأسير لكواذب الأوهام ، فقال : « أقمنا كان على بينة من ربه كمن
زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم » .

ثم توجه للذين قبلوا هذا النور الباهر ، وخلعوا عن أعناقهم ربقة الذل والأسر ،
ونفضوا عن رؤوسهم غبار الصغار والعبودية ، فقال : « ومن يسلم وجهه إلى الله
وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى وإلى الله عاقبة الأمور . ومن كفر فلا
يحزنك كفره إلینا مرجعهم فننبئهم بما عملوا » إن الله عليم بذات الصدور ،
« ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفاً واتخذ
الله إبراهيم خليلاً » .

ثم أمرهم أن لا يتبعوا ديناً من الأديان التي أقيم لها المعابد والكهان وصارت
عبئاً ثقيلاً على هامة الإنسان ، لما سرى إليها من الضلال والبهتان ، ولكن ألزمهم
الاعتراف بأن أصل جميعها واحد وهو الناموس الأقوم الذي بعث الله به الرسل
إلى الأمم كافة ، فلم يحفظوه من التبديل والتحريف والتزييف ، فكلّف الإسلام
أهله بالإيمان بها إجمالاً ، فقال : « وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى
إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي

النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون . فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم في شقاق فسيكفيكمهم الله وهو السميع العليم . صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون .

هذا هو الدين الفطري في بساطة معناه ومتانة مبناه ، وهو الذي دعا إليه الأنبياء كافة وتمت الدعوة إليه بنجاتهم وإمامهم محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد رأيت أنه من جهة التدين لا يدعو إلا لما يشعر به الإنسان في ذاته شعوراً ضرورياً طبيعياً ، أما تلك الأساطير التي طمت بها الديانات وعدت من أركان الإيمان فيها ، فقد أثبتت العلوم الطبيعية والتاريخية بطلانها بالمرة ، وصار اعتقادها والتمسك بها من الإضرار بالعقل ، والتفكير بالنفس ، لأنها ليست إلا مبلغ علم الأقدمين بالطبيعيات والتاريخ ، توارثها اللاحقون عن السابقين واكتسبت لقدمها شكلاً مقدساً كما هي سنة الناس في احترام أسلافهم ، حتى صارت هي الدين بذاته ، وقد سبق القرآن العلم والفلسفة في تقرير أنها أباطيل وأوهام ، فقال : « ان يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون » . ثم أنبأنا بأن الإسلام مقدمة عصر العلم ، وطلعية دولة الحق ، ومؤسس سلطان الحكمة فقرر الناموس الطبيعي الكبير الذي اكتشفه (دارون) و (ولاس) بعد القرآن بثلاثة عشر قرناً تقريباً ، وهو قولها : (لا يبقى إلا الأصلاح) ، فقال تعالى بأفصح عبارة وأكمل بيان : « فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض » .

أما من جهة العلم بالكون وأشياءه ، فأرانا أننا لنعلم منه إلا قليلاً وأمرنا بدوام طلب العلم ، فقال تعالى : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً » ، « وقل رب زدني علماً » ، وبهذا فقد هدم صرح تلك العقائد الباطلة التي يزعم أصحابها أنها حوت علم الأولين والآخرين ، على السموات والأرضين مما أذن الله به للعالمين ؛ وإن ما عده فرجس باطل ، وخيال حائل ، يستحق معلمه ان يحرق بالنار ، أو أن يصلب كالفجار . أما من جهة سير الماضين وأخبار المتقدمين ، مما جعلوها أساس العبادة والإيمان ، وعلقوا عليها نجاة الإنسان ، مما أثبت التاريخ المصري

بالحس والعيان ، أنها خرافات اخترعها الخيال وسطرها الجهال ، وأنها ليست خاصة بدين دون دين ، ولكنها عامة عند الأمم أجمعين ، مما يشعر أنها دأب الأولين ، فقد سدد الإسلام هذا الباب سداً محكماً بتقريره ، و « أن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى » ، و « كل امرئ بما كسب رهين » ، و « تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون » .

أما سرد حوادث الماضين فهي وظيفة التاريخ ، له فيها أسلوب خاص به مثل سائر العلوم الأخرى ، أما الأديان فوظيفتها أشرف من كل وظيفة ، وهي إقامة الإنسان على سنة الفطرة بتخليصه من كل ما ليس طبيعياً فطرياً ، وتنزيهه مما يرضخ له تقليدياً ، ليعيش حراً متمتعاً بعقله وفكره وحكمه ، لا عبداً لأوهام غيره . ألا ترى أنه لما سأل فرعون موسى ، كما قال تعالى : « فما بال القرون الأولى » أجاب موسى عليه السلام ، كما قال تعالى : « قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى » . فانظر إلى الجواب النبوي الكريم الذي يشير بغاية الصراحة إلى أن التاريخ ليس من وظيفة الأنبياء من جهة ، ومن جهة أخرى يشير إلى أن سير أهل القرون الأولى ليس مما يمكن التهجم عليه بتلك الجسارة التي تشاهد في الجهال بالتاريخ ، بل هي حوادث كبرى تحتاج لمثل ما يحتاجه كل علم من العناية والدقة . أنظر إلى هذا الجواب النبوي ، ثم انظر إلى أولئك الذين يسردون لك تاريخ العالم من لدن آدم إلى اليوم سرداً يشعر بأنهم شهدوا أحوالهم ، ومن المعجب أنهم يعلقون على ذلك عقائدهم وإيمانهم .

أما من جهة الأخلاق والعوائد فالإسلام لا يطلب من الإنسان فيها غير الاعتدال والتوسط . لأنه لما كان الدين الفطري (أو الطبيعي بلهجة العصر) ، فينظر للإنسان نظر العلم الطبيعي له ، أي بصفته أبعد الأنواع الحية وأكمل نموذج للصورة المادية « إنا خلقنا الإنسان في أحسن تقويم » ، ليس في تركيبه الخارجي والداخلي ولا في شكله الصوري والمعنوي زيادة ولا نقص ، لو اتبع في نموه قانون الحكمة الإلهية ، ولكن الخالق الحكيم إذ عده إلى منصات من الكمال

يحسر دون إدراكها التصور ، فقد تمتع بخاصيتي الاختيار والإرادة وأراه طريقي
الاعتدال والانحراف بالفطرة وبالوحي ، وصرح له بأنه إن اعتدل نال غايته كماله
المادي والأدبي ، وإن انحرف وارتطم في عقبات النقص وارتد إلى أسفل من عالم
الحيوان كما هي السنة الطبيعية في هبوط العالي ، فقال تعالى : « إنا خلقنا
الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات
فلهم أجر غير ممنون » .



نظرة على الأدوار التي تنتاب العقائد

من أكبر الشُّبه التي يطعن بها فلاسفة هذا العصر صدور الملمين ، ويفض بها
الماديين من أعين الاعتقاديين ، هي قولهم أن الإنسان مرٌّ ويمر من عقائده على
ثلاثة أدوار : (أولاً) دور الاحترام والإجلال ، والاعتقاد بأنها نهاية الكمال ،
(ثانياً) دور الشك والارتياب ، عند يقظة الأفكار والألباب ، (ثالثاً) دور
العلوم والمعارف حيث يبلغ العقل أشده ، وينال الإنسان رشده ، فيعلم أن الأديان
أساطير الماضي ووساوس الأقدمين فيتركها ويتجه للعلوم محتلب درها ،
ويستسقي ربابها ، ويكون بذلك كالشباب جاز دور الطفولة ، واتسم بصفات
الرجولة ، تمر به مدركاته القديمة فيعدها حلماً لذيذاً ، وخيالاً مسلياً ، ويضحك
منه كما يضحك من كل أفعاله وهو طفل ؛ ثم يأخذ في شأنه من الجد وراء الحقائق
المحسوسة ، والدأب لاستغلال خير الطبيعة وتحسين حال بني نوعه من كل
الوجوه الممكنة .

نقول : إن هذه المقولة إن صدقت في نفس صروح العقائد التي أنس بها الإنسان
في دور طفوليته ، فلا تصدق على الإسلام الذي أرسله الله عند ما بلغ الإنسان
رشده وسُم الوصاية عليه . وإليك التفصيل :

المسائل الكبرى التي يطأطأها المسلم أمامها رأسه ويحترمها جهده ، هي بعينها كبرى المسائل الفلسفية التي ستبقى مادام الإنسان نقطة بارزة في حياته ، يزيد ما مر الأيام وضوحاً وجلالاً ، وتكسوها زيادة العلم كالأجلاً وجلالاً وهي :

أولاً - إن لهذا الكون الباهر غير المتناهي صانعاً حكيماً « لا تدركه الأبصار » ، « ليس كمثله شيء » ، « يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علماً » ، « أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » ، « خلق كل شيء فقدره تقديراً » ، ولا ينكر أحد أن هذه كبرى المسائل العالية التي لا يتصور زوالها بوجه من الوجوه .

ثانياً - إن للإنسان روحاً غير مادية ، لها حياة خالدة في وجود غير هذا الوجود . وهذه أيضاً من المسائل العظمى التي أصبحت اليوم الشغل الشاغل لكبار العقول ، كما ننقله عنهم في كتاب ما وراء المادة .

ثالثاً - إن لله ملائكة وهم خلق متجردون عن المادة « لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » ، وهذه أيضاً مسألة أثبتتها مسألة استحضار الأرواح إثباتاً حسيماً كما ستراه إن شاء الله .

رابعاً - إن لله رسلاً من الناس يتمتعهم بخاصية الاشراف على الملائكة الأعلى ويستودعهم أسرار وحيه وقوانين الدين ليبلفوها إلى أممهم « وما من أمة إلا خلا فيها نذير » ، « وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم » ، « كانوا يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق » ، وهذه أيضاً مسألة كبيرة زادت مسألة التنويم المغناطيسي واستحضار الأرواح جلاءً وضوحاً ، لما أثبتنا من أن الروح الانسانية إذا جردت عن الاشتغال بالماديات أمكنها أن تستقي معلوماتها بدون وساطة المشاعر ، كما سنفصل ذلك إن شاء الله تفصيلاً في محله من كتابنا .

خامساً - الكتب التي يرسلها الله إلى خلقه ، أي وحيه إلى أنبيائه ، وهي مسألة كبرى أيضاً ، لا يرتأب فيها إلا من يحفل مسألة التنويم المغناطيسي المصري

كل الجهل ، ورضي أن يكون واقفاً من العلم حيث وقف ملحدو أوربا قبل قرن من الزمان ، وزعم أن الكون محصور على ما يعلم ...

سادساً - مسألة القضاء والقدر ، وهى مسألة عظمى توزعت عقول الفلاسفة أجمعين من القدم لليوم ، ولها أنصار وزعماء حتى من الذين لا يعتقدون بغير المادة ، لأن تشبع الفكر المصري بوجود نواميس للكون ثابتة لا تتغير تجعل مسألة القضاء والقدر من نتائج العلم الطبيعي نفسه كما سنفصل ذلك إن شاء الله تفصيلاً .

هذه هي مسائل الاسلام التي نحترمها والتي أمرنا بالتفكير فيها للوصول إلى المدركات العالية منها ، وقد رأيت أنها مسائل الانسانية كلها لا المسلمين وحدهم ، وإنها مما لا يتصور في العقل عدم احترامها واعتبارها من المسائل الكبرى في أي دور من أدوار الرقي العقلي لارتباطها بحياة الانسان مباشرة ، ووقوفها في مهب فكره ومضطرب ذهنه .

أما دور الشك ، فإن صح على العقائد الأخرى فلا يصح على الاسلام بوجه من الوجوه . الشك هو التردد في صحة شيء ودواؤه العلم ؛ وقد رأيت أن المسلم ليس له من العقائد إلا ما هو مغرور في طبيعة البشر حب الاهتمام به واعتقاده ، وهي تلك المسائل الست ؛ وبما أنه قد يطرأ الشك للإنسان فيها لقلة علمه ، فالاسلام لا يعاقب الشاك أو المستشكل بالحرق بالنار أو بالصلب ، بل بدوائه الحقيقي وهو العلم واستئزال روح الرحمة الإلهية من قبله ، وقد وعده الله بحسن النتيجة ، فقال تعالى : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين » ، بل أنذر الضارب عن العلم صفحاً بالطبع على قلبه ، فقال عز وجل : « كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون » .

قلنا : إن الإسلام جاء بعد أن بلغ العقل الإنساني أشده ولذلك فهو لا ينزل الإنسان منزلة القاصر بل الراشد الذي له حق التصرف بفكره وإرادته ، بخلاف الأديان الأخرى التي ادعى قادتها أنهم أوصياء على الإنسان ، وأنه لا حق له في استعمال عقله وفكره في شؤون حياته إلا طبقاً لما يوحونه إليه من التعاليم

والقواعد ، وقد أساءوا استعمال هذه الوصاية لحد أن الناس تركوا الدين من أجلها ، وتخلصوا من تلك السلطة بعد جدال وجلاذ دام قروناً متوالية وعدى على حياة ملايين كثيرة من الأبرياء ، أما الإسلام فلم يجعل لأحد من بنيه حق الوصاية على غيره ، بل أسبغ على الكل نعمة المساواة الحققة ، وآخى بينهم إخاء ملكوتياً لم يسبق له مثال في تاريخ العالم ، وجاء الخطاب عن لسان العزة الإلهية بهذا القسطاس العادل : « الجنة لمن أطاعني ولو كان عبداً حبشياً والنار لمن عصاني ولو كان شريفاً قرشياً » ، ولذلك تراه يخاطب أبناءه عموماً بلسان واحد ، لا يخص بالخطاب طائفة دون طائفة ولا قبيلة دون قبيلة ، ولم يعلق نجاة روح على روح أخرى ، وفي هذا الحديث الشريف أكبر عبرة لمن يعتبر : « اعلمي يا فاطمة فإني لا أغني عنك من الله شيئاً » ، وهذا غاية ما يتوق إليه أنصار حرية النفس ، ومحبو رفع القوة الاستبدادية .

أنظر إلى هذا المثال الباهر من الحرية ، وقارنه بذلك الاستعباد الهائل الذي طوق به قادة الأديان الأخرى أعناق أتباعهم ، حيث علقوا نجاة السواد الأعظم منهم بشفاعرة رجال قلائل أو رجل واحد . ولا غرو فإنهم يتصورون الخالق تعالى على صورة الملوك الأرضيين الذين لا يمكن التقرب إليهم ، إلا بالتوسل بمجاشيتهم وذوي الزلفى منهم ، أما المسلم الذي ينزه خالقه عن مشابهة المخلوقين ، ولا يجري عليه صفة الملوك الأرضيين ، ويعلم أنه أرحم الراحمين ، وأكرم الأكرمين ، وأنه ليس بينه وبين عبده حجاب ، ولا جلاوزة ولا حجاب ، وأنه سميع مجيب ، « وهو أقرب إليه من حبل الوريد » ، فإنه لا يحتاج لمن يقربه إليه زلفى غير صالح أعماله ، وعقائل صفاته . أما التعلق بشفاعرة الشافعين ووسيلة الوسطاء والمقربين ، فليس من عقيدة المسلمين ، ولا صفة لها عندهم في الدين ، وما ورد من ذلك عندنا فمقيد بإذن الله ومعلق على أمره بالنسبة لبعض مستحقي المغفرة ، قال تعالى : « من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه » ، « وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى » . أما أولئك الذين ليس في أعمالهم ما يؤهلهم للحظوة بمغفرة الله ، فلا يستطيع

أحد أن يشفع عنهم ، قال تعالى : « فما لهم من شافعين » ، « فما تنفعهم شفاعة الشافعين » .

هذا الأصل وحده هو أهدي قائد لنفوس الآخذين بالدين إلى باحات الحرية ، وأقوى باعث لهم إلى ساحات المساواة الأخوية ، ومن يعلم أن الحرية أصل كل الأصول المهدبة للأمم ، الرافعة لها إلى منصات العظم ، الباعثة إلى نفوسها روح الهمم ، يتحقق معنا أن هذا الأصل كان من أقوى الأسباب التي نهضت بأسلافنا الأولين إلى أعلا عليين بينما كان غيرهم في أسفل سافلين مأسورين لرؤساء الدين ، ويتأكد معنا أنه كما كان سبب إسلام عشرات الملايين ، من الأقوام البعيدين عند ظهور هذا الدين هرباً من الضغط المهيمن ، كذلك سيكون هو نفسه الجاذب للعواطف ، والمالك للأعمال في هذه القرون وما بعدها حتى يخلص السلاطن للإسلام ويكون الدين كله لله . فإن روح هذه العصور المتأخرة قد بعثت إلى قلب الإنسان حب الحرية والمساواة ، وسينمو هذا الشعور في الإنسان بتوالي الحوادث حتى لا يكون عليه سلطان غير شعوره الخاص وعواطفه الذاتية ، وأين يوجد ما يلائم هذا التطور غير الإسلام الذي يخلي بين الإنسان وربّه ، ويرفع الحجب بينه وبين مالك حياته « قل إنني هدائي ربي إلى صراط مستقيم ، ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين . قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين . قل أغير الله أبغي رباً وهو رب كل شيء ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون » .

والباحث في أسباب خلع أوروبا لطوق العقائد يرى من أهمها مسألة الشفاعة والوساطة . قال الفيلسوف (لوسيان آريا) في كتابه (عقائد الغد) : « إن كراهة الناس لرؤساء الدين هي التي ولدت في أكثرهم كما يظهر لي الجحافة للدين . فإن الخطر جاء من تسخير الناس بسبب الدين نفسه . ومع هذا فلم تكن وظيفة الكاهن من مواضيع المناقشة في مؤتمر الأديان ، ولكنها فيما أرى من

المسائل الأولية التي يجب حلها في مستقبل قريب». وانك ترى علماءهم وفلاسفتهم يعدون عدم وجود الوساطة من ضمن المزايا الكثيرة التي للإسلام على سائر الأديان، وأقرب شاهد على ذلك ما ورد في (المجلة) الفرنسية في جزء ١٥ مايو ، وهو : « ليس في الإسلام البتة لا طقوس دينية ولا أسرار كهنوتية ولا كهان ولا هياكل ولا شيء مما يعتبر شرطاً أصلياً في أداء العبادة . بل فيه أن الإنسان شفيح نفسه أمام خالقه فتراه يرجو بذاته رحمة ربه وغفرانه . وبعبارة الاصطلاحات الدينية الإسلام يعد وجود الجمعيات الكهنوتية والسلطة الروحية من البدع المضادة لنص العقيدة » .

قلنا : الإسلام ينزل الإنسان منزلة الراشد لا القاصر ، ولم يكلفه من العقائد إلا ما لو خلا ونفسه لاهتم بها لأنها نتيجة عواطفه المغروزة في طبيعته ، وقلنا انه لو شك فيها يعالجه بعلاج الشك وهو العلم لا بالضغط على فكره أو حرق جسده كما فعل غيره . لهذا جعل العلم قوام الدين وملاك اليقين حتى فرضه على عموم أتباعه من ذكر أو أنثى ، وسن لهم كل ما من شأنه زيادة العلم ونمو مادته ، كالسياحة واستشراف أحوال الأمم وتعرف نوااميس الخليقة والعمران . وكالمنظر في الكون وتنوير أسرار الكائنات . حتى قال عن السياحة : « أو لم يسيروا في الأرض فينظروا . الخ الآية » ، « قل سيروا في الأرض فانظروا . الخ الآية » ، وقال عن النظر في الكون : « وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم ، أفلا تبصرون » ، فانظر كيف أن السياحة واستطلاع أحوال الأمم والكون التي شككت اليونانيين في عقائدهم قبل الميلاد بأربعمئة سنة ، وحلت معاهد عقائد الأوربيين في إبان اختلاطهم بالمسلمين وإشرافهم عن مدنيتهن كما أثبتنا لك ذلك في كتاب الإنسان ، قد ندب إليها الإسلام بصفاتها مقوية للعقيدة ، مثيرة لروح الدين ، مثبتة لأراكين اليقين ، حتى قال الله عن السياحة : « أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » ، وقال مبكناً الذين لا ينظرون في مساتير الطبيعة : « وكأين من آية في السموات والأرض يرون عليها وهم عنها معرضون » ،

فأي فرق هائل بين دينين يقوى أحدهما بما يهدم الآخر ، ويحيى بما يلاشي ضده ؟

السياحة تزيد في سعة المدارك وتشرف بالإنسان على أسرار العالم وعلى نواميس العمران والخراب في الأمم ، وعلى أسباب المدنية والوحشية في الشعوب وتجعل للإنسان فكرة عامة على معنى الحياة الإنسانية الصحيحة . والنظر في الكون نتيجة توسيع نطاق سلطة العقل الإنساني على الإدراك والسيان في ضمائر الكون ، والوقوف بالتصور والفكر المواقف التي هما جديران بها من هذا العالم البديع ، وتخويل القوة البشرية خاصية استخدام قوى الكائنات في تحسين الحياة الإنسانية وتهذيبها بما يفتح للعقل من مغلق المساتير ومؤصد الأسرار . وهذا كله كما لا يخفى ، يعملو بالعقل والفكر ويسمو بها درجات متوالية على نسب محسوسة ، فيحصل ما يسمونه الترقى في الهيئة الاجتماعية ، وهذا الترقى كما يحصل في الصنائع والفنون كذلك يحصل في المدركات والعقائد ، والدليل على ذلك أن كل أمة تترقي تترك عقائدها وتهجرها لتطلب عقائد أرقى منها . وقد شعر بذلك رؤساء العقائد فحرموا النظر على أتباعهم ، وقرروا أن كل علم لا يوافق العقائد فهو مردود باطل يستحق صاحبه سوء العذاب . فكيف يخالف الإسلام هذه السنة التي جرى عليها حفظة العقائد ، ويعلق كمال الإيمان وتمام اليقين على ما أحدث الشكوك في أذهان الأديان الأخرى وانتزع العقائد من أفئدتهم ؟

ذلك لأن الاسلام كما قلنا لم يكلف الانسان من العقائد إلا بما لو ترك الإنسان وشأنه لتعلق به من نفسه ، لأنه نتيجة قوى عواطفه وإحساساته ، وهي تلك العقائد الست التي ذكرناها آنفاً ، ثم إنه بعد ذلك لا يكلف الإنسان إلا خلع نير التقاليد والوراثات والعقائد الباطلة عن عاتقه ، خلعاً كلياً ليستوي بشراً سوياً خالصاً لله ، لا تمثالاً محشواً بأقذار آبائه وأجداده وضلالات أسلافه وأواليه ، عقله أسير رئيس دينه ، وفكره مغلول عن البحث خوف الكفر ، كأنه مصاب بشلل في قواه ومواهبه ، أو مسلوب التصرف في نفسه . فما الذي يخشى على المسلم بعد ذلك من وراء العلم ؟ وهل للروح المسلمة غذاء غير العلم ، ونور غير

الحكمة « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون » ، « إنما يخشى الله من عباده العلماء » .

إذا تقرر هذا فهل يسري قانون الأدوار التي تنتاب العقائد على الإسلام ؟ وهل يخشى على المسلم من تشبع فكره بأحوال الأمم وعظمة الكون ؟ وهل يليق بعد هذا أن يقال لمسلم إنك لا تترقي إلا إذا خلعت طوق الدين من عنقك كما فعله غيرك من الأمم الراقية ؟ وهل يقال له إنه من الحياة الانسانية في دور الطفولية أو أنه يود أن يبقى في ذلك الدور ويسابق الأمم الأخرى التي تجاوزته ؟

إن الذي حرم المسلمين من التمتع بجزايا دينهم ، هو إضرابهم عن السياحات وعن تعرف الأحوال والنظر في الكون ، ومتى جاء ذلك اليوم الذي يأذن الله فيه للحقيقة الاسلامية أن تنفذ إلى أوروبا من خلال هذه التعصبات القديمة المتكاثفة ، لما تترقي روحها السائدة في هذا الجيل عما هي عليه درجات أخرى ، فسترى في ذلك اليوم كيف يكون رجوع الحق إلى نصابه ، بل كيف يكون الدين كله لله « ولتعلمن نبأه بعد حين » .



سحر المدنية المادية

أطلنا التساؤل في فصل الانسان عن أثر المدنية المادية على المتدينين ، وطفنا بالقارئ على كثير من صور الشبه الرائجة في جيلنا هذا ، وهي الشبه التي تسلطت على مكان الشعور من أفئدة أكثر النشأة الحالية من جراء احتكاكها بزخارف الصناعات التي تجرفها إلينا سيول الترف الأوربي ، وصارت فتنة للأعين والعقول معاً ، وبلغت منا ما لم تبلغه الطبعا من الهوادي ولا الرماح من الأفئدة ؛ فلم نر بدأ من مناقشة هذه الأفئدة المفتونة الحساب في كتاب حكيم القلوب الأعظم خاتم

النبيين محمد صلى الله عليه وسلم ، لنستطيع بعون الله وقوته أن نوجه إليها شعاعاً ساطعاً من روحه الكريمة ، يمزق غياهبها ويكشف كسفها ، ونهتدي به إلى كنه المدينة الفاضلة التي جاء صلى الله عليه وسلم يدعو العالمين إليها بذلك الكتاب الكريم الذي يهدي للتي هي أقوم .

قال الله تعالى : « إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم » ، وقد حقق وعده وأرى العالم آية هي أكبر آياته في خليقته ، وذلك بأنه بعث في الأميين رسولاً منهم في الحين الذي أخذت الأرض زخرفها وازينت ، وظن أهلها أنهم قادرون عليها ، وناهيك بمدنيقي الرومان والفارسيين ، وقد رأيت في فصل الانسان لمعة صغيرة من وصف مدينة الفرس حين ملكها الاسكندر ، وأما مدينة الرومان فكانت لا تقل عنها في شيء ، بل تزيد عليها في كثير من الشؤون ، ولكي يبرهن الخالق الحكيم لعموم النوع الانساني على أن الفضائل روح إلهية إذا حلت في الأمة رفعتها إلى أعلى عليين ولو لم يكن في وسائلها الطبيعية ما يؤهلها لذلك الرقي المبين ، وسادت على سواها وإن كانت أصغر من ذلك في أعين الناظرين ، اختار الأمة العربية على أنها كانت من عدم الوسائل الطبيعية بحيث دامت آلافاً من السنين حافظة شكلها ، وواقفة مكانها ، أعرض عنها سائر الفاتحين بأساً من استصلاحها وتفادياً من العناء الذي يأتي من قبلها ، فلما أرسل الخالق رسوله إليها حاملاً روحاً كريماً ، مكث بين أظهرها ثلاثاً وعشرين سنة سقاها في خلالها من ذلك الحوض الملوكوتي جرماً بعثت إليها حياة جديدة وصبغت بصبغة إلهية ، فأصبح العرب وبين جوارحهم قلوب كأنها انفصلت من الملاء الأعلى قد ملئت بأنوار الحق وتشبعت من روح الفضيلة ، فهبوا يحققون وعد الله من إحقاق الحق وإزهاق الباطل ، وتأسيس خلافة يطأطئ أمامها كل جبار عنيد ، وتغنوا لها جبهة كل عات صنيديد . كان يلزم أن يكون هؤلاء القوم الذين كانوا بالأمس يسكنون في الصحارى ويحولون في الفيافي ، أكثر الأمم تأثراً بسحر المدينة وانسجاراً بالمموهات الصناعية كما يشاهد من البدو إذا جاؤا إلى المدائن العامرة ، ولكن سبعان ربي الذي جعل في كل شأن من شؤون خاتم أنبيائه معجزة

باهرة ، فإن أصحابه قد خالفوا كل السنن النفسية المعروفة ، وبدل أن تنبهر
أبصارهم وتندعش بصائرهم عند رؤيتهم تلك المعاهد الفاتنة في مديني الفرس
والرومان قابلوها بفتور الأنف منها ، المهتقر لها ، ترفعاً عما فيها من الجرائيم
السامة للفضائل ، القاتلة للعواطف ، فلم تلفتهم عن شأنهم بل قابلوها بأفئدة
عرفت حقيقة الحياة الصالحة واطمأنت إلى ما وعدها الله به من السعادة الحقة ،
والكمال الخالص ، فلم يقيم منهم داع إلى تقليد في بدعة ، ولا محاكاة في ضلالة ،
ولم تمت من احتكاكهم بها غيرتهم ، ولم تنحل بسحرها الفاتن همهم ، بل
استقاموا على صراطهم وهو الصراط القويم ، ووزنوا الأمور بقسطاسهم وهو
قسطاس العدل المستقيم .

إن هجس بهم هاجس وصور لهم أنهم قليلون مستضعفون ، وأن أصدادهم
كثيرون قويون « تذكروا فإذا هم مبصرون » ، وقالوا : « كم من فئة قليلة
غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين » ، « إنه لا ييأس من روح الله إلا
القوم الكافرون » .

وإن نزغ بينهم الشيطان وقال لهم أين أنتم من لحاق هذا الشأو الباذخ ،
ونوال مثل هذا الشأن الفخم ؛ قالوا كما كانوا يقولون قبل ذلك : « هذا ما وعدنا
الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً » ، وتلوا على أنفسهم :
« وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف
الذين من قبلهم .. الخ الآية » .

وإن همس لهم هامس وأراد أن يفتنهم بتلك الزخارف التي كانت تقع تحت
أنظارهم ، قالوا هذه سعادة الدنيا ونحن لا نريد إلا السعادتين معاً ، وقرأوا :
« ومن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وما لهم في الآخرة من خلاق ، ومنهم
من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » ،
وإن أراد الشيطان أن يوهمهم باستحالة الجمع بين سعادتَي الحياتين ويريهم أن الدين
ليس بشرط في سعادة البشر بدليل قيام أصدادهم بدونه ، قالوا : « واضرب لهم

مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعاً . كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً وفجرنا خلالها نهراً . وكان له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً . ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبعد هذه أبداً . وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً . قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً . لكنّ هو الله ربّي ولا أشرك به ربّي أحداً . ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله إن ترنّ أنا أقل منك مالاً وولداً . فعسى ربّي أن يؤتين خيراً من جنتك ويرسل عليها حسبانا من السماء فتصبح صعيداً زلقاً . أو يصبح ماؤها غوراً فلن تستطيع له طلباً . وأحيط بشمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحداً . ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصراً ، هنالك الولاية لله الحق هو خير ثواباً وخير عقبي ، « قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذابين ، » « سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً ، » .

لم يأتهم الشيطان من جانب إلا سدوه في وجهه بآية من كتاب الله وسنة رسوله ، فلم يمر عليهم قرن من الزمان حتى أصبحت الدنيا دينيهم والخلافة فيها خلافتهم ، ترتعد الملوك عند ذكر سلطانهم ، وتهتز العروش خوفاً من نفوذهم ، وصارت لهم مدنية كسفت بنورها كل مدنية ، وبلغوا بها ما لم تبلغه أمة قبلهم ولم تزل آثارهم تدل العموم على عظم مكانتهم وسمو أرواحهم .

قال (دروي) المؤرخ أحد وزراء معارف فرنسا السابقين : « بينا أهل أوروبا تائهون في دجى الجهالة لا يرون الضوء إلا من سم الحياط ، إذ سطع نور قوي جانب الأمة الإسلامية من علوم أدب وفلسفة وصناعات وأعمال يد وغير ذلك ، حيث كانت مدنية بغداد والبصرة وسمرقند ودمشق والقيروان وبصرة وفاس وغرناطة وقرطبة مراكز عظيمة لدائرة المعارف ، ومنها انتشرت في

الأمم واغتنم منها أهل أوروبا في القرون المتوسطة صناعات وفنوناً (يأتي بيانها). ونقل المؤرخ (سديو) عن (هومبلد): «إن العرب خلقهم الله ليكونوا واسطة بين الأمم المنتشرة من شواطئ الفسرات الى الوادي الكبير باسبانيا ، وبين العلوم وأسباب التمدن ، فتناولتها تلك الأمم على أيديهم لأن لهم بمقتضى طبيعتهم حركة تخصهم أثرت في الدنيا تأثيراً لا يشبه بغيره . ثم قال : « وهذا حجة على أنهم كما قال غيرنا - ونحن نعترف به - أساتيدنا ومعلمونا . »

وقال (دراير) أستاذ بكلية نيويورك بأمريكا : « ان أقوى وأكبر الممالك الدينية التي لم يرَ العالم مثلها ، قد ولدت فجأة وامتدت من المحيط الاطلنطيكي إلى أسوار الصين ، ومع ذلك فلم تك قد بلغت نهاية ما قدر لها من الامتداد والنفوذ ، فلقد أتى عليها بعد ذلك حين من الدهر طردت فيه خلفاء القياصرة وملكت بلاد اليونان ونازعت النصرانية السلطة على أوروبا ونشرت نفوذ عقائدها خلال الصحارى الوحشية والغابات الموبوءة ، من أول شواطئ البحر الأبيض إلى خط الاستواء ، » « لقد طافوا (العرب) معاهد الفلسفة والعلم بسرعة تشبه السرعة التي طافوا بها مملكة الرومان ، » « إننا لتأخذنا الدهشة أحياناً لما نصادف في كتبهم آراء علمية كنا نظنها نشأت في هذا القرن . من هذا القليل مذهب النشوء والترقي للكائنات العضوية ، فقد كان يدرس في مدارسهم . »

وقال عن مدنيتهما : « إن خلفاء الأندلس كانوا محاطين بأنواع الأبهة التي هي من لوازم الحياة الشرقية ، وكان لهم قصور عامرة ، وحدائق زاهرة (وسرايات) يعمرها الجلال والجمال وإن أوروبا الحالية (تأمل) لا تعلو في حسن الذوق والرقعة والظرف في شيء من أشياءها عما كان في العواصم العربية الأندلسية في الزمن الذي تتكلم عنه . كانت شوارع هذه العواصم مضاة بالليل ومبلطة بتبليطاً متقناً . وكانت البيوت مفروشة بالبسط ومزينة حوائطها بالنقوش ، وكانت تسخن في الشتاء بالدافئ وترطب في الصيف بتيارات من النسبات المعطرة تصل إليها من سراديب تحت الأرض مغطاة فوهتها بالأزهار الزكية ، وكان لهم حمامات ومكاتب

ومخلات للغذاء وفوارات للعباء والزئبق . وكانت المدائن والأرياف حافلة بالاحتفالات والرقص الذي كانوا يأتونه على نفمة (العود) و (والمزهر) ، وكان شعار العرب في ملاعبهم القناعة وطلاقة النفس بخلاف جيرانهم الغربيين فقد كان ديدنهم النهم في الأكل والإدمان للسكر . وكان الحمر حرام عليهم لا يقربونه وكانوا يتمشون في حدائقهم في الليالي القمرية وفي غياضهم المنعزلة المزروعة برتقالاً وهم يصغون إلى قصة أدبية أو يتحاورون في بعض المواضيع الفلسفية ، مسلمين أنفسهم عن أحزان الدنيا بقولهم : إنها لو كانت خالصة من شوب الآلام لأنستنا الحياة الآخرة ، وراضين بالكد والتعب في المعيشة الأرضية أملاً في نوال الراحة الأخروية الدائمة . ا. هـ .

هذه مدينة سامية لا تقل في نظر (درابر) وغيره في حسن الذوق والرفعة والظرف عما عليه أوربا اليوم ، ولقد نالها آباؤنا في أقل من قرن واحد بمحض سيرهم على صراط العدل المستقيم المبين في القرآن الكريم .

كوتوا هذه المدينة وطبعوها بطابع إسلامي محض ، وأثروا بها على سائر الأمم ولم يتأثروا هم بشيء منها .

وإن تعجب من هذا فأعجب منه أنه كانت مساجدهم يحوار هذه المعاهد الفتانة عامرة بالمصلين والشعائر الدينية خافقة الأعلام على الرؤوس أجمعين ، يقول المؤذن : حيّ على الفلاح ، فتجيبه الأرواح قبل الأشباح ، وتسجد لندائه الأفئدة قبل الجوارح ، لا كما نحن اليوم يلفتنا ملهى قدر عن أكبر مطلب من مطالب أرواحنا ، ويأخذ بعقولنا مرقص مخجل عن أسمى رغبة لنفوسنا ، حتى أن ما أقيم في بلادنا من تلك المعاهد التافهة التي لا تساوي جزءاً مما كان لآبائنا قد أنساها الدين والدنيا والشرف والحياة والحياة .

السبب الأكبر لما ألم بنا من السحر بهذا البدع الجديد ، واغتيال من نفوسنا أشرف عواطفنا ، هو ولا شك الحماية المطلقة عن قوانين الحياة ، ولقد بئسنا بكتاب فقدوا رشدهم من سحر هذه المدنية الجديدة ، فقابلوا الأمة وهي في

عفة عن ذاتها ، فصوروا لها المدنية الحالية في صورة خيالية محضة ، وانتهزوا فرصة فتور حركتها فملأوا فؤادها ياساً من لحاق شأو الأمم الأخرى ، ونفثوا في روعها القنوط المطلق وسموم الاستخذاء للأقوياء ، وقتلوا كل عاطفة شريفة فيها ، فنشأ تحت هذه النعمة نشوء من الناس مستعدين للتقليد والمحاكاة ، فسلكوا المسالك التي نسعى جهدنا اليوم لردم عنها ، ولولا أن اليأس كفر في مذهبنا لقلنا قد استعصى الداء وعز الدواء ، ولكن الله غالب على أمره والأفراد كالأمم في قبضة الله يمتتها وينشرها ولا معقب لحكمه . « قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله » .

أي شيء يكسر من شره أولئك المترغين بمدنية هذا الجيل أكبر من نقل أقاويل أصحابها في بيان نقصانها وأنها ساعية بالأمم إلى حتفها إن لم يقوموا بها على صراط الدين الحق ؟

قال الفيلسوف (فييرنس جيافرت) : « إن العلم قد غلا في الاستفادة من سرعة تصديق العامة أكثر مما غلا رؤساء الدين ، فلقد أثبت لها عدم صحة رموزها الدينية القديمة ووعدا بتعويضها لها بأصول ثابتة أبدية لدين حسي جديد ، فلم يف بوعده لها . ولما آب للإنسانية رشدها ، وقد فقدت شعرياتها السابقة ، وجدت نفسها حيال فراغ أوسع مما كانت فيه قبلاً . وفي الواقع ماذا يفيد الإنسان علمه ببعض الحوادث الطبيعية بجانب ذلك الإلحاد المتجدد المؤلم الذي يجرنا إليه ضميرنا الفاقد لحرارة الحياة .

« إنهم ينصحون كل إنسان بأن يكون لنفسه دينه الخاص ، ولم يفتنوا إلى أن هذه النصيحة المزدوجة تحتوي على تنساقض بيتن ، حيث أن المذهب الحسي لم يترك للإنسان مجالاً في غير المسائل المادية المحضة .

« إن الحقد والعداء يزدادان يوماً فيوماً في نفوس أهل البأساء المحكوم عليهم بالفاقة إلى الأبد ، وإن جنون البذخ والجبروت ينمو على قدر ذلك لدى أهل اليسار والبذخ . وهذا الإلحاد الآخذ في النمو يسوق جمعياتنا بعاطفة المساواة إلى

حالة ثوروية دائمة . وأصبحت ترى الملوك والعظام يتعاقبون على عروش الملك بسرعة لم تكن تشاهد في وزراء الأزمنة الماضية . والحكم الاستبدادي بدل أن يتشبع في بعض الأفراد أضحى منتشرأ بين الملايين ، فكل ديموقراطي يتبنى أن يبلغ الرتب العلية ، وترى الشعب لما أحس أنه خلص من أسر الواجبات الروحية التي تفرضها الكنيسة وازدري بذلك الدستور السياسي الذي يراه يتغير بسرعة جنونية ، أعطى لعاطفة الأثرة فيه كل الحرية وصار يعتبر أن ماله من حق المساعدة في إدارة شؤون حكومته وسيلة لنوال مآربه الحيوانية بأسرع مايمكن . ولقد رجونا أن ندوي مصائب النوع الإنساني بالكنوز المادية التي أُلقيت بين أيدينا منذ قرن من الزمان . ولقد تكاتف العلماء والمهندسون والصناع الميكانيكيون على زيادة متاع الحياة الدنيا زيادة عظمية ، ولكن لم يكن من نتيجة كل تلك المكتشفات إلا نشر حمى حب المال في الطبقات السحيقة جداً .

« فأني قانون أخلاقي يكفي لكبح جماح أهوائنا وإدخالها إلى مجاريها الطبيعية المعتدلة...؟ لقد ذهب عنا الكمال المعنوي ولم يبق فينا إلا خوف مبهم من شيء غير مدرك . لأن العقيدة بالله لا يمكن زوالها من النفس فتري الذين لا إحساس لهم يستفيدون من وراء ما وقعنا فيه من الظلمات ، وترى العقول المستنيرة بالعلم ، المحرومة من الدين تعذرهم في ارتكابهم الجرائم ، وبهذا فقد أصبحت الشهوات غير واقفة عند حد .

« وإن تحت هذا السلم الذي اقتضاه الخوف العام لأحقاداً تحتتم اختاراً بأشد ما كانت في أي زمن من الأزمان . فإن جرائم الفوضويين وإفلاس المالمين وانتحار الأسر بأجمعها والوساوس الخرافية الآخذة في الانتشار بين الناس ، والجنون الذي لا ينتظر إلا سنوح الفرص ، وأصحاب الأثرة البائسين ، وكل هذا الفساد الخلقي الشديد الوطأة البعيد القرار الذي عم أجناسنا ، فاشيء من عدم وجود قاعدة دينية تصلح لإحداث الوحدة والإخاء بين احتياجنا الدائم للعمل وبين عاطفتنا للحب .

« لذلك ترى ظلمات من الحزن والكمد آخذة في الاسوداد كل يوم ملقية أطنابها على عالمنا . ويزعم الإنسان في غروره أن حرية الأثرة ستحصل له كل ما يتمتع به من سرور وانشراح ، حتى صرفنا وكل يوم لنا مطلب جديد وكل طائفة تسعى لنوال امتيازات جديدة ، وكل فرد يدعي لنفسه حقوقاً ليس لها حد تنتهي إليه ، وبذلك فقد أصبح الإنسان بين هذا العذاب المنصب عليه من الكبير والتمرد معترفاً بأنه أمام الحياة أضعف مما كان في أي زمن من الأزمان . »

وقال العلامة (كاميل فلامريون) ، ونظن أنه غير مجهول لدى المسلمين : « لا يجوز لنا أن نخجل من الاعتراف بما وقعنا فيه من الانحطاط لاننا رضىنا به ، وأصبحت عقولنا المتشبعة بالأثرة لا هم لها إلا أغراضها الذاتية ، أليس حفظنا اليوم من الحياة قد استحال لجمع الثروة بلا مبالاة بوجوه جمعها ، والحصول على المجد بطريق الاغتيال لا الكسب والجمود وعدم الاهتمام بالدستور والواجبات ؟ » ، « وإن من التناقض البين المؤلم أن ترى أن الرقي الباهر الذي حصل في العلوم بما لا مثيل له في التاريخ ، وأن هذه الفتوحات المتوالية التي تمت للإنسان في الطبيعة ، بينما رفع عقولنا إلى المدرجات العالية أهبط إنسانيتنا إلى أخس الدركات . ومن الحزن أن نحس بأنه بينما نشعر ببناء قوتنا يوماً بعد يوم ، تنطفئ حرارة قلوبنا وتتصوح زهرة حياتنا القلبية بتأثير غلبة المطامع المادية والشهوات الجسدية . »

هذا تمهيد بسيط سقناه أمام الكلام في حل الشبهة الماضية ليعلم أولئك المتفهمون بزوال الدين وبقيام العلوم الطبيعية مقامه أن سنة الله لا تتبدل ، وأنه سيجيء يوم يرى الإنسان فيه أن الدين دواؤه الوحيد ، وأن ما كان فيه من تلك العجرفة والكبرياء لفحة من لفحات الشيطان ، ولكنه في ظننا لا يعود حتى قصره الحوادث صهراً ، وتؤدبه بعضاها أدباً ينتقش في كل ذرة من ذرات جسمه . « كتب الله لأغلبنا أنا ورسلي إن الله قوي عزيز . »

هذه الفتنة العمياء التي يموج في دياجيرها الأوروبيون الآن بشهادة من نقل عنهم من كبار علماءهم ، أمتهم من الرقي الصناعي المدهش الذي حصل لهم لما تركوا

عقائدهم التي كانت تحول بين عقولهم وبين مشتهياتها من العلم ، فبدل أن يقفوا عند حدود الدين الفطري حاوزوه إلى متاهات الإلحاد، وقالوا: إذا كان كل ما نلناه من سعادة هو من العلم فلا نعترف بناموس غيره . وقد أزينك بعضاً من أقوال عرفائهم في هذه الفتنة العلمية الخطيرة وهو دور من أدوار حياة الأمم أشار الله إليه في كتابه الكريم بقوله تعالى: « فإذا مس الإنسان ضرٌّ دعانا ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم (تأمل) بل هي فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون . قد قالها الذين من قبلهم فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون . والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا وما هم بمعجزين » .

الشبه العلمية والعقائد

استعرضنا أمام القارىء في فصل الإنسان، تحت عنوان « نشأة الروح العلمية التي يسيطر بها الغرب على الشرق »، كثيراً من الشبه العلمية التي تلوّكها اليوم بعض الألسن وتحجّش في كثير من الضائّر ، واستدر كناها في كتاب خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم بفصل تمهيدي إجمالي ، ووعدنا قارئنا بالتفصيل الشافي ، فننجز اليوم وعدنا فنقول والله ولي المؤمنين :

قلنا في ذلك الفصل : « فهل في هذا دليل على قول بعضهم من الملاحدة أن الدين باعثة الجهل ومادته العماية عن حقائق الكون ؟ وهل فيه حجة للقائلين بأن الأديان الموجودة هي حوادث تاريخية استلزمتهأ أدوار خاصة، وقد أدت وظيفتها وأخذت في الانحلال ولن يقوم لها في عصر العلم القائمة ؟ »

وقلنا : « فهل في الرقي المادي شيء من السحر يعتري النفس فيلفتها عن مطالب أرواحها ويعميها عن رؤية كالاتها ؟ إن كان كذلك فما هو ذلك السحر في نفسه وما منشؤه وكيف يؤثر على العقول هذا التأثير المدهش ؟ وهل لا يمكن أن يوجد على سطح الأرض مدنية مادية متحدة بكمالات روحانية ويكون الإنسان بينها مغموراً في نعم روحه وجسده متمتعاً بلذائذ مادته ومعناه ؟ إن كان لا يمكن

ذلك فهل شرع الدين ليكون مقصوراً على الفقراء والمساكين ، وموقوفاً على المحرومين والمستضعفين؟ وإن كان من الممكن جمع مدنية مادية وكالات روحية فما بال بعض المسلمين الذين قضى عليهم بالاحتكاك في قشور هذه المدنية الأوروبية قد خلعوا أعنة الدين وأملسوا من وشيجة العقيدة ؟ »

ثم قلنا : « ما هي المدنية وما تأثيرها على الروح الإنسانية ؟ ما هي الشهوات الجثمانية وما هي الكمالات النفسانية ؟ لماذا يفضل الإنسان الشهوات الفانية على الكمالات الباقية؟ هل السبب في ذلك عدم الإيمان ؟ فما هو الإيمان ؟ كيف يقوى وكيف يضعف ؟ هل في العلوم المادية ما يقوم مقام الدين في إيتاء الروح حاجتها وتهدئة النفس في جيشانها ؟ هل فيها ما يغذي عواطف الروح ويجعلها تقنع بنعيم الحياة الأرضية وتكتفي بملاذها الجسدية؟ هل غو القوة العقلية ينتهي بالإنسان إلى اعتقاد بطلان الأديان ، وإدراك فساد ما بنيت عليه من الأركان ، فيكون الشأن تأخر الدين كلما تقدم العقل حتى يتم الأمر بزوال الدين وانتهاء سلطته وقيام العقل مقامه في أداء وظيفته ؟ . إن قيل نعم ، فما هو العقل وما هو الدين ، وما حدود سلطانها على النفوس ؟ » ، « وإن قيل لا ، نقول : إذن ما هذا الأثر الذي نشاهده ؟ » ، « إن قيل : ذلك لما تسهله المدنية لهم من أسباب اللهو والترف ، وما تجلبه لهم من المغريات على الخلاعة والسرف ، نقول : وكيف يقوم لأمثال هذه الأمم قائمة وكل ما ذكر من صنوف اللهو محلل لروابط الهيئة الاجتماعية ، عاد على كيان حوافظها الأصلية ؟ هل ذلك لأننا واهمون في تحديد ماهية الفضيلة وماهية الرذيلة ؟ »

ثم أوردنا على أنفسنا قول معترض يقول : « إنكم تتعجبون من كونكم مسحوبين من أنوفكم إلى تقليد الأوروبيين والأخذ بعاداتهم ، وتذهبون في تحليل هذا الأمر مذاهب الخيال والشعر ، فتسمونه سحراً أو تسمونه روحاً ، وقد جعلتم التفتيق بأمثال هذه الكلمات مادة لكم في أبحاثكم وكتاباتكم . أتدرون ما تجدونه في أنفسكم من الاندفاع للتقليد أثر أي قوة هو ؟ هو أثر قوة الفضيلة في الأمم التي

تحتكون بها ، لأن الفضيلة جذابة خلابة تؤثر تأثير السحر على العواطف
والأميال ، فهي تجذبكم كل يوم إليها بقوتها الذاتية ، فترضخون لأحكامها بالفعل ،
بينما تكون ألسنتكم وأقلامكم لائكة تلك العبارات الاستفهامية ، والجلل التعجبية
اندهاشاً من كونكم مسحورين بالذائل ، ومجبرين على ترك الفضائل . »

هذا ما قلناه في الفصل المذكور آنفاً وأتينا به ههنا لمناقشته الحساب من
قريب ، خشية أن يكون الرد في مجال والشبهة في مجال آخر ، فيعضل الموضوع
على المطالع فلا يهيه من العناية ما يستحقه . فلنبداً الكلام والله المستعان .

★

تمهيد

لو أردنا أن نعالج كل هذه الشبه التي سردناها واحدة بعد أخرى ، لطال
بنا الكلام وتشعبت بنا فنون التعبير وذهب فكر القارئ مع قلنا مذاهب بعيدة
يصعب معها إشرافه على مجموع المقال ، ويتعذر عليه الإحاطة بأطرافه من أول
جولة ، فتضيع الثمرة التي نقصدها بالذات من إشباع القول في هذا البحث . لهذا
رأينا أن نحدد ميدان المناقشة في دائرة محصورة يستطيع القارئ أن يلم بمحيطها
من أول نظرة ، ويدرك لها مركزاً معلوماً ؛ ولا حرج علينا بعد ذلك إن مددنا
أنصاف أقطارها إلى حيث يقتضيه منا خطر الموضوع ، فإنه ما دام واقفاً في
مركز الدائرة يمكنه أن يتتبع خطوات القلم إلى حيث يشطح ثم يعود بنفسه
إلى النقطة التي خرج منها ، ليتجه حيث أراد بدون أن يخشى الشرود عن
جوهر الموضوع .

هذه الدائرة التي نقول عنها ، هي عبارة عن بسط مقدمات أولية أساسية

صالحة لأن تكون لهذه المباحث كالحودود المرسومة للبناء، لا نرى بدا من إقامتها.
ومن الله نستمد القوة والحول ..



دستور الكائنات ودستور الانسان

لكل كائن في عالم الكون دستور يسير على موجهه في حياته ، وتريد إليه سائر محاولاته ، حتى إن الجمادات والنباتات ليست محرومة من دستور خاص بها ملائم لأحوالها ، وإن كانت لم تتمتع من خصائص الإدراك والتمييز بما يشعرها به ويهديها إليه ، وليس دستورهما إلا النواميس الطبيعية المسلطة على كيانها ، حتى إنك لو كلفت شخصاً من أشخاص الجمادات أو النباتات بما لا ينطبق على تلك النواميس أي على دستوره الخاص ، لقاومك وأعياك ، فإما أن تقلع عنه وإما أن يذهب فقيد هواك . فأما الحيوانات الحاصلة من الحياة على قسط أكبر من هذين العالمين السابقين فدستورها أوسع مجالاً، وأبعد اختصاصاً وأنأى مرامي وأغراضاً ، ولكنه مهما اتسعت مجالاته ، وتشعبت اختصاصاته ، فلا تتعدى مراميه الحاجيات المادية ، والمطالب الجسدانية ، وليس فيها من القابلية والاستعداد مهما ارتقى وتهذب لأن ترمي لما وراء حسها بأي وجه من الوجوه .

أما الإنسان فقد دل حاله بالاستقراء على أن عوامل دستوره لا تقف به عند المطالب الطينية ، بل تتعداها إلى باحات أخرى معنوية لا يحدها له الوهم بحد ، ولا ينتهي منها تصويره إلى غاية . وكلما ارتقى في الفكر والشعر درجة اتسعت أمامه تلك الباحات المعنوية درجات كثيرة ، وزادت شدة العوامل الدافعة إليها حتى أنه قد يصل من الالتذاذ بالمعاني لدرجة يضحي معها الماديات في سبيلها ، ويكتفي من بواعث الحاجات الجسدية بما يسد الرمق تفرغاً لتلك

المطالب العالية ، وجرياً وراء أمانيه منها . وقد شوهد من أحوال الأنبياء أنهم مع سمو مناصبهم ، واستطاعتهم للتنعم بالماديات فوق ما يستطيعه الملوك والقادة لتسلطهم على أرواح الناس وأجسادهم ، كانوا يكتفون من الخبز بقلقيات تقيم صلبهم ، ويلتفتون من عالم القدس وأنوار الجمال الإلهي لما هو أكبر من الدنيا وما فيها في نظرهم . وأعظم مثال تقدمه لقرائنا حال سيد الأنام محمد صلى الله عليه وسلم ، فقد كان من السلطان على رعيته في درجة لم ينلها عشاق الملك ومؤسسو الممالك ، بحيث أن كل واحد من أتباعه كان يهون عليه أن يفديه بنفسه وأهله وماله ، ومع ذلك فقد أبت نفسه الشريفة كل ذلك النعم الفاني ، ولم يصب من حاجيات بدنه إلا ما يقيم شخصه اكتفاء بذلك الصفاء الروحاني الذي كان يشعر به ، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وتدلنا سيرة كبار أصحابه وعظماء تابعيه في كل الأجيال أن منهم من تبعه في هذه الخطوة الشريفة ، فانغمروا بما يتوق إليه في بحر من الفيض الإلهي لو وضعت الدنيا بلذائدها في صدفة من أصدافه لما وازنت أصغر درة من درره المعنوية الكريمة .

نعم إن تاريخ النوع البشري ليدل دلالة صريحة لا سيما لو استقرينا أحوال الأمم المرتقية منه على أن دستور الإنسان في حياته ، الذي يسيطر على سائر حركاته وسكناته ، هو غير دستور العالم الحيواني ولا هو ترق منه .

الحيوان لا هم له إلا خدمة الجسد ، وأداء مطالب البدن ، يعيش ويموت أسيره وخادمه ، والإنسان على الضد منه : له مرام أبعد مدى ، وأغراض أشرف مقصداً ، وهو طلب كمال يشعر به في صميم ذاته ، ويتنصرم لأجله في لباب كيانه ، وإن لم يستطع أن يصوره بصورة ، أو يقف منه وهمه على كيفية .

نعم خلق الإنسان مغرماً بالكمال ، ولهان به في كل حال ... فهو لا يأكل ولا يشرب ، ولا يسكن ولا يلبس ، ولا يحارب ولا يسالم ، ولا ينقض ولا يبزم ، بل ولا يماكر ولا يداجي ، ولا يدلّس ولا يحاجي ، وإن شئت قلت ولا يسرق ولا يقتل إلا وفي قلبه نار تدفعه لطلب الكمال ، وتزعه عن الوقوف

في الأحوال وإن غلط في اختيار الوسائل ، وارتكس بجهله إلى أخس المنازل .
طلب الكمال صفة من صفات الروح الإنساني ، ولازم من لوازم تركيبه
الروحاني ، بل هو النتيجة اللازمة لكل هذه العواطف والأميال والقوى التي
ركبت في هذا الغفود الخفاق الساكن بين الجوانح !

دع عنك لحظة ما تعرفه من حال الإنسان في جهله وعمايته ، وما تسمعه من
غيه وضلته ، وما أكسبته له التربية الرديئة من الصفات الحيوانية ، والأميال
السفلية ، كالإيغال في المآثم ، والإنغماس في أقذار الجرائم ، وأرجاس الذمائم ،
وانظر إليه بشراً سوياً خالصاً من مؤثرات التربية المعوجة والوسط المفسد ،
طاهراً من شوب التقليد والوراثات . ترَ كائنات أعطي من القوى والمواهب ،
ومنح من الملكات والبواعث ، ما لا يدخل في حسابان حاسب ، ولا ينحصر في
أبحاث باحث . ماذا ترى ؟ ترى إدراكاً لا تعجزه حقيقة ، وعقلاً لا تعمى عليه
معضلة ، وفكراً لا ترتد موجاته دون غاية ، وتصوراً لا تنتهي قواه عند نهاية ،
وخيالاً ليس لمراميه دائرة تنحصر فيها ، وأمياً لا تنتهي لها مطالب ، وقوى
لا تعييبها الرغائب ، وهو مع كل هذه العطايا في عالم لا تنتهي عجائبه ولا تقنى
غرائبه ، ولا تنضب مادة آياته ، ولا تفيض أمرار مدهشاته .

تأمل في هذا الكائن المتمتع بهذه المواهب ، ثم قل لي أي مطلب يليق أن
يتخذ له غاية في حياته ، وأي مرمى يصح أن يجعله غرض محاولاته ، وأنشودة
ملكاته ؟ قلنا : دع ما تعلمه من حالة الإنسان في الفساد والدنايا جانباً وقس لي
بعدها أي طلبة تليق أن تكون مرمى هذه الخلقة الشريفة ، ومطمح نظر هذا
التركيب البديع غير كمال مناسب لهذه الغرائز ، ولائق بهذه المنح والنحائز ؟

نعم ، خلق الإنسان وكل ما فيه يسوقه ويخزّه لطلب الكمال والجمال ، بل
ويهيئه ويدفعه في سبيله دفع الجوع للجوعان ، ويسوقه سوق الظمأ للظمآن !
ولكن :

فيا دارها بالحيف إن مزارها قريب ولكن دون ذلك أهوال

أي قلب لا يتفتت كمدأ وحسرة ، وأي حشاشة لا تذوب أسفاً وحزنًا ،
إذا علم الانسان من حال بني نوعه واستعدادهم لأسمى منصات الكمال ، ما أتينا
على طرف منه ، وإنهم قد وهبوا من الملكات والقوى ما يدفعهم إليه دفعاً ،
ويهيئهم له تهيئاً ، ثم يرى أن أكثر هذا النوع المكرم قد شاكل البهائم في شرها
ونهمها ، وضارع الوحوش في ضلالها وجهلها ، وأشبه الضياع في ضراوتها
وقسوتها ، وحاكى الشياطين في حيلها وخدعها ؛ وقد عكسوا كرائم تلك القوى
والملكات عكساً سقط بهم دون عالم الحيوان ، فروجوا بينهم ذمائم الصفات ،
وخسائس الأخلاق ، وقاسوا على مقتضاها معاملاتهم وأحوالهم ، ورتبوا على
أصولها قوانينهم وشرائعهم ، وحبسوا أنفسهم بذلك في مضيق لا يليق بكاملهم ،
ولا يناسب سمو حالهم !

هذا هو الذي كان يـلم بفكر المصلح الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم ،
فيجعل دائم الحسرة طويل الفكرة ، أسفاً على ما آل إليه أمر هذا النوع الكريم ،
وقد كاد هذا الأسف يؤثر على مزاجه الشريف حتى أن مبدعه جل وعز خاطبه
على لسان الروح الأمين قائلاً : « فلعلك باخع نفسك (أي مهلكها) على آثارهم
إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً » ، وقال تعالى : « فلا تذهب نفسك عليهم
حسرات . » فرجع عليه الصلاة والسلام إلى هذا الأدب الإلهي ، وعلم أن تلك
حكمة بالغة وإبداع لا يعلمه إلا هو ، فهو وحده المصرف للأمور ، العليم بصيور
الشؤون وأعقاب الأحوال ، سبحانه لا معقب لحكمه .

أنظر إلى هذه الفطرة الانسانية الكريمة ، وإلى ما تمتع به من قوى
ومواهب ، وإلى ما تليق له من عاليات المراتب ، وساميات المناصب ، لو أسلمت
وجهها إلى الله ، أي لو تخلصت من شائبات التربية الفاسدة ، وحررت من مؤثرات
العادات القبيحة ، والتقليدات المردية ، والوراثات المائلة بالملكات ، إلى غير ما
خلقت له من الكمال والاعتدال ، ثم قدر تلك الحجب الطينية الغليظة التي تحجب
عن هذه الفطرة الكريمة نورها الزاهر وجمالها الباهر ، وتأمل كما ينبغي أن تتأمل

في تلك الغياهب الشيطانية التي تحول بين المرء وقلبه ، وتهبط به عن أوج مجده .
واشكر الله على أن هداك للإسلام ، وأقامك على منهاجه ، وهل الإسلام إلا
إسلام الوجه إلى الله وخلع كل الوراثة والعقائد والمدرجات التي ما أنزل الله بها
من سلطان ، والقيام على صراط الإحسان في القول والعمل على ما يقتضيه قانون
الخلقة وناموس الحياة « ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن » .

إذا تأملت فيما قلناه ، ورأيت أنك بينما ترمي الإنسان نوراً صرفاً وجمالاً
خالصاً وكلاً بجحاً إذا هو بعدم إسلامه ، أي بعدم إسلام وجهه لله ، ظلمة متكاثفة
وقدراً محضاً ونقصاً يسفل فيه عن أخس الحيوان ، إذا تأملت في هذا وتعمجت منه ،
فإن أعجب منه بما لا يقدر أن الحد الفاصل بين هاتين الحالتين المتناقضتين عقيدة
واحدة قد تحل بصميم فؤاده فتمتلك سائر قواه فتوجهها إلى مصاعد الكرامة ،
ومعارج الجلالة فيعرج على أجنحها إلى الغايات القدسية ، ويتصل بالعوالم النورانية ،
وقد تتخلى عنه هذه العقيدة فتدعه لهواه فيهوي به إلى أسفل من دركات
الحيوانية ، ويفغره من عالم النقص إلى أخس المنازل ، ويتركه من مداحض
الأهواء في هوة ليس لها آخر .

هذه العقيدة هي الإيمان بالعالم الروحاني . وإليك البيان :

الناس أمام هذه العقيدة :

الناس بإزاء الاعتقاد بالعالم الروحاني ثلاثة أصناف : صنف يعتقدها اعتقاداً
ذوقياً فوق إقراره بها . إقراراً برهانياً ، بمعنى أنه لم يكتف بإقامة الأدلة على
حقيقتها وجعل دينه مجرد حفظ تلك البراهين والثروة بها كتابة وقولاً فقط ،
بل صدقها بالحجة والبرهان وعمل بما تقتضيه من الأركان ، فذاقها ذوقاً ذاتياً
فأنتجت فيه ثمراتها النورانية فسطعت في أعماق ضميره وأقصى ثنيات فؤاده .
ورجل لم يعتقدها ولم يصح لديه برهان على حقيقتها فكشطها من ذاكرته ،
ولم يعد يخطر بها بباله ، فلم يعمل بموجبها ولم يبين أموره على أصولها .

ورجل ثالث يعتقد بها بالوراثة عن آبائه وأجداده ، فاكتمل منها بمجرد وهمه بأنه واحد من حملة أمانتها ، وفرد من الأمة التي كانت تحمل علمها ، وتستضيء بمصباحها .

لا جرم أن لكل رجل من هؤلاء الثلاثة دستوراً خاصاً في الحياة يلائم مكانه من هذه العقيدة ، لا بد لنا من الإلماع إلى طرف منه تمهيداً لحل كل تلك الشبهة المتقدمة لارتباطها بهذا الموضوع تمام الارتباط .

حال المعتقد بالعالم الروحاني :

هو رجل لم يقف من هذا الوجود المحيط به في الدائرة التي تحددها له حواسه ، أي لم يقصر عوالم الكون على محض ما تبصره عينه الكلية وما تلمسه يده الغليظة وما يتأثر به شمه وسمعه وذوقه ؛ وعز عليه أن يكون من الجمود والغلظ بحيث يجزم بأن هذا الوجود الذي لا نهاية له لا يشتمل إلا عليه وعلى ما يمكن أن يحسه فقط ؛ وأنف تصوره أن يحكم على نفسه بأنه والحيوانات في مستوى واحد لا يمتاز عنهم في شيء مطلقاً كما يدعيه غلاة التاريخ الطبيعي ، وأبى فكره الطموح الجوال أن يزعم أن هذه الطبيعة المدهشة لا يصرفها ويحركها إلا نواميس طبيعية محدودة لا علم لها ولا اختيار ولا إرادة ، وأن كل هذه البدائع المحيطة بها من كل جانب ليست إلا مقتضيات تلك النواميس ونتائجها ، وتعاضى عقله أن يقبل تلك التعليلات الطبيعية التي جاءه بها أولئك الذين ذهب بصائرهم وطمس أفئدتهم ؛ لعلمه بأنها ثمرة الفكر ولا يخفاه كلالته حده ، وعجزه عن إدراك كنه الذرة البسيطة فضلاً عن الإحاطة بالكون والحكم عليه هذا الحكم الجائر .

علم صاحبنا كل هذا ، ثم نظر إلى تاريخ النوع الإنساني نظرة فرأى أن العقيدة بالعالم الروحاني قديمة وعامة في سائر الأمم ، فصعب عليه أن يزعم أن النوع الإنساني عاش كل هذه القرون الكثيرة مغموساً في بحار الخيال ، وواهماً

في أكبر مسألة تعنيه وتهمه . ثم ألقى بنظرة أخرى على تاريخ الإنسان ومر على أحوال أولئك الرجال العظام ، الذين ملكوا قياد الشعوب والقلوب في سائر الأجيال من لدن القدم لليوم ، وأحدثوا أكبر الحوادث الاجتماعية ، وهم الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام ، فرآهم كلهم مجمعين على وجود عالم روحاني فوق هذا العالم الجسداني ، ودعوا إلى الإعتقاد به كافة الناس فأحدثوا بهذه العقيدة أعظم القوارع الأدبية التي كان ولم يزل لها أكبر أثر في حال الإنسان وأخلاقه . فرأى أن مجرد حال أولئك الأنبياء والرسل إن لم يكن هو وحده أدل الأدلة على وجود ذلك العالم ، فلا أقل من أنه يستلقت إليه النظر ، ويوجه عليه الفكر ، ويميل بالعقل إلى ترجيح وجوده ، ويحبب إليه المتاع بشهوده .

جال صاحبنا هذه الجولات الطبيعية والتاريخية ، ثم عاد إلى نفسه ، فرأى أن الحياة الأرضية دار آلام وأحزان ، وقرارة أكدار وأشجان ، ومحلة بلايا وأرزاء ، تارة في النفس والمال وأخرى في الإخوان والآل ، وأن حوادثها سلسلة من أدوار وأطوار ، لا تنتهي حلقة منها حتى تبثدي حلقة أخرى ، والإنسان بين تلك الحلقات في حرب عوان ، وضراب وطعان ضد نفسه وأهله وبني بلده وإخوان وطنه وعموم نوعه ، وفوق ذلك كله ضد الطبيعة وعوارضها ، وهو من معمعان هذه المعركة الدائمة في تيار يجري به إلى حيث يجهل ، ويجول به في كل جدول ، يجتهد ليقف لحظة أو يرتاح هنيهة فيرى أن في وقوفه الهلاك المعجل والشقاء المسجل ، فلا يسهل إلا الاستسلام لدفع ذلك التيار ، فلا يزال يقذف به من جانب إلى جانب حتى ينتهي به إلى غاية حياته ، أو يصدمه في إحدى جمحاته ، صدمة توقف حركاته . ربما يكون هذا الرجل في أثناء دورانه هذا قد جاء بأولاد اندفعوا معه بهذا التيار نفسه ، وصار حظهم من الحياة لا يفترق عن حظه ، وكثيراً ما تمزقوا أمام عينيه فيكون أله مضاعفاً ، وحزنه وأساه ليس يسهل على الواصف .

رأى صاحبنا نفسه في هذه الحال ، فتحقق أن الحياة على هذه الصفة عبثاً

ثقيلاً ، بل بلاء وبيلاً وشرّاً مهولاً ، يحذر بالإنسان معها أن يحسد الفأرة في وكرها ، والنملة في مسكنها ، والحمامة في عشها ، بل والحجارة في جبلها ، والرمال في سهلها . وبينما هو يفكر في هذا الشأن ويبتئس من حالته ويحار إلى قيوم الوجود ليهديه في حيزته ، وينعشه من وهدته ، وإذا بصوت جهوري يرن له من أعماق قلبه ، ويصعد إليه من لباب معناه تالياً عليه قوله تعالى : « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً » ، فعلم عندها أنه مستودع أمانة جليلة ، وحامل سر عظيم ، فهمّ يتعرف تلك الأمانة ، ويدرك معنى ذلك السر ، ولكن أين العرفاء ، أين الأدلاء ، أين المرشدون ، أين الهادون الخيرون ، أين الحكماء الروحانيون ؟ فبينما هو يحار إلى الله بهذا القلب المنكسر ، واللب المنذعر ، وإذا بصوت كالأول صعد إليه من غيابة سره تالياً عليه قوله عز وجل : « الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس » ، فرمى بنفسه بين يدي أولئك الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام ، رجاء أن يأخذوا بيده ليقفوه من هذا الدوران الهائل ، وينقذوه من أسر هذه الحلقات الموبقة ، ولكن من الذي يقصد منهم وهم كثيرون ، ومن الذي يستمد من روحه وأكثر تعاليمهم قد حرفها المحرفون ، وبدلها المبدلون ، فإنه ليموج في متائه هذه الحيرة وإذا بإلهام يذكره بهذه الآيات : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » ، « إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم » ، « وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين » ، فلم يسعه بعد أن ظهر له وجه الخلاص ، وتراءت له سفينة النجاة إلا أن يعتصم بها من هول ذلك التيار الجارف ، ولكن هيهات .. كيف الوصول إلى سلم السفينة وهو من موج أحواله في هبوط وصعود ، ومن ثورتها في اضطراب يضيع الرشد والحيل ، ويفري باليأس عن بلوغ الأمل ، فبينما هو على مهواة القنوط وإذا بذكرته مرت به على هذه الآية : « قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله » ، « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » ، فعلم أنه لن يحرم من معونة مبدعه الذي خلقه ووعد به الهداية ، وصوره على هذا الإبداع وحاطه بحسن الرعاية ، فلم يزل يأخذ

نفسه بآداب القرآن ، ويستمد نور طه عليه الصلاة والسلام ، حتى هدأت تلك الزعازع ، وركدت هاتيك الزماجر ، وقد كان يظنها لا تهدأ ، ثم منحه الله كرامة السكينة في فؤاده بعد ذلك الجيشان الإبليسي ، والسكينة مشرق النور الإلهي ، ومهبط السر القدسي ، ومهب نسائم الطمأنينة والراحة « مسو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم » ، فازداد حباً في التأدب بآداب النبي الأعظم وتشبهاً بتعاليمه صلى الله عليه وسلم ، فنال على قدر ذلك قرباً من الحق الأقدم ، وتمتعاً بشهود الجمال الأقدس ، وبصراً بنور الخالق ، وشعوراً بلذة الرضا والاستسلام ، والتذاذاً بذلة العبودية ، وهياماً بما ينتظره في العوالم التي تلي هذا العالم « يهدي الله لنوره من يشاء » ، واكتسب ثباتاً في قوله وفعله ، ورزاقاً في فكره ونظره ، وزايلته تلك الحمى الشيطانية التي كانت تدفعه وراء المطالب الكاذبة ، وتستعبده للكلمات الوهمية الكاسدة ، وارتفع عنه ذلك الطيش الحيواني ، والنزق الجنوني ، والحرق الشهواني الذي كان يلعب به لعب الطفل بالكرة ، ويستطيعه استطرارة الريح للريشة ، فكان من الذين قال خالقهم فيهم : « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً » ، والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً . الآية » ، ثم كان من أثر تلك الحالة الكاملة عليه أن انفتح له من قبل عالم الجلال والجمال نافذة عليه يصل إليه منها نور يغمر فؤاده ، ويحميه من غاشيات الفتن المادية ، ومفسدات المطالب الجسدية ، ويحجب عنه أفاعيل الشياطين التي لا تفتأ تناصب الإنسان العداوة والحفاء ، وتنصب له أشراك المكر والخداع ، فيكون من هذا النعيم في حالة تغبطه عليها الأملاك ، وتخدمه فيها القوى الروحانية العلوية والسفلية ، وتخضع له نوااميس العوالم المعنوية والمادية مما لها نسبة بحالته البشرية .

هذا هو الرجل الذي يعتقد بالعالم الروحاني اعتقاداً ذاتياً ، وعمل بمقتضياته عملاً حقيقياً ، ولم يكتف بالثرثرة به لفظياً ، فهو يعيش عيشة مباركة طيبة حاصلًا على سعادتيه ، وفرحاً بكامل حالتيه « ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجزيه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » .

آثره في الوجود

يظن الذين لم يذوقوا طعم العقائد ، ولم ينتعش فؤادهم بسبحات نورها سواء كانوا من المنتسبين إليها أو من أصدادها ، بأنها تغض من طرف الإنسان عن الاحتفال بالعالم الفاني ، وتثبط من حركته عن الرقي في مجال الكمال الصوري الجسداني ، وهو زعم لا أساس له من الواقع ، وما يروى من ذلك عن بعض الأنبياء ، فإن صح كان ذلك خاصاً بزمانهم لحكمة يعلمها الله تعالى ، وهو أمر لا يبنى عليه حكم ، فإن تاريخ الرسل عليهم الصلاة والسلام عامة وتاريخ إمامهم وخاتمهم محمد خاصة يدل على أن أكبر الحوادث الاجتماعية التي بعثت إلى الكمالات الصورية والمعنوية تمت على أيديهم وبواسطتهم . على أنني لا أعني بالكمالات الصورية والترقيات المادية تلوين الأواني وتزييق الألبسة والتفنن في صنوف المآكل والمشارب ، وإقامة معالم المراقص والملاعب وتهتك النساء وذهابهن في الزينة والحلاعة كل مذهب . كل هذه الإفراطات يحذر أن تسمى نفثات شيطانية ونزعات حيوانية لا كمالات إنسانية ، وإنما أعني بالرقى المادي المتاع بالزايا العظيمة التي خلقها الله لنا في الطبيعة ، وصرف القدر الواجب من قوائمه في تحسين حياتنا الجسدية تحسيناً لا يفتن النفس والعقل ، ولا يعمدو على الشرف والعرض ولا يصرف الإنسان عن الجمال الباقي إلى الوهم الفاني « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق » .

إذا عجبت من هذا وقلت كيف يجتمع الزهد في الدنيا مع هذا السعي فيها ، قلنا :

الرجل الذي يعتقد بالعالم الروحاني يعلم تبعاً لذلك أنه النسخة الصغرى لهذا الوجود كله ، وخليفة الله عز وجل في أرضه ، وأنه قد منح من القوى المختلفة ذات القابليات العجيبة ، ما لا يحصره وصف الواصف ، أريد من هذا أنه كلما ازداد تنوراً بعالم الروح ، واستشراقاً لأنواره الباهرة ، ظهرت فيه قوى جديدة ، ومواهب لم يكن يحلم بها ؛ ويرى بالحس أن تلك القوى لم تخلق فيه عبثاً ، ولم توضع فيه ثنيات فؤاده جزافاً ، بل خلقت لأغراض يجب أن تسعى إليها ومرام.

لا تنفك تتطلع لها ؛ فيكون الذي يعتقد بالعالم الروحاني والحالة هذه مجبراً على إعمالها فيما خلقت له ، مسوقاً إلى توجيهها إلى مراميها التي طبعت عليها ، عملاً بشروط خلافة الله في أرضه ، وقياماً على صراط العدل الذي هو طريق حياته ونجاته . وبناء على هذا فيكون دأبه على إعمال قواه واستخدام مواهبه على النحو الذي صوره عليه مبدعه بقدر شغفه بكمال ذاته ، وكلفه بالصعود بها إلى العوالم التي يتوق إليها ، لأنه يعلم أنه لا كمال إلا بأدائها . ولا صعود إلا بالنهوض بأعبائها .

هذا سر تلك الهمم العلية والعزمات القوية التي تسوق أصحاب العقائد الحقّة إلى جلائل الأعمال في هذا العالم الأرضي مع زهدهم ، وتفاهة الطينيات في نظرهم .

الرجل من هؤلاء لا يستثمر الطبيعة لينال منها لذة ، أو يصيب منها وطراً ، فإن ما يشعر به من اللذة الروحانية تكفيه النظر للعالم وما فيها ، ولكنه يستثمر الطبيعة لكونه يعتقد أنه آلة من آلات الحياة ينشرها حيث يصل إليه إمكانه ، وأنه شعاع من نور الكمال خلق ليكشف الغم ، ويقشع الغياهب ، وأنه عامل من عوامل الحق أرسل ليقارع الباطل حيث كان وأنسى وجد .

أنا لا أدعي أن جميع أفراد الأمم ذوات العقائد الحقّة هم على هذا النمط من الكمال ، وإنما هذه الحال مخصوصة بأفراد من تلك الأمم يعدل الواحد منهم الألوف المؤلفة ممن ليسوا على شاكلته . فإذا كان منهم مائة في أمة عظيمة فإن إرادتهم القوية تستولي على مجموع إرادات الملايين من أبناء جلدتهم فيسوقونهم إلى حيث يريدون ويصبغونهم بنفس صبغتهم ولو تقليدياً ، وليس هذا بمعجيب بل هو أثر من آثار قانون الموازنة . ألا ترى أن من كان جسمه أقوى كان جذبه لمن هو دونه مناسباً لتلك القوة ؟ كذلك من كانت روحه أقوى جذب من هو أضعف منه لا محالة وحركه بحركته . ومن هنا ساغ لنا أن نقول أن روح خاتم النبيين محمد ﷺ أقوى الأرواح التي ظهرت في العالم لتأثيرها في الأرواح المحيطة بها تأثيراً لم يعد له مثيل في تاريخ الإنسان .

حال الذي لا يعتقد بالعالم الروحاني

حاله على الضد من سابقه بمعنى أنه وقف من وجوده في الدائرة التي حددتها له حواسه ، وقصر الكون كله على ما تبصره عينه وتلمسه يده ويتأثر به ذوقه وسمعه وشبهه .

بحث عن روحه وعن عالم الغيب فلم يحس بهما بواحدة من تلك الحواس فأنكر وجودهما ، وأراد أن يملأ وجوده ووجود الكائنات على غير الطريقة الاعتقادية ، فاخترع أسماء انتزعها من حال الموجودات وعلائقها ببعضها وسمماها نواميس طبيعية وزعم أنها قديمة كقدم جوهرها وهي المادة ، فزعم أنها هي التي أبدعت كل هذا الإبداع الباهر في ملايين لا تحصى من السنين ، وأن ليس الكون وما فيه إلا سلسلة غير متناهية . تولد الدنيا من الدنياوات فتعمل فيها النواميس المتسلطة عليها فتظهر عليها الكائنات الجامدة والحية ، ثم تلبث ما قدر لها أن تلبث ، ثم تتلاشى وتتحطم بمصادمة كوكب آخر لها أو بسبب آخر وهكذا الحال أبد الآبدين ودهر الداهرين ...

ولكن كيف العمل وهو من أدوار الحياة مسوق بنفس التيار الذي كان يسوق صاحبنا المعتقد ، ومن هم العيش ومنغصاته على ذات الحال التي وصفناها هنالك ! ويزيد عليها أمر أفظع عليه من كل ما سبق وهو اليأس من الخلاص !

يرى هذا الرجل نفسه من مضاضة العيش ولواعج الحياة على أحر من الجمر وأمضى من المهند المصقول ، ويرى المصائب تترى من بين يديه ومن خلفه عليه وعلى أهله وإخوانه وبني نوعه ، ثم لا يرى له من ذلك مخلصاً ، ولا يتخيل أن له منه معزياً ، ولا يتوهم أن وراء هذا الطور المضطرب طوراً من الحياة يرتاح فيه ، ويلتذ بانتظاره وتمنيه !

ينظر إلى مناجل الموت تحصد حوله الرقاب ، وتهدم القصور والقباب ، ويرنو إلى مقذوفات البلايا تهوي بالآرائك والعروش ، وتحطم الملوك والجيوش ، ويلتفت

إلى ما بين يديه وخلفه فيرى صرعى هذا العالم الفاني يستثيرون الذعر من أعماق الصدور ويستجيشون الخوف من الفؤاد الصخر ! ثم يلتفت إلى نفسه فيراها فضلاً عما هي عليه من الحال المقيم المقعد ، هدفاً لقارعة تذهب بأنفاسه ، وترجه إلى شك من الأرض لا يقيم بعده رأساً ، ولا يحير جواباً ، تتسلط عليه فيه الهوام والحشرات تستأصل عناصره وتمتص نخاع عظامه ، ثم يلحظ فلا يرى له من ذلك الأمر مخلصاً ولا مفرأ ، ولا يتصور دونه منجاة ولا مستقراً ، فكيف تكون الظلمة التي تلم بفؤاده والألم الذي يحل بمغناه ، والكمد الذي يستولي على لبه ، والنكد الذي يحيم على كيانه ؟

لا جرم أن كل هذه الأمور المزعجة تدفعه رغم أنفه لطلب المخلص في العالم المادي وتدفعه في ذلك السبيل دفعا قهرياً فينتجه بمجموع قواه إلى الماديات لتحسين حياته اتجاهاً جنونياً ، لا التفاتاً كالياً ، فينال منها شأواً لا يستهان به « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون » ، ذلك لأن الله سبحانه خلق الإنسان وقذف به إلى الأرض ، وركب فيه من القوى والمواهب ما يسيطر على قوى الطبيعة وتصلح لما فوق ذلك من تسخير القوى الروحانية أيضاً ، أو بالأقل لاستثمارها والاستفادة منها . فهو إن طلب الدين وحده ناله وإن طلب الدين والدنيا معاً حصلها ووجد من قواه ما يساعده على ذلك ، وإن لم يرد إلا الدنيا وحدها بلغ مناه منها فإن منح الله معروضة لكل من طلب ، كما قال سبحانه : « كلاً نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً . »

آثره في الحياة

تصنع ساعة من الساعات حال الذي يش من وجود الآخرة ، وهب أنك ممن لا يرى في الوجود إلا ما يحسه بمشاعره القاصرة ، وادفع بنفسك في معمران الحياة وويلاتها واستورد على فكرك اليوم الذي يلتف فيه الساق بالساق ، وتبلغ النفس التراق ، وتحيل مضاضة تلك اللحظة التي يحمد فيها الحس والشعور ،

ويدس فيها الإنسان الى أعماق القبور ، بعد سكنى القصور ، تاركاً مآلاً جمعه بعد طول التعب ، وأفلاذ كبد رباهم بالجهد والنصب ، وإخواناً شاطرم الحزن والطرب ، ومعاهد أوطار نال فيها الأرب ، قلنا تصنع أن تكون في هذه الحالة الحرجة ساعة من الساعات ، ثم انظر ما يلم بفؤادك من ألم ووجع ، وما يحيط بمنك من ظلمة وكرب ، ولكن لا تمجل بالخلص مما أوقعت نفسك فيه بل انتظر قليلاً ، وتأمل في ثورة عواطفك تأملاً طويلاً ، تر أن اليأس الذي خيم بفؤادك استحال إلى حمى تدفعك لتتلمس عن الآخرة عوضاً ، وتزعجك لترتاد عن الخلود بدلاً ، وتراك اندفعت اندفاعاً قهرياً لأن تحصل من لذائذ هذا العالم أقصى ما يصل إليه الإمكان ، وأبعد ما يناله الجهد والعرفان : تراك تستسهل خوض الصعاب والعقاب ، وتستهنون اقتحام المخاوف والأخطار ، جرياً وراء المطالب الكبار ، والرغائب الجسام ، ولسان حالك يقول :

وإذا لم يكن من الموت بد فمّن العجز أن تكون جباناً

وترى أن هذا اليأس نفسه قد ألبسك نفس الصفات التي تكسبها العقيدة للمعتقدين من حيث الجد لاستثمار الطبيعة ، ولكن مع هذا الفارق الجسم : وهو أن صفات المعتقد يكون سائقها أداء واجبات خلافة الله ، وتتميم نظام الوجود في أكمل معناه ، وتجليته في عالم الإمكان بأجل مجلاه ، والجري وراء الكمال الروحي باستعمال سائر قواه فيما خلقت له ، فيكون بذلك ساكن الفؤاد ، مطمئن الجأش ، هادئ الضمير ، غير مصاب بحمى الطلب ولا رعونة الحاجة ، خالصاً من نهم الحس وثورة المشاعر ، ناجياً من وخزات الشهوات وطعنات الأهواء . وأما غير المعتقد فيكون مسوقاً إلى العمل والإقدام بأغراض سافلة ، ومحفوزاً إلى الهمة ولكن بعوامل هائلة ، لا يفكر إلا في إيتاء جسده غاية لذاته ، وأقصى أمنياته ، فيلازمه الشره أينما سار ، وينغصه النهم حيثما دار ، يطلب فلا يجمع ، ويأخذ فلا يشبع ، له في كل نظرة وخزة من شهوة ، وفي كل لحظة طعنة من رغبة ، يريد أن يحصل ما يؤمله ، فإن ناله كان نيله سبباً لزيادة همه وتفاقم غمه .

من هنا ترى أنه ليس بمجيب أن ينال غير المعتقدين مدنية زاهرة ، وحضارة باهرة ، ولكن لا تنس أن بواعثها هو ما أصف لك ، ولذلك لا ترى فيها نصيباً للروح ، ولا قسطاً لكرائم العواطف . ترى أن الحق فيها مع القوة ، والحكم للسيف والفتوة ؛ الضعفاء فيها أسرى الأغنياء ، وعبيد الأقوياء ، يستغيثون فلا يفاثون ، ويأثرون فلا يجابون ، ويتعصبون فينهزمون ، ويضربون عن العمل ثم يرغمون ، فلا يكون لهم من حيلة بعد ذلك إلا العمل بمبادئ الفوضى ، يترصدون لقتل الملوكة ، ويعملون على ثل العروش ، وينابذون الأديان ، وهزؤون بالمعابد والكهان ، وينتظرون بالأمم الدوائر الجسام ، والخطوب العظام .

يشكو عقلاء هذه الأمم من سوء الأحوال ، ومن ضياع العواطف الغوال ، ويذكرونهم بواجبات الكمال والاعتدال ، وينذرونهم بسوء المآل ، ولكن من يسمع ومن يحجب ! القوم سكرى من حمى الشره والنهم ، وصرعى من دث الشهوات والفتن ، فلا يفيقون حتى تنزل بهم القوارع تتلوها القوارع ؛ وتوقظهم الحوادث تتبعها الحوادث : « لنذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون » وإلا فقد عرضوا أنفسهم لما حاق بالأولين من المكذبين : « فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم » .

المعتقد بالوراثة

هو رجل وجد أبويه على ملة من الملل فدرج عليها ثم كبر ولم يحكم فيها نظراً ، ولم يعمل فيها فكراً ، بل قنع من الحياة ونعيم الوجود بما حصله له آباءه من الرقي المادي فجعل هذا الميراث حظه من الدنيا ، ورام أن يبقى في يديه كما ورثه ثم ينتقل إلى أولاده وأحفاده لا ينقص شيئاً ، فأشبه في ذلك من يرث عن أبويه مالا فيجترأ به غير طامع في سواه ولم يدر أن حفظ المال يحتاج لعلم وعمل ، ويلزم لاستبقائه أو إنمائه حالة من الحالتين : إما عقيدة تعرفه أنه هو وماله الله ، وأن كليهما مخلوق لتنظيم ملك الله ، فيسعى له إقامة لأمر الله ، وردعاً عن مناهي الله ، فيكون كالمسلمين الأولين حيث انصبت إلى خزائنهم ماليات الأمم بمحض

قيامهم بخلافة الله. وإما أن يكون بلا عقيدة فيظن أن المال قوام الحياة، وقيمة الإنسان في الوجود، ودستور الأمم والشعوب، ومفتاح السعادة والنعم.. فيسعى لطلبه بكل الوسائل والحيل كما هو حال أكثر أمم هذا العصر. هذان هما السبيلان لاستغلال المال واستبقائه، كما أنها السبيلان لإيجاد كل مدنية واستمرارها. أما الذي هو لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء فلا يصلح أن يكون مستقلاً في نفسه لأن الأرض لأحد رجلين : إما لرجل يعتقد أن الأرض لله فيأخذها صيانة لأمانة الله وأداء لخلافته ، وإما هي لرجل يعتقد أنها جنته ومأواه ، وليس له غيرها إله فيتكالب عليها تكالب الضواري على فرائسها، ويبذل في سبيلها كل ما يملك من حول ومن حيلة .

أما صاحبنا الذي يعتقد بالوراثة فليس واحداً من هذين الرجلين ، إنه ليس بمعتقد لأنه غير عامل بعقيدته ، ولا جاحد لأنه مقر بقبح الجحود وبشاعته ، فهو وسط بين الإثنين وليس له إلا تحمل أحد النيرين : فإما أن يرضخ لسلطان صاحب العقيدة فيحبيه بحياته، ويصرفه بحركته، وإما أن يقع تحت ضرس غير المعتقد فيمزقه ثم يزدرده مع ما يزدرد .

نعم ، العقيدة بالوراثة ما لم يميزها الذوق الذاتي لا تفيد صاحبها في الدنيا شيئاً ، ولا أدري ماذا يكون نصيبه في الآخرة . لا تفيد في الدنيا لأنه محروم من دافع العقيدة ودافع الجحود معاً . لأن المعتقد له من شعوره بأنه خليفة الله في الأرض أكبر باعث على استغلال الطبيعة وإحياء موانئها والذهاب في الابداع فيها كل مذهب ، وتاريخ آباءنا الأولين أكبر شاهد ؛ وغير المعتقد له من يأسه من الآخرة أكبر سائق على التكالب على الدنيا والتنعم فيها بكل الوسائل الممكنة ، أما الذي اكتفى من العقيدة بمحض تذكره أن أبويه كانا مؤمنين ، فلا يحس بأثر دافع من دينك الدافعين ، فلا جرم لا يجد في نفسه لذة العقيدة ونورها الذي يضيء عليه مسالك الحياة ، ولا حمى الجحود ويأسه الذي يسوقه لكل ما ينعمه في دنياه ، وبناء عليه فلا يكون نصيبه من الحياة إلا التمتع المؤقت بميراث آبائه فلا

يلبث أن تغشاه غاشية من صولة الأمم الطامعة ، فتجعله لقمة سائغة وتذهب به إلى حيث ذهب الغافلون من كل الأمم .

الفضائل والذائل

قد أكثر الناس في هذا العصر خصوصاً من ذكر هاتين اللفظتين ، وجالوا بهما في كل مجال فنشأت بإزائها شبهة قوية في الدين يكثر ترددها على ألسنة المشككين ، فيقولون مثلاً : « إنكم تدعون أن الفضائل قوام الأمم وملاك الحياة ، وأن عدمها نذير التلاشي ومقدمة الدمار ، فما بالكم ترون الأمم التي تزعمون أنهم أحط منكم في الفضائل أو أنهم مغمورون في الرذائل قد سبقوكم إلى باحات الرفعة والعظمة وأخضعوكم لنيرهم ؟ » ، ليس حل هذه الشبهة بالأمر الهين إلا إذا أسسناها على قاعدتها الطبيعية ، وذلك لا يتأتى إلا بما قررناه آنفاً من أن الناس ثلاثة أقسام : قسم يعتقد بالعالم الروحاني ، وقسم لا يعتقد به ، وقسم يعتقد بالورثة فهو وسط بينهما . وقد قررنا بواسطة التحايلات الفلسفية أن لكل من المعتقد وغير المعتقد دافعاً يدفعه إلى الرقي والتقدم ، وأن رقي الأول يشمل الرقي الروحي والجسدي ، وأما الثاني فرقيه محدود في عالم المادة فقط ، وقلنا أن المعتقد بالورثة لاحظ له من أحد هذين الدافعين ، وأنه لا يليق إلا أن يكون تبعاً لأحد هذين الصنفين . والآن نقول : إن ذلك الدافع الظاهر الذي يدفع المعتقد للتقدم للأمام هو (طلب الكمال) بمعناه الحقيقي . هذا الدافع هو مبدأه الذي يسير على مقتضاه ، ويجعله دستوراً في كل أمر من أمور دنياه . وأما غير المعتقد الذي يرى نفسه مدفوعاً لتكميل بدنه وإشباع حواسه فمبدأه (تنازع الحياة) لأنه لا يرى سعادته إلا في نيل أقصى ما يستطيعه من المال والجاه ، فتراه ينازع الناس فيها منازعة اليأس المستमित بما يراه أحسن الوسائل .

هذان الدافعان دافع طلب الكمال ، ودافع تنازع الحياة ، دافعان عظيمان للحياة ، ودستوران كبيران للبقاء ، فهما من هذه الجهة فضيلتان طبيعيتان ، ولكنها لعالمين مختلفين . أما فضيلة طلب الكمال فهي فضيلة العالم الإنساني لأنها

تلائم سمو فطرته وتوافق جوهر عنصره ، كما أريناك ذلك في الفصول السابقة ،
وأما فضيلة تنازع الحياة فهي فضيلة العالم الحيواني بأسره ، لأنهم عاثشون بهذا
الدستور وهي بالنسبة لهم فضيلة طبيعية مقيمة لحياتهم ، ولا يصح أن نعبر عنها
برذيلة إلا بإضافتها للنوع الإنساني لأنها لا تليق به ولا تؤديه إلى غايته التي خلق
لأجلها . ومن هنا ترى أن للأمم الخيار في القيام على أحد هذين الدستورين لأنها
تحيا بكل منها حياة طبيعية ، ولكن مع هذا الفارق الجسم وهو أن الأمة التي
يكون مبدؤها (طلب الكمال) تنال كمال الروح وكال الجسد معاً ، كما حصل
لأتباع الرسل الذين يقول الله تعالى فيهم : « فأقام الله ثواب الدنيا وحسن ثواب
الآخرة » . وأما الأمة التي يكون مبدؤها تنازع الحياة ، فلا تنال إلا كمال
الجسد وحده ، كما قال تعالى : « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم
أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون » .

بيان لطبيعة هذين المبدئين

مبدأ (طلب الكمال) الذي هو دستور المؤمن ، يرتكز مباشرة على الاعتقاد
بأن الإنسان جسد وروح ، وأن روحه هذه هبطت إليه من عالم التقديس
والجمال لتبتلى في الدنيا إلى حين ، ولتتمم بهذا التدلي إبداعاً قدره الخالق لا يعلم
سره إلا هو ، وأنها بعد أداء وظيفتها في هذا العالم تعرج إلى عالمها على جناح
جهادها الحيوي إلى حظائر النور الأقدس ، في عالم فيه ما لا عين رأت ولا أذن
سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وتنضم هناك إلى أرواح عالية سبقتها بالكمال
والإيمان فتبقى معها بقاء أبدياً سرمدياً في نعيم مقيم ، وراحة لا يشوبها ألم . ولا
يخفى على الناظر أن هذا ارتقاء في الشعور ارتفع به الإنسان عن عالم الحيوان
الذي لاحظ له من الوجود إلا التكالب على إشباع كرشه وإيفاء حاجة حواسه .
أما مبدأ الذي لا يعتقد بعالم الروح فهو (تنازع الحياة) لا طلب الكمال .
وهو مبدأ مؤسس على الزعم بأن الإنسان لم يخرج عن كونه أرقى الحيوانات ،
ولا فرق بينه وبينها في شيء على الإطلاق إلا في كونه أرقى منها عقلاً وأوسع

إدراكاً وأقدر على استئثار الطبيعة بما وهب من الآلات الجسمانية ، وأنه ليس له من الحياة إلا ما قدر لجسمه من البقاء سنوات معدودة ، ثم إذا ما تحللت عناصره في الأرض ، ذهب كل عنصر إلى ما يشبهه من عناصرها ، وفني عقله وإدراكه وذهب إلى هوة العدم ، كما تذهب الدجاجة والهرة سواء بسواء ؛ وأن الإنسان لا مناص له من أن يكون مع معاشريه في حرب مستمرة ، ينازعهم الحياة وينازعون إياها ، والغلبة في هذه الحرب تابعة للقوة العضلية والفكرية ، فمن كان أقوى يداً وعقلاً كان أحق بشمرة الحياة دون غيره ، أما الضعيف في الجسم والفكر فلا يكون نصيبه من المعيشة إلا النكد الواصب والهم الناصب ، ولا بأس عليه بعد ذلك إن سئم الحياة وأرسل نفسه إلى عالم العدم . أما الصفات المحمودة والحاصل الشريفة فليست مطلوبة إلا لما تجر إليه من المنافع المادية والأدبية في دائرة هذه الحياة وحدها .

أصحاب هذا المبدأ لا يوجبون البشاشة مثلاً ، لكونها خلة من خلال الكمال التي يشاكل بها الإنسان سكان عالم التقديس وتهيشه لجوارهم متى فارقت روحه الجسد ، ولكنهم يوجبوها استجلاباً لرضى المعاشرين الذين يتعاملون معهم واستدراراً للربح منهم ومزاحمة لمن يؤدي مثل وظائفهم .

وبناء على هذا فالفضائل والذائل لدى أصحاب هذا المبدأ دائرة حول حطام الدنيا ونعيمها ، وهو بعينه مبدأ العالم الحيواني تقوم عليه طوائفه برمتها ، ولها العذر في ذلك فإنها محدودة القوى والمواهب محصورة العقول والملكات ، لا تشعر بغير ما تحس به ولا تتخيل مرمى وراء ما تنظره . أما الإنسان الذي لا يقف عقله عند حد ، ولا ينتهي تصوره عند غاية ، فأشد ما يظلم به نفسه أن يحشرها إلى أدنى من عالمها ، ويسلبها أشرف خصائصها .

هذا المبدأ الحيواني ، أي مبدأ (تنازع البقاء) ، يصلح لإقامة أمر الطوائف الإنسانية ، بل ويبعثها للرقى والفلاح في السعادة الجسدية ، لأنه لم يخرج عن كونه مبدأً طبيعياً يقوم به أشخاص لا يحصى لهم عدد من الكائنات الحيوانية ؛

ولكن فيه غبن فاحش على الإنسان ، لأنه بقيامه على هذا المبدأ لا يحصل إلا الحياة الدنيا ثم لا يزيله الهم والكدر طرفة عين ، ولا يدعه الكد والوحشة يطمئن إلى شيء ، وكثرة المنتحرين في الأمم القائمة بهذا المبدأ دليل محسوس على ما نقول .

أما مبدأ (طلب الكمال) فهو المبدأ الكامل الذي يليق بالإنسان ويحدر به ، لأنه يكسبه الحيائين معاً كسباً طبيعياً ، لأن الكمال في ذاته الغاية القصوى التي ينتهي إليها كل شيء ويخضع لها كل شيء . فما من شيء إلا وله كمال خاص خلق مسوقاً إليه ، فإما أن يحصله فيعيش على أكمل صفة من وجوده الخاص ، وإما أن تصرفه عنه الصوارف فلا يزال يتخبط في كيانه حتى يلفظه الوجود إلى تهوور العدم . ولما كان الإنسان أكمل الكائنات وجب أن يكون كماله أكمل الكمالات ؛ فلا جرم أنه متى تكل امتلك سر نواميس الكائنات التي في عالمه فتخضع له خضوعاً اضطرارياً ، فتأتيه الدنيا بحذافيرها صاغرة تقبل قدميه وتقف بين يديه ، ألم تر أن رسول الله وسلم لما نهض هو وأصحابه يؤدون واجب الطاعة لله في طلب الكمال خضع لهم كل شيء وخافهم كل شيء ، وانحدرت إليهم سائر خيرات الأرض المحذراً لم يُر مثله في تاريخ الفاتحين . فانظر كيف انهم قاموا لمحض طلب الآخرة ، فجاءتهم الدنيا صاغرة ، والأعجب من ذلك أنها هربت إليهم من أولئك الشعوب الذين كانوا يعبدونها ويسجدون لها ، ولا يعرفون لهم كالألسواها ، ورضيت أن تكون الخادمة الخاضعة لأولئك الفضلاء الذين كانوا يمجونها وينكرونها ، ولا يحفلون بالنظر إليها في حسننها وبهائها .

أما تلك الأمم التي تجعل مبادئها في الحياة كمبادئ الحيوانات المعجاء ، فلا يكون لها حظ إلا في الحياة الدنيا ولا تكاد تنالها إلا بانحاذها إلهاً من دون الله ، وصنما لا ترى لها ملجأ سواه ، وناهيك بما في هذا من الإذلال لتلك الجهة الإنسانية الشماء ، التي لم تخلق إلا لتحاذي السماء .

أما لو علم الإنسان أن مفتاح السعادة الحققة هو طلب الكمال وأن سبيله سبيل

الله لما أذلوا أنفسهم هذا الذل الفاضح ولطلبوه من صميم أفئدتهم فسالوا سعادتي الحياتين معاً ، وإلى هذا السر العمراني الكبير يشير الله تعالى بقوله : « من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة . »

المدنية الإسلامية والمدنية الحديثة

الإسلام دين الله ، وهو الحقيقة المطلقة التي استودعها من عهد نشأة الإنسان قلوب سائر الأنبياء والرسل الكرام « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً . الخ الآية » ، ولكن كانت أيدي تلك الأمم الجائرة تمتد إلى تلك التعاليم بالتحريف والتبديل رجاء أن يطبقوها على ما يناسب مقتضيات النقص الذي هم فيه ، ودام هذا الحال آماداً حتى اقتضت الحكمة الإلهية إيداع هذا السر الأقدس لخاتم أنبيائه ونخبة أصفياه محمد صلى الله عليه وسلم ، في كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وقد حماه الله من امتداد الأيدي المحرفة إليه ، وصانه من عدوان العادين عليه ، وهو إلى اليوم كما أنزل يقيم الحجة على الغالي والمقصر ، ويبشر المعتدل وينذر المعذر ، ويشير إلى الطريق الذي لا يضل سالكه ولا يخاف طارقه ، وهو طريق العدل المستقيم « وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » .

الغرض الأصلي من الإسلام تخليص الإنسان من قدر التربية الفاسدة ، وأثر الوسط الرديء ، ووضر الوراثة الساقطة التي تلم بمجموعها بفؤاد الإنسان فتحرمه من سبحات نور مبدعه ، وتعميه عن رؤية الطريق الذي دفعه فيه مولاه وهو الطريق الذي يقول عنه عز وجل : « إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً . » ، هذا السبيل هو سبيل الكمال ، هو سبيل الجمال ، هو سبيل الرحمة ، هو سبيل الهدى ، وإن شئت التعبير باللهجة الجديدة فقل هو سبيل التقدم ، هو سبيل التمدن . وهو السبيل الذي ساره خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم بوحى من مولاه فكان من شأنه ما كان ، وساره أصحابه من بعده فأصبحوا ملوك الأرض وملوك السماء .

أنا لا أريد بالمدينة الإسلامية والمدينة الحديثة مبلغ الرقي الصناعي في كليهما ، ولكنني أزيد الروح التي ساقط إليها وأقامتها على قطبيها . والسبب الذي يجعلني أفضل روح الأولى على روح الثانية ، هو لكون تلك مبدأها طلب الكمال بأخص معانيه وهو المبدأ الجدير بالإنسان المناسب لما وهب من المنح الجسام ، لدفعه الإنسان إلى طريق الحق والعدل وإكسابه حظ الحياتين معاً ؛ أما هذه (أي المدينة الحديثة) فمبدأها تنازع الحياة ، وهو المبدأ الذي بسطنا أثره في الفصول المتقدمة وقلنا أنه لا يناسب الكمال الفطري للإنسان ، وأن فيه غبناً عليه لعدم صلاحيته إلا لنوال الحياة الفانية دون الباقية . على أننا لسنا أول الناعين على هذه المدينة نقص مبدأها ، فإن عقلاها أنفسهم يشاركوننا في هذا النظر ، وقد نقلنا كثيراً من أقوالهم في ذلك في الأجزاء السابقة .

ربما يقول قائل : « إن كنت تنتقم على من يدعو إلى الأخذ بأسباب المدينة الجديدة والسير على قوانينها ، فهل أنت ممن يسهل عليه أن نبقي كما نحن تتناولنا الحوادث وتتقاذفنا المثالات ، ونحن بين ذلك في حال لا يرضى به من له مسكة من شعور ؟ ألا ترضخ لقول القائل من أننا في عصر لا مناص لنا فيه من تقليد المتمدنين في جميع شؤونهم بدون شرط ، لنستطيع مجاراتهم في الحياة وحفظ شخصيتنا بإزائهم ؟ » . نقول أننا ممن يرى أن دون التمسك بأصول المدينة الحديثة على علاقتها وبمحض الدعوة الإجمالية إليها عقبات اجتماعية وحوائل أدبية ومادية شديدة المراس ، بحيث أننا لو أضعنا وقتنا في محاولتها ومعالجتها ، لذهب تعبنا أدراج الرياح ولم نجن من وراء ذلك إلا تجريء أصحاب الأهواء إلى الجري وراء شهواتهم بغير مبالاة تحت ستار الفكر الجديدة وحجاب الأخذ بأسباب الحضارة . ألم تر أنه من يوم ظهور الدعوة فينا إلى لزوم التمسك بآداب المدينة الجديدة لم نحصل من ورائها غير الخسران والبوار ، ولم تفعل فينا إلا تشجيع الشبان والكهول على الانطلاق في ميدان الإباحة والحرية البهيمية ، بحجة أنهم طليعة النشأة الشرقية ، والسابقون الغيرون في طريق المدينة ؟ وماذا تنتظر لنا من النجاح والفلاح لو تبعتمهم البقية الباقية ؟

إذا تقرر هذا ، فعندي أن تداعينا إلى الرجوع إلى مبادئنا الأصلية القوية
أضمن لحياتنا وأقرب لإصلاح أحوالنا من تلك الثروة باسم المدينة الحديثة التي
رأيت من أثرها ما رأيت .

فإن قيل : « هب أنك غير واهم في قضيتك من إمكان الرجوع إلى الفضائل
الإسلامية الطاهرة ، وهب أننا أصبحنا كلنا فضلاء أتقياء ، فماذا يفيدنا ذلك
أمام قوة هذه المدينة الجديدة من حيث الصناعة وأساليب الاستثمار ؟ » .

نقول : أما كوننا غير واهمين في أن الدعوة إلى الفضائل الإسلامية تقيّد
فائدة عظمى في الرجوع إليها مهاقاومتها الأحوال السافلة التي وقعنا فيها ،
فذلك أمر ليس بمعجب ولا هو بدع في تاريخ الطوائف الإنسانية . فإننا من
المضائك الاجتماعية والارتباكات المادية والأدبية في الحال التي تصلح لتدفعنا
رغماً عنا إلى طلب التخلص وارتداد الملجأ بكل الوسائل . ولو درس الناس سر
التفاف الشعوب مجذافيرها حول المصلحين لرأى أن من أكبر أسبابها ما هم فيه
من الأخطار التي تهددهم بالزوال والتلاشي ، فإن الطبيعة الإنسانية مجبولة على
عدم الاستسلام للفناء إلا بعد نضوب مادة ما أودع فيها من المقاومة .
ونحن بما نراها فيه اليوم من الشعور بلزوم التخلص ، لا نظن أن بيننا وبين الأخذ
بالفضائل الحقّة إلا دعوة داع متعظ ، وإرشاد هاد مهتد . وليس بمعزّز على الله
أن يتلافانا بنبوغ أرواح كبيرة تنشر الحياة حولها ، وتكشف عن الأعين والعقول
تلك الغمم التي انسدت عليها من غاشيات الغرور والغفلة . أما الشك في أثر
الفضائل أمام قوة هذه المدينة فهو غمط لحق الفضيلة ، وجهل لأثرها على نفوس
الآخذين بها . أنا لا أعني بالفضيلة تلك الظواهر التي تبدو على بعض ضعفاء النفوس
كاللين والبشاشة والانعطاف والخ الخ من الأخلاق التي يظنها الناس فضائل ،
ويقيسون الفضلاء على أصحابها فيشكون في آثارهم في بناء صروح مجد الأمة
وإعادة شرفها . وأن لهم العذر في هذا الشك ما داموا لا يميزون بين الضعف

الذي يؤدي للحشمة والوقار واللين والهشاشة والسباحة ، وبين الفضيلة التي لا حد لسلطانها على النفوس .

أنا إن قلت فضيلة فإنما أعني بها تلك الروح السامية التي تهبط على النفوس فتزعج أصحابها عن الوقوف في قدر النفس ، والخوض في حمأة الدنيا ، وتهيب بهم إلى مسابقة الأمم في مزايا الحياة ، ونعمة البقاء ، وليس بعظيم على أمة تهبط عليها هذه الروح أن ترقى في السنة الواحدة ما لا يرقاه غيرها في قرن من الزمان :

ليس ما أقوله بالشعر ولا بالخيال ، فقد هبطت هذه الروح العالية على أصحاب المصلح الأعظم بواسطته صلى الله عليه وسلم ، وهم من القلة بحيث لا يتجاوزون عقود العشرات وحواليهم من الأعداء الألداء والصناديد الأقوياء والأضداد العتاة ما كان يكفي أن يزرع اليأس في قلوب أضعاف أضعافهم من ليسوا على منهاجهم فلا يعودون يذكرون النهوض ولا تنبأ ، ولكن روح الفضيلة قوة إلهية لا يعرفها إلا الفضلاء ، فلم تنزل تفعل فيهم فعلها حتى رأينا تلك الشرذمة القليلة جذبت إليها العواطف والقلوب ، وانضمت إلى أمثالها بسرعة مدهشة ثم تحركت حركة صارت بها صاحبة السلطان الأقوى على أكثر المعمور .

إن تعجب من هذا ، فأعجب منه رجل يرى هذا الأثر المدهش وينكر معه أثر الفضيلة أو يشك في أنها قوة لا تقف أمامها القوى ولا تمنع انتشارها الحوائل « أولئك حزب الله ألا أن حزب الله هم الغالبون » .

رجوع للمقصد الأصلي

يقول قائل : لقد طفت بنا من شعب المباحث في مناح شتى ومطارج بعيدة وجعلتنا بذلك كما قلت ، في دائرة محدودة يحيط بها البصر من أول نظرة ويستطيع قارئك أن يشطح معك إلى حيث أردت ثم يعود إلى مركزه على طريق مستقيم لا يتعداه ، إلا أنك قسمت الناس إلى ثلاث رجال وقلت أن أحدهم رجل يمتد بوجود العالم الروحاني وعامل بما يقتضيه اعتقاده ، والثاني

جاحد به ، والثالث يعتقدده وراثته عن آبائه وقومه فهو لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، ثم فصلت المبادئ الحيوية التي تنتج من عقيدة كل رجل من هؤلاء الرجال الثلاثة ، فقلت : أن مبدأ الأول (طلب الكمال) ، ومبدأ الثاني (تنازع البقاء) ، والثالث لا مبدأ له بالكلية ، ثم سرت في تفصيل هذه التقسيمات ما شاء الله أن تسيّر ولكن بقي عليك أمر أعظم خطراً وأشدّ مراساً من كل ما سبق ، وهو إقامة الحجة البينة على وجود ذلك العالم الروحاني ، ونصب الدليل الواضح المحسوس على أن الذي يعتقد به ليس يضرب في بيدا الخيال ولا يسبح في آل الوهم ، خلافاً لما يزعم أعداء العقائد ، وسامسة الإلحاد .

نقول نعم ، بقي علينا ذلك وهو المفتاح الوحيد لمغالق كل الشبه المتقدمة ولكن سلوكنا ذلك السبيل يستدعي توجيه نظر قارئنا إلى حقيقة رئيسية ، وهي أن نكران عالم الروح ليس بنتيجة علم من العلوم ، أو زبدة فلسفة من الفلسفات نشأت في قرن من القرون ووقفت حيث هي ، بحيث أن من قرأ ذلك العلم أو شارف تلك الفلسفة أنكر الروح والخلود . كلا ، وإنما ذلك الإنكار حال يعتري النفوس المستعدة له فيسلب عنها أجمل صفاتها وهي الطمأنينة للحق ويجعلها مسرحاً لشياطين الشكوك والريب ، حتى أن الواحد من المصابين بهذا المرض ليشك في وجود ذاته ووجود الكون المحيط به من كل مكان ، وقد حكى الله لنا الوصف المميز لهذا المرض ، فقال تعالى : « ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون » .

ذلك الحال الذي يحل بالنفوس وينشب فيها ، فيلفتها عن ذاتها ويطوح بها في متاهات الشك ، ومحارات الشبه ، ويحول بينها وبين أنوار الحق الواضحة ، لا يحصل من قراءة علم مخصوص كما قدمنا ، وإنما يحصل كما تحصل كل حال من الأحوال الإنسانية بواسطة أسباب كثيرة منشأها التربية والمعاشررون وروح المدنية التي فيها الأمة ، ومقام دينها السابق من الضغط على العقول والأفكار أو من الحرية والاطلاق الخ الخ من الأسباب التي تشكل الطباع والأميال ، وتصبها في قالب لا يقدر على بعضها أي علم من العلوم .

ومن ينتقد حال الأوروبيين في القرن الماضي والقرن الحالي ، كان ولم يزل يرى أن الإلحاد في بعض طبقات العامة أكثر منه لدى العلماء أنفسهم مما يدل تمام الدلالة على أن الإنكار لا يأتي من صفة العلوم وحدها بل من الأسباب الاجتماعية والأدبية التي تعيش الأمة في وسطها أيضاً .

وربما يظهر لنا بواسطة الاستقراء والتحليل أن تلك الأسباب الاجتماعية والأدبية أشد فعلاً في إحداث تلك الحال الإلحادية من العلوم التي يقصد بها بث الإلحاد والجحود بغاية الصراحة .

ذلك لأن سلطان العلم تابع لدرجة الإقناع ، والاقتناع كما لا يخفى ليس فيه الناس سواء بخلاف تلك الأسباب الاجتماعية والأدبية فإنها متسلطة على الكل على حد سواء ، بل هي العوامل التي تتلقى الإنسان وهو على حالة السذاجة الطفلية فتدشئه على قالبها ، وتخرجه على مقتضى أسلوبها ، فيشب متشبعاً بدرباقها وسمها ، ريان من صفوها وكدرها ، ولسان حاله يقول :

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلباً خالياً فتمكننا

إذا تقرر هذا ، ربما علم قارئنا أن سيرتنا في إثبات العالم الروحاني سيدفعنا رغماً عنا إلى درس تلك الأسباب العديدة التي تهيب النفوس لقبول مرض الإلحاد ، ولما كان عش الإلحاد الحاضر هو الغرب فسيكون كلامنا في تلك الأسباب موجهاً إليه إن شاء الله تعالى ، سواء فيما يختص بالأسباب العلمية التي هيأته كمنهج لامارك وداروين اللذين يزعمان أن الإنسان مترق من القرود ، ومذهب أجوست كونت وليتريه وغيرهما ، الذين قصروا العلم على الحواس الخمس وسدوا في وجه الإنسان نافذة النور السماوي ، أو فيما يختص بعاداتهم وأميالهم وبواعث مدنياتهم التي أصبحت فتنة العالم الأرضي اليوم .

نسلك هذا المسلك الشاق ، وكان في وسعنا أن نقصر على إثبات العالم

الروحاني بواسطة التحليلات العلمية والمقررات الفلسفية ، ولكن ما الفائدة من ذلك بعد ما علمنا أن الإلحاد أولى به أن يسمى حالاً تنتجه أسباب كثيرة ، من أن يسمى علماً تثمره المطالعة في كتب مخصوصة .

هب أن الناس كلهم أصبحوا يعتقدون بوجود العالم الروحاني ، فماذا يكون من أثر هذه العقيدة على أفعالهم ما داموا في هيئة من الحياة تبعثهم لصد ما يعتقدونه رغماً عن أنوفهم ؟ ألسنا نرى في أنفسنا أننا قد نعتقد في أمر من الأمور أنه حق وصواب وصدّه باطل وخطأ فنجد أنفسنا مسوقين لإتيان الباطل ، محفوزين لفشيان الخطأ ، بينما يكون قلبنا يتصرم أسفاً وندماً ، وإحساساتنا تحترق أسى وسدماً ؟ أليس ذلك نتيجة أسباب وعوامل تنشأ من طبيعة الحالة الحيوية التي فيها الأمة ؟

أما نحن فبدرسنا للأسباب التي تولد ذلك الحال السيء ، نؤمل أن نجعل أمتنا على بصيرة من الأمر قبل أن تتوغل في مظاهر هذه المدنية المنصبة عليها من كل مكان ، والله ولي المؤمنين .



محكمة مدارك الفلاسفة الأقدمين

في مسألة اللاهوت

أتينا في مبحث الإنسان على أكبر مدارك الفلاسفة اليونانيين في المسألة اللاهوتية واستعرضنا أمام قارئنا المناهج التي نهجوها في تقرير عقيدة وجود الصانع جل وعز ، فرأينا أن سقراط استند على البرهان الطبيعي والتاريخي . عرض بالأول على أنظار خصومه بدائع الصنائع في هذا الوجود ، واختار منها ما وسعه علمه فبسطه بسطاً جديلاً وألزم خصمه من تلك الجهة بلزوم الإعتقاد بوجود موجد لهذه الأشياء بمسكها بقوته ويمدها بحوله ورحمته . وحاول ببرهانه التاريخي أن يقنع مناظره إلى أن العقيدة مساك الأمم ونظام الأمور ، وأنها عامة في

سائر النوع الإنساني ، شائعة في كل أجياله ، واستبعد بذلك أن يكون النوع الإنساني كله مجعاً على غير حقيقة .

ورأينا من براهين أفلاطون وأرسطو أنها خرجا عن حدود البراهين الطبيعية ودخلا إلى متاهات الفلسفة الكلامية فتكلما عن لزوم وجود سبب أولي للأسباب الثانوية وبحرك أصلي يهب الحركة للحركات العلوية والسفلية ، ونهجا لبراهينها مناهج تقتضيها فلسفتها . وتستدعيها مداركها الخصوصية .

كل هذا أشرف عليه قارئنا تفصيلاً ولعله قد اتضح له مثلنا أن أحسن تلك البراهين كلها اسلوباً ، وأقواها على ذهن السامع تأثيراً ، وأشدّها لمقاتل الخصم المعاند إصابة ، هو البرهان الطبيعي الذي بسطه (سقراط) . وإن براهين أرسطو وأفلاطون رغمًا عن علوها عن متناول العقول الوسطى فيها من التعسف والافتيات والحكم على المجاهيل ما لا يخفى على ذي فطنة . ولا غرو بعد ذلك إن قلنا لقارئنا إن أحسن تلك البراهين أثرًا في الأمة التي نشأت فيها هي براهين (سقراط) ، فقد أصلى الملاحدة بها ناراً حامية نثرت نظامهم ، وحلت معاقدهم ، وأخذت بمتنفسهم ، ولم يأمنوا شره إلا بوسيلة لا يستعملها إلا الجبناء السفلة ، وذلك بالوشاية في حقه لدى حكومة تلك العصور ، وانهامه بالإلحاد في آلهتهم ، فانصاعت تلك الحكومة الجاهلة لمزاعمهم وحكمت عليه بالقتل سماً ، فتجرعه بصبر الحكماء ، وثبات أصحاب الاعتقاد وهو يدرس كما قلنا لتلامذته في السجن خلود النفس بعد الموت .

ذلك لأن سلوك مسالك الخفاء ومناهج الاغماض في البرهان على مسألة كالمسألة اللاهوتية هي أجلى المسائل وأوضحها ينقل تلك المسألة من حيز الوضوح والجلاء ، ويحشرها إلى عالم النظريات والظنون وهناك يتسع فيها المجال للأخذ والرد ، ويشتد فيها الحجاج بين قبول وصد ، ويظن كلا الحزبين أنها في موضوعها الأصلي وهما في الحقيقة قد خرجا إلى غيره مما ليس بينه وبين ما كانا فيه أدنى علاقة ولا نسبة . ثم لا يكون من وراء كل هذه الجلبة والصياح إلا تثبيت الملحد في إلحاده ،

وإبقاء الجامد على جموده ، وخروج المؤمن منه وقد أضع وقته ، ورضي! من
الغنيمة بالإياب .

ذلك لأن النفوس من جهة الاستعداد للعقيدة وعدم الاستعداد لها تنقسم إلى
ثلاثة أقسام : قسم مستعد للإيمان بالفطرة ، وقسم غير مستعد له بالفطرة ، وقسم
جامد ساذج .

النفس المستعدة للإيمان بالفطرة

هذه نفس كريمة رقيقة الإحساسات ، دقيقة الشعور ، حية العواطف ،
كثيرة الإنفعالات بالفواعل ، جوالاة لا تقف عند حد ، تواقاة لا يقنعها غاية تصل
إليها ، عالية لا ترضى بشيء ولو سمت على السالك الأعزل ، وحلت بين الملوك في
المحل الأول ، بعيدة الآمال لا يسع هذا العالم المادي بعض ما تتوق إليه وتتمناه
من صنوف الكمال والجمال ، واسعة الخيال يضيق هذا الوجود المحسوس عن
مضطرب خيالها ، ومختلف أحلامها ، شديدة الحرص على الحقيقة فلا تقنعها
قشور الأمور ، ولا ظواهر الشؤون ، فهي تميل دائماً لثقب الأغلاف ، وهتك
الحجب توصلاً للباب ما تبصره ، وكنه ما ترمي إليه ؛ رحيمة الفؤاد تكاد تذوب
أسى على نقصان الناقص ، وأسفاً على عيب المعيب ، ولولا شيء من العلم يريها أن
الله أرحم الراحمين ، وأكرم الأكرمين ، لقضت أيامها حزناً وكمداً على جهل
الجاهل وغرور الغافل ، وميل المائل .

هذه النفس تعشق الكمال وتتحرق لنيله ، وتهوى الجمال وتفنى شوقاً
لاستشراقه ، وتحس بالفضيلة وتتلطف للوصول إلى غايتها ، وتشعر بجلالة العلوم
وتتضرم للسبح في لجتها .

تنظر إلى أديم السماء الناصع والشمس في أبهة لألائها، تختال في غلائل أشعتها،
فتود أن تنفذ إلى سر هذا الفضاء الفخم فتردها أنوار الشمس حسرى ، تذرف
دموع الهزيمة وتسكب عبرة الخيبة ؛ إلا أنها تجرد من ذاتها قوة أقوى من قوة

البصر بما لا يقدر وهي قوة البصيرة ، فتصعد بها على أجنحة التأمل والاعتبار ؛
تطير من أفق إلى أفق ومن سماء إلى سماء ، وإلى أين ؟ عند ذاك تصيح هل من
نهاية ؟ هل من غاية ؟ هل من حد يقف التصور عنده ؟ هل من تخم يرتد الفكر
بعده ؟

تنهزم هذه النفس من عالم الحس فتعثرها دهشة القصور ، ووحشة التقصير ،
فتميل لتعويض ما فقدته من شممها بإدراك سرها ، فتنزل إلى عالمها في سويداء
فؤادها ، وتقطع دونها علاقات المحسوسات وشواغلها فتغوص في بحار معانيها على
قدر ما تسمح لها به قواها فلا تجد نهاية ترتد دونها ، ولا غاية تقف أمامها ،
فتقف حيرى لا تحير جواباً ، ولا تستطيع خطاباً ، ثم ترتد إلى حالها الأولى
حائرة بين عالين لانهائين ، عالم محيط بها ، وعالم في داخلها هي محيطة به ، لا
تدري أيها أصل لصاحبه ، فلا تسل بعد ذلك عما يساورها من أرق وضجر ،
وما يلابسها من ألم وسهر . لفوات مطلوبها ، وعجزها عن نيل بغيتها .

هذه النفس لا تقنع بعد هاتين الحيتين التي صادفتها بلزوم السكينة ،
والمعيشة كما يحىء ولو على غير طمأنينة . هيهات ! بل لا تزال تترامى طوراً في
مهايع هذه اللانهاية السماوية ، وآخر في مضارب هذه اللانهاية الفؤادية ، وكلما
تخيب تنن ولكن لا أنين اليائس ، وتحن إلى مطلوب ولو لم يكن متميزاً .

هذه النفس الحية المضطربة لا تطمئن إلا إذا وجدت العقيدة ، ولا ترتاح إلا
إذا سلكت مناهجها الرشيدة .

هذه النفس في كمال خلقها أو استعدادها للكمال تحتاج لغاية كاملة مركز فيها
نهايات أخلاقها ، وتجعلها قبة لصاعدات عواطفها وإحساساتها ، وهذه الغاية لا
تقنعها ، لما اتصفت به من العلو عن المحسوسات والماديات ، إلا إذا كانت أعلى من
كل خيال يضطرب في ذهنها ، وأسمى من كل كمال يحيش في صدرها ، وليس
كذلك إلا الله وحده فهو كل الكمال ، وغاية الجمال ، سبحانه وتعالى .

هذه النفس في لطافتها ورحمتها ورقة عواطفها وجمال جوهرها ، تنظر إلى الكون فيشوق عليها أن تعتقده خالياً من إله رحيم ينشر على المخلوقات أشعة رحمته ، ويقيم أمورها بحوله وقدرته ، ويفيض على أصنافها من إفاضات عنايته ورأفته .

هذه النفس الطاهرة لو اتفق وأقنعها مقنع جـداً بعدم العقيدة ، اضطربت وتألمت ، وتخبّطت وتوجعت ، ولا تزال كذلك حتى تجسد سلام العقيدة على صدرها ، وتحس بريحانيتها في روحها ، وإلا عاشت منفصة متألمة لا يرتاح لها بال ، ولا يقر لها قرار .

هذه النفس الكريمة هي النفس الإنسانية السليمة من آفات النقص ، وعوارض الخداج ، فهي بطلب العقيدة إنما تؤدي وظيفتها التي خلقت لها ، كما تؤدي العين وظيفتها بإبصار المبصرات وإدراك الألوان والأشكال .

إذا تقرر هذا فما فائدة البرهان الفلسفي لمثل هذه النفس المؤمنة بالفطرة وليست في حاجة إليه بوجه من الوجوه ؟

هذه النفس لا تنتظر البرهان لتؤمن بخالقها ، فهي مؤمنة به بذاتها كما قرنا ذلك ، بل هي ذاتها أصرح البراهين على وجود مبدعها فلا ترى في البراهين الفلسفية إلا إضاعة الوقت فيما لا يجدي ولا ينفع ، بل ربما عدتها ضرراً على العقيدة لإغماضها في طرق الاستدلال ، وسلوكها مخالجات الخفاء في أمر هو من الواضح بحيث لا يحتاج إلا إلى محض استلفات ، كقوله تعالى : « أفي الله شك فاطر السموات والأرض » ، « كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم » .

النفس الكافرة بالفطرة

هذه نفس مظلمة خشنة الإحساسات ، غليظة الشعور بكل ما لا يؤديها إلى لذة جسدية ، أو شهوة حيوانية ، قليلة الانفعالات بالفواعل إلا ما يدفعها لغشيان قبيح أو إثبات أمر منكر ، جـواله لا تقف عند حد ، ولكن في الأميال السفلية ،

والمطالب البهيمية ، تواق لا يقنمها غاية ، ولكن من غايات هذا الجسد المظلم ولذاذده ، سافلة ترضى بالهون متى لم تجد فيها القوة الحيوانية لبلوغ مآربها ، فإذا آنست من نفسها شيئاً من الحول والحيلة نهضت نهضة البهيمة المفترسة تعدو على الأموال والأعراض والأنفس ، لا ترتدع بزاجر قلبي ولا تنتهي ببناء وجداني ، شديدة الحرص ولكن على ما فيه لها منفعة عاجلة ، أو طلبه سائفة ؛ وقافة مع الحس ، مرتظمة في أحوال المادة ، يكفيها من معاني الأشياء الغلف الظاهرة والحجب الساترة ، إلا فيما يختص بلذات الجسد وشهوات البدن ، فتراها ثقابة للحجب ، هتاكة للأستار ، سبارة للأغوار ، غليظة الكبد ، تنظر للبؤساء نظرة المتشفي الشامت ، وتلحظ الزمنى والهلكى لحظة المنتقم الأثر ، ولولا شيء من الخجل من الناس لأعلنت على رءوس الأشهاد أنها ترتاح لرؤيا المصائب السود ، وتطرب لذوب المهج والكبود ، وتود لو جاء طاعون قتال فاجتاح الناس أجمعين لكيلا تبقى إلا وحدها ومن يكون وسيلة لتكميل لهوها ومرحها .

هذه النفس لا تدرك الكمال الخلقي فلا تحبه ، ولا تعرف الجمال المعنوي فلا تهواه ، ولا تشعر بالفضيلة فلا تتمناها ، ولا تحس بجلالة العلوم من الجهات الروحية فلا تريدها اتملك الفائدة بل تريد العلوم لتسهل لها نيل وطر مادي ، أو تكميل حظ دنيوي ، تنظر إلى استبرق السماء ، وتلحظ مجالي الغزالة في تنقلها في ذلك الدست الماسي المشرق ، فتود أن لا تشرق إلا عليها ولا تنير إلا حوالها ، وتقف مع حسها لا تود النفوذ إلى ورائه لا بالبصيرة ولا بالبصر . فهي إذن لا ترى اللانهاية الحسية والمعنوية ولا تريد أن تراها .

هذه النفس الحرجة الضيقة الظلمانية لا تحب أن ترى الوجود إلا على قدر عقلها فهي لا تحس بهزية أمام لانهاية ، ولا تعترتها وحشة القصور الذاتي الذي يدفع صاحبه إلى التكل ، ولا تلتجىء إلى سويداء فؤادها لتبحث عن سر ذاتها ، كل ذلك لا فائدة منه لها ولا ترى له وجهاً في تتميم نظام شؤونها . فهي إذن لا تعرف تلك الحيرة التي تلم بالنفوس العالية طلباً للسكون إلى نقطة ؛ والركون

إلى حقيقة . نعم إنها تحس بنوع من الحيرة ولكن فيما يختص بأمور ذاتها المادية ؛
وأحوال حياتها الدنيوية .

هذه النفس الجامدة الراكدة ، الحشنة الخامدة ، لا تبحث عن العقيدة ، ولا
تسمع لمن يدلها عليها لفقدانها معنى الكمال الذاتي ، ومغزى الجمال الأدبي . قلنا
أن العقيدة ضرورية للنفس الطاهرة الكاملة لتكون كقابلة تتوجه النفس إليها في
توقها للكمال الأقدس ، واشربائها للجمال الأقدم ؛ أما النفس الكافرة فهي من
النقص والقبح في الحضيض التي وصفته لك ، فكيف تتطلب العقيدة .. وهي غاية
الكمال ونهاية الجمال .

هذه النفس كافرة بالفطرة ، فهي مظلمة معتمة ، لا تدرك النور ولا تبحث
عنه ، وإن حِيلَ إليها فلا تدركه ولا تحس به ، وأصحاب هذه النفس مغنيون
بقوله تعالى : « إن تدعوم لا يسمعون دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم
القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير » .

هذه النفس لا تفيدها البراهين الفلسفية بل تزيدها مرضاً على مرض ،
وتكسبها ظلمة على ظلمة ، ولا يرغب من معاطس أصحابها ، ويكسر من خراطيمهم
إلا البرهان الطبيعي المحسوس ، حتى أنك لو برهنت لأحد هؤلاء الملاحدة وجود
الصانع بالبراهين الفلسفية وسلكت معه مسالك المنطق ، لوجدته يطير فرحاً
لعله بأنك أفسحت له مجال القيل والقال ، وساويته في الاقرار بأن حقيقتك
تحتاج إلى جدال ، ثم لرأيته رفع عقيرته وزجر ، وهز رأسه وتجبر ، وأخذ يرد
عليك رداً ، ويوسمك تأنيباً ونقداً . ولكنك لو تركت له مجال التعسف في
التفلسف ، وحاكمته للحس والعيان ، وخاطبته مخاطبة الإنسان للإنسان ، وتاجيت
منه الوجدان ، بلسان الوجدان ، لرأيته نكص على عقبيه وانهزم ، ونكل عنك
وانصدم ، وغاب عنك وله رسيس في الصدر يذيب الحجر ويهد الجبل .

النفس الجامدة بالفطرة

بقي نوع ثالث من النفوس هي النفوس الجامدة بالفطرة، الجامدة من أصل طبيعتها. وهي بين النفوس الكافرة والنفوس المؤمنة في مركز لا تغبظ عليه ولا تنهأ من أجله.

النفس المؤمنة نفس عالية كريمة لها لذات روحانية لا تعبر بلسان ولا تعرف إلا بذوقها بالوجدان، ولها إشراف على علم كل ما فيه جمال وكمال، وعظمة وجلال، وهي بين جسمها وبينه طوراً في شقاء وآخر في صفاء، آونة في نصب وأخرى في راحة، وذلك تبعاً لأحوال الجهاد الذي هي فيه، وشؤون العالم الذي تعمده وتحببه. والنفس الكافرة وإن لم تكن نفساً شريفة ولا عالية إنما لها عالم ظلماني خاص بها. فيه صور من لذات لها وهمية، وأشكال من موهات طينية وقتية، فهي توهم نفسها بالسعادة وإن لم تذوقها، ويخيل إليها أنها على مقربة منها وإن كانت تدابرها وتبتعد عنها، فهي تعيش عيشة مصطنعة وهمية، وتحيا حياة ملفقة سرابية. إن فاتتها لذة المعاني الروحانية، ولآلاء المراتي السماوية، اعتاضت عنها بأنوار الكهرباء وأضواء الثريات، والملاعب التياترية، والمظاهرات العبدية، وحسوا السلافة الحقيقية. وغير ذلك من الملهي الوهمية. وهذه الظواهر الفاتنة الساحرة وإن لم تكن ذات فائدة حقيقية للروح الإنسانية، لكنها لا تخرج عن كونها لذات وملهيات، فيها للنفس مسرح ومجال. أما النفس الجامدة فأمرها علي غير تلك الشاكلة. ليس لها استقلال في ذاتها، فيقال أنها من عالم قائم بذاته له شؤون وأحوال مثل كل العوالم الأخرى، ولا هي تابعة لطبقة من النفوس خاصة حتى يقال أنها محكومة بسننها، مقودة بقوانينها؛ وإنما هي نفس لا صفة فيها ولا خاصية، كأنها لم تستكمل شروط النفس الإنسانية فيكون صاحبها إنساناً، ولم تهبط إلى الدرجات السفلية فيكون صاحبها حيواناً. وإنما هو شيء يشبه الإنسان، ويسفل عن الحيوان في كثير من الأحوال.

هذه النفس الناقصة لا تحس بحاجة روحية مطلقاً فتتوق إليها. ولا تهوى

معنى من المعاني فتتلف عليها . وكيف يتوق الإنسان لما لا يحس بلذاته ، أو
يهوى ما لا يخطر بمخيلته ؟

هذه النفس لاتهمها أي مسألة من المسائل الإنسانية الكبرى ، فلا تتبصر في
الوجود ولا تتأمل الكائنات ، ولا ترفع طرفها إلى السماء ، ولا تلقي ببصرها إلى
الأرض ، بقصد استكشاف سر أو وقوف على أمر . وإن نبهها إلى ذلك منبه له
سلطة عليها من وجهة من الجهات لبت طلبه بتثاقل ، فإن همت بالفعل أحست
بكابوس على نفسها وثقل في أعضائها ، وخود يدب إلى سائر جثائها ؛ حتى لو
أدمنت النظر ، وأعملت الفكر يخشى أن تسقط مغشياً عليها ، أو تخرق ثمة لا
تستطيع حراكا . ذلك من تكلفها ما ليس في طبعها ، وتعملها ما لا يوجد في
كيانها .

هذه النفس تعيش ما تعيش وهي في يقظة تشبه النوم من أكثر الوجوه ، ولا
تعلو في إدراك الأشياء وتعقلها عن حلم النفس المؤمنة أو الكافرة ، فهي في نوم
مؤبد تمر بها الأشياء مرور الأشباح على بصيرة المضطجع وقت القيلولة وهو بين
اليقظة والاعغاء ، وهكذا تمر حياتنا سنة بعد سنة وعاماً بعد عام وهي في مركز
طفوليتها الأولى لم تتحول عنه إلا في مقتضيات نمو أعضائها الطبيعية ليس إلا .

هذه النفس تسمع بالدين وقد تنسب إلى مذهب من المذاهب الاعتقادية المنتشرة
بين البشر ولكن ذلك منها تقليد اضطراري ، وعمل آلي لا تعقل معه ولا فهم .
وتراها تصلي مع المصلين وربما سبحت مع المسبحين ولكنها إنما تفعل ذلك مسوقة
بعوامل الوراثة القاهرة ، مدفوعة بفواعل المحاكاة الطفلية ليس إلا .

هذه النفس ليست مستعدة لشيء من الأشياء المعنوية سواء كانت اعتقادية أو
إلحادية ، فهي لا تنبغ في علم من العلوم ، ولا تبرز في فن من الفنون ، ولا تفيد
الامة التي هي منها إلا بأمور مادية محضة تعملها عملاً حيوانياً مسخرة لا مختارة .
هذه النفس هي المعنية بقوله تعالى : « أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون
إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً » .

هذه النفس إن تفضلت عليها بدعوة إلى الإيمان فلا تحدث نفسك بدعوتها إليه بالفلسفة والمنطق ، فربما نامت قبل أن تكمل حديثك ، واعد إلى البرهان الطبيعي ، فاسرده عليها سرداً خروجاً من الإثم ليس إلا .



نظرة على ما سبق

رأيت من التقسيم الذي مر لك أن النفس على أي حالة من أحوالها لا تود البرهان على عقيدتها إلا طبيعياً محسوساً ، لا فلسفياً غامضاً . وكلما ابتعد أصحاب الاعتقاد في حفظ حقائقهم عن الفلسفة ، وقضايا الجدل ، سلموا من آفات الافتراقات في الدين ، والتحزبات في المذاهب .

هذه هي الخطة الإسلامية التي بعث الله بها سائر الأنبياء ، فأضاعها أتباعهم ، فبعث الله بها أخيراً خاتمهم وإمامهم سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم ؛ فأدى أمانتها أحسن أداء وجلب بها للنوع الإنساني خيراً في العقيدة والأخلاق والشرعية ما كان يحلم به فلاسفة العالم ولا يضطرب لهم به أمل .

جاء النبي صلى الله عليه وسلم والناس من أمر الدين وطرق الوصول إليه في حنادس حالكة وظلمات متكاثفة . هذا يعدد في الآلهة ، وذاك يشبه الله بمخلوقاته ؛ ويعطيه صفات عباده ؛ وذلك يتخيله على ما يحدده له وهمه ، وتتردد به أخلاقه ، والكل مطيعون منصاعون لرؤساء اتخذوا الدين وسيلة للسلب والسطوة ، وجعلوا العقائد أحابيل للقهر والسلطة ، فعلوا عن مستوى العامة حتى صاروا كأنهم من نوع أرقى من نوعهم ، حتى ادعوا أنهم وسطاء بين الله ومخلوقاته وأنهم مهيمنون على مقادير عباده . فإن جال في صدر أحد مرؤسيهم

شك أو دبت إلى نفسه شبهة ، كان السيف إلى عنقه أسرع من سماع الإجابة عنها بأذنه . فإن تفضلوا بشيء من ذلك في كتبهم صوناً للعقائد ، وحفظاً للتقاليد ، أتوا بكسف من الغياهب يتلوها كسف ، وقطع من الدياجير الحالكة يتلوها دياجير أشد منها سواداً ، بحيث لو ألقى الإنسان عليها بصره غار في ظلمات ، فإذا هم عقله بإنقاذه منها غرق فيها معه وسبحاً معاً في عيلم لا قاع له ولا ساحل ؛ وصار بين أمرين : فإما أن يبقيا في تلك العماية طول حياتهما يقاسيان لواجع تلك الغيابة الحالكة ، وإما أن يعودا فلا يذكر الدين بعدها لما قاسوه أول مرة ؛ فيكتمان ما يلم بصدرهما حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً .

جاء النبي صلى الله عليه وسلم إلى الأمم وهم بهذه الحالة السيئة من جهة أشرف الأشياء على أنفسهم وأعزها على قلوبهم ، فقال عن لسان ربه : « يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً ، فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً » ، « هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين » . ثم جرى صلى الله عليه وسلم على طريق الإسلام متبعاً وحي ربه في الدعوة ، مؤتمراً بهذه الآية « أدعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين » .

التفت الناس إليه صلى الله عليه وسلم بعد ما أظهره الله على أعدائه وجعل كلمته هي العليا فإذا معه أنشودة الروح ، ومطلوب الفؤاد ، وضالة العواطف ، ومفقود الفطرة الإنسانية . وما هو ؟ دين واضح ، وشرع حكيم ، وعقائد مثبتة بالحس ، وأوامر لا يتجنبها إلا المجنون لوضوح حكمتها ، وجلالة أثرها ، ونواه لا يغشاها إلا المصاب بعقله لظهور ضررها ، وشيوع قدرها .

دين يدعو إلى الله الواحد المنزه عن كل ما يحيش بالفؤاد من صور وأشكال ومقتضيات وشؤون لا تليق بمقامه . ولم يكلف النفوس بما ليس في طبيعتها إدراكه من العوالم التي تعلو عن مداركها ، فما الذي يمنع النفوس من الترامي عليه خفافاً ، والهرع إليه بكل ما تمتلك من حول وقوة ؟

هذا هو الذي حصل في العالم ، فإن النبي عليه الصلاة والسلام لبث في أمته ثلاثاً وعشرين سنة داعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً لهم ، فلم يدعه الله إليه حتى كانت الأمة العربية بأسرها تعبد الله لا تشرك به شيئاً ، وهذا أثر لم يحصل في أية أمة من أمم الأرض . لا على يد فيلسوف ولا على يد رسول من الرسل عليهم الصلاة والسلام . ولم ينتقل النبي صلى الله عليه وسلم إلى الدار الآخرة حتى قام بعده خلفاؤه بالأمر ، ولم تمض مائة سنة حتى دخل في الإسلام طوعاً لا كرهاً مائة مليون من النفوس ، ولا يزال اليوم متبعاً سيره في الرقي والنماء ، حتى ينتظر أن يكون دين أوروبا بعد قرون قليلة إن شاء الله تعالى .

إننا لسنا هنا بصدد سرعة انتشار دين الإسلام وإنما نحن بصدد الأدلة على أن البرهان الطبيعي في العقيدة هو البرهان الحق الذي قرره الإسلام ودعا به النبي عليه الصلاة والسلام ، فانظر الآن إلى الفرق بين دعوة النبي ودعوة الفيلسوف . دعا به سقراط وقاوم به أضداده حيناً وقال منهم شيئاً ، ولكنهم رموه بعد ذلك بالإلحاد في آلهتهم وفعلوا ما فعلوه من صفات الجبناء وهذا جهد الفلسفة والحكمة . أما النبي عليه الصلاة والسلام فأحال به أمة بأسرها إلى أرقى درجات الإيمان ، في سنين تعد على الأصابع . فهل بعد هذا يهم واهم بأن الفلسفة والنبوة متقاربان ، أو هما معاً في ميدان؟

إن الذي أثر على الأمة بأسرها فجعلها مؤمنة بعد أن لم تكن هي روح المصلح الأعظم صلى الله عليه وسلم ، وهي تلك الروح التي سادت على أرواح معاصريها كلهم وبسطت نفوذها على قومها عن بكرة أبيهم ، لم تترك فارساً ولا حكيماً ، ولا شاباً ولا هرمًا ، ولا غنياً ولا فقيراً ، إلا وأدخلتهم تحت سلطانها ، وأظلمتهم بظلالها ، فأين الفلسفة بعد هذا ، وأين الفلاسفة من ذلك ؟ أما ترى معي من هذه النظرة البسيطة أن مجرد التأمل في هذه المسألة يهب الإنسان أقوى البراهين الحسية على رسالة النبي صلى الله عليه وسلم ، وعلى أفضليته على سائر الرسل الكرام عليه وعليهم التحية والسلام .

الباب الثامن

ما وراء المادة

الأسلوب العملي

أهميته عند علماء أوروبا

إننا لم نر بدأ لتتميم بناء هذا الصرح الفخيم الذي ندبنا أنفسنا لإقامته لديننا الإسلامي الحنيف في مقدمة هذا القرن الجديد من الخوض في علم (ما وراء المادة) ، لا على طريقة من سبقنا من رجالات العلم في القرون الماضية ، أيام كان للقضايا المنطقية والأفكار المجردة السلطة الكلية على العقول ، والسطوة العظمى على الوجدان ، بل سنخوض بحره إن شاء الله على القاعدة العملية التجريبية كما هي مطالب الروح العلمية العصرية .

ربما تعجب قارئ من عزمنا على خوض علم ما وراء المادة على الأسلوب التجريبي العملي ، مبعداً أن تدخل الأشياء المعنوية غير المحسوسة تحت سلطان الاختبار والامتحان ، وله العذر في تعجبه ما دام لم يقف على خبر من تلك القوارع الإلهية العظمى التي انصبت على هامة طواغي العلوم المادية في الغرب فقلبت شكل نظرياتهم رأساً على عقب ، ولم تزل لليوم تفعل بهم وبمدركاتهم المؤيسة الأفاعيل . « كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز » .

ليست أعاصير الشكوك والريب التي تهب في رؤوس بعض المتعلمين

والمفلسين منا بشيء يذكر بجانب تلك الأعاصير المحتاجة من شكوك قادة العلم الأوروبي الذين بسيطرتهم على موارد السعادة المادية ، والزخارف الصناعية ، كادوا يجرمون على الشفاء ذكر الدين فضلاً عن ملاشاتهم لأصوله ؛ ولقد كتبوا في ذلك من المؤلفات والأسفار وسلخوا فيها مسالك من العلم ما يحو كل أثر من عقيدة ، ويعني على كل صورة منه في الوجدان ! فإلى ماذا آل أمرهم اليوم ؟ هذا سؤال تحتاج الإجابة عليه إلى ما تصدينا له من كتابة ألوف من الصفحات ، وسترى ذلك بعينيك إن شاء الله. إنما نقول، باختصار تعجلاً بالنتيجة : أدام إلى خلل في الضمائر ، خلل في العواطف ، خلل في مرامي الأفكار ، خلل في شكل الاجتماع ، خلل في الأخلاق ، خلل في الأموال والأنفس والثمرات ! أدى بهم الأمر لأن يقوم أحد رؤساء النهضة الجديدة في فرنسا وهو (هنري بيرنجيه) قائلاً لقومه^(١) : « إن المسألة الدينية أصبحت اليوم الشغل الشاغل لكبار العقول ، لأن مستقبل الأمم المتعدنة يتعلق بحلها . » أدى بهم لأن يقول العلامة الألماني الشهير (ادوار دوهيرتمن)^(٢) : « لم يوجد أبداً عصر كان أهله أقل تديناً من هذا العصر الذي نحن فيه ولكن مع ذلك قد لا يوجد عصر هاجت أهله المسائل الدينية مثل هذا الهياج الهائل . أدى بهم لأن يصيح بينهم الفيلسوف (فييرنس جيفاربت)^(٣) :

« لقد شعر النوع الإنساني بحاجة كبرى إلى الاعتقاد ولكننا نستطيع تحديد شكل تلك العقيدة بالدقة ، ولقد أحسننا كلنا بضرورة إرجاع الحياة إلى أرواحنا ، ولكننا لا ندري إن كانت ثمة روح تقية أقوى من روح عيسى (عليه السلام) ، وأشد نفوذاً منها على الوجدان تستطيع إحداث هذا العمل المعجز . إن أرواحنا لمتعطشة إلى دين لأننا في غاية الألم من أنه لا دين لنا . إن هذه

(١) أنظر مجلة المجلات الفرنسية مجلد ٢٤ .

(٢) في كتابه (عقائد المستقبل) .

(٣) في كتابه الفمة الحاضرة .

الاستثناءات التي تتصاعد من العالم المعصري وتختلط فيها صيحات الرجاء بصيحات الشك تشبه بصفة مدهشة تلك الشهقات اليائسة التي كان يصعدها العالم القديم ، زمن تلاميذ الوثنية اليونانية ، إن الهيئة الإجتماعية الحاضرة التي توحدت تماماً في أحوالها المادية المعاشية نراها بعكس ذلك متشعبة منشقة بالنسبة لمراميها الفكرية والدينية . ولقد أجهدنا أنفسنا في بيان كيف أن جيلنا هذا قد تدلى شيئاً فشيئاً في حضيض هذه الفوضى الأدبية الأخلاقية . وإنا لنعتقد أنه لا يوجد إلا علاج واحد يداوى به هذا الداء العياء : وذلك الدواء هو العقيدة الدينية ، فإنها وحدها تستطيع أن تداوي العالم الإنساني مما ألم به « .ا.هـ.

ولكن كيف تؤوب العقيدة إلى تلك القلوب التي أصلدها المعلومات المادية قروناً متوالية ، وكيف تلين تلك العقول التي نشبت شعاب الفلسفات المختلفة فيها مع ما تأسست عليه من شكوك واستشكالات هائلة؟ لو كان الحال واقفاً عند هذا الحد ، لاستسهننا الأمر ، ولقلنا أن البرهان إذا تجلى للفؤاد قلب كيانه وفصله عما جمد عليه ؟ ولكن هنالك داء دوي أشربته النفوس في الثلاثة قرون الماضية ونشأت عليه وهو سحر هذا الرقي الصناعي المدهش الفائق ، وزخرف هذه المدينة الساحرة !

الإنسان وإن كان يعرف من نفسه الضعف ، ويأنس من حاله العجز ، ومن شخصه الضؤولة أمام ما يحيط به من هذا الوجود الواسع ، والكون المدهش ، إلا أنه شديد الحال ، كثير الادعاء ، عظيم المراوغة ، متقن فن التدليس على نفسه ، والتمويه على عقله ؛ يتظاهر بالجبرية المطلقة والفطرسة المفرطة ؛ في الوقت الذي يعلم أنه أضعف من بعوضة ، وأشد عرضة لمبيدات الحياة من ذرة . يتصنع القوة والحول ، ويرائي بالمقدرة والطول ، في الحين الذي يندب على قلة وسائله ، وعجز حيله . هذا شأنه وهو في أبسط أحواله وقاريحه يشهد عليه ؛ فما بالك وهو في هذا الجليل ، جيل المدهشات والمعجائب ، جيل المكتشفات المحيرة للمدارك ، جيل العلوم الطبيعية ، والحرية الفلسفية ، لا جرم أن يزيد توغلاً في دعاويه ومزاعمه ، ويتغفل في ريائه وتصنعه .

كان الإنسان وهو في أبسط أحواله في القرون الخالية يكذب الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام بدعوى أنهم إخوانه في البشرية ، يأكلون كما يأكل ، ويشربون كما يشرب ، ويموتون كما يموت ؛ فكان يحاول أن يرسل الله إليه رسلاً من السماء في أبهة تأخذ بصره ، وجلالة تذهب بلبه !

كانت هذه الشبهة وحدها تمنعه من سعادته ، وتنشطه في غوايته ، فكيف يكون حال الإنسان اليوم وهو بين هذه المدهشات الصناعية ، والسحريات الفنية : التليفون عن يمينه والفنوغراف «الحاكي» عن يساره ، والمنظار أمامه ، والآلة البخارية وراءه ، والأutomobile تحتة ، والبالون فوقه ؛ هذا غير ما يحيط به من الآلات والأدوات ، وما يتخلل ذلك من مدافع مكسيم ، وبوم بوم ، وبنادق مرتين وموزر ، وصناديق الديناميت والتوربيد . لا جرم يكون قد زاد ادعاؤه وكبره ، وعظم رياؤه وتصنعه وأصبح يزعم (معاذ الله) أن الأنبياء دونة علماء وإدراكاً ، وأقل منه فهماً وتصوراً .

يرى بين يديه الملايين الكثيرة من المؤلفات والأسفار وقد أودعت من عجائب العلوم المادية ، والأبحاث الطبيعية ، على أصل تكون الأجرام العلوية ، والكرة الأرضية ، والجواء السماوية ، والأمطار والسحاب ، والرياح والعواصف ، والنباتات ومراتبها ، والحيوانات وفصائلها ، والإنسان وأدواره ، وتدرجه في أطواره ؛ واللغات ومناسبتها ، والشعوب وتخالفها ؛ يرى ذلك كله بين يديه فينتفج حضناه كبراً ويرتفع أنفه شموخاً ، ويصغر خده عجباً ، ويتأيل في مشيته اختيالاً ؛ ثم يرمي ببصره إلى القرون الخالية في قلة علومها ، وأغلاط أعلامها ، وجهالة السواد الأعظم من أهلها ، فيكبر أن يكون فيها رجل يرضى لنفسه باتباعه أو يطأ من كبره للرضوخ لأوامره . وكيف يتأتى ذلك وانصياعه له يستلزم أن يعتقد أنه أكبر منه علماً وفهماً ، وأفوز منه من قسط المعارف سهماً .

هذا من جهة . وأما من جهة أخرى فإنه يرى أنه قد قيد نفسه بعبادات في الكلام ، عادات في السلام ، عادات في اللقاء ، عادات في الوداع ، وحمل جسمه

أحمالاً وأي أحمال : أطواقاً براقة في عنقه ، وألواحاً ملمعة على صدره وفي معاصمه ، وأقمشة مفصلة على جسده ، وسراويل لاصقة بسيقانه ، وأحذية ضاغطة على أقدامه ، وفي صدره ومعاصمه من أحجار الياقوت والماس ما يأخذ بالعين بصيصه ، ويداعب أشعة الشمس بريقه . ينظر إلى نفسه وهو في هذه الهيئة ثم يلقي ببصره إلى أولئك الأنبياء في بساطة ألبستهم ، وعدم تكلفهم ، فتنتفخ أوداجه صلفاً ، ويحاول أن يقنع نفسه رغماً عن احتجاج ضميره بأنه قد صعد درجات في سلم الإنسانية وارتقى مراقبي بعيدة في الكمالات الصورية :

ثم ينظر لنفسه في تفننه في أصناف ما كله ومشربه ، وما استوجبه بذخه من استعمال الأواني الذهبية والفضية ، والموائد الأبنوسية ، والمناشف الحريرية ، والطنافس الصوفية ذات الصور الملهية ، ثم يرنو ببصره إلى أولئك الرسل الكرام في خشونة ماكلهم ، وقلة مؤونتهم فيراوع عقله بما أوتي من قوة المراوغة والخذاع ، ويحاول أن يقنعه بأن هذا رقي عظيم لم ينله أهل العصور الماضية ، ويكبر عليه أن يخضع لرجل منهم مهما كانت صفته ! ولما ينزل نفسه بقوة الخداعة والمخاتلة إلى هذه الدركة باختياره يكون قد هباً فؤاده لقبول أثر هائل أنكى في تسميم معناه من كل ما سبق ، وهو قصيف هذه الجلبة المصمية المنبعثة من هذه المدنية الذهبية ، فيعتريه دوار في رأسه ، يذهله عن ذات نفسه . فيدور في تياراتها مع الدائرين ، ويمثل دوراً فيها مع الممثلين .

هذا الأثر الهائل الذي بعثته هذه المدنية في قلوب أبنائها ، هو بعينه أثر كل مدنية مادية ظهرت في العالم ، وستكون نتيجتها كما كانت نتيجة ما تقدمتها من مدنيات الرومان واليونان ، الارتكاس بأهلها إلى أشد ما عليه الأمم الميتة اليوم ، إن لم يكن الله تعالى يريد أن يرينا من آيات حكمته أمراً .

بدا في العالم المتمدن جهة أعلا شرفة من شرفات بنائه الشامخ ضياء ساطع ، وسناء لامع ، يبشر بقرب انفراج أزمة الإلحاد ، وانفصام حلقات العناد ، ولكن أين العامة منه ؟

ذلك النور ظهر شطر وجه رجالات خاصتهم ، وأعلياء كلمتهم ، وقد احتملته أعين بعضهم ، وعشت عنه عيون البعض الآخر ، أما العامة^(١) الذين تسممت قلوبهم بتعاليم أولئك القادة سابقاً فأمرهم لم يزل عويصاً .

العامة من كل أمة وفي كل زمان كان علاجهم شديداً على الرسل والأنبياء ، ومراسهم صعباً على الأتقياء والأولياء ، فكيف بهم في القرن العشرين الميلادي وقد أعماهم الترف ، وقذفتهم المدنية المادية بسحرها إلى متاهة الضلالة والغي . هل ينتظر بهؤلاء إلا أحد أمرين : إما إياب إلى الرشاد ، وتنكب لسبيل العناد والإحاد ، والتوجه شطر هذا النور اللامع ، والأخذ بيد أرواحهم من هذه الهلكة المحتاجة ؛ وإما الاسترسال مع التيار الذي هم هائمون على وجوههم فيه ، فيكون مصيرهم كمصير كل الأمم التي تقدمتهم من الفناء والتلاشي «ولن تجد لسنة الله تبديلاً» .

الفائدة العظمى التي ننتظرها من بحثنا في علم ما وراء المادة العصري ، وإثباتنا حيرة زعماء الماديين ودهشتهم من تلك القوارع التي صبت عليهم ، هي إلفات تلك العقول التي تتيه بذلك العلم الطبيعي الناقص ، وتزعم من أجله أنها فاقت كل أهل العصور الخوالي في مضمار الفهم والعرفان ، حقيقة كبرى : وهي أن هذا العلم مهما اتسع نطاقه ، وشسع مجاله فليس له علاقة إلا بظواهر الأشياء وقشورها ، ولا نسبة بينه وبين الكائنات إلا من جهة غلفها . أما العلم الذي يس حقائقها ، ويدرك لبابها ، وأعد الإنسان بطبيعته للتغذي منه ، وإحياء روحه بمدركاته ، وقضي عليه أن لا يكون إنساناً إلا به ، فهو علم جاءت به الأنبياء وحملته صدورهم الرحبة . وإن ما أرسله الله على قادة العلم المادي في هذا العصر فكسر من شوكتهم ، وأراهم أنهم جهلاء لا يدرون شيئاً ، وأن كل ما حصلوه لا يساوي قطرة مما حجبته عنهم هذه المادة الصماء ، فليس إلا صورة

(١) لا أريد بالعامة من يعرف القراءة والكتابة كما اصطلاحنا عليه في بلادنا بل أريد بالعامة كل من ليس بعالم مؤثر .

ناقصة من ذلك العلم العالي الذي تغفل أولئك الأنبياء في أرجائه ، وقلبوا به العالم من شكل إلى شكل آخر .

أما نحن الذين قضي علينا أن نكون بضعفنا وباضمحلال شخصيتنا ، عرضة للتأثر بحال الأمم الغربية والدوران في حركتهم ، فإن أبنا إلى عقولنا ، واعتبرنا بالمثلث التي أدبتهم ، فحمدنا الله على أن هدانا إلى دينه القويم ، وصراطه المستقيم ، حينما أنفسنا من مثل ما وقعوا فيه ، وصننا أمتنا من فتنة يطول فيها أمد الحيرة ، ويدوم فيها ألم البلاء ، وأما إن أبينا إلا أن ننسحر بترف أولئك العامة منهم ، مدعين أن عدم الدين دليل على سمو العقل ، ونكران العوالم الملوكوتية ارتقاء في الفلسفة العالية ، فلن نلوم إلا أنفسنا ، ولن نجني من وراء هذه الحركة الشيطانية إلا ما جنته كل أمة كفرت بأنعم ربها : « وكأئن من قرية عنت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حساباً شديداً وعذبناها عذاباً نكراً فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسراً » .

نحن قبل الخوض في هذا الموضوع يحسن بنا أن نقدم بين يدي القارىء بعض أقاويل كبار أولئك الخاصة ليعرف أنه أمام أكبر موضوع من مواضيع العصر الحاضر ، وحيال مسألة أمالت رؤوساً كانت لا تميل ، وحولت عقولاً كانت لا تستحيل : « والله غالب على أمره » .

قال العلامة (م . ت . فالكومر M. T. Falcomer) أستاذ علم الحقوق في الكلية الملوكية باسكندرية إيطاليا في كتابه (المدخل إلى علم الاسبرتزم العملي) : « هذه النظرية (النظرية القائلة بأن ما يحصل من خوارق العادات في جلسات الاسبرتزم منسوبة لأرواح الموتى) يظهر بادية بدء أنها جديدة ، ولكن الحقيقة أنها ليست كذلك ويمكن أن يقول الإنسان بدون أن يخشى معارضاً أن الفيلسوف (أما نويل كنت) قد أدركها ، وإن (اللان كاردك) قد نشرها بين العالم بعد أن فحصها فحصاً علمياً من جهاتها الثلاث : تجريبياً وفلسفياً وأدبياً ، ولكنها بالأسف كانت ولم تنزل عرضة لنقد صارم بالنسبة لاختبارها اختصاراً

عملياً وتعليل المشاهدات الروحية بها ، وبالنسبة لتطبيقها على الحياة الاجتماعية والدينية ، وأخيراً بالنسبة للشهادة الشخصية . أي نظرية غير هذه النظرية مما يكون أقل تأسيساً على العلم كانت تزول من الوجود وتلاشى أمام هذه الصدمات الهائلة من الماديين والقائلين بوحدة الوجود والروحيين الأقدمين أنفسهم . فإنك ترى الكنائس ومجامع العلوم الجامدة على ما لديها تحاربها في آن واحد (مع أنها تسمى في إيجاد الصلح بينها) لأنها تلقي على الناس نوراً ساطعاً فينكشف به فساد ذمة البعض وجهالة البعض الآخر وكبر العموم . فالحرب التي تقاسيها هذه النظرية شديدة المراس جداً وأهول مما يمكن وصفه ولكن كلما شهر عليها النقد العلمي سيفه ضمناً صفوفنا وهباً أنفسنا وجمعنا أدلة للمقاومة . (فاكزا كوف) يصول (هارتمن) ، و (ريشانباش) يقارع (بوشنر) ، و (ولاس) ينازل (سيد جويك) ، و (يونج) دحره (جاردني) ، و (شيايا) هزم (لومبروزو) . وكانت نتيجة هذه حرب أن انضم إلى صفنا واحداً بعد واحد (شيا بارلي) و (لودج) و (ريشيه) و (اكورويكنز) و (منديليجيف) و (زولنر) و (تندل) و (ويليم كروكس) و (إلبوت كوس) و (اديزون) و (بلفور) و (جون لبوك) و (جلادستون) و (جويرس) و (داريجليو) و (بروفيريو) و (جيبية) وعدد عظيم من علماء مشاهير آخر^(١) . إلى أن قال :

(١) هؤلاء علماء مشاهير من شعوب مختلفة (Aksocaf) من كبار علماء الروس ومستشار القيصر و (R. Wallace) أكبر علماء الفسيولوجيا الانجليزي ، و (Lodge) من أشهر علماء الانجليز ويلقب بداروين الطبيعة ، و (Richet) أشهر أطباء العالم وهو فرنسوي له من آثار عظيمة في الطب ، و (Zollner) عالم فلكي ألماني شهير يعد اليوم أزكى بنى البشر ، و (Tyndall) علم فرد في علم الطبيعة وهو انجليزي ، و (Crookes) أكبر كيمائي الانجليزي ، و (Coues Elliot) عالم أمريكي رئيس الجمعية العلمية الاميريكية ، و (Edison) عالم أمريكي شهير جداً باختراعاته وهو مخترع الفونوجراف ، و (Balfour) عالم انجليزي ورئيس وزراء انجلترا ، و (I. Lubbock) عالم انجليزي طائر الصيت ويلقب بلورد افبيري ، و (Gibier) تلميذ باستور .

« مجموع المشاهدات التي تتأسس نظرية الروحانيين العصريين عليها متشعبة يجب معرفة كيفية الاتجاه في بحثها وفحصها ولذلك فنحن ننصح الذين يريدون الاشتغال بها بأربعة أمور : المطالعة والنظر والاختبار والاستنتاج . » إلى أن قال : « إن الظواهر والمشاهدات الروحية المذكورة ليس لها أدنى علاقة بظواهر علم الطبيعة والكيمياء الأرضيين ، بل هي من متعلقات طبيعة وكيمياء علويتين ، أعني من عالم ما وراء المادة ، فليعلم الجاهل وليتذكر المتناسي أن العلم البشري لم يزل موصوماً بالنقص ، وإن العالم المحسوس ليس هو في الحقيقة إلا ظلاً للعالم غير المحسوس ، أعني أن المحسوس ليس هو إلا الظاهر القشري ، أما غير المحسوس فهو اللبّاب الحقيقي . إلى أن قال : هذه الطبيعة العالية ليست خيالية تأملية ، ولا هي مما تتعلق بالعقائد الجامدة ، بل هي حاصلة على جميع شرائط العلوم الكونية لأنها تجريبية امتحانية . وأخيراً هذه الطبيعة العالية هي وحدها التي تستطيع أن تسلك بجميع العلوم وبالدين مسالك التركيب الفلسفي بإشباع العقل والإحساس معاً . »

هذا واحد من خاصة أولئك الأقوام ، نقلنا ما مست إليه الحاجة من كلامه وسنعود إن شاء الله إلى ما يلزم الاستشهاد به من أقاويله . وأنت ترى أنه ليس بفاقد العقل ، ولا بقاصر التصور ولا بجاهل غمر ، بل درج في مهاد العلم الطبيعي والفلسفي ، وبين يديه من مجالي الصناعات المدهشة والمرائي الفاتنة الملئية ، ما ليس لغيره من صرعى هوى المدنية الغربية من المترفين ، ومع هذا كله وما هو فيه من المركز الاجتماعي العالي بين قومه ، وما يحيط به من نقدة الأقلام ، وأصحاب القيمة في العلم ، والذراية في اللسان ، قام يلفت قومه إلى جمال ذاتهم وخلود أرواحهم ، معالجا لهم مما وقعوا فيه من الدوار المدني الذي أصابهم من سحر حضارتهم . وسمح لنفسه مع عظم مركزه أن يختم كلامه بقوله :

إن هذه المشاهدات المتعلقة بالعلم الروحاني التي بسطتها وشرحتها في هذه الوريقات مما يشوش عقل العامة ، كما قال ذلك أيضاً الفيلسوف (بابوس Papus)

وسيحكم على عملي هذا أكثر من واحد من قرائي ، ولكن بدون برهان ولا حجة ،
بأنه نتيجة شكل خاص من أشكال الخلل العقلي ولكن هذا الحكم لا يمنع من كون
مذهب (الاسبرتزم) التجريبي تنمة للعلوم الطبيعية لما تأكد من أن الانسان
مخلوق صالحاً لأن يعيش في عالمين متميزين . فمن العقل والتبصر أن يطالع الانسان
وينظر ويحرب ويتأمل ويستنتج بعد معرفة السبب بدل أن يحكم مثل هذا
الأحكام بلا دليل ولا برهان . »

أهميته عند علماء أوروبا

كتب الأستاذ الطائر الصيت (ألفرد روسل ولاس) الفسيولوجي الانجليزي
الشهير مكتشف ناموس الانتخاب الطبيعي مع الأستاذ (داروين) الطبيعي الشهير
إلى جريدة التيمس : « بما أني قد حسبت لدى كثيرين من مكاتبيكم في مضاف
رجال العلم الذين يصدقون بصحة مذهب استحضار الأرواح فأرجوكم أن
تسمحوا لي بإيراد مبلغ البراهين التي أسست عليها معتقدي . »

« ابتدأت أبحاثي من مدة ثمان سنوات تقريباً ، واعتبر من حسن حظي أن هذه
المشادات العجيبة كانت في ذلك الوقت أقل شيوعاً وأضعف استلفاتاً مما هي عليه
الآن ، لأن ذلك سمح لي أن أعمل أبحاثي في منزلي الخاص برأى جماعة من إخوان
لي لا أشك في طهارة قلوبهم » . إلى أن قال :

« أنا لا أنتظر من الذين يتشككون ، سواء كانوا يشتغلون أو لا يشتغلون
بالعلم ، أن يعتقدوا صحة هذه الخوارق التي أستطيع أن أسرد لهم منها عدداً كبيراً
اختبرته بنفسي ، ولكن يجب عليهم هم أيضاً أن لا ينتظروا مني أنا ولا من الألوف
المؤلفة من رجال الذكاء والفطنة الذين تحصلنا على حجج ساطعة في هذا الموضوع
أن نقبل تعليقاتهم الموجزة التافهة . ولولم أكن أخشى أن أطيل عليكم لكننت
أريتم جملة ملاحظات على الأفكار الوهمية التي تغلبت على عدد كبير من أهل العلم
بخصوص طبيعة هذا البحث ، فلأخذ خطاب المستر (وركس) مراسلكم مثلاً

لذلك : اعتبر حضرته عدم إمكان الحصول على هذه الظواهر بمجرد الإرادة برهاناً قوياً ضد صحتها ، وحسب أن عدم تعليلها بالنواميس الطبيعية المعروفة حجة أخرى على بطلانها، وغاب عنه أن الإغماء وسقوط الأحجار الجوية وداء الكلب ، لا يمكن الحصول عليها أيضاً بواسطة الإرادة ، وهي مع ذلك حوادث لا يشك في وجودها .

ثم سرد أسماء جملة من إخوانه العلماء الذين يعتقدون بمذهب استحضار الأرواح ، ووصف فضلهم على العلم ودقتهم في التجارب . ثم قال :

« ولم يكتفوا فقط باعتقاد صحة هذه الظواهر العجيبة ، ولكنهم كانوا يعتبرون نظرية الروحانيين الحاليين - أي النظرية القائلة بنسبة هذه المدهشات إلى أرواح الموتى - المفسرة الوحيدة لحصول هذه الحوادث الخارقة للعادة . وأعرف أيضاً فيزيولوجياً حياً للآن ، دامر كز سامر ، وهو من أمهر الباحثين في هذا المذهب ومن أشد المعتقدين به . ملخص الأمر أنه يمكنني أن أقول أنه وإن كان من الناس من ينسب حصول هذه الخوارق للغش والتدليس إلا أنني لم أكتشف شيئاً من ذلك مطلقاً ، وبما أن الجزء الأكبر من هذه الخوارق لا يتأتى حصوله بطريق الغش إلا باستعمال آلات غاية في الدقة فلم يستطع أحد أن يقف على سر تلك الحيل للآن . على أنني لست بمغالٍ إن قلت أن المشاهدات الرئيسية لهذه الخوارق صارت الآن مؤسسة على قواعد علمية وسهلة على الباحث مثل سائر الظواهر الطبيعية التي لم يكتشف فاموسها للآن . لهذه المشاهدات الخارقة للعادة أهمية كبرى جداً لتفسير حوادث التاريخ ، فإنه غاص بمثل هذه المسائل ، ولدرس مصدر الحياة والعقل اللذين لم يتوصل العلم إلى فك معهما للآن . الخ ، ١٠ هـ .

نقول : يرى القارئ من هنا أن اهتمام مئات الألوف من علماء أوروبا وأمريكا في بحث مسائل استحضار الأرواح ليس موجهاً للالتواء وتمضية الوقت بالنظر لخوارق الطبيعة ، بل غرضهم أسمى من ذلك بكثير . غرضهم الوصول كما يقول

الأستاذ (ألفرد ولاس) المتقدم ذكره ، لإدراك أصل الحياة والعقل ، وفك معميات أخرى في الخليقة وقف العلم المادي أمامها حائراً لا يحير جواباً .

لما قام هؤلاء العلماء الأمثال يبحثون المسائل الروحية بالطريقة العلمية العملية ، قام في وجوههم أعداء العلم ونصراء اليأس ، ونذر الظلمة ، يستهزئون بهم وينبذونهم بالألقاب ويكذبون تجاربهم من غير أن يكون لهم أدنى علم بمسائل ذلك الموضوع ، ولكن سطوات الحقيقة تردع كل جبار عنيد فان أولئك العلماء الجسورون وقفوا أمام خصومهم وقفة الحزم والحكمة وردوا عليهم الردود المفحمة وعلقوهم بالسنة حداد ، قال الأستاذ الشهير (وليم كروكس) أكبر كيمائي الإنجليز وأحد رؤساء الجمعية العلمية الإنجليزية في كتابه (الأبحاث في الظواهر النفسية) الذي طبعت ترجمته الفرنسية اثنتي عشرة مرة بالإنجليزية والفرنساوية عشرات من المرات ، ما يأتي :

« وبما إني متحقق من صحة هذه المشاهدات ، فمن الجنب الأدبي أت آبى الشهادة لها بحجة أن كتاباتي قد استهزأ بها المنتقدون وغيرهم (تأمل) ممن يعلمون شيئاً في هذا الشأن ولا يستطيعون لما علقوه من الأوهام (تأمل) أن يحكموا عليها بأنفسهم . أما أنا فأسرد بغاية الصراحة ما رأيته بعيني وحققته بالتجارب المتكررة (المدققة) » .

عجيب أمر هؤلاء الماديين ، يعلمون كما يعلم كل إنسان أن الإنسان لم يزل من العلم في دور الطفولية ، وأن المسائل المجهولة لم تنزل تنغص عقل كل باحث ، ثم إذا رأوا باحثاً أخذ ينمي مواد العلم بشيء من الأشياء التي تهدم أصلاً من أصولهم المقررة قاموا في وجهه يدعونه دعاً ، ويوسعونه شتماً وهجراً ، كأنهم ماجورون على أن يدافعوا عن الإلحاد ، أو مرشون على أن يطفئوا نور الإيمان من قلوب العباد ، وكلما اشتدوا في تحمسهم الباطل لمذهب الفناء والعدم ، قابلهم أولئك العلماء الجسورون بشهب من الإفحام تقف بهم عند حدهم .

قال العلامة الإنجليزي الطبيعي (كرمويل فرلي) ، كما نقلته عنه (المجلة

الروحية) ، ما يأتي «إن الشتاغم التي تكبدها في سبيل الاعتقاد بمذهب استحضر الأرواح لم تأت إلا من جهة الدين لا يحصل لهم إقدام على البحث والتنقيب إلا بعد معاداة ما يجهلون .»

وكتب العلامة (أجست مرجان) ، رئيس قومبانيات التلغرافات الإنجليزية ، وهو من كبار علماء الطبيعة في مجلة (فروم ماستراف سبريت) قال :

« أنا مقتنع بصحة مذهب استحضر الأرواح مما رأيته بعيني وسمعته بأذني ، اقتناعاً يجعل تطرق الشك مستحيلاً عليّ . وإن الروحيين لعلّ الطريق التي تقدم العلوم الطبيعية وليس أضدادهم إلا مشخصين للذين يريدون وضع العقبات في سبيل الترقى .»

عجيب أمر هؤلاء الماديين . ماذا يصيبهم من الأذى لو ثبت يوماً من الأيام بالتجربة والامتحان أن للإنسان روحاً خالدة وأنه مجزى على كل صغيرة وكبيرة من أعماله وأفكاره في دار بعد هذه الدار؟ (ماذا يلحقهم من الضرر المادي أو الأدبي لو رجعت تلك القلوب اليائسة : والإحساسات الكثيرة المتلظية ، في هذه الحياة الأرضية ؛ فاعتقدت أن الدنيا دار ممر إلى دار أخرى ، فيها ينصب ميزان العدل الإلهي ، وتتجلى للفاضلين والكاملين سبحات النور القدسي ، فينالون جزاء جهادهم الحيوي الطويل في معترك هذه المادة الطينية ؟ ثم ماذا ينالهم من الفائدة لو ثبت عكس ذلك ، وبقيت الفطرة الإنسانية تن من فقد العقيدة ، وانتشر الإلحاد في طبقات العالم حتى أكل الناس بعضهم بعضاً من الفساد الخلقي ؛ وأصبح الإنسان يرى في الموت العدو اللدود الذي يقطع بينه وبين أهله الأعراء وأفلاذ كبده المحبوبين ؛ وأضحت الأم التي تفقد ولدها أو بنتها لا ترى لها معزياً ولا مسلياً غير الذهاب مثله أو مثلها إلى عوالم الظلمة والفناء .

الله أرحم بعباده من هؤلاء الماديين ، فليموتوا بغيظهم ، فإن الله متم نوره ولو كره الكافرون ، وهو القائل وقوله الحق : « كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز .»

كتب الفيلسوف الفرنسي الشهير (شارل فوفتي) في كتابه المسمى (الوحي الجديد - الحياة) يقول : « لما فقد الفكر قدرته على التصديق بوجود الأرواح صارت منابع الحياة الخلقية مهددة بالفيضان ، وأحست الجمعية الإنسانية (تأمل) من نفسها بأنها قد دخلت في دور الفتن والانحلال الذي يجب أن يعقبه الحشر التام ، ولكن لما أشرقت في الإذهان هذه الفكرة الجديدة (مذهب استحضر الأرواح) - وإن لم تكن بينة الحدود للآن - أحست النفوس بقرب حدوث تغير جديد في الأفكار ، .

ولكن حضرات الماديين يظهر أنهم لا يريدون ذلك التغير في الأفكار ، بل يريدون أن يبقى الانسان معتقداً بأن ، وحه ليست إلا وظائف أعضائه المختلفة ، وأن عقله وفكره إفراز من مخه كما أن البول إفراز من كليتيه (كما يثرثرون بذلك في كتبهم) ، وأن الإنسان مثله كمثل النباتات لا حظ له من الحياة الا السنوات التي يعيشها على سطح الأرض في وسط هذه الحن الشديدة. دعمهم يصدقون هم أنه لا أرواح لهم ولكن هيهات هيهات أن ينصاع الناس بعد اليوم لإعارة أقوالهم السامة جانب الأهمية . فقد زال سلطانهم وتقوضت دعائم دولتهم ونجى الناس من شر اك أباطيلهم والمجد لله رب العالمين .

لنرجع إلى ما كنا فيه من نقل أقاويل علماء أوربا في بيان أهمية مذهب استحضر الأرواح ، حتى إذا وجدنا لقارئنا فكرة عامة على ذلك ، نقلنا له إن شاء الله تفصيلات الأبحاث المختلفة ، والمشاهدات العجيبة التي قام بها فحول علماء الارض والله غالب على أمره) .

نقلت المجلة الروحية أقوالاً للأستاذ (هودسن) الإنجليزي جاء فيها ما يأتي : « قد ابتدأت أنا والأستاذ (هزلوب) البحث من منذ اثنتي عشرة سنة ، وكنا ماديين دهرين لا نصدق بشيء مطلقاً ، ولم يكن لنا إلا غرض واحد وهو كشف الغش والتدليس ليس إلا . أما اليوم وما أدراك ما اليوم ، فلإني أعتقد وأجزم

بإمكان المحادثة مع أرواح الموتى . وقد قام لي الدليل على هذا الأمر بحيث لا أتصور أن يتطرق الشك إليّ فيه مطلقاً .

وقال الأستاذ الفسيولوجي الطائر الصيت (روسل ولاس) المتقدم ذكره في مقدمة هذا الفصل في كتابه (الخوارق العصرية) قال : « لقد كنت دهرياً صرفاً مقتنعاً بمذهبي تمام الاقتناع ، ولم يكن في ذهني أدنى محل للتصديق بوجود حياة روحية ، ولا بوجود عامل في هذا الكون كله سوى المادة وقوتها ، ولكنني رأيت أن المدهشات الحسية لن تغالب ... فإنها قهرتني وأجبرتني على اعتبارها أشياء حقيقية قبل أن أعتقد علاقتها بأرواح الموتى بمدة طويلة ، ثم أخذت هذه المشاهدات مكاناً من عقلي شيئاً فشيئاً ، ولم يكن ذلك بطريقة نظرية تصورية (تأمل) ولكن بتأثير المشاهدات التي كان يتلو بعضها بعضاً بطريقة لا يمكن التخلص منها بطريقة أخرى (أي بغير نسبتها إلى أرواح الموتى) . »

وقال الأستاذ (متزجر Metzger) السويسري في كتابه المسمى (الاسبرتزم العلمي) : « هذا المؤلف يتركب من سلسلة خطب قرئت في جمعية الأبحاث النفسية في مدينة (جنيف) وليس من السهل على المؤلف - يحكي عن نفسه بضمير الغائب كما هي عادة بعض العلماء - نشره بين الجمهور على هذه الصفة لأنه يعلم أن شكل الخطب لا يليق أن يكون تأليفاً لما يكون فيه من التكرار في المواضيع والترداد للأفكار التي لا يسهل على الخطيب اجتنابها لاشتغاله فوق كل شيء بإقناع سامعيه وإلزامهم الحجة .

« الموضوع الذي نحن بصدده مشتبك ببعضه جداً ، فإن المشاهدات التي يلزم امتحانها كثيرة جداً ومتخالفة ، والنظريات التي رؤيت كافية لتعليلها وتفسيرها عديدة ومتناقضة . فمن الناس من ينسب لأرواح الموتى حدوث كل الظواهر النفسية حتى أصغرها ، ومنهم من يقول بأن الرأي القائل بتداخل الأرواح في حدوثها لا لزوم له أصلاً ، فإن مجرد قوى الإنسان تكفي لتعليلها كلها . فالتوسط بين هذين الرأيين المتعاكسين بالبرهنة الأولين بأنهم واهمون في نسبتهم للأرواح

مشاهدات لا دخل لها فيها ، وبالإثبات للآخرين بأن تعليلهم كل المشاهدات بدون استثناء بمجرد العوامل الإنسانية ، هو تكليف لنظرياتهم بتفسير ما لا قبل لها به لا يكون من نتيجته التعرض لإغضاب كل من الخصمين المتجادلين :

« فما العمل إذن ؟ الأولى قول الحق لا السعي في إرضاء حزب من الأحزاب ، فالمؤلف بعد أن درس هذا المسألة درساً مدققاً ، اقتنع بأن كلا هذين الطرفين مفرط في مزاعمه ، سواء في ذلك أنصار مذهب استحضار الأرواح الذين يصدقونه بدون أقل تحفظ ، وأضداده الذين ينكرونه بتاتا . فإذا كان لا شك في أن عدداً عظيماً من المشاهدات الروحية ممكن تعليلها بدون فرض تداخل الأرواح في إحداثها ، فلا شك كذلك في أن هنالك مشاهدات أخرى تستلزم فرض تداخل الأرواح بطريقة لا يمكن دحضها ولا التردد في قبولها . هذا ما يجب التجاسر على قوله ولو كان فيه مصادمة الثقة الطفلية للذين يتوهمون رؤية الأرواح في كل شيء ، ومكافحة ذلك الكبر المتناهي من الذين ينكرون وجودها رأساً ، أو الذين ينسبونها لفعل الشيطان .

« الذي شحذ عزيمة المؤلف وأمضاها هو أنه يعتقد قلباً وقالباً بأن مذهب استحضار الأرواح المنقى مما علق به من الأوهام الطفلية التي تحط من كرامته وتفسده ، سيحدث أثراً أدبياً في غاية من الأهمية في هيئتنا الاجتماعية المختلة . فإنه عدا عما يكسبه للعلم من الموائد العلمية ذات القيمة التي لا تقدر ، سيغذف نوراً ناصعاً على هذا الخطب الفكري الحاضر ، وسيكسب القسم المعنوي من الفلسفة والدين عضداً قوياً ، وسيوجد تسلية عظيمة لعيون الباكين ، وروح رجاء لقلوب اليائسين .

« مذهب استحضار الأرواح يثبت وجود الروح ويكاد يجعلك تلمسها بأصابعك . ولقد أصبحت مسألة خلود الجزء المعنوي من الإنسان مما لا يمكن الجدل فيه لبداهتها . كما أنه قد انسدت تلك المهواة السحيقة القرار التي كانت تفصل الأحياء عن كان يقال عنهم ميتون .

« هذه حقائق جديدة في الواقع ونفس الأمر ، ولكن ما أجل فوائدها وأعظم عوائدها ! فإن هينأتنا الاجتماعية في هبوط مستمر ، ولقد أصبح الناس يتساءلون بقلوب يملؤها الأسف والأسى عما ستؤول إليه حالة مدينيتنا المتنازعة من كل جانب التي افترسها مذهب الماديين المحتاح للفضائل (تأمل) الذي بقتله فيها عواطف الجري وراء الكمال ، وبمحوه أنوار مستقبلها يدفع الإنسان لغشيان كل ما يطوف بفكره من الملاذ الجسدانية بدون المبالاة بوسائل الحصول عليها .

« بعد هذا كله ، ألا يكون إقامة الأدلة العلمية على ضلال الذين يحدون وجود الروح وبيان أننا لا محالة مجزيون على جميع أفعالنا وأقوالنا وأفكارنا ، هو أنجح العلاجات لهذا الجنون الكثير الأشكال ؟ هذا هو تأثير الاسبرتزم وسيكون تأثيره دائماً كذلك فيما نرى . »

ثم تكلم الأستاذ السويسري على ما سيكون له من التأثير العظيم على الفلسفة والتدين لتأسيس مبادئه على المشاهدات المحسوسة التي لا تدع للشك مجالاً في النفس ، ولا للارتياح سلطاناً على الفؤاد ، فقال مشيراً إلى الدين والفلسفة : « إنها سيكونان بواسطته أقرب للفهم ، وسيكتسبان به حياة جديدة وصبغة علمية وستتورد أوامرهما وتعاليمهما السلطان الكبير الذي كان لهما على أرواح الناس ، وسيستطيعان مكافحة الإلحاد الذي وقعنا فيه بوسائل أنجح وأسلحة أمضى . هذا ما يعلل سر تزايد استلفاته لأنظار الباحثين رغماً عن العداوة الكامنة أو الظاهرة التي يصادفها في بعض المراكز . فأصبح العلماء (تأمل) يهتمون به لأنه يفتح لهم مجالاً عظيماً للبحث والتنقيب عن المساتير . والروحانيون ذوو الصبغ المختلفة من الفلاسفة ابتدؤوا يفهمون بأنهم يحدون منه وحده سنداً ركيناً في الحقيقة ، وعماداً لا يتزعزع ، يعتمدون عليه في تأملاتهم على مسائل الروح وبقائها بعد الموت وعلى أحوال الحياة في العالم الثاني . لهذا ترى عالمين من العلماء الأعلام المسيو (أجوست سباتييه) الأستاذ الشهير جداً في كلية العلوم في (مونتيليه) في خطبته (بالاولا) من جنيف ، والمسيو (أرنست نافيل) الفيلسوف الكبير في كتابه (العلم ومذهب

الماديين) يتمنى كل منها بفتور ولكن بصراحة تامة أن يرى تحقيق نظرياته بواسطة المشاهدات النفسية ، أي مذهب استحضار الأرواح .

« فأهمية مسألة استحضار الأرواح وجدتها ، ولزوم محاربة مذهب الماديين ، مذهب الفناء والعدم الذي سيؤدي بنا إلى أسفل سافلين لو لم توضع العقبات ضد انتشاره ، وضرورة تغيير كيان ذلك التشدد الديني القديم الذي ساعد مساعدة كبرى على إيجاد هذا الإلحاد الذي يساورنا من كل جانب ، والفائدة المنتظرة للحقيقة الفلسفية والدينية والعلمية ؛ كل هذه الأسباب هي التي ساقت المؤلف لإبراز بحثه هذا ولو أنه لا يجهل عدم كفايته لبلوغ الغاية من هذا الموضوع ، وهو يتمنى من صميم فؤاده أن يوجد كتابه هذا ميلاً عند بعض قارئيه لبحث هذا الموضوع الذي لم يزل فيه كثير من الجهات المظلمة ، ويرجو أيضاً أن يخفف دموع عيون باكية ، وأن يعيد القوة والجلد للذين فدحتهم المصائب ، وذلك بأن يبرهن لهم بأن سنجيء الساعة التي فيها تشرق العدالة والنجاة والسعادة لجميع العالم . ففرض المؤلف من هذا الموضوع هو خدمة الحقيقة والبر » .

الامضاء : د. مترجر

بعد هذا كله يوجد من الناس من يتهم الباحثين في هذا المذهب والمصدقين به بالجنون ، تقليداً لبعض علماء أوربا عند بدء ظهور هذه الخوارق بين ظهرانيهم . ولكننا نقول لهؤلاء قد مضت سنة الأولين وقد رجع أكبر القائلين بذلك وهو الأستاذ الكبير (سيزارلو مبروزو) عن زعمه لما رأى أن أكثر إخوانه دخلوا في ذلك المذهب أفواجاً أفواجاً ، ثم فحصه بنفسه وألف فيه كتاباً مهماً ذكر في آخره هذه العبارة الصالحة : « ولنحذر من ادعائنا دقة العقل والاعتقاد بأن كل الناس من قبيل المخرفين ، والتوهم بأننا نحن العلماء دون سوانا ، فإن ذلك يوقعنا في الجهل والضلال » .

فرحم الله فتى خلع عن عقله غاشيات العقائد الجامدة وأسلم وجهه لحالقه تالياً قوله (رب زدني علماً) .

مذهب استحضر الأرواح

عامل كبير لنشر الاسلام في أوروبا^(١)

أجلّ مزايا مذهب استحضر الأرواح في أوروبا هي ما نراه من أنه فتح لذويه نافذة واسعة تطل على العالم الروحاني ، أشرفوا منها على مسألة الوحي والنبوة ، وهي تلك المسألة التي طالما قام بمنازعتها أسرى الحس وقصار النظر وأرادوا بذلك الغض من كرامة الأديان والخط من شرف العقائد ، ولكن أين يتاه بهم ! وقد حكم الخالق لأصفيائه بالنصر والتأييد ، رغماً عن كل جبار عنيد ، فقال تعالى : « ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين أنهم لهم المنصورون وأن جندنا لهم الغالبون فتول عنهم حتى حين وأبصرهم فسوف يبصرون . »

نعم ، إن مسألة التنويم المغناطيسي ومذهب استحضر الأرواح ، قد دلا الإنسان من طريق الحس على وجود عالم روحاني ، وراء هذا العالم الجسداني ، وكفى بهذا الرقي العلمي هادماً لأصول الملحدة الذين قصروا العالم لقصور مداركهم ، على ما تحسه حواسهم الكلية . فكانت هاتان الآيتان الكبيراوان ، التنويم المغناطيسي ومذهب استحضر الأرواح ، اللتان أرسلهما الله تعالى في هذا العصر ، من البواعث العظمى التي ألجأت الإنسان إلى الاعتقاد بالنبوات والاعتراف بوظيفة أولئك الرسل الكرام في هداية الناس وتربيتهم ، ودلتهم على مقاومتهم من عالم الجلال والجمال ، وخصوصاً مقام خاتمهم وإمامهم محمد عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام . وهذه درجة في معراج الكمال الإنساني لا تساويها درجة سواها وهي بعينها مقدمة لوعده الله تعالى : « كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز » .

(١) هذه المقالة تنمة لسؤال وجهه إلينا حضرة الأستاذ الشيخ أحمد محمد الألفي بطوخ القراموص بأبي كبير .

اعتقاد الشاعر الفيلسوف الشهير (فيكتور هوجو)

برسالة نبينا عليه الصلاة والسلام :

ليس في الشرقيين اليوم من يحل مقام الفيلسوف الفرنسي فيكتور هوجو الذي يحله الفرنسيون إجلالاً لا مزيد عليه ، وتشاركهم في ذلك كل الأمم الأوروبية التي استقت من جداول فكره حكمة فكت لهم كثيراً من معميات الحياة . هذا الرجل الكبير كان يعتقد بمذهب استحضر الأرواح ، وله في ذلك كلام كثير وليس يعنينا منه اليوم إلا نقل ما يؤخذ منه صورة اعتقاده بالنبوات وبالأنبياء ومنهم نبينا عليه الصلاة والسلام .

جاء في المجلة الروحية بتاريخ مارس سنة ١٩٠٣ ، ضمن مقالة مستخرجة من كتبه الشهيرة ، قوله في كتاب له : « العالم متحرك بمحركين متميزين ، كلاهما مجعوبان عن مشاعرنا ، وهما الأرواح والقوى الطبيعية ، أما القوى الطبيعية ، فهي تابعة لدستور رياضي لا يتبدل ولا يتغير ، وأما الأرواح فهي حرة لا يقيدتها شيء . من هنا كان من لوازم القوى الطبيعية النظام والأحكام ، أما الأرواح في حريتها فحائز عليها الشطط والضلal ، ومع ذلك فلتلك الحرية التي تتمتع بها الروح معدل يعدلها وينظمها كلما مالت ذات اليمين أو ذات الشمال ، وذلك المنظم هو الضمير . هذا الضمير ليس هو في الحقيقة إلا الشعور بدستور معنوي خفي ناتج من ذلك القانون الأدبي العام المغروز في فطر البشر .

« أما تلك الذات الكاملة التي نسميها (الله) والتي يمكن تسميتها أيضاً بمركز الإفاضات ، فهي المفيض لتينك القوتين السالفتي الذكر ، وبناء عليه فهي قيوم الروح والقوة معاً » .

ثم شبه تلك الذات الكاملة بالشمس وشبه الأنبياء في اكتساب النور منها بالأقمار فقال : « الفطرة المودعة في صميم الإنسان بوجود الله آتية من تلك الشمس مباشرة . أما الديانة اليهودية والصائبية والبوذية والمعددة للآلهة والمناوية و (المحمدية) والمسيحية فهي من نور القمر . لأن موسى ، وبوذا ، وذورو ،

واستر ، وارفيه ، وكونفوشيوس وماني ، (ومحمد) ، وعيسى : هم أنواع من الكواكب دائرين حول تلك الشمس يستشرقون نورها ويعكسونه على من دونهم من العالمين . فالديانات التي هي أقمار الشمس الإلهية وظيفتها إفاضة النور على الإنسان في غياهب حياته وظلمات بقائه .

هذا فيكتور هوجو وليس هو وحده الذي أصبح يقول هذا الكلام ، بل كل نخبة المعتقدين بمذهب استحضر الأرواح ، وقد أضحى هذا الموضوع شائعا بينهم لدرجة معها صار يخطب به خطباؤهم ويكتبه كتابهم بدون حرج . ومن ذلك ما نقلته المجلة الروحية في جزئها الصادر في يوليو الماضي سنة ١٩٠٣ من ملخص خطبة خطبها فيلسوف الاسبرتزم وخطيبها المفوه (ليون دوني) في غرفة الزراعة بباريس . تكلم الخطيب في أثناء الخطبة على وظيفة رجال القرائح الكبرى في العالم الإنساني ، وعلى مكانهم في هداية الخلق وإرشادهم ثم قالت المجلة : « المسيو ليون دوني استعرض أمام سامعيه كبار الوسطاء بين الملائ الأعلى والناس ، وهم الذين خلد لنا التاريخ أسماهم ، وسرد أدلة وحججا استملاها من الحوادث ومن تفاصيل حياتهم ، وذكر من أولئك الرجال المسيح ، ومحمد ، وكريستوف كولومب ، ولوتاس ، وشكسبير ، وجوثر ، وديكارت ، وألفريد موسيه نفسه الذي كان يقر بأنه إنما كان يكتب أشعاره بإملاء روح عالية^(١) . من هنا يرى أن خاصية الإشراف على العالمين قد ملأت تاريخ المعصور كلها ، وأن كل العاملين العظام على ترقية النوع الإنساني كان يوحى إليهم من قبل الأرواح العالية النيرة .

« هذه الخاصية كانت دائما المدة للقرائح العالية ، والمهذبة للعالم والمعلمة المرشدة للأمم والشعوب ، أي أنها كانت الوسيلة التي بها يربي الخالق عباده ويخرجهم من طور إلى طور آخر . وقد كان ينجي بها الشعوب في بعض الأحيان

(١) يرى قارئنا معنا أن القوم اعتقدوا بالوحي حتى أفرطوا فصاروا لا يفرقون بين الأنبياء ورجال القرائح . إنما الذي يهمنا هو إثبات اعترافهم بوظيفة نبينا وخروجهم من جحودهم السابق .

من سيطرة الظالمين كما حصل بواسطة (جان دارك) التي خلصت فرنسا من هاوية العدم. فالأرواح الكبرى بوحياها للمصطفين من النوع الإنساني ، ونريد بالمصطفين رجال المدارك العالية ترتقي الإنسانية بهم ، ويكبر معهم قسطها من إدراك الحقيقة ومن التنور والحب . ا. هـ .

وكتب الكاتب الباحث (سنكس) في المجلة الروحية في جزئها الصادر في يونيو سنة (١٩٠٣) مقالة تحت عنوان « محمد » هي عقيدة أراكين مذهب استحضر الأرواح فيه صلى الله عليه وسلم ، نفتطف منها ما يمس موضوعنا ، وربما ترجناها برمتها إن شاء الله في فرصة أخرى ، قال حضرته : « ظهر محمد بعد المسيح بخمسمائة وسبعين سنة وكانت وظيفته هو أيضاً ترقية عقول البشر بإثرائها الأصول الأولية للأخلاق الفاضلة ، وإرجاعها إلى الاعتقاد بإله واحد وبحياة بعد هذه الحياة . » ثم قال :

« إن الديانة الإسلامية أحدثت رقياً كبيراً جداً في الفكرة الدينية في العالم وخلصت العقل الإنساني من قيوده الثقيلة التي كانت تأسره حول الهياكل بين يدي الكهان ذوي الصبغ الدينية المختلفة . نعم ارتقى العقل بواسطة الإسلام للاعتقاد بحياة أخروية ، وهذه العقيدة هي الوازع الأقوى في محاولات الإنسان المادية ، وإلى الإخبات لإله واحد يستطيع أن يعبد بنفسه ، بدون مداخلة أحد بينه وبينه ، وأن يرتقي في مصاعد كرامته إلى مجالي أنواره وبدون وساطة الوسطاء ولا شفاعة الشافعين من بني جنسه . ولقد توصل محمد بمحوه كل صورة في المعابد ، وإبطاله كل تمثيل لذات الخالق المطلق ، إلى تخليص الفكر الإنساني من عقيدة التجسيد الغليظة التي كانت من لوازم الفكر البشري في القرون الخالية ، وأجبر النوع الإنساني بتأثير هذه التعاليم ، لأن يرجع إلى نفسه ويبحث عن الله خالقه في أعماق روحه وصميم سره ، ليستطيع أن يرتفع بهذه العقيدة النقية إليه تعالى بواسطة العبادة القلبية المملوءة احتراماً وشكراً ومحبة . ولقد قصر الناس في الالتفات إلى ذلك الرقي الأدبي الباهر الذي تم بواسطة الديانة الإسلامية .

وقد حصل هذا الرقي بعيداً عنا لدى شعوب يسهل علينا وصفهم بالمتوحشين ظلاماً بمجرد كونهم لا يخضعون لأفكارنا ، ولا يقولون بعقائدنا ولأنهم أحط منا في العلم والفكر ، ولكن مع كل هذا يجب علينا أن نعتز بأن هذه الحركة الدينية قد رقت ، ولم تنزل ترقى إلى اليوم ، عقول أمم شتى من سكان هذا المعمور .

« أما الإسلام في ذاته فهو في نظرنا اليوم - على شرط تخليصه من كل التعاليم التي ألصقتها به الشعوب الطفلة ، ومن كل الشروح الباطلة التي شرحت بها أقوال النبي - أكبر وأعظم ما يدركه الإنسان من معنى الدين ، وتعاليمه في العلاقات التي يجب أن تكون بين الإنسان وخالقه ، هي أكثر التعاليم انطباقاً على نوااميس الطبيعة وقوانين العقل الإنساني » . ا . هـ .

هذا أجلّ نتيجة لمذهب استحضر الأرواح في أوروبا ، وهو من أهم الأسباب التي تدعونا للإكثار من الكلام فيه والتنويه به ، وتلقي كل ما يحد في مواد البشر والارتياح ، لأننا رأينا من مطالعة ما كان يكتبه القوم في مؤلفاتهم ، وما كانوا يبشرونه في فلسفاتهم قبل ظهور هذه المسألة العجيبة ، أن أفكارهم قد تشبعت بأصول المذاهب الحسية حتى صار من المستحيل عليهم أن يتصوروا بعقولهم ما لم يكونوا يلمسونه بأيديهم أو يحسونه بأحد حواسهم ، وكان قد تأصل فيهم هذا الجمود ، وأفرع فروعاً كثيرة تشبثت كلها في مجاري تصورهم ، ووقفت في مهب رواياتهم ، وأثمرت ثمراتها الموهودة من الشكوك والشبه والإشكالات والشطط . على أننا رأينا أن كل ذلك كان منهم تابعاً لنا موسى رد الفعل ، حيث أن رؤساء مذاهبهم الدينية كانوا قبل ظهور دولة العلم وتأييد صولته عاملين على نشر الأوهام والخرافات وتسميم الفطر بالترهات والأضاليل ترويحاً لمصالحهم ، وحفظاً لمراكزهم ، فلما ظهر نور العلم على ظلمات الأوهام ، واسترجع كل من العقل والفكر حريته الفطرية المفقودة ، وهبت نفوسهم من حذر الغفلة والجمود ، نبذوا كل شيء يشتم منه رائحتهم ، ويحس فيه بأثرهم ، وأولعوا بالتشهير عليهم ، والخط من كرامة كل شيء يذكر فيه اسمهم ، ولما كان أكثر كلامهم في مواعظهم ،

وأكبر دعامة يستندون عليها في أداء وظيفتهم هي مسألة الوحي والنبوات ، فقد تشدد أنصار العلم وقادته في القرون الثلاثة الأخيرة في دحضها وإبطالها ، فإنهم لكذلك ، وإذا بهذه الآلة الكبرى ، آية استحضر الأرواح قد ظهرت من بين تلك الكسف الإلحادية المتكاثفة ظهور الكهرباء الجوية من خلال السحب المتراكبة في الليل الدامس ، فثار ضدها العلماء من أراكين المذاهب الحسية ، وصاحوا بالناس صيحات تدل على نهاية الكبرياء والتطرف في الجبروت قائلين : هذا عود إلى الظلمات الماضية ، هذا رجوع إلى خرافات الأمم البائدة ، هذا هدم لأصول العلوم العالية . وغلا كثير منهم فقالوا : هذا جنون يلم بالحاضرين في جلسات التحضير فيريهم أشباحاً ومرائى لا حقيقة لها إلا في وهمهم ؛ ولا أثر لها إلا في خيالهم ، حتى أن الأستاذ الشهير أكبر الباحثين في الجرائم (سيزار لومبروزو) كتب هذه المسألة في بعض كتبه ، ونسبها لجنون آتيتها ، وعين إسم هذا النوع من الجنون ، وزعم بذلك أنه هدم أصل المسألة واستأصل شأقتها ، وتبعه غيره في مزاعمه هذه ، وكثر الجؤار والحوار من كل الأفواه مصبوغة بصبغ مختلفة ، حتى أن رجال الدين أنفسهم كانوا من أكثر الناس تشدداً في دحضها وإبطالها ، قائلين أن تلك من ألعيب الشياطين والجنة بقول الناس ، ونصحوا العامة بعدم التعرض لها ، وقاموا لها مقاوم لها شأن في الهياكل والمعابد ، ولكن ! تلك حادثة اقتضتها الحكمة الإلهية رحمة بذلك العالم الخابط في متاهات الإلحاد والجود ، المشرف على هاوية العدم والزوال . فبينما هم يتلفتون يميناً وشمالاً ، وإذا بها امتدت وانتشرت واتبعت في انتشارها عين الناموس الذي تتبعه كل حقيقة ، وصار لها اليوم ، أي بعد مضي خمسين سنة تقريباً من ظهورها ، أكثر من مائتي مجلة خاصة وعشرون مليوناً من الأتباع ذوي المكافات الاجتماعية والعلمية المختلفة . وقد مرت في خلال هذه المدة على قرائح قوية ، وأفكار نقية ، وثافتها نقدة العلوم ، وأصحاب الباع الأطول في تدقيق التجارب ، وتمحيص الحقائق ، ولم نسمع أن عالماً فحصها أو كذب بها ، أو نقاداً اختبرها وأرى العالم ومن أصولها وهي أسانيدها ، بل بالعكس ، رأينا أن كل من جربها هام بها

وصدقها وصار من أشياعها ، ولو كانت أحبولة من أحابيل المشعوذين ، أو ضرباً من سيمياء الدجالين ، لما مرت على كل هذه الأنظار سليمة من الطعن ، نقية من الجرح . كلا ، فهذا هو اليوم تنتشر انتشار النور في الظلام تفتح غلف الأفئدة وتأسر أقوى العقول المتشددة ، وكانت هي السبب الوحيد في رجوع الناس إلى الاعتقاد بأن الله رسلاً إلى خلقه يحملون إليهم أنوار دينه ، وأصول شرائعه ، ولئن رأيت في كلامهم على الوحي والأنبياء شيئاً مما يخالف العدل والتبصر ، كوضعهم الفلاسفة والشعراء في مصاف الرسل والأنبياء فليس ذلك بالخطب الصعب ، فإن الذي أرجعهم عن الجنوح المطلق إلى هذا البصيص من النور قادر على أن يقيمهم على الصراط السوي بعد قليل « سأريكم آياتي فلا تستعجلون » .

وأنت لو عرفت كم حجاباً كان يحول بين هؤلاء وهذه الحقائق ، وكم سداً كان مقاماً بينهم وبين هذه العقائد ، لقلت انهم قد خطوا خطوة لو حدث الإنسان بها لما صدق ، ثم أنك لو رأيت كل ما كتبوه في كتبهم إبعاداً للقلوب عن خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم وتنفيراً لها حتى عن الحوم بالفكر حوله بواسطة ما دسوه من تلك الأكاذيب والأراجيف التي سمحت لهم أنفسهم بإبتكارها واختلاقها ، ثم قرأت اليوم ما ترجمناه عنهم بشأنه صلى الله عليه وسلم ، لعلمت أن روحه الشريفة قد عملت فيهم وهي في عالمها العالي ما لم تفعله الطبى من الأعناق ، ولا السمهرات من خبيثات الأضالع .

أليس كل هذا تحقيق لوعده تعالى : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » ، أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد . ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم ألا إنه بكل شيء محيط .



الفصل الثاني عشر

كيف كان إسرائ النبي صلى الله عليه وسلم

وردتنا من حضرة المحترم رياض سليم أفندي بمصر هذه الأسئلة وهي :

١ - هل إسرائ النبي صلى الله عليه وسلم حصل بالجسد والروح أم بالروح فقط ؟

٢ - هل المراد بالصراط والميزان أشياء حسية أو معنوية ؟

٣ - هل الحشر والنشر بالأجساد والأرواح أم بالأرواح فقط ؟

٤ - أي شيء يتنعم في الآخرة الأجساد أم الأرواح ؟

٥ - ما الحكمة في إبراز عالم الشهادة من عالم الغيب؟ هل هي كما يقال لإظهار النور المحمدي ؟ وهل حق ما يقال من أنه لولا رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تخلق هذه العوالم كلها ؟ .

هذه خمسة مسائل من أعوص المسائل الدينية التي خاض عبابها العلماء قديماً وحديثاً ، وكانت سبباً لكثير من الخلافات بينهم ، وهي من الأمور التي تختص بعلم ما وراء المادة ، ولذلك فقد جعلناها من مواضيعه في هذا الجزء ، ولكننا لا نحب أن نجعل الكلام فيها إجمالاً لا تستفي النفس به ، بل رأينا أن نحاول حلها واحدة بعد أخرى ليكون الموضوع أنفع لقلّة العقل ، وأرد لعادية الريب ، وأنفذ لمكان الاقتناع من النفس ، والله الكافي ...

هل حصل الإسراء بالروح والجسد أم بالروح فقط ؟

قال الله تبارك وتعالى : « سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا » . وقال تعالى : « والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى » ، وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى علمه شديد القوى . ذومرة فاستوى ، وهو بالأفق الأعلى ، ثم دنى فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى ؛ فأوحى إلى عبده ما أوحى ، ما كذب الفؤاد ما رأى ، أفتتارونه على ما يرى ، ولقد رآه نزلة أخرى ، عند سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى ، إذ يغشى السدرة ما يغشى ، ما زاغ البصر وما طغى ، لقد رأى من آيات ربه الكبرى » .

هذه الآيات الكريمة نصوص صريحة في حصول الإسراء إلى بيت المقدس والعروج إلى السماء ورؤيته صلى الله عليه وسلم لآيات الله الكبرى ، مما لا يخطر على بال أحدنا خطوراً لما نحن فيه من التورط في أحوال الحس ، والأمة بإزاء هذه النصوص النيرة مجمعة على حصول الإسراء والعروج لا خلاف بينها فيها لاعتقادها بأن النبوة أمر عظيم ينكشف به للأنبياء من جهة عالم الملكوت والجبروت نوافذ يطلون منها على سكان حظائر التقديس ، وعمار الصفيح الأعلى ، هذا ما لا خلاف فيه بين اثنين من هذه الأمة ، ولكن الخلاف في كيفية الإسراء والعروج : هل كان بالروح وحدها أم بها وبالجسد أيضاً ؟

قال الأستاذ القاضي عياض رحمه الله تعالى في شفاة : « ثم اختلف السلف والعلماء : هل كان إسراؤه بروحه وجسده ؟ على ثلاث مقالات :

١ - فذهبت طائفة إلى أنه إسراء بالروح وأنه رؤيا منام ، مع اتفاقهم أن رؤيا الأنبياء حق ووحى ، وإلى هذا ذهب معاوية وحكى عن الحسن والمشهور عنه خلافة ، الخ » .

« ٢ - وذهب معظم السلف والمسلمين إلى أنه إسراء بالجسد وفي اليقظة ، وهو الحق ، وهو قول ابن عباس وجابر وأنس وحذيفة وعمر وأبي هريرة ومالك بن صعصعة وأبي حية البدرى والحسن وإبراهيم ومسروق ومجاهد وعكرمة وابن جريج ، وهو دليل قول عائشة ، وهو قول الطبري وابن حنبل وجماعة عظيمة من المسلمين ، وهو قول أكثر المتأخرين من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين والمفسرين .

« ٣ - وقالت طائفة : كان الإسراء بالجسد يقظة إلى بيت المقدس ، وإلى السماء بالروح ؛ واحتجوا بقوله تعالى : « سبحانه الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى » ، فجعل إلى المسجد الأقصى غاية الإسراء الذي وقع التعجب فيه بمعظم القدرة والتأدح بتشريف النبي محمد صلى الله عليه وسلم به ، وإظهار الكرامة له بالإسراء إليه . قال هؤلاء ولو كان الإسراء يحسده إلى زائد عن المسجد الأقصى لذكره فيكون أبلغ في المدح . الخ . » (انتهى كلام القاضي عياض) .

نقول ، من هنا يتضح لقارئنا أنه لا يوجد نص صريح بالإسراء بالروح والجسد معاً ، ولو وجد لما كان مساعاً لهذا الخلاف كله ؛ ومما يحسن أن يلتفت إليه المطالع أن منكري الإسراء بالجسد ليسوا بمن لا يعتد بإيمانهم أو لا يؤبه لأقوالهم ، الأمر الذي يدل على أن القول بالإسراء بالروح فقط ، لا يقدح في إيمان المؤمن ، ولا يؤثر على كمال عقيدته بشيء .

على أن الذي يود الاحتياط لعقله فيميل لرأي القائلين بأن الإسراء كان بالروح فقط ، لا يليق به أن يتخذ هذه الرخصة سبباً للحط من كرامة السواد الأعظم من الأمة الذين قالوا بأن الإسراء كان جسداً وروحاً . ولو تأمل أحدنا ، لرأى أن أولئك نفر الكبار الذين قالوا بمحض الإسراء الروحاني ، لم يقولوا ذلك استبعاداً له على قدرة الله وعلى كرامة رسوله ، ولكن قالوها وقوفاً مع مبلغ اجتهادهم فيها . ولو حاسب نفسه المستبعد منا وقوع ذلك الإسراء بالجسد والروح معاً ، لرأى أن حرج صدره يرتكز على ضيق دائرة علمه بمساطر الوجود وجهله

لأسرار الخليفة ، وعلى ظنه (وإن لم يصرح به) بأن كل ما خرج عن إحاطته الذاتية ومعارفه الشخصية باطل لا يعتد به في شيء . ونحن لأجل تبرئة هؤلاء الأسلاف الكرام ، الذين كانوا يعتقدون بالإسراء الروحاني الجسداني ، من وصمة الركون للخيال وسرعة التصديق لكل ما يقال ، كما يميل لأن يرميهم به أعداؤهم ، نود أن نقيم الأدلة الطبيعية على قدر يسمح به طاقة العلم المادي بأن عقيدتهم ليست من باب المستحيلات أو الظنون البعيدة التحقق بل هي من مشاهدات الطبيعة وحوادثها اليوم فنقول :

إن وجوه استحالة هذا الإسراء الجسداني تنحصر في أمرين :

أولهما : السرعة العظيمة التي يقتضيها ذلك الانتقال من مكة إلى بيت المقدس ، وهي مسافة يمكن تقديرها بألفي كيلومتر يتعذر على القطار المستعجل قطعها في أقل من ستين ساعة ذهاباً وإياباً .

ثانيهما : إنتقال الجسم الإنساني من مكان إلى مكان بدون آلة من آلات الانتقال المعروفة .

نقول : أما الأمر الأول فليست السرعة اللازمة لقطع ألفي كيلومتراً ذهاباً وإياباً في بضع ساعات من الليل بالأمر المستحيل في ذاته . فإن هذه السرعة لو قورنت بالسرعة المتمتعة بها السيارات السبائية في مداراتها الواسعة لما عدت شيئاً يذكر . وهذه كرتنا الأرضية التي نعيش عليها ولا نتخيل أنها دائرة ، قد برهنت العلوم الفلكية على أنها دائرة حول الشمس بسرعة (ثلاثين كيلومتراً ونصف في الثانية) أي أنها تقطع الألفي كيلومتر التي تفصل مكة عن بيت المقدس في أقل من عشر دقائق . وبناء على هذا فليس أمر هذه السرعة بالحطوب الكبير ، ولا بالشيء العجيب . وكيف نعجب منه بعدما ثبت بالبرهان المحسوس أن هذا الكوكب الأرضي الذي نسرح ونمرح على صهوته ، دائر بنا كل لحظة هذا الدوران المزعج لا يفتراؤة ولا يغفل طرفه عين ، ولو حصل فيه شيء من التغير لاختلت موازنته ، ولتغيرت أوقات الشروق والغروب ، ولتبدلت أحيان

الفضول ، ولتعمقلت بسبب ذلك الزرور والضرور ، مما لا أستطيع أن ألم ببعضه فما بالك بكله والله أعلم .

على أن هذا كله ليس هو الشأن العويص في هذه المسألة ، فإن الخطب الجلل هو البرهنة على إمكان حصول انتقال الجسم الإنساني بدون وسائل النقل المعروفة إلى مثل هذه المسافات الشاسعة .

نقول : المسلمون بإزاء أمثال هذه المسائل العويصة التي تختص بالنبوات أحد رجلين : رجل جاز عقبة الحياة المادية ، واخترق قشور هذه الحوائل الصورية ، فأشرف بروحه على عالم الأرواح واستشرف بفؤاده عجائبها وغرائبها ، وألم بطرف من أمورها وشؤونها ، فهو لا يصدق فقط أن بعض المسائل يصح أن تحصل بقوى روحانية فوق القوى الإنسانية ، بل يعتقد اعتقاد مشاهدة وعيان ، بأننا تحت سلطان العالم الروحاني بحالتيه العلوية والسفلية . فنوايانا الصالحة ، وعواطفنا نحو الكمال والجمال ، وما نحدث به نفوسنا من جلائل الأعمال ، وصالح الأميال ، وما نجده من الخفة للنجدة والمروءة ، وما نحسه من الحمية لمداغة الضيم ، ومقارعة الذل ولو عدى على الحياة ، كل ذلك إلهامات ودوافع آتية إلينا من تلك القوى العالية المحيطة بنا من كل مكان مما نسميه الملائكة . وأما مقاصدنا السيئة ، وسلوكنا خطط الفجور ، ومخالج الفتن وتفكرنا في الإضرار بالناس ، فوسوسة من القوى السفلية التي تتناثر حولنا من كل صوب ونسميها بالشياطين ، هذا الرجل الذي نحكي عنه بمن تذوق طعم الروحانيات وعرف مكانها من الخليقة ، لا يستبعد مثل هذه الأمور ، ولا يجيش في صدره أن يثور عليها .

ورجل آخر مؤمن ولكنه لم يفتح له ذلك الباب العالي ، ولم يشرف على شيء من بدائع العالم الروحاني ، فإنه يحتاج بإزاء هذه المسائل إلى دليل يعتمد عليه ويقارع العدو بسلحه ، كما هو شأن المسلم في كل ما يعتقد ، فلمثل هذا الرجل نسوق شيئاً مما فتح الله به على بعض العلماء الطبيعيين في أثناء تجاربهم في

مسألة استحضار الأرواح لنستطيع أن نقرب للأذهان كيفية انتقال الجسم الإنساني من نفسه (بجوهر روحانية) محضة . وإذ كانت هذه المسألة من عويصات المسائل فقد آلينا على أنفسنا أن لا نبني أسانيدهما إلا بواسطة من لا يمتري أحد في صدقهم من علماء أوروبا .

كتب الأستاذ الشهير العالم الفرد في علم الكيمياء المصري (وليم كروكس) الإنجليزي في كتابه (القوة النفسية) الذي ترجم إلى اللغة الفرنسية وطبع بها اثنتي عشرة طبعة ، تحت عنوان « ارتفاع الجسم الإنساني » ، ما يأتي :

« هذه الحادثة حصلت في الظلام بحضوري أربع مرار في شروط من الرقابة كافية مرضية . ولكن لما كان البرهان الحسي لازم جداً للبرهنة على مثل هذه المدهشات ليتمكننا أن نهضم من أذهاننا عقائد جامدة - حددنا بها لأنفسنا ما هو الممكن وما هو المستحيل رأينا أن لا نذكر من هذه المشاهدات إلا ما يكون فيها الاستنتاج العقلي معضداً بحاسة النظر .

« شاهدت في فرصة من الفرص كرسيّاً عليه امرأة جالسة ارتفع بها عن سطح الأرض بمقدار عدة عقد . وشاهدت مرة تلك المرأة ، وقد أرادت أن تبعد عنها كل ظن من الحاضرين في أنها سبب هذا الارتفاع ، جثت على ركبتها فوق كرسيها ، فارفع بها الكرسي على هذه الصفة بحيث أننا رأينا كلنا قوائمه الأربع . ارتفعت هذه المرأة بهذه الصفة مقدار ثلاث عقد ومكثت معلقة في الهواء مدة عشر ثوان تقريباً . ثم نزلت بهدوء وبطء . ورأيت مرة غلامين صغيرين في فرصتين مختلفتين ارتفعا بكراسيهما من على سطح الأرض في رابعة النهار وفي شروط من المراقبة والضبط مرضية جداً بالنسبة لي لأني عند ذلك كنت جاثياً على ركبي لم تذهب عن مرمرى عيني مطلقاً قوائم الكرسي . فتحققت أنه لا يمكن أن يكون بينه وبين أحد أدنى اتصال .

« أما أغرب مسائل انتقال الجسم البشري وأعظمها فوق كل ما حصل من ذلك أمامي ورأته عينا ، فهو ما حدث بحضور (المسيو هوم) ، فلقد رأيته

في ثلاث حالات مختلفة يرتفع يجسمه من على سطح الأرض تماماً ويتعلق في الهواء .
أما المرة الأولى فقد كان جالساً على كرسي طويل . وأما المرة الثانية فقد كان
جائماً فوق كرسيه . وأما في المرة الثالثة فقد كان واقفاً على كرسيه . وفي كل
مرة من هذه المرات الثلاث كنت متمكناً من مشاهدة هذه الحادثة في بدء
ظهورها .

«وقد حصلت هذه الارتفاعات الجسمية من المسيوهوم نحو مائة مرة شوهدت
أحسن مشاهدة ، وروقت تمام المراقبة أمام كثيرين من ذوي الصفات المختلفة .
وقد سمعت من فم ثلاثة من شهود العيان وهم الكونت (دونرافن) واللورد
(لندسي) والقبطان (س . وين) تاريخ حوادث من هذا القبيل من أغرب ما
يتصوره العقل شوهدت بكل مفصلاتها وأدق جزئياتها » . ثم قال الأستاذ عقب
هذا : « إن رفض صحة هذه الحوادث يعادل رفض كل شهادة إنسانية مهما
كانت صفتها ، لأنه لا توجد حادثة ، سواء في التاريخ الديني أو في التاريخ
الدنيوي ، مستندة على براهين بهذه القوة » . ١٠٥ .

من هنا يرى قارئنا أن مسألة انتقال الجسم الإنساني بواسطة القوى الروحية
أمر أثبتته العلم العصري ، وقد رأيت أنه يحصل لمثل الدكتور (هوم) على ما به
من رعونات البشرية ، وغلبة القوى النفسية مما لا يسلم منه إلا الأقلون ؛ فيما بالك
بنبي مرسل أخلصه الله لنفسه ، واصطفاه لأعباء وحيه ، وانتخبه لمحل شرعه ،
وطهره من أدناس الخصال ، وأرجاس الخلال ، وزكاه من جماع البشرية وزينغ
الأميال الشهوية ، وجعله في عالم وسط بين عالمي الملك والمملوكوت . لا جرم أنه
لا يستبعد على مثل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو تلك الروح العالية التي
برهنت للعالم أجمعه على أنها أكبر الأرواح قدراً ، وأعظمها مقاماً ، أن تنال من
مزايا القوى الروحانية أكثر مما يناله مثل هوم بما لا يقدر ، فإذا كانت هوم
يستطيع أن يقف على كرسيه في الهواء فلا يستبعد على محمد صلى الله عليه وسلم
(لا تنس ما بينه وما بين هوم من الفارق في القوة الروحية) أن ينتقل بجسمه
الشريف على أجنحة القوى الروحانية من مكة إلى بيت المقدس ثم يعود في ليلته .
فيا صاح لا تقنع بأنك صاح !

الفصل الثالث عشر

الاسبرنزم ما وراء المادة

سألنا حضرة الفاضل محمد أفندي العطفي مترجم محافظة السويس عن رأينا فيما قالته مجلة المقتطف في مسألة الاسبرنزم (استحضار الأرواح في أوروبا) بمناسبة سؤال وجه إليها ، فقال حضرته : « طالعت في أحد أعداد مجلة المقتطف إجابة لصاحبه على سؤال وجه إليه أحد قرائه بشأن مسألة استحضار الأرواح ، فأنكر صحتها ونسب التصديق بها لهوس المشتغلين بالبحث فيها ، وقال لا عبرة بكونهم علماء فإن مراكز الإدراك تختلف في الدماغ فقد يكون الإنسان أعلم العلماء بفن من الفنون ولا يفترق عن العامة في ما عدا ذلك من الأمور ، فما قولكم في ذلك . أرجوكم الإجابة كتابة في (الإسلام في عصر العلم) لإفادة العموم » .

نقول : نحن إن كنا نكتب في فن استحضار الأرواح وندافع عنه فإنما نكتب فيه لجملة أوجه مهمة : منها أنه أكبر هادم لمقررات العلم المادي الحاضر الذي قرر عدم وجود شيء في الوجود غير المادة وقوتها الذاتية ، وأن كل هذا الإبداع في عالم الشهادة ناشئ من فعل نوااميس الطبيعة القديمة كقدم المادة ، وأنه لا روح ولا خلود ولا روحانيات ولا ملاً أعلا ولا نعيم أخروي ولا شقاء ولا جن ولا ملك ولا ولا ... مما ترويه للناس كتب الأديان ، وإن الإنسان حيوان مرتق في سلسلة

الوجود ليس غير . فننقل من مذهب ما وراء المادة التجريبي العملي ما يكسر من شره القائلين بهذه المقالات ، المنطنين بتلك المنكرات ، لا سيما وهم يتبجحون بطلب الأدلة الحسية لا العقلية . حتى أنك لو أتيتهم بأعظم البراهين العقلية المنطقية ، لقالوا : إنما أنتم واهمون ، وفي بحار الخيال غرقون ، تصدقون ما تتصورون ، وتدينون لما لا تتحققون ، ولو كانت ثمة حقيقة كما تقولون لظهرت آثارها للعيون ، ولا هتدى إليها الباحثون . فإن رويت لهم من كتب الأولين والآخرين ما شاهده الأولياء والصالحون ، وراه بأعينهم العابدون ، لما ازدادوا إلا سخريه بك واستهزاء منك . زاعمين أن تلك المشاهدات ليست على أسلوب يكفل لها الحفظ من الخطأ ، والتنزه عن العبث واللعب كما هو عليه أسلوب البحث في هذا العصر . فلم نرَ سلاحاً يطاقىء من هذه الرؤوس الشاغخة ، ويطأ من من هذه الكبرياء المفرطة ، ويرغم من هذه المعاطس المعجبة ، إلا مقابلتهم بأبحاث أراكين علماء أوروبا في فن استحضار الأرواح والتنويم المغناطيسي ، فإنها أقوى سلاح اتخذته حماة العقائد ضد هؤلاء المبطلين ، وشاع استعماله في الناس أجمعين .

قال المسيو دولن في كتابه (الحادثة الروحية) الذي طبع خمس مرات ، في صفحة (٢٨٣) : « كان الماديون قبل قليل من الزمن يستطيعون أن يطرحوا براهين الفلاسفة الملمين قائلين لهم أنها ليست على أسلوب يوصل إلى حقيقة ، ولكن باتباع أسلوب الروحيين لا يخشى من الماديين العود إلى مثل هذا الرفض . فإننا لا نقول للناس يجب أن تعتقدوا فيهم أفيض علينا بالتسليم وعدم الدليل ، ولم نحرّم حرية البحث على أحد من العالمين . بل بالعكس نقول لهم : هلموا اقرأوا وجربوا وابتحوا كل ما يؤكد لكم صحة الحوادث التي ظهرت للعموم ، وكونوا مجاثين مدققين ولا تسلموا بصدق مشاهدة إلا إذا استطعتم أن تكررروها بأنفسكم كثيراً وفي شروط مختلفة . وبالاختصار نقول لكم تقدموا والحذر ملء أفئدتكم في سبيل الوقوف على هذه المجاهيل لأن الذي يحشم نفسه بناء أصول جديدة يكون ممرضاً للغلط والضلال ، ومتى درست حادثة من تلك الحوادث ترها تحدئك بذاتها على كنه طبيعتها ومقدار أهميتها . أليست هذه الطريقة هي

أسلوب الفلسفة العملية عينها ؟ وبماذا يستطيع أن يلاحظ أشد الماديين شكية على أمثال (روبر هار) والأستاذ (مابس) والمستر (اكسون) ؟

«إننا إنما نقارع أعداءنا بنفس أسلحتهم لإرغامهم على الهزيمة ، فبنفس أسلوبهم نعلن على رؤوس الأشهاد خلود الروح بعد الموت .

« كل النظريات المادية التي تزعم أن الإنسان آلة مادية بسيطة مجردة عن الروح ، وكل العلماء الذين اتخذوا العلم المادي سلاحاً لإثبات مادية الإنسان وعدم روحانيته ، قد كذبوا أشد التكذيب وبأن ضلالهم بواسطة المشاهدات الحسية الروحية الخ » . إلى أن قال :

« إن قوة الإسبرترزم وسيطرته على العقول آتية إليه من تركه حرية البحث لذويه ، فإن كل أصوله يمكن بحثها والمناقشة فيها وامتحناتها ، ولكنها ما وضعت للامتحان مرة إلا وخرجت أقوى مما كانت قبلاً . والأديان في هذا العصر الأخير تشبه تلك الأربطة اللازمة للطفل لتعليمه المشي ، ولكنها صارت لا تفيد الآن (يظهر أن دولن لا يعرف الإسلام ولو عرفه لما عجم حكمه على الأديان) ، بل صارت مضرة به لبلوغه سنّاً يسمح له بالمشي وحده . والرجل في القرن التاسع عشر لما رأى أن تلك الإديان ثابتة لا تتغير على حسب ناموس الترتي أحس أن تعاليمها القديمة لا توافق الدرجة التي وصل إليها من العلم ورأى نفسه بين أمرين : إما التسليم لمقررات العلم الواضحة ، وإما الخضوع للعقيدة التقليدية ، فلم يسمعه إلا إلقاء نفسه بين أحضان العلم المادي . ولكن متى رأى مثل هذا الرجل أن هنالك مذهباً يوفق ما بين مطلوب روحه من العقيدة ومطلوب العلم فلا يتوقف عن الأخذ به واتباعه . هذه الملحوظات الموجزة على الاسبرترزم تفسر لك سرّ سرعة انتشاره هذا الانتشار المدهش . لا يتوهم أحد أن الاسبرترزم عدو الأديان ، وإنما هو عدو خرافاتها فقط . أما غريمه فهو المذهب المادي ، والذين يشكّون بوجود العالم الأخروي وإن لم يكونوا كفاراً للنهائية . »

نقول : ونحن لمين الأسباب نكثر الكلام من البحث في علم ما وراء المادة

العصري ، ونقول بأعلى صوتنا أنه أكبر نصير للإسلام ، وبواسطته ستسلم أوروبا إسلاماً تدريجياً كما أثبتنا ذلك في الفصل الماضي من أقوال (فكتور هوجو) أكبر رجل في فرنساويين ، وأقوال الفيلسوف (ليون دوني) خطيب الاسبريتيين ، وأقوال (سينكس) الكاتب البليغ .

إن اتهام المشتغلين بالاسبرتزم بالهوس والجنون كان يروج لدى العقول قبل خمسين سنة في أوروبا ، أما الآن وقد صار المشتغلون بها أعلم علماء الأرض فلم يعد لتلك التهمة وزن ولا خطر ، بل أصبحنا ولا يقولها في أوروبا إلا الذين لا علم لهم بكنه الحركة الفكرية في العالم ، وإذا ساغ لنا أن نتهم بما قاله المقتطف عالماء وعالمين فكيف يسوغ لنا ذلك وهم الآن يعدون بالآلاف ؟ إليك جدولاً بسيطاً يشتمل على عشرات من أسماء علماء أوروبا الأعلام ، نورد لهم بدون ألقاب ولا تتأخر عن إيراد تاريخ أكثرهم والإدلال على أنهم جميعاً من رجال النهضة العصرية في الفنون الطبيعية في العالم :

في إنجلترا

- | | |
|------------------------|-------------------|
| (١) وليم كروكس | (٢) لودج |
| (٣) دومرجان | (٤) هكسلي |
| (٥) فارلي | (٦) اكسن |
| (٧) دوكتور تشامبيرس | (٨) هودسن |
| (٩) سنتوس موزس | (١٠) مستر بلفور |
| (١١) رسل ولاس | (١٢) باريت |
| (١٣) جون لبوك | (١٤) لويس |
| (١٥) جان كوكس | (١٦) جورج سكتون |
| (١٧) دوكتور جمس جللي | (١٨) باركس |
| (١٩) جلادستون | |

في فرنسا

(٢٠) كاميل فلامريون	(٢١) موتنييه
(٢٢) دوكتور دوزار	(٢٣) دوكتور أوليفيه
(٢٤) ساردو	(٢٥) جول بوا
(٢٦) أوجين نو	(٢٧) دور وشاس
(٢٨) دوكتور داريكس	(٢٩) دوكتور ريشيه
(٣٠) شارل فوفتي	(٣١) جان فينو
(٣٢) فيكتور هوجو	(٣٣) جريمار

في أمريكا

(٣٤) مابس	(٣٥) اليوت
(٣٦) آدمون	(٣٧) هار

في ألمانيا

(٣٩) زولنر	(٤٠) فيشنر
(٤١) أولتريسي	(٤٢) ونير
(٤٣) شبنر	(٤٤) وندت

في إيطاليا

(٤٥) لومبروزو	(٤٦) انجلو بروفيريو
(٤٧) كيايا	(٤٨) جيوزيب جيروزا
(٤٩) كيابارلي	(٥٠) فولبي
(٥١) بورتيسي	(٥٢) فالكومر
(٥٣) فنزي	(٥٤) جيوفاني

هؤلاء أربعة وخمسون عالماً شهيراً ، ولو شئنا لأصعدنا عددهم من نفس كتبهم إلى مئات عديدة ، وكل منهم له كلام على هذا المذهب وأهميته وتوقع انفراج الأزمة الإلحادية به ، سلكوا في تقريرهم نظرياته مسلك المتحمسين الغيورين بقدر ما كانوا متشددين في دحضه وراجمين بالجنون أشياعه وأتباعه . فإن الدكتور الشهير الباحث في الجرائم والقوى العقلية (سيزار لومبروزو) كان من كبار القائلين في النصف الأخير من القرن الماضي يحنون من يعتقد في الاسبرترزم ، أو يظن أنه يرى بعينيه شيئاً فيه ، وكتب ذلك في بعض مؤلفاته ، ثم لما أهدها الأستاذ فالكومر كتابه المسمى (بوصلة المستقبل) وقرأه الأستاذ قراءة إمعان وتدبر ، تغير فكره واتهم نفسه وتآلم من كتابة ما كتبه قبل أن يفحص ذلك الأمر بنفسه ، فكتب للأستاذ صديقه يقول ما معناه : « لقد جعلني كتابك هذا كالخصاة الحقيمة هوت من قمة جبال عالٍ فهي تهبط إلى حيث لا تعلم ، يتلقاها سفح ويصدمها سفح آخر . وقد عزمت على أن أفحص تلك المشاهدات بنفسي . » ثم صدق في وعده وأكب على دراستها وتجربتها سنة وشهوراً عديدة حتى ثبت لديه بالامتحان أنه كان يجهل هذا الأمر بالمرة ، وأنه كتب عنه ما كتب عن جهل ، فندم على ذلك ولم يشأ أن يصر على ذنبه ، بل كتب كتاباً في هذا الموضوع كذب فيه نفسه واختتمه بهذه الجملة الجميلة : « لنحذر من ادعاء دقة العقل واعتقاد أن كل من سوانا مخرفون واهمون ، ولنحترس من الزعم بأننا وحدنا العلماء دون غيرنا ، فإن ذلك يوقعنا ولا شك في الضلالة والحيرة » .

وإليك الدكتور (جورج سكستون) الخطيب الإنجليزي الشهير ، كان من أشد الناس طعناً في الاسبرترزم وأمضاهم سلاحاً ضد الآخذين به ، ثم لأمر يعلمه الله حُبب إليه بحجة فأكب عليه بذلك العقل الشكاك المتعدد زيادة عن عشر سنين ثم اعتقده وكتب في مجلة (سبرتوالي مجازين) مقراً بغلطه ، وكذلك كان شأن الدكتور تشامبرز والدكتور جيمس جلبي ، أما الأستاذ جورج سكستون فقد كتب عن نفسه يقول ، كما رواه عنه الأستاذ الشهير (روسل ولاس) ، في كتابه عجائب العصر الحالي : « إنني تحصلت في بيتي الخاص وبمعزل عن كل واسطة

للتحضير (غير أصحاب لي لديهم خصيصة استحضار الأرواح) على البرهان الذي يستحيل دحضه (تأمل) والذي هو من طبيعة تؤثر على كل عقل ثابت ، بأن المخاطبات التي تحصلت عليها هي آتية من أصحاب وأفارب ميتين ، .

يظهر لنا أن المقتطف لم يطالع ولا كتاباً واحداً في هذا الموضوع لأنه لو كان فعل لكبر عليه جداً أن يتهم هؤلاء العلماء بالجنون ، وكل واحد منهم لم يدخل ميدان البحث إلا وهو متسلح بسلاح العلم الطبيعي الحاد ، ومدرع بدرع الفلسفة الحسية الشديدة الشكيمة . هنا ننقل جملة مما كتبه الاستاذ كروكس في بعض المجلات الانجليزية ، ثم نقله في كتابه المسمى (أبحاث على المسائل الروحية) قبل أكثر من ثلاثين سنة ، أي قبل أن يصل هذا المذهب إلى ما هو عليه الآن من الشيوع وكثرة الأنصار . ننقل هذه الجملة ليعلم الذين يشكون في عقل أولئك العلماء كيف أنهم ولجوا باب البحث في هذا الموضوع وكيف أنهم فيه كما هم في كل فرع من الفروع العلمية التي يبحثون فيها ، رجال حزم وعزم ودقة وروية . قال كروكس :

« قبل بضعة أسابيع كتب في مجلة (ذي اثنوم) بأني شرعت في عمل أبحاث فيما يسمونه مذهب استحضار الأرواح ، وبالنسبة لما تحصلت عليه من المشاهدات العديدة من ذلك العهد ، رأيت أن أكتب كلمتين في هذه الأبحاث التي ابتدأت فيها . على أنني لا أستطيع أن أقول بأن لي حكماً أو فكراً على موضوع لا أدعي أنني قد سبرت غوره للآن ، فإني أعرف أن الواجب على رجال العلم الذين تدرّبوا على العمل بأسلوب دقيق أن يختبروا الحوادث التي تستلفت أنظار العموم حتى يبينوا حقيقتها أو يفسروا إن أمكنهم وجوه اغترار ذوي النوايا الصالحة بها ويكشفون تدليسات المدلسين . ولكنني آسف أن يعلن عن شخص بأنه بدأ في بحث شيء قبل أن يحكم هو نفسه بأنه قد حان الوقت المناسب لإشاعة ذلك وإذاعته .

« يمكن أن يكون الإنسان عالماً حقاً ويتفق مع الأستاذ (دومرجان) في

قوله : « لقد رأيت حوادث كثيرة روحية ، وسمعت بأن كثيراً منها حدث في أحوال وشرائط تجعل الشك فيها مستحيلاً ، بحيث أن أي كائن عاقل لا يستطيع أن يقبل أي تعليل لحصولها بالخدعة أو الصدفة أو الغلط . وإني من هذه الوجهة أحس بأني واقف على أرض ثابتة ؟ أما من جهة سبب حدوث هذه الخوارق فلا يمكنني أن أختار تعليلاً من التعليلات التي قبلت في هذا الشأن . فإن من الناس من وجد لها بغاية السهولة تعليلات طبيعية ولكنها لا تغني عن الحقيقة شيئاً . ومنهم من عللها بنسبتها إلى أرواح الموتى ، ولكن هذا التعليل مع كونه أشفى للصدر من الأول إلا أنه لم يزل غامضاً يصعب قبوله . » (انتهى قول الاستاذ دومرجان) .

ثم قال الأستاذ كروكس : « أنا لا أستطيع أن أحكم على السبب المحدث للمشاهدات التي رأيتها ، ولكن يوجد منها بعض حوادث طبيعية ، مثل تحرك الأشياء المادية وحدث اللغط الشبيه بصوت بطاريات كهربائية تحصل في أحوال لا يمكن تعليلها معها بأي قانون طبيعي معروف . وهذا شيء أراني متحققاً منه تحققي بأبسط الحوادث الكيماوية .

« كل أبحاثي العلمية حلقة مستطيلة من مشاهدات دقيقة فأريد اليوم بأن يعرف عني بأن المشاهدات التي سأؤكد حصولها هي نتيجة أبحاث بلغت فيها حد الجهد من التمهيد والتدقيق (تأمل) . أنا لا أستطيع الآن أن أجازف بإبداء أي رأي على سبب هذه الحوادث ، فإني لم أرَ للآن ما يقنعني بصحة - الرأي الروحي - (القائل بأن سبب حدوثها الأرواح) ، فإن العقل في مثل هذا البحث يود أن يكون البرهان على ذلك الرأي من الوضوح بحيث لا يتطرق إليه الشك ، فإن الحقيقة يجب أن تكون مؤثرة مقنعة بحيث لا يتجاسر أحد على التردد في قبولها . » اهـ .

من هنا ترى أن هؤلاء العلماء المصدقين بمسألة الاسبريزم ، وكروكس من أكبرهم بل من أكبر علماء الأرض ، لم يصدقوا بها جزافاً بل أنهم حاولوها بما يحاولون به

سائر مساتير الطبيعة بعلومهم التي برعوا فيها ، وعالجوها بعقلهم الخاص لا بالهوس وعدم التروي .

هنا يحسن بنا أيضاً أن نترجم لحضرات القراء فقرات طويلة من كتاب (الحادثة الروحية وشهادات العلماء) تأليف الكاتب الفرنسي الشهير (جابريل دولن) فإنها تشمل سير الحركة الاسبريتية في العالم بالتفصيل الموجز . فإليك ملخص ما قاله تحت عنوان « العلماء » :

« يمكننا أن نبدأ فصلنا هذا بذكر إسم قانوني كبير من نيويورك هو الآن رئيس مجلس الأعيان الأميركي واسمه (آدمون) ، فلقد كان لخبر دخوله إلى مذهب الأرواح رجة عظيمة دوت لها الجرائد الدينية والدينية دويًا هائلاً . فرد ذلك الأصولي على جميع خصومه بكتاب سماه « الحوادث الروحية » ، كان له صدى كبير في جميع المملكة الأمريكية وبث فيها المشاهدات والتجارب التي استند عليها في تقرير مذهبه ، فصعد أحد الملحنين على المؤتمر المقيم في وشنجنوت بضرورة فحص المسائل الروحية إلى عدة ملايين ، ولم يكن قبل كتابه إلى خمسة عشر ألفاً .

« إليك كيفية نفوذ العقيدة الروحية إلى فؤاد ذلك القانوني العظيم . قال حضرته عن نفسه : « في ٢٣ ابريل سنة ١٨٥١ كنت أحد تسعة عشر رجلاً جالساً معهم حول مائدة في وسط الحجرة ، وكان يعلو المائدة مصباح منير وكان مصباح آخر فوق أنبوبة البخار الذي يسخن الحجرة . فما لبثنا غير قليل حتى ارتفعت المائدة نحو قدم عن الأرض ، وأخذت ترتج وتضطرب إلى الأمام والخلف بالسرعة والسهولة التي أستطيع أن أحرك بها قدحاً بين يدي . فحاول بعضنا أن يوقفها وبذلوا لذلك منتهى ما تصل إليه قواهم ، فلم ينجحوا . فلم يسعنا إلا الابتعاد عنها ، ولم نكد نفعل ذلك حتى رأيناها على نور المصباحين صعدت مع ثقلها وتعلقت بالهواء . ففريت من ذلك الوقت على متابعة هذه الأبحاث ظاناً (تأمل) أنني واهم أو مغشوش ، وآليت على نفسي أن أسعى في قشع ظلمات الخرافات

عن عقول الناس بفضح سر هذه الألاعيب . ولكنني رأيت أن أبحائي وتجاري أدتني إلى نتيجة غير التي كنت أقصدها ، أي إلى التصديق بها واعتقاد أنها أمور روحية .

ثم قال جبريل دولن :

« والذي يجب ملاحظته والالتفات إليه في كل هذه الشهادات التي يقدمها العلماء للناس ، أنهم إنما ابتدأوا أبحاثهم وهم مجمعون جازمون بأن هذه المسائل كلها غش وتدليس ، وأنهم ما كلفوا خاطرهم ببحثها وتجربتها إلا لشفاء معاصريهم من هذا الداء الجنوني المعدي . قال الأستاذ مابس الأمريكي الشهير ، مدرس الكيمياء في الجمع العلمي الأهلي في الممالك المتحدة : « لقد رفضت بادئ بدء هذه المسائل واحتقرتها ، ولكنني لما رأيت أن بعض زملائي غرقوا في بحارها ، وهو على ظني سحر جديد عزمت على استعمال عقلي وقواي في بحث هذه المسألة بالدقة ، وغرضي من البحث نجاة رجال متنورين محترمين في كل ما هم فيه ، ولكنهم على زعمي كانوا على وشك الهوي من هذه المسألة إلى مهواة الغفلة والغباوة » . قال جبريل دولن : « فكانت نتيجة أبحاث حضرة الأستاذ مابس مثل نتيجة القاضي ادمون ، وهي الفرق التام في حياض الاسبرترزم . وقد حصل مثل ذلك للأستاذ روبير هار ، وهو من أشهر علماء أمريكا ومدرس في كلية بانسيلفانيا فإنه بدأ في البحث سنة ١٨٥٣ ، وهوزمن كما يقول عن نفسه : « أحس فيه بوجوب استعمال كل معلوماته ومداركه لإيقاف هذا التيار الجارف ، تيار المسائل الروحية التي هي — كما كان يمتقد قبل اعتقاده بها — نزغة عامية ظهرت رغماً عن مقرارات العلم وقضايا العقل » .

قال جبريل دولن : « قبل أن يدخل الأستاذ روبير هار هذا في معمعان هذا البحث ، كان يعرف نتائج أبحاث الأستاذ فاراديه على الموائد المتحركة بنفسها ، وكان يظن أن ذلك الكيماوي الكبير قد وقف على علة تلك الحركات ، وفسرها تفسيراً مقبولاً ، ولكنه لما جربها وامتنحها بنفسه وجد أن تعليقات الأستاذ

الكيماوي ناقصة ، فأخذ في تركيبها باختراع الآلات وأدوات جديدة . فأخذ كرات بليارد مصنوعة من نحاس ووضعها على سطح مصقول من الزنج ، ووضع أيدي الواسطة على تلك الكرات ليتحقق من عدم استعمالها ليديها . فرأى وهو مندهش غاية الدهشة ، أنه رغمًا عن ذلك الاحتراس تحركت المائدة واضطربت بدون فعل فاعل . عند ذلك رأى أن يغمس أيدي تلك الواسطة في الماء بصفة لا تستطيع معها أن تلامس السطح الموجود عليه الإناء الشامل للسائل . فلم يلبث إلا قليلاً على ذلك الشكل حتى رأى أن قوة تعادل ثمانية عشر رطلاً إنجليزياً حدثت على ذلك السطح من غير أثر مؤثر مرئي . فلم يقنع بذلك أيضاً فوجه أبحاثه وتجاربه وجهة أخرى . وذلك أنه أتى بميزان ذو حلزون له دليل متحرك ، وأتى بمول حديدي ثقيل ، ووضع طرفه على مشبك الميزان ، فتأثر طبعاً بثقل المول ، ووقف عند حد محدود . أما طرف المول الآخر فركزه على سطح ثابت غير متحرك ، ثم أمر الواسطة بوضع أصبعها على ذلك الطرف أمام عينيه ، بطريقة لا تؤثر على وزن المول ، ولو أثرت عليه لأنقصت وزنه . فلم يلبث الأستاذ حتى رأى أن المول ازداد وزنه في الميزان جملة أرطال ، فأندهش غاية الدهشة وقضى بالعجب العجائب .

«وسترى بعد قليل بأنه في مثل هذه الحالة صنع الأستاذ الكيماوي كروكس جهازاً يدل على كل تغيرات الميزان في أثناء العمل ، وذلك ليتقني غش مشاعره ولكي يكون البرهان مادياً محسوساً من كل وجه .

«ولما اعتقد روبيرهار بأنه يوجد في الوجود قوة طبيعية تظهر كما ظهرت له في شروط مخصوصة ، أراد أن يعرف ما إذا كانت تلك القوة متمتعة بعقل دراك أم لا . فصنع لذلك القصد دائرة كتب على أحد جهتيها حروف الهجاء جميعها ، وترك الوجه الآخر خالياً ، ووضع في وسطها إبرة تتحرك كإبرة الساعة لتشير إلى الأحرف المطلوبة على التوالي متى تحركت بأثر يقع عليها . ووضع هذه

الدائرة على المائدة بحيث أن وجهها المكتوب كان أمام المجردين ووجهها الخالي من الخط أمام الواسطة من الجهة المقابلة ، فتحركت الإبرة ودلت على الأحرف المرادة ، وتركبت بذلك جمل معقولة بدون علم الواسطة ولا تداخلها .

« كل هذه التفاصيل مكتوبة في كتاب ألفه الدكتور روبير هار وطبعه ونشره باسم (الأبحاث التجريبية على المشاهدات الاسبريتية) ، وكان له نجاح باهر في أمريكا أكبر من نجاح كتاب القانوني آدمون . لأن كتاب آدمون ربما يفسح مجال الظن لبعض الشكاكين بخلاف كتاب الأستاذ روبير هار ، فإنه بمثابة إقرار رسمي من العلم الرسمي عن لسان أحد أبنائه الذين لهم الحق في أداء مثل هذا الحكم .

« من هذا العهد نشبت الحرب العوان ، وصعد لهيب الجدل إلى العنان ، واشتبك بذلك العلماء فيما بينهم أخذاً ورداً ، وتمحصياً وفحصاً ، ولم يستطع واحد من المكذبين أن يبرهن على أن ما فعل من التجارب (تأمل) غير موافق للشروط العلمية العملية . فبقي النصر في جانب المنتصرين للاسبرترزم .

« والخلاصة أن أكثر الداخلين في هذا المذهب هم الرجال الذين تمهدوا في مبدأ الأمر بدحضه وإقامة الأدلة الحسية على فساد مبناه وأصله . ولسنا في حاجة إلى زيادة الشرح في هذه النقطة فإن المسألة عينها حصلت في انجلترا . فإن رجال العلم الفيورين على صفتهم العلمية في هذه المملكة الأخيرة ، لم يريدوا أن ينهزموا أمام ما كانوا يعتبرونه وسائس عامية وخرافات جاهلية ، بل رموا بأنفسهم في لجة البحث والتنقيب . ولما أنسوا بأن نتيجة التجارب العلمية أدتهم إلى خلاف ما كانوا ينتظرون ، لم يجهنوا عن إعلان الحقيقة بدون خشية ولا خوف من الاستهزاء والسخرية ، وهما سلاحا الجهالة والتعصب الذمير .

« من بين الرجال العظام في أمريكا الذين دخلوا إلى مذهب الاسبرترزم حديثاً (روبير دال أوين) ، الحائز لصفتين كبيرتين : أولهما كونه معدوداً بين العلماء العاملين ، وثانيها كونه من فطاحل الكتاب المنشئين باللغة الإنجليزية . فإن كتاب الأخير الذي طبعه في فيلادلفي سنة ١٨٧٧ تحت هذا العنوان المبتكر « عثرات

على حدود العالم الآخروي ، ، مفعم بالأفكار العالية والملاحظات السامية والوقائع المعلمة المهذبة .

«والخلاصة أن الحركة الاسبريتية في هذه الأوقات أحياء وأنشط منها في أي زمان كان . فإنك ترى في كل بلدة وعاصمة من عواصم أمريكا وبلادها جمعيات منتظمة متسعة دأبها ومهما البحث في المسائل الروحية وامتحانات مشاهداتها وخوارقها . وبها نحو من إثنين وعشرين جريدة ومجلة تنشر بين الناس لنقل أخبار وحوادث تلك الحركة المدهشة إليهم . ومجلة « بتراف ليت » التي تطبع في بوستون هنالك من منذ إثنين وعشرين سنة ، هي الرائد الخبير للاسبريتزم في أمريكا . ومما يدل بأجلى دليل على قوة سير الحركة الاسبريتية في أمريكا ، هي الاجتماعات السنوية التي تلتئم سنوياً حول شاطئ بحيرة « كساراجا » . فقد ابنتى الروحانيون هنالك محلات تسع نحواً من عشرة آلاف نسمة ، ومع ذلك فالزحام يشتد هناك لدرجة أن كثيرين من الوفود بعائلاتهم يسكنون الخيام حول المدينة .

« كل هذه الأمور تثبت أهمية الحركة الروحية في أمريكا ، لا سيما وأن مثل هذه الاجتماعات تحصل على شواطئ المحيطين الأتلاتنكي والهادي وجميع البحيرات الأمريكية . ولنضف إلى هذا أن جميع عواصم الممالك المتحدة لها جمعيات روحية ملتزمة منتظمة . وقد ثبت من الإحصاء الذي عمل سنة ١٨٧٠ (أي قبل ٣٣ سنة) أنه يوجد بأمريكا للروحانيين عشرين جمعية للمملكة ، ومائة جمعية وخمسة جمعيات للروحانيين أنفسهم ، ومائتا خطيب وسبعة خطباء ، واثنين وعشرين واسطة تحت طلب الناس غير الوسطاء الخاصين . وقد نقل الأستاذ الفيسيولوجي الإنجليزي روسل ولاس في كتابه « عجائب العصر الحالي » أن عدد الروحانيين في أمريكا وحدها بلغ أحد عشر مليوناً » (فتأمل)^(١) .

(١) في هذه الصفحات وفي الصفحات التالية (من ٣٢٩ حتى صفحة ٣٥٤) يعرض المؤلف ، ملخص لما قاله (جبريل دولن) في كتابه (الحادثة الاسبريتية) . حول (الاسبريتزم في العالم) . مع بعض تعليقات المؤلف خلال عرضه لترجمة الكتاب - الناشر .

الفصل الرابع عشر

الاسبرتزم في العالم

الاسبرتزم في إنجلترا

في إنجلترا خصوصاً ، يجد الإنسان ثلة من كبار العقول مشغولة دائبة في درس الإسبرتزم والتعمق فيه .

وأول ما نبتدىء به من الشهادات على صحة هذا المذهب ، شهادة الأستاذ ولیم کروكس الذي تغنينا شهرته عن سرد ألقابه الكثيرة وماله من الاحترام والإجلال في أفئدة العالم .

ولأجل الإدلال على بعض فضله يكفيننا أن نقول أنه هو الذي اكتشف الجوهر يسمى (تاليوم) ، وهو المقيم البرهان العملي على وجود المادة الذي تخليها (فاراديه) قبله تخيلاً ، هذا الاستكشاف فتح للأبحاث العصرية مجالاً فسيحاً في ميداننا واسعاً ، وأبعد مدى التأملات الإنسانية حتى يمكن أن يقال أنه من أكبر الاكتشافات التي حدثت في هذا القرن . لا جرم أن عقلاً مثل عقل الأستاذ کروكس لا يجازف بنفسه في مضمار مجهول بدون أن يكون قد أخذ ما يخطر يفكر من أسباب الدقة ووسائل الوصول إلى الحقيقة مع الأمن من الخطأ والخلل .

إليك ما قاله في شأن الاسبرتزم في فصل كتبه في المجلة الانجليزية المسماة (كواترلي ريفيو) في شهر يوليو سنة ١٨٧٠ « أي قبل ٣٣ سنة » :

« يقول الروحي أن جسماً يزن ٥٠ رطلاً أو ١٠٠ رطل يمكن أن يعلو في الهواء بدون أدنى قوة محسوسة ، ولكن العالم الكيماوي اعتاد استعمال ميزان حساس جداً بحيث أنه يشعر بثقل ما لو جمع منه عشرة آلاف ضعف لما زاد وزنه عن الحبة . فهو لا يطلب من تلك القوة المحتجة التي تقول أنها عاقلة مدركة وترفع تلك الأجرام الثقيلة إلى السقف ، إلا أن تحرك ميزانه الحساس في شروط مخصوصة عند ما يكون في حالة التوازن .

« الروحي يتكلم عن طرقات تسمع في جهات مختلفة من الحجرة لما يجلس نفران أو أكثر حول مائدة في غاية السكون ، ولكن المجرب العلمي يود أن تلك الطرقات تحدث على غشاء فونوغراف .

« يتكلم الروحي عن اهتزاز وارتجاج حدث في غرفة بل على بيوت حتى أحدث فيها خللاً بواسطة قوة فوق قوى الطبيعة ، ولكن رجل العلم لا يطلب إلا تحريك كرة البندول الموضوع تحت ناقوس من زجاج ومركز على أساس ثابت .

« يتكلم الروحي عن أشياء ثقيلة وأنواع من أثاث البيوت تتحرك من غرفة إلى غرفة بدون فعل فاعل ، ولكن العالم قد اكتشف عدة تقسم له العقدة إلى مليون درجة وتراه يشك في كل ما تعمله تلك القوة المحتجة ان لم تستطع أن تحرك دليل تلك الآلة درجة واحدة من تلك المليون درجة .

« الروحي يتكلم عن سقوط أزهار مكحلة بالندى وعن أثمار بل وعن كائنات حية أنفذت من خلال الحائط ، ولكن المنقب العلمي لا يطلب إلا وضع جزء من مليون من حبة على كفة ميزانه الحساس بينما يكون ذلك الميزان موضوعاً داخل وعائه الزجاجي المقفل ؛ والكيماوي لا يطلب إلا إدخال جزء من ألف من حبة الزرنيخ في سائل موجود داخل أنبوبة محكمة القفل .

« الروحي يتكلم عن ظهور قوى تعادل ألوف من الأرطال بدون سبب مولد لها ، ولكن رجل العلم الذي يعتقد بأن القوة محفوظة وأنه لا ينتج منها شيء في جهة إلا بحدوث ما يقابلها في جهة أخرى ، لا يطلب من تلك القوى الظاهرة

إلا أن تحدث في معمله حيث يستطيع أن يزنها ويقيسها ويجري عليها الامتحانات اللازمة .

وقال جبريل دولن عقب هذا مباشرة :

« من هنا يعلم بأي حذر واحتراس تقدم هذا العالم الكيماوي إلى بحث ما تصدى له من هذه المشاهدات . ولم يرد أن يجرب ما يجربه إلا في معمله الخاص حتى يكون وآثقاً بأن لا غش ولا خداع في أقل حركة من حركات تجاربه العلمية ، وهذا هو العقل والحكمة .

« وكـم بين هذا العلامة الجسور وبين علمائنا الفرنسيين من الفروق الجسيمة ، حيث أن هؤلاء الأخيرين ينكرون الاسبرتزم بدون دليل ولا برهان ! هذه الجملة التي نقلناها عن كروكس مكتوبة في سنة ١٨٧٠ ، ولكن هذا العالم بعد أن أمضى أربع سنوات متوالية دائباً وراء البحث والتجربة كتب سنة ١٨٧٦ يقول :

« أنا لا أقول أن هذا ممكن (يريد مشاهدات الاسبرتزم) ولكنني أقول أنه ثابت محقق » .

وسترى بعد قليل ماهية التجارب التي أقنعت هذا العالم الإنجليزي .

« الجمعية الحديثة التي تكونت في لوندرة سنة ١٨٦٧ تحت رئاسة السير جون لبوك - هو الآن لورد افبري - والتي من وكلائها توما هنري هكسلي ، وهو من أعلم علماء الإنجليز ، والمستر جورج هنري لويس الفسيولوجي الطائر الصيت ، قررت في جلستها المنعقدة في ٦ يناير سنة ١٨٩٦ بأن تتألف لجنة من أعضائها لدرس الحوادث الأسبريتية المزعومة وإعطاء الجمعية تقريراً عنها . فما حدث من الجدل والشغب لدى تقرير هذا العزم وإخراجه من القوة إلى الفعل يدل على أن أكثر الأعضاء كانوا مكذبين بالاسبرتزم ، وتلقت الجرائد الإنجليزية هذا الخبر بالفرح والسرور ظانة أنها ستقضي على الاسبرتزم الحاضر القضاء الأخير . فلبثت هذه

اللجنة ثمانية عشر شهراً دائبة في فحص مشاهدات الاسبرترزم ثم قررت صحتها للملأ ، فلا تسلم عن الدهشة التي عرت عموم الناس عند ذاك من سماع هذا الخبر .

« من بين الأعضاء الذين حضروا هذه التجارب العلامة الطبيعي الإنجليزي الشهير الفريد رسل ولاس ، نديد دارون الشهير وزميله في أعماله ، وقد كان قبل حضوره تلك الجلسة معتقداً بصحة الاسبرترزم .

« وقد ألف هذا العالم الكبير كتاباً شرح فيه اعتقاده وفكره في الاسبرترزم ولم يخش اللاتمة ، وسمى كتابه (عجائب العصر الحالي) كما فعل قبله الأستاذ مابس والاستاذ هار وكثيرون غيرهما .

« ومن ضمن الشهود الذين سمعت اللجنة أقوالهم في صالح الاسبرترزم الأستاذ اجوست دومرجان رئيس الجمعية الرياضية بلندره وسكرتير الجمعية الفلكية الملكية . والمستر فارلي رئيس مهندسي قومبانيات التلغراف الدولي وما بعد المحيط الأتلاتيكي ، ومخترع مكثف كهربائي ، والذي توصل إلى حل غوامض مسألة التلغرافات البحرية .

«المستر دومرجان هذا قد أقر بعقيدته علناً بكتابه المسمى (فروم ماستر أوف سبريت) وسترى بعد قليل خطاباً من المستر فارلي المتقدم ذكره يشكر فيه الأرواح شكراً جهرياً .

« إن اجتماع آراء مثل هؤلاء الرجال المشاهير في صحة الاسبرترزم كافٍ في تقرير نظريته وتدعيمها تدعيماً ثابتاً ، ولكن في مثل هذه المواضيع العويصة يحسن بالإنسان أن يكثر من الشهادات عليها . فإليك شهادات أخرى :

«المستر أوكسون استاذ كلية « اكسفورد » درس في مدة خمس سنين مسألة الكتابة بلا واسطة ، أي الكتابة التي تحدث بنفسها بدون قداخل إنسان . وكتب في ذلك كتاباً سماه « سبريت ايدانتني » الذي سنستفيد منه في الجدليات التي ستلي هذا الموضوع .

« ولئنوه يضاً بأبسم المستر باركاس ، عضو الجمعية الجيولوجية بنيوكاسل ، فلقد قص تجاربه الذاتية في كتاب مفيد جداً اسمه (اوتلينس أوف انفستيجيشن إنتو مودرن سبيريتواليزم) ، ولا يسعنا هنا إلا استلفات أنظار الذين يودون الاقتناع بصحة الاسبرتزم أن يقرأوا هذا الكتاب بامعان وروية .

« الحرب العوان التي قامت في إنجلتره من جراء المسائل الاسبريتية لم تكن بأقل حساسة وشدة منها في الممالك المتحدة بأمريكا ، فلقد تألب أعداء الاسبرتزم هنالك أيضاً ، وجمعوا كل قواهم لهدم الأصول الجديدة ، ولكن في تلك المملكة التي فيها حرية البحث محترمة مرعية ، والخوف من السخرية أقل تأثيراً على النفوس ، لم يتأخر الداخلون إلى مذهب الاسبرتزم من الاعتراف بمقائدهم علناً على رؤوس الأشهاد .

« من بين الشكاكين الجامدين جداً كان الدكتور جورج سكستون الخطيب الإنجليزي الشهير ، الذي كان شاهراً على الاسبرتزم حرباً عواناً ، ولكنه لما أكتب على البحث خمس عشرة سنة رجع إليه واعتقده .

« وهناك عالم آخر الدكتور تشامبرس الذي عادى المذهب الجديد زماناً طويلاً رجع فأقر بصحة الاسبرتزم وكتب بذلك لمجلة (سبريتوال مجازين) .

« ولنضف إلى هؤلاء الدكتور جس جلي مؤلف كتاب في الأمراض العصبية له شهرة فائقة ، ومؤلف كتاب (قانون الصحة في الأمراض المزمنة) الذي يرحل إليه في إنجلتره .

« مما مر بك ترى أن الاسبرتزم قد اجتذب من الناس العلماء الكبار . وقد أجرى هؤلاء العلماء على خوارق الاسبرتزم قانون العلم العملي وأسلوب الفلسفة الحسية ، فخرجت منه غالبية منصورة رغماً عن التجارب المتكررة التي أجريت في ذلك .

« منذ عشر سنين تألفت في إنجلتره جمعية إسمها (سوسيتي فور بسيشيكال روتشيرتش) غرضها توسيع دائرة البحث في الاسبرتزم على موضوع ظهور

الأشباح . وقد نقلت بالترتيب في مجموعتها المسماة (بروسيدنجس) حكاية مشاهداتها ، وكتبت كتاباً في ذلك اسمه (أشباح الأحياء) فيه سرد مائتي حادثة ثابتة لا يشك فيها .

« وقد نسب هذه الحوادث (ميرو جورني وبودمور) مؤلفو هذا الكتاب إلى (التليباتيا) أي تأثير الروح الإنسانية على إنسان آخر عن بعد ، فالشبح الذي يظهر في تلك الحالة يسمى (خيال صادق) . وهذا كما لا يخفى محاولة علمية ، الفرض منها تسرية القوانين الطبيعية المعروفة على المشاهدات الاسبريتية .

« فاكسب الاسبرتزم من هنا صبغة جديدة ، وقد رأينا عالماً من كبار العلماء مثل لودج الملقب بدارون علم الطبيعة ، يلح على الجمعية العلمية الإنجليزي لترقية العلوم بضرورة التقدم للأمام والاتفات لهذه المسائل الاسبريتية الآسرة الباهرة الجديرة بالدرس والفحص الواجبين .

« ويمكننا أن ننوه من بين سائر الجرائد الإنجليزية الكثيرة باسم مجلة (ذي ليت) التي يديرها المستر اكسون ومجلة « ذي مديوم نديبيريك » . لنمسك القلم هنا ولننظر فيما حصل في فرنسا .



٢ — الاسبرتزم في فرنسا

تابع ما قبله من تعريب مقالة ج. دولن

« صدى صوت المشاهدات الخارقة للعادة التي كانت تحصل في أمريكا أحدثت في فرنسا ميلاً شديداً إلى الوقوف على أمرها ، ولم يمض غير قليل حتى أصبح أمر سؤال المادة منتشراً بين سائر الطبقات انتشاراً عجيبياً . فكنت ترى « الموضة

الجديدة ، في الصالات هي إلقاء الأسئلة التافهة جداً على الموائد المتحركة ، حتى صارت تلك المسألة تسلية في أوقات الفراغ ونشبت بالأذواق نشوباً جنونياً .

« مضت سنتا ١٨٥١ و ١٨٥٢ ولم يرَ أحداً في مسألة الاسبرترزم إلا ألعوبة ظريفة ، ولم يكن أحد ليسلك بها مسلك الجد والنظر العلمي ، ولما كان الناس يجهلون ما بذل فيها العلماء من العناية فيما وراء المحيط الأتلاتنتيكي زهدوا في استعمالها وهجروها ، لأنها لم تكن بالنسبة للجواهر إلا شيئاً جديداً فقط .

« ومع ذلك فقد كان بعض المنشئين مثل أوجين نو وبعض رجال المظاهر مثل الكونت دوريس والبارون دو جولدنستوبيه ، التفتوا إلى أن المائدة في أثناء حررتها إنما تتحرك بعقل وروية ، فكتب الأخير كتاباً سنة ١٨٥٧ سماه « صحة ظهور الأرواح » . وفي هذا الكتاب ترى التجارب الأولية التي أجريت في بلادنا على الكتابة بدون واسطة .

« هذا المؤلف لم يحدث أثراً كبيراً في عالم المطبوعات ، فقد قابلته الجرائد على عاداتها الممدوحة (تهكم) بالسخرية ببعض أولئك الرجال الذين ثبتوا في فحص هذه المسائل المفيدة ، وركد ربح المسألة الاسبرترية بعد ذلك حتى ظهر « كتاب الأرواح » لمؤلفه الشهير اللان كاردك ، فاشتعلت الحرب العوان بين رجال الأقلام ، ورأى الناس أجمعون وهم في غاية الدهشة والاستغراب أن ما كانوا يعتبرونه قبل قليل من الزمن ألعوبة مسلية قد أنتج أكبر النتائج الفلسفية ، وأنه قد نشأ من تحريك المائدة البرهان المحسوس على خلود الجزء المفكر من الإنسان ، وإن النوع الإنساني بذلك أصبح أمام علم جديد بمستقبل الروح بعد الموت .

« هذه المسائل الكبرى لا يمكن أن يقبلها جمهور الناس بدون جدال ونزاع ، فقابل الناس هذا المؤلف المجازف بصيحات مزعجة من كل مكان . وواجهته الجرائد والمجامع العلمية بالاعتراض والتبكيت ، ولكن من حسن حظ بلدنا فرنسا ، لم يحصل للاسبرترزم ما حصل له في أمريكا من المشاهد الخشنة والمواقف القاسية .

« لم تكذ تظهر مسألة الموائد المتحركة ثانية في فرنسا حتى انقسم أصحاب الفكر فيها إلى قسمين : قسم حكم بأن تلك المسألة أكذوبة محضة من أصلها ، وأن حركة المائدة نتيجة التدليس والغش ، أو نتيجة حركة غير اختيارية ناشئة من المجردين . وهذا كان رأي جمعية العلوم ، ورابينيه ، وشفرويل ، وسندرس بعد قليل ما يحتويه هذا الرأي من صلاح أو فساد . والقسم الثاني قرر بأن حركة المائدة وإجابتها على الأسئلة المختلفة نتيجة فعل مغناطيسي ذي تأثير خاص لا يزال مجهولاً . ومن القائلين بهذا الرأي ، الكونت أجينور دوجا سباران الذي له الأبحاث الدقيقة في هذا الشأن وصاحب كتاب : « الموائد المتحركة - ما وراء الطبيعة والأرواح » .

« هذا التعليل الأخير قبله وجرى عليه عدد من الكتاب مثل شفيار ، أما الأستاذ توري من جنيف ، فقد علل هذه الحوادث بعامل خاص بها سماه « بسيكود » وهو سيال يخترق الأعصاب وكل المواد العضوية وغير العضوية مثله في تلك الخاصة كمثال الأثير الذي اخترعه العلماء . وعللها المستر روجرس ، وهو كاتب أمريكي ، بأنها نتيجة الحركة الذاتية للمراكز العصبية الخ ...

« كل هذه الأبحاث وكل هذه المجادلات أوصلت المشتغلين بهذه المسألة للجزم بأن هذه التعليلات غير كافية ، وأنه يوجد عامل آخر في حدوثها . فالتجأوا لقبول الرأي القائل بوجود القوة النفسية وإمكان تأثيرها على المادة في شروط مخصوصة . ولكن هنا أيضاً انقسم الناس إلى جزئين : حزب الفلاسفة الروحيين ، وهؤلاء حكموا بأن تلك الحوادث منشأها أرواح الموتى ؟ وحزب الكتاب الدينيين ، وقد قرروا بأن تلك الحوادث لا مصدر لها إلا القوة السفلية ، قوة الشيطان نفسه . ومن بين القائلين بهذا الرأي الأخير كان الماركيز أودد ومير فيل ، الذي سرد في كتابه « الأرواح وظهورها » عدداً عديداً من مشاهدات ونسبها لإبليس . وقال بهذا الرأي عينه الشفاليه جوجنو ديه موسو ، وسمى الاسبرقزم السحر الحاضر ، وبرهن هو والقس فنتورا من الكتاب المقدس على أن ظهور

الجنة للناس منصوبة في الإنجيل نفسه ، وذكرها كثيرون من قسوس الكنيسة .
وهنا يحمل بنا أن ننوه بكتب القس بوسان دونيس والقس مارسوا اللذين كانا
بذهبان هذا المذهب .

« كل هذه الاختلافات المذهبية بإزاء هذه المسألة ليست بالأمر المستغرب ،
فإن التخالف والنزاع أمام مسألة مجهولة كمسألة الاسبرترزم ، وذهاب كل حزب
في تحليلها على مقتضى الأسلوب الفلسفي في مذهبه أمر طبيعي ، ولكن لا يخطر
على فكر عاقل أن يتخيل تعليلاً عجيباً مضحكاً مثل التعليل الذي أتت به
جمعية العلماء الفرنسية بشأن تحرك الموائد في جلستها المنعقدة في سنة ١٨٥٩ .
فقد اكتشفت جمعية العلوم الطبية وترأ في الفخذ يتحرك بصوت مرتفع في بعض
الأحيان ونسبت إليه ما يظنه الروحانيون في جلسات التحضير حوادث روحية
آتية من العالم الآخر .

« وجد هذا التعليل الغريب جوبير دولبال فلم يسع الجمعية العلمية إلا تحييده
والإطراء به لوجدانه في شحم ساق الإنسان ، هذه الخاصية غير المنتظرة .
ولكن جمهور الناس لم يعلق أدنى أهمية على هذا التعليل التافه . وليس علينا
من حرج في إشهار أسماء كثير من العظماء الذين قبلوا الاسبرترزم في فرنسا قبولاً
تاماً .

« كتب أوجست فاكري في كتابه « فذلك من التاريخ » بلهجته الحادة الشجيرة ،
التجارب التي جربها هو ومدام جيراردان في بيت الشاعر الكبير الفيلسوف
فيكتور هوجو . وسترى بعد قليل حكاية تلك التجارب مكتوبة بقلم ذلك
المنشئ الطائر الصيت الذي تؤثر عنه هذه الكلمة الجميلة : « أنا أصدق بوجود
الأرواح التي ظهرت في أمريكا وأسمعت الناس قرعاتها لشهادة خمسة عشر ألفاً
من الناس في صحة ظهورها » .

« أما أكبر شعرائنا العصريين فيكتور هوجو ، فقد قال في موضع آخر :
« لقد استهزأ الناس كثيراً بالموائد التي تحركها الأرواح ، ولكن بما لا شبهة فيه

أن هذا الاستهزاء لا طائل تحته . — فإننا نعرف أن من واجب العلم سبر غور كل الحوادث الطبيعية من أي نوع كانت . وأرى أن تجريد الاسبرترزم من مزية استلفات الأنظار التي هو أهل لها ، يعادل في نظرنا تجريد الحقيقة من حقوقها . (انتهى كلام هوجو) .

« المسيو فيكتوريان ساردو^(١) قد اعتقد بالاسبرترزم وصار هو نفسه واسطة تستعمل الأرواح يده في الرسم والتصوير على غير إرادة منه . وقد نشرت المجلة الروحية سلسلة رسوم جميلة رسمتها الأرواح بواسطته وهو مستسلم لها تمام الاستسلام ومعطل إرادته تمام التعطيل . وتلك الرسوم والتصاویر جاءت قطعاً باهرة الصنع من حيث الرقة والإتقان الروحاني الحقيقي .

« وقد كتب المؤرخ أوجين بونغير :

« لقد استهزأت بالاسبرترزم كما استهزأ به الناس أجمعون من قبلي ، ولكن الأمر الغريب أن الاستهزاء الذي كنت أعده استهزاء « فولتريا » لم يكن في الحقيقة إلا استهزاء المغفل الأبله ، وهذا الاستهزاء الأخير أكثر شيوعاً بين الناس » .

« الحركة الاسبريتية اليوم هي أحياء وأنشط مما كانت عليه قبلاً في فرنسا . وقد تكونت في باريس جمعية المباحث النفسية التي تكونت في لوندرد ، تدعى جمعية المباحث « البسيكولوجية الفزيولوجية » أي النفسية التشريحية ، الغرض منها درس حوادث « التليباتيا » ، أي ظهور الأشباح . وعينت هذه الجمعية لجنة منها لانتقاد الحوادث التي تقدم إليها من هذا القبيل . إليك أسماء أعضاء تلك اللجنة :

١ — سيلي برودوم « من الجمعية العلمية الفرنسية » وهو رئيس اللجنة .

٢ — ج. باليه « أستاذ منتخب من جمعية العلوم الطبية » .

(١) فيكتوريان ساردو هذا من أشهر مشاهير كتاب الفرنسيين في القرن العشرين .

- ٣ - بوميه « أستاذ في الكلية الطبية بمدينة « ناسي » .
- ٤ - شارل ريشيه « أستاذ بالكلية الطبية » .
- ٥ - الكولونل دوروشاس « مدير المدرسة الهندسية الفرنساوية » .
- ٦ - ماريليه « أستاذ بمدرسة العلوم العالية » ، وهو كاتم سر اللجنة ، وللجمعية مجلة شهرية تسمى « أنال بيسييك » يديرها الدكتور داريكس ، أسست لنقل مباحث تلك الجمعية ونشرها .
- « تكوّن هذه الجمعية من هؤلاء الأعضاء بمثابة الإقرار عليها من جهة العلم الرسمي ، ولكن الاسبريتيون الفرنساويون لم ينتظروا هذه التشجيعات فكوّنوا من عهد بعيد لأنفسهم عدداً عديداً من الجمعيات في جميع أنحاء المملكة الفرنساوية .
- يوجد في باريس عدد عظيم من جمعيات صغيرة يحضرون فيها الأرواح ، ولكن هناك جمعيتان عموميتان وهما « المجمع الروحي » ، نمرة ٥٥ بشارع ساتودو ، و « جمعية الاسبرترزم العلمي » ، نمرة ١٨٣ بشارع سان دونيس .
- أما في أقاليم فرنسا ، فنستطيع أن ننوه من بينها باسم « المجمع الاسبريتي الليوني » ، ولهذه الجمعية مجلة تدعى « السلم العام » ، و « المجمع الاسبريتي بريس » ، و « المجمع الاسبريتي برون » ، تظهر أعماله كل ثلاثة أشهر منشورة في مجلة « فكر الموتى » .
- أما مدائن مارسيليا ، و أفينيون ، و تولوز ، و بوردو ، و نانت ، و تور ، و لومان ، و أورليان ، و لي ، و بالودوك ، و نانسي ، و رين ، و بيزانسون ، فلها مجتمعات مؤسسة على قواعد ثابتة وبواسطتها يزيد عدد الروحانيين وينمو يوماً بعد يوم . أما أشهر المجلات الفرنساوية الأسبريتية فهي :
- (١) المجلة الروحية (٢) المجلة العلمية الأدبية للاسبرترزم . (٣) الترقى الروحي . (٤) النور . (٥) الديانة بلا كنيسة . (٦) مجلة أتباع سويدا نبورغ . (٧) منار نورماندي .

«سبب انتشار هذه الحركة الروحية في فرنسا هو المؤتمر الاسبريتي الذي التئم في باريس سنة ١٨٨٩ . وقد كتب في خلاصة أبحاث هذا المؤتمر أن عدد أعضائه بلغ أربعين ألف عضو (٤٠٠٠٠) وكان فيه مندوبون من كافة الجامعات الاسبريتية . «سنرى بعد قليل أن الحركة الروحية التي نشأت تحت سماء أميركالم تبلغ أوروبا فقط ، بل تعدتها إلى سائر أرجاء المعمور .»



٣ — الاسبرتزم في ألمانيا تابع ما قبله من تعريب مقالة ج . دولن

«الدكتور كيرنير ، الذي هو أحد أراكين المعارف في ألمانيا الحالية ، شاهد في سنة ١٨٤٠ بعض حوادث روحية وهو يعالج مدام هوف التي تعرف «بعرافة بريفورست» ، وبريفورست هذه هي قرية من ورتامبرج التي ولدت فيها هذه المرأة في أوائل هذا القرن .

«يقول هذا الدكتور إن هذه المرأة كانت تشكو كثيراً من رؤيا أشباح بحيث لا يمكن عد حالتها هذه في عداد أحوال الخلل العقلي ، لأن من كان حاضراً معها كان يسمع بغاية الوضوح والصراحة قرعاً يحدث على حواجز الغرف ، أو يرى معها أن بعضاً من أثاثات البيت تنتقل أمامهم بدون فاعل منظور من مكان إلى مكان آخر .

«أما لقب «عرافة» التي ألصق إلى اسمها ، فأتى إليها من كونها كانت تنذر أهلها بالأخطار التي تكاد تنزل بهم ، وكانت الحوادث تصدق دائماً ما تنذرهم به تمام التصديق .

«حوالي سنة ١٨٤٠ ظهرت أيضاً في مونتجن (ورتامبرج) حوادث روحية ، ومن عهد هذا التاريخ أخذ الناس يشاهدون آثا بعد آن حوادث من هذا القبيل ،

كظهور أشباح أو سماع أصوات ، أو مكالمات تدل بلا شك أنها آتية من عالم الأرواح . هذه المشاهدات على ما بها من الوضوح والبيان لم يكن لها أهمية حتى ظهرت تلك الحادث الأميريكية فأحدثت في ألمانيا مثل تلك الحركة التي أحدثتها في فرنسا وكونت لها تياراً خاصاً من الأفكار العمومية . نحن لا يمكننا أن ندرس هذه المشاهدات بالتفصيل ، فلنكتف بسردها أسماء رجال العلم الذين اعتقدوا بها وأعلنوا أبحاثهم فيها .

« في مقدمة تلك الأسماء نضع الفلكي الشهير « زولنر » ، الأستاذ بكلية « ليبزيغ » ، هذا العالم ألف كتاباً سماه « أوراق علمية » سرد فيه التجارب التي أجراها مع الواسطة « سلا » وأقر بأنه واجه ذلك البحث وهو يائس من حقيقته غير مجوز إمكان حصوله ، ولكنه أرغم على الاعتقاد في صدقه بالتجارب الصادقة والحوادث الغالبة . وسرى فيما يلي من هذا الكتاب أنه اكتشف على أمور جديدة في الروحيات ، كما كان دخول المادة من خلال مادة أخرى بدون أن يستطيع الإنسان أن يرى أثر انحلال المادة التي حصل فيها التداخل . كتداخل حلقة ممتلئة في ساق مائدة بدون أن تشاهد أثراً من أي كسر كان .

« هذا الأستاذ من الذين يعتقدون أن هذه الأعمال منسوبة لتأثير أرواح الموتى على المادة ، ولأجل أن يعلل تأثيرهم هذا تخيل أن للمادة بعداً رابعاً .

شهادة هذا العالم على التجارب الروحية مستندة بشهادة ويبر ، وهو الأستاذ التشريحي الكبير ، والأستاذ فيشنر الذي أصبحت أبحاثه على القوانين الحساسة الإنسانية عماداً يعتمد عليها في العالم العلمي ، وبشهادة الأستاذ أولتريسي أيضاً .

هذه ثلة من رجال مشاهير وأساتذة أعظم تثبت للناس علناً صحة هذه الحوارق .

« هنا يجب علينا أن ننبه على أمر جدير بالتنبيه عليه وهو أن هذه الحوادث الروحية خاضعة من أول ظهورها لأسلوب البحث النقدي القاسي جداً ، وبأشكال مختلفة وبواسطة مجربين متنورين وغاية في المهارة ، ومع ذلك فرغماً

عن أن هؤلاء المحربين من الذين لا يمتقدون بشيء في مبدأ أمرهم ، فقد استحال أمرهم إلى الاعتقاد بالاسبرترزم ، وصاروا حماة لبيضته ، وأنصاراً لحقائقه . أليس هذا أعظم البراهين على أن الاسبرترزم حقيقة ثابتة في ذاته وأن المشاهدات التي يركز عليها غير قابلة للنقض ؟ .

أما مجلات ألمانيا ، ففي مقدمتها جرنال « الاسفنكس » ومجلة (بسيشيش ستوديان) .



٤ — الاسبرترزم في أرجاء أوروبا

تابع ما قبله من تعريب مقالة ج . دولن

« يجدر بنا أن نضع في مقدمة أسماء أنصار الاسبرترزم في روسيا ، الأستاذ بوتليرو الذي كرر وأعاد تجارب الأستاذ كروكس الإنجليزي بواسطة الوساطة « هوم » . ونضيف إليه اسم المستشار ألكسندر اكزاكوف ، وهو من العلماء الذين برعوا في فحص مسألة تجسد الأرواح . وسيكون لنا مجال واسع لإيراد أبحاثه التي تؤيد وتؤكد أبحاث الطبيعي الشهير الإنجليزي كروكس ، بالنسبة لحقيقة تلك الأرواح المتجسدة .

« ولقد حدث في الأيام الأخيرة مظاهرة كبرى في صالح التجارب الروحية ، فإن الأستاذ ار كول كيايا من نابلي ، كرر بواسطة الوساطة الشهيرة « اوزابيا بلادينو » كل المشاهدات العالية للاسبرترزم مثل جلب الأشياء من أماكنها ، وتجسد الأرواح ، وارتفاع الأجسام إلى مسافات في الهواء الخ .. ونشر أبحاثه فانتقدها عليه العلامة البحوث في الجرائم لومبروزو .

« فلم يسع الأستاذ كيايا أمام هذا الانتقاد إلا أن أعاد تجاربه كلها أمام الأستاذ لومبروزو نفسه ، ليكون برهانه أشد إقحاماً له . ثم توالى جلسات تحضيرية

كثيرة في أواخر سنة ١٨٩١ كانت نتيجتها كما كانت في أمريكا وإنجلترا وفرنسا - إثبات حقية المشاهدات الروحية - . ولقد استطاع الأستاذ لومبروزو أن يرى بالجلس في جملة مرار ، هو والأساتذة تامبوريني وفيرجيليو وبيانيكي وفيزيولي أن مشاهدات الاسبرترزم حقة لا غبار عليها . ولكنه لا يذهب في تعليلها مذهب الروحانيين بنسبتها إلى أرواح الموتى ، بل عللها بتعليل آخر لا يفسر كل تلك الحوادث كما ستراه في هذا الكتاب .

« لا شك أن لومبروزو متى تعمق في هذه المسائل في مدة توازي المدة التي درسها فيها الأساتذة ولاس وكروكس أو فارلي ، يلتجئ لتغيير فكره عليها . فإن هؤلاء العلماء الأعلام الذين تقدموه كانوا في مبدأ أمرهم مثله ، يعتقدون حقية المشاهدات وصدقها ، ولكنهم لا يعزونها للأرواح بل إلى تأثير روح الواسطة ذاتها ، ولكنهم بعد شدة البحث والتحري رجعوا فاعتقدوا نسبتها إلى أرواح الموتى .

« في مقدمة الصحافة الإيطالية توجد مجلة «لوكس» وهي شهرية تنقل أبحاث المجمع العلمي الاسبريتي المغناطيسي في روما . ومجلة « لاسفنج » يديرها المسيو « انجر » و « فيسيو سبيريتيستا » التي يديرها المسيو فولبي .

أما في هولانده فالمجلة التي تدافع عن الاسبرترزم هي « أوب جريزن » وتنتشر في مدينة لاهيه .

أما في بلجيكا ، فالحركة الاسبريتية في نشاط وحياء كذلك الحركة في فرنسا . فإن مدينتي « لياج » و « بروكسل » هما مركزان نشيطان لنشر لمبادئ الاسبريتية . ويوجد بها جمعيات مركزية تتركز فيها أعمال سائر الجمعيات الفرعية ، ولها مجلستان « لوميساجيه » و « لومونيتور سبريت » تنقل وتنتشر الأبحاث والمشاهدات التي يتحصل عليها الباحثون . ويحدث في بلجيكا خطب كثيرة في صالح الاسبرترزم ، وتظهر كتب ورسائل توزع مجاناً كان من

نتائجها أن بلغت آثارها أحواض مناجم الفحم الحجري ، وأصبح المتقدون بها من العمال يعدون بالآلاف .

« أما في السويد ، فللاسبرترزم مجلة إسمها « مور جندو مرئجن » تنشر في كورستيانيا .

« أما في اسبانيا ، فالحركة الاسبريتية أنشط فيها مما هي في أي بلد من بلاد العالم ، وعدد الاسبريتيين أكثر إذا نسبوا لعدد السكان مما هم عليه في أي مملكة أخرى ، ففي كل مدينة من مدنها تجد جرائد ومجلات تابعة لجمعيات في غاية النظام . من بين تلك المجلات الشهيرة « مجلة الأبحاث النفسية » في برشلونه وعمرها الآن ٢٣ سنة . يديرها الآن الفيكونت توريسولانو ، وهو بحاث وعالم نزيه . ومجلة « الكريتيرو أسبيريتيستا » تطبع في مدريد . ومجلة « لوز ديل بروفنير » في ليريدا . مجلة « ريفلاسيون » اليكانت الخ ...

« أما في أستريا ، فقد كان الاسبرترزم قبل بضع سنوات ليس له أهمية فيها ، ولكن التجارب التي تمت على يد الارشيدوق رودولف مع باستيان ، وهو واسطة للتجسيد ، وجهت أنظار الناس أجمعين إلى تلك الحوادث ، وإن كان قد اكتشف في أثناء تلك التجارب على شيء من الغش والتزوير ، أما الآن فإن عدد الروحانيين في أستريا قد ازداد زيادة عظيمة ، ويمكننا أن نذكر من بين مجلاتها الاسبريتية مجلة « ريفورميدن يلاتير » التي تطبع في بودابست . أما في البرتغال فيشخص المذهب الاسبريتي فيها مجلة « أو بيسييزمو » التي تطبع في ليسبون . »



٥ — الاسبرترزم في العالم كله

تابع ما قبله من تعريب مقالة ج . دولن

« يمكننا أن نقول بلا أدنى خشية من التكذيب ، أن للاسبرترزم اليوم أنصار وأعضاءاً في كل صقع من أصقاع الكرة الأرضية . ولأجل أن لا نطيل الكلا

في هذا الموضوع، لكيلا نخرج عن حد الاعتدال نكتفي بذكر الممالك التي يطبع فيها جرائد إسبريتية، إذ لا يخفى أنه لولا وجود ناس يعتقدون وجود الأرواح ويصدقون بمذهبها لم تكن لتوجد تلك المجلات. فيمكن للمطالع أن يدرك كنه خطورة الحركة الاسبريتية في العالم بعدد المجلات التي تدافع عنها وأنشئت من أجلها منذ ٤٠ سنة^(١).

« في جمهورية ارجنتين يطبع في عاصمتها ريودوجانيرو مجلة «لورو فورمادور». وفي مملكة بارانا يطبع ثلاث مجلات. وفي لوز تطبع «أوريغينيير أدور» و « ريفيسنا اسبريتيستا »، وفي مدينة سان بولص دولواندا تطبع مجلتا « فيردال » و « لود ».

وفي مملكة شيلي يطبع في مدينة سانتياجو مجلة «البان ديل اسبريتو». وفي مملكة بيرو تطبع في ليما مجلة «ال سول».

وفي جمهورية سان سلفادور تطبع مجلة «الاسبريتيزمو» في مدينة شالشوا. وفي مملكة فينزويلا تطبع مجلة «الاريفيسنا اسبريتيستا».

وفي مملكة المكسيك يطبع في مدينة مكسيكو مجلة «لا ايللوستراسيون اسبريتيا». وفي مدينة سيزيولا ومملكة مازالتان تطبع مجلة «ال بريكور سور».

وتطبع في جزيرة كوبا أربع مجلات، «لا البورادا» في كوبا، ومجلة «لايونانويفا» في مدينة بورتوريكو، ومجلة «لاريفيسنا اسبريتيستا» في مدينة هافانا، ومجلة «لانويفالانزا» في مدينة سينفويجوس.

وفي جزائر كناريا تطبع مجلة «لا كريداد» في مدينة سانتا كروذودوتنيرلف. وفي استراليا يطبع في مدينة ملبورن مجلة «ذي هارربينجر اوف لايت».

(١) إننا لن نوه هنا إلا عن أشهر المجلات في كل مملكة لأنه من الممل اعطاء جدول بأسماء سائر الجرائد التي تطبع في العالم فإنها كثيرة جداً.
(المؤلف)

« لنصف إلى ذيل هذا الفصل أن جريدة (المجلة العلمية الأدبية للإسبرتزم) التي نديرها نحن، لها مراسلون من رؤساء جمعيات إسبريتية في كندا، و السويس، والقاهرة، وجزيرة موريس، و بورنيو . »



موجز ما سبق

« لقد تقرر مما سردناه آنفاً ، أن ملايين من الناس يعتقدون الآن في صحة المذهب الروحي . وأن الحركة التي تولدت في أمريكا قد سرت إلى سواها من الممالك بسرعة لم يعمد لها شبيه . وأنه ليوجد اليوم نحو من مائة وخمسين جريدة أو مجلة تنشر للجمهور أخبار هذه النظريات الجديدة ، وأن أعمال وتجارب العلماء الذين ذكرنا أسماءهم قد ترجمت إلى كل لغات العالم على سطح البسيطة ، وقد كانت نتائجها أن نشرت في أرجاء العالم الأرضي هذا الخبر السار ، خبر خلود الجزء المفكر من الإنسان وعدم فنائه بالموت . »

« لقد أخفق مسمى العلم الرسمي ، ومجامع العلم في تأمرها على الصمت المطلق بإزاء هذه الحوادث ، فإن الحقيقة أقوى من كل المؤامرات . ولقد تغلغلت هذه الحوادث في الدنيا بأسرها ، واكتسبت أعضاءاً وأنصاراً من كل قبيل ، ولا تزال تكتسب للآن . فلا الجرائد بسخريتها واستهزائها ، ولا الكهان يجلبتها وتذمرها ، ولا الماديون بتبكيبتها وسبها ، يستطيعون صد هذه الدفعة الإنسانية التي تدفع الإنسان لاكتشاف معلومات حقة يؤكد بها عقيدته في حياته المستقبلية . »

« رغماً عن سوء نوايا العلماء الرسميين ، وأمراء العلم الذين يهدم لهم الإسبرتزم نظرياتهم الظلمانية العدمية ، لا يرد على فكر عاقل بأن هذه الحوادث الاسبريتية الحارقة للعادة ، ليس فيها ما يستلفت النظر أو يوجه إليها العناية ، بل أن موضوعها الذي تبحث عنه هو من الخطارة والجلالة ، بحيث استلفت نظر الناس أجمعين في جميع أدوار التاريخ الإنساني . »

« لقد صيغت النظريات؛ وبنيت المذاهب قديماً وحديثاً، ولم تكسب نظرية خلود النفس الدليل القاطع ، أما الآن فقد فتح علينا بالوسيلة لدرس مسألة بقاء الروح بعد الموت درساً علمياً ؟ ولم نكن لنحصل على هذا الفتح لولا تداخل الأرواح في شؤون هذا العالم ، وسترى أن الحوادث والمشاهدات التي يركز عليها المذهب الاسبريتي هي أوضح وأقوى الأدلة لإثبات خلود الروح الإنسانية بعد الموت .

« قبل أن نختتم الكلام نقول: من المستحيل أن تكون هذه الحوادث الاسبريتية نتيجة الغش والتزوير أو الضلال الفاحش ... :

أولاً - لأن هذه المشاهدات درسها وفحصها أعظم رجال العلم - كما رأيت - وأن هؤلاء الكيماويين والطبيعيين هم أجدر الناس وأولاهم بمعرفة سلامة الدليل أو فساده فيما يتعلق بسببية الحوادث .

ثانياً - لأن هذه المشاهدات قد روقبت مراراً عديدة جداً بواسطة مجربين ومراقبين مستقلين ، وكانوا لا يصدقون بشيء في مبدأ أمرهم ، ولم يكن بينهم وبين المجربين أمثالهم أدنى علاقة من تعارف ، وقد جاءت نتيجة كل تلك الأبحاث متشابهة متحدة في كل بلد من بلاد العالم .

ثالثاً - لأن كل هذه الحوادث في مظاهرها الرئيسية واحدة في جميع بلاد العالم ، الأمر الذي يدل على أن سببها كلها واحد .

رابعاً - أخيراً إنا نعتقد أن مجموع كل هذه الشهادات ومقامها وصحتها هي من الخطارة بحيث يستحيل دحضها مجاناً بدون بحث دقيق .

« هذا ما سنحاوله في هذا الكتاب ، وذلك أننا سنستعرض حوادث الإسبريزم أمام القارئ ، وسنوجه إليها مسبار البحث والتمحيص من كل جهاتها ، وسنورد كل التلميحات التي عللت بها بغاية الحرية والصراحة ، ومع ذلك كله فأملنا وطيد

في أن القارئ سيري التعليل الروحاني هو التعليل الشافي لرئيس الصدر الناقع
الغلة النفس ، المفسر لكل تلك العجائب الخارقة للعادة - (انتهى تعريب مقال
ج . دولن) .



نقول : هذه مقالة طويلة الذبول افتتح بها الكاتب الاسبريتي الطائر الصيت
جبريل دولن كتابه المسمى (الحادثة الاسبريتية) الذي طبع خمس مرات لغاية
سنة ١٨٩٧ ، وغرضنا من نقل هذه المقالة إقامة الأدلة الساطعة على أن قادة
الاسبريتزم اليوم هم قادة العلوم العصرية في أوربا ، وأن من الجسارة التي لاخطر
بالبال أن يتهم هؤلاء الرجال العظام الذين لهم أكبر الآثار في نهضة النوع الإنساني ،
بالجنون والهوس وعدم الروية والطيش ، ولئن صح ذلك على فرد أو فردين أو
عشرين فرداً في بلد أو بلدين أو عشرين بلداً ، وراجت خزعاتهم على عقل أو
عقلين أو ألفي عقل ، وضرب على وترهم مجلة أو مجلتيان أو عشرون مجلة مثلاً ،
فكيف يعقل أن يبلغ عدد أولئك العلماء الألوفا المؤلفين في جميع أنحاء الكرة
الأرضية ، كما أريناك ذلك في هذه المقالة ، وكيف تروج خزعاتهم على نحو
العشرين مليوناً من الرجال ، ما بين سياسيين وكتاب ومحامين وأطباء ومهندسين ،
ومنهم غلادستون الإنجليزي وبالفور رئيس وزارة الانجليز الحالية ، وغيرهم من
أهل الفطن والذكاء ، وإذا أمكن أن يدعي الإنسان - وهو لم يقرأ في ذلك
الموضوع كتاباً ولم يجرب فيها تجربة بسيطة - أن ضلة من الضلات تنطلي على كل
هذه العقول القوية ، وتلين من تلك الشكايم الحديدية ، وترغم هاتيك المعاطس
العتية ، فلا يبعد أن يدعي أنه لا عاقل في الوجود غيره وكفى بهذا الادعاء
مستقلاً لقوله .

نحن نقول على رموس الأشهاد أننا لانعتقد بأن الذي يظهر في أوروبا في
جلسات التحضير من الأشباح المتجسدة وغيرها أرواح الموتى ، كما يقوله السواد
الأعظم من الروحانيين ، ولكننا نعتقد تمام الاعتقاد بظهور تلك الأشباح وبأنها

حقيقة لا يمكن إنكارها لتوالي الشهادات على صحتها من كل بلد ومن كل عقل وبكل لغة ، ونظن أنه لا يليق الاستهانة بشهادة العلماء في مثل هذا القرن على صحة وجود شيء يقولون أنهم رأوه ولمسوه بأيديهم وشاهدوه على أشكال متعددة . وعقيدتنا في وجود ذلك الشيء وحقيقته لا تقضي علينا بالتسليم بكونه روح الميت ، فلا يبعد أن يكون من عالم غير عالم الإنسان ، والعوالم لا يحصيها إلا خالقها ومبدعها .

هذه الأشباح التي تظهر لعلماء أوروبا ، وما تسبقها ويلبها من المشاهدات الخارقة لكل نواميس الطبيعة ، تثبت بطريقة لا تقبل التأويل أن الإنسان عاجز عن الإلمام بجميع المعلومات ، وأنه في وسط بحر كله مساتير وعجائب ، وأن العالم الحسي ليس هو وحده كل ما في هذا الكون البديع ، بل وراءه عالم أبدع وأعظم ، مأهول بأرواح تسبح فيه سبحاً ، ولها فيه شؤون خاصة لا نحلم بها ولا نتخيلها .

لهذا ترى الماديين في كل أمة وفي كل بلد ، يعارضون هذه الحقائق ويسعون في هدمها ، لأنها تقصدهم مباشرة وتحط من كرامة مذاهبهم الظلمانية المؤيسة . ذلك لأنهم قالوا : لا موجود إلا المحسوس وليس وراء ما تدركه مشاعرنا مرمى ، فجاء الاسبرتزم يريهم قصور مداركهم وضلال أفكارهم ، ويفتح لهم عالماً لا يحيط به الفكر القوي ، ولا التصور البشري .

وقالوا أن الإنسان حيوان من الحيوانات ، وإنما هو أرقى منها رتبة في سلم الوجود ، وأنه عبارة عن جسم مادي ليس غير ، وأن روحه هذه ليست إلا خاصة ذلك التركيب المتناسب الأجزاء المتناسق الأعضاء ، فجاء الاسبرتزم ينعمي عليهم ضيق تصورهم وخرج صدورهم وسوء نظرهم ، ويريه أن الإنسان ليس بمادة مجردة وإنما تلك المادة فيه غلاف لسر مكنون وجوهر هي الروح التي تحركه ، وأن هذه الروح من عالم عال كله جمال وجلال ، وضياء ولآلاء .. الخ ..

لهذا غري الماديون بمقارعة الاسبرتزم هذا بكل حيلة وبكل سلاح ، ولاندوي ما حظهم من ذلك ؟ وأي شيء ينالهم لو أثبتوا للعالم أن الإنسان حيوان ، وأنه متى مات تحلل جسمه وفني وذهب كالهباء في الغبراء ، وإن العالم محدود على ما يدركه الحس وأن لا جمال فيه إلا ما تدركه المشاعر؟ ماذا ينالهم من بث هذه

التعاليم وأي فائدة منها للنوع الإنساني ، وهي طاعونه الفتاك وميكروب
سرطانه المستأصل ، وجراثيمه بلائه المحتاح ؟.

لقد أضرت العلوم المادية بالعالم الأوروبي ضرراً بليغاً ، وأصبح الإلحاد في
طبقات العامة جرحاً دامياً في فؤاد هذه المدنية المادية وبثرة غضنة في وجهها
الوضاح ، ولقد كادت تلك القرحة الفؤادية تهوي بحياة تلك الأمم الغربية ،
وتنزل بها أسفل سافلين لولا أن أرسل الله إليهم هذا البصيص من النور وما في
الغيب أكثر ، فقاموا سرعاً ، واحتفوا حوله يتزاحمون بالمناكب شوقاً إلى النور
ولهما على الخلاص فنالوا منه ما نالوا ، وهام لليوم شخوص إليه ينتظرون ما يأتي
به الغد من آثار الرحمة الإلهية ، وقد نقلنا عنهم في ذلك أشياء كثيرة ، وسنقل
إن شاء الله أكثر مما مر ، فلماذا لا ننوه بتلك الحركة للعالم الشرقي الذي يلي في
هذه الأيام بمتابعة العالم الغربي في كل شأن من الشؤون ، ليطلع فيرى أن زمن
الإلحاد ، وقد فات ، وأن أوروبا وإن لم تتوصل إلى إثبات وجود الروح بطريق
الحس فقد توصلت إلى إثبات وجود عالم وراء هذا العالم ، وإن الإنسان ليس
بمادة محضة وكفى بهاتين العقيدتين مريحين للضائر ، ومهدئين لجيشات السرائر .

نحن نتابع البحث في تلك الحركة الأوروبية لنثبت للناس أجمعين معنى قوله
تعالى : « كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز » . كيف لا وقد قام
علماء أوروبا في القرون الأخيرة بواسطة العلم الطبيعي مقاوم الجبابة العتاة واتخذوا
الفوائد المادية التي تنتج من أبحاثهم في عالم الصنائع والفنون أسلحة لهدم تعاليم
الأديان ، وآلات لتأسيس الإنسان من حياة بعد هذه الحياة ، فكتبوا وخطبوا
وأرغوا وأزبدوا ، وهدموا وبنوا ، وهزموا وسخروا ، وتظاهروا بالعنوة
والجبروت كأنهم أصبحوا قادرين عليها . فبينما هم كذلك وإذا بهذه الآلة المدهشة
فأسقط في أيديهم ، وكتب كثيراً منهم مقرأ بذنبه في كتبه ، كما نقلنا عنهم ذلك ،
فنحن نورد عنهم أخبار خضوعهم للاسبرتزم إظهاراً لقهر الله على العاتين ،
وإرغاماً لمعاطس المعاندين المقلدين من الشرقيين ، والله مع الصابرين ، وهو
ولي المؤمنين .

تاريخ استحضار الأرواح

حادثة من مس الجن في صيدا
خوارق العادات على يد غير المسلم

كتب لنا حضرة الوجيه حسن أفندي نحوي من «صيدا» بسوريا^(١)، خطاباً
نلخصه لحضرات القراء ثم نجيب عليه إن شاء الله . قال حضرته :

عثرت في أثناء اشتغالي ببعض كتب الجدل الديني على قصة صموئيل الأول
تشبه مسألة استحضار الأرواح، نأتي عليها إدلالاً على أن مسألة استحضار الأرواح
معروفة قديماً لدى الأمم . وفحوى تلك القصة أنه اجتمع على شاول ملك بني
إسرائيل الفلسطينيون فجزع واشتد خوفه ، ولم يكن معه نبي من الأنبياء ليسأله
عما يجب عليه عمله كما كانت عوائدهم في الأمور الجسام ، فلما أعيته الحيل أخذ
يسأل عن السحرة والعرافين فدلّه بعضهم على عرافة يقال لها « عين دور » فذهب
إليها متنكراً لأنه كان مشهوراً بمطاردة أصحاب هذه الصناعة ، فلما انتهى إليها
هو وخادمان معه ، سألها أن تجيبه عن مطلوبه فامتنعت خوفاً من الملك ، فلم
يزل بها حتى أقنمها بأن تصعد له روح صموئيل ، فجاءت بها له ، فأخذ شاول
يكلمها وهي تجيبه عن كل ما سألها عنه . وهذه القصة موجودة في «سفر صموئيل

(١) كانت صيدا إحدى مدن سوريا وقت تأليف الكتاب . حالياً إحدى مدن لبنان - (الناشر)

الأول - الإصحاح الثامن والعشرون من أوله إلى آخره . ويظهر منها أن مسألة استحضار الأرواح كانت معروفة قبل التاريخ المسيحي بقرون عديدة . فلعل القائلين بأن مسألة استحضار الأرواح شعوذة ذهبوا هذا المذهب لاستبعادهم استحضار أرواح الأنبياء . وإذا كانت مسألة استحضار الأرواح معلومة كما قررنا من منذ ألفي سنة ، فكيف يدعي علماء أوروبا أن تاريخها يبتدىء من سنة ١٨٤٦ كما قررتهم ذلك في مجلة الحياة ؟ فترجواكم إجابتنا عما إذا كان من الممكن استحضار أرواح الأنبياء الكرام صلوات الله عليهم ، والأصفياء والأولياء رضوان الله عليهم أيضاً ، وما قول الروحيين في ذلك مع علمنا بأن هذا لدينا ممتنع شرعاً .

ثم قال حضرته أيضاً ماملخصه :

وقعت بصيداً حادثة بحضور بعض من أثق بهم من السيدات أثناء زيارتهن لبعض العائلات ، أن ابنة لصواحيبات البيت دخلت في دور عصي شديد اصفر لها لونها وانتفخت أوداجها ثم انصرعت إلى الأرض ، ، ثم تكلم من فيها متكلم قائلاً بلغة يهود صيداً « مسيكم بالخير » فرد عليه بعض النسوة لاعتيادهن على رؤية تلك الحالة في تلك الفتاة ، واعتقادهن بأن ذلك جني يهودي اعتاد أن يتقمص يجسمها في بعض الأحيان ، فأحطن به وأخذن يلقين عليه بعض الأسئلة وهو يجيبهن عنها ، حتى سأله من حدثني ذلك الحديث عن بعض أقربائهن في الآستانة العلية ، فأجاب عن كل مسألة بما يقتضيه المقام طوراً بالسلب وآخر بالإيجاب . ولما اخبرت بتلك الحادثة نسبتها للأمراض العصبية ورميتهم بسهولة الاعتقاد بدون توقف ، رغماً عن تحقيقي من وقوع بعض ما أخبر به تماماً ، مع شدة إنكارني لتلك المسألة وعددها في عداد الأقايص .

ثم حدث بعد ذلك أن اجتمع أولئك النسوة من أقارب المصابة ، وصرت يتلون عليها (ورد) أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه ، المتضمن كثيراً من صيغ الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، عند ذاك اضطربت المريضة اضطراباً شديداً وصرخ الجني مستغيثاً ليسكتوا عن التلاوة متوعداً إياهم بإضرارها لو أصرروا

عليها. فلم يصغوا لتهديده، بل مضوا في التلاوة فلم تقضِ برهة حتى هدا اضطرابها وذهب الجنى ولم يعد ، وأخذت تلك الفتاة تقوى شيئاً فشيئاً حتى استردت صحتها الأولى .

هذا ما حصل على مرأى ومسمع من أثق بهن من السيدات . فهل يستطيع الجن على التقمص بأرواح الناس مع وجود الروح . وهل صدق الجنى في إخباره بالمغيبات تعد من سلطة الروح على الجسم ؟ هل جميع ما تقدم من الروحانيات وما ينسب للقوة المغناطيسية وسلطة الروح على الجسم يستوي في أحداثها المسلم وغيره ممن ليسوا على دين حق . وهل يوجد في مصر كم حوادث من هذا القبيل ؛ نرجوكم الجواب ولكم الشكر .



تاريخ مذهب استحضار الأرواح^(١)

أتينا في بعض كتاباتنا على موجز من تاريخ فن الاسبرتزم في أمريكا وأوروبا، وقلنا إنه حدث أول حادثة منه في أمريكا سنة ١٨٤٧ وسرت منها إلى أوروبا، بعد ذلك التاريخ، فأوهم ذلك بعض حضرات قرائنا أن ذلك التاريخ هو مبدأ ظهوره في العالم، ونتج من ذلك أن فاضلاً من أولئك الأفاضل جاء يسألنا بكتاب عن رأينا فيما رآه مكتوباً في سفر صموئيل من قصة الملك شاول مع العرافة « عين دور » . قال أن تلك القصة تدل على أن فن استحضار الأرواح كان معروفاً عند الأقدمين ، فكيف يتفق ذلك مع ما قلناه من أنه ابتدأ في أمريكا سنة ١٨٤٧ ؟

(١) هذه المقالة جواب سؤال حضرة الوجيه المحترم حسن أفندي نحوي من صيدا ، وقدرأى حضرات قرائنا السؤال في الجزء المتقدم . (المؤلف)

نقول : أن ذلك التاريخ هو تاريخ ظهوره في العالم الغربي ، ولم يكن معروفاً قبلها بتلك الصفة التي هو عليها الآن . نعم ، كان يوجد في أطراف البلاد أفراد من الرجال والنساء لهم علم بذلك الموضوع وقدم في مجالاته ، ولكنهم كانوا مجهولين لدى السواد الأعظم من الناس ، وكانوا يتحرون أن يبقوا كذلك طول حياتهم ، لأن الأحزاب الدينية في تلك العصور كانت في غاية حماسها ، ومعممان قساوتها وصرامتها ، فكانت إذا شامت في شخص بارقة من تلك البوارق التي تتخيل وراها ضرراً على مركزها أمرعت إليه بالقبض عليه وزجته في أعماق السجون ، وتحقيق جنايته تحقيقاً ناقصاً كله تحامل وصرامة ، ثم ينتهي الأمر بالحكم عليه بالحرق بالنار حياً ؛ كما حصل لمئات الألوف من الناس .

لاجرم أن كل من كانت لديه أثارة من علم ماوراء الطبيعة كان يبالغ في كتمانها ، ويفرق في إنكاره خشية من الهلاك على أقبح صورة .

هذا كان شأن أوروبا قبل هذه القرون الأخيرة التي تمت فيها الغلبة لرجال العلم على رجال المذاهب الاعتقادية ، ودخل بذلك النوع الإنساني في دور التنور والبحث بعد تلك العمياء الحماسية ، والقيابة التعصبية . ولا غرو بعد هذا إن ظهر تحت ذلك الجو الصاحي مذهب استحضار الأرواح وأصبح له من الأشياع الملايين الكثيرة ، فلا شيء هناك اليوم يمنع بحث الباحثين ، ولا أثر لتعصب المتعصبين ، وسيرى النوع الإنساني من وراء هذه المسألة إن شاء الله العجب العجائب في قصم ظهور الملحددين ، وفصم عرى خزعبلات الماديدين ، والله غالب على أمره ، ولا معقب لحكمه .

لكن قرب عهد ظهور فن استحضار الأرواح في أوروبا لا يدل على عدم وجوده في العالم الشرقي قبل تلك المدة بمدد طويلة بل بألوف من السنين .

نعم ، إن مسألة خلود النفس بعد الموت ، وبروزها في عالم غير هذا العالم لتحيا فيه حياة أبدية كاملة ، عقيدة شائعة بين جميع أصناف النوع الإنساني كله شرقاً وغرباً . ومن العجيب أن مسألة استحضار الأرواح ومكالمتهم كانت ولم تزال

ملازمة لهذه العقيدة في بلاد الشرق كله ، وقد أصبح الغرب شمريكه في ذلك أيضاً في هذا العصر . وإنما هناك فارق جسيم بين مظهري هذه المسألة المدهشة لدى الأمم الغربية والشرقية . فإنها لدى الأمم الشرقية قديماً كانت وفقاً على رؤساء الدين ، ومستورة على غيرهم من الناس ، ولم يكن قصد أولئك الرؤساء من ذلك الحجر الكسب المادي ، أو إبقاء الناس في ظلمات العمية عما سينالهم بعد الموت ، وإنما كان ذلك منهم لحفظ مراكزهم العالية ، وصبغتهم الدينية محفوظة من الازدراء والابتذال ، ليستطيعوا أن يقودوا العامة بزمam الطاعة والانقياد . هذا ما ينتج من أول وهلة لمن يعتني بدراسات أساطير الأمم الماضية ، فلا يكاد يرى أمة منها إلا وفيها طائفة من الناس جعلوا ديدنهم هذه الوساطة بين عالم الأحياء وعالم الأموات ، وكان لهم بذلك في نظر عامة الأمم شأن لا يقاس به غيره من سائر الشؤون العادية .

أقدم الكتب المقدسة الدينية التي تعرف الآن هي « الفيدا » كتب الهندو التي وجدت قبل ميلاد عيسى عليه السلام بعدة آلاف من السنين . ذكرت فيها مسألة استحضر الأرواح بنص صريح لا يلتبس على أحد في مغزاه . فقد قال المشرع الهندي الكبير مانو في تلك الكتب بالحرف الواحد ما معناه :

« إن أرواح آبائنا الأقدمين يصحبون على حالة لا تراها أعين الناس بعض البراهمة الذين يدعون للاحتفال بعيد الأموات ، وأن هذه الأرواح لتتبعهم أينما ذهبوا وهم على حالة هوائية وتجلس بجانبهم إذا جلسوا » .

وقال مؤلف هندي آخر ، وهو من الأقدمين أيضاً : « إن الأرواح التي لم تأت من الأعمال إلا الخير والبر ، مثل أرواح العباد الأطهار والزهاد الأخيار ، تكتسب خاصية مكاملة الأرواح التي سبقتها إلى العالم الآخر . وهذا دليل لتلك الأرواح على أن دورهم في التناسخ قد تم وانقضى . »

اعتاد كهنة الأديان الهندية على إعداد أشخاص يسمونهم « فاكير » ليستحضروا بواسطتهم أرواح الموتى ، ويحدثوا بهم أكبر المشاهدات في التنويم المغناطيسي .

نقل « لويز جاكبو » في كتابه « الاسبرترزم في العالم كله » نظرية الهنود على الأرواح السابجة في الفضاء بعد موت أجسادها . وينتج من مطالعة أبحاث ذلك المؤلف أن أسرار مسألة استحضر الأرواح ما كانت تودع إلا لمن يقضي أربعين سنة في بيوت الدين تحت النظمات الشديدة والاختبارات الدقيقة .

تلك الأسرار كانت موزعة على ثلاث فرق من أولئك الرجال كما يأتي :

الفرقة الأولى — كلهم من البراهمة أصحاب العبادات العامة ، وكهنة الهياكل المكلفين بقيادة العامة . وتعليم هذه الفرقة قاصر على شرح الثلاث كتب الأولى للفيدا ، وكيفية رئاسة الطقوس الدينية ، وأداء القرابين . وبراهمة هذه الفرقة يخاطبون الأمة ويعاشرونها ، فهم قادتهم الأقربون ، ورؤساؤهم الأدنون .

الفرقة الثانية — تحتوي على طردة الشياطين من الأجسام ، والعرافين للمستقبل وأصحاب النبوات ، ومستحضري الأرواح ؛ وهؤلاء عليهم في بعض الظروف الحرجة أن يؤثروا على أذهان العامة بإحداث بعض خوارق الطبيعة . ويسمح لهم بقراءة وشرح « الأتارفا فيدا » وهو مجموعة رقيات سحرية .

الفرقة الثالثة — من البراهمة ليس لهم اختلاط ما بهذا العالم الإنساني ، وليس لهم من شغل في هذه الحياة إلا درس قوى هذا العالم المادي كله ، وإذا ظهوروا للناس فلا يكون ذلك إلا لأمر جليل ، وخطب فادح ، ولا يتراءون لهم إلا عن بعد أما في بلاد الصين ، فلا يعلم بالضبط تاريخ فن استحضر الأرواح ، والذي ينتج من الاطلاع على حالهم في تلك المسألة يتحقق أنها قديمة لديهم جداً .

نقل القس الداعي للدين هناك « هوك » أن الصينيين مولعين بمسائل الأرواح واستحضارها ، وسرد عنهم جملة تجارب في ذلك الشأن لم تزل مستعملة لديهم في كل صقع من أصقاع بلادهم الشاسعة الأكناف ، وفي كل طبقة من طبقات هيتها الاجتماعية .

وقد امتدت هذه المسألة في جميع ممالك آسيا على طول الزمن وبواسطة هجرة

بعض الهندين للاستعمار في بعض البلاد الأجنبية ، حتى وصلت إلى مصر وإلى
العبرانيين ، كما ثبت ذلك من استقراء أساطير كل من هاتين الأمتين القديمتين .

اتحد المؤرخون جميعهم على أنه كان لدى المصريين الأقدمين اعتقاد في كثير
من المسائل التي تعلو عن هذه الطبيعة المحسوسة ، كأعمال السحر والطلاسم وغير
ذلك من الأمور الخارقة للعادة ، وقد ذكر كثير منها في التوراة ، وثبت أيضاً
أنهم كانوا يعرفون مسألة استحضار الأرواح ومكالمتها في الشؤون الهامة ، ووجه
ثبوت ذلك آت من نهي موسى عليه السلام لقومه في التوراة ، عن عمل السحر
وعن تحضير الأرواح وسؤالها عن المستقبل . وقد علم قراؤنا مما أورده حضرة
الوجيه الذي عرض علينا هذا السؤال ، أن الملك شاول ذهب إلى « عين دور »
العرافة ، واستحضر بواسطتها روح صموئيل ، وفي هذا دليل قاطع على أن بني
إسرائيل كانوا يعرفون مسألة استحضار الأرواح .

لم يقف بعض الناس عند الحد الذي رسمه موسى عليه السلام لقومه من النهي
عن تحضير الأرواح ، بل تألبت بعض النفوس الشيقة إلى الإشراف على عجائب
عالم ماوراء الطبيعة ، فألفوا فيما بينهم حزباً سرياً ومذهباً خصوصياً سموه « كبال » ،
ولكن ما كانوا يبتون لأحد حتى يأخذون عليه الموائيق والأقسام بأن لا يذيعه
ولو لحقه ما لحقه من الأضرار .

وقد جاء في التلمود ، وهو من كتب اليهود ، مامعناه : إن الذي يحفظ هذا
السر ، سر استحضار الأرواح ، في فؤاد نقي طاهر له من الله الكرامة وحسن
الزلفى ولدى الناس الفضيلة وحسن السمعة ، ويكون اسمه مقروناً بالإجلال
وعلمه غير قابل للزوال ، ويرث بعد ذلك الحياتين وينال السعادتين في هذه
الدار وما بعدها .

أما في بلاد اليونانيين ، فكانت مسألة استحضار أرواح الموتى معروفة
وشائعة جداً . فقد كان في كل هيكل من هياكلهم نساء يقال لهم « العرافات »

أي اللاتي يعرفن المستقبل ، مكلفات بمكالمة أرواح الآلهة ، وكثيراً ما كان يود المستحضر أن يكلم الروح بنفسه ، فكان يجاب طلبه ويكلم الروح المطلوبة بنفسه .

وقد ذكر الشاعر الكبير اليوناني هوميرو ، الذي عاش قبل الميلاد العيسوي بأكثر من ستة قرون ، قصة استحضر البطل اليوناني الشهير (اوليس) روح (تيريزياس) العراف الشهير ، ومكلمته له ، وقد وصف هذا الشاعر المطبوع الصفة التي حضره بها والاحتفال الذي جرى لذلك وصفاً دقيقاً . وليست هذه الحادثة منفردة في بابها فقد كان من الشائع المعروف لدى اليونانيين أجمعين أن من يريد استحضر روح أحد من أقربائه أو ذوي خاصته ، أمكنه ذلك بغاية السهولة بواسطة الأشخاص المترنين على الاستحضر .

وقد نقل عن (أبولونيوس دوتيان) ، الفيلسوف الفيثاغوري المشهور ، أنه كان يعتقد كل الاعتقاد بوجود الأرواح وبإمكان تحضيرها والمكالمة معها ، وكان يعمل من الخوارق للطبيعة ما يدهش الأبواب ويحير المدارك ، وكان له اطلاع واسع في أمور ما وراء المادة .

أما عند الرومانيين ، فقد كانت مسألة استحضر الأرواح معروفة أيضاً ومنتشرة جداً ، وكان المكلف باستحضارها نساء يسمونهن « سيبيل » . كان قواد الرومانيين يقصدونهن ويسألونهن عن مستقبل الأمور العامة ، وكان رجال الحل والعقد لا يبرمون أمراً ولا يشهرون حرباً ، أو يعقدون سماً ، إلا بعد استشارة الأرواح بواسطة هاتيك النسوة .

أما لدينا معشر أهل الإسلام فمسألة ظهور الأرواح للأحياء من الأمور الشائعة للصالحين والمقربين ، وأظن أنه لا يوجد واحد من المسلمين لم يقرأ في كتاب أو لم يسمع من قارئ أن روح فلان الصالح ظهرت لفلان التقي . وحصل بينها كيت وكيت من المحادثات والمحاضرات . بل كثيراً ما تروي العامة في أساطيرها أموراً تدل على معرفتها بمسألة ظهور الأرواح للناس ، مثل روايتهم عن بعضهم أن فلاناً تاه في الصحراء وألمت به الحيرة من كل ذلك ولما أوشك ان يقع في اليأس

إذا برجل مرتد بثياب بيضاء ، وعليه جمال وبهاء جاء إليه فدله على الطريق ، وأزال عنه بوائق التعويق ، ثم يعقب قوله هذا بأن ذلك الشخص لاشك في أنه روح التقى فلان . الخ ... من أمثال هذه الحكايات التي تعوز النظر ولا يليق بنا إنكارها على عجل .



مسألة مسّ الجن

يحمل بنا للإجابة على هذا السؤال أن ننقل ما كتبناه في « الحياة » ببعض تصرف ففيه الكفاية ، وهو :

إن فكرة استيلاء الجن على جسم الإنسان والتأثير عليه بالمرض والأذى شائعة من مبدأ الخليقة ، فقد كان الناس عموماً ينسبون الأمراض ، أيا كانت ، إلى الأرواح الشريرة ، وكان لهم في ذلك طرائق عجيبة وأعمال غريبة لم تزل للآن منتشرة في كل البلاد المتوحشة . وقد كانت هذه الفكرة آخذة في التناقض شيئاً فشيئاً حتى كادت أن تنتهي إلى الصفر ، خصوصاً في العالم العلمي . ولكنها قد حييت الآن حياة قوية ، وصار يستطيع المنتصر لها أن يقيم على صدق قوله ألف دليل محسوس وسبحان مغير الشؤون . روت المجلة الروحية في هذا الشهر « قبل ثلاث سنوات تقريباً » عن جريدة « نيويورك ميل أند اكسبرس » أن الأستاذين الشهيرين ريشار هودسن ، وجيمس هيزلوب ، اللذين درسا الاسبرتزم بواسطة مدام بيبير مدة ١٢ سنة ، قد نشرا نتيجة أبحاثها في كتاب جاء فيه هذه العبارة : « إن عدداً عديداً من المجانين الذين يحبسون في البيمارستانات ليسوا بمصابين بأمراض عقلية بل مملوكين لأرواح قد استولت عليهم واستخدمتهم » .

هذا ما ينادي به أستاذان عظيمان بعد أن عُدَّت هذه من دلائل التوحش والهمجية . وفي أوروبا وأمريكا ألوف من العلماء لا يداخلهم الشك في هذه النظرية .

فلننظر كيف حصل لهم البرهان عليها فنقول : إن حل مسألة استيلاء الجن على جسم الإنسان تتبع حل مسألتين ، وهما : هل في الطبيعة قوة عاقلة مجردة عن المادة ؟ وهل لهذه القوة سلطان على المادة وعلى الجسم الإنساني ؟ . أما المسألة الأولى فمحلولة ومثبتة بأدلة حسية لاتدخل تحت حصر ، فإن كل تجارب الروحانيين تثبتها . وقد وقف الاستاذ الشهير وليم كروكس أمام مئين من أعضاء الجمعية الملكية الانجليزية ، حيث فوض إليه رئاستها في سنة ١٨٩٧ وفاه بخطبة مهمة جاء فيها هذه الجملة : « وليس في تاريخي العلمي ماهو أشهر من اشتغالي بالمباحث النفسية ، فلإني نشرت منذ ثلاثين سنة وصف تجارب تجربتها ، من مقتضاها أن وراء ما ندركه علمياً قوة يتولاها عقل غير عقل الإنسان العادي » . (روت هذه الخطبة أكثر جرائد العلم وهذه الجملة ترجمة المقتطف) .

بقي علينا أن نسأل ، هل لهذه القوة تأثير على المادة وعلى الجسم الإنساني ؟ أما تأثيرها على جسم الإنسان ، فمما لا يصح التردد فيه ، لأن حالة الوسطاء الذين يستعملهم علماء الروح في الاستحضار يثبت ذلك إثباتاً محسوساً . فلإنا نرى الواسطة يدخل في دور تشنج هائل وربما لطم صدغه وخمش وجهه ، ثم تتخشب أعضاؤه ويصير في حالة مؤلمة . فتارة تستولي الروح على يده فيكتب ما لا يراه ولا يعلمه ، وتارة تستولي على لسانه فيتكلم في شؤون لم تمر على مخيلته . لا شك أن كل هذا يكفي للدلالة على سلطة تلك القوة على جسم الإنسان في بعض الأحوال ، ولدينا أدلة محسوسة على هذه القضية نستنتجها مما تحدثه الأرواح عند تجسمها - عذراً على هذا التعبير - من الآثار السيئة على جسم الواسطة .

روى الأستاذ اكرزاكوف الروسي في كتابه « المذهب الحيوي والاسبريزم » ، أنه شاهد هو وعدة دكاترة معه أن الجزء الأسفل من جسم الواسطة ، وهي مدام ديسبرنس ، قد تلاشى بالمرّة بينا كانت الروح قد تجسّمت من نصفها الأعلى . وقال : وقد فحصنا ذلك باللمس والنظر فلم نزد إلا اقتناعاً ، ولما ذهبت الروح عاد ثانياً . أما في سائر أحوال التجسيم فإن وزن جسم الوسيط يستحيل إلى النصف ، ولا

شك أن نقصان وزن الجسم أو تلاشي قطعة منه يدل على أن تلك القوة تستطيع أن تؤثر على الإنسان آثاراً سيئة . ومن أحسن الشواهد وأغربها على إمكان استيلاء تلك القوة على الجسم ، مارواه الدكتور الألماني سيرياكس عن نفسه ، كما رواه عنه الكاتب الشهير جبريل دولن في كتابه « الظاهرة الروحية » . هذا الدكتور كان مراده درس الاسبرتزم بنفسه بدون واسطة ليكون اقتناعه ذاتياً ، وذلك لشدة يشككه . وجلس لتلك الغاية هو وامراته وبعض إخوانه ، ١٩ مجلساً ، في غاية الخشوع ينتظر روحاً تطرق المائدة أو تظهر بأثر آخر كما يحصل بحضور الواسطة فلم يرَ شيئاً ، ولكن لم تخر عزمته . قال : « في الجلسة العشرين شعرت بإحساس خاص من برودة وحرارة متعاقبتين . ثم أحسست بمرور تيار هوائي بارد على وجهي ويدي . ثم شعرت بأن ذراعي اليسرى قد تخدر تماماً وصار مشلولاً . ثم شعرت بمن يحركها تحريكاً شديداً بحيث لم أستطع إيقافه . ولما كانت تلك الحركة بشبه حركة يد الكاتب أنت امرأتى بقلم وورقة فاستولت عليها يدي اليسرى وأخذت تتحرك في الهواء بسرعة عجيبة حتى خاف الجلوس أن تصيبهم في حركاتها . لم لطمت هي المائدة فجأة وكسرت القلم . عند ذلك هدأت يدي فعملت علماً بقينا بأن لادخل لإرادتي في حركة يدي ، كما لادخل لها في سكونها . ثم لما بُري القلم أمسكته يدي اليسرى وأخذت ترسم في الورقة خطوطاً غير منتظمة ثم اخذت ترسم أحرفاً أولية كما يفعله الأطفال ، ثم شعرت بتيار هوائي كالمتقدم ازابل يدي كل ألم وكل تشنج . فرفعنا الجلسة وأنا مسرور لتحقيقي أن في الطبيعة قوة مستقلة عن إرادتي » . إلى أن قال : « ومن ذلك الحين أخذت الناصية الواسطة تنمو معي بنصائح إخواني الأمريكيين فابتدأت بالكتابة ثم حدث أنها رسمت « سبتاً » مملوءاً زهراً . هنا يجب علي أن أقول إنني لأستطيع حل شيء بيدي اليسرى ، حتى ولا يمكنني أن آكل بها . أما الرسم فلست حسنه قط ولا بيدي اليمنى . فأنا الآن مقتنع تماماً بأن القوة التي ترسم أو تكتب بواسطتي مستقلة عني ، ولها عقل غير عقلي ، لأنني في أثناء ظهورها أراني متمتماً بكل قواي العقلية ولا أحس بأدنى حادث غير ما يحصل في يدي اليسرى التي

تظهر كأنها ليست بيدي طول مدة الجلسة وكأنها تحت تصرف غيري . وإني أستطيع في أثناء هذا الأمر أن أكلم الذين حولي بكل حرية . فأراد أحد زملائي الدكثرة أن يوقف حركة يدي فضغط عليها بيديه بطريقة جعل ثقل جسمه كله عليها ، ولكنه لم ينجح ، واستمرت يدي تحت ضغطه تعمل بقوة ونظام ، مع أنني أستثقل بطبيعتي ضغط اليدين مجردتين .

أليس في كل هذا ما يدل على أن في الوجود قوة عاقلة لها على جسم الإنسان سلطان في بعض الأحوال ؟ ...

* * *

المجلد الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله الذي وفقنا لخدمة دينه القويم ، وهدانا بنوره العميم إلى صراطه المستقيم ، وأصلي وأسلم على رسوله الكريم ، وأمينه الصميم ، محمد خاتم النبيين ، وإمام المتقين ، وعلى آله وصحبه أجمعين إلى يوم الدين .

أما بعد ، فإننا بحول الله وقوته أتمننا الجزء الأول من « الإسلام في عصر العلم » فلنبداً في الجزء الثاني منه معتمدين على واهب القوى والقدر ، ومانح البصيرة والبصر راجين منه سبحانه وتعالى أن يأخذ بيدنا لإتمام هذا الصرح الفخيم ، الذي تصدينا لتشييده لدينه القويم ، خدمة لأنفسنا معشر أبناء هذا العصر الذي انصبت فيه العلوم المسادية انصباباً مريعاً ، وبلغت فيه المدارك الإلحادية مبلغاً عجبياً ، ولعبت فيه الشبهة بالعقول ، ولا لعب الشمول ، وهاجمت فيه الشكوك معاهد الإيمان من سرائر النفوس ، وضمائر القلوب ، هجوماً شعر به الإنسان شعوراً أزعجه إزعاجاً ، وبرح به تبريحاً ، وصاح كل منا صيحة دلت على قدر ألمه ، ومقدار وجعه . فمنا من استكان للعلة وظنّها لازماً من لوازم العلم العصري فجعل الشك دينه ، وظن كما يظن اللاأدريون أن الوصول إلى صميم الحقيقة محال على الإنسان ، فقتلوا بهذا المركز المضطرب وخالوه نهاية ما يبلغه العقل القوي

والفكر السليم ؛ ومنا من هاجمته تلك الشكوك هجوماً عنيفاً ولم تجد من فطرتة ما يقاوم تياراتها ، فجلا الإيمان منها جلاء ، وحل محله غيبه الفكر المطبق ، فساق ذلك المسكين أمامه إلى أغراض الشهوات ، ومتاهات الأهواء ، يسلك به من مفازة فتنة ، إلى متاهة ريبة ، ويخرج به من مهواة شهوة إلى تيهور شرهة ، حتى ينتهي وجوده الدنيوي على حال لا يرضاه لنفسه فكيف يرضاه له غيره ؟

ومنا من توم أنه سلم من أفاعيل هذا التيار الجارف ، تيار العلم الأوربي المادي ، بقطع علائقه به ، والتفاني في الهرب منه ، فهو كلما صادفه ذلك التيار من وجهة ، ارتد على عقبه ، وسلك طريقاً غير طريقه ، حتى إذا توسطه وكاد يجتازه لاحت له طلائع ذلك التيار عن بعد ، فرجع أدراجة ، وتلمس منهاجاً للحياة آخر . وهلم جرا ؛ فهو يقضي حياته حائراً لا يعرف له وجهة يتوجه إليها ، ولا يدري له غاية يتيممها ، فيقف ظاناً أن في الوقوف راحة له من بعض ذلك الهم الناصب ، ولكنه لا يكاد يطمئن في نفسه حتى تغشاه غواشي ذلك التيار المتدافع من سائر جهاته ، فيضطرب طلباً للنجاة ، ويتخبط بحثاً عن منفذ ! وإلى أين ؟ لقد أحاط التيار به من كل جانب ، وقارب أن يحقق به من كافة أرجائه ، جزاء ما أصر على مجافاته ، فلا يرى له ملاذاً إلا إحدى جهتين : إما أن تغوص به الأرض فيأمن عادية ذلك البلاء المتواتر ، وإما أن يرفعه الهواء إلى مسارج الأطيوار ، ومدارج الأفلاك ، فيرى أن الوجه الأخير أقرب للسلامة ، وأشفى للنفس اللوامة ، فيشرئب برأسه ، ويتطاول بعنقه ، وكلما أحس بشدة الخطر الذي هو فيه ، تبسم الأمل في وجهه ، ونفحه الرجاء بنسيجه ، فتوم أن ذلك الاشرئباب قد رفعه إلى فوق ، وأمنه الخوض في اللجة

بينما يكون ذلك التيار المتدفق عليه من كل مكان قد أحاط به إحاطة القيد برجلي الأسير ، وفعل به عين مافعل بإخوانه المسلمين ، ولا فرق بينهم وبينه إلا أنهم سلموا لعدومهم قبل أن يحيط بهم ، أما صاحبنا هذا فلم يزل يزوغ منه ويروغ حتى سد دونه المسالك ، وأخذ أخذاً عنيفاً أذهله عن نفسه ، وأوممه ذلك الذهول أنه ارتفع عنه إلى مسابح الطيور ، ومسابح النور .

ومنا مَنْ مَنْ الله عليه بروح خاصة أقامته على الصراط السوي ، في وسط هذا الحال الردي ، وهم من قلة العدد بحيث لا يعرفون ، ولا يتوهم اليائسون أنهم موجودون .

هذه أقسام أربعة لا يخلو واحد منا من أن يكون تابعاً لقسم منها في هذا الجيل العجيب . فهو إما أن يكون ممن منحهم الله روحاً من عنده ، ونفحهم بنفحة من رحمته ، فقاموا على طريق الصالحين الأولين ، والأولياء الطيبين ، على قدم الأنبياء المرسلين ، عليهم الصلاة والسلام أجمعين . فهو مؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وقضائه وخيره وشره ، إيماناً ذاتياً ذوقياً بغير تأويل ولا تصرف .

وإما أن يكون مكذباً بكل ذلك .

وإما أن يكون شاكاً في صحة كل ذلك .

وإما أن يكون موهماً نفسه أنه معتقد بكل ذلك .

لنا على كل صنف من هذه الأصناف كلام لا يجوز لنا إغفاله في مقدمة الجزء الثاني للإسلام في عصر العلم ، لأن ماسيجي ، إن شاء الله في أثناء هذه السنة يقتضيه ويناسبه ، بل يجب علينا أن نقدمه أمام الكلام في هذه المناسبة بياناً لوظيفة الإسلام في عصر العلم ، وإشارة للمهمة التي ندينها لها خدمة لإخواننا الأعزاء فنقول :

حال المكذب منا بالعقائد

المكذبون بالعقائد في كل أمة وفي كل زمان ومكان ثلاثة أقسام : الأول : قسم كافر بفطرته خلق فؤاده مطموساً ، ونوره مطفئاً . والثاني : وقسم جامد بفطرته لا تهمة للعقائد ، ولا بهمة عدها ، فهو كتلة مادية ذات صورة إنسانية ليس إلا ، وهو يتقلب بتقلب الوسط الذي يعيش فيه ، فإن وجد المحيطين به مؤمنين فهو مؤمن

فيا بينهم ، وإن وجدهم على الضد من ذلك فهو معهم يفعل ما يفعلون ، ويسلك من طرق الحياة ما يسلكون .

هذا القسم والذي قبله قد أشبعنا فيها القول في فصل متقدم من كتاب خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم فليرجع إليه من شاء .

بقي القسم الثالث من المكذبين ، وهو من لا يكون كافراً ولا جاحداً بفطرته ، وإنما عرض له التكذيب بالعقائد من شبه عقلت بذهنه من مثافته للمعارف الإلحادية ، ومجالسته لبعض حملتها ، فتشبع فكره بذلك السم القاتل وتمثل به فصار عسر العلاج جداً .

أفراد هذا القسم كانوا مؤمنين نشأوا تحت سماء الشرق ، ودرجوا من مهاده الوثيرة ، وهو كما لا يخفى في هذا الدور ، دور الانحطاط والقهقري في الصنائع والعلوم ، وهي سنة الله في خلقه ، « وتلك الأيام نداولها بين الناس » ، ولقد كانت لنا الدولة على غيرنا كما هي اليوم لغيرنا على أكثرنا ، ولم تبلغ أمة منا مثل ما بلغنا من سائرهم ، وسيؤوب إلينا إن شاء الله مجدنا القديم ، على يد ديننا القويم ، وسنكون في نهايتنا مثل ما كنا في بدايتنا خير أمة أخرجت للناس ، نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر ، ونؤمن بالله ، ونحمل للعالم نور الحق ولألاء الفضيلة ، ودرياق العقيدة ، ومن يعيش يرَ العجب .

دعنا الآن من هذا ولنعد إلى ما كنا فيه . قلنا نشأ أفراد هذا القسم مؤمنين تحت سماء الشرق ، وهو في دور الانحطاط والقهقري ، فدعتهم دواعي الأحوال الاجتماعية إلى درس العلوم الأجنبية ، والسفر إلى بلادها القصية ، فإذا رأوا ؟ رأوا من زخارف الصناعات ، وبدائع المخترعات وعجائب الفنون ، وغرائب الشؤون ما يذهل الناظر عن نفسه ، ويسلب العقل من رأسه ، مباني تسامر الكواكب وتناغي السحائب ، ومعاهد طرب وهو تأخذ الأفئدة من بين الجوانح ، وتسترق النواظر من داخل المهاجر . وأشياء وأشياء يطول عدها ، ولا

يفيب عن قارئنا أمرها . فلما رأها أولئك الشبان وقارنوها بما عهدوه في بلادهم من المعاهد الساكنة الخاوية، والمشاهد المحزنة المتداعية، جال فكركهم واضطرب، وأنت لهم الهواجس بالعجب .

كانوا يتعلمون في مدارس بلادهم أن دينهم دين السعادتين ، وملاك الحياتين ، وأن متبعه فائز بالصفقتين ، ومتمتع بالنعمتين ، فرأوا رأي العين أن تلك الأمم أعلا من أمتهم في الحضارة كعباً ، وأرجح منها في الوجود وزناً ، وأفوز منها من السعادة سهماً .

كانوا يتعلمون أن الدين يدعو إلى الكمال ، ويحلي متبعه بسرائف الخصال ، وكرائم الخلال ، فرأوا أن أمتهم من هذه الجهة ليس لها مركز خاص بين الأمم ، بل رأوا أن آداب تلك الأمم في الجملة أرقى من آدابها .

كانوا يتلقون من آبائهم ومعلميهم أن أمتهم سيدة الأمم ، وصاحبة السيف والقلم ، ومكانها في العالم مكان القلب من الصدر أو العين من الرأس ، فرأوا هنالك أن لا محل لفرض ذلك القول ، وأن تلك الأمم أكثر من أمتهم جنوداً وسفيناً ، وأغزر منها مالاً وعيوناً ، وأقدر على استخدام قوى الطبيعة ، وأمهر منها في استعمال أسلحتها .

رغماً عن هذه المشاهد المدهشة كلها رأوا أن تلك الأمم تنابذ الأديان وتثبت بطلانها ، وتشاكس الكهان وتهدم معاهدها، وتراقب الرهبان وتوصد مدارسها، وتفتح لأفرادها مجالات الحرية في الطعن على موروثة العقائد ، ومقدسات الآباء في الأجيال الغواير .

رأوا كل هذا بأعينهم ، وجال في تيار ضمائرهم ، ووقف بهم موقفاً ما أصعبه على الفؤاد الحساس ! وجدوا أنفسهم من جهة مسوقين بل مرغنين على ترك العقائد ، لأن كل ما وقعوا فيه من ذلك الاضطراب الذي صورناه لك يستدعيه، ولكنهم من جهة أخرى عز عليهم أن يكشطوها من ضمائرهم ، وهي التي كانت

لهم أيام الشبوية الأولى عزاء في المصائب ، وتسلية في المتاعب ، ومعتصماً في
الخاوف ! صعب عليهم أن يهجروها وهي التي طالما هاموا بذشيدتها في المكاتب
وطربوا بالترنم بها في المحافل .

هذا الحنين الذي طرأ عليهم من جراء هذا التناقض الذي أشرفوا عليه كان
يكفي لأن يقودهم إلى طريق الوسط ، ويربهم وجه الحق فيما هم بصدده ؛
ولكن هيهات ! فإنهم لم يكادوا يثنون أنة أو أنتين حتى دهمهم تيار تلك المدنية
الساحرة فداروا فيه مع الدائرين ، ولم يزالوا بين تلقى وهو ، يجذبهم العلم يوماً ،
وتسحرهم السواحر يوماً ، حتى جازوا دور الشبوية وشارفوا دور الكهولة ،
فجمدوا على ماعلق بفكرهم وجزموا بصدق استدلالهم ، وانقطع عنهم ذلك
الحنين الأولي وعدوه من بقايا سن الطفولية ، وآثار الحياة المنزلية ، فأبوا وكأنهم
أجانب عن الوطن والدين ، لا يتكلمون إلا بالفرنسية ، ولا يلبسون الطرابيش
إلا في البلاد المصرية .

قلنا إن هؤلاء الناس ليسوا كافرين بالفطرة ، وإنما عرض لهم التكنذيب من
العوارض التي قصصتها عليك ، وهي عوارض تمكن إزالتها بالطرق العلمية ،
فإنهم متى عرفوا حقيقة الدين وحقيقة الإسلام ، لحفوا إليه سراعاً فكانوا أعز
أنصاره ، وأقوى أعوانه . ولكن كيف السبيل إليهم ؟ إنهم يعتقدون اعتقاداً
جازماً أنه لا يمكن أن يصل الشرقي إلى أكثر مما وصلوا إليه من العلم ، ويستنتجون
من ذلك أنه لا يمكن أن يرجعهم واحد من أبناء جلدتهم عما هم فيه ، فكيف
نطمع بعد هذا أن يؤوبوا إلينا وهم في جاحهم يهيمون ، وفي خيلائهم تائهون .
اللهم إلا أن يكون لله فيهم شأن لانعرفه .

لهذا قلنا أن هذا القسم عسر الشفاء جداً مما هو فيه من داء الإلحاد ، لالكونه
كافراً بالفطرة ، ولكن لكونه شديد المروج عن السمع ، كثير الهرب من التأمل .

قسم الموهبين أنفسهم بالعقيدة :

أكثر أفراد هذا القسم من الذين لم يتعلموا العلوم الحديثة ولم يذوقوا حلوها ومرها ، لذلك يراهم أصحاب القسم المتقدم كأنهم من قوم غيرهم لمخالفتهم لهم عقلاً وعلماً ولبساً ، وأن كان منهم من هم آباء أو إخوان لكثير منهم .

أفراد هذا القسم لا يعرفون من الخطر المحقق بهم وبأمتهم من جراء التيار الغربي إلا ما يرونه من بعض آثاره حولهم ككثرة معاهد اللهو ، وانصباب الشبان في الترف والقصف ، وخراب بيوتات الحسب القديم ، والنسب التالذ ، وقلة المتمسكين بفضائل الدين ، وانتشار الفجور ، والفسق بين الطبقات العليا والوسطى ، وذهاب أكثر أطيان القطر المصري من يد أهله إلى طائفة من أصحاب البنوك ، وتبدل بيوتات المجد في بلاد الفلاحين إلى معاهد شراب ومقامرة ، وانتهاء الأمر بذهاب تلك الألوف المؤلفة من الأفدنة إلى من لا يرحم أصحابها ولا يواسيهم بشربة ماء .

كل هذا يراه أصحاب هذا القسم ويحسبونه كل ما في المدنية الأوروبية فيسلقونها باللسنة حداد ، ويطعنون عليها في كل ناد ، وينبذونها بالألقاب . يعادون علومها وصنائعها ، ويكرهون زخارفها وبدائعها ، وماذا تفيد كل هذه الكراهة والعداوة ، وهم لا يدرون جهات قوتها وضعفها ، ولا أمكنة حياتها وموتها . وهل نبعد في التشبيه لو قلنا أنهم كالذين رأوا ناراً تلتهم بيوتهم فخرجوا منه ووقفوا بعيداً وأخذوا يسبونهم ويشتمونها ، وينددون بها ويزدرونها ، ولا يزالون كذلك حتى تأكل النار بيوتهم وتدعهم طعمة لقوارص الجو ، وأفاعيل الخلاء .

يعلم هؤلاء الناس أن في علوم تلك المدنية شياً أضررت بعقائد بعض الناس ، واستشكلات على الأديان تعوز حلاً دقيقاً فلا يخفون لمطالعتها ، ولا يرضون أن يطلعهم أحد عليها ، خوفاً على عقائدهم ، وإبقاء على يقينهم ، ويكتفون بسب من قال بها وتكفير من يجاريهم في ذلك ، والادعاء بأنها ضلالات وأوهام ، وخرافات وأحلام ، لاحقيقة لها إلا في أدمغة قائلها مع أنها قد تكون حقائق

طبيعية ومشاهدات وجودية . يفعلون هذا ولا يدرون أنه أكبر جرم يرتكبونه ضد الناشئة الجديدة ، لأنها متى رأت أن عقلاء أمتها يكذبون بحقائق الكون الثابتة ، ويسلمون بأنها خطر على العقائد ، ويدعونها لها بدون حل غير التسفيه والتنديد ، علمت أنهم يعجزون عن دحضها ، ولم لا تحل الشكوك بعد ذلك معاهد إيمانها ، وتختلط سموم الإلحاد بوجدانها ؟

أفراد هذا القسم يتوهمون أنهم خلصوا بهذا المسلك الاعتزالي من ضرر هذا التيار الجارف ، ويزعمون أنهم هم وحدهم الذين أقاموا على السنة ، وقاوموا هجمات البدعة ، وهم في هذا الزعم واهمون ، فإن ذلك التيار قد استاقهم كما استاق غيرهم ، ونفت في ألبابهم من الشبه والشكوك ما نفثها في ألباب من عداهم من المعارضين لأفَاعِيلِهِ ، ولكن مع فارق صغير اقتضته الأحوال وأوجدته بعض الحواجز ؛ على أن تلك الأحوال تتلاشى يوماً بعد يوم ، وتلك الحواجز ترق من آن لآخر ، وسينتهي الأمر بهم إلى مساواة غيرهم ، إن لم تدفعهم القوارع إلى أبعد مما عليه إخوانهم .

قسم الشاكين

أما الشاكون منا ، فأكثرهم من طائفة المرتشفين لباب المعارف الجديدة ، وقعوا من الحيرة بين العقائد الموروثة ، والمشاهد المحسوسة في مثل ما وقع فيه سابقوهم من المكذبين ، ولكنهم وجدوا من فطرتهم قوة قاومت تارات تلك الشبه ، وقاومت هجمات تلك التناقضات ، فلم ينزلوا إلى حضيض التكذيب المطلق ، بل رجوا أن يكون لهم مما هم فيه مخلص ، فتراهم ينشدون الهداة في كل ناد ، ويترقبون المرشدين في كل آن ، رجاء أن يجدوا ضالتهم من العقيدة النقية ، ويوفقوا بين ما يميلون بفطرتهم إليه ، وما تهجم بهم الدواعي المعاشية عليه .

هذا القسم هو أحياناً فؤاداً ، وأسماناً عقلاً ، وأقربنا إلى الخير بعد القسم الأول . ذلك لأن شكه دل على شعوره بوجود التناقض بين أوهامه القديمة ، ومشاهداته الجديدة ، ووقوفه في مقام الشك بدل السقوط إلى هاوية التكذيب

المطلق ، أعرب عن كبر فؤاده ، وثبات جأشه ، ورباطة إحساساته ، لأن في التكذيب المطلق خفة وطيشاً ونزقاً يعلو عنها من له عقل راجح ، وتصور سليم .

كيف نحن بين هذه الأقسام ؟

تخيل أمة رابطتها الدين ، وجامعتها الإيمان واليقين ، تنقسم من حيث عقائدها إلى هذه الأقسام الأربعة ، ثم اسرد لي ما يحل بها من فشل وخذلان ، وما يفشل فيها من خلل واضطراب ، وما يحنوشها من تشوش واختباط ، وما يعترى أفرادها من الدهشة والذهول عن أقدم واجباتهم ، وأمس الأشياء بحياتهم ؟

هذا الانقسام في العقائد لا يضر في أمة رابطتها غير الدين كإحدى الأمم الأوروبية مثلاً ، فلا يضر فرنسا أن تنقسم إلى عشرين قسماً في الدين تكذيباً وتصديقاً ، ولا يضر إنجلترا ذلك كذلك ، ولكن يضرهما أن ينشقا في الوطنية والجنسية ، أو ينقسما في شؤونها الحكومية ، لأن رابطتها ليست دينية .

وبناء على هذا فكل طبيب يعالجنا من غير الوجهة الدينية التي هي رابطتنا الأصلية ، فلا يصادف دواؤه المرض الحقيقي ، بل ولأعراضه الحقيقية ، وينتهي أمره باتهام الأمة بالموت جهلاً منه بمرضها ، ويأساً من تطبيبه ما بها .

إذا تقرر هذا كله فلا دواء لنا إلا جمعنا على عقائدنا ، وردنا إلى كتابنا . وكيف يتأتى لنا ذلك وهذا التيار الغربي يساورنا من كل مكان تارة حلاً لروابطنا ، وطوراً محواً لمعاملنا ، وآناً مزاحمة للغتنا ، وآخر تغييراً لأخلاقنا ، ويوماً سماً لفطرتنا بلهوه وقصفه ، وحيناً سحراً لألبابنا بعلمه وبدعه ؟ إليك كلمة في هذا الاجمال :

كيف نقاوم هذا التيار ؟

التفاعل بين الكائنات سنة من سنن الوجود ، ومعنى هذا التفاعل التصارع بين

القوة والضعف، بين النظام والخلل، بين البسيط والمركب، بين الكامل والناقص؛ ونتيجة هذا التصارع قيام أمر هذه الحياة الكونية بمغزاها الأعم ومغزاها الأكل.

غرز في طبيعة كل كائن حي قوتان مختلفتان، قوة التمثيل وقوة المقاومة. الأولى هي باعث يبعثه لتحليل كل ما يلائمه من الوسط الذي يحيط به وإضافة ما يناسبه من عناصره إلى ذاته. والثانية روح أودعت في صميم كيانه تنهض به لدفع الفوائل عنه بكل ما في طبيعته من حول ومن حيلة. أغرس نباتين بجانب بعضهما تر أن الأقوى منهما يستولي بقوة التمثيل على المواد اللازمة لمجاورة الضعيف، فيمنعه من إتمام وظيفة التغذية ولا يزال به حتى يضمر ثم يهلك، وبأليته يدعه بعد ذلك، بل لا يبرح يساوره حتى يحلل عناصره تحليلاً فيأخذ ما يليق به منها ويدع الفضلة لسافيات العواصف. وضع حيوانين في حظيرة واحدة وأمداهما معاً بالغذاء تجد الأقوى لا يدع للأضعف إلا الفضلات التافهة ولا ينفك عن منابذته في أمر حياته حتى يهزل ويموت ويترك الجو لخصمه.

هذه قوة التمثيل، أما قوة المقاومة التي قلنا أنها روح أودعت في طبائع الكائنات الحية، تدفع بها عن نفسها الفوائل فهي من المشاهدات المحسوسة، فإن النبات الذي ضربناه مثلاً لم يستسلم لخصمه من أول وهلة، بل ما برح يحاول ويصاول حتى فנית مادة حيله، ولم يعد قادراً على شيء من الوسائل. وكذلك كان شأن الحيوان، فإنه ما انفك يستثير كوامن الحيل، ويستجيش غرائب الأساليب حتى عجز واستسلم.

هذا بعينه يحصل بين أفراد الأمة الواحدة ويحصل بين الأمم المختلفة. أما حصوله بين أفراد الأمة الواحدة فتابع من حيث الشدة والضعف لعقائد الأمة ومبلغ علمها. فإن كانت ذات عقيدة تبعثها لاحترام الضعفاء، وذات علم يريها أن الحياة يجب أن تكون بالتضامن، قل تأثير قوة تمثيل الأقوياء الضعفاء، وصار الكل يداً واحدة للحصول على مقومات الحياة مع امتيازات بين الأفراد لا بد منها. أما ما يحصل بين الأمم المختلفة من هذا التفاعل، فهو على أشد درجاته،

فهي في الحقيقة فيما بينها في حرب مستمرة وإن كان السلم ناشراً أجنحته عليها في الظاهر ، بل ربما نالت الأمة من خصيمتها تحت ستار السلم ما لم تنله في مضمار الحرب ومواقف الطعن والضرب .

هذه الحرب المستمرة تظهر في الأجيال الإنسانية على حسب درجات الناس في العلم وسعة القوة الفكرية ، فبينما تراها بين القبائل المتبدية على أصرح حالاتها ، كالغارات والسلب والسي ، تراها لدى الأمم الراقية تحصل بوسائل وأساليب غاية في الدقة والخفاء ، وإن كانت نتائجها أنكى في الجسوم والعقول من نتائج الحديد والنار . والأمم المرتقية تعرف ذلك تمام المعرفة ، وتعمل عليه كل يوم ، رغمًا عما يثرثر به كتابها من الألفاظ المعتادة « كالتقرب بين الأمتين » ، و « مظاهرات الحب والوداد » الخ ... من الجمل الطنانة الرنانة التي تكتب في جرائدها وتلوونها ألسنة خطبائها في أنديةهم ، أما الشرقي الذي هبط من أفق عظمته الأولية ، وحكم عليه أن يحمل نير سلطة غيره تأديباً له على ما فرط وأفراط ، فمركزه وسط هذا التفاعل الحيوي العام من أغرب المواقف وأحرجها ، ولو طال عليه أمد هذه الفتنة لذهبت به إلى مدى بعيد .

يتذكر أنه تريكة قوم ملكوا زمام المعمورة وأثروا فيها آثاراً لاتندثر ، وتركوا خلفهم ذكراً لاينمحي . ثم هو مع ذلك يشعر أنه ليس على سمتهم ، ولا من الحال على مثل حالهم ، يود أن يجد السلسلة التي تصله بهم ، فيعييه حتى يخيل له أنه ليس منهم لولا ما يجده في الآثار من الدلائل الناطقة . هذه الذكرى تولد فيه شيئاً من الشمم والعزة ، ولكنه لا يكاد يطرب بأصاليته حتى ترن أغلال الأسر في رجله ، وتضيق ربقة الصغار في عنقه فيتضائل شمه ، وتضعف عزته ، ولا يزال يخمد خموداً حتى يظن بنفسه الظنون ، وإذا بروح رجاء تهب عليه من كنوز حياته الكينة ، يتلوها لافح من الغيرة يتلثلل به ليواجه الآمال الجسام ، ويزعجه عن الوقوف والإحجام ، فلا يكاد يخطو خطوات حتى تقابله العقبات ، وتصدمه الصدمات ، وتختلط أمامه السبل وتشتبه عليه المسالك فيعروه مايعرو

الخابط من الدهشة والوحشة ، فينادي من حوله حتى إذا لم يسمع مجيباً ، رجع أدراجه وقنع من الغنيمة بالإياب . وهكذا شأنه كلما هزته نسيات الذكرى ورثت أعطافه صور الماضي وخيال المستقبل .

يقولون سبب ذلك عدم اتحاده مع أبناء جنسه ، تخاذلهم وعدم تناصرهم ، تناكرهم وعدم تعارفهم ، جهلهم وعدم تهذيبهم الخ ... من العلل المصطلح عليها . ثم ماذا ؟ يقولون : فالواجب أن يكونوا متناصرين ، متعارفين ، مهذبين الخ .. ومن المعجب أن جميع الأفراد أصبحوا يقولون الآن هذا القول ، ولا نعلم أمة من الأمم يكثر على ألسنة عامتها وخاصتها لفظة اتحاد مثل هذه الأمة ، ومع ذلك فنحن من عدم الاتحاد على ماترى ، مما يدل على ضلالنا في علاج أنفسنا أي ضلال .

نقول أن عدم اتحادنا وتخاذلنا وتناكرنا وعدم تهذبنا ، كل هذا ليس المرض بعينه وإنما هي أعراضه ، كما أن اتحادنا وتناصرنا وتعارفنا وتهذبنا ليست هي الضالة التي ننشدها ولكن مظاهرها . فالطبيب الذي لا يحارب من المرض إلا أعراضه والمصلح الذي لا ينشد من الحياة إلا مظاهرها ، لا ينجيان غير الحبية من وراء جهادهما . فالأول لا يلاشي عرضاً حتى يقوم في وجهه عرض غيره ، فلا يزال يجاهد الأعراض وتجاهده ، حتى يعيا جهده ويميل صبر مريضه . والثاني لا تزال تزدهيه مظاهر الحياة التي يتخيلها لأمته فيطلبها وهي تهرب منه ، حتى يبح صوته وتجمد أنامله على يراعتة فلا يجد له غير اليأس محيصاً .

أما لو أضرب الطبيب عن أعراض المرض ولم يحفل بها إلا لتهديه إلى مكان العلة وطبيعتها ، وما زال يتتبع سير المرض حتى يصل إلى حقيقته ، ويصوب إليه أسلحة العلاج ، لاستأصل مادته وقطع بذلك سيول أعراضه المختلفة . وكذلك المصلح لو أدرع بالصبر والتؤدة ، وأتيح له أن يعلم أن غرامه بمظاهر الحياة واشتغاله بالبحث فيها وفي كيفية تطبيقها على أمتة بدون التفاته للحياة نفسها ، مضیعة لوقته في غير طائل ، ومدعاة لتعبه من غير نائل ، لألهم بأن أولى المسائل بالعناية والاهتمام ، هو النظر في أمر حياة الأمة قبل كل شيء ،

ومنى استقامت قناتها تداعت إليها تلك المظاهر من تلقاء نفسها تداعياً طبيعياً
يستبقي الحياة ويمدها ، لا أن تكون ثوباً تقليدياً يستغيث الحياة ويبددها .
فالمسألة إذن استحالت إلى النظر في الحياة .. فهل نحن أمة حية ؟

نعم نحن أمة حية لأننا نحس ونتألم وكفى بهما دليلين قويين على الحياة . إذن
ماهذه الأعراض المحتاجة التي تنازعنا من كل مكان ، وتكاد تغرس اليأس في
كل جنان ؟ نعمل ولا نثبت ، نفكر ولا نعزم ، نؤمل ولا نهتم ، نعرف الخير
ولا نسعى إليه ، وسدرك الشر ولا نتجنبه ، نسرده قوانين الحكمة ونعصمها ،
ونعرف أسرار النجاح ونجافىها ، متعلمنا بائر ، وجاهلنا حائر ، وفقيرنا غير
صابر ، وغنينا غير شاكر ، وكلنا يحس بهذا كله ويتألم منه أشد الألم ، وقد
استوى في الشعور به الخاصة والعامة ، حتى أصبح الناس كلهم فلاسفة لاشغل
لهم إلا ذكر الأمة وأعراضها ، وبسط الطريقة المثلى في علاجها ، ومع ذلك فلا
تزداد العلة إلا نشوباً فينا ، وسرياناً في أجزاء هيئتنا ، فما سر هذا الأثر ؟

مادام المريض يحس ويتألم ويرى دواءه بعينه بين يديه فما الذي يمنعه عن
تعاطيه وما الذي يصدده عن وجدان شفائه فيه ؟

أينتظر الناس أن نصل من الشعور لدرجة الإغناء أو أن نكون كلنا عمرانيين
حكاء ، لنظهر ببعض ما للأمم الحية من مظاهر الحياة ؟

ولماذا نحن نخبط في تيه هذا التناقض من بين سائر الأمم ولسنا بأقلها علماً
ولا شعوراً ، ولا بأكثرها شراً وفجوراً ؟

لأبد لنا في تعليل مانحن فيه من الرجوع إلى الأصول الطبيعية التي قدمناها
وهي قوة التمثيل في الأمم الحية المحيطة بنا ، وقوة المقاومة في الأمم الضعيفة .

لامشاحة في أننا أمة تساورنا مطامع الأمم القوية من كل مكان ، وتحاربنا في
السلم بكل ما يصل إليه الإمكان ، وماتيه أساليب العرفان ، ومعنى تلك المطامع
باللسان الطبيعي قوة التمثيل والتحليل فيها ، ولسنا نذمها أو نشتمها من أجل

ذلك، كما لاندم ولا نشتم النبات الذي يتغلب على مجاوره فيمنعه من إتمام الغذاء، والحيوان الذي يصد شريكه في الحظيرة عن الحياة معه على السواء . تلك سنة طبيعية بين الأقوياء والضعفاء . فكل مانحن فيه من التناقض بين علمنا وعملنا ، وما نشعر به من البعد بين شعورنا وما يستدعيه من اتحادنا وتضافرنا، وبالاختصار كل ما يجعلنا مسلوبى الإرادة فاقدى الاختيار هو لاشك أثر من آثار قوة التمثيل والتحليل المحيطة بنا من الأمم القوية. ولئن كنا لانشعر بها شعوراً خسيماً، فذلك كما قلنا لارتقاء قوة التمثيل على حسب العلم وسعة الفكر . فالأمم القوية المرتقية لا تحلل الأمم وتمثلها بسلاحها الحديدي فقط ، بل بعلمها وفلسفتها وصنائعها واختراعاتها ، وأنها لتتال بهذه الأسلحة الفكرية، ما لا تتاله بمجديدها ونارها . فترى الأمم الضعيفة يجانبها لا تزدد إلا خلاً وفشلاً وتناقضاً بين الشعور وما يستدعيه ، وبين القول والعمل ، حتى تظن بنفسها الظنون وتكون النتيجة يأسها من القيام بذاتها ، وشعورها بالاحتياج إلى غيرها (تأمل) .

يقول قائل : وأين قوة المقاومة التي قلت إنها روح طبيعية مغروزة في جبهة الكائنات الحية تدفع بها الغوائل عن ذواتها ؟ نقول : تذهب إلى حيث تذهب كل قوة لا تجد منظماً ينظمها ويراقب حركتها ويوجهها إلى حيث يمكن اجتناء ثمرتها . ألا ترى إلى قوى تيارات الأنهار المهمة كيف تذهب هدرأ لدى الامم الجاهلة ، بينما هي عند الشعوب المدبرة تدير الآلات بدل البخار ، وتولد الحركة والكهرباء؟ وهل قوة المقاومة في الأمم إلا شيء من هذا القبيل ، تحتاج لتصرف وتدير ، بل هي أحوج إلى الفكر والعلم من أي قوة من قوى الوجود لدوام تغيرها وتوجيهها ، واستمرار مدها وجزرها ، على حسب الظروف المختلفة والأحوال التي لا تكاد تحصى ، لأن مشارها الكائنات العاقلة ذات الشعور والحركة بخلاف قوى الأنهار والرياح ، فإن لها نواميس معلومة الحدود يمكن ردها إليها في كل حالة من أحوالها .

من هنا يتبين أن الأمم في حاجة كبرى إلى قادة يقودون قواها المختلفة ،

وخصوصاً قوتي التمثيل والمقاومة . والناظر يرى بالحس أن الأمم القوية تختلف في قوة التمثيل اختلافاً بيناً على قدر مهارة قادتها ، فبينما ترى هذه تلتهم الأمم واحدة بعد أخرى بسهولة مدهشة ، ترى تلك لا تكاد تساور أمة أو أمتين حتى تغص في حلقها ، وتحتاج لوسائل كثيرة تسهل لها ازدياد غنيمتها ، وربما لا تهتدي لوجه الحيلة فتقف حيرى تربصاً للفرص .

أما قوة المقاومة فليست بأقل من قوة التمثيل في الاحتياج إلى القادة العرفاء ، وما أقلهم في الأمم المستضعفة الآخذة في الانحلال ! نقول ما أقلهم مع ما يظهر من كثرتهم ، لأن الشروط التي يجب أن تتوفر في قادة الأمم المستضعفة ينسدر أن تنطبق من الأمة ذات الملايين الكثيرة إلا على أفراد قلائل . فإنه فضلاً عما يلزم أن يتحلى به أولئك القادة من العلم الشامل ، والفكر الثاقب ، والبصر النافذ ، يجب أن يكونوا كبراء الأفئدة لا تلفتهم الثروة ، كبراء النفوس لا تزدهيهم الألقاب ، كبراء العقول لا تفتنهم المدنية الساحرة ، كبراء الهمم لا تلين الدنيا شكائهم مهما حاولتهم . وما أقل هؤلاء في الأمم القوية فما بالك بالضعيفة !

قلنا أن التصارع بين الأمم قانون طبيعي ، وقلنا أن الأمم القوية تساور الأمم الضعيفة وتسعى في تمثيلها بجسمها وهي مضطرة إلى ذلك بحكم ذلك القانون الطبيعي نفسه ، وقلنا أن الأمم الضعيفة لا تملك بإزاء هذه القوة إلا قوة المقاومة على حسب ما يناسب حالها . من هنا ترى أن المسألة استحالت معنا إلى حقيقةها الطبيعية ، وهي أن بين الأمم القوية والضعيفة حرباً سلمية لا تفترق عن الحرب الحديدية النارية إلا بدقة أساليبها وخفاء أسلحتها ، فتكون وظيفة قادة أفكار أمثال هذه الأمم كوظيفة القائد الحربي ، لا تفترق عنها إلا في كون وظيفته فكرية أدبية محضة ، وبناء على هذا التشبيه وجب على كل قائد معرفة جملة أمور مهمة :

أولاً - قوة ناموس التمثيل في الأمم القوية وخطوط سيره .

ثانياً - قوة ناموس المقاومة في الأمة الضعيفة ووجه الاستفادة منه .

ثالثاً - مجال التصارع والنزاع بينها .

رابعاً - كيفية إيقاظ شعور الأمة لإمداد قوة المقاومة فيها .

خامساً - طريقة وضع العقبات أمام القوى المحيطة بها لإضعاف قوة التمثيل عنها.

سادساً - وجه الاستفادة من هذا التصارع لإكساب الأمة الضعيفة من حياة الأمم المساورة لها بدون خطر على كيانها .

سابعاً - كيفية وضع الأمة في مراكز مختلفة بتوجيه عواطفها وأميلها ، لتروغ عن مواقع القوى المسلطة عليها .

هذه الأمور المهمة أهم ما يجب أن يتحلى بها كل قائد من قواد فكر الأمة ، وهي كما ترى من المسائل العويصة المعضلة ، ولم لا تكون كذلك ؟ أيطن الناس عندنا أن قيادة الأمم في الحرب الحيوية أسهل من قيادة الجيوش في المواقف النارية ؟ وإذا كان الناس يعرفون أن غلطة القائد في ترك مركز ، أو في احتلال نقطة ، يسبب له خسارة المعركة ، ويكسبه عار الهزيمة ، فكيف لا يتصور الناس أن خطأ القائد الفكري في الطعن على خلق من أخلاق الأمة أو في دعوتهم الى التحلي بعبادة من عادات الأمم الأخرى ، يسبب لمتابعيه ضياع الأمر من أيديهم ويسمه وإياهم بوصمة القهقري والخيبة ؟

كيف نحيا بلا وجهة ولا غاية

يستحيل على أي فرد من الأفراد أن يسلك مسلك الجد في أعماله ، والدأب وراء تحقيق آماله ، ما لم يحدد لنفسه غاية يجعلها مرمى عزائمه ، وملتقى أشعة همه ، ومجتمع تيارات قواه المودعة في تركيبه المادي والمعنوي . لأن تعين تلك الغاية أمامه يجبره بحكم الضرورة إلى جمع شتات كل مواهبه وملكاته إلى

وشيجة واحدة، وتوجيهها كلها إلى وجهة مشتركة، ليكون سيره وهو مستجمع قواه إلى ما يريد بلوغه أسرع خطواً وأيسر مجوداً مما لو رامه وهو موزع القوى، غير منضم الأميال والمواطن .

ليست وظيفة الغاية إيجاد قوى جديدة للإنسان ، أو تمتيعه بمواهب تزيد عما قدر له ، ولكن نتيجتها الوحيدة ضم ما تشتت من أمياله ، وجع ما تشذر من عواطفه إلى سيال واحد ، وناهيك بهذا التوجه من مؤثر على كيان الفرد من وجوه لا يكاد يحصيها الكاتب ، وإذا أردت تمثيل فعل الغاية ونتيجتها بمثال محسوس قلت :

مثل الانسان في تفرق قوى ملكاته وتبعثر تيارات مواهبه ، أي في حالة فقدته لوجهة معلومة تؤديه إلى غاية معينة ، كمثل مرجل (قزان) الآلة البخارية حينما يترك شأنه مكشوفاً للجو يتصاعد بخاره ويذهب إلى حيث تميل به الرياح ، تارة يميناً وطوراً شمالاً ومرة صاعداً وأخرى مضطرباً مشوشاً حتى ينتهي الماء، وتخمّد النار، ولم يأت بفائدة غير ما نالك من تمب مجاورته وحرارة تنوره . ولكنك لو أخذت ذلك المرجل نفسه ، وحصرت بخاره إلى تيار واحد ، ووجهته وجهة معلومة تر أنه قد أتاك بقوة هائلة تستخدمها في أعظم ما يرجى من مثلها ، كتجريك الآلات الضخمة وتوليد الكهرباء مما له أعظم دخل الآن في إظهار المدنية الإنسانية في شكلها الساحر المعلوم . كذلك حال الإنسان من حيث قوى مواهبه وملكاته لو وجهها إلى وجهة واحدة وضمها إلى وشيجة مشتركة . وليس الإنسان وهو العالم الأصغر أو النسخة التامة لصورة كل هذا الوجود ، بأقل فائدة لو توجه وجهة الحق ، وضم كل مواهبه إلى تيار واحد من ذلك المرجل الحديدي . كيف ذلك وهو صانع المرجل نفسه ومدرك سر ضغط البخار ؟

هذا مثال محسوس يريك سر اتخاذ الوجهة وسر عدمها بما لا يمكن معه شك ولا يثبت معه تردد ، وهو سر كبير عرفه أفراد من الأمم فارتفعوا بمواهب

عقولهم وقوى نفوسهم إلى حيث تتمنى الفراق أن تكون مواطىء أقدامهم ، وصاروا لأهمهم أدلاء إلى سبيل الخير ومرشدين لهم إلى طرائق الفلاح ، ومناهج السعادة .

هذا شأن الفرد الواحد من حيث تعيين الغاية وتحديد وجهتها ، أما شأن الأمم فيها فأكبر من ذلك ، لأن أثر ذلك يكون فيها أشد وضوحاً ولألاء ، ونتائجها عليها أكثر دواماً وأكبر شأنًا ، وناهيك بالأثر الحاصل من توجه الملايين من النفوس إلى غاية مشتركة ونقطة معينة ، تنتهي إليها سائر مراميهم ، وتلتقي فيها كل مطامعهم ، وترتكز عليها مجموع قواهم . قل لي بعيشك ماذا يكون مقدار تلك القوى الهائلة المركزة في نقطة واحدة ، وعلى أي وجه تتصور جسامة أثرها في تجلية حياة الأمة ؟ إذا كانت العدسة الزجاجية يتركزها بعض أشعة الشمس في نقطة واحدة تتوصل إلى إحراق ما يعرض إليها من الأجسام ، فما تقول في تلك النقطة المدهشة التي يتركز فيها أميال وعواطف ومشاعر الملايين الكثيرة من أمة حية لها فكر واختيار وإرادة ؟

نعم ، تختلف الغايات باختلاف الأمم ودرجات إدراكها ، ويختلف أثرها تبعاً لذلك قوة وضعفاً ، ثباتاً وذبذبة ، ولكنها مهما كانت أفضل من عدمها بما لا يقدر ، لأنها دليل الحياة والمؤدية إلى كمالها ، وأما عدمها فعلامه الموات ونذير التلاشي .

لتوحد الوجهة والغاية في الأمة أثر لا يقارن بغيره من آثار العوامل الاجتماعية الأخرى ، ولو قلت أنه ينبوع الذي ينفجر منه سلسبيل الحياة الاجتماعية للأمة ، وتندفق منه أمواج النور عليها . لما كنت إلا مصيباً . ثم لو قلت إنه الناموس الأقدس الذي تحمله الأنبياء إلى أهمهم ، فيحدثون فيهم بواسطته الأحداث التي تغير شكل الأرض من حال إلى حال آخر ، لما كنت إلا متكلماً عن الواقع . وليس السحر الذي يؤثر على المشاعر فيجعلها تحس بغير الحقيقة ، وتتأثر بسوى الواقع ، بأكثر فعلاً في إدهاش العقل من آثار وحدة الوجهة والغاية في الأمة .

ما الذي يأخذ بأكظام الهمم في الأمم ، وينفخ في نفوس آحادها روح الثبات في قراع أعدائها ، وريح الحمية الحققة لذود الضيم عن حياضها ، غير وحدة الغاية والوجهة ؟ ما الذي يصيح في وجهها إن أصابتها مصيبة ، أو نزلت بها نازلة إلى التهيؤ لم شعنها ، وضم نشرها ؛ ورأب ما تصدع من أركانها ، غير وحدة الغاية والوجهة ؟ ما الذي يزعجها إلى مسابقة الأمم في مفاخرها ، ويبعثها إلى مساماتها في فعائلها ، ويخزها على تقاعدها عن مجاراتها والفوز عليها ، غير وحدة الغاية والوجهة .

إلا أن وحدة الغاية والوجهة سر عظيم ، وإكسير عجيب ، لو أصاب أمة ولو كانت متوحشة لنفخ في آحادها روحاً لا يدرك كنهها ، ولا يعرف مستقرها ، ولسمت بها في أقرب مدة إلى أعلى منصات المجد وأرفع دسوت السعادة .

وبالضد من ذلك يكون أثر عدم الغاية والوجهة في الأمم ، فإنه ما أصاب قوماً إلا وشعب جمعهم ، وشتت ألفتهم ، وضرب عليهم الذل ، وسجل عليهم الشقاء والضراعة ، وجعل بأسهم بينهم شديداً ، وحكم في رقابهم الهوان والضعفة ، وقادهم إلى حيث يفقدون إرادتهم ويسلبهم شخصيتهم .

ترى أفراد أمثال هذه الأمة حيارى ، لا يدرون لهم غاية ينتهون إليها ، ولا يدركون لهم وسيلة يعتمدون عليها ، يظنون بأنفسهم العجز ، ويعتقدون بهمهم الكلال ، ويغالون فيحسبون أنهم أدنى من طوائف غيرهم من البشر ، فيرون في التقليد مخرجاً لهم عن ذلك ، فيهرعون إليه بكليتهم ، وينساقون إليه بجميع قواهم ، ويخالون أنه لو كانت لهم قوة مرجوة فهي في التصاقهم بسواهم ، وتعلقهم بأذيال من عداهم . ترى الواحد منهم يظن أنه خرج عن أمته بتعلمه كلمتين يعوج بها لسانه ، أو يحرك بكتاباتها بنانه ، ويستهنر في ذلك حتى لا يظهر سروره وموجدته إلا بما علقه ذهنه من لغة غير لغته ، لعل له بأن لغته دليل على جنسيته وهو لا يريد أن يكون شرقياً .

إذا بليت الأمة بعدم الوجهة والغاية ، كانت كل شؤونها متعاكسة ، تنال

غير ما تتمنى ، ويأتينا غير الذي تشتهي ، ولا يحصل لها إلا عكس ما تسعى إليه . ترى أفرادها لا تقطعهم إلى أشخاص ، وعدم تحطى أمانهم لدائرة ذواتهم ، يطلبون الغنى بشره يبلغ حد الجنون ، ويبيعون في سبيله كل ما يعترضهم من شرف ذاتي ، أو مصلحة عمومية ، ولكنهم مع ذلك لا يزدادون إلا فقراً ، ولا يجنون من وراء تفانيهم في شرهم إلا مقربة وعدمًا . تراهم يتراحمون إلى منصات الرئاسة ، ويتسابقون إلى رهان الزعامة ، فلا يزدادون إلا هبوطاً ، ولا يكسبون إلا هويًا . تراهم كلهم فلاسفة يتكلمون في ضرورة الاتحاد ولزوم الوثام لبلوغ المرام من النظام العام ، وكثير منهم يمضي أكثر عمره في سن قوانين العمران ، وتشريع أساليب المدنية والحضارة ، فلا يزدادون مع ذلك إلا تمزقاً وفرقة . ولا يحتنون إلا تشتتاً وبغضة . تراهم ينعمون على بعضهم التقاعد عن معالي الأمور ، ويتعايرون بالإسفاف في دنيا الشؤون ، ويلقي كل منهم التبعة على غيره ، فلا يزدادون إلا تسفلاً ؛ ولا يكسبون من وراء ذلك إلا ضعة ومهانة .

كل هذه الآثار تابعة لأمراض اجتماعية شديدة الوطأة لها أسباب وعلل ظاهرة ، ولسيرها قوانين ونسب مضبوطة يعرفها أطباء الاجتماع ، ولكل منها علاج خاص ، ودواء لا يفيد فيه غيره ، إنما يجمع هذه العلل كلها عدم الوجهة والغاية ، ويلم سائر علاجاتها تحديد الوجهة وتعيين الغاية . فكيف نجعل لأنفسنا وجهة وغاية ؟

كيف نتخذ لأنفسنا غاية ووجهة :

كيف نجعل لنا غاية ترتكز فيها سائر عواطفنا ومرامينا ، ووجهة تؤدينا إليها ؟ هل يكون الإسلام وجهتنا كما كان وجهة آبائنا الأولين ؟ وهل يتأني ذلك في عصر العلم الذي قرر بأن أزمنة الأديان قد انقضت ؟ وما الوسيلة إلى حل الشبهة التي رانت بالعقول من جراء قيام الأمم ورقبها مع مجاهرتها بنبذ الدين ومعاكسة أهله ؟

إن حل كل هذه المسائل متوقف على معرفة ماهية الدين وفي يقيننا أن معالجة البحث عن هذه الماهية على الأسلوب التحليلي المعصري يكفي وحده لبلوغ النهاية مما تصديناله ، ويفتح للباحثين في شؤون الأمة الإسلامية باباً جديداً للنفوذ منه إلى ما يرجونه من بعثها من خولها ، وتحليصها مما تورطت فيه من أحوالها .

ما هو الدين ؟ هذا السؤال وإن كان شائعاً بين الأمم ، وله عند كل فرد منها جواب حاضر ، إلا أنه من أعوص المسائل الفلسفية ، وليست أجوبة السواد الأعظم عليه إلا منتزعة من الخيال المحض . أما الحقيقة التي اهتدى إليها أساطين الباحثين في الأديان والعقائد ، فهي أنه شعور فطري في الإنسان بوجود قوة عظمى لا نهاية لها خلقت الكون ونظمته على مقتضى الحكمة والعلم ، وأن لها السلطان المطلق عليه ، ووجود روح للإنسان لها حياة أخرى في دار بعد هذه الدار ، وعلى حال غير هذه الحال ، وقد أشار الله تعالى إلى ذلك بقوله : « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

هذا الشعور وحده هو الدين الفطري على أبسط أشكاله ، بل هو الشكل الوحيد الذي بعث الله المرسلين لحياطته والهيمنة عليه من تأثير الأهواء والخيالات ، والإبانة ما ينبني عليه من عمل لنيل فضيلة ، أو جري لاكتساب كمال ، وإيضاح ما يلزم إيضاحه للناس من الحدود التي يجب الوقوف عندها في وصف الإله وتعريفه ، وفي قانون الأخلاق الذي يجب أن يسوده كل إنسان على نفسه ويحجري على سنته .

في الإنسان كثير من العواطف والإحساسات ولكل منها دخل في تكميل تركيبه الداخلي والخارجي ، وأثر في قيامه على منهاجه المعلوم من الاجتماع على مثله ، وتعمير الأرض واستثمارها ، وتسخير كائناتها لذاته ، وسعيه وراء كمال يحس به ويتألم لفقده . فمن عواطفه مثلاً حب الاستقلال والحرية ، والدفاع عن

الذمار، والحصول على ما يقيم أوده، ونيل ما يرفعه على غيره من مزايا الوجود، والجري وراء الحماد . كل هذه العواطف مغروزة في جبلته على كيفية مطلقة ليس لها قانون فطري ، كما لأمثالها عند الحيوان ولذلك فهي محتاجة لقانون تسير عليه لتؤدي إلى الأغراض التي وجدت لأجلها ، وإلا فلا يأمن صاحبها من العقبات في سيره تكبه على وجهه تارة وتلقيه على قفاه أخرى .

ألهم البشر أن كل هذه العواطف تحتاج إلى نظامات وقوانين تسير عليها ، فأعد الله بعض أفراد من البشر للانقطاع إلى درسها مقهورين لا مختارين ، لما يحدونه من البواعث القاسرة لهم على ذلك بتأثير مراكزهم في الحياة ، فأب كل منها بنتائج من العلم تلائم حالة جيله ونقله إلى أخلافه ، ولم تزل نتائج المدارك تتهذب على توالي الأحقاب ، وتعاقب القرون حتى وصل الإنسان إلى ما هو عليه الآن .

فنشأت من عاطفتي الاستقلال والحرية مثلاً علماء الشرائع على اختلاف نزعاتهم وأزمنتهم يسنون للناس سنة الاعتدال في أداء مطالب تينك العاطفتين ، ويرونهم الجادة الوسطى بين الاستقلال والحرية المطلقتين ، كما هي عند البهائم ، وبين الاستقلال والحرية المعتدلتين وكيفية أخذ النفوس للوصول إليهما على وجه عادل . وأنتجت عاطفة الدفاع عن الذمار رجال القيادة العسكرية وغطاريف الحرب ، يعلمون الناس أوجه الهجوم والدفاع ، وتأثير المواقف المختلفة على الأولياء والأعداء صلاحاً أو فساداً . وأنتجت عاطفة الحصول على مادة الحياة رجال العلم من الزراع والمهندسين والطبيين الخ ... يعرفون الناس وجوه السير في استغلال الطبيعة واستخدام قوانينها في صالحهم ، وهكذا فعلت كل عاطفة من العواطف وولد كل إحساس من الإحساسات المغروزة في طبيعة الانسان ، وهو لولا ما سيق إليه من تهذيب قواه وملكاته لبقى متوحشاً ، لا يستطيع البقاء على الأرض ولا على مثل ما يعيش الحيوان .

أما عاطفة الدين، فهي وإن كانت واحدة من تلك العواطف إلا أنها ملكتها

وسيدنتها ، وفي يدها أزمة جميعها ، لأن محلها أشرف محل في وجدان الإنسان ، وغايتها أخص الغايات بالنسبة إليه حتى أن الملحد الذي هتكت الشكوك فكرته ليتمنى من صميم فؤاده أن لو كان ما يقوله الدين صحيحاً ، وقد شهدت تواريخ العالم كله أن الأمم ما تدرجت في مدارج الحضارة ، ولا اجتازت عقبات الحياة الوحشية ، إلا والدين قائدها ومرشدها ، والاعتقاد مسخرها ومصرفها ، كما شاهدت أيضاً بأن تهالك الإنسان في احترامه ، وقفانيه في حبه قد بلغ عنده حداً ضحى معه النفس والولد والأهل والوطن في سبيل مرضاته .

ذلك لأن أعظم شيء يهم الإنسان في وجوده هي الطمأنينة على حياته ، لأنها أعز شيء عليه ، بل هي رأس ماله الوحيد الذي في فقدته فقد كل شيء ، وفي وجوده وجود كل شيء ، وكلما ترقى في مراقي العقل ، وعرج في معارج العلم ، ومدارج الفهم ، وازداد نظره نفوذاً في أشياء الكون وموجوداته ، كثرت العلاقات بينها وبين الكائنات المحيطة به ، وتجلت له أهمية حياته في مظهرها الصحيح ، وازداد شغفاً بها وبمستقبلها ، وتحسناً عليها وعلى ما ستؤول إليه ، وصارت هذه المسائل : « ماذا أنا ومن أين أنا وإلى أين أذهب » ، ملازمة له في كل تصرفاته وتوجهاته ، فينساق قهراً عنه إلى البحث عن أصل الوجود ومبدئه ، والتنقيب في وجود ذاته ومصيرها . ومن رحمة الله بهذا النوع الإنساني ، أن جعل هذا السبيل الفطري الذي يجد الإنسان نفسه مسوقاً إليه لنيل سعادته الروحية ، سبيلاً لسعادته المادية أيضاً ، فإن سيره فيه كما ينتج تنوره بأمرار الخليفة ، وتعرفه ما وراءها من القوة الفعالة ، كذلك ينتج له الوقوف على سر نواميس الكون وكيفية استخدام أشياءه لراحته وتسخير كائناته في صالحه . فمن سار في هذا الطريق طالباً سعادة الروح ، أب بلا شك وهو محصل سعادة الجسد معها ، كما حصل لأصحاب سيد الأنام صلى الله عليه وسلم ، لأنهم في مبدإ الأمر ما كان نصب أعينهم إلا سعادة أرواحهم وبلوغ الغاية من كالاتها ، فلم تلبث أن أتهم المادة صاغرة لوحدة طريقها ، وبالعكس من سار هذا الطريق نفسه طالباً سعادة الجسد رجع بلا شبهة حاصل على سعادة الروح أيضاً للسبب الأول عينه . وإلى

هذا يشير قوله تعالى : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » .

ولكن هذا الوله الذي يظهر به الإنسان بالنسبة لعاطفة الدين ، لم يحكما من إفراطاته وتفريطاته ، كما هو شأنه في كل حساساته ، بل رأيناه كما استخدم لها كل قواه الظاهرة استخدم لها أيضاً كل قواه الباطنة ، فجعل عقله وفكره وخياله وفقاً على إبلاغها كمالها فيه ، فلم يقف به الجهد عند حد ولم ينته به الجهد دون غاية . فسخر لها العقل والفكر حيناً ، والخيال أحياناً فسطح به إلى ما وراء ما ينتهي إليه علمه المحدود ، وحيث تقف دونه مواهبه المناسبة لوجوده ، فذهبت كل طائفة من الناس مذهباً يشذ عما ذهبت إليه سواها ، لأن مجال الخيال بعيد الأكثاف شاسع الأرجاء ، له مسالك لا تتناهى ومناهج لا تحصى ، فنشأ الخلاف في مدركات الدين ، ونجمت شعبه المتعاكسة ، وأصرت كل فرقة من الناس على مجموع ما تخيلته وانتعلت له اسم الدين ، مدعية أنها صاحبة القول الفصل فيه ، ومدعمة قواعده ومبانيه ، وأنها على الحق وما عداها على الباطل ، وهي حالية بجلاء وسواها من الفرق عاطل ، ونسبت إلى رجالها القائلين على شرعتها ما شاء هواها من الاختصاصات والخصوصيات ، وقسمت أمورها إلى أقسام لاءمت بها الأهواء والنزغات ، فأصبح الدين بذلك مركباً صناعياً ، بعد أن كان بسيطاً فطرياً ، وصار إنسانياً خيالياً بعد أن كان إلهياً حقيقياً ، فلا جرم أنه أضحى بهذه الصفة داعية الخلاف بين البشر ، ومجلبة النزاع بين الأمم ، ومدعاة التفريق بين القبائل ، وموجب الحرب والحراب بين العشائر ، ومهب النزغات التي لا تلائم حياة الإنسان ، ولا تسير به على ما هو مدفوع إليه من سنن العمران . ولا غرابة بعد ذلك إن نبذته العلوم والمعارف ، وعادته الأبحاث والفلسفة ، وقاطعته الفنون والحكمة ، كما لا عجب إذا ارتقت الشعوب على نسبة تركه ، وصعدت في معارج الكمال على قدر جسارتها من نبذه ، وصلحت أحوالها وشؤونها على مقدار بشها روح التربية على ضده ، ولكن ما نتيجة هذه الحركة من تلك الأمم في معاداة الأديان والتفصي من شباكها ؟

هل النتيجة كشط ما فطرت قلوب البشر عليه من عاطفة الدين الفطري ،
ومحو ما نقشته يد القدرة على ضمايرها من آثاره ؟ هل النتيجة أن تخلو يوماً من
الأيام من أشرف عواطف الإنسانية وأجل خصائصها من الاعتقاد بوجود القدرة
العظمى التي وضعت هذا الكون البديع على هذا النمط المدهش ، ووجود روح
للإنسان لها حياة بعد هذه الحياة ؟ يستحيل أن يكون ذلك ، فإن تغيير الفطر
من المستحيلات التي لا يفكر في الحصول عليها مجنون ، فضلاً عن عاقل . وما
دام الاستدلال العقلي ، والاستنتاج الفكري ، موجودين في الإنسان ومرتقين
فيه ، فلا سبيل مطلقاً إلى ثلاثي هاتين العقيدتين من نفوس البشر .

ولكن الحقيقة المشاهدة بالعين أن هؤلاء الأقوام المرتقين ما فعلوا بكل هذه
الجلبة والملاحة التي استمرت قروناً عديدة إلا أمرين اثنين ، ولكنها عظيمة
لدرجة القصوى وهما : أولاً : الخلاص من كل الخيالات التي انتحل الناس لها
إسم الدين . وثانياً : الاستقامة على المنهج الطبيعي الأصل ، وهو النظر في الكون
والنفس نظراً صحيحاً مؤسساً على العقل والتجربة .

هذه الأمم فعلت ما فعلته بإسم الإلحاد وعدم التدين ولكنها وافقت بذلك
مطلبي الدين الفطري نفسه ، وهما تخليص النفس من الخيالات والأوهام ، والاستقامة
على طريق البحث في الكون والنفس ، فكيف لا ترتقي تلك الأمم إلى منصات
السعادة المادية ، وتأخذ من الوجود قسطاً أسمى مما لأصحاب الأديان أنفسهم ؟
ماذا أضر هؤلاء سيرهم طريق الدين بالفعل بإسم العلم ، مع نكران ذات الدين
طيشاً منهم (لأنهم لم ينتهوا بعد إليه ولم يعرفوه) ، وماذا نفعلنا نحن اعترافنا
بالدين وسيرنا طريقاً غير طريقه ؟ .

قلنا فيما سبق ، إن طريق سعادتي الدين والدنيا واحد ، وما سارت أمة
عليه للحصول على أحدهما إلا نالت الأخرى لارتباطهما ببعضهما . فهل سرت
تلك السنة على أوروبا من جريها وراء السعادة المادية ؟

نقول نعم . فإن تلك الحمى الهائلة التي أصابت جسمها في القرن السابع عشر

والثامن عشر ومقدمة القرن التاسع عشر ، وظهرت آثارها بمظهر الهذيان (الهلوسة) بنكران أصل الدين والجحود بكل ما يؤدي إليه قد فشت الآن لوعتها ، وانجملت ببروز ذلك الاعتقاد بأصالة الدين وفطريته ، وبوجود الروح والخلود بأحسن مظهر ينتظره صاحب الدين الفطري ، فإنه لم يحن النصف الأخير من القرن التاسع عشر حتى ظهرت تلك الحركة المعجبية حركة (المانياتزم والاسبرتزم) التنويم المغناطيسي واستحضار الأرواح ، ونجمت في عالم المطبوعات مثناً مجلة لا شغل لها إلا إثبات الروح والمعاد ، وسينتهي بها الأمر إلى العدل التام بين مطالب أجسادها وأرواحها مصداقاً لقوله تعالى : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » .

فما هو طريقنا الذي نسير عليه ، وما هو الحال الذي سنؤول إليه ؟ إننا لو كنا سائرين في طريق السعادة المادية سيراً حقيقياً ومتصفين بما يستدعيه من الجهد في الأعمال ، والقصد في الأمور ، لكننا بشرنا أنفسنا بالوصول إلى السعادة الروحية أيضاً ، ولو بعد حين ، لارتباطها كما قلنا ببعضها ؛ ثم لو كنا ناهجين منهاج الكمالات الروحية ، ومتحلين بمقتضياتها من الدأب في الطلب والتعطش لنيل الغرض لكننا منينا أنفسنا بالحصول على الكمال في الأمور الجسدانية أيضاً ، كما حصل لأبائنا الأولين ، ولكننا الآن على غير طريق نخط في الحياة خبطاً ولا نسلك في مجالها إلا صدفه ، لا أساس لأمورنا ، ولا ضابط لتصرفاتنا ، ولا قاعدة نرد إليها محاولتنا . مجال الحياة أمام أعيننا أضيق من رقعة الشطرنج لا يعوز تدقيقاً ، ولا يستوجب روية .. فهل سأل واحد منا نفسه ما هذا الوجود الذي نعيش فيه ؟ وما هي وظيفتنا في الحياة ؟ ما هو طريق الفلاح ؟ ما هو منهاج النجاح ؟ ما هو قانون سعادة الأفراد والأمم ؟ ما هي مطالب الدين وما هي مطالب الدنيا ؟ وهل نستطيع أن نعيش بأحدهما دون الآخر وما وجه التوفيق بينهما ؟ وعلى أي طريق نحن نسير وإلى أي حالة سنؤول ؟ أما للحياة قانون ؟ أما لمقدمات أعمالنا نتائج ؟ إذا تكلف أحدها وسأل نفسه هذه الاسئلة أخذته الحمية وتيقظت في نفسه عوامل الغيرة ، ومال لأن يأخذ نفسه بأحد هذين

القانونين : إما قانون آباءنا الأولين الذين بهروا بسرعة رقيهم العالمين ، وإما قانون معاصرنا المتمدين الذي سحروا برونق مدنيتهم الناس أجمعين .
هذا موقف الحيرة ومزدلق الفتنة ومهب الشكوك وباب الإلحاد ، فلندع الفصل فيه لفصلنا الآتي إن شاء الله تعالى .



الإسلام دواؤنا الوحيد

« إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ »

أثبتنا أنه لا بد لكل أمة تود الحياة والبقاء من وجهة تسير عليها ، وغاية تسمى في الوصول إليها ، وبرهنا أننا قد ضللتنا وجهتنا وتغابينا عن غايتنا ، وأننا لسنا على طريق يوصل إلى سعادة ما من أي نوع كانت ، وعلفنا تبعاً لذلك أنه لا بد لنا من غاية ووجهة ، فهل يمكن أن يكون الإسلام وجهتنا كما كان من قبل وجهة آباءنا ؟ وهل يصل بنا إلى أكمل الغايات كما وصل بأسلافنا ؟ لا نظن أن الجواب على هذه الاسئلة بالأمر الصعب المضلل للمدارك إذا دققنا النظر في التمهيد الآتي وهو :

الإنسان مسوق بدوافع طبيعية قهرية إلى سلوك مناهج الحياة على اختلاف سبلها ، وقد وضع الخالق الحكيم في جبهة الإنسان من العوامل المتباينة ، وفي الكون الخارجي المحيط به من النواميس والقوانين ما تلتئم ببعضها وتتكامل ، فتؤدي الإنسان بمجموعها إلى أحسن ما قدر له من رقي صوري ومعنوي ، وقد سمى علماء الإنسان هذه الأفعال والانفعالات المتبادلة ونتيجتها بناموس الترقى . هذا الناموس ، وإن لم يظهر تمام الظهور في الأفراد ، فهو في الأمم جلي لا يحتاج

إلى طويل استقراء . وإنك إن عנית بالبحث عن الغاية الوحيدة التي رامها الإنسان من جهاده الطويل وراه استكناه المجاهيل الوجودية ، فلا تجدها إلا ميل الإنسان بالفطرة إلى التوفيق والملاءمة بين العوامل الموجودة في طبيعته الروحية والجسدية ، وبين العوامل الموجودة في الكون الذي خلق الإنسان مناسباً له موافقاً لنظامه ، وبناء على هذا فلا تتقدم أمة في شيء إلا على قدر نسبة توفيقها بين تلك العوامل الإنسانية والكونية ، كما أنها لا تتأخر إلا على قدر بعدها عن ذلك التوفيق .

إذا تقرر هذا، نقول : لقد قامت أمم في أدوار التاريخ وقعدت، واضطربت وسكنت ، وتقاتلت وتسلمت ، وعلت وسفلت ، وحييت وهلكت ، وذاعت من مرارة العيش وحلاوته ألواناً ، وحصلت من نتائج جهادها الطويل علماً وعرفاناً ، وكونت لها من جراء السير على سمت الوحدة الفطرية عقائد وأدياناً ، ولم تزل تكتسبها الحوادث حتى جاء القرن السابع ، وإذا بمنادٍ ملكوتي دوت لصوته أرجاء الأرض يقول : « يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً » . فلم تكذب تلتفت الأمم إلى مهبط ذلك الصوت السماوي ، حتى رأوا أن ذلك المنادي قد التفت حوله رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه تالين على أنفسهم : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم » ، فاستهزأت أمم وأعرضت أخرى وإذا بذلك الوعد الإلهي قد تحقق ، ولم يمر على تلك العصابة القليلة العدد والعُدُد ثمانون سنة حتى صارت القابضة على الصوالة التسع : صوالة الدين ، والعلم ، والسياسة ، والتجارة ، والصناعة ، والزراعة ، والحرية ، والعدل ، والمساواة ، من بين كل الأمم العريقة في المجد . هذه قضية تاريخية لا ينكرها أحد ، فما سبب هذا الحادث الجلل ، وما علة هذا الانقلاب المدهش الذي لم يحصل مثله في تاريخ النوع الإنساني ؟ إما أن نقول أنه حصل صدفة على حد قول الجهال في دعواهم ، بأن الكون كله وجد بالصدفة ؛ وإما أن نقول كما

يقول العقلاء من الناس ، أنه لا بد من أن يكون قد ابتني على أسس وقواعد ، وقام على أصول ودعائم . إن كان هذا الأمر الأخير هو الجدير ببحث العقلاء ، فما هي تلك الأصول والقواعد ؟ هل لم تزل تلك الأصول والقواعد صالحة لإحياء الأمم وبعث المهمل ؟ ما هي أصول وقواعد المدنية الأوربية ، وهل تخالف أصول الإسلام أو توافقه ؟ وهل سرعة تقدم المسلمين وسهولة تطورهم من حال إلى أخرى تدلان على فضل قواعد مدنية المسلمين على مدنية الأوربيين ، حيث أنهم لم يصلوا إلى ما هم فيه إلا بعد جهاد طويل وسفك دماء غزيرة استمرت قروناً كثيرة ، هذه كلها مباحث وإن كان كل واحد منها يحتاج إلى سفر ضخم ، إلا أنها مما يمكن الإشارة إليها بنوع من الإيجاز ، فنقول :

أثبتنا فيما سبق أن الله سبحانه وتعالى قد جعل طريق الرقي المادي والروحاني واحداً ، وهو النظر في الكون والنفس نظراً صحيحاً ، وأن الناس لم يتنكبوا هذا الطريق إلا طاعة لأهوائهم وخيالاتهم المنافية للعلم ، قال تعالى : « بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم » ، وبرهنا أن الذي يسلك ذلك الطريق طلباً لإحدى السعادتين لا يؤوب إلا والأخرى معه رغم أنه لا ارتباطاً بينهما في النتيجة . وقلنا إن نيل أصحاب سيد الأنام صلى الله عليه وسلم لسعادة الدنيا مع أنه لم يكن نصب أعينهم في مبدأ الأمر إلا سعادة أرواحهم ، وإن اقتراب المتمدين العصريين من الحصول على السعادة الروحية ، مع أنهم قاموا في أول الأمر باسم الإلحاد لنيل سعادة المادة ، ظاهرتان اجتماعيتان اكتشفنا بهما ذلك الطريق الفطري الجامع لشتات القوى الإنسانية كلها الذي أشار الله تعالى إليه بقوله : « وإن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » ، وقوله تعالى : « قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة » ، ولم يقل في آية من الآيات مع كثرة حثه على الأخذ من الدنيا اتبعوا هذين السبيلين سبيل السعادة المادية وسبيل السعادة الروحانية ، بل قال جامعاً بين تينك السعادتين : « من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة » ، وقال : « فاتم الله

ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة ، ، أي لما ساروا على سبيله الوحيد الفطري الذي يقول عنه تعالى : « إنا هديناه السبيل » .

وقد وصلنا بالتحليل العلمي بعد ذلك إلى أن أوروبا لم ترتق في الماديات إلا لما هدتها حوادثها وأجبرتها كوارثها على سلوك ذلك السبيل ، فنهجته باسم العلم مع أنه المنهاج الوحيد الذي يوصل إلى السعادة المطلقة ، وهي ، وإن لم تنته بعد إليها ، إلا أن ما تصادفه وستصادفه من نوازل وملفات ستجبرها رغم أنفها إلى تكميل نقصها الروحاني أو تسحقها كما سحقت سواها من الأمم ، والله عزيز ذو انتقام .

فلننظر الآن إلى السبيل الذي سلكته أوروبا لتحصيل مدنيته المادية لنثبت للناس أنه مقدمة ذلك السبيل المهيح الذي أرشدنا إليه الكتاب العزيز قبل ثلاثة عشر قرناً . وإليك البيان :

قامت مدينة أوروبا على أركان ، وثبتت على أصول لا يوجد منها أصل ولا ركن إلا وهو موجود في كتاب الله بالنص ، فلنشر إلى أهم تلك الأصول ، واضعين بإزاء كل أصل الآية التي تقابله ، لنؤدي بذلك غرضين عظيمين : أولهما - أن مدينة المسلمين لم تقم جزافاً ولكنها كانت مستندة على أكمل الأسس الممددة الملائمة لسنن الكون وطبيعة الإنسان ، وأنها بذلك سبقت المدينة الأوروبية بعشرة قرون في تقرير القواعد العالية ، ليظهر للناس كلهم أن المسلمين لا يحتاجون لتقليد سواهم في أي شأن من الشؤون الإنسانية غير الصناعة التي هي ميراث العالم كله ، تنقلها أمة إلى الأخرى ، وقد نقلناها نحن إلى الغربيين كما نقلها إلينا غيرنا ، وسيرى القارئ في نتيجة هذا البحث أن أوروبا هي التي سترغم يوماً من الأيام لأن تقتدي بكتابنا في تنميط مدنيته ، لتستطيع أن تستقيم على الصراط الذي دفعت إليه ، كما قلدنا في كثير من الأصول ، أما أصول المدينة الأوروبية كما تقرر عليه علومهم وعلماءهم فهي :

١ - الإنسان أشرف الكائنات الأرضية . قال الله تعالى : « لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم » .

٢ - الإنسان مخلوق لاستخدام الطبيعة وتحسينها والاستفادة منها . قال الله تعالى : « وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه » .

٣ - الإنسان بصفته أشرف الكائنات يجب عليه أن يأخذ بأحسن الأشياء . قال تعالى : « وأحسنوا إن الله يحب المحسنين » ، « قل لا يستوي الخبيث والطيب » .

٤ - لا يتم للإنسان كمال إلا بالعلم . قال الله تعالى : « قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون » ، « لا يستوي الأعمى والبصير » .

٥ - لا يحذر بالإنسان أن ينساق مع الأوهام والظنون وأن يصدق ما لم تحققه الشواهد والبراهين ، قال تعالى : « وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون » ، « ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً » .

٦ - في الكون نواميس ثابتة ونسب للأشياء المضبوطة مرتبط برفق الإنسان بمعرفتها وتطبيق مساعيها . قال تعالى : « ولن تجد لسنة الله تبديلاً » ، « إنا كل شيء خلقناه بقدر » ، « قل انظروا ماذا في السموات والأرض » .

٧ - تقرير الحكم الشوري الذي تتفجر منه كل الحريات الضرورية للإنسان ، قال تعالى : « وأمرهم شورى بينهم » ، « وشاورهم في الأمر » .

٨ - إختلاف المشارب ضروري لبقاء صرح المدينة ، قال تعالى : « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم » .

٩ - إبطال الحقد الديني ، قال تعالى : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم إن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين » .

- ١٠ - الاعتدال رأس كل فلاح ، قال تعالى : « إن الله لا يحب المعتدين » .
- ١١ - الثبات سر النجاح في الأعمال ، قال تعالى : « واصبر وما صبرك إلا بالله » ، « إن الله مع الصابرين » .
- ١٢ - تقرير العدالة الكاملة ، قال تعالى : « وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى » ، « اعدلوا هو أقرب للتقوى » .
- ١٣ - المساواة ، قال تعالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا » .
- ١٤ - الإخاء ، قال تعالى : « إنما المؤمنون إخوة » .
- ١٥ - التمايز لا يكون إلا بالمزايا الفاضلة ، قال تعالى : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .
- ١٦ - السياحة وتعريف سنن الصعود والهبوط في الأمم ، قال تعالى : « قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل » .
- ١٧ - العلم غير محدود ولم ينل منه الإنسان إلا جزءاً يسيراً وما خبى عنه أكثر ، قال تعالى : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً » ، « وقل رب زدني علماً » .
- هذه الأصول هي أهم أصول المدنية الجديدة ، وقد رأيت أنه لا يوجد أصل منها إلا وهو مذكور بالنص في الكلام القديم ، فاعجب لهؤلاء الذين كانوا يعارضون دعوة سيد الأنام عليه الصلاة والسلام بكل حجة ووسيلة ، بالافتراء تارة وبالسلاح أخرى . كيف آبوا إلى ما كان يدعوهم إليه ، ولكن بعد ما رأوا العذاب الأليم من أحداث كبرى ، وفتن كقطع الليل المظلم سالت فيها المهج ، وتفتطرت لها القلوب ، وانشقت منها المرائر ، ولكنك لم تزل ترى أن تلك المدنية ناقصة من جهتها الروحية كل النقص ، وليست كل تلك الضوضاء التي ملأت أرجاء أوروبا الآن من مسألة استحضار الأرواح وتجارب المانيتزم (التنويم

المغناطيسي) ودخول العلماء ألوفاً في تلك المذاهب العجيبة ، وتحريرهم الكتب الضخمة فيها ، إلا حركة ستدفعهم كلهم إلى اعتقاد ما كانوا ينكرونه ، ومن يكن منا قد اطلع على عالمهم إما بالسياحة أو بواسطة كتبهم ومجلاتهم ، يعلم كما قلنا في مقالاتنا السابقة أن هنالك مائتي مجلة لا شغل لها إلا إثبات الروح والمعاد ونقل أبحاث العلماء في استحضر الأرواح وتجسدهم والمكاملة معهم (هكذا يقولون) وقد كنا أتينا على جدول فيه عشرات من أساطين علماء العصر الذين يعتقدون هذا المذهب ، ممن لهم الكتب الضخمة في ذلك ، ليعرف القراء أن الذين يقودون تلك الحركة ليسوا بضعاف العقول ولا بقليلي المادة العلمية ولكنهم أساطين النهضة الأوروبية وأركان العلوم الطبيعية .

هذه الحركة التي لم تصل إلى علم المصريين للآن تعد أكبر حركة في القرن التاسع عشر ، كما يقول الأوروبيون أنفسهم عنها ، ولا غرض منها إلا تقرير العقائد التي غرزاها الله في نفوس البشر ، وهي الاعتقاد به تعالى اعتقاداً صحيحاً نزيهاً عن الشرك والاعتقاد بالروح والخلود . إذا تم للمدنية الأوروبية ذلك ، فإن مبادئها ستتقابل في سيرها مع مبادئ مدنيتنا الكاملة ، وسيكون القرآن الشريف رسول السلام والوثام بينها ، والدستور الوحيد لسائر الأمم المتقدمة بعدله بين مطلب الروح والجسد ، وتوفيقه بين مرامي العقول والعواطف ، ومؤاخاته بين الطبيعة والإنسان ، وتوحيده طريق الرقي المادي والمعنوي « ولتعلمن نبأه بعد حين » .



وظيفة الإسلام في عصر العلم

تبين لقارئنا مما تقدم أننا أمة قامت بالدين ، واعتزت بالإيمان ، وأننا ما أضعنا مجدنا القديم إلا لتكنبنا عن الصراط المستقيم ؛ وأننا لم نخذ عن

ذلك الصراط المستقيم إلا بعوامل قاهرة ، وفواعل قاسرة ، مثارها مزاحمة العالم الغربي لنا في شؤوننا الحيوية ، على مقتضى النواميس الاجتماعية ، والقوانين العمرانية ، وأننا ما دمنا جاهلين ذلك التأثير السحري المنصب علينا من سائر جهاتنا ، فلا ينجح في معالجتنا طب ولا طبيب ، ولا يفيد في بعثنا ترغيب ولا تهيب ، ويكون مجهودنا في علاج أنفسنا ضائعاً سدى ، وذاهباً عبثاً ، وأن دواءنا الوحيد هو تقوية تلك الحياة فينا من طريقها المثلى ، ووجهتها الحققة ، وأن تلك التقوية لا تتأتى إلا برفع ذلك التأثير الغربي عنها ، وإن رفعه يستلزم محاربته بأسلحة من جنس أسلحته ، وأن وظيفة القائد الفكري في الأمة لا تفترق في الخطارة عن وظيفة القائد الحربي فيها من حيث استعمال أدق الأساليب في إشراب الأفتدة روح الأمل والحياة ، والوقوف بالأمة مواقف تكسبها فضيلة الإحساس والشعور .. الخ ..

قلنا ذلك كله في فصولنا السابقة وهو ما أنشأنا كتابنا هذا من أجله ، وقد رأى قراؤنا في الجزء الأول أننا قد سلكنا لهم من العلم مسالك لم يقيم عليها المؤلفون قبلاً ، فلقد سبكننا تلك الفصول العمرانية المسئمة ، وهاتيك المقالات النفسية المملة وتيك المباحث الفلسفية المضجرة ، في قوالب من الإنشاء الهين اللين ، وأساليب من البيان الرقيق ، جعلتها سهلة التناول قريبة المآخذ ، جذابة للمطالع ، يخيل للقارئ أنه يطالع قطعة شعرية أو مقامة خيالية ، بينما يكون بيده مقالة عمرانية عويصة المقدمات ، بعيدة النتائج ، كثيرة التشعبات والوشائج ، بحيث لو جشناه بها على حالتها الفطرية ، وفي حلتها الفنية لما قوي على مطالعتها إلا الأقلون . بهذه الوسيلة أمكننا بحول الله وقوته أن نذيع أخفى أسرار الفلسفة العالية ، وأعلى مكنونات العلم المصري البعيد التداول بين أمتنا المحبوبة مشفوعاً بما يقابله من آيات الكتاب الإلهي والحكمة المحمدية العلية ، مما رأينا له بأعيننا والحمد لله أثراً باهراً في العقول والمدارك ، ودلائل واضحة في الأميال والمواقف . حتى صار قارئنا متى ذكر تيار السحر الأوروبي أحس

بخفة وطأته على نفسه ، وتفاهة خطره من فؤاده ، ومتى حدثه محدث بالمدينة المادية ، وجد من نفسه استخفافاً بكل ذلك ، وثقة في قوته تميل به لنسف كل ما يقال له من أباطيلها . هذا فيما أرجح ، ما يحس به كل قارئ لكتابتنا: وهو الدواء الذي ننشده من كل محاولاتنا ، فلو سرت هذه الكهرباء في سائر النفوس ، وارتفع من المدارك صنم الوهم من سحر العالم الغربي ومدنيته وإلحاده ، خلصت حياتنا المليئة والقومية من الخطر الذي يهددها ، والبلاء الذي لا يزال يتوعدنا .

فوظيفة الإسلام في عصر العلم من أدق الوظائف الإسلامية في هذا العصر ، ألا وهي حماية حياتنا الدينية التي هي حياتنا الاجتماعية القومية من خطر مزاحمة العالم الغربي ، ولما كانت تلك المزاحمة أدبية محضة ولولاها لم تكن المزاحمة المادية ، فقد عولنا إن شاء الله أن نقارعها من جهات هجماتها ، ومحلات توثباتها . وسيكون لقرائنا من إتمامنا للخطبة التي رسمناها لهذا الكتاب دائرة معارف فلسفية كبرى ، يحد فيها الشرقي إن شاء الله من المباحث الإسلامية والمدنية والفلسفية في كل مطلب وكل مجال في أجمل القوالب وأغربها ، ما يبيل له شوق الاطلاع على خفيات المعارف ، ومستورات المعلومات . وقد أوشكنا أن نتم في جزئنا الأول الكلام على فلسفة الأقدمين ، وسيكون من حظ الجزء الثاني إن شاء الله الكلام على العلم عند العرب وعند الأوروبيين . أما عند العرب فسنوفيه إن شاء الله حقاً لم يزل يطالبنا به العلم لليوم ، فإننا سنفحصه أولاً من الجهة العلمية المحضة ، ثم نطبقه على مقررات العلم الإلهي ، لنرى مقدار الشطط الذي حدث بواسطته في بعض الشئون ، وهو بحث لم يطرقه كاتب عصري لليوم ، نرجو الله أن يعيننا عليه . أما درس العلم عند الأوروبيين ، فسيكون إن شاء الله بتطويل وإسهاب يقتضيهما الموضوع . فسنسرد المذاهب المختلفة في الفلسفة والأخلاق والطبيعة والدين والشريعة الخ ... وسنلم بأقوال رؤساء كل مذهب من تلك المذاهب الهائلة مع محاكمتها بخصوص الكتاب الإلهي الكريم ، دالين

على وجوه قوتها وضعفها ، مشيرين إلى الجهات التي أثرت علينا منها حتى نستوعبها بحثاً وتمحيصاً ، إن شاء الله تعالى ، وصلى الله على سيدنا محمد عبده ورسوله وعلى آله وصحبه وسلم . آمين .

تنبيه

نوجه نظر قارئنا إلى العلاقة الأكيدة الموجودة بين كتاب (١) الإنسان ، وكتاب خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم ، فإننا نذكر في كتاب الإنسان من المباحث الدينية والفلسفية والمدنية والشرعية والسياسية على حسب ما يستدعيه ما نحن بصدده من المباحث ، على طريقة البسط والنقل الحالي من النقد ، أما كتاب (خاتم النبيين) فوظيفته محاكمة ما جاء في (كتاب الإنسان) إلى كتاب الله الحكيم ، ونقده نقداً فلسفياً على الأسلوب القرآني الأقدس ، وبهذه الكيفية سيكون لنا إن شاء الله في كتاب خاتم النبيين مورد روحاني ترده القلوب الظمأى لسلسيل الحكمة الإلهية فتجد فيه بحول الله ما ينقع غلة العقل ، ويشفي رسيس الصدر ، ويسمو بالروح إلى عالمها ، ويعلو بالحياة إلى آفاقها ، والله يهدينا إلى سواء السبيل .



(١) باب (معرفة الانسان نفسه) - وباب (حياة خاتم النبيين) من أبواب الجزء الأول .
(الناشر)

الفصل الاول

مبلغ مدرك الفلاسفة اليونانيين بالمسألة النفسية

تمهيد

الإنسان شديد الحرص على حياته ، كبير الكلف بذاته ، لا يقنعه غير أن أن يكون مخلداً لا يموت . ومدركاً لا يعتريه الخلود . وهو شعور فطري غرزه الخالق في طبيعة الإنسان كما غرز فيه سائر العواطف الأخرى ، لاتمحوه من جوهره شذائد الشيخوخة ، ولا تؤثر عليه تارات الحن ؛ بل ربما زادته شرها على شره ، وأكسبته نهماً على نهم ، طلباً للعرض في المستقبل عما فقدته في الماضي ، ويفقده في زمانه الحاضر من مال وولد ، أو صحة وشرف .

يرى الإنسان نفسه حياً مدركاً ، تتلأل في معناه الإنساني أشعة الشعور والحياة ، وتسطم في وجدانه أنوار المدركات والأفكار ، وهو بهذه الصفة سلطان الطبيعة يصرفها بفكره وقائد الخليقة يقودها إلى مصالحها ، ثم تحين منه التفاتة فيرى سكان المقابر في سكوت وبهوت ، قد زجروا إلى شقوق من الأرض كانوا يعاقون النظر إليها وهم أحياء ، ويتشاءمون من المرور بها وهم أصحاء ، فتأخذه قشعريرة باطنية ، تليها اضطرابات نفسية ، وثورات عقلية ، فيسأل

نفسه هل هذا نتيجة الحياة ؟ هل هذا آخر التعب والجهاد ؟ هل هذا غاية ما كنا فيه من الجدال والجلاذ ، والقراع والنضال ؟ هل الإنسان كالحیوان ، كيف يستویان وهما علما ؟ أين يذهب العقل النقي ؟ أين يذهب الفكر السني ؟ أين يذهب التصور العلي ؟ أين يذهب الفؤاد التقى ؟ أين تذهب الإرادة القوية ؟ أين تذهب الأخلاق الرضية ؟ أين تذهب الشجاعة والساحة ؟ أين تذهب الوداعة والصباحة ؟ .. بل أين يذهب ذلك الشعور الذي كان يسبر الأغوار ، ويسري في صميم الكون سريان الأنوار ؟ أين يذهب كل ذلك ويتلاشى ، ويستوي الخبيث الذي تعافه الأرض أن يمشي عليها ، والطيب الذي يشرف الثريا لو نظر إليها . هل يستوي العالم الذي يملأ طباق الأرض علما ، والجاهل الذي شوه وجه الإنسانية إثمًا ؟ إذن فالحيوان أهنأ من الإنسان بالآ ، وأروح منه حالاً ، فإنه يعيش في هناء وسرور ، وهو وحبور ، فإذا جاء يومه اضطجع وأنّ أنينه ، وذهب غير مأسوف عليه ، ولا منظور إليه ، ولم يأسَ على ترك ولد ، ولم يحزن لفراق بلد ، ولا ندبه أهل تركهم أشتاتاً ، وشعب جمعهم أنكاثاً .

نظر الإنسان في أمره هذا النظر ، فثارت في ضميره حرب عوان ، واشتعلت في فؤاده نيران وأي نيران ، ولم يهنأ له عيش ، ولم يقر له بال على حال ، حتى كرر النظر ، وأعمل الفكر ، وآب وفي طبي ضميره عقيدة الخلود في دار بعد هذه الدار ، وعلى حال غير هذه الأحوال ، وأن بينه وبين الحيوانات فرقا شاسعا ، وامتيازا كبيرا ، فهي تأكل وتتناسل ثم تتلاشى وتقضى فناء لا نشور بعده . أما هو فيحيا هذه الحياة القصيرة الأمد في أى نوع من أنواع الجهاد الحيوي ، ثم يفارق هذا العالم إلى عالم أرقى منه ، فبنى على هذه الفكرة أخلاقه وآدابه ، وأسس على دعائمها شرائعه وقوانينه ، وسعى في كل أعماله أن يبتعد في أحواله وشؤونه عن عالم الحيوان الذي ثبت لديه أنه من عالم أرقى من عالمه ، وأنه ممتاز عنه في خصيصة الخلود والتنعم بجزاء أعماله ، أو المحاسبة والشقاء بسيئات آثامه . ولولم تثبت للإنسان هذه العقيدة من مبدأ أمره ، لشاكل الحر

الوحشية في سفالتها ، والبهم المهمة في ضراوتها ، كما هو الشأن عند بعض المتوحشين الذين لم يستعد وجدانهم لشروق نور العقيدة في ضيائهم ، ولم يزالوا في عالم وسط بين الحيوانية والإنسانية ^(١) فإنهم من النقص والحسة بحيث لا يعرفون الكمال ، ولا يدركون العار .

هنا يمكن أن يعترض علينا الروحيون ، ويشمت بنا الماديون . يقول الروحيون : « إن تفصيلك هذا في منشأ الاعتقاد بالدار الآخرة والخلود ، يشير إلى أن هذه العقيدة حصلت للإنسان بالاستدلال لا بالفطرة ، ولو تساهلنا في أصولنا لهذا الحد بلغ منا خصومنا الماديون مناهم ، وحاربونا بنفس مقرراتنا ، وأثبتوا لنا أن الدين مبدؤه إنساني لا إلهي . فما تقول ؟ » . ويقول لنا الماديون : « لقد رجعتم إلى أصولنا الصحيحة المستندة على الحقائق الثابتة ، وقلتم أن الدين نشأ للإنسان بالاستدلال والنظر في الكون ، وبذلك فقد أثبتتم ما قلناه في كتبنا من أن الدين ليس بفطري طبيعي ، وإنما هو إنساني صناعي ، وها أنتم رجعتم إلى هذا الأصل الخطير ، ونؤمل في رجوعكم إلى سائر أصولنا الأخرى من نفس هذا الطريق » .

نقول : إننا لا نريد من فطرية الدين أنه مطبوع في وجدان الإنسان على شكل خاص ، وإنما نريد من ذلك أنه مستعد له بالفطرة . أي أنه إذا كان سليم الفطرة ، صحيح الفؤاد ، حاصلًا على شروط الإنسانية توصل بمحض قواه ومواهبه الذاتية إلى الدين المطلق الحق ، وهو الخضوع لقيوم السموات والأرض ، ولكنه قد يكون سقيم الفطرة ، مريض الفؤاد بالشهوات والفساسف ، فيميل بتلك الخاصية الدينية فيه إلى اعتقاد الأوهام والأباطيل ، وما يحس من نفسه بالباعث إليه ،

(١) لا نريد من هذا أن نقول أن الإنسان مرتق عن الحيوان ، وإنما نريد أنهم ليسوا بحيوانات فتسري عليهم حكم الحيوانية ، ولم يستكملوا شروط الإنسانية الكاملة حتى نضج بهم إلى مستوى هذا النوع ، فهم عالم وسط يستدل بهم المتقدرون بتلقي الإنسان عن القرود على صحة مذهب (داروين) ولنا عليهم كلام كثير يأتي إن شاء الله .

كإرغام أكثر المتدينين أنفسهم على اعتقاد ما لا يقر عليه العقل ، ولا يوافق
الحس ، بل قد يعتقدون بالوراثه ما يخجلون من حكايته ، ويكون من شدة
تناقضه . فلو كان قولنا الدين فطري في النفس ، معناه الدين على شكل خاص
لما اختلف كلهم فيه ، ولكان دين البشر واحداً ، ولكننا نريد من قولنا الدين
فطري في النفس ، أنها مستعدة له بالفطرة ، لا تتكلفه بالصناعة ، إذ لا فرق
بين ذلك القول وقولنا البصر فطري في الانسان . ولا يلزم من قولنا البصر فطري
في الإنسان أنه لا يبصر إلا أشكالاً خاصة من المراتب ، وإنما هو يقتضي أنه
مستعد للبصر والرؤية ، وله أن يستعمل هذه الخصيصة فيما شاء بلا حرج عليه ،
فإن كان سليم الفطرة سليم العقل استعمله فيما ينبغي أن ينظر إليه ، وإن كان غير
ذلك استعمله فيما لا ينبغي أن ينظر إليه .

قلنا ، معنى قولنا الإنسان مفطور على الدين ، أنه مستأهل للتدين وقابل له
بالفطرة ، ومعنى قبوله له أن في طبيعته بواعث تبعثه له ، وتؤديه إليه . فهب
أنك ربيت طفلاً بمعزل عن الناس ، فلم يسمع أقوالهم ، ولم يتأثر بمقائدهم ولم
يحصل خبراً ما عما هم عليه من حيث الدين بالمره . فلا يلزم من قولنا أن الإنسان
مفطور على الدين أنك ترى ذلك الطفل متى بلغ سن التمييز ناطقاً بحقيقة الدين
الكبرى بلا مقدمات ولا نتائج . كلا ، بل قولنا ذلك يقتضي أن قواه ومواهبه
الفطرية لا تزال به حتى تؤديه إلى الدين ولو بعد حين ، وذلك أنه متى بلغ سن
التمييز أخذ ينظر في الأشياء المحيطة به نظر المميز المستخبر ، يرفع بصره إلى
السماء فيستعرض تلك النقط اللامعة في وسط ذلك الأديم الأزرق ، ثم يرمي به
إلى الأرض ويستجلي بدائع الأشجار وغرائب الأزهار وعجائب الأطياف ، ثم
يؤوب إلى ذاته فيسائل نفسه عن منشأها وأصلها ، وكيفية نموها وتكونها ،
وهكذا ، ثم يترقى في النظر والاستدلال بترقي سنه وتوالي المناظر والمشاهد على
مخيلته ، ويؤوب بشيء من العلم في كل مرة ، حتى ينتهي به النظر إلى أصل
الكون ومبدئه ، وكيفية تصريفه وتديره ، فلا يتألك نفسه من الحكم البات
الذي لا يعتريه شك ، ولا يشوبه تردد ، بأن له مصرفاً قوياً ، ومدبراً عالياً ،

يهيمن عليه ، ويقوم بشؤونه ، وبما أنه جزء من الكون يرى أنه هو أيضاً صنع ذلك القوي القادر قيوم السموات والأرض ، فترى صاحبنا إن أصابه ألم ، أو مسه برد ، أو ألت به مخافة ، وجد نفسه مفطورة على الشكوى لحالقه وخالق الكون ، ومفاتحته بما يجيش في سريره ، ويحول في سويداء ضميره ، فإذا اتفق ومرت بصاحبنا هذا جنازة ميت اضطربت نفسه ، وجاشت هواجسه ، ومادت به حواسه ، واعترفته خشية ورعدة وسأل نفسه عن مصيره ونهايته ، وألم به من الأرق والتأمل ما بسطناه في مقدمة هذه المقالة ، وذهب بفكره في مناحي هذا الكون مفكراً مستدلاً ، ثم عاد والعقيدة بالخلود ألصق به من نفسه .

هذه أمور لا يمكن الشك فيها بوجه من الوجوه ، فإن الدين عام بين كل أمم الأرض ، ولا يشذ عنه إلا أفراد متوحشون لا يعدون من الإنسانية ، لأن فيهم نقصاً فطرياً ، وقد ثبت أنهم غير قابلين للترقي أيضاً . فكون الدين عاماً في كل الأمم بعقيدتيه الرئيسيتين ، الاعتقاد بالخالق والاعتقاد بالمعاد ، أكبر دليل حسي على التفصيل الذي ذكرناه وهو ما يحس به كل فرد منا في نفسه .

أما ما ذكرناه من شماتة الماديين بنا ، وادعائهم أننا أبنا إلى أصل من أصولهم ، فهو ادعاء باطل ، ومغالطة محضة بناء على ما قررناه في هذا الشرح ، ولا ندري كيف يسوغ لهم أن يقرروا عدم فطرية الدين ، وهم يرون بأعينهم أن الفكر والاستدلال اللذين ساقا الإنسان رغم أنفه إلى الدين ، هما فطريان طبيعيان ، لا يزولان ولا يحولان ؟ فإذا كان الفكر والاستدلال في الإنسان فطريين فكيف لا يكون ما يؤديان إليه على وجه التعميم طبيعياً ضرورياً . إذا كان أمر التدين خاصاً بأمم دون أمم ، لقليل بأنه من الأمور الخيالية التابعة لنزغات النفس ، ومنازع الأهواء ، ولكن شيوعه إلى هذه الدرجة في كل زمان ومكان ، وعند كل طائفة من طوائف الإنسان ، مع اختلافها في درجات العرفان ، وأساليب البيان ، يدل تمام الدلالة على أنه مرتكز على عواطف فطرية تؤدي إليه ، وعلى أنه حاجة كبيرة من حاجات النفس البشرية لا ترتاح إلا إذا انتهت إليه .

عود إلى موضوعنا الأصلي

يظهر من استقراء مدركات الإنسان في خلال القرون المتناثية ، أن العقيدة بوجود الروح قديمة كقدم العقيدة بوجود الخالق جل وعز . وقد كان الأقدمون يزعمون أن للحيوانات روحاً حساسة فقط لا عاقلة . وقد قرر فلاسفة اليونانيين القدماء بأن للكون كله روحاً سارية في صميم كل ذرة من ذراته ، وقد وضعت فيه لتقوم بتحريك أجزائه وتصوير كائناته ، بمعنى أنها جعلت لتهب المادة الحركة والصورة . وقد كانت فيثاغورس الفيلسوف اليوناني ، وأفلاطون الشهير ، والفلاسفة الإسكندريون ، يعتقدون بأن روح الوجود مادة متوسطة بين الخالق الأقدس والكون المادي . أما أتباع زينون فقد اكتفوا بهذه الروح الوجودية عن العقيدة بالخالق وبنوا على ذلك فلسفتهم الإلحادية .

يظهر أن الأقدمين كانوا لا يعرفون الروح إلا مادة لطيفة ، وما كانوا يدركون المعاني الملكوتية القدسية ، ولذلك لما أرادوا تعريف الروح بمجد قالوا أنها من جوهر لطيف هوائي ، وإن مثلها في هذا الغلاف الجسداني ، كمثل الفراش يظل مسجوناً في غشائه حتى يتم له تكون جناحيه فيمزق ذلك الغشاء ويطير . والنفس بعد خروجها من الجسد تصعد إلى عالم الأثير حول الكواكب الزاهرة في قبة السماء ، وكان أفلاطون يدعي أنها محتد الأرواح قبل نزولها إلى الاجساد .

ولا اعتقاد قدماء اليونان مادية الروح كانوا يرمزون لها بالصور المادية . فكانوا يصورونها على شكل آدمية ذات أجنحة كأجنحة الفراش . وهذا الرمز يشاهد كثيراً فوق التماثيل والأنصاب القديمة . وثارة كانوا يصورونها بامرأة محجبة متزوجة جديداً وفي صدرها صورة فراش .

كان الرومانيون في هذا الشأن مثل اليونانيين ، يذهب قدمائهم إلى مادية الروح وإن كانوا يعتقدونها خالدة . يظهر ذلك من نقوشهم على الأوسمة التي كانوا يسبكونها تذكراً لجلال وقائهم ، وعظائم حروبهم . فكانوا يصورون

نسراً وطاووساً طائرَيْن في الهواء وهما رمزان للإلهين (جوبتير وجوتون) ، وبين كل منها نصف صورة إنسان ، وهي رمز إلى روح الإمبراطور والإمبراطورة ، صاعدين بها إلى السماء مقر الأرواح العالية ، ومجتمع النفوس الطيبة .

وكانت عقيدة تناسخ الأرواح ، أي انتقالها من جسد إلى جسد آخر شائعة عند أكثر الأقدمين ، ولم تزل منتشرة عند أكثر شعوب المسكونة ، وقد صار لها اليوم في أوروبا أنصاراً كثيرين العدد ، كما سنفصل ذلك إن شاء الله تفصيلاً مع بسط أسبابه التي دعت إليه عند الكلام على العلم عند الأوربيين .

كان الأقدمون يعتقدون بالتناسخ على وجهين ، تناسخ الروح الإنسانية في جسد إنسان يولد جديداً ، أو تناسخ الروح الإنسانية في جسد حيوان أعجم . وإلى هذا كان يذهب فيثاغورس كما نقله عنه تلامذته . قالوا : إنه كان يعتقد بالتناسخ وأن النفس الفاضلة متى خرجت من جسم صاحبها تلبست بجسم شخص فاضل ، وبخلاف ذلك ، لو كانت شقية ، فإنها تنقمص جسم حيوان قذر . وكان يقول أنه يتذكر الحالات التي كان فيها هو نفسه في أجساد مختلفة .

أما أفلاطون ، فكان له مذهب خاص في مسألة الروح وأصلها ، فقد كان يعتقد بأن أصل الكون صور عقلية معنوية أزلية ، كوّن الخالق على حسبها جميع الكائنات الحية والجمادة . وكان يقرر أن للعقل ثلاث خصائص ، وهي : الإحساسات ، والمدركات ، والمعقولات . فالإحساسات تقابل الأشياء المتغيرة والمتشخصة ، والمدركات تقابل الأشياء المتغيرة أيضاً ولكن مع تجريد أشخاصها من الحس بها ، أما المعقولات فتقابل الأشياء الثابتة ، والحقائق العامة . وعنده أنه المعقولات في ذاتها ليست مدركات بسيطة للعقل ولكنها أصول الأشياء وحقائقها ، بمعنى أنها كل ما في الكائنات من حق وباق وعام . وكان يقول أنها عالم قائم بذاته فوق عالم الكون والفساد ، وهي واصله إلينا من الله مباشرة وهي القوالب التي شأ الله تعالى عليها الأشياء .

لما كانت المعقولات على رأي أفلاطون ، هي الأشكال الحقيقية السرمدية لكل ما هو موجود فقد سماها (بالتموجات) .

قال أفلاطون : يوجد خارجاً عن الله تعالى أصل متغير ناقص قابل للفناء موجود بذاته هو هذه المادة العمياء الصماء التي لا شكل لها ولا صورة ، فبأثر من الله تعالى أوقعه عليها ازدوجت هذه التموذجات التي هي المعقولات المجردة بالمادة عديمة الصورة والشكل على درجات مناسبة ، منها جوهر متوسط مشترك بين خصائص كل من هاتين الطبيعتين . وهذا الجوهر هو روح العالم . فروح العالم هذه بتشخيصها وانقسامها إلى أرواح مختلفة تكون الآلهة التي يعبدونها العامة ، وتولد الناس ، وهم الكائنات المتمتعة بعقل وإدراك . وفي رأيه أن الكون المادي مكون من عنصرين متضادين : التراب وهو أصل لجود العالم وصيرورته محسوساً ، والنار وهي سبب كونه مرئياً . هذان العنصران الترابي والناري ملتئمان ببعضهما بواسطة عنصرين وسطين بينهما ، هما : الهواء والماء . وهما من جهة متشابهان في صفة مشتركة هي السيالية ، ومن جهة أخرى كل منهما مشابه للطرفين الآخرين ، فالهواء يشبه النار والماء يشبه التراب .

أما روح الإنسان في نظر الفيلسوف ، فهي حياة غير قابلة للفناء محصورة في سجن فإن هو جسد الإنسان ، وهي متمتعة بثلاث قوى مختلفة : الإدراك أي العقل ، والقلب أي الشجاعة ، والرغبة أي الشهوة . فأما الجزء السامي من النفس التي هي حياة بالمعقولات والمطالب التي توافقها وتلائمها فمحلها الرأس . أما الشجاعة فموطنها القلب . وما سفل من قوى النفس فموضعه الأمعاء .

أما مذهب أرسطو في النفس فلا يمكن الوقوف عليه بالدقة لتناقض تلامذته في أصوله الأولية التي نقلوها عنه . فقد قالوا أن مبدأ فلسفته هذه القاعدة « لا يصل إلى العقل إلا ما يمر أولاً بالحواس الخمس » وهي قاعدة كما قلنا عند كلامنا على فلسفته ، تجعل الحواس أصلاً للمعقولات ، ومنبعاً للمدركات ..

كان أرسطو يرجو أن يؤسس مذهباً وسطاً بين المذهب العقلي الفكري ،

والمذهب المادي الحسي ، وهو مسعى عظيم لو استطاع إليه سبيلا ، ولكن غاب عنا الآن شكل ذلك التوسط الذي أتى به هذا الفيلسوف ، وقد وقع فيما وقعنا فيه من الخيرة كثير من أتباعه فوقعوا في المذهب الحسي المطلق .

والذي يمكن استخلاصه من الأقوال الكثيرة ، أن مذهب أرسطو يفرض للعقل الإنساني جزأين متميزين عن بعضها تمام التمايز ، وهما الأشكال العقلية والأصول التي تتأثر بها الحواس من الخارج . فالعقل بما وهب من تلك الأشكال الأصلية فيه ، يصدر أحكاماً عامة ضرورية يصبغ بها المتغير والشخصي بصبغة الضرورية العام ، كإدراكه استحالة المستحيلات وجواز الجائزات ، ولكن هذه الأشكال العقلية التي تصدر منها ، تحتاج لمادة تنطبق عليها هذه المادة يهيئها الإحساس والتجربة .

إذا تقرر هذا ، يعلم من أول وهلة أن مذهب أرسطو يوافق من بعض الجهات مذهب أفلاطون ، ويلتزم مذهب أبيقور من جهات أخرى . ولكن مع حفظه شخصيته وصونه استقلاله عن كليهما .

أما موافقته لمذهب أفلاطون ، فذهابه إلى وجود عنصر في العقل الإنساني يتميز تمام التميز عن الإحساس ، وأما موافقته لمذهب أبيقور فلتسليمه بأنه لولا الإحساس لما أمكن الإنسان أن يعلم عن الوجود شيئاً ، ولا أن يحصل عنه خبراً . أما كونه مع ذلك حافظاً لشخصيته صائناً لاستقلاله فلكونه يبتعد عن كلا هذين المذهبين بعداً شاسعاً في بقية مستلزمات هذه المبادئ ، فإن أفلاطون يذهب إلى أن (المعقولات) التي هي منابع الأحكام المطلقة ، هي حقائق أبدية ، مستقلة عن العقل ، وخارجة عنه ، ومشركة عليه فقط ، ويذهب أبيقور إلى أن أحكام العقل ليست إلا تعميماً لإحساس الحواس . أما في مذهب أرسطو فالأمر بخلاف هذا ، فإن الأشكال العقلية في فلسفته وإن لم تستطع أن تنطبق إلا على الحواس فقط ، إلا أنها تضيف إليها عنصراً خارجياً مستفاداً من التجربة ليتم أمر الإدراك والعلم .

وقد اختلف الناس في تقرير مبادئ مذهب أرسطو ، فعده بعضهم مادياً حسيّاً ، وعده البعض الآخر خيالياً فكريّاً ، وهو تناقض لم يهيئه إلا اختلاف درجات العقول في فهم كلام هذا الفيلسوف الكبير الذي يعد من أكبر القرائح التي ظهرت في العالم الإنساني .

هذه أشهر مذاهب الفلاسفة اليونانيين في مسألة الروح ، وقد بقي مذهباً أبيقور وزينون ، وهما حسيان ماديان يحفلان الحواس مصدراً للعقولات ، وكانا كما يقولون لا يعتقدان بالخلود . فقد كان أبيقور يقول إن الروح جوهر لطيف له خصائص عالية ، وأنه وجد في هذا الجسد أمداً محدوداً ، حتى إذا ما صار البدن عديم الفائدة واختل ، خرج منه وتحلل هو أيضاً (أي الروح) وتلاشى في الوجود .



محاكمة مدارك الفلاسفة

في مسألة النفس

لما كانت مسألة الحياة كما قدمنا أكبر ما يشغل الإنسان في هذا العالم الفاني ، فقد أولع الفلاسفة والباحثون في الخوض فيها ، من أول عهد الإنسان إلى الآن .

ظل الإنسان بين يدي كهان الهياكل ، وسدنة المعابد^(١) والقائمين على عقائده وتقاليده آمداً طويلة ، وهو لاه بما يروحونه إليه من بنات أفكارهم ، ورشحات أقلامهم ، قانع بما يحسمونه له من الخيالات والأوهام ، وما يهيئونه له من التصورات والأحلام ، حاسب كل ذلك إفاضات سكان الملأ الأعلى على

(١) سدنة : جمه سادن أي خادم المعبد .

أرواح أولئك القادة الأعلين ، معتقداً أنه نفحات عالم القدس على أفئدة أولئك المسيطرين ، وما زال كذلك يسبح في سراب المدركات الروحية ، ويسرح في آل (١) التصورات الخرافية . حتى جاء دور العلم والفلسفة ، وساق الله تعالى الأمة اليونانية لتكون طليعة ذلك الدور العظيم ، ومقدمة تلك الدولة الفخيمة ، وكان من أمرها ما كان مما درسناه تفصيلاً في (باب الإنسان) من الجزء الأول ، فجاءت الفلسفة العقلية تضع حداً لتلك التصورات التضليلية ، وقام العقل يناضل الخيال حقوقه ، وينازعه اختصاصه ، فتصارعاً ملياً ، وانتهى الأمر بغلبة العقل وتأيد سلطانه ، وانخزال الخيال وتقوض أركانه ، ولم يزل العقل وحده صاحب السيطرة والسطوة ، ورب السلطة والشوكة ، حتى جاء دور العلم العملي والفلسفة الحسية في القرن الماضي ، فتنازل لهما العقل عن عرشه ، وسلهما قياد النوع الإنساني بدون لجاج ولا حجاج (٢) . ولا عجب إن عرف العقل الفضل لأهله ، وأعطى الحق لمستحقه ، فقام العلم بالأمر خير قيام ولم يزل قائماً لليوم ، وليس بعد دولة العلم دولة ، ولا بعد صولته صولة ؛ ودولته مقدمة دولة الإسلام ، وطليعة حقائق القرآن ، وسترى في تفصيل هذا الإجمال العجب ، إن شاء الله .

لو أردنا أن نستقصي مدارك الناس على الروح في عصر الخيال ، للزمنا سفر كبير نسرد فيه أساطير الأولين ، ومزاعم المتقدمين ، وليس في ذلك كبير فائدة لحضرات القارئ . وإنما نجمل شيئاً من ذلك ، فنقول : إن أكثر الأقدمين ، ومعظم الوثنيين العصريين ، يعتقدون أن الروح تصعد إلى السماء محمولة على أجنحة الطيور ، ويربط أهالي الصين أمام بيوتهم ساعة احتضار الميت ثلاث حمامات ثم يطلقونها إذا خرجت روحه ، لتأخذها تلك الحمامات وتصعد بها إلى السماء ، وكان يدعي بعض الأقدمين أن الأرواح لا تصعد إلا محمولة على طائر ، ولذلك كانوا يأتون للمحتضر بحمامة كأهالي الصين ويطلقونها بعد موته لتحمل روحه إلى

(١) (آل) بمعنى سراب

(٢) (حجاج) أي جدال . يقال له : حاجه يحاجه محاجة وحجاجاً أي جادله

الصفيح^(١) الأعلى . وللأقدمين غير ذلك ولهميات تشبه أحلام الأطفال ، كانوا ينظمونها في أشعارهم ، وينشدونها في أعراسهم وحفلاتهم ؛ ويتعزون بما جاء فيها أمام كوارث الحياة وشجونها ، ويتسلون بها في أتراح الدنيا وغمومها . ويدافعون بها حقائق الوحي وأرباب المعارف النبوية ، لمناسبة تلك النزغات لطبيعتهم الحسية ، وأمزجتهم الطفلية ، فما كان يؤمن منهم بالأنبياء إلا العدد القليل ، يقيمون أمر الله ويسيروا على صراطه ، ثم لا يلبث أعقابهم أن يبدلوا ويحرفوا ما ورثوه عنهم ، ولا يزالون كذلك حتى يوفقوا بينهم وبين خرافاتهم البلدية ، وسفسطاتهم القومية ، ويسمون أنفسهم أتباع الأنبياء ، وحفظة الكتب المقدسة ، وهم في الحقيقة أتباع أوهامهم وحفظة أضاليلهم ، والله في ذلك حكمة .

جاء فلاسفة اليونان يحاكمون العقائد العمومية للعقل ، ويناقشونها مناقشة المنتقد ، فثار دونهم أراكين السفسطة^(٢) وأساطين الوهم وحفظة الخيال ، وكان في مقدمة جيش العقل وحامل لوائه العالي الفيلسوف الكبير سقراط ، فلم يزل يحادلهم ويجادلونه ويقارعهم ويقارعونه ، حتى فاز عليهم بالانتصار ، وسجل عليهم الخذلان والبوار ، فخاف هؤلاء على مراكرهم ولم يغلبوا حب الحق على حب مصالحهم ، فسدوا به إلى الحكومة ، وناهيك بحكومة تلك الأزمان - القرن السادس قبل المسيح - فالقت القبض عليه وزجته^(٣) إلى أعماق السجون وظلمات الحبس ، ولم يزالوا يوغرون صدر الحكومة عليه ويؤثرون على نفوس القضاة والحاكمين بالتمويهات والبهتان ، حتى حكموا بسمه ، وهي عادة اليونانيين القدماء في قتل بعض الناس ، فسقوه السم ، وهو ساكن الجأش ، رابط الجنان ، غير هباب ولا جبان ، وهو وسط طائفة من تلامذته كان يقرر لهم خلود النفس بعد الموت . فخرجت نفسه إلى عالمها ، وهو راض عن قسمه ، مؤدٍ ما طولب به .

(١) (الصفيح) اسم من أسماء السماء .

(٢) (السفسطة) بفتح السينين وكسرها قياس منطقي مركب من الوهميات أصله يوناني .

(٣) زجه يزجه . رماه .

أما أعداؤه السفسطائية فظنوا أنهم بقتل سقراط ، منعوا دولة العقل أن تتأيد ، وحجزوا تيار الفكر أن يتسرب ، ولم يعلموا أن موت سقراط زاد أتباعه حماسة وغيره ، وأكسب أشياعه حياة وانضماماً ، وهذا شأن كل حرب تقوم بين الحق والباطل ، لا يسقط من أنصار الحق كوكب ، إلا ويصعد في أفقه ألف كوكب ، ولا تعذب في سبيل نصرته نفس واحدة ، إلا وتحيا بجانبها نفوس لا تعد ولا تحصى . أمنا رأيت كيف أن تلك الاضطهادات القاسية ، والمظالم الشنيعة ، التي كان سنانيد قريش يعاملون بها ضعاف المسلمين في مكة ، فضلاً عن أنها لم تكن سبباً في نكث قتل جمعيتهم ، وباعثاً لنقض بناء ألفتهم ، كانت بالعكس داعية لانضمامهم وتلاصقهم ، وموجبة لكثرة عددهم ومددهم ؟ لقد بلغ بهم العتو الوحشي الى حد أنهم كانوا يربطون المسلم الضعيف على رمضاء مكة في حين الهاجرة حيث الشمس لا تطاق ولا تحتمل ، وفي الوقت الذي يكون فيه الرمل وصفار الحصى كقطع الجمر ؛ ثم كانوا لا يكتفون بذلك ، بل كانوا يحمون الحديد في النار حتى يصل لدرجة الاحمرار ويكونون به أولئك الضعفاء ، حتى تظهر أعصاب أجسامهم ، ومع ذلك فكانوا لا يزدادون إلا إيماناً و يقيناً ، ولا يكسبون من وراء هذا العذاب الأليم إلا حباً في رسول الله وتمكيناً ، ثم لما أعيام الأمر جداً وعجز أولئك العتاة عن إرجاع هؤلاء الأطهار عن دينهم ، تألبوا عليهم بقضهم وقضيضهم^(١) وناهيك بقريش سيدة العرب حين تنادي فرسانها ، وتحشد أقيالها وأبطالها ، وفيهم من إذا ركب زلزل الأرض بجوافر جواده ، وأشباب الأطفال بإبراقه وإرعاده ، ومنهم من إذا هز الحسام في يمينه تناثرت الفرسان عن شماله ، ومنهم غطاريف الخدع الحربية وشياطين الأساليب الهجومية والدفاعية ، ولم يكتفوا بأنفسهم بل دعوا معهم حلفاءهم من سكان البوادي ، وهم أبناء الطعن والضرب ، وإخوان الكر والفر ، كل ذلك إرهاباً لطائفة لا تكاد تزيد عن ثلاثمائة مسلم من قبائل مختلفة وبيوت كانت غير

(١) يقال جاؤوا بقضهم وقضيضهم أي بصغارهم وكبارهم .

مؤتلفة ، ناقصي العدد والأهب (المعدات) ، قليلي الزاد والنشب (المال) ، ولكنهم في مقابل ذلك كبار الأفئدة ، صحاح العقول ، أحياء الشعور ، أعلیاء النفوس ، قد استوعب الإيمان أرواحهم وملأ اليقين صدورهم ، لا يرون غير الله نافعاً ولا ضاراً ، ولا سواه معزاً ولا مذلاً ، فخاضوا غمرات^(١) تلك الحرب بأفئدة تعمرها الملائكة ، وأرواح متعلقة بالملاً الأعلى ، ونفوس ترتع في حظائر^(٢) القدس ، وتسبح في سبجات^(٣) الأنس ، فلم لا تشاركهم الملائكة في سحق أعدائهم ، وتشاطرهم في أداء وظيفتهم . نعم ، كان ذلك كما حكاه الله عنهم في كلامه العزيز ، ولم يمس إلا طائفة من النهار حتى تركوا صناديدهم يعرجون^(٤) في نجيعهم^(٥) ، ويتخبطون في مهجاتهم^(٦) « إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » ، « ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وإن الكافرين لا مولى لهم » ، « ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل » .

قلنا أن هذه الحوادث المدهشة سنة من سنن الله في خلقه ، تظهر عند كل تصارع يحصل بين الحق والباطل ، وقد حصلت في أوروبا قبل ثلاثمائة سنة حينما سُم الناس تحمل نير^(٧) رؤساء الأديان واحتمال تكاليفهم الشاقة ، وظهرت شمس العلم من خلال تلك الحجب المتلبدة ، والغيوم المتكاثفة . هناك صاح أولئك القادة صيحات دوت لها أرجاء المعمورة ، واهتزت من هولها عروش الجبابة والقياصرة ، وتنادوا بأن هلموا إلى كبج جماع هذه النفوس الجامحة ، وكسر شوكة هذه العقول الطامحة « يعنون بذلك نفوس العلماء الذين ظهروا ونبغوا في

(١) الغمرات : غمرة الشيء شدته ومزدحمه .

(٢) الحظيرة : هي القطعة من الأرض يحيطونها بحاجز (وحظيرة القدس) الجنة .

(٣) السبجات : الأنوار ، جمع سبجة بالضم .

(٤) عرج يمع ويعج : صاح - بضم العين وكسرهما .

(٥) النجيع : الدم الأسود . وقيل دم الجوف خاصة .

(٦) مهجاتهم : المهجة الدم ، وقيل دم القلب خاصة .

(٧) النير : الحشبة التي توضع على عاتق الثور .

العلوم الطبيعية ، وأرادوا وضع حد لأوهام أولئك القادة ، ولما لم تجد صيحتهم نفعا ، ولم تحدث أثرا ، أقاموا الحكومة وأقعدوها ؛ واستعانوا بقوتها على أولئك العلماء الضعفاء ، فلبثهم طوعا ، وكيف لا تلبثهم وببدم حلها ونقضها ، وطوع شفاهم قصمها وقصمها^(١) ؟ فجعلوا عقوبة المتكلم بما لا يوحونه إلى الناس من العلم ، ولا يقرون عليه من المدركات ، الحرق بالنار حيا ، والتعذيب بالقطران القسالي ، والقضبان المحماة على الجمر ، وفتكوا بهذه الوسائل بأكثر من ثلاثمائة ألف نسمة ، فلم يوقفوا تيار العلم ، ولم يدفعوا سيل الشكوك ، ولم يزالوا يهوتاً صموتا أمام هذا الحادث الجلل ، حتى انتهى الأمر إلى ما تراه اليوم ، وهو تأيد دولة العلم وتمكن سلطانه ، وخفوق علمه ، وكثرة أنصاره وأعوانه ، وهو مقدمة دولة الإسلام ، وطليلة عصر القرآن ، وسنثبت لك ذلك إن شاء الله .

لنعد إلى ما كنا فيه من الكلام على مسألة الروح ، فنقول : انقضى عصر الخيال بما كان فيه من أوهام وأحلام ، وجاء دور الفلسفة اليونانية ، فتناول الناس هذه المباحث بالعقل ، وجعلوها من بعض أعمال الفكر ، فقرر كل متكلم مذهبا اتبعته فيه تلامذته ؛ وصار عدد ماهيات الروح على قدر عدد الفلاسفة المتكلمين فيها ، ولا يخفى أن مجرد الفكر في أمر هذا الخلاف يحمل الإنسان على الجزم بفساد مذاهبهم جميعا ، فإن الحقيقة الواضحة لا يختلف فيها اثنان ، وإن اختلفا فلفناد أو لجاج ؛ أما ذهاب الناس في أمر تصور ماهية الروح هذه المذاهب الشاسعة ، فما يدل واضح الدلالة على أنهم إنما اغترفوا مداركهم من بحار الخيال ، وإن كانوا كسوها بحلة منطقية ، وحلوها بحلية جدلية .

رأينا في كتاب الإنسان أن الفيلسوف أفلاطون جعل مبادئ الكائنات صوراً أزلية أبدية شياً الله عليها الأشياء ، وأنها من عالم قائم بذاته مستقل عن المادة تمام الاستقلال ، وسماها « النموذجات » . قال : وأنه يوجد خارجاً عن الله تعالى أصل متغير ناقص قابل للفناء ، موجود بذاته ، هو المادة العمياء الصماء

(١) قصمه يقصمه ، وفصمه يفصمه : كسره ، كلاما من باب ضرب .

التي لا شكل لها ولا صورة . فبأمر الله تعالى الذي أحدثه عليها ازدوجت النماذج التي هي المعقولات المجردة بالمادة عديمة الشكل والصورة على درجات مناسبة ، فنشأ منها جوهر متوسط مشترك بين خصائص كل من هاتين الطبيعتين ، هذا الجوهر هو روح العالم . فروح العالم هذه بتشخصها وانقسامها إلى أرواح مختلفة ، تكون الآلهة التي يعبدونها العامة وتولد الناس أيضاً وهم الكائنات المتمتعة بعقل وإدراك . وقال أن يحتد هذه الأرواح قبل نزولها إلى الأجساد الكواكب ، وهي مصيرها بعد خروجها من الجسد . وقال عنها أنها حياة غير قابلة للفناء محصورة في سجن فإن هو جسد الإنسان ، وهي متمتعة بثلاث قوى مختلفة : الإدراك أي العقل ، والقلب أي الشجاعة ، والرغبة أي الشهوة . فالجزء السامي من النفس التي هي حية بالأفكار والمطالب التي توافقها وتلائمها فمحله الرأس ، أما الشجاعة فموطنها القلب ، وما سفل من قوى النفس فموضعه الأمعاء .

أما تلميذه أرسطو ، فقد خالف أستاذه في أكثر ما ذهب إليه كانه وجد ليناقضه ، فقال عن النفس كلاماً موجزه : أنه قسم النفس جملة أقسام ، فجعل في الإنسان نفساً غذائية^(١) ونفساً شاعرة ، وهما مما يشترك فيه الإنسان والحيوان ، ونفساً عاقلة أو ناطقة وهي التي بها يمتاز الإنسان عن الحيوان ويتصل بها إلى عالم الملكوت . وقسمها أيضاً قسمين ، نفس منفعة ونفس فاعلة ، فالمنفعة تموت بموت الجسد ، وأما الفاعلة فتخلد أبداً الأبدية ودهر الداهرين^(٢) .

وقال أبيقور : الروح الإنسانية جوهر لطيف له خصائص عالية ، وأنه وجد في هذا الجسد أمداً محدوداً ، واستخدمه حتى إذا ما صار البدن عديم الفائدة واختل نظامه خرج منه وتحلل هو أيضاً — أي الروح — وتلاشى في الوجود .

(١) النفس الغذائية : يريد بها السيطرة على التغذية والهضم والتوليد .

(٢) الأبد : الدهر . جمعه آباء وأبؤد . يقال : (لا أقبله أبد الأبدية . وأبد الأبد وأبد الآباد وأبد الدهر . وأبد الأبد ، وأبد الآبدية) . وفي معناه دهر الداهرين .

وقال ذنون : أما الروح ، فهي شعاع من الشمس الحيوية التي هي الأصل العام لجميع الكائنات ، وهي تنتقل كالحرارة من فرد إلى فرد وتنتهي بأن ترجع ثانياً إلى محتدها العام التي جاءت منه ، وبناء عليه فليس حظنا بعد الحياة العدم والزوال ، ولكن الاجتماع والانضمام ، على أنه ليس لدينا إلا معلومات صغيرة عن هذه الأمور المجهولة ، لأن العقل لا يستطيع أن يدرك نفسه بنفسه ، ومن الأمور المضادة للفلسفة الحقبة أن يدأب الإنسان للبحث عن أصول الأسباب . فالواجب القنوع بدرس الحوادث في ذاتها . وما يجب علينا وضعه نصب أعيننا هو أن الإنسان لا يستطيع أن يصل إلى الحقيقة المطلقة مهما حاولها وتطلع إليها . وأن الثمرة النهائية لمجهودات الإنسان وراء اكتناه أسرار المادة ، هي تأكده بأنه لا يصلح للإمام بكل شيء . وأننا على فرض وصولنا إلى حقيقة من الحقائق ، لا نزال نشعر بالحاجة إلى دليل على أنها حقيقة .

هذه أشهر أقوال فلاسفة اليونانيين التي سادت في العالم بعد انقراض أصحابها قروناً عديدة ، ولم يزل لها أشياخ في كافة أرجاء العالم ممن يربون كل قديم ، ويتشائمون من كل جديد ، وكلها كما قدمنا مغترفة من بحار الخيال ، وإن كانت مكسوة بحلة منطقية ، وعجلة بحلية جدلية .

سل الفيلسوف أفلاطون قائلاً : من أين جاءك العلم بأن هنالك صوراً عقلية أزلية خلق الله على قلوبها الأشياء ، وأنها من عالم مستقل قائم بذاته ؟ وسله : من أين أتاك بأن ازدواج تلك الصور العقلية المجردة بالمادة أنتج جوهرأ متوسطاً مشتركاً بين خصائص المادة وخصائص العالم السماوي هو روح الوجود ، وهذه الروح الوجودية بتشخصها وانقسامها تكونت أرواح الآلهة وأرواح الناس ؟ وعلى أي صفة كان ذلك الازدواج ، وبأي كيفية نشأت تلك الروح العامة ، ثم كيف تشخصت وانقسمت ، بأي هيئة وعلى أي كيفية ؟ ومن أين جاءك أن محتد هذه الأرواح الإنسانية قبل تلبسها بالأجساد هو آفاق الكواكب ، حتى إذا أدت وظيفتها وخرجت من البدن عادت إلى عالمها هنالك ؟ أظن لو صح هذا الكلام

عن أفلاطون ، وسئل هذه الاسئلة ، لما وجد جواباً مقنعاً يرد به على السائل ، ولا نستكبر عليه أن يقر لمستفتيه بالعجز التام أمام هذا السر المدهش ، والظلم العجيب .

ثم إن تركته وواجهت أرسطو قائلاً : أيها الفيلسوف الكبير الذي جمل التجارب والحوادث والمشاهدات أركان مذهبه ، ودعائم فلسفته ، من أين حصل لك العلم بانقسام النفس إلى ثلاث : غاذية وشاعرة وناطقة ، وبانقسام الناطقة إلى منفعة وفاعلة ، وانتهاء الأمر بموت المنفعة وبقاء الفاعلة ؟ إن قلت أن هذا التقسيم جئت به من مشاهدة حال الإنسان ومراقبة حركاته وأطواره ، قلنا : هب أنك استندت على المشاهدة فيما يختص بالنفس الغاذية والنفس الشاعرة والنفس العاقلة - وإن كان هذا التقسيم في نفسه عجيب وغير معقول - فعلى أي مشاهدة استندت في قولك أن النفس العاقلة تنقسم قسمين : منفعة وفاعلة ، الأولى تموت بموت الجسد ، والثانية تبقى أبداً الأبد ؟

الإنسان لا يحسر بالتقسيم والتجزئ ، إلا على شيء معروف الكنه والتركيب ، فهل عرفنا كنه الروح وتركيبها حتى نقول بانقسامها وموت بعض أجزائها ؟

وكذلك نقول لأبيقور الذي علم بأن الإنسان جوهر لطيف له خصائص عالية ، وأنه متى خرج عن البدن تحلل وتلاشى في الوجود ، نقول له : بم حكمت عليه بالجوهرية واللطافة ، وبأي وسيلة أدركت أنه سيؤول إلى التحلل والتلاشي ؟ هل رأيت ذلك ؟

أما ذينون فمذهبه مادي محض ؛ زعم أن الروح شعاع من شمس الحياة العامة التي هي أصل جميع الكائنات ، فإذا مات الإنسان عادت حياته إلى تلك الحياة العامة ، أي فقدت شخصيتها وتلاشت أنانيتها ، ويكون مثل الإنسان بعد الموت كمثل سائر المواد المتحللة . هذه النظرية توهم أنه رأى ذلك بعينه ، ولذلك فهو يحكم ويحزم ، ولم يدر كيف لم يلاحظ أنه ناقض نفسه بنفسه ، فإنه لم يكدر يقرر هذا الحكم ويدعمه حتى قال بعده (على أنه ليس لدينا إلا معلومات صغيرة

على هذه الأمور المجهولة ، لأن العقل لا يستطيع أن يدرك نفسه بنفسه الخ ..)
فلو كان الفيلسوف تدبر جيداً في هذه الجملة الجليلة ، ولو بعد أن كتب الجملة
الأولى لاستحسن إبدالها بما هو أليق بهذا التواضع الفلسفي ، وأجدر بهذه
الساحة العلمية .

هذه التعاليم الفلسفية اليونانية كانت موضوع اشتغال الناس وعنايتهم قروناً
متطاولة ، اقتصروا بها عما سواها ، وقنعوا بها عن غناء البحث ، وكد التنقيب ،
وصار أمثلهم أحفظهم لها وأضبطهم لشروحها ، أو أجمعهم لكتبها ، ودام الأمر
كذلك حتى جاء الفلاسفة المسلمون فنقلوا فلسفة اليونان كما هو معلوم وزادوها
تهذيباً ، وحسنوها شرحاً وترتيباً ، وغرموا^(١) بالكلام على الإلهيات والنفس
غراماً شديداً ، وخرجوا بذلك عن الدائرة الحكيمة التي حددها الله للعقل
البشري في كتابه العزيز ، كما سنبينه تفصيلاً عند الكلام على (العلم عند المسلمين)
إن شاء الله تعالى ، ولم يزالوا كذلك حتى قامت أوروبا تحذو حذوهم ، وتحيا
بمحياتهم العلمية ، إلى أن جاء دور العلم العملي الذي هو مقدمة الإسلام ، وطلعية
لقرآن ، فصاح بالناس : أن سقطت دولة الخرافات ، وثلت عروش الخزعبلات ،
وخلص الإنسان من أسر الأوهام ، ونجا من أحابيل الأحلام ، وأن للعقول أن
تتطهر من أرجاس ما ورثته عن آبائها من الأباطيل وللأفكار أن تنشط من قيود
ما تحملته تقليداً من الأضاليل ، وحان للنفس أن تستنشق نسيم الحرية ، وتخلع
نير العبودية . فأنكر الناس هذه الصيحة أولاً ثم لما ذاقوا حلاوتها ، ورأوا
ثمرتها ، خفوا إلى دعائها سراعاً ، وهرعوا إلى قادتها خفافاً ، ولولا أن أعقب
ذلك الحال شيء من الغلو والجور ، لكانت أوروبا اليوم تتلأأ في أنوار الدين
الفطري الحق ، وتحمل لواء الإسلام إلى الشرق ، ولكن هذه سنة الخالق في
خلقه ، فلا يؤوب الضال إلى الهدى حتى يجوز المدى ، ثم لا يزال يضطرب حتى
يقوم على المنهاج الوسط ، ويزول عنه الشطط .

(١) غرموا : غرم بالشيء يغرم به ، أي كلف به وشغف .

جاء العلم الأوروبي يضع للأوهام حداً لا تتعداه ، ويرسم للمقول مجالاً لا تجوزه إلى سواه ، ويقرر للمدارك دستوراً تسير على مقتضاه ، وحكم بأن كل فكر لا يسنده دليل حسي وشاهد وجودي ، وجب إلقاؤه إلى عالم الفروض والظنون ؛ حتى يقر عليه الوجود أو ينفيه ، وقضى بأن العلم غير محدود بمحد ولا مقصور على شخص ، وأن الإنسان مسوق إليه سوقاً قهرياً ، محفور إليه حفزاً فطرياً ؛ فمشكلة اليوم قد تكون بديهة الغد ، وما يحكم عليه اليوم جزافاً بالاستحالة ، قد يكون بعد غد من الممكنات السهلة . وقد جرى أمثالهم وأعاضهم على هذا الأسلوب حتى وصلوا اليوم إلى مدى بعيد من المعارف الطبيعية بواسطة علوم الطبيعة ، وإلى غاية عالية من المعلومات الروحية بواسطة علوم ما وراء المادة ، كما تنقله عنهم تبعاً . أما غلاتهم وكفارهم فقد تصدع ركنهم ، وتداعى للسقوط حصنهم ، وسيؤوبون للحقيقة وإن عاندوها ، والله غالب على أمره .

إذا علمت أن هذا الأدب العلمي لم ينشأ إلا في القرن التاسع عشر ، وأن هذا الدستور لم يتقرر إلا في هذا العصر الحاضر ، وأن هذه المناهج العالية لم ترسم إلا بعد أن هتكت الحرافات عقل النوع الإنساني ، وامتصت دم حياته ، أفلا يكون من المدهش المحير للفكر الجاحد أن ينزل القرآن في القرن السابع من الميلاد ، أي في العصر الذي لم يعرف فيه للعلم دستور ، ولا للفكر حد ، قائلاً : « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً » أنظر كيف أوقف العقل عند حده ، وأتى عن الروح بمحد لا يمكن نقضه مهما بلغ العلم من حقائق الوجود ومساوئ الكون ؟ وضمن الآية مبلغ الرقي الذي بسطناه لك تفصيلاً ، ولج فيها بتبكيت أولئك الذين ملؤوا الأسفار كلاماً عنها كأنهم بلغوا من العلم غايته ، ومن الفهم أقصاه ونهايته . إن لم يكن هذا من دلائل النبوة ، فأبي دليل أصدق ، وأي برهان في النفس أوقع ؟

✱

جهة إعجاز القرآن

كتب لنا حضرة العالم المحترم موسى أفندي جاد الله من بلدة (روستوف دودون) من بلاد روسيا ، يسألنا عن رأينا في جهة إعجاز القرآن . قال حضرته : إن في جهة إعجاز القرآن أقوالاً ، ولكننا إذا لاحظنا أن الإعجاز موجود في كل سورة وآية وأن وجه الإعجاز يجب أن يكون زمن التحدي وظاهراً عند جميع المرسل إليهم ، يشكل علينا تسليم قول من هذه الأقوال . فما رأيكم ؟

الجواب - القرآن روح من أمر الله استعد لقبولها الفؤاد الحمدي ، فأشرقت فيه شيئاً فشيئاً بواسطة الروح الأمين ؛ حتى تم إشرافها فجاءت هذا القرآن المجيد « الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » ، « وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا » .

هذا التحديد وحده كافٍ في إرشادنا إلى جهة إعجاز القرآن ، وهدايتنا إلى وجه قصور الإنس والجن عن الإتيان بمثله وبقائه لليوم معجزة خالدة تتلأأ في نورها الإلهي ، وتتألق في جمالها القدسي ، ذلك لأن القرآن لما كان روحاً من أمر الله فلا جرم كانت له (روحانية) خاصة هي عندنا جهة إعجازه والسبب الوحيد في انقطاع الإنس والجن عن محاكاة أقصر سورة من سوره ، وارتعاد فرائض الصناديد والجبابرة عند سماعه ، وناهيك بروحانية الكلام الإلهي .

نعم ، إن جهة إعجاز هذا الكتاب الإلهي الأقدس هي تلك (الروحانية العالية) التي قلبت شكل العالم ، وأكسبت تلك الطائفة القليلة العدد خلافة الله في أرضه ، وأرغمت لهم معاطس الجبابة والأكاسرة ، ووطأت لهم عروش التبابعة والقياصرة ، حتى صاروا ملوك الملوك وإخوان الملائكة ، في مدة لا يصعب عد سنيها على الأصابع « يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده » .

لا مشاحة في أن القرآن فصيح قد أحرص بفصاحته فرسان البلاغة وقادة الخطابة ، وسادات القوافي ، وملوك البيان . وهو حكيم ، بهر سياسة الحكمة والفلسفة ، وأدهش أساطين القانون والشريعة ، وحير أراكين النظام والدستور . وهو حق ، ألزم كل غال الحجة ، ودل كل باحث على المحجة ، ولم يفادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها . وهو هدى ورحمة ونور ، وشفاء لما في الصدور . كل هذه صفات جليلة تؤثر على العقل والإحساس والعواطف والأميال ، فتتحكم فيها تحكم المالك في ملكه ؛ ولكنه فوق ذلك كله « روح من أمر الله » تصل من روح الإنسان إلى حيث لا تصل إليه أشعة البلاغة والبيان ، ولا سيالات الحكمة والعرفان ، وتسري من صميم معناه إلى حيث لا يحوم حوله فكر ولا خاطر ، ولا يتخيله خيال شاعر . هذه الروحانية تنفذ إلى سر سريرة الإنسان وسويداء ضميره ، وتستولي منها على أصل حياته ، ومهب عواطفه وإحساساته ، وتخلق خلقاً جديداً ، وتصوره صورة لا يتخيلها ، ولو قيلت له لما أدركها . ألا ترى كيف فعلت بأولئك العرب الذين لبثوا ألوفاً من السنين على حالة واحدة لا يتحولون عنها ، ولا يسأمون منها ، فنفتحهم بروح عالية قاموا بواسطتها يحملون الملوك سلطتهم ، ويطوقون القياصرة بطوق نفوذهم وسلطتهم ، ولم يتموا جولتهم هذه حتى دانت لهم المعمورة من أقصاها إلى أقصاها .

أي برهان على تبدل أرواحهم أكبر من هذا ؟ قوم كانوا بالأمس ممزقين مشتتين لا تجمعهم رابطة سياسية ولا قومية بل ولا دينية ، في أخشن مواقع الأرض وأجديها ، وأبعدها عن النظام والحكمة والآمال العظيمة والفتوحات ، يقومون بعد سنين قليلة من بعثة نبيهم ينشرون الفضل والفضيلة والكمال في أرجاء هذا العالم المضطرب ، ووسط هذه الفتن المزعجة .

أي حجة أكبر من هذه على أن القرآن روح إلهي ، وأمر سماوي ، وأي وجه من وجوه إعجازه بعد مشاهدة هذا الأثر الفخم أوقع في النفس ، وأنفى للشك وأولى بالقبول من وجه (روحانيته) ؟

إن القرآن فوق الفصاحة والعذوبة والحكمة والدستور (روحانية) يدركها من لاحظ له في فهم الكلام وتقدير الحكمة وإدراك الدستور. ألا ترى أن الطفل والعامي كيف يعثر بها تهيب عند تلاوته ولو بغير صوت حسن، حتى أنها ليكادان يفرقان بين ما هو قرآن وما ليس بقرآن فيما لو أراد التالي أن يغشها.

هذه الروحانية تظهر ظهوراً جلياً عندما تكون آية من آياته جاءت على سبيل الاستشهاد أو الاقتباس في صحيفة كبيرة، فإنك ترى تلك الآية تتجلى لك من بين السطور، وخلال التراكيب كأنها الشمس في رابعة النهار، مهما كانت درجة تلك الصحيفة من البيان، ومنزلتها من جمال الأسلوب وجزالة الألفاظ. هذه الروحانية تظهر للعارف باللغة والجاهل بها. أما ظهورها للعارف فيبين لا يحتاج لبيان، وأما ظهورها للجاهل بها من الأمم الأعجمية فبأثرها وتيجتها.

أي إنسان يرى أن العربي الذي كان بالأمس جزاراً أو تاجراً أو راعياً، وهو من الجاهلية وعدم احترام الدستور على ما كان يعلم الناس منه. جاء اليوم يقود جيشاً يرغم به معاطس أكبر قواد العالم من غطاريف الحرب، ثم يدخل إلى أحشاء تلك الأمة المغلوبة فيؤمنها على دينها وشريعتها وأموالها وأعراضها، ويكون عليها أشفق من رؤسائها وأحنى عليها من نفس حكومتها، فينشر بينهم العدل والإحسان ويفغمرهم بالأفضال والأنعام، قلنا من ينظر إلى هذا الأمر المدهش ولا يقر بأن هذا العربي قد اكتسب (روحاً جديدة) لم تكن فيه من قبل، وليست من جنس الأرواح الموجودة في أعلياء النفوس وأصحاب الفضيلة من الأفراد؟ كيف لا يستدل هذا الإنسان بالحس على تلك (الروحانية) وقد أصبح يرجو من كان يخافه، ويتعلم ممن كان لا يرى أجمل منه، ويتخلق بأخلاق من كان لا يعده إلا وحشاً كاسراً؟

أفلا يدل هذا التبدل العجيب أعظم دلالة على سمو دين ذلك الفاتح و(روحانية) كتابه الذي أنزل إليه؟ نعم يستدل على ذلك استدلالاً يوجب الإيمان، ويستدعي غاية الاطمئنان، ويدل على ذلك أنه لم تكد تنتشر تلك الطائفة الطاهرة في

العالم ، ولم تجل فيه هذه الجولة السريعة ، حتى دخل إلى الدين الإسلامي في عشرات من السنين ، عشرات من الملايين طوعاً بلا دعوة ، وعفواً بلا إرهاب بحجة ، غير ما رأوه بأعينهم من هذه الروح الغريبة والحياة الطيبة .

هذا رأينا في جهة إعجاز القرآن ، وهو فيما نعلم يخل كل صعوبات هذا البحث ويمكن الاستدلال عليه بالحس والواقع ، والله يهدينا إلى سواء السبيل .

أرسلنا هذا الجواب أو ما يقرب منه إلى حضرة الأستاذ الموما إليه على حسب طلبه ، ليجمعه رأياً لنسأ في كتاب يؤلفه في بعض علوم القرآن ، ونريد أن نزيد عليه هنا أن هذا الذي أتينا به في جهة إعجاز القرآن هو المطابق لحكم الله فيه ، وهو أليق الوجوه بالكلام الإلهي الأقدس ، أما ما ولع به الناس من أن القرآن معجز بللاغته وتجاوزه حدود الإمكان ، حتى وقف ذاك الإعجاز منهم ببلاغته دون وجوه إعجازه الأخرى ، فلم نقف له على أثر من ذات كتاب الله ؛ ولا نعلم من أين جاء لبعض الناس ، أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتحدى الناس ببلاغة القرآن ، مع أنه قد ورد ذكر القرآن في القرآن في آيات عدة ، فلم نر في واحدة منها ما يوافق ما يذهب إليه الآن الكثيرون . وصف الله تعالى كتابه في كتابه فقال : « ولقد أنزلنا إليك آيات بينات » ، « هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين » ، « وأنزلنا إليك الكتاب بالحق » ، « ولقد جاءكم بصائر من ربكم » ، « ولقد جئناكم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون » ، « إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم » ، « وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة » ، « ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل » ، « وبالحق أنزلناه وبالحق نزل » ، « ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات ومثلاً من الذين خلوا من قبلكم وموعظة للمتقين » ، « وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم » ، « أم يقولون افتراه بل هو الحق من ربك » ، « ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدي إلى صراط العزيز الحميد » ، « وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا . وصف الله كتابه في هذه الآيات الكريمة بأوصاف عدة ،

وليس من بينها واحد يشير إلى بلاغته اللفظية ، ذلك لأن البلاغة صفة ثانوية للكلام الإلهي لا مشاحة فيها ولا ريب ، ولا يصح أن يرحل إلى الاستدلال بها على كونه كتاباً سماوياً مع ترك ما في القرآن من المعجزات الأخرى المحسوسة التي لا يمكن فيها المكابرة والجدل ، وترى لاقتصار المسلمين في الاستدلال على كون كتابهم سماوياً بمحض بلاغته اللفظية وقع كثير منهم في الغلو في التنقيب عن تناسب عباراته وتناسق كلماته ، والإغراق في تفتيش تراكيبه ، وبحث مبانيسه من جهة الصناعة والصياغة ، حتى خرجت البلاغة عن معناها الحقيقي وعما كان يفهمه أصحاب البلاغة من العرب في مدة البعثة النبوية وقبلها ، وتمادى الحال حتى ظن الناس أن البلاغة هي محض تناسب الكلمات وتوافق السجعات ، وتناسق التراكيب ، وذهلوا عن روح البلاغة الحقيقية ، وجوهرها الذاتي .

لو كانت البلاغة هي كما يفهمه الناس اليوم في تناسب التركيب ، وتناسق الألفاظ ، وترادف العبارات ، بصرف النظر عن معناها الحقيقي ، لاستحال أمر البلاغة إلى صناعة من الصناعات لا روح من الأرواح ، ولأمكن أغبي الأغبياء أن ينتقد على أبلغ البلغاء ، ويدعي أنه غير بليغ لخروج بعض عباراته عن الأقيسة والقواعد التي حفظها في مخيلته ، وظن أن كل خارج عنها ساقط عن مرتبة البلاغة ، وما الذي يمنعه من ذلك ؟ أليست البلاغة في نظره صناعة من الصناعات ؟ وبما أن لكل صناعة حدود وقوانين محفوظة فكل كلام شذ عنها فهو خارج عن حدود البلاغة . فانظر إلى أي مدى وقف الجمود ببعض القرائح . أنظر كيف غفلت عن أن تلك الحدود مقتبسة من تلك البلاغة وناشئة منها ، وقابلة للزيادة على قدر ما يفتح للناس من أساليبها ، فقامت تحكم على الأصل بفرعه ، وتقضي على النص بشرحه .

نرجو أن نوفق في الجزء المقبل لكتابة مقالة في كنه البلاغة وماهيتها ، كما يفهمه البلغاء أنفسهم ، وكما يؤخذ من صفتها الجوهرية ، لنذكر كيف أن القرآن في منتهى درجات البلاغة ، وفي أعلا قمة الفصاحة ، ونرجو أن يكون كلامنا

على البلاغة كميزان توزن به جميع أنواع البلاغات ، أو دستوراً يمكن الحكم به عليها بدون شطط .

هذا وإنا نرجو ، وقد فككنا القيود عن أنفسنا ، بتوحيد نمر كتاب الإسلام ، أن نوالي البحث في أنواع معجزات القرآن من كل وجهة ، فقد صارت في هذا العصر أكثر من أن تعد ، ونرجو أن يكون كلامنا كله على الأسلوب المعروف عنا في الاستدلال بالحس والواقع ، والحكم على الشيء بنتائجه وآثاره .

* * *

الفصل الثاني

باب المسائل الاجتماعية

مجلس نواب للأمة المصرية

كتب إلينا أخ مهذب من موظفي الحكومة ، ورغب إلينا كتمان اسمه ، يقول : « لابد من أنكم اطلعتم على ما تناولته بعض الصحف سلباً وإيجاباً من موضوع إنشاء مجلس نواب مصري ، فندرجكم أن تشرحوا لنا هذا الموضوع شرحاً جلياً ، وتبينوا لنا هذا النقص الحاضر في نظامنا القانوني ، وهل طبيعة المصري وصفته الحاضرة تسمحان له بأن يكون له مجلس نواب بمعناه الصحيح ؛ وإذا فرضنا تشكل المجلس فماذا تكون آثاره ، وما هي مضاره ومحاسنه ، وهل يرى بين الأمة المصرية أفراد يقومون بهذا العبء الحيوي وتكاليفه الضرورية ؟ »

« إنا عندما درسنا القانون النظامي الفرنسي ، أخذتنا الدهشة وبلغ منا العجب مبلغه ، عندما شاهدنا ذلك الاختلاف في النظامات بيننا وبين الأمم المتقدمة ، ولا عجب بعد هذا الخلاف الجوهرى أن تقدموا وتأخرنا ، ونهضوا وقعدنا .

« لدي مسائل عمرانية أخرى ، أهمها ما يختص بالتربية والتعليم على الوجه الحديث المناسب للمصري ، وهو بين هذا المعتكك الحيوي الهائل ، سأخاطبكم عنها حينما تفرغون من هذا الموضوع إن سمحتم بذلك . »

(الجواب) : لقد ألقى علينا حضرة الأخ المحترم سؤالاً عويصاً لمن يريد

الوصول إلى لبابه ، بعيد الغور لمن لا تقنعه قشور المسائل ، كثير الشعب لمن لا يحب الاندفاع بغير علم ، ولكننا لا نجد مناصاً من إجابة دعوة داعينا المذهب لاسيما وجوابنا هذا ، كما يقول حضرته ، ينتظره كل من يعرفنا بمصر ، فنقول والله المستعان :

موضوعنا يختصر في كليات بسيطة ، وهي : هل المصري مستأهل للمجلس نواب ، وما هي آثاره عليه صلاحاً أو فساداً ، وهل في الأمة رجال ينهضون بتكاليفه ، ويضطلعون بأعبائه ؟ يمكن الإجابة على هذه الكليات البسيطة بكلمات مثلها بسيطة ، فنقول مثلاً : أنه مستأهل أو غير مستأهل ، ونسرد بعض البراهين السطحية على ما نقول ، ننتزعا : إما من الخيال المحض ، وإما من النظر إلى بعض الأمم التي تستفيد من مجالسها ، ثم نختم القول بحث الحكومة والأمة على الإسراع بتأسيس ذلك المجلس المحيي للأمال ، المعيد للمجد والعظمة .

ولكننا لا نستطيع ارتكاب خطأ هذا الاندفاع ، ولا تحمل عهدة هذه الحسارة ، ولكننا قبل أن نحدث نفسنا ببسط الكلام على هذه المسألة العويصة ، نسعى أولاً في تشريح السؤال في أبعد أجزائه ، وتحليله إلى أبسط عناصره ، كأن نقول مثلاً : ما هو المصري في أصله ، وفي ماضيه البعيد ، وفي استقلاله ، وفي عبوديته ، وفي ملكاته الأصلية ، وأخلاقه التي أورثتها له العبودية للأمم المتغلبة ، ما تأصل فيه من تلك الخلال ، ولا يمكن زواله ، وما تشبث به منها سطحياً ، ويمكن زواله بالتربية ؟ ما هو المصري في دينه ، مركزه من جامعته ، علاقته بالجمعية الإسلامية العامة . هل هو مصاب بما أصيب به المسلمون ، قاطبة في هذه العصور ، أم له أمراض خاصة به ؟ ما هي تلك الأمراض ، وما مقدار خطارتها ، وما هي علاجاتها ، وهل هناك موانع تمنع تعاطي العلاج ؟ هل تلك الموانع ذاتية أو خارجية ، هل هي مما تزول أولاً ؟ هل هو عامل على إزالتها ، هل هي زائلة من طبيعتها ؟

ما هو مركز المصري أمام التيار المدني السحري الأوروبوي؟ ماكنه إصابته
بميكروبات المفاسد الغربية؟ ما مقدار قوة مقاومته لتلك المكاريب المحتاجة؟
ما هي القوة المدخرة في طبيعته لمغالبة تلك المحن المنصبة عليه؟

نحن إذاً حللنا هذه المسائل كلها على الأسلوب العلمي التحليلي ، عرفنا ما هو
المصري ومركزه الحقيقي من المرض والصحة ، من الحياة والضعف ، من الشعور
والخدر الخ ... وإذا وصلنا إلى هذه النقطة غيرنا وجهة الموضوع وتركنا المصري
جانباً ، وأخذنا نبحث عن ماهية مجلس النواب في ذاته ، وعند الأمم أجمع ،
وطبقنا ندرسه من جميع جهاته ، لنعلم هل يوافق دين المصري أو يخالفه . هل
يلائم طبعه أو يخافيه ، هل وصل استعداد المصري إليه أم لا ، وهل يحفظه
ويقوم به إذا وصل إليه ، أم لا يلبث أن يضيعه ، ويرتكس إلى أسوأ حالة؟ .

نحن إن لم نحل كل هذه المسائل حلاً علمياً عملياً ، فكيف نصل إلى حقيقة
المسألة ، وكيف يقام لحكنا عليها وزن ، وكيف يكون لقولنا أثر في موضوعها ،
وتأثير على أذهان قرائنا؟

نعم ، إن هذا الموضوع يلزم له مجلد خاص ، وكنا ننتدب أنفسنا لوضعه لو
كان في البلاد قوة لتحمل مثل هذه المواضيع ، وصبر على تتبع المسائل الاجتماعية
الكبرى ، ولكننا من جهة أخرى لانحب أن نضن على ذلك العدد القليل من النشأة
الحية بما تنتظره منا ولو بالايحاز المناسب ، فإذا رأى منا بعض قرائنا إغماضاً في
أمر أو تشهى أن يستبين خفية من الموضوع ، فعليه أن يطلب إلينا ذلك ، ونحن
نمده إن شاء الله بما يناسب المقام والله وحده ولي الأمر كله .

أصل المصري

المصري أسيوي الجنس ، يقرب من الجنس السامي بلغته وصفاته الطبيعية ،
أغار على القطر المصري من طريق العريش ، وأجلى عنه سكانه الأصليين ، وكانوا
من الزنج ، وحل بالبلاد مكانهم في عهد قديم جداً يبلغ نحو الستة آلاف سنة قبل

الميلاد المسيحي ، ولا يعلم عنه شيء كبير وهو في مبدأ أمره ، إلا أنه كان تحت قيادة رؤساء ديانتته الوثنية ، وبناء على هذا ، فالمصري أسويي الأصل من الجنس الأصفر الذي هو دون الجنس الأبيض في الصفات الطبيعية الجسمية والعقلية على قول جمهور علماء الإنسان .

تاريخ المصري القديم

لايكاد يعلم للمصري تاريخ إلا بعد أن تكونت له دولة مستقلة رأسها (مينا) الذي تولى الملك قبل المسيح بنحو ٥٧٠٠ سنة ، ثم أعقبه أولاده حتى انقرضت عائلته وخلفتها عائلة أخرى ، وهكذا إلى أن انتهت إلى العائلة السابعة والعشرين سنة ٥٢٥ قبل الميلاد ، ثم انقطع استقلال البلاد بوقوعها تحت سلطة الأعجام مدة ، ثم انتهز المصريون فرصة سنحت لهم وألهبوا نيران الثورة واستقلوا ببلادهم سنة ٤٠٨ قبل الميلاد ، وكوّنوا العائلة الثامنة والعشرين ، لأن الأعجام عدوا عائلة حاكمة على البلاد ، ثم جاءت العائلة التاسعة والعشرون ، ثم أعقبتها العائلة الثلاثون سنة ٣٧٨ قبل الميلاد ، وفي أثناء حكم هذه العائلة هاجم الفرس البلاد وامتلكوها وصار (دارا) ملك الفرس أول العائلة الحادية والثلاثين ، وهو صاحب الحروب الشهيرة مع الإسكندر ، ولما دارت الدائرة عليه ، وقعت بلاده كلها ومنها مصر ، تحت حكم اليونانيين المقدونيين ، وابتدأت فيها عائلة البطالسة من سنة ٣٢٣ إلى سنة ٣٠ ق. م . ، ثم امتلكها الرومان لغاية سنة ٦٣٩ بعد الميلاد ، ثم افتتحها منهم العرب إلى القرن الخامس عشر الميلادي ، ثم امتلكها الأتراك في مدة السلطان السليم ، ثم أخذها الفرنسيون منهم في نهاية القرن السابع عشر ، ثم استردها الأتراك ثانية حتى احتلها الانجليز .

المصري في استقلاله

بلغ المصري وهو مستقل ، أقصى درجة معروفة إذ ذاك من المدنية الفكرية والصناعية ، بل هو أقدم رجل متمدن عرف في العالم الإنساني من أول الخليقة ،

ومن يزور دار الآثار المصرية القديمة يقف على مبلغ ما وصل إليه من إتقان الصناعة ، ورفعة الشأن ، ولكنه في كل مدة استقلاله لم يغير شكل حكومته ، ولم تحدثه نفسه بذلك يوماً من الأيام ، فقد كان خاضعاً للحكم الاستبدادي المطلق في أقصى أشكاله ، إذ كان الملوك في نظره آلهة يُعبدون في حياتهم وبعد مماتهم ، لأنه كان يعتقد أنهم أولاد الخالق - تعالى عما يقولون علواً كبيراً - ، ولهذا حفظ التاريخ عنهم خضوعاً متناهياً لملوكهم ، ومراعاة خارقة للعادة لأوامرهم وأحكامهم ، فيما كانوا يعتبرون أنفسهم بإزاء ملوكهم إلا عبيداً أذلاء لا إرادة لهم ولا حرية ، وإنك لتصادف فوق الأحجار ما يدل على تمام الدلالة على هذا الاستدلال التاريخي ، فقد نقشوا على الصخور أصغر الأعمال الملكية وأحقرها ، وجسموها لدرجة أنهم حسبوها من أقصى غايات المجد وأعظم معالم السؤدد .

كانت إدارة البلاد بين أيدي رتب متعاقبة من الموظفين ، كما هو الشأن اليوم في البلاد المتمدنة ، وكان الناس ينقسمون في نظر شريعتهم إلى خمسة أقسام : (١) رؤساء الدين . (٢) ورجال الحرب . (٣) والزارعون . (٤) والصناع . (٥) والرعاة . وكان أشد هذه الفرق صولة وأوسعها اختصاصاً القسوس ، فكان لكل منهم إله ، ولكل معبد عدد عديد . يقومون بخدمته ، وتعتبرهم العامة اعتباراً ليس له حد ، وكان للكهان زيادة عن هذه الوظائف الدينية وظائف إدارية أخرى ، فكانوا يشغلون مراكز القضاء والإدارة ، وكان لهم أحسن أراضي القطر المصري لا يدفعون عليها شيئاً . وكان يلي هذه الفرقة في النفوذ والسطوة طائفة الحربيين ، وكانت دون الأولين امتلاكاً للأراضي وخيرات البلاد . والخلاصة ، أن أراضي القطر المصري كله كانت موزعة على الملك والكهان والجنود ، أما الرعاة والزارعون فكانوا لا يملكون شيئاً وهم تبع لأراضيهم التي يحرثونها ، أي أن مقامهم كان لا يحاوز مقام مواشيهم في نظر القانون إلا بشيء ضئيل ، ويدلنا على ذلك ما كان يأتيه فراغة المصريين من الأعمال الجسيمة ، كإقامة الأهرام والمعابد ، ونقل الأحجار إليها من الجبال ، وما كان ينتج من توالي الأعمال الهوائية من الذهب بنفوس الألوف المؤلفة من الرجال .

كل هذا ، ولم يرو لنا التاريخ أن المصري أنف من تحمل هذا النير الثقيل ، أو تملل تحت هذا الكلكل القاسي ، فحدث نفسه بوضع حد للحكم الاستبدادي المطلق ، أو بإيقاف سلطة الكهات والجنود عند نقطة معينة ، أو عصفت في وجدانه عواصف الحمية ، فقام يثبت لنفسه شخصية أمام ساداته الأقوياء ، وكيف يتأتى له ذلك وهو يعتقد أن مليكه إلهه وابن إلهه ، وأن تك قد ثارت في البلاد تائر من فتنة داخلية ، فذلك قد كان من تحزب عائلة ملوكية على عائلة ملوكية أخرى تنازعا صولجان الملك ، وتتقاضاها قسطها من الزعامة .

المصري في عبوديته للأمم الغالبة :

موقع القطر المصري الجغرافي ، وشهرته العلمية والصناعية أوجبا عليه منذ القدم من المحن والإحن ، وجرت عليه من شهوات الملوك والقادة ، ما لا يعطيك فكرة صحيحة عليه إلا ما تراه من أنه غنيمة الغالب وفريسة السابق دائما .

خرج المصري من أمر ملوكه السابقين وعبوديتهم إلى عبودية الفرس ، فتجرع كأس الذل مريراً ؛ وحمل نير الاسترقاق ثقيلًا ، ولقي من مظالم ساداته الأجانب ما لا كان يتخيله إلا في ما يطالعه من عقوبات الكافرين في مستقر الشياطين ؛ ومستودع آلهته السفليين ؛ فماذا يعمل وهو مغلوب على أمره ؛ ومأخوذ على يده ؟ جاشت نفسه من توالي تلك المظالم عليه ، واضطربت عواطفه اضطراباً قادته إلى طلب الاستقلال بسيفه ، ولم يزل يجاهد عدوه بتلك الروح العالية حتى أجلاه عن بلاده ، وذاق طعم الاستقلال كما كان أول مرة ، ولكنها كانت حركة كحركة المذبوح لم تلبث أن همدت ، وتبين للملأ ضعفه ، فساوره (دارا) فأخضعه لسلطانه ، ثم انتقل من ملك الأعجام إلى ملك المقدونيين ، كما ينتقل السلب إلى السالب ، فتوالى عليه ملوك مقدونيون يدعون البطالسة (لأن اسم كل منهم بطليموس) فسار الأول سيرة العدل ، وأحل البلاد محلة الأمن ، وتبعه ابنه في سبيله ، وحذا حذوه حفيده ، ثم انقلب الحال وتبدل الشأن ، ورجع العسف إلى مجراه ، وآب

الجور إلى نصابه ، وتلاقت البلاد فتن كقطع الليل المظلم ، ولم تزل كذلك إلى سنة ٣٠ ق. م. ، ثم جاء الرومان فكانت مصر في مدتهم مرسى للاضطرابات والفتن ، تارة تعصباً للدين ، وأخرى تحزباً للملك ، وكان أكثر الولاة الذين يرسلهم أباطرة الرومان حكماً على مصر غلاظ الأكباد ، جفاة الطباع ، منهومين بشرب الدماء ، وكانت البلاد تلاقى منهم من أشكال الحيف والعسف ، ما لا يصح إلا لقطاع الطرق ، وأصحاب الدعارة .

ظل المصري تحت تأثير هذا الجو الوبيء نحواً من سبعمائة سنة ، حتى افتتحها المسلمون سنة ٦٣٩ ، فدخلوا ويدهم الدستور القرآني ، والقسطاس الإسلامي ، يسكنون أرواعاً جائشة ويهدئون نفوساً مضطربة ، ويضمدون جراحاً دامية .

جاء المسلمون إلى أمة مزقت أحشاءها العتاة الجبارون ؛ وأطاشت حلومها القساة الظالمون ، مصابة بخدر يشبه الموت ، وضعف يضارع الخمود ، أضاعت معنى الاستقلال والحياة والعزيمة والغيرة والحمية ، وكيف يفكر في هذه الحلال من تلقيه الحوادث بين مدى هذه القلاقل المفقدة للرشاد ، المضیعة للسداد ، الذاهبة بحياة الفؤاد ؟ تدارك المسلمون هذه الأمة وهي على هذه الحال ، فأمنوها على عرضها ومالها ودينها ، وأقروا بينهم على الدستور القرآني ، يخفق على الرؤوس على حد سواء ، لا فرق بين مصري وعربي ، فدبت في نفس المصري غرائزه الطبيعية الكينة ، تحت ظل هذا العدل الإسلامي الوارف ، وسمت نفوسهم عن صفات النقص واحتمال الذل ، لدرجة أن المصري كان يتجشم خطر السفر إلى الحجاز ليشكو ابن عمرو بن العاص لإهانة لحقته منه ، بعد أن كان بالأمس طعمة لصفار الرومان وهدفاً لأقزام اليونان .

استمرت هذه الحكومة العادلة رديحاً من الزمن ، فامتزج حبها بدم المصري ومهجة فؤاده حتى نسي في حبها لغته ودينه ، وأصبح مسلماً إلا القليل منهم مكثوا على دينهم ، آمنين على أرواحهم تحت هذا العلم الوارف الظلال . ومن هذا

الحين اختلط تاريخ المصري بتاريخ الإسلام العام وفالته كل الإصابات التي فالت
جسم الهيئة العامة مع بقاء أمراضه الأولى كأمنة فيه أيضاً .

المصري في خلاله الأصلية وعيوبه المكتسبة :

قلنا أن المصري من جنس آسيوي يقرب من السامي ، وهو ككل أفراد
النوع الإنساني متمتع بمواهب وملكات وأمبال وإحساسات وعواطف ، وقابل
للترقى والتدلي ، وأهل للانطباع بتأثيرات الوسط الذي يعيش فيه ، وشكل
الحياة التي يحياها ، بمعنى أنه ليس جباناً بالفطرة ، ولا فيه عيب عنصري يفصله
عن بقية النوع الإنساني ، وإنما نشأت فيه عيوب كثيرة من جراء الأدوار التي
وقع فيها ، ولو وضعت أرقى أمم الأرض مكانه ، وسلطت عليها ما تسلط عليه
لأصبحت مثله ، فنحن هنا إن ذكرنا عيب المصري لا نريد أن نشتمه أو نخرج
إحساسه ، وإنما نذكرها من باب تشخيص أدوائه ، لنستطيع أن نصف له
دواءً فاجعاً إن شاء الله ، وما سنذكره هو نتيجة طبيعية لما عملناه من هذا
الموجز التاريخي ، وخلاصة فلسفية لهذا التحليل العلمي . (لها بقية)



كيفية استحضار الأرواح :

جاءنا من حضرة المحترم خليل أفندي فهمي المهندس بمصر ، خطاب يطلب
الينا فيه أن نبسط له الطرق المعروفة في أوروبا لاستحضار أرواح الموتى .

قال حضرته ما نصه : « وحيث تعلمون أن هذا الأمر مما تتشوف إليه
النفوس ، وتصبوا إلى معرفته العقول ، فخرجكم بسطه بشرح واف في الجزء
الآتي وبذلك تكسبون ثناء مشترككم وخصوصاً هذا المخلص » .

الجواب — إن غرضنا الوحيد من كثرة الكلام في أمور ما وراء المادة ، على
الأسلوب المصري الذي يسمونه في أوروبا وأمريكا بالماتيتيزم (التتويم
المغناطيسي) والاسبيريتيزم أو الاسبيريتواليزم (استحضار الأرواح) ، هو

مطاردة الإلحاد المتفشي الآن في كثير من أفراد النشء الجديد ، المغترين بالعلوم المادية التي تعلموا شيئاً منها ، وكثير من خاصة الدور السابق الذي سحرتهم موهات المدنية الأوروبية وفتنتهم مظاهرها .

إننا لليوم لم نحصل البرهان النهائي على أن ما يظهر في أوروبا للمشتغلين بمسائل ما وراء المادة هي أرواح الموتى حقيقة ، ولكننا نعتقد ولا نتردد بأن شيئاً يظهر لهم من وراء هذا العالم ، فلا ندري إن كان هو روح من عالم الأرواح أو عالم الجن أو عالم آخر لا يعلمه « وما يعلم جنود ربك إلا هو » ، وسبب عقيدتنا في صحة ظهور شيء من هذا القبيل ، هو إجماع كل الباحثين من العلماء الثقة في كل بلد وبكل لغة على صحة ذلك ، وإعادة بعضهم لتجارب بعض على اختلاف بلادهم ولغاتهم ، مما يدل المطلع من أول وهلة على استحالة اجتماع هؤلاء الألوف المؤلفة من أكابر علماء الأرض على ضلة عقلية ، أو ألعوبة سحرية ، ولو توهمنا أن يضل عامة علماء فرنسا المشتغلين بهذه المسألة ، فلا يسهل علينا أن نزعّم أن يضل مثلهم علماء إنكلترة ، ولو توهمنا ذلك بطريقة فوق التصور ، لما استطعنا أن نتوهم أن يضل مثلهم علماء إيطاليا أيضاً وألمانيا والنمسا والروسيا وبلجيكا وسويسره وهولانده وكافة ممالك أمريكا الشمالية والجنوبية . ثم لو تسنى لنا أن نتهم علماء إيطاليا مثلاً أنهم وهموا في جلسة من جلسات التحضير ، واتخذوا للمحضر أو اغتروا بما ليس بموجود ، فلا يتسنى لنا أن نتهم سائر علماء الأرض بأنهم وقعوا كلهم في أحابيل الخداع والتدليس ، لا سيما وأن ما يجربه العالم الفرنسي بعيداً العالم الأمريكي والإنجليزي وغيره ، ويكرره في كل حين ما دام حاصلاً على سائر الشروط الضرورية لحصوله .

هذا هو سبب اعتقادنا في صحة ظهور تلك الخوارق في جلسات التحضير . أما كون تلك الخوارق منسوبة لأرواح الموتى أو للجن أو لعالم آخر ، فلم نحصل لليوم على البرهان النهائي الذي يقف بنا عند فرض من هذه الفروض الثلاثة . وسواء صح كونها منسوبة لأرواح الموتى أو للجن ، فنتيجتها البرهان المحسوس

على وجود عالم وراء عالم المادة ، له شؤون غير شؤون هذا العالم ، وأنه أرقى من هذا العالم بما لا يقدر ، وأنه مسيطر على هذه المادة تكويناً وإفساداً وغير ذلك . وبناء عليه فمذهب الإلحاد الذي كان يتبجح بنفسه أصبح ومماً باطلاً ، وضلالاً ظاهراً ، وقد انهزم هزيمة لن تقوم له بعدها قائمة أبد الآبدين ودهر الداهرين . أما ما تراء من بقاء بعض الرؤوس الملحدة للآن ، فسببه جهل السواد الأعظم من الأمم بهذه الخوارق ، ومتى انتشرت بين العالم وأصبحت تجاربها بدائه علمية كتجارب علوم الطبيعة ، قبع كل ملحد قبوع القنفذ ، وأطرق بعينيه إلى الأرض ، فإما يسلم وجهه لله وإما يقاوم الحس ، ويكاوح المشاهدات ، وكفاه بذلك خزيًا وألمًا .

ينقل بعض الناس عندنا مخترعات الصناعة ومكتشفات العلماء في علوم الطبيعة ، حتى أنهم ليملاؤن بذلك أسفاراً في كل شهر ، ولا نرى أحداً يطلب أن يبينوا كيفية العمل . لماذا ؟ يقال لاقتناع الناس عموماً بعدم الاستعداد لإعادة تجارب الأوربيين وتقليد مخترعاتهم ، لما تستدعيه من المعامل والأدوات والآلات ! نقول : إذا كانت لا استعداد لدينا لإعادة أعمالهم في العلوم المادية ، فبالأولى لا استعداد عندنا كذلك لإعادة تجاربهم في علومهم الروحية . ولو علم حضرات قرائنا أن الأستاذ (كروكس) الإنجليزي الشهير ، صرف سنين عديدة في درس بعض ظواهر الاسبرتزم ثم وقف سنة ١٨٩٧ لما أسندت إليه رئاسة الجمعية الملوكية الإنجليزية ، أي بعد مضي نحو ثلاثين سنة ، يقول لقومه أنه ليس في تاريخه العلمي ما هو أشهر من اشتغاله بالمسائل الروحية ، وأنه لم يزل يشتغل بها ، قلنا : لو علم حضرات قرائنا أن مثل هذا الأستاذ ، على سعة معارفه وتوفر شروط العمل لديه ، يلبث ثلاثين سنة مشغلاً بهذا الفن ثم يصرح بأنه لم يزل يعمل فيه ، لأدركوا أن هذا موضوع شاق لمن يريد التعمق فيه والوقوف على كبريات مسائله .

هذا الأمر يعوز أولاً إنساناً ذا تركيب خاص ، فيه مزية الإشراف على سكان العالم الروحاني ، ليكون واسطة بين الأحياء وعالم الأرواح ، وبدونه لا يمكن الحصول على شيء ، ثم أن هذا الواسطة يحتاج لتدريب وتهيب ، لهذا العمل بطرق

يعرفها علماء الإنسان المشتغلون بهذه المسائل . فإن في التحضير خطراً على حياته وصحته ، وكم حصلت في أوروبا وأمريكا أمور ساقطت إلى المحاكمات الشديدة والعقوبات الصارمة . ومما يدل على أن الاشتغال بهذا الأمر الروحاني ليس من الأمور الهينة ، أنه حدث مرة أن خمسين شخصاً أصيبوا بالجنون دفعة واحدة في إحدى جلسات التحضير .

نقول هذا ، ولا ننكر أن في البلاد الأوروبية رجالاً ونساء معرضين أنفسهم لإدهاش زائريهم ببعض المشاهدات الروحية ، ويستطيع من يزورهم في مقابل بضعة فرنكات أن يستحضر روح أحد أقربائه ، ولكن هؤلاء الأشخاص يعدم علماء الفن جائحة على مذهبيهم ، فإنهم كثيراً ما يستعملون الغش والتدليس سعياً لأكل الأموال بغير حق ، فيبعدون الناس عن الدخول إلى ذلك المذهب لما يرتكبونه باسمه من الخدع والتزوير .

إذا تقرر هذا ، فليس من الممكن مجازاة الأوروبيين في تجارب ما وراء المادة ، كما ليس من الممكن مجاراتهم في تجارب المادة ، وليس من المعقول أن نصل إلى المستوى الذي هم فيه بالنسبة لفن خاص ، في الوقت الذي نحن دونهم فيه في سائر الفنون الأخرى ، فإن المشاهد أن الأمة لا ترقى إلا ترقياً متناسباً في كل شيء . فلا يمكن أن يكون عندنا طبعي كبير يفيد البلاد إلا إذا وجد عندنا مثله في كل فرع من فروع العلوم . وربما يتذكر الناس أنه قد كان وجد عندنا فلكي كبير في وقت لم يكن أحد يقابله في فروع العلوم الأخرى ، فوقف حيث هو ولم يفد البلاد شيئاً .

فنحن نكتب في الإسبرتزم من قبيل ما تكتبه المجلات في أبواب المكتشفات الحديثة ، والأخبار العلمية ، وغرضنا من هذا النقل كسر حدة أولئك المقلدين الذين يزعمون أن العالم الأوروبي أكبر من أن يعتقد بشيء ، ويصورونه بصورة الغتاة الجبارين مع أن أرفعهم رأساً قد خضع أمام آية الإسبرتزم وأتاب ، وفي تتبع أقوالهم المعجب المعجاب . فسبحان القاهر فوق عباده .

الفصل الثالث

العلم عند المسلمين

تكلمنا في مقالاتنا السابقة على بدء تكون العلم عند الأمة اليونانية ، ثم ألمعنا إلى طرف من تاريخ جامعة الإسكندرية التي أسسها بطليموس الأول وابنه ، وحشرا إليها من العلماء اليونانيين في سائر فروع العلم ، وأودعها من نفائس الكتب ، وذخائر المدارك ، وكنوز المعارف ، ما لا يمكن حصره إلا في مجلد ضخيم ، ثم استعرضنا نبذاً من معلومات أولئك القادة المتقدمين في كبريات المسائل الإنسانية ، جرياً على أسلوبنا الذي توخيناه في هذا المبحث . وقد انتهى بنا الكلام اليوم إلى العلم عند المسلمين .

علم الخاص والعام أن الأمة التي ورثت العلوم الكونية من الأمة اليونانية هي الأمة الإسلامية ، فقامت بحقوق الوراثة خير قيام ، وجعلت من بغداد عاصمة علمية فاقت في الشهرة والنفع والفخامة ثغر الإسكندرية الذي اتخذته اليونانيون نقطتهم الجامعة أيام كانت السطوة العلمية لهم .

علم الناس هذا ، وتعدى من الشرق للغرب فأصبح اليوم علماء أوروبا يقرون بهذا الفضل لأهله ، ويعترفون علناً بأن المسلمين أساتذتهم ومعلموهم ، ولا يزالون يكتشفون من كنوز علومهم وأسرار معارفهم ما يستفيدون منه في تحسين

أمورهم ، وزيادة مادة عرفانهم ، وقد شاع وذاع أمر هذا الإقرار من الأوروبيين بفضل آباؤنا الأولين ، حتى قنع أكثرنا بمحض ذكره بدون بحث عن تفصيله ، فمضى ذكر المؤلف عن عالم من علماء الفرنجة نبذة من كلامه في ذلك الموضوع ، فقد قام لقرائه بكل ما ينتظر منه ، وكفاه أن يقول أن المسلمين الأول بلغوا من علوم الهيئة والطبيعة والكيمياء والرياضة أقصى الغايات ، وزادوا على معلومات اليونانيين فيها زيادات خلدت لهم الذكر العاطر إلى اليوم ، أما تفصيل تلك العلوم وذكر رجالها واحداً بعد واحد ، والتحسس من مصادرها ومناشئها ، وتتبع سيرها في رقيها على يد رجالها وفحولها ، وذكر نبذ تاريخ مشخصها ، ونقل فذلكات شافية من أمهات كتبهم إدلالاً على مكانتهم ، فلم يطرق هذا البحث طارق لليوم ، مع أنه يجمع إلى اللذة العقلية الفائدة العلمية التي لا تقدر ، ويسوءنا أن يسبقنا الأوروبيون إلى هذا المجال الواسع ، فيسجلون بذلك علينا موات العزيم ، وفقدان الحمية ولا يرضاهما لنفسه إلا من اتصف بهما ، والثالث برجسها .

لذلك رأينا إن شاء الله أن نسد هذا الفراغ الهائل بأبحاث مستفيضة نكتبها على التوالي في كتاب الإسلام كل شهر على قدر الطاقة ، ثم متى حان وقت زيادة صفحاته كما وعدنا ، تخصص لهذه الأبحاث عشرات من الصحف إشباعاً للقول ، وتوفية لحق الموضوع ، وسيكون ترتيب كلامنا إن شاء الله تابعاً للنمو الطبيعي الذي ظهر به العلم في هذه الأمة ، متتبعاً للسلسلة من أولها في عصر الصحابة ، رضي الله عنهم ، ثم التابعين وتابعيهم حتى نصل إلى طرفها الذي اتصل بالأوربيين

سيكون كلامنا إن شاء الله في هذا الباب الكبير بالغاً النهاية في التفصيل والبسط ، فإن الموضوع كما قدمنا محتاج لذلك ، خصوصاً في عصرنا هذا ، وسيكون على الأسلوب المصري في النقد والتحصيل والتحليل ، فلا يفرحنا مثلاً أن نقرأ في كتب العلامة (درابر) مثلاً أن العلماء الإسلاميين كانوا متبعين في أبحاثهم الأسلوب العملي التجريبي ، وهو أسلوب الفلسفة العصرية ، حتى نبحت على سبب تولد هذا الأسلوب فيهم وكيفية منشئه ، مع علمنا بأنه أسلوب خشن

لا يحبه أصحاب الأديان ، ولا يرضاه الموابذة والكهان ، لما فيه من الأحكام
الصادرة على ثمرات الخيال ، وبنات الأفكار ، ونجته في استنباط ذلك من القرآن
الكريم والسنة النبوية .

لا مشاحة في أن أول حركة علمية تولدت في المسلمين هي نزول القرآن
وحفظهم بعض آياته . كما أن أول معلم فتح لهم باب التعلم هو رسول الله صلى الله
عليه وسلم . فسنجته إن شاء الله في درس تلك الأحوال في أدق مظاهرها ،
فربما استهان الإنسان بأمر صغير يجد فيه لو احتفل به سرأ كبيراً ، وعندنا أن
كل الفخامة العلمية والحركة العظمى التي ظهر بها العرب في عصرهم الزاهر ، هي
عائدة للنبي صلى الله عليه وسلم ، لا لكونه فقط أول من حثهم على التعلم وبعثهم
للرقي بما أودع فيهم من الحياة ، بل لكونه أول من رسم لهم الأسلوب الذي
يسرون عليه بسيره معهم في دروسه الأولية ، ولا يخفى أن صلاح التعلم وفساده
مبني على سلامة أسلوبه أو اعتلاله ، فمضى كان الأسلوب قوياً تيقظت ملكات
الطفل ، وحييت مواهبه ونهيات لتحصيل المعارف واختزانها ، وبالعكس فيما
لو كان الأسلوب معوجاً فإنه لا يوقظ من الطفل ملكة حتى يبيت فيه ملكات
ويقتل عواطف ويخدر إحساسات لا محل لأن نعطي عنها مثلاً في هذه المقدمة .

لهذا نرى أن تدقيق النظر في الأسلوب الحمدي المستمد من الدستور القرآني
في التعليم والتلقين ، أصبح في نظرنا من الأمور الكلية التي تحل لنا كثيراً من
أسرار رقي العرب ، هذا الرقي السريع في مدة لا تتجاوز الجيل الواحد ، مما لم
يشاهد مثله في تاريخ العالم للآن .

درس هذه الحركة القرآنية لا يقف بنا عند هذا الحد ، بل يتعدى إلى معرفة
كيفية تدارسهم للقرآن ، وكيفية تفهمه ، وسؤالهم عما علا عن فهمهم منه
وأسلوبهم في جمعه ، ثم يلي هذا المباحث المتسلسلة الكبرى في درس حركة العلوم
النحوية واللغوية والأدبية والعلمية على اختلاف أنواعها ، من طبيعية وفلكيات
ورياضيات . كل ذلك بالتفصيل الشافي وذلك بإمساك السلسلة من طرفها الأول

وتتبع حلقات رقي كل علم حلقة حلقة ، مع درس سير رجاله وحفاظه ، وما يروى عنهم من الفضل والمكانة في العلم ، مع ذكر تواريخ حياتهم بشيء من التفصيل والبسط . ولا نشك في أن هذا الموضوع على قدر ما فيه من الفائدة والجدة ، فيه أيضاً من اللذة العقلية والرياضة الفكرية ما يدركه كل إنسان بمجرد ذكره .

هذا البحث يحتاج لجملة مجلدات على حدتها ، وربما يستحسن أن نجعلها مستقلة عن (الإسلام في عصر العلم) ، ولكننا نرى أن كتابتها تبعاً في هذا الكتاب الجامع أولى لنا من جملة وجوه ، ثم إن لاح لنا لزوم طبعها على حدتها فعلنا ، والله ولي المؤمنين .

قبل الدخول في موضوعنا هذا ، يحسن بنا أن نورد أمام الكلام نبذة مما كتبه الأستاذ الأمريكي الشهير درابر في كتابه (التنازع بين العلم والدين) وفي إمكاننا أن ننقل كثيراً من أقاويل علماء أوربا في هذا الشأن ، ولكننا رأينا أن نكتفي بقول درابر إيداناً لمن يجهل فضل آباءه من المسلمين ، بأننا سنخوض به بجرأ خضماً بعيد الغور والساحل . قد شهد له الأجنيبي البعيد ، فكيف يحدد فضله الولي القريب .. قال :

« بعد انتقال محمد صلى الله عليه وسلم ، إلى الدار الباقية ، ترجمت إلى اللغة العربية أهم المؤلفات اليونانية ، وترجمت القصائد اليونانية الشهيرة (كالإلياذة ، والأوديسية) إلى اللغة السريانية ليطلع عليها العلماء دون العامة ، لما رأوه فيها من الأقاصيص الخرافية عن آلهة اليونانيين مما يخشى منه على عقائدهم . ولما ولي الخلافة أبو جعفر المنصور ، من سنة ٧٥٣ إلى ٧٧٥ ، نقل تحت الملك إلى بغداد وجعلها عاصمة فخيمة . فلم يألُ جهداً من بذل الوسع في درس العلوم الفلكية ، وتأسيس مدارس الطب والشرعة ، ولما جلس حفيده هرون الرشيد على عرش الملك سنة ٧٨٦ ، اتبع أثر جده في هذه الفتوحات العلمية . وأمر بإضافة مدرسة إلى كل مسجد في جميع أرجاء ملكه ، ولكن عصر العلم الزاهر في القارة

الآسيوية لم يشرق إلا في خلافة المأمون ، الذي تولى الخلافة من سنة ٨١٣ إلى ٨٣٢ ، فإنه جعل بغداد العاصمة العلمية العظمى ، وجمع كتباً لا تحصى ، وقرب إليه العلماء ، وبالع في الحفاوة بهم .

« هذا المركز الذي اكتسبه العرب ، وهذا الذوق السليم في العلم ، استمر لديهم حتى بعد أن انقسمت المملكة إلى ثلاثة أقسام : حتى أن العباسيين في آسيا والفاطميين في مصر والأمويين في أسبانيا ، لم يكونوا متناظرين متغايرين على الحكومة فقط ، بل كانوا كذلك على الآداب والعلوم أيضاً .

« ذاق العرب في الفنون الأدبية كل ما من شأنه أن يجد القرينة ويصقل الذهن ، وقد افتخروا فيما بعد بأنهم أنجبوا من الشعراء بقدر ما أنجبت الأمم كلها مجتمعة . أما في العلوم فقد كانت فوقانهم فيها ناشئاً من الأسلوب الذي توخوه في المباحث . وهو أسلوب أخذوه عن فلاسفة اليونان الاسكندرانيين ، لا عن اليونان الأوروبيين ، فانهم قد تحققوا أن الأسلوب العقلي النظري لا يؤدي إلى التقدم ، وأن الأمل في وجدان الحقيقة يجب أن يكون معقوداً بمشاهدة الحوادث ذاتها . ومن هنا كان شعارهم في أبحاثهم الأسلوب التجريبي والدستور العملي الحسي . وكانوا يعتبرون الهندسة والعلوم الرياضية أدوات ومعدات لعلم المنطق . وقد يلاحظ المطالع لكتبهم العديدة على الميكانيكا والإيدروستاتيك (علم موازنة السوائل وضغطها على جدران أو عيبتها) ، ونظريات الضوء والإبصار ، بأنهم قد اهتموا إلى حلول مسائلهم من طريق التجربة والنظر بواسطة الآلات . هذا هو الذي قاد العرب لأن يكونوا أول واضعين لعلم الكيمياء ، والمكتشفين لجملة آلات للتقطير والتصعيد والإسالة (إسالة الجوامد) والتصفية الخ ... وهذا بعينه أيضاً ، هو الذي جعلهم يستعملون في أبحاثهم الفلكية الآلات المدرجة والسطوح المعلقة والاسطرلابات (هي آلات لقياس أبعاد الكواكب) ، وهو أيضاً الذي بعثهم لاستخدام الميزان في العلوم الكيماوية ، وقد كانوا على ثقة تامة من نظريته ، وهو أيضاً الذي أرشدهم لعمل الجداول عن

الأوزان النوعية للأجسام ، والأزياج الفلكية (هي جداول تعرف منها حركات الكواكب) ، مثل التي كانت في بغداد ، وقرطبة وسمرقند ، وهو أيضاً الذي أوجب لهم هذا الترتيب الباهر في الهندسة ، وحساب المثلثات ، وهو أيضاً الذي هممهم لاكتشاف علم الجبر ، ودعاهم لاستعمال الأرقام الهندية . هذا هو ثمره تفضيلهم لأسلوب أرسطو الاستدلالي على مقالات أفلاطون الاستنتاجية .

« ولقد دأبوا على جمع الكتب بصفة منتظمة لأجل أن يتوصلوا إلى تكوين الكتيبات التي تكلمت عنها ، وقد قيل أن المأمون نقل إلى بغداد مائة حمل بعير من الكتب ، وقد كان أحد شروط معاهدة الصلح بينه وبين الإمبراطور ميشيل الثالث أن يعطيه إحدى مكاتب القسطنطينية التي كان فيها بين الذخائر العلمية الأخرى كتاب بطليموس على الرياضيات السأوية ، فأمر المأمون بترجمته للعربية وسماه المجسطي . وقد حصلت العناية بأمر هذه المكاتب حتى أن مكتبة القاهرة كان بها نحو من مائة ألف كتاب معتنى بكتابتها وتجليدها غاية الاعتناء . وكان يوجد من بين هذه الكتب ستة آلاف وخمسمائة مجلد في الطب والعلوم الفلكية فقط . وكان من نظام هذه المكتبة أنها تعير كتبها للطلبة الساكنين في القاهرة . وكان بتلك المكتبة كرتان أرضيتان إحداها من الفضة والأخرى من البرنز . قيل أن الأولى صنعها بطليموس الفلكي نفسه ، وأنها تكلفت ثلاثة آلاف كورون (نقود يونانية) من الذهب . وقد اشتملت مكتبة خلفاء الأندلس فيما بعد على ستمائة ألف مجلد ، وكان جدول أسمائها وحده محوياً في أربعة وأربعين جزءاً . . . وغير هذا ، فقد كان بالأندلس سبعون مكتبة عامة وكثير من المكاتب الخاصة . ومما يحكى أن أحد الدكاترة العرب رفض دعوة سلطان بخارى له ، محتجاً بأن كتبه لا يمكن نقلها إلا على أربعمائة بعير .

« ولقد كان يوجد في كل مكتبة كبرى محل خاص للنسخ والترجمة . وقد كان لبعض الخاصة مثل ذلك . فإن هونيان الطبيب النسطوري كان له محل من هذا

القبيل ببغداد سنة ٨٥٠ ترجم فيه كتباً لأرسطو وأفلاطون وهيبوكرات
وغاليان ألخ .. أما المؤلفات الحديثة ، فقد كان من عادة أساتذة هذه الجامعة
أن يؤلفوا كتباً في الفروع العلمية التي تطلب منهم . وكان لكل خليفة مؤرخ
خاص يكتب تاريخه . ومن ينظر إلى تلك الأقاوصيص والحكايات التي هي مثل
ألف ليلة وليلة ، يعرف مقدار التصور الشعري الذي كان لدى العرب . ولم
يقف بحث العرب عند حد فقد كتبوا في كل فن وفي كل علم ، كالتاريخ
والشريعة والسياسة والفلسفة ، وتراجم الرجال وتراجم الحيول والإبل ، وكل
هذه المؤلفات كانت تنشر بدون رقابة ولا حجب ، وما يعلم من المراقبة على
الكتب اللاهوتية فقد حدث فيما بعد هذا التاريخ . وقد كانت الكتب الزاخرة
بالمعلومات التي تصلح لأن تتخذ مادة في المعلومات كثيرة جداً في الجغرافية
والإحصاءات والطب والتاريخ وقواميس اللغة . وكان لديهم دائرة معارف
علمية ألفها محمد أبو عبد الله . وكان للعرب ذوق دقيق في صنع الورق النظيف
الناصع البياض ، وفي إعطاء الحبر الألوان المختلفة ، وفي زخرفة وجوه الكتب
بتشبيك تلك الألوان المختلفة من الحبر ، والإبداع في تنميقها وتذهيبها على
صفات شتى .

و كان الملك الإسلامي العربي مملوءاً بالمدارس والكلليات ، وكانت بلاد
المغول والتتار ومراكش والأندلس حاصلة على عدد عديد منها . وكان في طرف
من أطراف هذه المملكة الواسعة التي فاقت المملكة الرومانية بكثير مرصد
في سمرقند لرصد الكواكب ، وكان يقابله في الطرف الآخر مرصد جبرالده في
الأندلس . قال جيبون - عند ذكر الحماية والرعاية التي بذلها المسلمون للعلوم - :
(كان أمراء المسلمين في الأقاليم يناظرون الملوك في حماية العلم والعلماء ، وكان من
نتيجة تنشيطهم هذا للعلماء أن انتشر الذوق العلمي في المسافة الشاسعة التي بين
سمرقند وبخارى إلى فاس وقرطبة . ويروى عن وزير لأحد السلاطين أنه تبرع
بمائتي ألف دينار لتأسيس كلية علمية في بغداد . وأوقف عليها خمسة عشر

ألف دينار سنوياً . وكان عدد الطلبة فيها ستة آلاف لا فرق بين غني وفقير . فكان فيها ابن السيد العظيم وابن الصانع الفقير على السواء ، وكانوا يكتفون التلامذة الفقراء مؤنة دفع أجر التعليم ويعطون الأساتذة مرتباتهم بكرم وسماحة ، وكانت المؤلفات الجديدة الأدبية تنسخ وتجمع سداً لحاجة أهل العلم وشهوة الأغنياء في جمع الكتب) - انتهى كلام جبون - . ثم قال درابر : « وكانت قيادة المدارس مودعة لذوي المدارك الواسعة فكانت إما بيد النسطوريين أو اليهود ، لأن المسلمين لم يكونوا يتحرون عن جنسية العالم وديانته ، وما كانوا يزنون قدره إلا من أعماله . ولقد فاه الخليفة الكبير المأمون بفكره على حقيقة العلماء ، فقال : إن صفوة خليفة الله وأفضل عباده وأنفعهم هم الذين يقفون حياتهم على تربية مواهبهم الطبيعية ، وإن الذين يعملون العلم والحكمة للناس هم مصايح العالم ، ولولاهم لارتكس الخلق في عمالة الجهالة وغياب البربرية » . ثم قال درابر : « وقد اتبعت المدارس الطبية عموماً مثال مدرسة الطب في القاهرة في اختبار الطلبة قبل إخراجهم نهائياً ، بحيث لا يستطيع أحدهم أن يشتغل بمهنة التطبيب إلا بهذا الشرط .

« وأول مدرسة أنشئت من هذا القبيل في أوروبا هي المدرسة التي أسسها العرب في (سالرن) من إيطاليا ، وأول مرصد أقيم فيها هو ما أقامه المسلمون في إشبيلية بإسبانيا .

« ولو أردنا أن نستقصي كل نتائج هذه الحركة العلمية العظمى لخرجنا عن حدود هذا الكتاب ، فإنهم قد رقوا العلوم القديمة رقياً كبيراً جداً ، وأوجدوا علوماً أخرى لم تكن معروفة من قبلهم . »

ثم تكلم المؤلف على براعتهم في العلوم الرياضية ، وعلى التسهيلات التي أدخلوها عليها ، وعلى فوقانهم في حساب المثلثات والعلوم الفلكية ، وما ألفوه فيها من كتب وما سطروه من الجداول والتقويم ، ثم قال - : « العلماء الفلكيون من العرب اهتموا أيضاً بتحسين آلات الإرساد وتهذيبها ، وبحساب

الأزمنة بالساعات المختلفة الأشكال ، والساعات المائية ، والسطوح المدرجة الشمسية ، وهم أول من استعمل البندول (الرقاص) لهذا الغرض .

« أما في عالم العلوم التجريبية فقد اكتشفوا الكيمياء وبعضاً من محلاتها الشهيرة مثل حمض الكبريتيك وحمض النيتريك والكحول (الاسبرتو) . واستخدم العرب علم الكيمياء في الطب ، لأنهم أول من نشر علم تحضير العلاجات والاقرباذينات واستخراج الجواهر المعدنية . أما في علم الميكانيكا ، فإنهم عرفوا وحددوا قوانين سقوط الأجسام ، وعرفوا تقريباً ناموس الجذب في الأجسام ، وكانوا عارفين تمام المعرفة بعلم الحركة . أما في الأيدروستاتيك ، وهو علم موازنة السوائل وتقدير الضغط الواقع منها على أوانيها ، فقد كانوا أول من عمل الجداول المبينة لأنواع الأوزان النوعية ، وكتبوا أبحاثاً على الأجسام السابجة والغائصة تحت الماء . أما في نظريات الضوء والإبصار ، فقد غيروا الفرض اليوناني الذي مقتضاه أن الإبصار يحصل بوصول شعاع من البصر إلى الجسم المرئي . وقالوا بعكس ذلك ، أي أن الإبصار يحصل بوصول الشعاع من المرئي إلى العين ، وكانوا يعرفون نظريات انعكاسات الأشعة وانكساراتها ؛ وقد اكتشف الحسن الشكل المنحني الذي يأخذه الشعاع في سيره في الجو ، وأثبت بذلك أننا نرى القمر والشمس قبل أن يظهر حقيقة في الأفق ، وكذلك في الغروب نراها قليلاً بعد أن يغيبا .

« إن نتائج هذه الحركة العلمية تظهر جلياً بالتقدم الباهر الذي نالته الصنائع في عصرهم : فقد استفادت منها فنون الزراعة في أساليب الري والتسميد وعربية الحيوانات وسن النظمات الزراعية الحكيمة وإدخال زراعة الأرز والسكر والبن ، وقد انتشرت المعامل والصنائع لكل نوع من أنواع المنسوجات كالصوف والحرير والقطن ، وكانوا يذيبون المعادن وكانوا يحرقون في عملها على ما حسنوه وهذبوه من صنعها وسبكها .

« وكان العرب من عشاق الموسيقى والشعر وقد وهبوا وقتاً كبيراً وجهداً

مكانة من أفندتهم . وهم الذين علّموا الأوروبيين لعب الشطرنج ، وبشوا فيهم ذوق مطالعة الأقايص . وكان للعرب لذات روحية حتى في المجالات الزاهدة للأدبيات الفلسفية ، فكان لديهم مؤلفات عالية جداً في تقلب الأحوال الإنسانية ، وعلى نتائج عدم التدين ، وعلى زوال النعم ، وعلى أصل العالم وبقائه وآخرته ، وإنا نندهش أحياناً حيناً نرى في مؤلفاتهم من الآراء العلمية ما كنا نظنه من نتائج العلم في هذا العصر . من ذلك أن مذهب النشوء والانتقال للكائنات العضوية الذي يعتبر مذهباً حديثاً كان يدرس في مدارسهم ، وقد كانوا جروا به إلى مدى أبعد مما وصلنا إليه ، وذلك بتطبيقه على المواد الجامدة والمعدنية أيضاً . فإن النظرية التي انبنى عليها علم الكيمياء (كيمياء استخراج الذهب) هي زعمهم أن المعادن تكونت تكوناً تدريجياً . قال الخازني : إذا سمع الجهال قول العلماء بأن الذهب جسم تكون بالتدريج على طريق الترتي يفهمون من هذا بأنه استحالة أولاً إلى معادن أخرى بمعنى أنه كان في مبدئه رصاصاً ، ثم صار خارصيناً ، ثم صار برنزاً ، ثم صار فضة ، ثم استحالة إلى ذهب . ولم يعلموا أن الفلاسفة يقولون ما يقولون عن الذهب كما يقولون عن الإنسان . أي أنه ما صار إنساناً إلا من طريق الترتي التدريجي ، وهذا لا يستلزم أن يكون قد استحالة إلى استحالات نهائية كأن كان أولاً ثوراً ، ثم صار حميراً ، ثم صار قرداً ، ثم انتهى أخيراً بأن صار إنساناً .

هذه مقدمة نقدمها لحضرات قرائنا أمام الكلام على العلم عند العرب ، ولا قصد لنا من إيرادها منقولة عن عالم من علماء الغرب إلا دلالة القارئ على فضل المسلمين الأولين على العالم أجمع من جهة العلم والعرفان ، وقد اتضح له مما نقلناه أن المسلمين قد سبقوا الأوروبيين إلى كل مجال عقلي وباحة فلسفية ، وأنهم قد وضعوا علوماً جديدة لم تكن من قبل ، وقد نشروا الصنائع والفنون في جميع أرجاء العالم ، حتى كانوا أينما حلوا - كما يقول المؤرخ الفرنسي دروي - يحل العلم والتقدم والحياة ، وإذا كان الغربي الذي لا يهتد عن المسلمين شيء ، يقول فيهم

هذا القول ، ويؤدي لهم هذه الشهادة ، ويعترف لهم هذا الاعتراف ، فلا شك أن أقر العرب كان أكبر من هذا بكثير ، وأن الشرقي الذي أصبح يتهم آباءه ويظن أن الأوروبيين هم مفاتيح كنوز العلوم ، ومقاليد أسرار الفلسفة والحكمة ، وأنهم مكتشفوا المعارف الإنسانية كلها . وأصحاب الفضل الوحيد فيها ، وأن لا حياة إلا إذا استمدت منهم وجاءت من عندهم ، وهبت على الأرواح من جهتهم وبلغتهم و... يجب عليه أن يتشد ويحيد الروية ويرجع إلى صوابه ، ولا ييأس من أن تحل به روح خاصة غير مستمدة إلا من ينبوع كل حياة ، ومصدر كل حركة ، فيهب من نومه ويعيد عصور آباءه الأولين في أرقى مظاهرها ، وأشرف مجالها ، ويكتفي مؤونة الاحتكاك بالغير والتعلق إليهم . إن قيل كيف هذا ؟ تلونا عليه قوله تعالى : « يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده » .

بعد ما كتبنا هذا الفصل جاءتنا في بريد المساء (مجلة عرفات) الفرنسية التي يديجها يراع صديقنا المبجل محمود سالم بك ، فرأينا جملة جميلة مقتطفة من كتاب (تمدن العرب) للدكتور الشهير (جوستاف لوبون) . قال الدكتور الموما إليه :

« العرب مع ولوعهم بالأبحاث النظرية لم يهتموا بتطبيقها على الصنائع ، فقد أكسبت علومهم لصنائعهم جودة بعيدة جداً . وأننا وإن كنا لم نزل نجعل أكثر الطرائق التي سلكوها في ذلك ، إلا أننا نعرف نتائجها وآثارها . فنعرف مثلاً أنهم احتفروا المناجم واستخرجوا منها الكبريت والنحاس والزئبق والحديد والذهب . وأنهم قد برعوا جداً في صناعة الصباغة ، وأنهم مهروا في سقي الفولاذ مهارة بعيدة المدى ، حتى أن صفاح طليطة أصدق البراهين على ذلك . ونعرف أيضاً أنه كان لمنسوجاتهم وأسلحتهم ومدبوغاتهم من الجلود ولورقمهم شهرة عامة ، وأنهم في كثير من فنون الصنائع برعوا براعة لم يلحق لهم شأو فيها للآن . » (تأمل) .

« من بين المكتشفات المعزوة للعرب، أشياء ذات شأن كبير كالبارود مثلاً، وهذه المكتشفات لا يجعل بنا أن نسردها سرداً بل يجب علينا أن نهها شيئاً من التفصيل » ... إلى أن قال : « مما مريتجلى للقارىء أن ديوان المكتشفات العربية في العلوم الطبيعية لا تقل في الخطارة والقدر عما لهم منها في العلوم الرياضية والفلكية . وما نسرده عليك هنا يعرب لك عن تلك الخطارة، وذلك أنه كانت لهم معلومات عالية في الطبيعة النظرية خصوصاً في نظريات الضوء والإبصار، وقد حفظ عنهم اختراهم لأجهزة ميكانيكية من أدق ما يعرف من نوعها، واكتشافهم للجواهر التي تعد من أعظم أراكين علم الكيمياء مثل الكحول وحمض النيتريك وحمض الكبريتيك، وقد سجلت لهم أكبر العمليات الأساسية مثل التقطير مثلاً، وأثر عنهم استخدام الكيمياء لفن الصيدلة والصناعة وخصوصاً لاستخراج المعادن وصنع الفولاذ والصبغ الخ... وعرف عنهم عمل الورق من الخرق، ويرجح أنهم طبقوا البوصلة على فن الملاحة وأدخلوا هذا الاكتشاف الأساسي إلى أوروبا » .

* * *

الفصل الرابع

كلمة عمرانية

العوامل الاجتماعية في رقي الأمة اليابانية

- ١ -

تاريخ اليابانيين : إننا نراقب حركات الأمة اليابانية عن بعد، ونعجب مثل كل شرقي بما تظهره للعالم من مظاهر البراعة والحدق في علومها وصنائعها. ولكننا مع إعجابنا هذا ، لم نتخيل يوماً من الأيام أن في ظهور هذه الأمة الشرقية بهذا المظهر الفخم الزاهر ما يستوجب الدهشة والتعجب ، أو يستدعي نسبته إلى أسباب تعلو عن متناول العلم وتسمو عن مهاب الفكر ومسارح الروية مما يحسن إضافته إلى الأمور الخارقة للعادة . وإننا لم نكن ننتظر أن نكتب في تاريخ هذه الأمة على هذه الصورة لولا أن رأينا من بعض الكتّاب في الجرائد شيئاً من الغلو في تحليل رقي هذه الأمة ، وشممنامنهم الصعود في إطارها لحد تصوير أن ما قالت في مدى الأربعين سنة الأخيرة يعد من المعجزات المحيرة للمدارك وخوارق العادات التي تعلو عن عالم الأسباب الطبيعية ، ولم تسمح به الفواعل الاجتماعية العامة والخاصة لأمة من الأمم سواها في مدى تاريخ العالم الإنساني. لا نشك أن في مثل هذا الغلو في المسائل الاجتماعية الحيوية شيئاً من التأثير على قتل جرائم اليأس من النفوس المنحطة ، لأنه يفتح الأفئدة نوافذ إلى باحات الأمل والرجاء . ولكننا من جهة أخرى نعتقد أن في أمثال هذه الأغلاط العمرانية أضراراً بالغة جداً

تربو عما ينتج عنها من الفائدة الشعرية . ولو كانت تلك الأضرار تقف حيث تقف أضرار الأفاصيص لكننا أغضينا عنها وتسامحنا فيها كما يفضى عن غلواء الشعر وخیالات القصص . ولكننا نرى أن في توهم قيام الأمة اليابانية طفرة بدون أسباب طبيعية ولا عمرانية تولت أمر ذلك الرقي في خلال القرون ضرراً لا حد له في أحوالنا الأدبية والاجتماعية . لذلك رأينا أن نكتب في هذا الموضوع كلمة عمرانية نهديها للأمة بلسان المؤيد نرجو أن نقوم لها عقيدتها في أمر رقي الأمة اليابانية . وإني هنا أرجوها المندرة عما ستراه مني في هذه المعجالة ، بما لا يناسب تحمسها لهذه الآثار المدنية المدهشة ، فإن العلم يتأثر بالظواهر ولا يزدهي ما يزدهي الخيال من الصبغ الباهرة ، فهو لا يبحث إلا عن اللباب ، فإن وصل إليه ازداد سكوناً وتهيباً ، وربما ازداد ألماً وحرقة ، لما يرى أن في اللباب ألف مجهول تطلب بحثاً وتوجب عليه تعباً جديداً .

أنا لا أنكر أن أمة اليابان أصبحت في الصف الأول من الأمم المتقدمة ، وأنها برهنت للعالم كله على حصولها على مواهب وملكات سامية جداً هي أعظم ضمان لحياة الأمم وتمدنها . ولكنني أنكر كل الإنكار أن يكون ما تتمتع به تلك الأمة من مجالي المدينة الساحرة جاءها طفرة بدون فواعل طبيعية هيأتها لها وهيأتها له في قرون عديدة بواسطة الحوادث المهذبة والوقائع الممهدة . أعني أنني أنكر أن يكون هذا الرقي من اليابان جاء خارقاً لنواميس الكون فوق أسبابه المعقولة معجزة تخبر لها الأعناق أندهاشاً والنفوس حيرة واضطراباً . وإني شارح الآن في سرد تاريخ اليابان طبيعياً واجتماعياً في نبذة موجزة ، فليتبني القارئ بفكره ليرى بعينه من استشراف الأحوال الطبيعية والظروف الاجتماعية التي وجدت فيها الأمة اليابانية إنها لم تترق بدون تدريج ولا بجاذب غير معقول ، وإنما هي علل طبيعية متسلسلة أخذت بيدها من دور الى دور ومن حال إلى حال حتى أوصلتها لما هي فيه اليوم . لا أقول بطريق الإعجاز ، ولكن أقول بالعكس ، ببطء شديد جداً دعا علماء الإنسان لأن يهتموا الجنس الأصفر بعدم الاستعداد لبلوغ شأو الجنس الأبيض في شيء . أريد من بسط موجز التاريخ الطبيعي

والاجتماعي الياباني ، أن يتحول ذهن القارئ من الاندهاش بطفرة اليابان لقمة المدنية إلى الاندهاش والمعجب من إبطائها عن سبق الأوربيين إلى أرقى مظاهر التقدم الصناعي والأدبي بقرون عديدة ، لوجودها في شروط الحياة وأسباب التقدم منذ أكثر من ألفي سنة ، أي قبل أن يعرف الأوربيون معنى الحياة والحضارة .

جغرافية اليابان

الطبيعية والاقتصادية والصناعية والعلمية

المملكة اليابانية مكونة من ٣٨٥٠ جزيرة ، تختلف في الصغر والكبر ، يسكنها أكثر من ٤٠ مليوناً من النفوس . وهي في غاية الخصوبة ، تتخلل مجاريها الأنهار الجارية والعيون الفائرة والبحيرات البعيدة السواحل مما يجعل لبلاد اليابان أكبر قسط من جمال الطبيعة وبهائها . أضف إلى هذا أنها من أعدل البلاد هواء وأجودها مناخاً .

الحیوانات في البلاد كثيرة الأشكال جداً ، بحيث لا تلجئها الضرورة لجلب شيء من الخارج . وأما نباتاتها فأكثر أشكالاً وأبداع أنواعاً حتى أن أراضي اليابان في فصل الربيع لتلبس حلة زهرية لا يمكن تصورها إلا بمشاهدتها . وقد يعتني علماء أوربا يجلب بعض أنواع تلك الأزهار النادرة لفحص بدائعها في معاملهم .

أما من جهة المعادن فإن اليابان من أكبر البلدان سهماً فيها . إذ يوجد فيها مناجم حافلة جداً للذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص والكبريت والفحم الحجري ، وغير ذلك من المواد الأولية ذات الشأن الكبير في إقتان الصناعة . ولا عجب بعد هذا إن قلنا للقارئ أن بلاد اليابان أبرع البلاد في أنواع الصناعات منذ أكثر من عشرين قرناً . وليس فينا من يجهل الإبداع المدهش الذي يودعه اليابانيون في مصنوعاتهم الخزفية والحرفية والصوفية مما تغص

به أسواق العالم أجمع؛ بل الذي يذهب إلى بلاد اليابان ويشرف على الهياكل المشيدة منذ أكثر من خمسة عشر قرناً على أبداع الأشكال الهندسية ، مزخرفة بأهلى الألوان وأجل التصاوير ، يدرك من أول وهلة أن اليابانيين أنداد الصينيين في الصنائع ، بل يزيدون عنهم في الإتقان والذوق لحد لا يتصوره إلا من يراه بعينه ، ولقد برع اليابانيون في صناعة الزخرف وأنواع الزينة براعة لم تنلها أمة سواهم للآن . ولقد يروي عنهم الرحالات غرائب تشبه الأحلام من كل وجه .

أما من جهة العلم فهي عريقة فيه بعد الأمة الصينية ، ويحفظ لنا التاريخ العلمي من أسماء علمائها وفلاسفتها وأطبائها وشعرائها عدداً يليق أن تفخر به الأمة اليابانية على سائر الأمم القديمة . بل إن إلقاء نظرة بسيطة على الصناعة اليابانية يدل واضح الدلالة على درجة العلم فيها من قديم الزمان ، فإن الصنائع أكبر مظاهر العلم وأثر من أصدق آثاره .

الرجل الياباني

اليابانيون قصار الأجسام سمر الألوان ، يمتازون عن الصينيين بميل السمرة فيهم إلى اللون الزيتوني . وهم أقوياء الجسوم أذكى العقول مبالون للاجتماع والانضمام بطبعهم ، محبون للعمل والدأب ويؤثر عنهم نزوع إلى الخلاعة واللهو ، وشيء من عدم الاحتفاء بعقائدهم وإن كانت بلادهم ملأى بالهياكل والأنصاب ، ومن صفاتهم الغريزية حب الحركة ومجافاة الخمول والراحة وكراهة الحياة المنزلية كل الكراهة ، حتى أن الياباني لا يمكث في بيته إلا لضرورة قاسرة فإن لم تكن ألقى بنفسه إلى حيث يطيب له السمر أو العمل . ومن خلاهم الفطرية إباء الذل والضم ، فليس للحياة عندهم في سبيل الدفاع عن العرض والشرف قيمة .

تاريخ اليابان الاجتماعي

تاريخ اليابانيين قبل سبعة وعشرين قرناً مملوء بالخرافات والأضاليل ، ولم يدخل إلى نطاق التحقيق إلا منذ سنة ٦٦٠ ق . م . حيث تولى ملك البلاد

اليابانية بأمرها أمير إسمه (زينمو) كان حاكماً على جزء من جزيرة (كيوزيو) ، هذا الملك أول من اتخذ لقب (ميكادو) شعاراً له ومعناه (العادل) ، استمرت عائلته حاكمة على البلاد قروناً مستطيلة تجللتها اضطرابات لا حد لها ولا ضابط لتاريخها ، سببها انقسام البلاد إلى إمارات متعددة وراثية ، وغلبة حزب الأشراف عليها على حد ما حصل بأوروبا في القرون الوسطى ، ولا يخفى ما ينبغي على هذا الإنقسام من التزاحم ، ولم يكن الميكادو إلا كواحد من أولئك الأشراف المستقلين ، وإن كان له شيء من أبهة رسمية محضة وإسمية مجتة .

لما جاء القرن الثاني عشر قام أحد أولئك القادة وإسمه (يوريتومو) بتنظيم جيش ياباني عامل للقيام بالدفاع عن حياض البلاد وصد الأطماع عنها من الخارج ، وفي تلك المدة قصد فتح البلاد اليابانية ذلك الفاتح المغولي الشهير مدوخ بلاد الصين (كوبلاي خان) ، فقصد اليابان بأربعة آلاف سفينة تحمل ٢٤٠,٠٠٠ جندي ، فقام بزعامة الدفاع عن البلاد متولي الشؤون السياسية والحربية إذ ذاك ، فدحر المغوليين دحوراً وأقصاهم عن البلاد إلى حيث لا يعودون ، فاجتمعت القلوب على محبته وأطبقت على الغبطة به فحسده الميكادو والحاكم فتنازدا ، فتظاهر لكل منها حزب ، وتقاتلا طول حياتهما وورث عنها العداوة أخلافها إلى نحو مائتي سنة .

وفي سنة ١٥٤٢ يممها البورتغاليون فقوبلوا بالإكرام وأنزلوا على الرحب والسعة ، فزحفت على أثرهم جيوش الدعاة والمبعوثين ، فلقوا في مبدأ أمرهم عطفاً وهشاشة حتى أدخلوا إلى عقائدهم ألوفاً كثيرة من اليابانيين ، ولكن تيقظت في الأمة عوامل الأنفة فقاموا ضدهم بثورة فظيعة قتلوا فيها ألوفاً مؤلفة من الأبرياء ، وأحبطوا بذلك ما شاده أولئك الداعون إحباطاً نهائياً .

وفي سنة ١٦٠٩ جاءها الهولنديون للتجارة ، فأزولهم في جزيرة فرياندو ولم يقابلوهم إلا بالإحسان للملازمتهم لأداب الضيافة وحقوق الجوار . وفي سنة

١٨٥٨ سمح اليابانيون للفرنساويين والإنكليز والروس بسكنى بعض الموالي للتجار ، ولكنهم لم يلبثوا أن دب إلى نفوسهم دبيب الحقد على الأجانب ، فقاموا ضدهم بمذبحة هائلة أرعدت لها البلاد الأوروبية وأبرقت ، فجاءها الإنكليز بأسطولهم واصطلحوا مع حكومة اليابان على أداء التعويضات لأهالي المقتولين وأبرموا معهم معاهدة لا يدل ظاهرها على باطنها . وفي سنة ١٨٦٣ تولى دست الحكومة السياسية والحربية رجل خازم بصير بأعقاب الأمور ، فرجا الميكادو أن يجمع جمعية عامة من سادات البلاد وعظماؤها للاتحاد على وضع قاعدة ثابتة يقوم عليها أمر حكومة البلاد قطعاً لألسنة المشاغب والفتن ، وكبحاً لجراح أولئك القادة زعماء البلاد . ففعل ما أشار به عليه وجمع أولئك الأعيان ، ففهموا ما يراد بهم ، فأجبروا الإمبراطور على الانضمام إلى حزبهم ، وأعلنوا حزب الإصلاح الذي يرأسه ذلك الرجل الخازم بالعداء ، وأصلوها حرباً دموية تأييداً لمراكزهم وتثبيتاً لنفوذهم . ولم يشعروا أنهم يسعون إلى حتفهم بظلفهم ، فإن هذه الحركة أيقظت عواطف الحمية والأنفة في الأمة ، فقامت ضد زعمائها بحركة عدائية هائلة صادرتهم بها في أملاكهم ومحقت آثارهم وتخلصت من سلطتهم ، وبذلك أصبح الميكادو خالصاً من شرهم آمناً من ثقل سيطرتهم . ولكن زعماء هذه الثورة الأهلية لم يدعوا الميكادو يتمتع بالنفوذ المطلق على الطريقة الاستبدادية ، بل أجبروه على قبول تشكيل مجلس نواب يتولى أمر حكومة البلاد على الصفة التي يتولاها كل مجلس من هذا القبيل في الأمم المتقدمة . وتم ذلك في سنة ١٨٧١ .

هذه صورة مصغرة جداً من التاريخ الاجتماعي للأمة اليابانية ، سردناه للقارئ سرداً واتبعنا الحوادث فيه بالحوادث اتباعاً سريعاً متسلسلاً ، ليرى بعينه سير نوااميس الترقى كيف بعثت الأمة اليابانية من دور إلى دور وأفاعيل الحوادث كيف مهدت أمامها السبل ، وذلك دونها الصعاب تذليلاً طبيعياً معقولاً ، كما حصل نظيره في كل أمة من الأمم الأوروبية . ولكن مع هذا الفارق

الهائل وهو أن تلك الوقائع الممهدة للرقى أنتجت في الأمم الأوروبية نتائجها بسرعة وانتظام بخلافها في الأمة اليابانية فقد كانت أدوارها بطيئة جداً حتى أن المقدمة التي كانت تضعها الحوادث في قرن من القرون لا تنتج نتيجتها إلا بعد ثلاثة أو أربعة قرون، ولهذا البطء في السير أسباب اجتماعية ليس هنا محل بسطها.

* * *

نظرة على ما سبق

إذا تدبر القارئ فيما كتبناه في مقالتنا السابقة عن موجز جغرافية اليابان الطبيعية والاقتصادية والعلمية والصناعية وعن ملخص تاريخ حياتها السياسية ، يتحقق أن الأمة اليابانية كانت حاصلة منذ ألفين وخمسمائة سنة على سائر الشروط الحيوية الموصلة للمدنية بأخص معانيها ، والمؤدية إلى الحضارة الكاملة تأدية طبيعية معلومة المقدمات والنتائج ، بل نشعر بأن قارئنا يعجب كيف أن هذه الأمة وجارتها الضخمة الأمة الصينية ، الحاصلتين على هذه الوسائل الحيوية والموجودتين بين هذه العوامل العمرانية ، لم تصلا من المدنية إلى مدى أبعد مما وصلت إليه الأمم الأوروبية ، ولم تسبقانها إلى أقصى غايات الإبداعات الصورية بقرون عديدة فتكونا اليوم أستاذتين لجميع طوائف الجنس الأبيض المعجب بذاته الفخور بأصالته .

لا جرم أن هذا البطء في سير تلك الأمم وتلكوها في تدرجها هو الذي حدا بعلماء الإنسان لأن يقرروا حكمهم الصارم بأن الجنس الأصفر أدنى من الجنس الأبيض رتبة ، وأنه ليس مستأهلاً لأن يلحق شأواً مناظره في شيء ، وأن النفوذ والسيطرة ستكونان للثاني على الأول في سائر الأدوار المستقبلية . قلنا أن من يتمعن في الأحوال الطبيعية الموجودة فيها الأمة اليابانية لا يندهش

من تمدنها وتحضرها ، بل يندهش بالعكس من تأخرها في المدنية عن الأوروبيين والتجائها إلى تقليدهم واحتذاء مثاهم ، مع أن العوامل العمرانية التي توفرت لها لم تتوفر جميعها لأي أمة من أمم الغرب المتعدنة .

تأمل معي في خطارة هذه العوامل ، ثم قل لي بعد ذلك أي مانع يمنع مثل هذه الأمة من أن تنال من الرقي الأدبي والمادي القسط الأكبر والنصيب الأعظم ، بل أي مانع يمنعها من أن تكون في مقدمة سائر أمم الأرض حضارة وصناعة .؟

أمة تعد بعشرات الملايين ، أقوياء الأجسام والأحلام ، في بقعة من الأرض كثيرة الخصب والريف ، غزيرة الأنهار والجداول ، ثروة العيون والبحيرات ، صالحة لأن تنبت كل أنواع النباتات وتقيت كل صنوف الحيوانات ، معتدلة الهواء جيدة المناخ ، كثيرة المعادن والمواد الأولية الباعثة لأرقى الصناعات اليدوية والآلات الميكانيكية ، يكتنفها البحر الخضم من جميع جهاتها ، بينها وبين أكبر أمم الأرض وأقدمها مدنية وهي الأمة الصينية أواصر من القرابة ووشائج من الصلات السياسية جرت كثيراً من الأحيان إلى حروب دموية بقصد استعمار بعض البلاد الساحلية لترويج تجارتها الوطنية . أمة توجد في مثل هذه الشروط الطبيعية والاجتماعية ، كيف لا تزهر فيها المدنية ، ولا تشرق عليها شمس الحضارة من أزمنة قديمة ؟ .

الإنسان مسوق بطبعه إلى الترقى سوقاً طبيعياً ، فهو الكائن الراقى الوحيد على سطح الأرض ، وهو لا يتأخر عن متابعة سبيله إلا لحوائل طبيعية ، أو حواجز أدبية قهرية ، أما الحوائل الطبيعية فهي أن لا يجد ما يساعده على الترقى ، كأن يوجد في أرض جدداء تجبره على استيعاب كل قواه في طلب قوته الوقتي ، والرحلة من محلة إلى محلة للتجسس منه . أو لا تكون أرضه خصبة ، ولا حاصلة على المسواد الأولية الضرورية للصناعة ، كالحديد والنحاس وغيرهما . وأما الحواجز الأدبية القهرية ، فكأن يكون تحت سيطرة حكومة باغية جائرة ، أو مضبوطاً عليه من طائفة جاهلة بسلطة عقائد باطلة

وضع هذا كله ترى بواعث المدنية المتسلطة على عواطفه القلبية لا تزال تعمل في فؤاده وتغلي مراحلها في صدره حتى تلجئه إلى كسر جميع السداد التي أمامه . واقتحام كل تلك العقبات التي بين يديه . فإن كان تأخره لنقص شيء من مقومات المدنية في بلاده ، ألقى بنفسه إلى خارج أرضه وسعى في الحصول على تلك المقومات بطريق المعاوضة والمبادلة ، بأن يعطي ما يفضل عنه من مزايا بلاده ، ويأخذ بدله ما لا بد له منه في تقويم أمر حياته ، فلا تلبث أن تراه متلألئاً في أنوار المدينة ، صاحباً ذبول الحضارة في أبهى مظاهرها .

وأما إن كانت تلك الحواجز أنظمة أو عقائد ضالة فقد شوهده في تاريخه أنه ينوء تحت كلاهما حيناً ، ثم يثور ضدها ويكسر كل ما يقوم أمامه من جهتها ويطنى عليها على قدر ما رضح لها ، ثم يسلك من طرق الحياة ما ينطبق على استعداده ويلائم آمياله طبيعته . ومن يتدبر في أحوال مدنات الأمم القديمة والحديثة يعلم تفصيل ما أجملناه في هذه الكلمات .

إذا تقرر هذا ، فالإنسان لا يصدده عن المدنية شيء إلا أن يكون في بقعة محرومة من كل مزية طبيعية ، وليس فيها ما يصلح للمعارضة أو يكفي لتكاليف المبادلة . أو يكون قاصر المواهب الطبيعية ناقص القوى الأدبية ، فيظل كما وجد ألوفاً من السنين حتى يفنى ، أو يأتيه داع للحياة غير منتظر ، أو يبقى في تلك الحالة بقاء غير محدود .

أما الأمة اليابانية ، فلم تكن محرومة قط من شيء من هذه المزايا من أية جهة من الجهات ، بل كانت من سائرها في محبوبحة لم توجد فيها أكثر أمم الأرض . فأني عجب في أنها ترتقي وتدهش العالم بمدنيتها . لا عجب في ذلك أبداً وقد ارتقت من منذ ألفي سنة رقياً طبيعياً تدريجياً ، ولكنها وقفت في دائرة جازها الأوروبيون وسبقوها فيها بعد أن كانوا دونها بمراحل ، بل إن اليابانيين أيام كانوا يدحرون جيش كوبلاي خان فاتح الصين ، الذي دامهم بأربعة آلاف سفينة تحمل ربع مليون من الضراغم ، كان الروسيون حاملين نير حكومة

كبتشاه المغولية محرومين من نعمة الحياة الاستقلالية . بل إن المهسد الذي كان فيه الأوروبيون لا يعرفون معنى المدنية ، كان لدى اليابانيين فلاسفة يضعون أصول الشرائع ويبحثون في أسرار العلوم والصنائع ، فهل من العجيب بعد هذا أن تساوي اليابان في تمدنها أمة أوربية ؟ أم العجيب أن لا تكون أرقى من أرقى أمة أوربية ، وأستاذة كل من يشرب للحياة المدنية ؟

إن كان لا بد لنا من أن نندهش ونتعجب من معجزة اجتماعية تحصل بغير الفواعل الطبيعية ، فهامي الأمة العربية نهضت في القرن السابع نهضة فجائية بغير أسباب عمرانية وجودية ، بل بالروح الإلهية التي جاءها بها النبي ﷺ ، وماذا عساك أن تجد من الفواعل الاجتماعية في أمة جاهلية بدوية ظلت آلافاً من السنين محافظة على بدائنها وجاهليتها في بقعة من أجذب البقاع تربة وأشحها نباتاً وأزرها ماء . لا أنهار تتخلل صحاريها الرملية ، ولا عيون تعوض لها بعض ما حرمتها من تلك المزية ، ولا معادن تسد باستخراجها خلة فاقتها ، وتجبر بالمعاوضة بها مفاقرها . ولا أهمية جغرافية تقبل بأعناق الفاتحين إليها ، وتحنو بعواطف عشاق الملك عليها ، حتى كانت تستفيد من تلك المجاورة والمزاحمة ما تقوم به أمرها ، أو تصلح به من شأنها . لا جرم دامت هذه الأمة آلافاً من السنين على هذه الحالة الجاهلية البدوية ، قد استوعب عواطفها وملكاتنا الفطرية آلام تنازع البقاء والبحث عن الغذاء ، فلم تفرغ طرفة عين للفكر في ذاتها والبحث عن شؤونها . وقد استغرقت حاجاتها الضرورية سائر أوقاتها ، فلم تجد فرصة ترجع فيها إلى نفسها ، وتأمل في مصير أمرها . وناهيك بأمة لبثت ألوفاً من السنين عائشة على هيئة قبائل متنافرة ، وفصائل متفايرة ، لم تصعد بها عوامل الرقي لم شعنها ، وجمع كلمتها ، وكيف يفكر في الحياة الاجتماعية من لم يأمن على نفسه وولده غائلة الهلاك جوعاً طرفة عين ؟ أو كيف تبحث عن مستقبلها السياسي أمة لا تدري إن أبطأ عنها الغيث سنة كيف تعمل ، وإلى أي البقاع ترحل ؟ لا جرم بقيت هذه الأمة ملازمة لأبسط أحوال البداوة

ترغى الإبل وتروء مسارح العشب والكلأ ، ومن كان منهم في معزل عن أنياب الفاقة لا متلاكه عدد محدوداً من الإبل ، كان يذهب إلى الشام ببعض صنوف التجارة التافهة ويعود بشيء لا يعطيه من رونق المدنية وبهاء الحضارة قدر ما لأفقر رجل من الأمم المتقدمة في ذلك العهد .

أنظر إلى هذه الأمة في هذه الحال المؤيسة في فقرها وجاهليتها ، وبعدها عن حركة العلوم والمعارف ، ونأيها عن ساحات المنازعات والمزاحمات السياسية ، وانقسامها ، وتشقتها ، وعدم حصول أرضها على أي شرط من شروط تحسين المعيشة ، الباعث إلى نوع من أنواع المدينيات . ثم انظرها وهي ناهضة تلك النهضة الفجائية في أقل من ربع قرن ، تحمل للعالمين صولاً للحياة جديدة ، ونواميس للسعادة سديدة . ومن أعجب العجب أن هذه الأمة لم تقم بتقليد أمة من أمم المسكونة ، أو باحتذاء أمثال مدنية من المدينيات الحية ، كما فعلت أمة اليابان ، ولكن قامت بذاتها مستقلة عن جاراتها ، لم تستعز حياتها من أحد ، ولم تتحرك بحركة أمة من الأمم . ومما يزيد على هذا في العجب ويحير الفكر ويوجب غاية الدهشة ، أنها لم تقم قومتها تلك مطالبة بمجرد حق الحياة بين الأمم قانعة بمزية الانحشار في زمرتها ، مكتفية بشرف القيام في صفها ، كما هي حال الأمة اليابانية اليوم مع الأمم الأوروبية . بل قامت مطالبة بحق السيطرة على جميع الشعوب الحية ، رامية إلى غرض التربع في دست الزعامة العامة على سائرها . معطية نفسها حق تهذيبها وتقويمها ، نائطة بذاتها وظيفه تأديبها وتعديلها . ثم لم يكن هذا مجرد جمعة أو محض ثروة ، بل لم تجل في الأرض جولة سريعة حتى دان لها الكل ، وأذعن لإشاراتها الجميع ، وأصبح الكافة معجبين متعجبين من أن يظهر أهل البادية بهذا المظهر الفخم والملك العظيم .

وأي عجب أكبر من هذا : أمة لا عهد لها باجتماع ولا ملك ولا نظام ولا تهذيب ولا تعليم ولا مدنية من أي نوع كانت ، ولا ولا بما يعرف من مزايا الأمم المتحضرة ، بل بالعكس ، في جاهلية جهلاء وغيبة عمياء تقوم فجأة فتبرهن

للعالمين أجمعين بأنها أحق الأمم بالسيادة وأجدرها بالسياسة وأولاهما بتهذيب
الطاغين وتأديب العاتين وكبح الظالمين وتعليم الجاهلين وتعديل المعوجين . أليس
هذا أولى بالعجب وأجدر بأن يكتب بنور العيون لا الذهب .

اللهم صل على مشرق هذه الروح العالية ، ومطلع هذه النفحة السامية
وسلم عليه وعلى آله وصحابه وتابعي طريقته . آمين .

* * *

الأمة اليابانية

- ٢ -

ما كان لنا أن نذكر الأمة اليابانية في مباحثنا، ولأن نهب البحث في شؤونها
ساعة من زماننا لولا أن بعضاً من كتابنا غلوا في إطرائها وتقريرها، وأغرقوا في
التنويه بها وبمدنيتها، حتى وصل بهم الأمر لأن يدعوا أنها خرجت من العدم إلى
الوجود في أقل من نصف قرن، وهي فرية علمية لا تنطبق على الحقائق التاريخية
ولا على المقررات الاجتماعية . وهي بهذه الصبغة المجردة لا تغتفر لقائلها مهما كان
قصده حسناً، فما بالك وهي فرية مضرة بمحالتنا الاجتماعية والدينية ضرراً لا حد
له كما نوهنا بذلك في مقالاتنا السابقة ؟

أما ضررها بمحالتنا الاجتماعية فلأن أولئك الكتاب يقررون أن تلك الأمة
كانت عدماً محضاً، ثم لما فتحت أبوابها للمدنية الأوروبية والعلوم العصرية هبطت
عليها روح عالية فأخرجتها من حيز الرمم إلى مصاف الأمم، فنهضت في أقل من
نصف قرن بفضل تلك الروح الأوروبية والمدنية الغربية، إلى أن استعدت لمقارعة
دولة من الدول الأوروبية وقهرها . هذا ما يقرره أكثر كتابنا، ولا يدرون كنه
ما فيه من السموم الناقعة ، فإن تصور المصري وهو في هذا الدور الحرج ، فور

الاقتناث بسحر التمدن الغربي ، بأن محض تقليد الأوروبيين في مظاهر مدنيتهم يرفع من شأن الأمم لهذه الدرجة التي تشاهد عليها الأمة اليابانية ، يحدث فيها أموراً جساماً ، ويكون في أحشائها جرائم مزرية ، أكثرها يميت لمواطنيها الذاتية محتاج لعناصرها الحيوية ، لأنها بذلك تلقي بنفسها بين يدي مظاهر المدنية الساحرة بدون حساب ولا روية ، وتتوهم بأن التقليد على إطلاقه سبب حياة الأمة وسر تقدمها ، فتتهمك بصورة علنية في التقليد الشائن الذي هو عرض من أعراض مرضها الاجتماعي الشديد الوطأة ، ثم لما تأنس من نفسها الضعف والاخلال كلما تبادت في التقليد والمحاكاة ظننت بنفسها الظنون ، ووقر في قلبها أنها أمة مينة لا محالة ، ولولا ذلك لأفادها العلاج الذي أفاد غيرها ، ومتى سكن ميكروب اليأس في فؤاد أمة تناسل وتكاثر ، وأنتج من صنوف الأمراض الاجتماعية والأدبية ما لو نزل بعضه بأمة لنكت قتل إلفتها ونقض حبل رابطتها ونخر عظام تماسكها وجعلها أثراً بعد عين . والله يشهد أن الأمة اليابانية أمة حية من منذ ٢٥٠٠ سنة ، أديتها حياتها لأن تختلط بالأمم الغربية بدون أن تفقد شخصيتها واستقلالها ، وناهيك بهذا دليلاً محسوساً على سابق حياتها . ثم لما شارفت العلوم الجديدة والمكتشفات الصناعية الحديثة التهمتها بهمة الأحياء وغيره الأقوياء ، فبرعت فيها وكادت تفوق الأوروبيين ، وستفوقهم لا محالة إن شاء الله . هذا هو الحق الصراح ، ولكن بعض كتابنا أبوا إلا أن يتحمسوا لهذه الأمة بدون حق ، ولقد غالوا حتى جعلوها أعجوبة العالم مما لو رآه الياباني نفسه لأنكره وضحك منه وعده شيئاً فرياً ، كما غالوا قبل سنين بإطراء البوير والتمدح بشجاعتهم حتى زعموا أنهم أشجع أمة ظهرت في الوجود من لدن آدم عليه السلام لليوم ، مع أنهم لم يقفوا للعالم موقفاً كموقف بدر وحنين والبرموك والقادسية وغيرها مما يتلأأ بذكره التاريخ العام وصار آية باهرة للأنام .

هذا هو الضرر الاجتماعي ، أما الضرر الديني فهو أن هؤلاء الكتاب بزعمهم أن الأمة اليابانية حييت هذه الحياة المدهشة في أقل من نصف قرن ، قللوا من أهمية معجزات الأنبياء ، وخصوصاً معجزة إمامهم سيدنا محمد ﷺ ، فإن المسلم

متى تخيل أن الميكادو وبعض الزعماء رقوا الأمة اليابانية بعد أن أحيوها في أقل من نصف قرن فلا يجد فرقاً كبيراً بين هذه الحادثة وحادثة إحياء رسول الله ﷺ للأمة العربية في ثلاث وعشرين سنة ، فيخرج الإيمان من صدره رغم أنفه لما يراه من التشابه بين الحادثتين والتشاكل بين النتيجة ، فيستعد فؤاده بذلك لقبول كل الأفكار الإلحادية بدون نقد ولا روية . والله يشهد أن هذه جريمة لم يقصدها كاتبوها ، ولكنهم مدينون على كل حال كما يدان كل إنسان يتكلم في الشؤون الاجتماعية والأمور الحيوية ، ويعطي نفسه وظيفة الإرشاد والتقويم قبل أن يتخذ العدة الكافية التي تقيه شر السقوط بالأمة في أمثال هذه المخاطر الاجتماعية والأدبية ، فهو كالرجل الذي لم يتقن صناعة الطب وإنما حفظ شيئاً من اصطلاحاتها وبعضاً من تراكيب علاجاتها ، فهو يعالج كل مرض يعرض له ، ويقيس النظير على نظيره ، ولا يدري أنه قد يتشابه الأمران في ظواهرهما ويتخالفان كل التخالف في طبيعتهما وعلاجيهما ، حتى أنه لو عولج أحدهما بما يعالج به الآخر لاستشرى أمره وتفاقم خطبه وصار داء مميتاً لا محالة بعد أن كان قد يرجى علاجه .

هؤلاء الكتّاب كتبوا في هذا الموضوع كثيراً ولا يزالون يكتبون ، ولا ندري إلى أين ينتهون بالأمة ، كما لا ندري إلى أي درجة تروج مغالاتهم بعد أن كتبنا في (المؤيد) كلمتنا تلك ، التي نقلناها في مباحثنا في فصل تقدم ، ونحن بالعود إلى الكتابة في هذا الموضوع نرجو بأن يؤوبوا إلى الاعتدال في مقالاتهم ، وأن يتحروا المسائل الاجتماعية ويستنتجوا نتائج كل ما سيكتبونه قبل أن يخطوا حرفاً واحداً فيه ، فإن وظيفة إرشاد الأمة وظيفه عظمى ، يتهيبها العالم ولا يكاد يتولاها إلا مرتعد الفرائص ، مرتعش اليد واللسان ، لتحققه من خطرهما . فكيف لا يكون غير العالم أولى بذلك التهيّب وأجدر بأكثر من هذا التخوف ، ولكن هو الشعور وعدم الشعور ، فمن شعر بخطر المركز وخرج الموقف تأدب وتهيب ، ومن لم يشعر بشيء من ذلك أقدم غير هياب ولا متلكيء . وما يزيد الأمر استمضاء وبكسب هؤلاء المتهجمين على ما لم يحسنوا إقداماً وتهجماً هو أن

الأمة ضعيفة النقد ، خصوصاً فيما يختص بالمسائل العلمية لقلة المشتغلين بها في بلادنا ولاحتقار من يشتغل بها بأمثال أولئك المتهمجين احتقاراً لا يجاوز أفئدتهم ، ولكن لو كان في الأمة روح انتقادية شديدة تطالب كل قائل بإقامة الدليل على ما يكتب ونصب الحجة على ما يقول ، لقلّ خطر أولئك المعطين أنفسهم رئاسة الأمة الفكرية بغير حق .

هذا ما حدا بنا لكتابة ما كتبناه عن الأمة اليابانية ، ويحدو بنا لموالة الكتابة في هذا الموضوع ، لنستطيع بحول الله أن نلاشي الخطر الذي تنتجه تلك المقالات الغلوائية على أحوالنا الاجتماعية والأدبية . ونبدأ اليوم بترجمة مقالة كتبها الأستاذ الفسيولوجي الشهير (شارل ريشيه) في (المجلة) الفرنسية ، ثم نتبع مقالته بما كتبه الفيلسوف (جان فينو) مدير المجلة المذكورة رداً عليه ، ليقف المسلمون من خلال المحاورة بين قائدين عظيمين من قادة النهضة الأوروبية على حكم العلم وحكم الفلسفة على الشرق والشرقيين ، لا سيما وأن هذه المقالات تجمع إلى الحقيقة العلمية اللذة العقلية ، مما يحسن بنا أن نجعل لها محلاً من مباحثنا ، والله الموفق وهو حسبنا ونعم الوكيل .

قال الأستاذ شارل ريشيه ، (المجلة - مجلد ٤٩) :

حضرة المدير المحبوب

« إسمح لي أن أستلفت نظر حضرات قرائك إلى نقطة يلوح لي أنها جديرة بالبحث الدقيق ولو أنها مهمة كل الإهمال ، ألا وهي مسألة الحرب بين الروسية واليابان . ولست في حاجة لأن أقول أن هذه الحرب في نظري فاضحة ككل حرب تقدمتها ، لأنها حلقة من حلقات سلسلة الفظائع الانسانية المستمرة ، وأظن أن كل إنسان متمدن يشعر بشيء من الحجل حيناً يرى أن الوحشية والبربرية لم تزل موجودة قوية في العالم ، رغماً عن مساعي العقول السامية الكاملة في محوها .

لا شك عندنا في هذه النقطة فخلّنا منها ..

أما طلب بعض الناس لتدخل فرنسا في حسم هذه المحنة، فضلال لا يستحق أن ندحضه فخلنا منه أيضاً .

ولكن مما يصعب تفسيره أنه يوجد شيء من التردد في الإحساسات العامة من جراء حدوث هذه الحرب .

نعم ، إن هذه الحرب هي أول حرب فعلية حدثت بين عنصر وعنصر آخر ، وقد تقدمتها حروب أخرى بين البيض والسود وبين البيض والصفرة ولكنها لم تكن حروباً في الحقيقة ، فإن مقارعة السود أو الحمر أو الصينيين للبيض لم تكن صورة حرب ، فإنها فارت ثم هدأت بسرعة وبصفة حاسمة . أما هذه الحرب الحاضرة فعلى الضد من ذلك ، فإن الأسلحة فيها متساوية أو تكاد تكون كذلك فهي فيما أعلم أول حرب عنصرية معززة هبت في تاريخ العالم .

متى كانت أمتان أوروبيتان مشتبكتين في حرب فتلك حرب أهلية حقيقية ، لأن كل الأمم الأوروبية مرتبطة ببعضها بروابط القرابة . فإن سكان الممالك المتحدة بأمريكا هم خليط من كل الأمم الأوروبية ، والإيطاليون وسكان جنوب فرنسا هم من القرابة القريبة بحيث يستحيل عليك أن تميز بعضهم عن البعض الآخر ، وإن الإنجليز والالمان والبلجيكيين والفلانك قد اختلطوا بعائلتنا بروابط أكيدة ، بحيث أنه لو صح أن يقال أن هناك أمة فرنساوية وأمة إنجليزية وأمة إيطالية فلا يمكن أن يقال جنس فرنساوي وجنس إيطالي وجنس إنجليزي . هذا من الحقائق الواضحة التي لا يمكن المراء فيها . من هنا صارت كل حرب بين الأوروبيين فيما بينهم مستفظة غير شرعية مثل كل حرب تقع بين الإخوان .

أما الاختلافات الحاصلة بين هذه الأمم في أشكال حكوماتها ولغاتها وطبائعها ودياناتها ، فليست إلا اختلافات سطحية شأنها شأن التخوم والحدود التي يقيمها محصلو الجمارك . أما الذات الإنسانية بالنسبة لكل الأوروبيين فهي واحدة لا تتغير . إن أردت الدليل فرب شاباً فرنسياً في روما وآخر في أدمبورج ، يصعب عليك

بعد أن يشبا أن تميز الأول من الإيطاليين الذين عاش بينهم ، وأن تميز الثاني من الأيكوسيين الذين أخذ أخذهم في اللغة والعوائد .

ولكن هذا ما لا يشاهد له أثر إذا قارنت بين رجال الأوربيين ورجال من الجنس الأصفر ، ويكون الخلاف أشد لو كانت المقارنة بينهم وبين رجال من الجنس الأسود . فإذا رببت طفلاً يابانياً في روما أو لندرة أو مدريد أو برلين ، فلا تراه إلا يابانياً دائماً متميزاً عن كل أفراد الجنس الأبيض الذين عاش بينهم ، ولم يختلط بهم . وإذا غفرت لي هذا التشبيه الهزلي ، قلت إن ذلك الياباني يمكن تمييزه بين الأوربيين كما يمكن تمييز الكلب الصغير ذي الشعر المجعد عن الكلب الإسباني الكبير ذي الوبر الطويل ، فالغلط في تمييز الياباني عن البيض غير ممكن بوجه من الوجوه . لأن الخلافات بين الجنسين ليست غاشة سطحية تصورية تجلبها العادة واللغة والتربية ، بل هي اختلافات حقيقية متأصلة لا شيء يقلل من ظهورها أو يحو أثرها . فإن الجمجمة اليابانية يعرفها رائبها عن بعد ، بينما لا أظن أن أكبر عالم بالإنسان يستطيع أن يميز بين جمجمة أحد سكان أتيننا وكومبانهاج أو نيويورك .

وبناء عليه ، فيوجد بين الجنس الأبيض والجنس الأصفر خلاف ظاهر . وهذه دعواي الثانية التي لا تفترق في الجلاء والظهور عن سابقتها .

وبما أنه وجد الخلاف فلا بد من أحد أمرين : فإما هنالك تساوي في الإدراك أو فوقات أمة على أمة فيه . وهذه قضية لا أتصور أحداً يتردد فيها ، وهي أن الجنس الأبيض هو الأعلا مكانة والأسمى منزلة ، وهذا أمر واضح لا يحتاج لدليل ، فإن قيل لي أن دعواك سمو الجنس الأبيض على غيره تجرئة على استحلال الخديعة والكذب والسلب والقسوة والوحشية ، قلت إنني ما أبحت له ذلك ولا استحسن وقوعه منه ، ولا غرض لي من قولي هذا إلا إثبات سموه على الجنس الأصفر ، وسأحاول أن أثبت ذلك له الآن بالبرهان .

لأبدأ موضوعي بإبداء دليل يس مصلحة مناظري الذاتية فأقول : إنني أظن

أنه لو كلف أحد المعجبين باليابانيين بالتزوج بامرأة يابانية زواجاً شرعياً، لقطب وجهه وأبدى من ذلك أنفة واشمئزازاً. ولا يرتاح أبداً أولئك اللوردات الإنجليز المتشيعين لسياسة المعاهدة اليابانية لورأوا يوماً من الأيام أن بناتهم يملن إلى أولئك الأعيان اليابانيين ، القصار المضحكين الماشين مشية العجب والخيلاء في شوارع طوكيو ، وإن كانت ألبستهم محلاة بأشرطة الذهب والفضة . وأرجح أن أحقر عامل في جريدة التيمس تلوح عليه علامات الغضب الحق إذا علم أن ابنه تزوج بامرأة من سروات اليابانيات ، ولا شيء من هذا الزواج يخشى منه ، ولكفي لا أظن أنه يمكن أن يسرد لي منه حوادث عديدة وقعت فعلاً. وهذه مدام كريزانتيم ليست إلا حيواناً صغيراً من مقتنيات أهل البذخ ، ظريفة طائفة ، بل ذليلة رقيقة تصلح لأن تكون في البيت يحانب الببغاء والقرد تسلية في أويقات النفي والانفزال .

هل هذا الاحتقار الذي يظهره الجنس الأبيض بإزاء الجنس الأصفر مشروعاً حقيقياً ؟ نعم ، وهذا هو التاريخ يخبينا عن ذلك وهذه كل فتوحات المدنية ، وإن لم تكن للآن شيئاً كبيراً ، تثبت وتشهد بأن الجنس الأبيض هو الذي عمل كل شيء .

هذا (هومير) و (نيسدياس) و (أرسطو) و (ناسيت) و (كبلر) و (كنت) و (لينينز) و (شيكسبير) و (نيوتن) و (فولتير) و (لافوازييه) و (باسكال) و (فيكتور هوجو) و (باستور) و (بتون) و (جوث) لم يكونوا لا مليونيين ولا صينيين ولا يابانيين ، ولم يكن في دمائهم قطرة واحدة أجنبية . فالعالم يرتقي مقدوداً بالجنس الأبيض وحده ، وهذه حقيقة لا يحسر على نكرانها إلا من كان عديم الذمة . وإذا قصّ علينا قصص بدون دليل ولا حجة بأن الصينيين هم الذين اخترعوا الطباعة قبلنا والبارود ، فلا نندهش من ذلك لأنهم لم يستطيعوا أن يستفيدوا منها. ترى لهم ألفباء تدل على بهالة أهلها وأدبيات مضحكة. أما من جهة صناعتهم التي ضربوا بها المثل ، فليسوا هم الذين نحتوا تمثال

فينوس يملوا ولا (المصارع المحتضر) من عمل صناع طوكيو . وليسوا هم أيضاً الذين كتبوا قصتي « دون جوان » و « لوهانجرين » . وليس لديهم ما يشبه أقاصيص فوست وهامليه والبؤساء . والعلماء فولتا وجالفاني وأمبير وفاراديه لم يستعينوا بعلماء تلك الأصقاع في مباحثهم الكهربائية ، والحساب والهندسة التحليلية وقانون حفظ القوة ونظرية الميكروبات لا دخل لعلماء الصينيين في حدودها . وهذه الخطوط الحديدية والتلغراف الكهربائي والفتوغرافيا ، وكل صنائعنا بدون استثناء من فتوحات الجنس الأبيض دون غيره .

ومن يضع بجانب كل فتوحاتنا العقلية الجليلة تلك الأواني الصينية والحواجز والأشياء الصناعية التافهة ، وتلك الصور المضحكة المقطبة المعروضة في المعارض العمومية ، فقد صنع ما يمثل المزاح في أقصى درجاته .

فلنعلن إذنت على رؤوس الأشهاد بغاية الصراحة ، ما يفتكره كل واحد منا في ضميره ، ولنكن جسورين في إبداء رأينا ، ولنقل أن اليابانيين هم من مهرة المقلدين ليس إلا . فقد أريناهم كيف يعملون مدرعة فعملوها (في إنجلترا) ، وعلمناهم مزية الدستور النيابي فأحدثوه ، حتى أن لهم مجلسين عموميين . وقد قلدونا حتى في الخدمة المتنقلة مما نسميه جمعية الصليب الأحمر التي تسعى أن تتلافى بالليل شيئاً من المصائب التي حصلت بالنهار . وبما يدل على أنهم يقلدوننا تقليداً أعمى هو أن لديهم صحافة وطنية تطعن في الأجانب على شاكلة الصحافة الوطنية في باريس ولوندره . فاليابانيون إذن مقلدون ، بل من أمهر المقلدين ، ولا نبخل عليهم بهذه الصفة ، ولكن العالم لا يقوده المقلدون ، وقد دل التاريخ العام في مدى الخمسين قرناً التي حييها الجنس الأصفر بأنه غير أهل للاكتشاف والاختراع .

هنا ربما يعترض عليّ بذكر كونفشيوس . فأقول أن كونفشيوس هذا الذي لم يقرأ عنه أحدنا شيئاً ، ولم نتكلم عنه إلا سماعاً ، والذي ربما كان صورة ذهنية محضة هو من قبيل المستثنيات الظاهرة على خلاف العادة ، أو الظواهر المناقضة للعادات ، فلم يكن نصيبها إلا أن تكون مقصورة على المكاتب . وإذا

وضعنا كونفشيوس في جهة وفي الجهة الأخرى سقراط وأفلاطون وسينيك والمسيح ومارك أوريل وأرسطو وسان أجوستان وكونت وتلستوي ولينينز وباسكال وديكارت وكانت، وكل فلاسفتنا الأخلاقيين، فلا يمكنك أن تتمالك نفسك من الضحك إذا أردت المقارنة « نقول هكذا فليكن التعصب الذميم » .

إن انحطاط الجنس الأصفر عن رتبة الجنس الأبيض لا تستنتج من حوادث التاريخ فقط بل ممكن إثباتها علمياً أيضاً .

النوع الإنساني قائم بذاته لا يشته بغيره ، فلا يمكن التردد في تحديد فرد من أفرادهِ حتى لو قارنت واحداً من أحط المتوحشين بفرد من أرقى رتب القردة ، لأنه لا يوجد شك في الحد الفاصل بين الإنسان والحيوان . ومع ذلك فإنه يوجد على كل من الحدين الفاصلين لهذين المملكتين الإنسانية والحيوانية بعض ظواهر مبهمه من القرابة ، فإن أبعاد الزوايا الوجهية وحجم المنخ ونسيج بعض العضلات ، وبالاختصار فإن التشريح الذي لا تأول نصوصه يقرر هذه القرابة بين إنسان الجنس الأسود وبين القردة . ولكن التشابه يقل في الجنس الأصفر . هذا أدريه ولا أجهله ، ولكن مما لا شبهة فيه أن في هذا الجنس علامات تشريحية تقرب أفرادهِ من القردة أكثر مما لدى الإنسان الأبيض منها .

هذه حقيقة مشاهدة ، فلا يعنيننا إن أفرحت بعضاً وكدرت البعض الآخر ، لأنها حقيقة علمية يجب الرضوخ لها ولما ينتج منها ، نقول هذا بكل تحفظ واحتراس . وما على المتردد في هذه القضية إلا أن يزور داراً من دور تشريح المقارنة ليتحقق مما نقوله بالدليل المحسوس . وكل ما يقوله محبو النوع الإنساني مما يخفف هذه الأحكام العلمية لا يساوي تأثيره على العقول تأثير وزن منخ أو أخذ مساحة جمجمة أو قياس زاوية وجهية ، ومما قرره العلم وأصبح من بدائيه هو أن الفرق بين القرد والإنسان الأبيض أكبر بكثير من الفرق بينه وبين جنس من الأجناس الأخرى .

من هنا لا يتضح فقط أن بين الجنس الأبيض والجنس الأصفر اختلافاً بيناً ،

ولكن يتضح أيضاً أن سمو الأول على الثاني من المقررات البديهية علمياً وفاريجياً ،
وبإجماع العالم سواء كان هذا الإجماع إستنتاجياً أو نصاً بين سائر البيض حتى
بين الصفر والسود معاً .

نعم ، إن هؤلاء الرجال أمثالنا في الإنسانية وهم إخواننا . هذا أمر لا مرية
فيه ، ولكن مما لا مرية فيه أيضاً أنهم إخواننا الأحطون .

إذا تقرر هذا فما هي النتيجة التي أستنتجها من هذا البحث ؟

إنها بسيطة جداً ، ويمكن اختصارها في كلمة واحدة ألا وهي : العدالة .
فإنه ما دمنا نعامل إنساناً مثلنا ، سواء كان أحط منا أو مساوياً لنا ، فله علينا
مراعاة العدالة الحققة . وإن نقض العهد حرام في ذاته ، سواء كان بإزاء زنجي أو
أبيض . واتصاف إنسان بالوحشية والقسوة أمام أي كان لا يخليه من وصمة الوحشية
والقسوة . ومن يسرق صينياً شيئاً أو يخون يابانياً أو يضرب زنجياً أو يكذب
على ماليزي ، فقد ارتكب آثماً فظيعة ولا عذر له على سرقة وخيانتته وكذبه .

وإني لأدعي بأن صفاتنا من السمو على الجنس الأصفر توجب علينا أن يكون
لنا أخلاق أسمى من أخلاقه ، ولكننا في غالب الأحيان نرى الجنود الأوروبية
بأسلحتها المتقنة ونظامها العسكري الخيف تظن أنها مطلقة التصرف في حياة
المغلوبين لهم ، ولا يدري أولئك الغفل أن سيرتهم هذه بهذا الإجحاف والسلب
تسقطهم إلى حضيض أدنى من الحضيض الذي فيه مغلوبهم . إذ لا شيء أجدر
بالتحقير والإضرار من الإفراط في استعمال القوة .

كلا ثم كلا ، إن انتساب الإنسان لجنس أرقى من جنس آخر لا يعطيه حق
المسف والإجحاف مطلقاً .

ولكننا إذا كنا مدينين لهؤلاء الأجانب ولهؤلاء البرابرة بالعدالة ، فلسنا مدينين
لهم بشيء آخر . ومتى ادعوا لأنفسهم ، كما هي الحالة الراهنة ، حق الصمود إلى

الدور المكروه ، دور الفتح والغارة على الأمم ، وجب علينا أن نرفض عليهم كل ادعاءاتهم وأن نردهم إلى العدل .

يجب على كل إنسان أن يعنى بمستقبل النوع الإنساني . فإن حدث في تاريخ الإنسان هذا الحادث المستحيل ، وهو فناء الجنس الأبيض أو خضوعه للجنس الأصفر ، فتلك حادثة أكثر خطراً على العالم من أنكأ الحوادث الجوية التي يمكن أن تسقط من السماء على هذا الكوكب الأرضي . لأنه بهذا الحادث الجلل يكون مستقبل الإنسان مهدداً للغاية ، إذ تحول تلك الهياكل الصينية وتلك الصور المضحكة وتلك اللغة المركبة من مقاطيع فردية محل مدينتنا هذه الفخيمة الآرية ، ويكون هذا الانقلاب مبدأً لرجوع النوع الإنساني للحيوانية .

* * *

مآ وراء المادة

نحن ننقل تحت هذا العنوان ما نطلع عليه في مؤلفات أوروبا وجرائدها ومجلاتها ، مكتوباً تحت إمضاء الأساتذة والدكاترة وكبار المؤلفين . مضربين عما يكتبه كل من عدام ، ليكون تعجب القارئ أعظم واندهاشه أكبر ؛ ولا نريد من هذا إلا إقامة الأدلة المحسوسة على أن زعماء العلم الأوروبي من الاسبرتزم ومدعاه في أمر مريب ، وأنهم قد خضعوا لحوارقه رغم أنفهم بعد غطرتهم السابقة وتشددهم الماضي ، وأن الذين يقلدونهم منا في تعاليهم عن النظر وتشاغلهم عن الرضوخ لعقيدة ، وهما منهم أن علماء أوروبا لم يزالوا كذلك ، إنما يقلدون جيلاً مضى ، وقوماً بادوا . فليجمعوا من قريب خيراً لهم ، وإلا « إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك في الأذلين » .

كتب الأستاذ (موتنييه) الفرنسي - والأستاذية عندهم رتبة علمية لا ينالها إلا أفراد نابغون في بعض الفروع العلمية - كتب في المجلة الروحية الصادرة في شهر مايو سنة ١٩٠٤ تحت عنوان (الاسبرتزم مثبت علمياً بواسطة الكتابة بدون واسطة ولا عرافة) ثم ذكر (مقدمة) يقارع فيها بعض الكتاب الذين يكذبون بالاسبرتزم ولم يشاهدوه ، قال فيها : « وهل عرف المسيو جاستون مري كل الحوادث النفسية ؟ هل رآها كلها واختبرها اختبار الباحث النزيه

الصبور الخالي من الهوى ؟ إن قال لا ، فقد حكم على نفسه وانحسنت المشكلة ، وإن قال أنه خير بهذا الموضوع ويستطيع أن يتكلم فيه كلام الأستاذ فيه ، فأنا أعرض عليه مسألة نفسية بسيطة ، راجياً فضله في أن يحلها ويفسرها . أنا لا أريد أن أسترهبه ، ومع ذلك فلا أستطيع أن أخفي عنه أن من كل الفروض التي تخيلت في تعليل خوارق الاسبرترزم لم يفلح إلا الفرض القائل بنسبتها إلى أرواح الموتى . وإليك المسألة :

« أخذت خمس صحف بيضاء وكتبت على كل منها سؤالاً ، ثم طويت كلا من هذه الصحائف أربع طيات ، وأضفت إليها خمس صحف أخرى بيضاء لأخذ الأجوبة عليها ، وطويتها كما طويت أخواتها ، ووضعت الصحف كلها في مظروف ولصقته لصقاً محكماً . ثم جئت بإردوازين جديدين اشتريتهما للتجربة التي عزمت على عملها خاصة ، ثم وضعت هذا المظروف مع قطعة من الرصاص بين ذينك الإردوازين ، وأطبقتها على بعضها إطباقاً شديداً ، وربطتها بحبلين متقاطعين . لما أعددت لنفسى هذه العدة ، ذهبت إلى الواسطة وكانت امرأة مشهورة في البلدة بنزاهتها وسمو خصيصتها في الوساطة بين الأحياء والأموات ، وبمحدث الكتابة من الأرواح بحضرتها . فقوبلت وأدخلت إلى حجرة في الطبقة الأولى من البيت وسط في الاتساع قد أعدت للتحضيرات الروحية ، وهي محلاة بأثاثات بسيطة ولكن متينة . وصادفت في وسط تلك القاعة مائدة مربعة عليها غطاء . فما كان مني إلا أن رفعت الغطاء لأتحقق من عدم وجود أي آلة ميكانيكية تحتها ، ثم فتشت كل شيء بعناية تامة ، وبعد أن تحققت من عدم وجود شيء يشك فيه في الغرفة ، جلست بجانب تلك المائدة ووضعت عليها إردوازي ، ولم أفقدهما من بصري ولا لحظة صغيرة من عهد دخولي دار الواسطة . وكانت الساعة إذ ذاك (٣) ، فانتهت الجلسة في الساعة (٣٠ و ٣) ، أي لم تمكث أكثر من ثلاثين دقيقة .

« الواسطة امرأة شقراء لم يتجاوز عمرها الثلاثين سنة ، طيبة البنية باشة ،

وذات معارف عادية ، وهيئتها بسيطة طبيعية ، وثشنجها لا يكاد يكون محسوساً ، وكانت ذاهبة آتية في الغرفة تحدثني بما تراه ، ثم أخذت قطعة من الورق الأبيض وكتبت ألقاب الأشخاص الذين ذكرتهم أنا في أسئلي المظروفة ، وكنت ألاحظ يديها وهي تكتب فوق المائدة . وبعد ربع ساعة آذنتني بأن الجلسة انتهت . فأخذت إردوازي اللذين لم يتحركاً قط من مكانها ، وفككت الحبل عنها ، فوجدت المظروف لم يس مطلقاً ، ولكن القطعة الرصاصية لم أجدها لها أثراً ، ففضضت المظروف وأخرجت منه الورق المكتوب عليه المسائل ، ثم الورق الذي كنت أعدده للأجوبة ، فوجدته مملوءاً كتابة بالقلم الرصاص (تلك الأوراق موجودة تحت تصرف من يريد فحصها) .

« وجدت من نص الإجابة ، أن شخصية مستقلة هي التي أجابت تلك الأجوبة بطريقة لا يشك في حقيتها . وغير ذلك فإن بين خط الأجوبة وخط الإنسان الميت من التشابه بحيث أن أهل بيته عموماً أدركوه وقضوا منه بالعجب .

« لأجل أن أري المسيو جامري كنه الاحتياطات التي اتخذتها ضد أي غش أو تزوير من قبل الواسطة ، ولأجل أن أتقي من قبل حضرته بعض الاعتراضات عديمة الجدوى . أضيف إلى ما سبق :

« أولاً - بأن تلك الواسطة تجهلني كل الجهل ، وإني غريب في تلك البلدة .
« ثانياً - أن تلك المقابلة مع الواسطة كانت باكورة تعارفي بها وأنها لم تكن تقدر على معرفة شيء مني ولا من عائلتي .

« ثالثاً - أنه لم يحصل بيني وبينها قبل التحضير أي محادثة تمهيدية مما كان يمكن أن تستفيد منها بعض فوائد تدلها على ما أنا بصده .

« رابعاً - الجلسة حصلت في ضوء النهار الناصع في الساعة الثالثة بعد الزوال .

« خامساً - لم يدخل جلسة التحضير شخص ثالث في أثناء الجلسة .

« سادساً - ظلت أبواب الحجرة مقفلة طوال مدة التحضير ، ولم يوجد فيها
لا حواجز ولا أجهزة من أي نوع كان يمكن أن تسهل التزوير .

« سابعاً - لم تمس الوسطة الاردوازيق بيديها .

« ثامناً - لم يكن في جيبى لا خطابات ولا مكاتيب أخرى آتية من قبل
الأشخاص المكتوبة أسماءهم في الأسئلة ، مما يمكن أن تعرف منه الوسطة الأسماء
التي أمضت على الأجوبة التي تحصلت عليها . »

ثم قال : « وإني قد اتبعت هذه الجلسة بجلسة أخرى بعد ثلاثة أيام ، فكان
نجاحها كنجاح سابقتها ، لأنني توخيت لها الشروط التي توخيتها للأولى .

« هل يحسر المسيو غاستون مري بأن يدعي أن هذه الألوف المؤلفة من
الذين شاهدوا هذه الخوارق مغشوشون مغرورون ؟ وهل يحسر بأن يزعم بأن
البارون (غولدنستوب) الذي عمل أكثر من ألفي تجربة روحية من سنة ١٨٤٦
إلى سنة ١٨٦٩ ، أمام شهود من أعلم علماء الأوروبيين والأمريكانين وأجدرهم
بالثقة كان مخرفاً ، مصاباً بالهوس ؟ وأن (ولاس) و (زولنر) و (فيشت)
و (اكسون) و (هار) و (دال) و (أوين) و (أكزاكوف) كلهم كذابون
خراصون ؟ » .

إلى أن قال : « يظهر مما تقدم بيانه بأن الاسبريتوالزم أصبح مثبتاً بالبراهين
العلمية ، لأن المعلومات التي تأتي من قبل الأموات ، والعرافة التي يتمتع بها الوسطاء
ثبتت بطريقة لا يمكن دحضها بأن المشاهدات التي تنتج من هذين الفئتين الروحانيين
آتية من جهة عقل أعلا من العقل المتلبس بالمادة ، أي من عقل يسمو على عقل
الإنسان ، مثبت وجوده ثبوتاً علمياً ، ويمكن مشاهدته في كل حين تتوفر فيه
الشرائط الضرورية ، ومن هنا صارت الاعتراضات التي وجهها المسيو جاستون
مري لا تحتل النقد ، وبما أنه لا يستطيع أن يحل المسألة التي عرضناها عليه في
مقدمة هذا الفصل إلا بفرض تدخل الأرواح ، فنؤكد بأن هذا الفرض هو وحده
الذي يمكن قبوله والاعتماد عليه في حل أمثال تلك المسائل .

« فاطلب النور ، ثم اطلب النور يا مسيو غاستون هري ، وإن كنت صاحب الحقيقة ، فتكرم بإعلانها بها ، فإنها ترمى أغراضنا ومنتهى آمالنا » ا. هـ .

الإمضاء

(البروفسور موتينييه)



نحن ننجش أنفسنا كل حين ترجمة مثل هذه الحوادث ليرى المسلم بعينيه ، أن العالم أصبح على خلاف ما كان عليه في مقدمة القرن التاسع عشر والذي قبله من جهة الاعتقاد بالعالم الروحاني ، وإذا كان العالم الأوروبي الذي كان مادياً بالأمس أصبح يعترف (دعك من استحضار الأرواح) بأن في الإنسان سرّاً مكنوناً ، ومعنى علوياً مصوناً ، وأن جسمه هذا غلاف مؤقت لهذا السر السباوي يضمه حيناً ، ثم ينفرج عنه ، فيصعد ذلك السر إلى عالمه النوراني ، يسبح في سبحات الإفاضات الرحمانية مع الأرواح الملكوتية ، قلنا إذا كان العالم الذي كان مادياً بالأمس ، أصبح يقول هذا القول : أليس الأولى به منه المسلم الذي بعثه الله لإعطاء الروح حقوفها ، وتأمين المواطف الإنسانية على مطلوبها ، وإذا كان صرعى المدينة الجديدة يقارعون أنصار العقائد الحققة بالعلم الأوروبي ، فما هو العلم الأوروبي وهام قاداته وأراكيته ، حيارى أمام آية من آيات الحق جل شأنه ، أرسلها إرغاماً لمعاطس الكفر ، وكسراً من شرّة العناد ، والله غالب على أمره .



كروية الأرض ودورانها

كتب لنا حضرة الوجيه السيد علي بن أحمد بن شهاب من مدينة بويتنزورغ بجزيرة جاوه ، يسألنا هذين السؤالين : هل الأرض كروية ؟ هل الأرض تدور ؟ فنجيب حضرتته :

كروية الأرض معروفة منذ القدم ، من أول تكون الجرثومة الأولية للعلم تقريباً . وقد استدل آباؤنا الأولون على ذلك باختلاف شكل السماء بالنسبة للسائر على وجه الأرض ، فإنه لو كانت الأرض سطحاً مستويًا ، لحفظت السماء شكلها دائماً للرائي منها تنقل على ظهرها . ونما جعل مسألة كروية الأرض حقيقة علمية بالنسبة للأقدمين ما رأوه عند كسوف القمر من ظل الأرض عليه ، فقد رأوا ذلك الظل مستديراً مما يدل واضح الدلالة على أن الأرض كرة مستديرة ، كالشمس والقمر وسائر النجوم والكواكب . ويمكن أحداً أن يستدل بنفسه على كروية الأرض بدليل محسوس ، بأن يقف على شاطئ البحر ، مراقباً إقبال سفينة من بعد بواسطة المنظار . ذلك أنه لا يرى أولاً إلا أطراف سواريتها ، ثم كلما تقدمت السفينة نحوه علت تلك السواري عن سطح البحر رويداً رويداً ، حتى يظهر مقدم تلك الفلك (أي السفينة) ، ثم إذا أدمنت في السير علا سطحها على سطح البحر قليلاً قليلاً على نسبة سيرها ، حتى ترى السفينة بأكملها طافية على وجه الماء . وإليك دليلاً محسوساً غير ما سبق على كروية الأرض ، وأشد منه إقناعاً للعقل وإزهاقاً للشك ، وهو ما حدث من تطواف الأرض ، فقد طافها كثيرون في شهور قليلة ، خرجوا من بلدة شرقاً ثم عادوا إليها من جهة الغرب . وبما يشبه هذا الدليل في الإقناع اختلاف ساعات الليل والنهار بالنسبة للممالك المختلفة ، فإن في الوقت الذي يكون فيه النهار مشرقاً في جاوه ، يكون الليل ضارباً أظنابه في بلاد المغرب وما يليها ، وبالعكس . وقد جرى علماء الهيئة من المسلمين على هذه النظرية من عهد دخول العلم اليوناني إلى بلادهم ، بواسطة الخليفة المنصور العباسي . ولم يرَ علماء الدين في ذلك ما يضر بالعقيدة . أما ما ورد في كلام الله تعالى ، مما يؤخذ منه انبساط الأرض ودحوها ، فالمستند عليه لم يحسن فهم كلام الله .

قال الإمام الرازي في تفسيره قوله تعالى : « يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون . الذي جعل لكم الأرض فراشاً ، الآية . قال : واستدل بها على أن الأرض ليست كرة ، وهذا بعيد جداً . لأن الكرة إذا عظمت

جدا كانت القطعة منها كالسطح في إمكان الاستقرار عليه ، والذي يزيده تقريراً أن الجبال أوتاد الأرض ، ثم يمكن الاستقرار عليها ، فهذا أولى والله أعلم .

أما دوران الأرض ، فهنا موضع الخلاف والنزاع ليس بين أبناء العصر الأول فقط ، بل بين أبناء هذا العصر أيضاً ، وإن كان العلم الرسمي الأوروبي ، والأغلبية العظمى في جانب دورانها على نفسها وحول الشمس معاً .

مسألة دوران الأرض على ذاتها يظهر أنها كانت معلومة من القدم لتلامذة الفيلسوف فيثاغورس ، قبل الميلاد بنحو خمسة قرون ، ولكل لم يشع هذا الأمر ولم يدخل إلى العلم الرسمي إلا بظهور الفلكي الشهير (كوبرنيك) البولوني ، في القرن السادس عشر (١٤٧٣ - ١٥٤٣) فإنه أثبت بالدلائل القوية المقنعة أن الأرض متمتعة بمركتين في آن واحد . حركة رحوية على ذاتها ، وبها يتكون الليل والنهار ، وحركة محيطية حول الشمس لتكوين الفصول المختلفة من برد وحر واعتدال .

الأدلة على دوران الأرض حول الشمس غير حاصلة على صفة الأدلة المحسوسة ، حتى لا يمكن الخوض فيها كمسألة كرويتها ، ولذلك ترى نفرأ من العلماء والرياضيين لا يزالون يتشككون في ذلك ويشككون غيرهم .

كتب المسيو درومون في جريدة (ليبرارول) الباريسية في ٩ يناير الماضي ، يقول : « لم يقدّم الدليل الآن على صحة دوران الأرض ، كما كان يزعم جاليليه (هو فائز تعاليم كوبرنيك) ، ولا على أنها مركز العالم الشمسي ، وهذا المسيو هـ . بوانكاريه أكبر علماء الهندسة والطبيعة الفرنسيين لم يجزم الآن بدوران الأرض ، لأنه يقول : « يقولون أن الأرض تدور وأنا لا أرى مانعاً من دورانها ، فإن فرض دورانها سهل القبول ، ويمكن به فهم كيفية تكون ونمو الدنياوات ، ولكنه فرض لا يمكن إثباته ولا نفيه بالأدلة المحسوسة ، هذا الفضاء المطلق أي الحيز الذي يلزم نسبة الأرض إليه للتحقق من دورانها أو عدم دورانها ليس له وجود في ذاته . من هنا ترى أن قولهم الأرض دائرة لا معنى له البتة لأنه ليس في

وسع أية تجربة لإثباته لنا بالحس . هاتان الجملتان (الأرض دائرة) و (الأسهل فرض أن الأرض دائرة) لا تعنيان إلا شيئاً واحداً ، ولا يمتاز إحداهما عن الأخرى في معنى جديد .

وجاء في جريدة (الكليز) الفرنسية في ١٧ فبراير الماضي ، تحت امضاء بعض الكتّاب قولهم : « ليس من المحقق الثابت أن الأرض دائرة ، ومع ذلك فهذه نظرية شائعة ذائعة وعقيدة علمية كبرى لا يحسبون لها سقوطاً . هذا وإنك ترى أن نظرية الجاذبية العامة قد عادت لمجال المناقشة وأن قوانين كبلر اشتهرت بكونها فروض ظنية ليس إلا . » (يريد الكاتب أن يقول إذا كانت نظرية الجاذبية العامة وقوانين (كبلر) تعتبر فروضاً قابلة للبحث فلم لا يكون الأمر كذلك بالنسبة لنظرية دوران الأرض ١٩) .

سرد العلامة الفلكي الشهير هذه الأقاويل في (المجلة) الفرنسية في المجلد التاسع والأربعين ، ورد عليها بحجج فلكية منها :

« لا يشك أحد في أنه يرى كل يوم الشمس والقمر والكواكب والنجوم تشرق من جهة الشرق ، ثم تستوي في كبد السماء وتبلغ أوجها الأعلى ثم تهبط غاربة نحو الغرب ، وتظهر في اليوم التالي في أفق الشرق بعد أن تكون سرت من تحت الأرض .

« ليس للإنسان في تعليل وتفسير هذه المشاهدات العامة إلا أن يفرض أحد فرضين : فإما أن يقول بأن السماء هي التي تدور من الشرق إلى الغرب ، أو أن أرضنا هذه هي التي تدور أمام السماء من الغرب إلى الشرق .

« إذا فرضنا الفرض الأول ، وجب علينا أن نعزو للأجرام العلوية سرعة في الدوران مناسبة لأبعادها عنا . مثال ذلك أن الشمس التي تبعد عنا بمسافة تقدر بقطر الكرة الأرضية ٢٣٠٠٠ ضعف ، يجب أن تسري في الأربعة وعشرين ساعة محيطاً أكبر من محيط الأرض ٢٣٠٠٠ ضعف أي بسرعة ١٠٦٩٥ كيلومتر

في الثانية الواحدة . والمشتري الذي هو أبعد من الشمس عنا بخمسة أضعاف يجب أن يكون سيره بسرعة ٥٣٠٠٠ كيلو متر في الثانية الواحدة . ونبتون الذي يبعد عنا أكثر من الشمس بثلاثين ضعفاً يلزم أن يتحلى بسرعة تقدر بـ ٣٢٠٠٠٠ كيلو متر في الثانية . وأقرب نجم إلينا المسمى الفادوسانتور الذي يبعد عنا أكثر من بعد الشمس بـ ٧٥٠٠٠ ضعف ، يجب أن يجري في الجوب سرعة ٢٠٤٩١٠٠٠٠٠٠٠٠ كيلو متر في الثانية الواحدة . وكل النجوم أعلا منا بما لا يمكن حسابه كما لا يخفى . فلن كانت الأرض هي الثابتة والكواكب هي الدائرة ، وجب أن تكون كل هذه الدورانات المدهشة من تلك الأجرام الكبيرة حاصلة حول نقطة صغيرة هي الكرة الأرضية . عرض هذه المسألة الفلكية بهذه الصفة هو بمثابة حلها ، اللهم إلا أن يحدد بالأقيسة الفلكية والعمليات الهندسية المتوافقة تمام التوافق ودوران الأرض الليلي ، وهي حقيقة مثبتة بالواقع .

«إن فرض دوران الكواكب هو بمثابة فرض دوران الكانون والمطبخ والبيت والبلدة بأجمعها حول قطعة من اللحم تشوى بالنار ، كما تخيل ذلك أحد المؤلفين الأخلاقيين .»

هذا ما يقوله (كاميل فلا مريون) ، فإن تركته جانباً ونظرت إلى ما يقوله الأستاذ الفلكي الطائر الصيت الذي يعد أول رياضي الآن في البلاد الفرنسية ، كما جاء في (المجلة) الفرنسية ، رأيتة يقول : «إذا فرضنا أن السماء مغطاة بالسحب دائماً ، وأن لا وسيلة لدينا مطلقاً لرؤية الكواكب ، كان يمكننا مع ذلك أن نستنتج دوران الأرض بانبعاجها ، وبالأولى بتجربة (فوكلت)^(١) ، ومع ذلك لو قلنا في هذه الحالة أن الأرض دائرة ، فهل يكون لهذا القول معنى ؟ وإذا كان ليس هنالك فضاء مطلق ، فهل يمكن الدوران إلا إذا كان منسوباً لشيء موجود؟

(١) هو طيبي فرنساوي أثبت دوران الأرض الليلي بواسطة البندول (الرقاص) توفي سنة ١٨٦٨ .

ومن جهة أخرى كيف يسوغ لنا أن نقبل استنتاج (نيوتن) والتصديق بوجود الفضاء المطلق ؟

« لنرجع إلى الفرض الذي فرضناه أولاً ، وهو أن هنالك سحبا كثيفة تحجب الكواكب عن أعين الناس ، فلا يرونها بل ولا يتوهمون وجودها ، فكيف يعلم أولئك الناس حينئذ أن الأرض قدور ؟ كانوا بلا شك يعتقدون أكثر من أسلافهم بأن الأرض التي تحملهم ثابتة غير متحركة ، وكانوا ينتظرون آماداً طويلة حتى يأتيهم (كوبرنيك) . ثم ينتهي الأمر بمجيئه ، فكيف يحيي ؟ .

« قبل مجيء كوبرنيك يكون العلماء قد اخترعوا شيئاً من موالاة الجذ والتنقيب ليس بأعجب من كرات (بطليموس) الزجاجة ، ويكونون قد جمعوا الفروض على الفروض ، وزادوا المسائل تعقيداً وإشكالاً حتى يأتي (كوبرنيك) المنتظر ، فيكنسها كلها دفعة واحدة وهو يقول : (من الأسهل أن يفرض الإنسان أن الأرض قدور) .

« وكما أن (كوبرنيكنا) جاءنا يقول : (من الأسهل أن نفرض أن الأرض قدور لأن قوانين علم الفلك تدخل بهذا الشكل في قالب أسهل) ، كذلك يأتيهم (كوبرنيكهم) وهو يقول : (من الأسهل أن نفرض أن الأرض قدور لأن علم الميكانيكا يصبح بذلك في قالب أسهل) ، وهذا لا يمنع من أن يكون الفضاء المطلق غير موجود ، أعني أن العلامة التي يجب عزو الأرض إليها للتحقق من دورانها ، ليس لها وجود حقيقي . ومن هنا ترى تأكيدهم بأن الأرض قدور لا معنى له ، لأنه لا يوجد ما يثبتته بالتجربة . الخ .

يرى قارئنا من تضارب هذه الأفكار بين أكبر علماء الأرض أن أمر دوران الأرض غير حاصل على ما يجعله من العلوم البديهية ، فإن مثل العلامة (بوانكاريه) لم يكن يتجاسر على مثل هذا القول وهو أكبر رياضي فرنساوي اليوم ، إن لم نقل أكبر رياضي فلكي في العالم ، إذا لم يكن على ثقة تامة مما يقول وعلى بينة مما يرمي إليه . ولو كان المعلمون في أثناء تدريسهم للعلوم الطبيعية يسلكون مسلك

العلماء في الإقرار بالجهل ، فيرون تلامذتهم وجه الضعف في المعلومات الطبيعية لأدوا لتلامذتهم أكبر خدمة ، لأنهم بهذا يمودونهم على الأدب النفسي ، فتنشأ نفوسهم معتادة على التواضع أمام فخامة الكون وجلالته والسجود أمام مبدعه ومصوره . ولكن أكثرهم يدرسون لهم العلوم المشكوك فيها والفروض الطبيعية الظنية بصفة حقائق ثابتة ، فيتذرع بها أولئك التلامذة الأغرار متى كبروا إلى الإلحاد ونفي الروح والخلود ، ولا يدرون أنهم يتمسكون بالظنون « وإن الظن لا يبغي من الحق شيئاً » .



استشكالات على دوران الأرض

كتب لنا حضرة المحترم سلامة أفندي محمد بنظارة الأشغال العمومية كتاباً يقول فيه :

أولاً - هل ورد في القرآن الكريم ما يفيد دوران الأرض ، إن كان ورد ذلك ففي أي آية ؟

ثانياً - إذا كان القرآن أفاد أن الشمس والقمر يسبحان في فلكهما ، وهذا محسوس بحاسة البصر ، فما فائدة دوران الأرض ؟

ثالثاً - إذا قيل أن دوران الأرض يوجد الليل والنهار، فما معنى قوله تعالى : « فالتقوا الصباح » ، وقوله تعالى : « ومن آياته الليل والنهار » . إن قيل أنه لحصول الفصول ، فما معنى قوله تعالى : « وهو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب » ؟

رابعاً - إذا كانت الأرض دائرة فلم لم يرد ذلك في القرآن ، مع ما ذكر فيه من تسخير الشمس والقمر والنجوم والسحاب والفلك في البحر؟. هل دوران الأرض شيء صغير في جانب تسخير السحاب ؟

خامساً - ما البراهين الحسية التي يركز عليها الفلكيون والجغرافيون في القول بدوران الأرض ؟

هل انفصلوا عنها إلى الفراغ وشاهدوها مستقلة عنهم كما يشاهد الواقف على الشاطئ السفينة جارية ، ولو كان فيها ينظر البحر سائراً ؟

سادساً - هل قال أحد من مفسري القرآن أن الأرض دائرة حول الشمس ؟ إن قيل نعم ، فمن هو من الأئمة ؟ وما رأي حضرتكم في كلام الفخر الرازي في هذا الموضوع ، وما الأوجه المفنّدة لكلامه ؟

نقول : إن ما كتبناه في هذا الفصل كافٍ في الإجابة على أسئلة حضرة الكاتب المحترم ، ولا ينقصه إلا بيان محظورية الاستدلال بآيات الكتاب الكريم على تقرير ورفض العلوم الطبيعية ، ويحسن بنا أن نعيد له هنا ما كتبناه في هذا الصدد سنة ١٣١٧ في مجلة « الحياة » : قلنا :

إن علم الفلك مثل سائر العلوم الطبيعية خاضع لناموس الترقّي والتدرج ، فلو قارنت بين نظرياته التي كانت لدى المصريين والآشوريين قبل أربعة آلاف عام ، وبين نظرياته عند علماء الإسلام في القرن الثالث والرابع الهجري ، وجدت اختلافاً عظيماً ورقياً محسوساً ، على أن سائر نظرياته رغماً عن تقدم العلم في هذا العصر لم تزل ظنية . ولا يخفاكم أن أقرب الظنيات للحقيقة هو أسهلها انطباقاً على الظواهر المحسوسة وأكثرها حلاً للمعاضل المجهولة . فلو كنا الآن نقبل نظرية دوران الأرض حول الشمس ، ونطرح رأي المتقدمين من ثبوتها فما ذلك إلا لكون النظرية الأولى تحل لنا من المسائل الفلكية ما تعجز النظرية الأخيرة عن حلها ، ولكن إذا ظهر رجل وأثبت لنا ثبوتها وقرر لنا نظرية علمية تحل لنا من غوامض المسائل العلوية أكثر مما تحل تلك النظرية ، ولا تعارض أحكام النواميس المحسوسة ، قبلنا رأيه واعتمدناه إلى ما شاء الله . ثم قلنا هنالك : وإن قوله تعالى : « ويسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج » ، يرينا بطريقة جلية أن كل ما ذكر في الكتاب الشريف من أمر الكواكب والسموات لم يقصد به تعليم علم الفلك ، بل القصد منه لفتنا إلى التدبر في جلائل مصنوعات الله وتطور أسرارها ليس إلا ، وعندنا أن تطبيق علم الفلك الحديث والقديم على ما جاء في القرآن المجيد ، يعتبر تهجماً غير محمود على كلام الله تعالى ، ذلك لأن

القرآن الكريم إنما جاء بالقواعد العامة والنواميس الكلية التي لا يعترضها تبديل ولا تحوير ، والتي هي لسان حال الوجود ومطلوب الحياة الإنسانية من جهتيها المادية والمعنوية . فالساعي في تطبيق العلوم الفلكية على آياته الكريمة ، يكون ملوماً لأمرين : أولهما - أن القرآن العظيم إنما جاء لتربية الإنسان وتهذيب خصائصه ، تلك التربية وذلك التهذيب اللذين يفكان أغلال المدارك النفسية ، ويكسران مقاطر المواهب البشرية ، ويستخرجان أنوار الحقائق الملكية من كثافات تلك الطبيعة الطينية ، ليتجلى الإنسان في الوجود إنساناً صالحاً لأن يلم بأسرار عالم الشهادة بحواسه الظاهرة ومساثير عوالم الغيب بمشاعره الباطنة ، كما حصل ذلك في الأمة العربية الأولى ، فقد جاءها هذا الدين وهي على حالة البساطة الخلوية ، فهدب نفوسها وربى ملكاتها ، فانبجست ينباع مواهبها الإنسانية من صخور حياتها الوحشية ، فتجلت بعد بضع عشرات من السنين أمة طمست لألاء مدنيته الحققة سائر المذنيات البهيمية ، وأمسكت بيمينها صولجان العظمة الدنيوية ، ونشرت في الخافقين روح الحرية والعلم ، لدرجة لم يسبق لها مثيل في تاريخ البشر .

لإحداث مثل هذا الأثر التهديبي ، جاء القرآن المجيد : « إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم » ، إلى أن قلنا هنالك : إذا تقرر هذا كله نقول : نحن معاشر المسلمين الذين أنزل الله علينا : « وقل رب زدني علماً » ، والذين كان لأبائنا اليد الطولى في ترقية العلوم وعدم الوقوف بها عند حد ، والذين سنّ لنا عليه الصلاة والسلام خير سنة في الأخذ بما صلح من تجارب الغير ، يجب علينا أن نسابق الأمم في ميادين العلوم الجديدة ، ونسعى في زيادة مادتها لا سيما وقد ظهر أنها أقرب إلى الحقيقة مما عداها . وبناء على هذا يجب علينا وجوباً حتماً أن نلفظ آراء المتقدمين في علم الهيئة ، ونتمسك بآراء المتأخرين منهم لكونها تحل لنا من معاضل الظواهر الفلكية ما لا تحمله لنا تلك ، منتظرين ما يهدينا الله إليه في المستقبل بمزيد التواضع . وكيف لا يتواضع للعلم قوم أنزل عليهم ربهم : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً » .

ما وراء المادة - العلاج النفسي بالتنويم المغناطيسي :

كتب الكاتب الفرنسي الطائر الصيت (جول بوا) في جريدة (الطائر)
الباريزية الشهيرة ، الصادرة في ٢١ يونيو من هذه السنة يقول :

« إن أحدث المخترعات العلمية من أول التلفراف اللاسلكي وأشعة رنتجن
إلى خصائص الراديو والأشعة المتعومة ، وموت صاحب الخوارق المدهشة الدكتور
ليبولت حديثاً ، تستلفت أنظار العالم دائماً إلى التنويم المغناطيسي والسحر والعلوم
السرية والحوادث الروحية لمذهب استحضر الأرواح . »

ثم قال : « إن ما حدث من أنواع الشفاء بالتنويم المغناطيسي مما يكاد يعد
معجزة ، وما حصل من الفوائد من فن التلقين بالاستهواء ، وما يشاهد من فوائد
الاعتقاد وثبات الإرادة ، والمحاورات المدهشة بواسطة التليباتيا ، ومسائل
الإحساس بالمستقبل وقراءة الأفكار ، وظهور شبح الإنسان في مكان بينما يكون
هو في محله لم يتحرك ، واستخراج القوة الحيوية من الجسد (وقد توصلوا إلى رسمها
وقياسها) ، وما يراه الإنسان من الغيوب في النوم والإنباء بالأمور المستقبلية ،
والخوارق الحاصلة من الوسطاء والفقراء المهنود التي هي في الغالب صحيحة
صادقة ؛ كل ذلك يتكون منه مجموع هائل من حوادث ومشاهدات يستحيل
على الإنسان أن يزدريها وأن لا يعبأ بها ، بل إن من أوجب الواجبات بحثها
وفحصها من قرب ، ثم نشر نتائج هذه المباحث بين العالم جميعه ، وعدم تركها
في أيدي سحرة الاحتيال والحقى . »

ثم استأنس الكاتب لكلامه بجملة كان نشرها الشاعر الشهير (فيكتور هوجو)
في هذا المعنى ، ثم قال :

« وقد عمل الناس بهذه النصيحة ، فإن جمعيات المباحث النفسية في لوندريه
ونيو يورك وألمانيا وإيطاليا وروسيا مؤلفة من طبيعيين وأطباء وكيمائيين وعمرانيين
وفلاسفة ، والكل مهتمون غاية الاهتمام بهذه المسائل الجذابة التي طالما هزى بها

الهازتون وزرى عليها الزارون ، وقد تأسست في باريس نوادر مخصصة للمباحث النفسية والمباحث النفسية الفزيولوجية ، حصلت من علماء النفس الرسميين على مساعدين مثل (دارسونفال) و (بوشار) و (ميزير) و (بويسون) و (متسكينكوف) و (وبيريه) و (جيار) و (سولي بروودوم) الخ . وبذلك فقد أصبح مستقبل هذه المباحث بملاحظة هذه العقول الكبيرة سائراً على دستور علمي ومأموناً عليه من الخطأ . وبناء عليه فمؤلاء العلماء الأعلام والمفكرون العظام سائرون في تحقيق أمنية الشاعر ولكن ببطء ونظام .

من هنا يرى القارئ أمرين : أولهما أن هذه المدهشات أصبحت شغلاً شاغلاً لكبار العلماء في العالم المتمدن كله ، خلافاً لما يذهب إليه بعض الكتاب عندنا ، وليس بعد ما نقلناه عن جريدة الطان ، وهي من أشهر الجرائد الأوروبية ، بقلم كاتب من أشهر كتّاب الفرنسيين مقال لقائل في هذا الموضوع . ثانيهما أن شررة الإلحاد الأوربي قد انكسرت وأصبح عبادة المادة لا يحIRON جواباً أمام هذا السيل العرم من الحوارق للعادة ، الذي لم يدع مكنناً إلا وتسرب إليه وأشرف عليه . حتى أصبحنا ننتظر من علماء المدنية الإجهاز على البقية الباقية من صنم الإلحاد والجمود ، وكان ذلك أولى بنا وأوجب علينا . وبالتنا نسير مع السائرين ولكن متطورونا وقفوا مع الواقفين ، كأنهم أحفاد أولئك الماديين ، وبأليتهم وقفوا ساكتين بل جمدوا مثبطين صادين ، كأنه يضرهم أن يثبت فيما وراء المادة عالم آخر ، ويؤذهم أن يكون الإنسان ذا روح تحيا حياة أبدية ، فليقفوا أو ليمشوا ، إن الله ناصر رسله ومؤيد دينه ومحقق وعده والسلام على من اتبع الهدى .

إليك ترجمة بعض تجارب نفسية أجراها الكولونل العلامة (دوروشاس) ناظر مدارس الهندسة في باريز ، وهو من كبار المشتغلين بفن التنويم المغناطيسي في العالم ، وله فيه تجارب بميدة الغايات بديدة النتائج . نقلت هذه التجارب المجلة الروحية الصادرة في هذا الشهر (سبتمبر سنة ١٩٠٤) ، تحت عنوان : « قهقرة الذاكرة وخاصة معرفة المستقبل » قال :

« علم الناس من زمان مديد أن خاصية تذكر الحوادث الماضية في الإنسان تقوى وتنضبط جداً في بعض أحوال خاصة ، لاسيما في آخريات لحظات الحياة ، وقد شاهدت أخيراً أن من الممكن الحصول على هذه الخاصية بالتجربة بتنويم الشخص بواسطة الإشارات الطولية . بهذه الوسيلة يمكن التطواف بالشخص على كل أدوار حياته المتتالية . ومعنى أثر عليه المنوم بالإشارات الغرضية وصل به إلى حالته العادية ، فمارأ على حوادثه الماضية بالترتيب حتى يصل إلى السن الذي هو فيه ، فإن أتمعن في العمل أوصله إلى سن الشيخوخة ، وبلغ به عكس ما بلغ أولاً ، أي أنه بالفعل الأول يصل به إلى سن الطفولة تدريجياً ، وبالفعل الثاني يصل به إلى ما سيصل إليه من سن الهرم ،

« إذا كان الشخص صاحباً وأثر المنوم عليه بالإشارات العرضية أي بالإشارات المهرمة ، هرم الشخص شيئاً فشيئاً وتغلغل في حوادثه المستقبلية ، فلأجل إرجاعه إلى سنه الأصلي يجب التأثير عليه بالإشارات الطولية التي تلاشي آثار الإشارات الأولى .

« قد تحصلت على هذه التجارب بطريقة واضحة جداً على شخصين ، وها أنا مورد بعض تلك المشاهدات من سجل التجارب الخاصة بها . ولزيادة البيان أذكر القارئ بأن الحوادث المغناطيسية تولد عند أكثر الناس سلسلة من أدوار ليتارجية (الليتارجيا حالة شبيهة بالموت) ، تتعاقب مع أدوار الانتقالات النومية كما يتعاقب النوم واليقظة في الحياة العادية ، وفي حالة الليتارجيا كما في حالة النوم العادي ، يسمع الشخص بقوة أو بضعف ولكن لا يستطيع الكلام ، وهو في حالة الانتقال النومية من جهة الحالة الطبيعية كما هو في حالة اليقظة ، غير أنه لا يحس إحساساً جليدياً ، .

الحالة الاولى مع مدام لمبير

ذكر أنه بدأ تجاربه مع مدام لمبير ، ونجح في قهقرة ذاكرتها تدريجياً حتى مر بها على جميع أدوار حياتها السابقة إلى أن أوصلها إلى الحين الذي كانت فيه

جنينا في بطن أمها، ثم أصعد ذا درتها حتى تذكرت نفسها لما كانت روحاً مجردة على هيئة كرة من نور ساجدة في الفضاء ، ثم عكس الأمر ، فأثر عليها بالإشارات المرضية بقصد التفغل بروحها في حوادثها المستقبلية ، فما زالت روحها تتنقل بها من دور إلى دور حتى وصلت إلى سن الهرم ، وشعرت بما ستكون عليه قبل أن تصل إليه . فطلب إليها الأستاذ أن يهرمها ، حتى تصل لدور الموت المنتظر لترى كيف يكون حالها فيه ، فأبت .

الحالة الثانية مع جوزفين

وصف الأستاذ (جوزفين) بأنها خادمة عمرها ١٨ سنة في بيت أحد معامليه ممن يعتقدون بالأسبرتزم ، وأن لها حساسية شديدة ، وأن صحتها جيدة الخ . ثم قال : « لما رجعت إلى (فوارون) عدت إلى التجارب ذاتها مع (جوزفين) بدون أن أكشف أحداً بأعمالي في باريس .

الجلسة الاولى: أتمتها بواسطة الإشارات الطولية للحصول على قهقرة ذاكرتها، ثم أيقظتها بإشارات عرضية ، فلما عادت إلى حالتها العادية ورجعت إليها مداركها ، أدمت التأثير عليها بالإشارات المرضية بمحنة إيقاظها كلية . فلم يمر إلا دقيقة أو دقيقتان حتى قالت لي أني شارع في تنويمها بدل إيقاظها ، فكلفتها أن تترك نفسها بدون أن تحشى شيئاً ، فاعترها دور ليتارجيا مكث مدة ، ثم استيقظت منه في دور انتقال نومي ، فسألته عما إذا كانت لم تزل عند المسيو س. - هو سيدها الحالي - فأجابت بالسلب ، قائلة أنها تركته من منذ ثلاث سنين لترجع إلى بلدها في م... وأنها الآن لدى أهلها ولها من العمر ٢٥ سنة - مع أنها الآن لا تجاوز ١٨ سنة ولكنها ترى مستقبلها - .

فأثرت عليها ثانياً بإشارات عرضية ، فاعترها دور ليتارجيا كانت في أثنائه في غاية السكون، ولكن لم يمس إلا قليل حتى لاح عليها ألم شديد جداً. فأدارت وجهها وخبأته بيديها ، وبكت بكاء مرأ حتى أن مدام س . تأثرت من فعلها

غاية التأثير وانسحبت إلى غرفة أخرى ، فلما وصلت إلى الدور التالي ، وهو ذووز الانتقال النومي ، ظهرت حزينة كئيبية كما كانت ، فسألتها عما أصابها ، فلم تجب ولفقت وجهها كأن بها حياء من شيء ، فأعملت الظن والحدس في سبب آلامها ، وقلت لها : لعلك تزوجت الآن . فقالت : « لا ، إنه لم يرد مع أنه وعدني التزوج بي وعداً صريحاً » ، فقلت لها أخبريني عن إسمه وأنا أجتهد في التأثير عليه وإقناعه ، فأجابتنني قائلة : « إنك لن تصل إلى غاية معه ، وإنني قد بذلت استطاعتي فلم أنجح » . فعملت منها أنها لم تزل في بلدتها ، وأن سنّها بلغ ٣٢ سنة ، وأنها أصيبت بما أصيبت من منذ سنتين ، ولم أنجح في معرفة إسم الذي تبعها .

لما رأيت حالتها من الكرب الذي أثر علينا جميعاً لشدة وقعه وظهور فداحته ، أعدتها إلى حالتها العادية بالإشارات الطولية وهي مارة على الأدوار المتعاقبة من الليتارجيا والانتقال النومي .

الجلسة الثانية : أعدت أعمالى السابقة ، فقهرت ذاكرتها أولاً بالإشارات الطولية ، ثم سرت بها نحو المستقبل بواسطة الإشارات العرضية ، فاعتراها بعد الحالة الاعتيادية دور من الليتارجيا فيه هدوء ، ثم استيقظت وهي في سن ٢٥ سنة في بلدتها ، ثم اعتراها دور ثانٍ من الليتارجيا بآلام وخجل كما مر ، ثم استيقظت ثانياً في سن ٣٢ سنة فذكرتها بعلاقتنا السابقة في (فوارون) وأقنعتها بأن تثق بي ، فلفظت إسم متيمها بارتباك ، وإذا به شاب من الزراع في بلدتها إسمه (أوجين ف .) وأنها قد جاءت منه بولد^(١) ، فزدت التأثير عليها ، فاعترتها ليتارجيا ثم أعقبه انتقال نومي ثم استيقظت في سن ٤٠ سنة ، ساكنة ببلدتها م... وهي في غاية الحزن ، وعلمت منها أن ابنها مات قبل قليل ، وأن أوجين ف . تزوج بأخرى .

(١) بحثت في تلك البلدة فوجدت أن هذا الشاب موجود بها الآن ، ولد سنة ١٨٥٨ من عائلة فلاحية مثرية .

فزدتها تأثيراً فاعتراها دور رابع من الليتارجيا أعقبه دور رابع من الانتقال النومي ، وإذا بها في سن ٤٥ سنة ، معاشها خياطة القبعات لأحد الحياطين ، وجدها مكتئبة جداً وليس لديها علم بسادتها الأولين ، وعلمت منها أن لوزيه أصدق صديقاتها في (فوارون) قد كتبت لها ثلاث خطابات ثم قطعت المكاتبة .

فزدتها تنويعاً بالإشارات العرضية المهرمة وكنت قد تعبت فسألتها بعد جملة دقائق من دور ليتارجيا ظاهرية عما إذا كانت قد تقدمت أدواراً عديدة إلى الأمام ، فأجابت بأنها الآن في غاية الهرم والشيخوخة ، وأنها عائشة بمجهود جيد بفضل خياطتها، ولكن الآن نسيت شيئاً من آلامها السابقة ، فكلمتها عن الموت ، وسألتها عما إذا كانت تود أن تعرف ما سينالها متى تركت هذه الحياة . فأجابت بالإيجاب ، فقلت : إذن يلزمي أن أزيدك هرمًا ، فقاومت كثيراً ، ثم لما أكدت لها أنني سأعيدها إلى حالتها الراهنة رضيت ورضخت . عند ذاك زدتها إشارات عرضية ، فلم تمر إلا دقيقتان أو ثلاث دقائق حتى رأيته انقلبت على ظهر كرسيها بآلام شديدة جداً ، ثم خرت إلى الأرض واعتراها النزع وسكرات الموت ، فزدتها مغطسة لأجاوز بها هذا الدور الشديد ولكي أسأله ، فماتت ، فرأيته غير متألمة ، بل ولم ترَ أرواحاً ، وأمكنتها أن تتبع جنازتها ودفنها ، وتسمع ما صار يقوله الناس عنها ، كقولهم : « الموت أولى بهذه المرأة المسكينة فليس لديها ما تقيت به نفسها » . ورأت أن دعوات القس لم تفدها فائدة تذكر ، ولكن دورانه حول تابوتها كان يمنع احتفاف الأرواح الشريرة ، وشاهدت أن الأفكار الاسبريتية التي تعلمتها عند سيدها القديم قد نفعها جداً لأنها أعلمتها بحقيقة حالها .

فلما وصلت بها إلى هنا ، لم أرَ حسناً أن أبعدها عما وصلت إليه ، فأعدتها إلى حالتها الأصلية بالإشارات الطولية ، فأحدثت الظواهر التي مضت ، ولكن بطريقة عكسية ، فإنها تتهقرت حتى مرت إلى دور النزع ، ثم منه إلى علاقتها بذلك الرجل .

* * *

ما هو الإسلام

*

زيادة بيان

لو أدرك الناس كافة معنى الإسلام ، وفقهوا كنه ما يرمي إليه ، لما بقي على وجه الأرض من يدين بدين آخر ، لأنه مطلوب كل روح ومرمى كل قابلية ، وأنشودة كل استعداد ، ومطمأن كل إحساس ، ومنتهى كل عقل من معنى الدين والإيمان ، وهذا سر قوله تعالى : « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون » ولولا أن الإسلام دين ينطبق على كل قابلية واستعداد ، ويلائم كل عاطفة وإحساس ، لما كلف الخالق به عموم خلقه من إنس وجن ، وهو سبحانه وتعالى القائل بلسان الرحمة : « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » .

هذا إجمال يستدعي شيئاً من البسط ، وإنا موجزون الآن بحثاً في هذا الموضوع ، نفصل به للقارئ معنى تكليف الخلق كافة بهذا الدين ، ونفسر له ما يقوله علماء المسلمين من أن هذا الدين سيرت عموم الأديان ، ويسود على جميع نوع الإنسان ، وأنه منطبق على بكل قابلية وصالح لكل جيل من البرية . وهو بحث جليل الفائدة يحلي لنا الحقيقة الإسلامية في أجلى مظاهرها وأكمل معانيها .

الناس أمام الأديان

الناس ثلاثة أقسام: فهم إما جهلة لا يدرون من معنى الوجود والحياة والعالم ما علمه بعضهم من أفواه بعض علماء ناقصاً مشوشاً ، وإما علماء وقفوا من غايات العلم على قدر ما فتح الله على الناس من حقائق طبيعية وأسرار كونية ونواميس وجودية ، وإما أوساط لم ينحطوا إلى حضيض الجهال ولم يصعدوا إلى منصات العلماء ، فهم وسط بين ذلك. هذه أقسام ثلاثة كلية بينها أقسام ثانوية قد لا تعد ولا تدخل ضمن حد . فإن الجهال أصناف شتى وطبقات عدة ، وكذلك العلماء والأوساط ، إلا أن صعوبة هذا الاستقراء وعدم فائدته لنا في موضوعنا هذا يقف بنا عند هذه الأقسام الكلية ، فإننا إنما نريد أن نعطي قارئنا صورة جميلة عامة ، لها صور تفصيلية لا تستقصى ، تتغير بتغير الأحوال والظروف ولا يمكن إدخالها إلى قاعدة . فلندرس الآن كلاً من هذه الأقسام من حيثية علاقته بالدين ، ليرى قارئنا تفصيل ما أوجملناه له في مقدمة هذه المقالة ببيان جلي وشرح كافٍ ، فنقول :

حظ الجاهل من الدين

قلنا الجهال أقسام لا يمكن حصرها بالضبط ، ولا فائدة لنا هنا من التقييد بها والسمي في حصرها ، فإنه يكفي أن نعرف مقدار الجاهل في العرف فقط . لا نريد بالجاهل من لا يقرأ ولا يكتب فقط ، فقد يكون الرجل قارئاً كاتباً وهو من الجهل بحيث لا يدري أنه جاهل .

إذا كان يمكننا أن نشبه حياة العالم بحالة الإنسان في اليقظة في وضوح مجال الوجود أمامه ، ونصوع أشيائه في نظره ، وإدراكه أطراد علله في إنتاج معلولاتها . وارتباط أسبابه بمسبباتها ، وانتظام حلقات الكائنات واتساقها ، يمكننا أن تشبه حياة الجاهل بحياة الإنسان في الحلم ، فهو يرى ويسمع ويبصر ويشم ويحس بكل ما هو من خصائص الحس ولكن إحساساً ناقصاً غير مرتبط ولا متسق . يرى الملل

ولا يجد من نفسه القوة على رؤية معلولاتها ، ويرى المعلولات ولا يرى عليها ، فيخلط بينها خلطاً وربما علل وجود الشيء بما هو سبب عدمه . يرى الحوادث تترى وتمر فيحسبها حوادث يقذفها الوجود على غير قاعدة ، وتلفظها الشؤون بغير ضابط ، لا حظ له من تتاليها إلا الإشراف على آثارها والفرح والحزن بما يقع على حسه منها .

الجاهل قليل العجب بالبدائع ، ضعيف الشعور بالجمال على أخص معانيه لأنه لا يعرف النظام ولا يدرك معنى الائتلاف والاتساق ، دنيء الحظ من اللذة من حيث هي ، لأنه محروم من اللذات المعنوية لعدم قابليته للشعور بها ، ولا نصيب له من اللذة إلا ما يشعر به جسده ، وهو مما يشاركه فيه العالم ويزيد عليه شعوره بمكان تلك اللذة من عالمها الخاص بها .

كل منا علم الجهل علماً ذاتياً وذاقه ذوقاً وجدانياً حينما كان طفلاً من بعد السنة السابعة إلى السنة الثانية عشرة تقريباً ، وقد يزيد هذا التقدير عند بعض الناس وقد ينقص على حسب الأحوال ، وهو أمر لا يغير جوهر الموضوع ، فكلنا ذاق الجهل وعلمه ويستطيع أن يعطي نفسه منه صورة على قدر طاقته في تصوير المعاني ومكانه من حسن المذاكرة .

هذا الجاهل لا حظ له من الدين إلا على قدر ما يخفف عنه من ألم في مصيبة ، ويخفف له من دمة في نازلة ، من وعد بأجر ونعيم ، وإبعاد على معاقبة عدولئيم ، أما فيما يسمو على ذلك فشعور الجاهل به ضعيف ، وطلبه له أضعف ، لذلك ترى شيعة الباطل من الأديان جهالاً كلهم ، وقد يكون معهم أفراد من الأوساط المتأثرين بآثار العادة والألف ، لأنهم لا ينتظرون من الدين إلا التعزية في وقت الشدة ، والعدة بالتعويض في دار بعد هذه الدار . وهذه الخاصية موجودة في سائر الأديان على خلاف بينها في وجوه تلك التعزية ووسائل ذلك التعويض وموجباته . لهذا لا يفكر الجاهل في أن يشور على دينه بشك أو يقاومه بريبة ، وإن كان يتألم من تناقض يحده في بعض قواعده واختلاف تصادفه في أمهات

مسائله ، إلا أنه ألم لا يلبث مع سلطان العادة وبطش الوراثة و سطوة التقليد
 الأعشى ، فتراه لا يكاد يضطرب بوجدانه هاجس من مقدمات الشك حتى تغشاه
 غاشيات الوراثة من كل فج ، فيعتري ضميره نوعاً من الإغواء ، فلا يفيق إلا وهو
 في وادٍ آخر من أمور حياته وشؤون جهاده ، مع كل هذا فالجاهل المسلم أحسن
 حالاً وأوسع صدرأ وأقل هواجس وأروح روحاً من أي جاهل من جهلة
 الأديان الأخرى ، لأنه لم يكلف باعتقاد ما لا يعقل ، ولا بتصديق ما لا يدرك ،
 ولا بعمل ما يشق عليه ، ولا بقتل عاطفة من عواطفه ، فهو يحس من نفسه الحرية ،
 ويأنس من روحه الغبطة والسرور دائماً ، فتراه في صلاته وصومه ونسكه وتسبيحه ،
 حتى في سلامه ودعائه فرحاً مسروراً مطمئناً مرتاحاً ، يكرر الحمد مراراً في يومه
 على أن يُخلق مسلماً ، ولا يرى فوق ذلك نعمة ، ولا يحيش في صدره أن يرتد عن
 دينه لأي سبب يمكن تصويره ، بينما ترى جهال الأمم الأخرى يسلمون كثيراً ،
 ولو غنيت صحف الأخبار في بلادنا وفي غيرها باستقصاء عدد الذين يسلمون يومياً
 لبلغ في السنة مئات الألوف . وقد سمع عن أهل الملل الأخرى من يهدد أهله
 بإسلامه إذا لم يسعفه بمطلوبه ، ولم يسمع عن أجمل المسلمين مثل هذا التهديد
 مطلقاً ، ولو بلغ ألمه وكدره أقصى مبلغه ، وفي هذا دليل محسوس على الطمأنينة
 السائدة على نفسه والهدوء المستفيض على روحه .

الأوساط والدين

قلنا أن بين الجهال من الأمم والعلماء طائفة وسطى لم تنحط إلى حضيض الجهل
 ولم تصعد إلى قمة العلم ، فهي في عالم وسط في الحياة ، ويمكن تشبيه حالها في
 الوجود بالنسبة لشعورها به وبنظام كائناته وارتباطها بحالة الإنسان بين النوم
 واليقظة ، يشعر شعور الصاحي ويدرك مداركه ، وليس كالصاحي في ضبط
 علاقات ما يقع على حسه من الحوادث وإدراك النسب الموجودة بينها ، وهو لا
 يعنى بذلك ولو غني به وسعى وراء تحصيله خاتته وسائله فيحصل منها ما يشبه
 الحقيقة وليس بها . ولو كلفت نفسك باستشراف أفكار هذه الطائفة ، وهي

الشق الأعظم من متنوري الأمم ، لرأيت لكل من أفرادها فلسفة خاصة تشمل كل المسائل الإنسانية ، فله فلسفة في الدين والعلم والمدنية وال عمران والأخلاق على قدر وسائله ، تعطيك شكلاً فلسفياً كاملاً ، وإن كان ناقصاً من جهة الإستقراء والاستدلال وخالية من روح التحليل والتشريح ، ولكنها على أي حالة فلسفة يقنع بها أهل طبقتها ، ويقف معها ذووها من أهل درجتها .

قلنا أن هذه الطائفة لها فلسفة على الدين خاصة بها ، فتتطلب ديناً ينطبق على مقررات العقل ولا ينافي بدائنه الحس .

ديناً يحببها في الحياة ولا يزهدا فيها .

ديناً ينشطها للعمل ويحرضها على استصلاح المعيشة .

ديناً يحثها لطلب العلم ويدعوها لاحترامه واستشاره .

ديناً يبيح لها مجال الفكر ويفسح لها ميدان النظر .

ديناً يسمح لها بالتمتع بالذائد البدينية المعتدلة ولا يحرم عليها إلا الإفراط فيها .

ديناً يفيض على نفوسها روح الحرية ويبث في أفئدتها حرارة الشم والحمة .

ديناً يفضي بالروح إلى خالقها ولا يقيم الوسطاء بينها .

ديناً يرحمها في ضعفها ولا يطلب منها فوق طاقتها ، ويتنزل معها إلى حيث هي ويعلو بها ولا يعلو عنها .

ديناً يراعي بها أدوار الطبيعة ، ويلاحظ لها أطوار الحياة فيعطي لكل دور ما يناسبه ، ويقابل كل حال بما يلائمه .

هذا هو الدين الذي يتطلبه الأوساط من الأمم ، ولا نجد فيما نراه من صور الأديان الموجودة للآن ديناً فيه هذه الخاصية وزيادة غير الدين الاسلامي . لذلك ترى الأوساط من هذه الأمة أغير الناس على دينهم وأحام قلباً على كرامة ملتهم ، حتى أنه ليوجد بين أوساط هذه الأمة نهضة دينية تشبه من كثير من الوجوه تلك النهضات التاريخية ، وقد سرى تيار هذه الحماسة الدينية في الأفئدة كافة ،

وصار من مقررات الرأي العام اليوم أن تأخر المسلمين سببه ترك الدين وهجر تعاليمه ، وهو إجماع عجيب في عصر هجر الدين فيه كل الأمم الراقية . والإسلام وإن يكن حقيقاً بهذا الإجماع وزيادة ، إلا أننا نعجب من أن فتنة المدنية التي اجتاحت كل عاطفة فينا كيف أبقت على هذه العاطفة الدينية مع معارضة المدنية لها جملة وتفصيلاً .

هذا عجيب في ذاته ، ولا علة له إلا أن الإسلام أنشودة روحية غالية جداً لا تسطو عليها فتنة مها عمت وطمت ، بل ربما كانت الفتنة تبعث النفوس إليها وتأخذ بأكظام العواطف لهفاً عليها .

كيف لا يكون التفاف أوساطنا حول الإسلام عجيباً وكل شيء في الشرق الإسلامي اليوم منفر من الدين ومبعد عن الإيمان واليقين ؟ أمامهم مدنية قامت بلا دين ، بل بنت عظمتها من أنقاض مجد أشياعه ، وهي للآن تعمل على إسقاطهم وإراحة العالم منهم ، وبين أيديهم جرائد ومجلات تدرس لهم السم في الدسم ، وتصور لهم العلم الأوروبي في صورة وحش كاسر سطا على العقائد فقوضها ، وعلى التقاليد الإنسانية فهدمها ، وعلى كل قديم فأوهى أساسه ، وتركه خاوياً على عروشه ؛ وزيادة عن ذلك فبين أيديهم نفر من شذاذ الآفاق أتوا بلادهم للارتزاق وهم من عدم احترام دينهم بالمكان الأسفل ، وكفى بهم مثلاً سيئاً لأمة أصابتها مموهات سحر هذه المدنية إصابة أفقدتها التمييز والرشد . أليس إصرار أوساط المسلمين الآن ، رغماً عن كل هذه الحوائث على الدعوة إلى الدين والحماسة به ، أمراً عجيباً مدهشاً ؟ نعم ، والذي هو أعجب من هذا وأدعى للبحث ، هو ذلك السر الكبير الذي أودعه هذا الدين القويم ، وما منحه من لدن خالق الكون والإنسان من تلك القوة الطائلة التي تسمح له أن يقارعها كل هذه الحوائث الصورية والسواحر المعنوية والفتن الاجتماعية والفردية ويتغلب عليها ، ونكون في القرن الرابع عشر الهجري أو القرن العشرين الميلادي على الصفة التي نحن عليها ننتظر روحاً إسلامية تحل بنا ، وحياة محمدية تفيض علينا ، فترجعنا إلى مثل ما كان عليه آباؤنا صلاحاً وكمالاً .

لا يمكن أن يكون هذا كله إلا لأن الإسلام حاصل على الخصائص التي ذكرناها وزيادة، ولو لم يكن كذلك لما أمكن أن يكون هذا أثره على العقول والعواطف في عصر أصبح فخار أهله، فضلاً عن شعارهم، الطعن في الأديان والإقرار بتخلصهم من سلطة سائرهما .

هذه الطائفة الوسطى تعتري أفرادها شكوك في بعض مقررات الدين ، ولكنها شكوك مشوبة بعاطفة من الغيرة والحب ، فترى الرجل منهم يشك ويتمنى من صميم فؤاده أن يرزق بمن يزيل له شكه ، أكثر مما يتألم من فقد ابنه مخافة من أن يفصله ذلك الشك عن أنشودة روحه ، ومطمأن عواطفه وهو الإسلام . وقد رأينا بأعيننا شاكين يتألمون من وجود الشاكين ، فهم بهذا الفعل المتناقض كأنهم يعترفون في سويداء أفئدتهم بفساد شكهم وحقيقة الدين في ذاته ، وإن كان عقلهم يتطلب برهاناً من عالم العلم يزدادون به قوة في عالم الاعتقاد ، وهذه سلطة على النفوس قد لا تصادف في متبعي دين غير هذا الدين .

يقول بعض المتفلسفين هذا تأثير قانون الوراثة ، وأثر من آثار قوة العادة ؛ ويغيب عنهم أن لقانون الوراثة حداً محدوداً ولسلطة الأوهام العادية نفوذاً معلوماً ، فإن الحقائق الساطعة، بل الحوادث المضلة والفتن المفسدة المستمرة تقف أمام قانون الوراثة حيناً أو أحياناً ، ثم تحمل عليه حملة منكرة فتبديد آثاره تبديداً ، وتصل في اندفاعها إلى أبعد ما تصل إليه لو كان الطريق أمامها خالياً ، لذلك ترى فجور الفاجر بعد الصلاح أشد وطأة من فجور من نشأ على الفجور من أول مرة .

على أن هذا القانون الشديد البطش ، لماذا يصدق على المسلمين دون غيرهم ؟ ها هي شعوب أوروبا لم تقوَ فيها الوراثة الدينية على صد كتائب الشبه والشكوك ، فجئحت إلى الإلحاد عامتها وخاصتها ، وجاهر الكل بنبذه للدين على حد سواء . بل هذه أمم الشرق الأقصى من الهند إلى الصين ، إلى سائر الأمم الأخرى ، سواء كانت أسيوية أو أفريقية مما يستوي في الجهل مسلموها وغيرهم ترى المسلمين ثابتين

على دينهم ، مستبشرين بعقائدهم ، وترى غيرهم من الوثنيين المجاورين يدخلون إلى ملتهم أفواجاً أفواجاً بطريقة مستمرة تشبه الحوادث الطبيعية ذات النواميس الثابتة ، فلماذا تشتد آثار الوراثة على المسلمين وتضعف عن الآخرين؟ أليس لكون سلطان الإسلام على العقول والأرواح قوياً جداً يصعب ، إن لم نقل يستحيل ، زحزحته عن مكانه ؟

هذا الأثر بعينه ظاهر في الطبقة الوسطى من المسلمين إذا قورنوا بأمثالهم من الأمم الأخرى ، وهو دليل محسوس على ما نقول من أن الإسلام مطلب كل روح وأنشودة كل استعداد وقابلية .

كما أن هذه الطبقة الوسطى لا تتنزه عن شك في الدين ، كذلك هي عرضة لنفثات المشككين ، ولكن لا نتيجة لهذه النفثات إلا تثبيتهم في دينهم وإن كان ذلك خلاف المتبادر للذهن .

ذلك لأن المشككين إنما يتصيدون الشبه على القرآن وعلى الداعي إليه تصيداً ، ويتسففون في صوغها تعسفاً بيناً ، وفوق هذا كله فإنهم يتسلحون لها بسلاح من الانتقاد ماض جداً ، فإذا تشبع أحد المسلمين بشبهاتهم وتسلح بتلك الأسلحة الانتقادية في نقد ما يقدمونه إليه من تعاليم ديانتهم التي يدعون إليها ، كر راجعاً إلى الاسلام رغم أنفه لما يجده أمامه من التناقضات والتعاكسات التي لا تدخل تحت حصر ، فيرجع للإسلام لا رجوع المفضل له على غيره ، بل رجوع الموقن به المتحمس له ، قالياً على نفسه قوله تعالى : « أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله » .

ثم إن هذا التشكيك على دين الإسلام من أولئك المشككين يفيد الإسلام من جهة النشر فائدة كبيرة جداً ، ذلك أننا قلنا أنهم في تشكيكهم يتصيدون الشبه تصيداً ، ويستعملون سلاحاً انتقادياً حاداً جداً ، فيطلع أهل ملتهم بحكم الحال على تلك المقالات الانتقادية الحادة ، سواء كانت في الحوادث التاريخية أو في الأمور الاعتقادية أو في المعاملات ، فيكتسب الشاب منهم قوة انتقادية خاصة

به تشتد وتضعف على قدر مداركه ، فإذا استعرض معتقداته أمام نظره بذلك العقل الانتقادي الصارم وأشرف عليها ، وهي على ما يعلم الناس من التناقض والمجافاة لبدائه العقل في أكثر جهاتها ، رجع والشك ألصق به من ظله ، فلا يجد له محيصاً إلا السكوت على مضض ، وإلى متى ؟

بهذه الصفة ترى أن هؤلاء المشككين يخدمون الدين الإسلامي أجلّ خدمة وإن كانوا لا يتوهمون ذلك ولا يضطرب في خيالهم . ولو كان في بلادنا إحصاءات لرأينا أن عدد الداخلين في الدين الإسلامي في هذه الأيام الأخيرة التي انتشر فيها أولئك المشككون يزيد يوماً بعد يوم ، وهو وإن كان لانتشار العلم أثر كبير في إحداثه ، لأن العلم يبعث الإنسان نحو الحقيقة دائماً ، إلا أن لأولئك المشككين أثراً يذكر أيضاً ، فإنهم بتشكيكهم يوقظون العواطف النائمة ، ويبعثون الشبه السكامة ، ويجعلون المسألة الدينية في مجال البحث والمجادلة ، وكفى بهذا الجهاد محرضاً للشاكين منهم على ترك دينهم والمجاهرة بزعزعة يقينهم .

قلنا أن هؤلاء المشككين لا يكسبون من وراء جهادهم شيئاً غير تثبيت المسلم في دينه ، ونصبه مناظراً لدوداً لهم ينقض بنيانهم ويفض حبالهم ، لأن المسلم إن شك في دينه لجأ إلى النظر والاستدلال واعتصم بالعلم والبرهان ، وكل هذا من أصول ديانته وقواعدها ، فهل يسمح له أهل دين آخر بأن ينظر ويستدل أو يستشهد بالعلم والبرهان على أصل من أصول العقائد .

إذا تقرر هذا ، علمنا أن الطبقة الوسطى من المسلمين يستحيل عليها أن تصباً عن دينها إلى دين آخر ، وأنها أثبت بدينها عن نظيراتها لدى الأمم الأخرى ، وهذا ما قدمناه من أن الإسلام أنشودة كل فطرة ، ومطمأن كل عاطفة ، ومطلوب كل استعداد وقابلية .

* * *

العلماء والدين

أريد بالعالم هنا : العالم المصري الذي تركزت في مداركه صورة مصغرة من مغلومات هذا الجيل على اختلاف أصولها وفروعها ، وتجلت له بكل شدتها وهولها . تلك الممارك القلمية الصارمة التي حدثت بين حفظة القديم ، وأنصار الجديد في القرن الماضي ، والذي سبقه .

أريد من صنف العلماء المومسا إليهم من سلمت فطرهم من الطمس ، وطهرت جواهرهم من خبث العماية الجبلية . فإننا في بعض كتبنا قسمنا الفطر إلى ثلاث : فطرة مؤمنة ؛ وفطرة كافرة ؛ وفطرة جامدة . لا إلى هؤلاء ، ولا إلى هؤلاء . فأريد هنا من العالم : العالم السليم الفطرة المتلألئ الوجدان ، فهو الذي أقصده ، وهو المستحق لهذا اللقب الفخم بأخص معانيه ، بل هو الذي يصدق عليه أنه صورة حية من حال القرن الذي يعيش فيه . أما غيره فلا يريك تلك الصورة إلا ناقصة مشوهة .

الدين روح كلية مستولية على سائر الأرواح الجزئية استيلاء البحر على أحيائه السابجة فيه ، لكل روح منه قسط يناسب مداركها ، ونصيب يوافق شعورها ، ويلائم استعدادها ، ومن أنكر الدين في ذاته ، فقد أنكر أكبر أرواح الوجود تأثيراً ، وأقواها على العالم تسلطاً ؛ وكان كالعلقة الصغيرة .. تسبح في القطرة ، وتنكر البحر الذي يشملها ، أو كالبعوضة ، تمرح في جو الحجرة ، وتجدد الجو الذي يحملها .

قلنا الدين روح شاملة تأخذ منها كل روح على قدر حالها ، وقد درسنا حظ الجاهل من الدين وحظ الطبقة الوسطى منه في الفصلين المتقدمين ، وهنا ندرس حظ العالم منه .

أخص صفة من صفات العالم المصري (الإقرار بالجهل) حق حدد الاستاذ إيزوليه المدرس (مدرسة فرنسا) ، العلم بقوله : (إن علومنا هي الجهل المرتب) ،

وقد حلل الفيلسوف الإنجليزي هربرت سبنسر العلم الإنساني في كتابه (الأصول الأولية) ، فأحاله إلى درجة المعجز المطلق أمام ادراك كنه أصغر ذرة من ذرات الوجود ، وقرر أنه لا يكسبنا في الإلمام بأشياء الوجود إلا إدراك علاقاتها ببعضها وصفاتها الخارجة عن كيانها وكنهها .

إذا تقرر أن الإقرار بالجهل هي صفة العالم العصري ، وأنت العلم الحالي قد بث هذه الروح في نفوس أهله ، قلنا أن كل دين لا يكون من أوليات أصوله ومبنى قواعده ما يلائم هذه الروح التي اكتسبها العالم العصري من العلم الحاضر ، فلا يصلح أن يكون له ديناً . بل أن كل دين لا يقول للإنسان : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً » ، ولا يعترف له بقانون الترقى بالنص ، قائلاً له : « وقل رب زدني علماً » ، ولا يريه أن المعلومات غير قابلة للانتهاء ، وأن الإنسان بإزائها شيء صغير ، كقوله تعالى : « قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفذ البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً » ، قلنا كل دين لا يواقي الإنسان من جهة هذا الميل لا يصلح أن يكون ديناً للعالم العصري بوجه من الوجوه .

أكبر مسألة متسلطة على الفؤاد الإنساني هي مسألة العقيدة بوجود الخالق . مسألة تتولى الانسان من أول شعوره بالعالم حتى كأنها قطعة من فؤاده أو كأن فؤاده قطعة منها . فلا يزال يترقى في الشعور بها حتى ينتهي لأن يعجب من نفسه في عدم استقرارها من هذه المسألة عند حد ، وكيف يقف منها عند حد وهي مسألة الخالق جل جلاله الذي ليس كمثل شيء .

قد كشف العلم العصري لذويه من أحوال الأمم البائدة أو العصرية الجاهلة في درجات مداركها من هذه العقيدة ، ما يريك بالحس كيف يعبد الإنسان خياله وكيف يحسم وهمه . صورت كل أمة الخالق ، تقدرت صفاته ، على قدر عقولها وعلى حسب قوة خيالها ، حتى لو أردنا إيراد مذاهب كافة الناس في هذه العقيدة للزمنا أن نفردها مجلداً كبيراً ثم لا نستطيع حصرها بالضبط . أفلا يعذر العالم العصري أمام هذه الأفكار بل الأوهام المختلفة ، إن لفظها كلها إلى عالم

الخرافات والأضاليل، وحكم عليها حكمه الصارم الذي يرهبه اتباع الأديان الباطلة في كافة البلدان ؟ إذا كان العلم المصري قد كشف لذويه بالدلائل العيانة أن الإنسان قاصر عن إدراك ذات المادة ، وأنه جاهل جهلاً مطلقاً حتى فيما يدعي معرفته ، فكيف يشرب إلى زعم تصوير الخالق بصورة ذهنية ، ويتعالى إلى الحكم على ذاته وصفاته بحكم ليس له عليه دليل مشاهد ؟ لا جرم أن كل دين لا يقرر في أوليات أصوله عبز الإنسان عن إدراك الخالق ووجوب وقوفه عند حده ، كقوله تعالى : « ليس كمثله شيء » ، « يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علماً » ، لا يصلح لأن يكون ديناً للعالم المصري مطلقاً . بل لا يريح بال العالم المصري ويقطع هواجسه إلا دين ينص له ما نصه له العلم من أن كل تلك العقائد أوهام وظنون ، وأن الحق وراء ذلك ، كقوله تعالى : « إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون » ، « إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان » ، « وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً » .

وكما أن العالم المصري يرى من العلم أن يقر بمعجزه عن إدراك خالق الكون ، كذلك يرى من العلم أن يقر بقصوره عن إدراك كيفية خلق الكون وإن لم يكن ذلك الإدراك من المستحيلات عليه . وكيف لا يقر بقصوره وكل يوم يكتشف من قوى الوجود ما لا كان يحلم به ، ويرى بعينيه أن مجال البحث بعيد الأكناف ، ومجاهيل الوجود لا تدخل تحت حساب ، وتبرهن له المكتشفات كل حين بأنه كان جاهلاً وأنه لا يزال كذلك حتى يأذن الله له بشيء من الفتح لا يضطرب في خياله ؟ .

من هنا يرى العالم المصري أن العلم متبع تاموس الارتقاء وهي حقيقة لا يمتري فيها إنسان ، فلا يجب أن يكون دينه الذي يدين الله به واقفاً بالعلم عند حد ، أو حاكماً عليه بحكم . بل يرى أن الدين أجل من أن يتبع العلم في دور من أدواره السابقة أو اللاحقة ، لأنها كلها فاقصة باعتراف الحس والملاحظة . فكل دين من هذا القبيل لا يصلح أن يكون دين العالم المصري ، فهو لا يرضخ

إلا لدين يقول له : « ويسألونك عن الأهلّة قل هي مواقيت للناس والحج » ،
إشارة إلى أن ليس من وظيفة الدين إلا الحقائق الأولية لا المعلومات الناقصة
الجزئية ، ويقول له : « قال فما بال القرون الأولى قال » أي موسى « علمها عند
ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى » ، إشارة إلى أن ذلك ليس من وظيفة
الأنبياء حتى يسألوا عنه ، بل هو مما يفتح الله به على بعض المشتغلين به .

تُري العلوم التاريخية للعالم المصري حال أهل الأديان كلها في اختلاف وشقاق
واقفين مع مفاهيم الألفاظ متشاكسين في مضامين الكلمات ، منقسمين فرقاً
وأحزاباً ، يكفرون بعضهم بعضاً ويمزق بعضهم أحشاء بعض . يرون هذا شائعاً
في أهل كل دين على حد سواء ، غير مقصور على قوم دون قوم ، فيرون أن ذلك كله
ليس من الدين وإنما هو من الأهواء والنزعات ، فلا يرضى العالم المصري أن يدين
الله إلا بدين يقول له : « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء » .

تُري الفلسفة الانتقادية التاريخية للعالم المصري أن كتباً قد كتبت لدى أهل
كل دين على حد سواء ، وملئت بالمقالات الطويلة الذبول في الكلام على الخالق
وصفاته وأحواله ، وعلى مذاهب المخالفين لهم مما يستوجب الردود المستفيضة
ويستدعي المجادلات العنيفة في مواضيع يستوي الجميع في جهلها ، ولا يفضل
بعضهم بعضاً في العجز عن إدراكها ، فيرى العالم المصري أن كل ذلك ليس من
الدين في شيء ، وأن هؤلاء الناس إنما يتناقشون فيما وصلوا إليه من العلم ، وانتهت
مداركهم إليه من الفهم ، ولا إثم عليهم في شيء من الجدل ، لولا أنه جدل في
الدين أقاموه باسمه وروجوه بسطوته ، فلا يرضى العالم المصري إلا دين يقول
لأهله : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن
إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين » .

دين يقف صاحبه على الناموس الطبيعي في اختلاف المدارك وتباين القابليات
لإدراك الحقائق ، كقوله تعالى : « إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما
استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير » .

يرى العالم العصري من استقراء التاريخ أن حوادث اجتماعية كبيرة وانقلابات سياسية وحريرية هائلة، حصلت على أثر ظهور رجال حفظ التاريخ أسماءهم للآن، ظهوروا في أمم مختلفة، وأزمنة متعاقبة متحدن في الوجهة متوافقين في الغاية، يظهر أمرهم أولاً ضعيفاً هيناً ثم يقوى ويشدد، ولا يزال كذلك حتى تصير كل قوة بإزائهم ضعفاً وكل مقاومة استسلاماً، وهم في زمان قوتهم كما في زمان ضعفهم كبراء الأفئدة لا تستخفهم الموهات الأرضية واللذات الوهمية، أحرار لم تأسرهم فواتن الدنيا ولا سواحر الحياة، مسلمين وجوهمهم لله لا يخافون بطش جبار ولا سطوة غاشم، داعون إلى سبيل الله لا يفكرون ولا يملون ولا يضعفون ولا يجبنون، جسوم آدمية وأخلاق ملكية، قد وسع الناس حلمهم وعلمهم، واتسع لكل صدرهم ووجههم، فقراء ولكن تستغذي الملوك أمامهم، حلماء ولكن ترتعد العتاة بحضرتهم. هؤلاء القادة العظماء الذين برهنت أفعالهم على صدق أقوالهم، وجاءت الحوادث مؤمنة على دعائهم، اتحدوا كلهم على القول بأنهم رسل الله إلى خلقه، وأمنته على أسرار وحيه، وأن بينهم وبين العالم العلوي صلة مستمرة، ومدداً لا ينقطع، وأنهم جاءوا للأرواح بنورها وللعقول بريحانها، وللأفئدة بمطلوبها، وللصدر بشفاؤها. رأى العالم العصري هذه الحوادث الكبرى في التاريخ يتلو بعضها بعضاً كأنها سلسلة متجانسة الحلقات، فلم يسعه إلا الاعتراف لأولئك الرسل الفخام بوظيفتهم، وكيف لا يعترف لهم بها وقد ادعوا وأقاموا الدليل المحسوس على أنهم رجالها وأصحاب تكاليفها بنجاحهم فيما تصدوا له وهو أمر جلال، وعمل دونه كل عمل.

يرى العالم العصري نفسه مرغماً على الاعتراف لهؤلاء الرسل بوظيفتهم، لأنهم قالوا نحن أنبياء وجاءوا لمن بين ظهرانيهم بألوف من الدلائل المؤيدة لدعواهم، وقالوا نحن رسل الله ونصبوا الأعلام الواضحة على صدق مدعاهم، قالوا من آمن بنا نجا، ومن أعرض عما جئنا به هلك، فكان ما قالوه رغماً عن تألب أعدائهم عليهم وتماثلهم على إحباط سعيهم، قال كل منهم إني جئت بشريعة فاسخة

لشريعة من كان قبلي أو مكلمة لها ، وفعل كما قال وأيده الله رغماً عن كل معارضة ومناظرة .

هذه آيات يهديها تاريخ العالم الإنساني للعالم العصري ، ويحليها له بالأسلوب النقدي التحليلي تجلية لا تدع للناسر شكاً بأن هذه الطائفة الطاهرة شأناً في الوجود غير شأن الإنسان العادي ، وأن لا مشاحة في وجوب التسليم لهم بما يعزونه لأنفسهم من أنهم في عالم وسط بين العالمين الإنساني والملكوتي ، وأنهم يشرفون على ما في الحضرة الروحانية بخاصية وهبهم الله إياها بالفطرة ، فيرون من أمر الملائكة الأعلى ما لا يرى الناس ، ويأتون لنا من ذلك الطريق بمعلومات يقصر العلم أن يتوهمها توهماً فضلاً على أن يطلع على شيء منها .

يرى العالم العصري السليم الفطرة أن لا مناص من التسليم لهؤلاء الرسل كلهم بكل ما عزوه لأنفسهم من المكافات الروحانية والمقامات الملكوية لأنهم قالوا وبرهنوا ، وادعوا وأقاموا الدليل المحسوس .

نعم ، يرى العالم العصري أن يسلم لهؤلاء الرسل بشأنهم ولكن بدون تعصب لبعضهم على بعض ، وما الموجب لهذا التعصب المستغرب ؟ كيف يسوغ لمن ينظر في تاريخ الإنسان هذا النظر المجرد عن الغرض المضل ، أن يؤمن بجميع الأنبياء ويكفر بواحد منهم أو باثنين مع أن مثل الكل واحد ، والناموس الذي ساروا عليه في وظيفتهم واحد ؟ .

إذا كان هذا التعصب في ذاته عجبياً ، فأعجب منه الهوى الذي يحمل بعض الناس على التكذيب بنبوة خاتمهم وإمامهم محمد صلى الله عليه وسلم ، مع أنه أقرب منهم إلينا عهداً وأفعاله وأقواله وأحواله وسيرته محفوظة في الصدور والسطور ، تناقلتها الأمم عن الأمم من عهد مبعثه إلى اليوم ، وهي حاصلة على كل الشروط التي تسمح لأقصى أساليب الفلسفة الانتقادية أن تتناولها بحثاً وتنقيباً ، وقد بدأ أمره صلى الله عليه وسلم عجبياً غريباً ، كما بدأ أمر كل رسول ، ثم انتهى إلى أن أفرع وانتشر نوره شرقاً وغرباً ، وأحدث في الوجود تغييراً لم يحدثه أي

رسول آخر ممن يحفظ التاريخ أسماءهم ، فهل يليق بالعاقل أن يسلم برسالة كافة الرسل إلا خاتمهم وهو على ما نصف لك من وضوح السيرة وقرب العهد وفخامة الآثار وجلالة الاعمال ؟ ألا ينجل المكذب برسالته من أن يتهم نواميس الحكمة الوجودية وقوانين الحياة الإنسانية بهذه التهمة الباطلة ؟ هل عهد الناس أن الحكمة الإلهية تؤيد المبطلين ، وتعلو برأسهم فوق الرؤوس أجمعين ؟ هل عهد الناس أن العدالة الإلهية تنصر المدعين للرسالة ، وترفع من شأنهم حتى يسود دينهم على سائر الأديان ويبقى حجة قائمة للآن ؟

الله أكبر ! إذا تشكك الإنسان في رسالة محمد ﷺ فبأي رسالة بعدها يصدق وبأي رسول غيره يؤمن ؟ هذا رسول أيدته الحوادث وشهدت له الوقائع ، وأقام الوجود له من دلائل الشهود ما لا يسع العقل إنكاره ، ولا يسوغ للبصيرة جحوده ، فبأي حيلة يحجده الجاحد وبأي جسارة يكذب به المكابر ؟

هذه مسألة حلها العلم المصري ، ولئن كان في الشرق والغرب للآن رجال لا يزالون جامدين على موروثات آبائهم ، وواقفين من أمر الإنسان والإنسانية عموماً على ما وجدوا عليه أهل بلادهم ، فقد قضى العلم بأن هذا تعصب لا يطول أمده ، وقد انقطع مدده ، وان العلم قد وصل بالعالم إلى نقطة عرفه بها أن العالم الإنساني عائلة واحدة يجمعها أصل واحد ، وهي وإن كثرت أفرادها حتى توزعت في أقطار شاسعة وأصقاع متناثية إلا أنها لا تزال يجمعها قاموس واحد .

هذه الأمم التي تفرقت وتوزعت وانقطع الاتصال فيما بينها قروناً مستطيلة ، فظننت كل منها أنها قائمة بذاتها فكونت لنفسها أدياناً خاصة سينتهي أمرها كلها لأن تتصل ببعضها اتصالاً أخوياً بضرورة الأحوال الاقتصادية والسياسية والعلمية . وقد ظهر أمر هذا الاتصال ولاحت بوادره ، فإن الآلات البخارية والأجهزة الكهربائية جعلتنا نعرف عن أحوال أقصى بلاد الله في الساعة الواحدة ما لا كان يحلم أباًؤنا أن يعرفوه في سنة ، بل نحن الآن مرتبطون ببلاد لم تكن معروفة للعالم قبل خمسمائة سنة .

هذا الاتصال بين شعوب الأرض سينتهي أمره شيئاً فشيئاً لأن يمحوا اختلافات الجنسية والقومية والوطنية الذي فرقت العالم الإنساني لليوم، وكانت سبباً لكل المنابذات التي حصلت بين جميع أفراده .

هذا الاتصال يستدعي أن تقوم جميع الأمم من الدين على عقيدة يرضى بها الناس أجمعون، ولا تكون سبباً لأن يتشاكس عليها المتعاملون . هذا ما لا مناص منه ، لأن حالة التقرب بين الشعوب تولد الشعور به توليداً طبيعياً حتى أنه لو لم يكن في العالم دين فيه هذه الخاصية لأسس العالم ديناً من هذا القبيل، فما بالك وهو موجود وقد شهد له الوجود ؟

قلنا أن الأحوال الاقتصادية والسياسية والعلمية عاملة جاهدة في ربط الأمم وإيصالها ببعضها ، وهل يمكن إنكار هذه الحقيقة أحد بعد ما يرى بعينه أن التجارة وهي أخص مظاهر الأحوال الاقتصادية ، أصبحت أكبر أسباب التعارف بين الأمم شرقيها وغربيها متمدنها ومتوحشها ؟ وهل يتجاهل الناظر في الأحوال السياسية العصرية ما أحدثته من اختلاط الأمم ببعضها إن لم يكن طوعاً ففكرها؟ وهل يحسد إنسان حق العلم في مساعدة تيسير هذه الغاية البعيدة، وقد أصبح بمعلوماته الحقبة في التاريخ والعمران والفلسفة أكبر صقال للأذهان العصرية يزيل عنها تلك الأغشية التعصبية التي ركها على مدارك البشر أولئك القادة الذين تسلطوا على الشعوب آماداً طويلة، فصوروا لهم الحياة بغير صورتها، ومثلوا لهم الجمعية البشرية تمثيلاً ساقهم إليه الحقد وحب الأثرة والتفريق .

نعم، جاء العلم فأرى الناس عموماً معنى قوله تعالى: « يا أيها الناس إنا خلقناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » . فبات محبو الخير العام ينظرون ذلك اليوم الذي يكسر فيه العلم تلك السدد الوراثية التي أقامها القادة في الأجيال الماضية بين الأمم وأخواتها . في ذلك اليوم المنتظر يدرك الناس أجمعون معنى (الإسلام) ومعنى (خاتم النبيين)، ويظهر من أمر هذا الدين الإلهي ما يشاء الله أن يظهر مما يكاد اللاحقون يساوون فيه السابقين، والله في خلقه شئون .

قلنا أن الأمم كلها مسوقة بغوامل الأمور الاقتصادية والسياسية والعلمية إلى الوحدة سوقاً قسرياً لا يمكن إيقافه، وقلنا أن هذه الحالة قلد فيها الشعور بوحدة العقيدة قوياً طبيعياً كما تشاهد بزادته الآن ، وقلنا أن ذلك الدين العام لو لم يكن موجوداً لأوجدته الشعور العام بحكم الضرورة، ثم قلنا أن ذلك الدين موجود وهو الدين الإسلامي ، فما برهاننا على ذلك ؟

نحن لأجل البرهنة على أن الإسلام جاء لتوحيد الأديان كلها وتخليصها من التعصبات التقليدية والفشوات الخرافية ، لا نتكلف أن نسلك مسالك الجدل ، ونعتمد إلى أساليب الفلسفة ، لأننا نرى أن مجرد تذكر وظيفة النبي ﷺ ، كما وصف به نفسه ودعا الناس إليه ، يكفيننا مؤونة كل جدل ، ويرينا رأي العين أن ديننا هو ذلك الدين الذي يساق البشر إليه سوقاً طبيعياً ، وسينتهي أمرهم إليه لا محالة «سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد» .

جاء النبي ﷺ داعياً الثقلين إلى دين الله الأقوم وأمامه الأعظم، وهو توحيد الله وتنزيهه والوقوف بهذه العقيدة الإلهية عند الحد الذي حددها الله به في المعنى الإنساني ، فكل ظن وكل وهم وكل هاجس يخطر بالبال مما يميل به الإنسان لتحديد صفات الله تعالى والحكم عليها بقضايا هذا العقل الناقص ، فهي مردودة على صاحبها ليست من الدين الحق في شيء، لأنها لو كانت من الحق لاهتدى الناس منها إلى النقطة الجامعة، ولما كانت سبب الخلاف والنزاع بين العالم. أليس افتراق العالم إلى مئات من المذاهب في صور هذه العقيدة يدل على أن الجميع إنما يفترون مقالاتهم من عالم الخيال والظن ؟ أليس يكفي مجرد هذا الافتراق على اعتقاد أن الداعي إليه (وهو توفيق العقل لتصوير الخالق وتكييفه في الذهن) ليس من الدين العام في شيء ؟ وكيف يكون من الدين العام ولم يفرق بين العالم في العقائد عامل أكبر منه .

لو وقف الإنسان من العقيدة بالخالق في الحد الذي يشعر به في معناه الإنساني،

وهو اعتقاده أن لهذا الكون خالقاً عظيماً قوياً حكيماً عليماً، ولم يكلف نفسه البحث فيما وراء ذلك، لما رأيت فرقا بين الأبيض والأسود من الناس في شيء، بل رأيت عقيدة أعلم العلماء لا تفرق عن عقيدة أجهل الجهلاء من هذه الوجهة مطلقاً.

جاء النبي ﷺ يدعو إلى هذه العقيدة الفطرية، ويطالب العقول بأن تتخلص من الفواشي الوهمية التي غشاها بها قادة الأديان، وهي الأساس الأول لتوحيد دين النوع الإنساني، لأن النفوس متى لفظت تلك العقائد الوهمية التي اخترعها رؤساء المذاهب وزعموا أنها وحي من الله إليهم، استحال الناس إلى تلك العقيدة الأولى الفطرية التي هي واحدة عند جميع أفراد النوع الإنساني. ومتى استحالوا إلى هذه النقطة استقامت كل عقائدهم الأخرى، واعتدلت جميع إفراطاتهم وتفريطاتهم من ذاتها، كأن التوحيد حصن الروح، وموئل المواطف، ومطمأن العقل متى وصل إليه الإنسان تأدت قواه ومواهبه إلى جانب الأمان الإلهي، والسلام الصمداني.

ألم ترَ أن العرب لم يكن بينهم وهم في الجاهلية الجهلاء والفتن الصماء، وبين ما آلوا إليه بعد إسلامهم من المكافات العلى والمقامات الكريمة، إلا أن يصلوا لدرجة التوحيد والتنزيه على الأسلوب القرآني والتعليم المحمدي؟ لا غرابة إن رأينا هذا الانتقال الفجائي الباهر من جاهلية جهلاء إلى ملكية علياء، فقلنا لا بد من أن يكون لعقيدة التوحيد والتنزيه يد قوية في إحداثه، ولا عجب بعد ذلك إن بذلنا الجهد في التحسس من هذا السر الكبير والأكسير الشافي، «والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين».

نعم إن عقيدة التوحيد والتنزيه تحمل للنفس الإنسانية روحاً من الأدب لا يقدر على الإتيان بمثلها غيرها مما يتخيله البشر، ذلك لأن هذه العقيدة تؤثر على كل قوة من قوى النفس تأثيراً مناسباً لها من الجهة الخاصة بها، فتقيمها على صراطها العدل إقامة تحير شيوخ الفلسفة وتمجز أساة الأخلاق، وأن تصغ إلى أحدثك بطرفة من هذا الباب تهديك لشيء من عجائب هذا السر.

العقيدة بوجود الخالق أول العقائد التي تولدت بالفطرة في نفس الإنسان ، فإن شئت فقل أنها لازم من لوازم معناه ، وإن شئت فقل أنها شعور روحاني حملته روحه معها من عالمها . هذه العقيدة هي أعطف شيء عليه في مصائبه ، وأحنى آس عليه في نوازله ، يعتصم بها في مخاوفه ، ويلتجئ إليها في معاطبه ، ويستسهل بها صعوبات الحياة ومرارات العيش ، ويموت بها مرتاحاً قريح العين ، ليتيقنه أن يداً تنتظره لتحمله إلى عالم أرقى من هذا العالم وقدرة تحتف به تحفظه من عاديات الفناء وجائحات العدم . تأمل في أمر هذه العقيدة التي تمس أخص جهة من جهات حياة الإنسان ، وتدبر بإمعان في شعوبها وفنونها السارية من سائر عواطف النفس مسرى الكهرباء في أسلاكها والأشعة على ذرات أثريها ، ثم دع هذا العالم الباطني واستجل هيكل الإنسان الظاهري ترقي النظر والشم واللمس والذوق والحس مستخدمة ومسخرة لهذه العقيدة أيضاً ، فما مناظر هذا الجمال التكويني وبدائع هذا العالم الحسي مما يؤثر على كل حاسة من جهة قابليتها إلا مشيرات لهذه العقيدة موقظات لزيادة الشعور بها . تأمل هذا بإمعان ثم تيقن أن كل تغير يحصل في العقيدة بالله مها كان صغيراً ، يقع من هذه المشاعر الباطنة والظاهرة موقعا يناسبه ، وينزل منها منزلة تلائم ، فإن كان هذا التغير في الجهة التي تقويها قويت كل قوى نفسه على حسب جهة تلك القوة ، وإن كان في الجهة تضعفها ضعفت كل تلك القوى ضعفاً مناسباً . ونحن لا نعي هنا بالقوة والضعف ما يعطيها اللفظان على إطلاقها ، وإنما هما قوة وضعف معنويان يدرهما كل من يشعر بقوى ذاته .

علمنا مما مر أن العقيدة بالخالق جل شأنه مستولية على سائر عواطف النفس وقواها استيلاء تاماً ، بحيث أنها تعتبر المصرفة المدبرة لتلك العواطف والقوى على ما يناسبها ويلانها ، وعلمنا تبعاً لهذا أن كل تغير وتحوير يحصل في تلك العقيدة يؤثر على تلك العواطف والقوى تأثيراً خاصاً على أشكال لا تحصى ولا تعد .

ونحن هنا قبل أن ندرس الأدب الإلهي الذي تهيه عقيدة التوحيد والتنزيه

لنفس الإنسان وجميع قواها، يحسن بنا أن نورد هنا صورة موجزة من الآثار التي تحدثها عقيدة وجود الخالق على عواطف الإنسان لنعرف بالحس كنه تسلطها عليها جميعها، ترشيحاً لإدراك كنه ذلك الأدب الإلهي الذي تفيضه عقيدة التوحيد والتنزيه عليها، فنقول :

القلب يشعر بوجود خالق لهذا الكون البديع أقامه على هذا السميت المدهش، فتهتز في العقل عاطفة تعطفه لأن يتعقله ويدركه ، فيستعين بالفكر في إيتائه تلك الأنشودة ، فيجول صاحبنا الفكر في فيافي التصورات فيعتضد بالخيال في شطحاته، فيلبسه الخيال بنشاط بعد أن يعد كافة جنوده المعنوية، فتثور في داخلية الإنسان ثورة تتيقظ لها سائر عواطف النفس وقواها ، لأن الموضوع ماس بها من أخص جهاتها ، فتهب الحواس الخارجة أيضاً من سباتها ، فتتنظر العين إلى أبعد مدى تصل إليه ، فإذا كلت وحسرت تركت ما بعد قواها لجياد التصور والفكر ، فإذا عجزا دعوا الخيال لينفذ إلى حيث لم يصل إليه ، وهكذا حتى يصل الإنسان لتصوير خالقه بأكمل صورة يشعرها، ويهبه من الصفات أكمل ما يدرك أنه كمال ، فإذا ارتقى عقله درجة أدرك أنه وصف إلهه وصوره بما لا يحسن فيصلح من خطاه ، ثم يرتقي عن ذلك أيضاً فيرجع للتغيير والتحوير. وهذا ما تربيته فلسفة التاريخ في جميع أطوار النوع الإنساني. وليس هذا موضوع بحثنا، فإننا إنما نريد أن نصور لقارئنا صورة موجزة من صور انفعال قوى النفس وعواطفها لتأثيرات العقيدة بوجود الخالق ، توطئة لإدراك كنه ذلك الأدب الإلهي الذي تهبه عقيدة التوحيد والتنزيه على سائر تلك القوى والعواطف .



اعتذار وعدة^(١)

طراً علينا في هذين الشهرين ماحال بيننا وبين طبع الملازم الشهرية « للإسلام في عصر العلم » . فنعتذر إلى حضرات قرائنا عن هذا التأخير ، ونرجو الله أن يقدرنا على تنظيم مواعيده بعد الآن ، لا سيما وقد أعددت له مطبعة خاصة أمام نظرنا ، وأصبح بذلك تحت رقابتنا وملاحظتنا ، وإنا في هذا المقام نقدم جزيل الشكر والامتنان لحضرات القراء الغيورين الذين ساءهم هذا التأخير فكتبوا لنا يستنبثونا عن السبب ، فجزاهم الله خيراً ، وإنا نعددهم تلقاء هذه الأريحية ببذل غاية الجهد في تكميل موضوعنا وتحسينه ، وسيرون بعد اليوم إن شاء الله ما يسرهم حساً ومعنى .

(١) لم نحذف هذا الاعتذار الذي أورده المؤلف ، حتى يدرك القارىء كيف أتم المؤلف مواد هذا الكتاب يجزيه خلال نيف وعشرين شهراً متعاقبة ، والجهد الذي بذله فيه في ظروف الطباعة التي كانت سائدة منذ أكثر من ثلاثين عاماً ، فقد كان المؤلف يتابع نشر أبواب وفصول كتابه على مراحل وفي صورة مقالات وردود على أسئلة القراء في الصحف ، أو محاضرات ، ثم يطبعها في ملازم متفرقة متتالية ، يضطر في بعضها إلى العودة إلى موضوع سبق له أن تحدث عنه . ثم أخيراً جمع كل ما طبع في الكتاب يجزيه . وقد عدلنا من أماكن بعض أجزاء الموضوعات وألحقناها بعضها ببعض ، تسهيلاً للقراءة وإتماماً لفائدة هذا الكتاب القيم (الناشر) .

الفصل السابع

التوحيد والتنزيه وأثرهما على المسلم

الأدب الذي تفيضه عقيدة التوحيد والتنزيه على المسلم :

لا ينكر علينا اليوم أحد أن العرب بعد أن كانوا من الجاهلية على حال من الحلل الاجتماعي والخلقي، لم يمكنهم من الصعود في مراقي العمران درجة واحدة، أصبحوا فجأة بواسطة الروح التي بعث الله بها رسوله محمداً ﷺ، أمة دانت لها الأمم طوعاً وكرهاً، وآلت إليها خلافة الله في الأرض قروناً طويلة، كانت في خلالها حاملة لواء العدل والعلم والحرية والمساواة، والرقى الصوري والمعنوي بأخص معانيها.

إذا تقرر هذا، فلا مناص من التسليم بأن لهذا الرقي الفجائي سرّاً كبيراً أقامهم من تلك الروح الكاملة العالية التي تنزلت عليهم، وما تنزلت عليهم تلك الروح إلا لما استنزلوها بما أشربوه من عقائد وخصال. من هنا كان البحث في أسرار عقائد الإسلام، هو الطريق الصحيح المؤدي إلى إدراك تركيب ذلك الإكسير الحمدي الطاهر، ولما كان التوحيد والتنزيه هو أكبر ما جاء النبي ﷺ لتقريره للعالم الإنساني، فلا شك في أنه القانون الجامع لأسرار ذلك الإكسير

كلمة ، او انه العنصر الفعال فيه من بين سائر عناصره الأخرى التي هي بمثابة المساعدات لفعله ، العلامات على أثره . وها نحن شارعون في بحث هذا الموضوع الجلل على الأسلوب التحليلي ، والله ولي المؤمنين .

التوحيد هو أن توحّد الله في ذاته وصفاته وأفعاله ، ومعنى ذلك في اصطلاح المتكلمين كما جاء في كليات أبي البقاء : « إن للتوحيد ثلاث مراتب : مرتبة (توحيد الذات) وهو مقام الإستهلاك والفناء في الله ، فلا موجود إلا الله . ومرتبة (توحيد الصفات) وهو أن يرى كل قدرة متفرقة في قدرته الشاملة ، وكل علم مضمحل في علمه الكامل ، بل يرى كل كمال لمعة من عكوس أنوار كماله . و (مرتبة توحيد الأفعال) وهو أن يتحقق بعلم اليقين أو بحق اليقين أن لا مؤثر في الوجود إلا الله . » .

وأما التنزيه فهو أن تنزهه سبحانه وتعالى عن مشابهة الخلق ، وأن تبرأ من كل ما يحيش بصدرك من الميل إلى تكييفه وتصويره ، وأن تسد نافذة الخيال في مجال التفكير فيه ، وأن تعتقد قلباً وقالباً بأنه الحي القيوم اللطيف الخبير « ليس كمثله شيء » ، « يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علماً » ، « لا تدركه الابصار وهو يدرك الأبصار » ، وأن كل سعي تبذله في تصويره بصورة ، وكل جهد تعمله في الوقوف له على ماهية أو كيفية أو كمية ، ضائع سدى وذاهب عبثاً ، وأن تجزم جزماً لا تردد فيه أن « كل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك » .

لهاتين العقيدتين أثر على نفس معتقدهما من جهة التأديب النفساني والتكامل الخلقي ، لا يدرك خطارته إلا من أشرقت عليه لمعة من نوره وحفت به نفحة من جلاله . فيها إكسيران إلهيان ، وروحان سماويتان ، تنزلان من النفس الإنسانية منزلة الشمس من سماءها ، فتطرد من دياجير الرعونات البشرية وتزيل من أدران المقتضيات السفلية ، ما لا تستقل بوصفه الأقلام ولا تتطلع لمداه الأفهام ، كما سترى له شيئاً من التفصيل .

قلت إن لهاتين العقيدتين أثراً على نفس المعتقد بهما ، وأريد بالمعتقد من يدل عليه اللفظ بمعناه الصحيح ، لا من ألصق نفسه بالعقيدة وادعاهما ، فإن أصل معنى (اعتقد الشيء) صدقه وعقد عليه قلبه وضميره ، وقد تسامح الناس في هذا المعنى حتى أطلقوه على الذين يتوهمون أنهم معتقدون وما هم كذلك في الواقع ، وما هم إلا قوم ورثوا عن آباءهم تينك العقيدتين بعد أن طال على آباءهم الأمد ، ونسوا حظاً مما ذكروا به ، فأخذوها عنهم لفظاً مجرداً ، وحشروا أنفسهم بذلك في مصاف أهل التوحيد والتنزيه إسماء ، ثم تركوا أنفسهم عملاً وفعلًا لأهوائهم وأهواء آباءهم من قبلهم ، مما ينافي تينك العقيدتين ويخالفها ، وسموا ذلك ديناً لهم جروا عليه أحقاباً وقروناً ، فجمدوا عليها جود الإنسان على صفاته الموروثة وعاداته المألوفة ؛ فإن نبههم إلى ذلك مستشكل قابله بحشو من التأويلات ، وقذفوه بسيل من القياسات والتشبيهات حتى يفحموه أو يهجروه ، وليس هذا ببدع في أصحاب العقائد بل هو مقتلهم الوحيد ، وجهة ضعفهم التي يتسرب منها إليهم التشثيت والتبديد وما ربك بظلام للعبيد .

نريد بالمعتقد بهاتين العقيدتين من عقد عليها قلبه ، ووقف عليها عقله ولبه ، فسرت أنوارهما في أعماق سرائره ، ونفذت سيالاتها الحسية إلى طويات ضمائره ، وبات وهما أدخل في نفسه من نفسه ، وألصق بمعناه من سائر همه .

لا جرم أن المعتقد على هذه الصورة يحس في نفسه آداباً عظاماً ، ويأنس من ذاته سجايا فخاماً ، تنشأ فيه نشوءاً طبيعياً ، وتنبع من جوهره نبوعاً ذاتياً ، فلا يلبث أن يكون فاضلاً وهو لا يدري معنى الفاضل في عرف الحكمة الاخلاقية ، ويصبح حكيماً وهو لا يدرك تحديد الحكمة في الاصطلاحات الفلسفية ؛ وهل بغير هذا البيان يستطيع الباحث أن يفسر سرعة تطور العرب من الجاهلية الجهلاء إلى المدنية الأدبية العليا في أقل من ربع قرن ، وهي مدة لو كانوا قلبوا فيها البيوت مدارس وأتوا للعرب بكبار فلاسفة الرومان واليونان والفرس ، لما كانوا يستطيعون أن يبطلوا ما كانوا مغرمين به من شرب الخمر ، وهو أقل

مصائبهم خطراً، فما بالك بتلك القوة التي كرهتهم (بدون مدارس ولا فلاسفة) في الحجر والميسر وطلب الثأر، وحب الانتقام والغارات والانقسامات، والتفاخر بالآباء وعدم المساواة، وهضم حقوق النساء ودفن البنات أحياء الخ.. من المصائب الاجتماعية والبلايا الأخلاقية، ثم إن أضفت لهذا ما تلاه من رقيهم السريع وقيامهم بخلافة الله في الأرض قياماً أدهش الحكماء وحير العرفاء وأرغم معاطس العتاة وطأطأ جباه المتألهين الجفافة، وهم شرذمة معدودة وآحاد محدودة، لعلمت أن هذه قوة القوى، وأن الباعث لها من العقائد لا بد من أن يكون ناموسها الأكبر وملاكها الأعظم.

أنا هنا لا أريد أن أسوق البراهين الطبيعية الدالة على وحدانية الله تعالى وتنزهه عما يشاكل مخلوقاته، وعلوه على كل ما يخطر ببال أحد من عباده، فإن الكون يحملته وتفصيله يدل على هاتين العقيدتين دلالة لا تحتاج لإجالة نظر، وإعمال فكر، إنما الذي أريده هو أن أشرح ذلك الأدب الإلهي الذي تفيضه تلك العقيدتان على المعنى الإنساني، فتقلبه إنساناً سوياً على مقتضى القالب الفطري والنموذج الإلهي بدون علاج من كتب الأخلاق، ولا رياضة من قانون الفلسفة. ولو كنت واثقاً من صحة وجود إكسير الكيمياء الذي يقال أنه يقلب المعادن ذهباً، لقلت أن هاتين العقيدتين تشابهانه من حيث استيلانهما على جوهر الإنسان ونفسي التلونات العارضة عنه، وسبكه سبكاً جديداً على مقتضى قانون ليس في قدرة العقل الحوم حول تفاصيله.

من وحد الله فقد اعتقد أن « لا إله إلا الله »، ومن اعتقد ذلك رسخت في ضميره عقائد تتبعها، وانجلت عنه أوهام لا تتفق معها. أما ما يرسخ في ضميره من العقائد التي تتبعها، فتبينه بأن لا معبود إلا الله، ولا يحيي إلا الله، ولا يميت إلا الله، ولا رازق إلا الله، ولا حارم إلا الله، ولا نافع إلا الله، ولا ضار إلا الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وأن لو اجتمعت الإنس والجن على أن ينالوا أحداً بخير فلن يستطيعوا ذلك إلا بإذن الله وتقدير الله، وإن أجمعوا على أن

يصيبوه بشر فلن يطيقوه إلا بقضاء الله وحكم الله ، وأن كل ما دون الله وجود حائل ، وظل زائل ، وما يشاهد من أفعال الناس وحركاتهم مما ينسبه قصر النظر إليهم ، فهي نسبة مجازية وأمور اصطلاحية . أما هم في الحقيقة فألات منفعة وحوادث متصرفة ، لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا كسبا ، ولا يستطيعون لغيرهم شرا ولا ضرا ، مملوكون لقدرة لا تحد بعد ، ولا تقاس بحد ، فما مثل الملوك في أهبتها وتعاطمها ، والقادة في تكبرها وتغشمها أمام هذه القدرة المحيطة بالأكوان ، التي لا تحدها الأذهان إلا كمثل الضعفاء في مسكنتها ، والبسطاء في خالتها وعجزها .

لو عقد الإنسان فؤاده وعقله على هذه العقيدة ، وأبعد عنه شياطين التأويلات وأبالسة التحريفات ، تنزلت على فؤاده من عالم الكمال الإلهي صفات عالية وخصائص سامية ، تستدعيها الحالة التي آل إليها ذلك الفؤاد من التجرد والصفاء كما يستدعي المألوم لازمه ، وكما يطلب الموصوف صفته ، وأول ما يهب عليه من عالم النفحات القدسية عاطفة الاستقلال والحرية ، تنزل عليه هذه العاطفة من اعتقاد أن لا معبود ولا نافع ولا ضار ولا رازق إلا الله ، وأن لا حول ولا قوة إلا بالله ، فيحس أنه والكل سواء ، فما الملوك في قصورها ، والكبراء في ثروتها ورياشها إلا مثله مربون مملوكون لا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ، فيسقط من ذهنه صنم الوهم الذي يخيفه منهم ، ويدعوه للتحكك بهم ، لثقتهم أنهم آلات منفعة لقوة الله وتأثيره ، وأشباه تروح وتجيء بأمر الله وتسخره ، فيرى أنه حر ، ليس لأحد عليه سلطان في أي أمر كان ، وأنه والعالمين في مستوى واحد من حق الوجود ، ليس لأحد عليه ميزة في الحقوق الإنسانية ، وأن القانون الذي يجب أن يشملهم هو جميع أفراد نوعه هو قانون العدل والمساواة ، لا قانون التمايز والمحابة ، ويتحقق أن ما طرأ على العالم من مصيبة الخضوع للقادة المطلقين والسادة القاهرين الجبارين هو نتيجة تسامح الناس في حقوقهم الشخصية وخضوعهم لقوتهم الوهمية التي تربهم أن قادتهم من طينة أرقى من طينتهم ، فتراه مسوقا سوقا اضطراريا لأن لا يسلم بتحكم روح على روحه ، ولا بعدوان أحد على حقوقه ،

فلا يرضخ لمسيطر يميل لتسخيره في أهوائه ، وتصريفه في شهواته . هذه الروح المستقلة تدفعه بطبعها لمعاداة كل من يعارضها من بني نوعه ، سواء كانوا من المدعين للوصاية الروحية ، الملتصقين بالوظائف الدينية ، أو من الذين يريدون اغتصاب السلطة الدنيوية وصرف الأمة إلى أحكامهم الاستبدادية ؛ فهو من هذه الجهة من ألد أعداء المتألهين وأشد أصدقاء المعتبدين ، من أي قبيل كانوا وبأي صبغة ظهروا ، فلا يذله ما يبذله الملوك من كواذب الألقاب وجواذب الوسمات ، ولا يأسره ما يأتيه به مدعو السلطة الروحية من فوائن الأوهام ، وخوادر الأحلام ، لما يرى فيها من العدوان على استقلاله ، والذهاب بحريته وكماله .

تحيل أمة يكثر بين آحادها الموحدون الصادقون ، ثم انظر كيف تعدم فيها تانك السلطان الضارتان : سلطة الملوك المطلقين ، وسلطة الرؤساء الدينيين ، وهما السلطان اللتان نخرتا عظم الإنسانية ، وبلغتا من هضم حقوقها إلى زعم أن لا وجود لها مع وجود رؤسائها ، وأن حياتها فانية في حياتهم .

نعم ، تنعدم هاتان السلطان وينعدم معها ما يتبعها من نقص في نظمات الحكومة ، وجور في قوانينها ، وامتيازات بين رعاياها ، واستئثار من طائفة منها بالسلطة الروحية مدعية حق الهيمنة على أرواحها وعقائدها ، مما دعا ويدعو إلى أمور تستفز العواطف الساكنة وتوقظ الفتن النائمة ، وتجر إلى كراهية السلطة ومجافاة الدين بالكلية هرباً من أولئك المفتصبين... وحالة العالم كله شاهد بما نقول .

هذا وحده أثر عاطفة الاستقلال التي يشعر بها الموحدون بحكم عقيدتهم ، وأعظم به من أثر . أما ما ينشأ عن التوحيد من عواطف أخرى فما لا يستقل باستيفائه كتاب ، كعاطفة الشمم وكبر الفؤاد التي تنتج من اعتقاد الموحد وتيقنه بأن لا رزاق ولا حارم إلا الله ، فتراه أبي الفؤاد عزوف النفس ، لا يداهن الملوك والأمراء ، ولا يتقرب إلى الأغنياء ، لتيقنه أن الذي أعطاهم قادر على أن يعطيه أضعاف ما عندهم ، إن أراد له لذلك ووقفه له . فإن هم به خاطر

رغبة إلى الصعود لتلك المراكز الدنيوية ، وجهه شطر من بيده الإعطاء والمنع ، راغباً إليه أن يهبه من القوة والأهلية ، وأن يوقظ في ذاته من عوامل النجاح في مراميهِ القصية ما يذلل به صعاب الحوائل ، ويسني له منال الوسائل ، فإن نال مناه وبلغ مداه ، زاد بالحق يقيناً ، وفي مذهبه تمكيناً ، وإن أخفق سعيه وأكدى جهده ، اتهم الوسائل التي استعملها ، واستقل القوى التي بذلها ، فزاد في وسائله تكيلاً ، وأمد قواه تنشيطاً ، حتى يبلغ ما قدر له وهو عالي الهمة كبير الفؤاد ، لم يلق به الجهل إلى مداحض الذلة ، ولم يدهوره الطمع إلى مزالقي الخسة .



حالة الأمم التي يكثر فيها الموحدون :

تخيّل أمة يكثر فيها أمثال هؤلاء الافراد من الموحدين ترها أفخم مظهراً ، وأكرم مخبراً من أية أمة عصرية ممن وقرت في نفوس آحادها عاطفة الاعتقاد على النفس ، والثقة بالذات ، كالإنجليز والألمان والأمريكان مثلاً ، فإن هذه الأمم استمدت هاته العاطفة من النظر في نواميس الحياة نظراً مقصوراً عليها ، أما أولئك الافراد فتنزلت عليهم هذه العاطفة من جانب الكمال الإلهي الأقدس ، فلا جرم إن التاثت هذه العاطفة لدى الأمم العصرية بشيء من النقص والجور والشره والمزاحمات الجنونية القاتلة لكثير من العواطف القلبية ، ولا غرو إن نشأ تحت سمائم الفوضويين والعدميين وغيرهم . أما الأولون فتراهم مع تمتعهم بتلك العاطفة ، عاطفه الشمم وكبر الفؤاد ، متراحين متعاطفين ، جمعتهم الحياة برباط من حب خالص ، وود وثيق العرى ، لاتحاد وجهتهم في طلب الكمال الإلهي ، لا لقيام أمرهم على النفع الدنيوي . هؤلاء لا يتنزهون عن أمراض المجتمعات الحية ، فتصيبهم لفحات من التنافس على أعراض الحياة ، ولكنك مع ذلك لا تعدم فيهم تلك الأريحية للرحمة وذلك الميل للتصافي والحب ، فلا يضيع

بينهم فقير ولا يهضم لديهم حق ضعيف، وإن ضاع فقيرهم أو هضم حق ضعيفهم،
فهما ضياع وهضم يمدان رحمة إذا قيسا بما يصيب ضعفاء سواهم من الأمم التي
فيها عاطفة الاعتماد على الذات، ومرتكزة على قوانين الحياة الحيوانية .

هذا كله، ولا تنسَ عاطفة الشجاعة والعزة التي هي من أخص صفات الموحدين،
وهي تلعب في افئدتهم من اعتقادهم أن لا ينفع ولا يضر إلا الله . نعم، متى
اعتقد الإنسان أن الإنس والجن لن يصلوا إليه بأذى لو حماه الله، وأنهم لن
يصبوه بحسنة إلا إذا بعثهم الله، سقط من عينيه كل ضم يقيمه الوهم في ذهنه،
فتراه لا يخشى إلا الله ولا يرجو إلا الله، ومن كان كذلك كانت الشجاعة ألصق
به من ظله، فمتى رأى خطراً أمر الله بفشيانه واقتحامه دفاعاً عن دين أو قتالاً
في سبيل الحق، ألقى بنفسه غير هباب ولا ملتكىء، وكيف لا يلقي بنفسه وهو
لا يخاف إلا الله، ولن يموت إلا إذا أماته الله، وهذا موقف قد أمر به الله،
فما الذي يؤخره عنه غير جيشات الوهم، وسطوات الجن ؟ .

هذا تفصيل موجز لبعض الخصال الكريمة التي تنشأ من عقيدة التوحيد نشوءاً
طبيعياً، ولا أحيلك في نظر ذلك بالحس إلا على أصحاب رسول الله ﷺ، فهم
وحدهم المثال الكامل الذي يليق أن يتخذ حجة محسوسة على ما نقول .

من هنا ترى أن عقيدة التوحيد تهب على الإنسانية بأدب إلهي يقيم الشخص
على صراط الحق ويبعثه للسير فيه بعثاً ذاتياً، ويحليه من الصفات الصالحة لعمارة
الأرض وحماية الجماعة بخلائق تعجز عنها التربية وتعيادونها أساليب التقويم
والتهذيب المعروفة .

هذا الأدب لا يقتصر على تأدية الإنسان لأرقى مظاهر الكمال الدنيوي فقط؛
بل يؤديه لأسمى منصات الرقي الروحاني أيضاً، لأن الروح الإنسانية لا يحجبها
عن مشاركة عالمها الذي تنزلت منه، ولا يمنعها عن المتاع يجمال مشاهدته ومعايشته
إلا ما استدعاه هذا الجسم من صفات الحيوانية ولوازم الحياة البهيمية . هذه
الصفات واللوازم التي اكتسبها الإنسان بتلبسه بهذه المادة كالهلع والجزع

والبخل والشح ، والخوف والجبن ، والحسد والحقد ، وغير ذلك من الصفات الذميمة المستوعبة لحيوية أكثر الناس ، والمستولية على مجموع همهم ، والمانعة لهم عن السكون إلى ذاتهم ، والطمأنينة إلى أرواحهم ، سببها نقص إيمانهم بالخالق الحق ، فإن الهلع والجزع صفتان معناهما إظهار الحزن من فقد الصبر عند المصيبة . قيل هما بمعنى ، وقيل إن الهلع أفحش الجزع ، فهاتان الصفتان ليستا من صفات الكاملين ، قال تعالى : « إن الإنسان خلق هلوعاً إذا مسّه الشر جزوعاً ، وإذا مسّه الخير منوعاً ، إلا المصلين .. الآية » . وكذلك البخل والشح ، والحقد والحسد ، والخوف والجبن ، صفات خسيصة لا تحل إلا قلوباً جاهلة خلت من الإيمان الكامل ، لأن مدارها كلها على الشؤون السافلة والأمور المنحطة ، ومن كان يؤمن بالله إيماناً كاملاً ، ويرى أنه الفاعل الحق والمؤثر الفرد ، فلا يحقد ولا يحسد ولا يخاف ولا يهين ، ولا يشح ولا يبخل ، فيخلو فكره من الجولان في هذه الصفات وما يلزمها ، ومتى خلا فكر الإنسان من الرتوع في قدر هذه الصفات الخسيصة وتوابعها التي يقضي فيها ناقصو الإيمان أعمارهم الثمينة ، جال بطبعه في عالم الحقائق ، وسلك من باحاتها طرقاً سلكها قبله الأنبياء الصالحون ، فيمر في أثناء سيره على عوالم الجمال والكمال بطريقة طبيعية لا صناعية ، فتزداد علاقته بالعالم الروحاني متانة ، ويزداد الاتصال بينه وبين حقائقه إحكاماً ، فيرتقي فيه ارتقاء تدريجياً كما يرتقي جسمه في عالم المادة ، فتكون روحه في عالم القدس ترح وتتمتع ، وجسمه في عالم الحس يكافح ويجهاد كما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وكافة المرسلين والصديقين ، مع اختلاف في الرتب وتباين في الهمم ، كما لا يخفى على القارئ .

من هنا يرى قارئنا أن (لا إله إلا الله مفتاح السموات والأرض) كما جاء في الخبر النبوي ، هي مفتاح السموات لأنها تؤدي الشخص إلى الكمال الروحاني في أبدع مجاله ومعانيه ، وهي مفتاح الأرض لأنها أقوى عامل كما رأيت لتربية ملكاته ، وتهذيب مواهبه وتأديته إلى أرقى مظهر من مظاهر الحياة الأرضية .

أما عقيدة التنزيه ، وهي اعتقاد أن الخالق أعلا من أن يحد بحد أو يصور بصورة ذهنية ، فأثرها على النفس من أكبر الآثار وأعجبها أيضاً ، وإليك شيئاً من التفصيل .

قلنا إن الإنسان مفطور على العقيدة بالخالق عز وجل لمساها بحياته الشخصية وعواطف فؤاده الداخلية . وقلنا أن هذه المسألة مستولية على سائر مشاعره وإحساساته استيلاء غير محدود ، فمقله وفكره وخياله وذاكرته مسخرة لها ، مشغولة بها شغلاً يعرف بعض آثاره من أحوال الأمم قديمها وحديثها ، وأت مسألة هذا شأنها من التسلط على فؤاد الإنسان لخلقة بأن تقف في مهبط فكره ، وتكون دائماً حيال خياله ، ولا عجب بعد ذلك إن شطح الإنسان بمدرسته فيها شطحاً استنفذ فيه وسع الخيال ، وجاوز به حدود الاعتدال ، ولا غرو بعد ذلك أيضاً إن أصبح لكل أمة في صفات الله تعالى وذاته كلاماً ينافي كلام جاراتها ، ولماذا لا تكون هذه العقيدة بعد ذلك تابعة لنمو المدارك وسعة العقل ، فيصلح اللاحق غلط السابق ، وينقح الأبناء ما تسامح في اعتقاد الآباء ، وينتهي الحال بالناس إلى النظر لأصحاب الأديان نظراً للمحرفين المؤولين ، المتذبذبين المتلاعبين ، ولهم الحق في هذا النظر .

جاء الإسلام ساداً هذين البابين الهائلين ، باب الفكر في ذات الله وباب أعمال الخيال في إدراكه ، مقررأ أن كل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك . منذراً بالهلاك والثبور كل من يتجرأ على التطفل على الحوم حول هذا الحمى المنيع ، أو التطلع لاكتشاف هذا السر العزيز ، لأنه ليس من اختصاص هذا العقل العادي الوصول إليه ، والإشراف عليه . ألا ترى أن هذا العقل يهدم اليوم ما بناه أمس ، ويزري في هذا القرن بما كان يكبره في القرن السالف ، فلو أطلقنا للعقل حريته في الفكر في ذات الله وشؤونه العالية ، وسمحنا للخيال أن يأخذ حظه من هذه المجالات السامية ، أصبحت عقائد الدين كمقائد العلم عرضة في كل جيل للتحويل والتغيير ، وكفى بهذا مسقطاً لمهابتها من نفوس الآخذين بها ، ولو تركت

بلا تحوير ولا تغيير لكانت بنفسها أدل الأدلة على أنها أفكار بشرية ، وخيالات ذهنية ، صورها الجهل ، وزينتها الأهواء ، ولأصبحت بذلك في واد وعقول أتباعها في وادٍ آخر ، إذ يستحيل على الإنسان أن يعتقد ما لا يعقل ، أو يحترم ما يحزم أنه وهم باطل ، وخيال من الحقيقة عاطل ، كما هو حال أتباع أكثر أصحاب الأديان اليوم .

قلنا أن عقيدة وجود الخالق أمس ما يمس حياة الإنسان الشخصية ، فهو يبحث عن صانعه الحكيم طلباً للطمأنينة على ذاته ، وغيره على حياته ، لأنه لا يستطيع أن يدرك له وجوداً أبدياً ، ولا حياة فيها جزاء عادل على الحسنات والسيئات ، ولا ناموساً عادلاً سائداً على الكون والكائنات حفيظاً عليها ومراقباً لحركاتها وسكناتها، ولا قدرة شاملة وحكمة كاملة وضعت هذا الكون على قواعد الحكمة وحسن التقدير ، إلا باعتقاد وجود ذات أولية متمتعة بكل الكمال ومتصفه بأقصى ما يمكن من صفات الجلال . ثم قلنا أن هذه العقيدة لما كانت أمس العقائد بحياة الإنسان ، فهي أكثر مدركاته تسلطاً على مداركه ومشاعره وقواه . ثم قلنا ، وأن مسألة هذا شأنها من التسلط على فؤاد الإنسان الخليفة بأن تقف في مهبط فكره وتكون دائماً في مضطرب خياله ، ولا عجب بعد ذلك إن شطح الإنسان فيها بمدركاته شطحاً استنفذ فيه وسع الخيال، وجاوز به حدود الاعتدال . ثم قلنا بعد ذلك ، جاء الإسلام فسد باب الفكر وباب الخيال دون هذه العقيدة، وحال بين شهوات العقل وبينها حيولة لا يصح إسلامه إلا بها، فكيف يمكنه الصبر على هذا الفصل بينه وبين أكبر شيء يؤثر على فكره وخياله ؟

نقول إن الذي يصبره على ذلك ويثبت فيه : هو ما يشعره بسببه من الكمال المعنوي الحقيقي الذي ينبع في فؤاده ، والنور الذي يشرق على سرائره فيملأه سعادة وغبطة . والإنسان مغرم بالكمال ، ومشغوف بالنور والسعادة . وإذا أردت معرفة طرف من ماهية تلك اللذة والسعادة وكيفية نشوئها فإليك :

الإنسان : ما انساق إلى الفكر في ذات الله والطيران في أجواء الخيال في صفاته وشؤونه ، إلا لما يحده من اللذة المعنوية في ذاته من جراء التحسس على علم

ما لم يعلم ولو وهماً . وقد عودنا أنه متى عدم الحقيقة ولذتها قنع بالخيال وقلهى به ، وربما غلا فقهر نفسه على اعتبار خياله حقيقة ، وهو يعرف هذا الضعف من نفسه ولا ينكره .

كل منا يشعر بلذة العلم الذي يمس مصلحته من أي جهة كانت فتراه يرتاح لسياحه أو لاستنباطه ، ومتى حصل له منه شيء طار به فرحاً وترنج له عجباً وأودعه في صميم فؤاده ، لا سيما لو كان ذلك العلم ماساً بما يشعره من الحاجة الدينية ، وما يرمي إليه من المقاصد الروحية ، وقد تحمل هذه اللذة بعض الناس على هجر أهله وبلده اكتفاء بها عن كل محبوب ، وتفضيلاً لها على كل مألوف .

ما منا أحد إلا وقد شعر بهذه اللذة العلمية ، سواء كانت فيما يتعلق بمصالحه الدنيوية ، أو بمراميه الدينية ومطالبه الروحية ، وهو أمر معقول لدى الكافة لا يتردد في حصوله أحد ، لأن اللذة نتيجة سبب معلوم وهو العلم . ولكن ادعاءنا حدوث لذة ونور وسعادة بمحض صد قوى الفكر والخيال عن الجولان في موضوع العقيدة وبمجرد القناعة بها كما هي بدون تحديد ولا تعريف ، أمر لا يسلم لنا إلا بدليل منير .

نقول إذا كان سبب اللذة المعروفة لنا هو العلم ، فإن عقيدة التنزيه أكبر درجة يمكن أن يبلغها الفكر البشري من درجات العلم ، فلا عجب إن كانت لذتها أكبر لذة معروفة عند البشر . أما كونها أكبر درجة من درجات العلم البشري فلأنها تتعلق بصفات الخالق الأقدس من جهة كونها صفات غير محدودة ، وكمالات غير محصورة . وإن أردت أن تعرف كيف أن التنزيه أكبر العلم فألبك :

قلنا أن التنزيه هو أن تنزه الخالق عن كل ما يشاكل خلقه ، وأن تعتقد أن كل ما خطر ببالك فهو بخلاف ذلك . ولما كان الفكر والخيال عاملين دائبين وراء استكناه المجاهيل واستنباط المساتير ، باعثن للعقل على مجاراتها في تجوالها فسيأتيانك من جهة هذه العقيدة بمحصول ويحثانك على اعتقاده ، فإن كنت

غير مسلم فرحت بنتيجة كدهما واعتقدت ما أتياك به من العلم ، حتى ينبهك منه على ضلالك ، أو يرتقي فكرك وخيالك درجة فيهدمان من ذاكرتك ما بنيناه أولاً ويقيان لك عقيدة جديدة وهكذا ، أو يحددان بك على عقيدة راسخة رسمية من قبل الطائفة المسيطرة فلا تستطيع أن تتعداها وهما وإن كنت قد فقتها فعلاً . وأما إن كنت مسلماً منزهاً عاملاً بواجب التوحيد والتنزيه ، واقفاً بقواك العقلية موافقها الحققة على حسب التعليم القرآني ، يحصل بينك وبين تلك القوى الإدراكية فيك ثورة داخلية يكون نتيجتها من العلم العالي ما يحبيك ويسعدك . ولأجل تجلية عقيدة التنزيه كما هي في جلالتها ، وتصوير ما يحدث في المعنى الإنساني من الأخذ والرد فيها حتى يطمئن الضمير على حقيقتها ، نصف لك هيئة المناظرة التي تحصل بين القوى النفسية في سر الإنسان :

(العقل) : إنا نعتقد بوجود الخالق سبحانه وتعالى . ولكن ما هو وكيف صفته ؟

(الفكر) : لقد سألت ما يجب أن يسأل عنه ، وسأبذل لك أقصى قواي للإشراف بك على أحسن ما تتوق إليه . وسأعتضد بالخيال .

(الخيال) : لبيك وسعديك : إني معك حيثما تذهب ، فإن عجزت عن الطيران بمقتضى طبعك طرت وحدي وصدقتك فيما أحدث .

(عقيدة التنزيه) : كفوا عن هذا الجدل . فأنتم ومن في الأرض والسموات جميعاً أقل من أن تصلوا إلى الله من هذا الطريق ، طريق المشاعر الحسية والعوامل الجسدية ، فإن سلطانكم مقصور على عالم الشهادة وأشياءه ، وليس الله تعالى بما يشابهه أو يشاكله حتى تقدرُوا على الوصول إليه من هذا المسلك .

(العقل) : وما هو إذن وكيف الوصول إليه ؟

(عقيدة التنزيه) : هو أكبر من أن يحيط الوهم بسرادات كماله وأعلامه من أن يصعد التصور إلى معارج مجده وعلائه ، قدرة لا تحد بمحد ، وحكمة لا تنتهي

لغاية ، ورحمة دونها كل نهاية ، وصفات كمال لو أردت تصورها بهذا الفكر القاصر ، فلن تصل لشيء منها لأن فكرك مصوغ على قالب هذه العوالم المرنّية المحدودة ، وأقيسته منتزعة من عالم الحس المتناهي ، فمهما صعدت فأنت في عالمك هذا لا تتعداه ، والله تعالى أعلم من أن يقاس بالحدود والهيئات ، أو يدرك بالمعلومات والآلات .

(العقل) : إذن فكيف يعتقد الإنسان ما يحفل ؟

(عقيدة التنزيه) : إني أقول لك أن حقيقة الله أكبر من أن يصل إليها العلم ، وأجل من أن يصورها الفكر ، وأعز من أن تحوم حولها المدارك . وصفاته أعظم من أن تحصر أو تحد ، أليس هذا أكبر درجة من درجات العلم ، وأقصى غاية من غايات قوة الإدراك ؟

(العقل) : العلم في عرفنا أن نعم حدود الشيء وصفاته وعلاقاته بغيره ، أما هذا النوع الذي تذكره فلم نصلح على تسميته علماً .

(عقيدة التنزيه) : إن ما اصطلحتم على تسميته علماً ، أليس قابلاً للتحوير والتبديل والزيادة والنقصان ، حتى فيما تدعونه علوماً تجريبية ؟

(العقل) : نعم ، وهذا من أخص صفات العلم .

(عقيدة التنزيه) : أفتريدون أن يكون شأن العقيدة كشأن العلم من حيث قبولها للتحوير والتبديل على حسب درجات العقل وورقي المدارك ؟

(العقل) : لا ! لا يليق ذلك ، فإن فيه خطأ من كرامتها .

(العقيدة) : إذن فليس لنا إلا أمران : إما تناوّلها بآلاتنا القاصرة وعقولنا المحدودة ، وتمريضها للتحوير والتبديل على نحو ما عليه عقائد الأمم المبطلّة ، وإما وقوف العقل عند حده والإقرار بمجزئه المطلق عن تناول ما ليس من عالمه ولم يؤثّر وسيلة الصعود إليه .

(العقل) : إذن كيف يثلج الصدر بالعقيدة وتطمئن الحواطر لها ؟

(العقيدة) : الاعتقاد على النحو الذي أرسمه له لا يكاد يخالفك فيه أكبر ملحد ، فضلاً عن أنه أحسن ما يثلج عليه صدر المؤمن لأنه مستند على الحس .

(العقل) : كيف ذلك ؟

(العقيدة) : ألا تشعر بضرورة وجود قدرة أبدعت هذا العالم المدهش ، وتلك القدرة كبيرة للدرجة القصوى ؟

(العقل) : هذا أمر بديهي لا يحتاج لجدال .

(العقيدة) : ألا ترى أن هذه القدرة المبدعة دائمة العناية بمبدعاتها مواصلة الإمداد والتربية لها ؟

(العقل) : كيف ينكر الحس عاقل ؟ ولكن الملحدة يسمون هذه القدرة نواميس طبيعية .

(العقيدة) : إذا كنت تنكر عليهم تسميتهم لها نواميس طبيعية ، فلماذا تهتم أنت أيضاً بتقليدهم في تصورها على صورة ما ، والحكم على صفاتها بحكم يناسب حالك ؟ إذا كان الملحدة قد جاروا بتحديدكم تلك القوة فلماذا تريد أن تجور أنت أيضاً من جهة أخرى ؟ ألا ترى أنك لو اكتفيت بالعقيدة الفطرية وهي الشعور بوجود قدرة لا تحد أبدعت هذا الوجود على مقتضى الحكمة والعدل ، وأقلعت عن تحديدها وتصورها على قدر وسائلك القاصرة ، وكان اكتفى الملحد من جهة أخرى بشعوره الذي لا يمكنه أن يخالفك فيه مطلقاً لأنه شعار هذه الإنسانية أمام هذا الوجود المعجز ، لأن الإنسان لا يستطيع أن يدعي مطلقاً وجود هذا الوجود بلا قدرة عالية ؛ قلت لو كنت اكتفيت أنت بما تشعره بالفطرة من وجود تلك القدرة ، واكتفى هو أيضاً ولم يسمها نواميس ، أما كان ذلك داعياً لاتحادكما في العقيدة وتآخيكما عليها ؟ ولكنك لم ترضَ بالوقوف مع الشعور الفطري ففقت تصور وتحكم ، ولم يقف هو أيضاً في مركزه بل

أخذ يحمل ويفصل حتى سهاها نواميس طبيعية . فنشأ بينكما خلاف موهوم ما كان لينشأ لو وقفتما عند حدكما ولزمتا مقامكما . أما ثلج الصدر واطمئنان الخواطر فهي من لوازم التنزيه وصفاته . فإن شعورك بقدرة عالية متولية أمر الكون والكائنات على دستور العدالة والحكمة والعلم ، وأنها كما تولتك وأنت نطفة وربتك تلك التربية الجنينية ثم هدت أملك لتربيتك وساققتها للعناية بك حتى كبرت وترعرعت ، هي نفسها التي تتولاك الآن ، وتبعثك بالدوافع التي وضعتها فيك إلى كمال أنت مستأهل له وإن لم تنته بعد إليه ولم تشرف عليه . شعورك بأنك مقود بتلك القدرة التي لا تحد ولا توصف والتي لا يستطيع أن ينكرها أحد ، يجعلك هادئ الضمير ثلج الصدر خالياً من جيشيات الشبهة وسطوات الشكوك . وهل الشبهة والشكوك تطراً إلا على محصولك العلمي وقضاياك العقلية ؟ ولكن هذه العقيدة التي لا أسمح لك فيها بالحكم عليها بفكرك القاصر وعلمك الناقص ، وأريد منك أن تدعها فطرية طبيعية كما هي ، كيف يطرأ عليها الشك وليست من قبيل معلوماتك المتحولة وقضاياك المتغيرة ؟

ألا ترى معي بعد هذا أن التنزيه أرقى درجة من درجات العلم وأنه أوجب لأن يطمئن إليه الخاطر وينشرح له الصدر ، وأدعى لأن تجتمع الأمم كلها عليه وتتأخى فيه تأخياً خالصاً لتساوي الكل في الشعور بموضوعه شعوراً فطرياً ؟ وأنه أعدل طريق يسلكه الإنسان أمام حاجته للعقيدة وارتياحه لها ؟

أما النور الذي يحل بالصدر والسعادة التي تفاض عليه من حلول عقيدة التنزيه به ، فلأن ردع القوة الفكرية والخيالية عن الجولان في أكبر موضوع يؤثر عليها ، وإيقافها عند حدهما دون الخوض في مسائله ، يستلزم حدوث انقلاب غريب في دستور مملكة الإنسان الباطنية واتجاهات قواه الداخلية . فإنه بردها تترك القوتين عن الجولان في هذه العقيدة المستولية على مهاب مشاعر الإنسان ومسارب مداركه ، كما أثبتنا ذلك قبل قليل ، تنقطع عن شياطين الأوهام والخرافات التي تلتصق بالدين زوراً مادة البقاء ، فتنجلي عن النفس بحكم الضرورة ، وهذه

الشياطين كما لا يخفّاك قوى تسويلية تضليلية تحل بالنفوس المستعدة لها ، كما
ينجذب الميكروب إلى البقعة التي يجد فيها غذاءه فيفرخ فيها ويتكاثر حتى
يخرج ذلك الشيء عن أصله بالتحلل . كذلك النفس الوهامية الخرفة تنجذب إليها
تلك القوى الخبيثة فتفرخ فيها وتنمو وتستدعي ما هو أفتك بالحياة منها ، ولا
تزال بضمير الإنسان حتى تحلل فضائله أو تمسخها ، وتصرفه في شؤونها وأهوائها
إلى أن ينتهي وجوده على حال من الأحوال . ولكن حلول التنزيه في الفؤاد من
جهة العقيدة ، وهي الجهة المتسلطة على سائر عواطف النفس وأميالها ، يقف
بالنفس موقف الطهر ، ويحميها من فواتك الصفات الحسيسة وخوانس القوى
الشريرة ، فتدع الإنسان لقواه الطبيعية ومواهبه الفطرية وهي أولى القوى بحق
قيادته وأهدى الأدلة لإرشاده وهدايته .

عقيدة التنزيه تفعل بالنفس من التطهير والتنقية ، وتعمرها من أرواح السكينة
والحياة الصحيحة ما لا يفعله العلم الطبيعي الذي يزعم اليوم أنه يحل محل الدين
في قيادة الإنسان ، وتخليصه من أسر الخرافات الاعتقادية التي حملها لنفسه ومسوخ
بها فطرته . يقول علماء الطبيعة والإنسان أن الخالق تقدست صفاته وهب
الإنسان مواهب جليلة ومنحه مزايا نبيلة ، وركبه مادة ومعنى على صورة قابلة
للترقى والتهدب ، ووضع في وجود مناسب له من كل وجه وصالح لصقل
ملكاته لما بينها من الارتباط والمناسبة ، ولكن الأديان وكهانها قد كانت ولم
تزل عقبة كؤوداً في سبيل رقيه بما تفتحه له من مجال الخيال والأوهام وما تلتطخ
به فطرته من الضلال والأحلام ، وما تصرفه فيه من الأعمال التي تفسد كيانه
وتمسخ طبيعته ، فتجعله مملوكاً للأهواء مستعبداً للأساطير ، فجاء العلم الطبيعي
بعد أن فاز على رؤساء الأديان ونجا من مخالبهم ، لتخليص هذا الإنسان الضعيف
من أيدي مستعبديه ومضليه ، بخلع كل تلك الكسف المتراكمة على فؤاده ولبه
من عقائد باطلة وأوهام عاطلة ، وتجريد فطرته عما يقف بها في أحوال النقص ،
ويغمسها في أقداء الرجس ، فتخلص مواهبه من قيودها وتستقيم ملكاته على
مناهجها ، ويزداد على نسبة العلم والعرفان الذي يعطى له رقياً ورفعة .

هذا ما يزعمه العلم الطبيعي العصري ويرجوه ويعمل عليه ، فماذا كانت النتيجة ؟ كانت النتيجة تخليص الإنسان من أسر الأهواء حقيقة ، ولكنه جار فعراء من عاطفة الدين أيضاً ، فضج العالم منه ضجة لم يزل دويها يخترق الآفاق للآن ، يسمعها أصحاء الآذان والأفتدة وإن أنكرها الصم المفتونون . قال فيرنس جيافرت في كتابه (الفمة الحاضرة) : « إن العلم قد غلا في الاستفادة من سرعة تصديق العامة أكثر مما غلا رؤساء الدين ، فلقد أثبت لها عدم صحة رموزها الدينية القديمة ، ووعدا بتعويضها لها بأصول ثابتة أبدية لدين حسي جديد ، فلم يف بوعده لها . ولما آب للإنسانية رشدًا ، وقد فقدت شعرياتها السابقة ، وجدت نفسها حيال فراغ أوسع مما كانت فيه قبلاً . وفي الواقع ، ماذا يفيد الإنسان علمه ببعض الحوادث الطبيعية بجانب ذلك الإلحاد المتجدد المؤلم الذي يحرنا إليه ضميرنا الفاقد لحرارة الحياة ؟ .

« إنهم ينصحون كل إنسان بأن يكون لنفسه دينه الخاص ، ولم يفتنوا إلى أن هذه النصيحة المزدوجة تحتوي على تناقض بيتن ، حيث أن المذهب الحسي لم يترك للإنسان مجالاً في غير المسائل المادية المحضة .

« إن الحقد والعداء يزدادان يوماً فيوماً في نفوس أهل البأساء المحكوم عليهم بالفاقة إلى الأبد ، وإن جنون البذخ والكبر ينمو على قدر ذلك لدى أهل اليسار والبذخ ، وهذا الإلحاد الآخذ في النمو يسوق جماعاتنا بعاطفة المساواة إلى حالة ثورية دائمة . واصبحت ترى الملوك العظام يتعاقبون على عروش الملك بسرعة لم تكن تشاهد في وزراء الأزمنة الماضية . والحكم الاستبدادي بدل أن يتشبح في بعض الأفراد أضحى منتشراً بين الملايين ، فكل ديموقراطي يتمنى أن يبلغ الرتب العلية . وترى الشعب لما أحس أنه خلص من أسر الواجبات الروحية التي تفرضها الكنيسة ، وازدرى بذلك الدستور السيامي الذي يراه يتغير بسرعة جنونية ، أعطى لعاطفة الأثرة فيه كل الحرية ، وصار يعتبر أن ماله من حق المساعدة في إدارة شؤون حكومته وسيلة لنوال مآربه الحيوانية بأسرع ما يمكن .

ولقد رجونا أن نداوي مصائب النوع الإنساني بالكنوز المادية التي أُلقيت بين أيدينا من منذ قرن من الزمان . كما تكاتف العلماء والمهندسون والصناع والميكانيكيون على زيادة متاع الحياة الدنيا زيادة عظيمة . ولكن لم يكن من نتيجة كل تلك المكتشفات إلا نشر حمى حب المال في الطبقات السحيقة جداً .

« فأي قانون أخلاقي يكفي لكبح جماح أهوائنا وإدخالها إلى مجاريها الطبيعية المعتدلة . لقد ذهب عنا الكمال المعنوي ولم يبق فينا إلا خوف مبهم من شيء غير مدرك . لأن العقيدة بالله لا يمكن زوالها من النفس ، فترى الذين لا إحساس لهم يستفيدون من وراء ما وقعنا فيه من الظلمات . وترى العقول المستنيرة بالعلم المحرومة من الدين تعذرهم في ارتكابهم الجرائم ، وبهذا فقد أصبحت الشهوات غير واقفة عند حد .

« إن تحت هذا السلم الذي اقتضاه الخوف العام لأحقاداً تختمر اختتاماً بأشد مما كانت في أي زمن من الأزمان . فإن جرائم الفوضويين ، وإفلاس الماليين ، وانتحار الأسر بأجمعها ، والوساوس الخرافية الآخذة في الانتشار بين الناس ، والجنون الذي لا ينتظر إلا سنوح الفرص ، وأصحاب الأثرة البائسين ، وكل هذا الفساد الخلقي الشديد الوطأة البعيد القرار الذي عم أجناسنا ، ناشئ من عدم وجود قاعدة دينية تصلح لإحداث الوحدة والإخاء بين احتياجنا الدائم للعمل وبين عاطفتنا للحب .

« لذلك ترى ظلمات من الحزن والكمد آخذة في الاسوداد كل يوم ، ملقبة أطنابها على عالمنا . ويزعم الإنسان في غروره أن حرية الأثرة ستحصل له كل ما يتمناه من سرور واتسراح ، حق صرفاً وكل يوم لنا من طلب جديد ، وكل طائفة تسعى لنوال امتيازات جديدة ، وكل فرد يدعي لنفسه حقوقاً ليس لها حد تنتهي إليه ، وبذلك فقد أصبح الإنسان بين هذا العذاب المنصب عليه من الكبر والتمرد معترفاً بأنه أمام الحياة أضعف مما كان في أي زمن من الأزمان .»

وقال العلامة كاميل فلامريون - ونظن أنه غير مجهول لدى المسلمين - :
« لا يجوز لنا أن نخجل من الاعتراف بما وقعنا فيه من الانحطاط لأننا رضينا
به ، وأصبحت عقولنا المتشعبة بالأثرة لا هم لها إلا أغراضها الذاتية . أليس
حظنا اليوم من الحياة قد استحال لجمع الثروة بلامبالاة بوجوه جمعها ، والحصول
على المجد بطريق الاغتيال لا الكسب ، والجمود وعدم الاهتمام بالدستور والواجبات ؟ .
وأن من التناقض البين المؤلم أن الرقي الباهر الذي حصل في العلوم مما لا مثيل له
في التاريخ ، وأن هذه الفتوحات المتوالية التي تمت للإنسان في الطبيعة ، بينما
رفعت عقولنا إلى المدرجات العالية أهبطت إنسانيتنا إلى أخس الدركات . ومن
الحزن أن نحس بأنه بينما نشعر بنهائ قوتنا يوماً بعد يوم ، تنطفئ حرارة
قلوبنا ، وتتصوح زهرة حياتنا القلبية بتأثير غلبة المطامع المادية والشهوات
الجسدية » ا. هـ .

إذا علمت هذا ، رأيت أن الصراط الإلهي الأعدل والمخرج من كل هذه
الفتن المزعجة المحتاجة هو الإسلام ، فإنه المنهاج الوسط بين إفراط الأديان المحرفة^ا
وتفريط العلم الطبيعي . أفرطت الأولى في أسر الإنسان ، وأطلق كهانها لأنفسهم
عنان الحرية في أسر العالم وتسخيروه بإرادتهم ، فثارت الإنسانية في وجوههم
وقارعتهم بالحديد والنار حتى خلص العالم منهم ، فجاء العلم ولكنه في طرف
التفريط ، فأزال عن النفوس أعز مطلوباتها وسمى في إقناعها بإمكان قيامها على
الصراط الحيواني مقصوراً على الطين ولذاته والحس ومقتضياته ، منكرراً لها
الروح والخلود والثواب والعقاب وعالم ما وراء المادة ، فاستراحت إليه هنية
واستنامت له برهة ، ثم أحست بما أفزعها وأزعجها فقامت تنشد مطلوباً
عزيزاً وتطلب مفقوداً غالباً . وما هو ؟ هو الإسلام ... لأنه حاصل على أرقى
ما تتوق إليه النفس من مطالب روحية وكمالات نورانية وعواطف قلبية ، وحالٍ
بأقصى ما يتمناه العلم من معاداة الخرافات ومجافاة الظنون والوقوف بالنفس
موقف الطهر عن اعتقاد الأوهام واقتفاء أثر الخزعبلات ، وتسليم قياد النفس
للقيادة المضلين والهداة الغاوين .. الخ .. مما يطلبه العلم ويجهد نفسه في تقريره . لأن

عقيدة التوحيد وهي توحيد الله في ذاته وصفاته وأفعاله ، وعقيدة التنزيه وهي ردع الفكر والخيال عن الحوم حول تصوير الخالق وتكييفه ، وما يقتضي ذلك من الأدب النفساني الباهر ، وما يتبع ذلك من البعد عن الظن والتقليد والاعتقاد بلا دليل الخ... مما هو من قواعد هذا الدين القيم ؛ كل ذلك يجعل المسلم أشد حيطة لنفسه من أي عالم أو متعلم على الأسلوب الحديث . فإن المسلم يعتقد أنه مسؤول عن كل شيء ، وعن أقل زيغ في الدنيا والآخرة لا في الدنيا وحدها كما هي عقيدة طلاب العلم الطبيعي ، فهو بالضرورة أكثر احتفاظاً منه بنفسه . لا تقل قِلْمَ لا نرى المسلمين كما تصف...؟ فإني أقرر ماهية الإسلام من أنه الصراط الإلهي الأعدل الذي سيرث العلم والأديان معاً . أما المسلمون فلنا عليهم كلام آخر .

إذا تقرر هذا فقد ظهر لك بأجلى الأدلة أن الإسلام الذي عنوانه : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وحليته التوحيد والتنزيه بأخص معانيهما ، هو الدين الحق الذي سيؤوب إليه المفرطون والمفرطون معاً . أما المفرطون من أصحاب الأديان فإنهم يلاقون من أنفسهم ومن الوجود كل يوم حرباً عواناً ، وقد رأيت وترى أنهم يقولون في كل صقع ويضوئون في كل جهة ، وليس هذا الاضمحلال عرضاً يزول بل هو مستند على موانع طبيعية تمنع من بقاء أديانهم لخالفاتها للعقل وللطبع معاً . وأما المفرطون من أصحاب العلم الطبيعي فلا يمكنهم الثبات في وقفهم مع الحس ، وقد أريناك أنهم أخذوا يجأرون ويصيحون بفقد العقيدة . إذن فلا بد من دين يتفق عليه الطرفان ، ويكون وسطاً بين الإفراط والتفريط ، وكتابه محفوظاً من التحريف والتخليط ، وتأريخه معروف مشهور . ولا دين فيه هذه الصفة الإلهية غير الإسلام ، الذي جاء يدعو الناس إليه محمد عبد الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، الذي قال الله فيه : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » ، « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون » ، « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد » .

* * *

الفصل الثامن

المحاضرات

لاحظنا أننا كثيراً ما نسأل في نوادينا الخاصة أسئلة كبيرة الخطر جليسة الفائدة ، فنجيب عنها شفهياً إجابات لا يحسن إغفالها عن قرائنا المحترمين ، لا سيما وقد تسبقها محاوراة بديعة تجعل لتلك الإجابات من الوقع في النفس ما يثلج الصدر ويرضى به العقل . وقد كنت أود أن أجعل لتلك المحاضرات مكاناً من « الإسلام في عصر العلم » حرصاً على ما يجيء فيها من أفكار جديدة ، ومدرجات ثمينة ، أخشى عليها الضياع من الذاكرة مع طول الترك ، واستحسننت أن أكتب كل محاضرة تحت عنوان خاص ، وأعقد لها مقالة أنقلها فيها من لسان المخاطبة إلى لهجة العلم ، إلا أنني رأيت فيما بعد أن في ذلك من التعب ما لا يحتمل لاستلزام كتابتها إلى الزمان الطويل ، واستيعاب كل واحدة منها جزءاً من أجزاء « الإسلام في عصر العلم » الشهرية ، فضربت الصفح عن ذلك ، وعولت على طريقة أحسن لنا ولقرائنا وأكفل للإتيان بما نرمي إليه وزيادة ، وذلك بإنشاء باب جديد في « الإسلام في عصر العلم » نجعل إسمه (المحاضرات) نودعه أكثر ما سئلنا عنه وما أجبنا به ، ونزيده ما يحتمله المقام بما لم نسأل عنه من الخواطر التي تخطر بالقلوب وتدب في الضمائر ، ويميل صاحبها لأن يجد لها حلاً ، أو يسمع عنها تفصيلاً شافياً .

لذلك رأينا أن نسلك لها مسلكاً منتظماً ، فنبدأ بالكلام على الإلهيات وما يتعلق بها من معارف وحقائق أو شكوك وشبه ، ثم تتبعه بالنبوات وما يمس من الكلام على الوحي وإمكانه ، والأنبياء وأحوالهم ، وخصوصاً حال خاتم النبيين سيدنا محمد ﷺ ، ثم يتلو ذلك الكلام على الروح والخلود والعقل والنفس والإدراك والعلم والمدنية ، وجميع ما يرتبط بالمسائل العمرانية الكبرى التي تشغل فؤاد العالم العلمي اليوم .

كل هذه المعارف ستأتي على أسلوب المحاورة بين اثنين ، ولنا من ذلك غرضان : أولهما - أننا بهذا الأسلوب نتغلب على أشد النفوس استعصاء على المطالعة ، ونجبرها على استيعاب كل ما يكتب في هذا الباب ، لأن شكل المحاورة وما سنودعه فيها من الجواذب البيانية والكلامية يقهر الإنسان على المطالعة ، ويجعله يتمنى لو طال الموضوع إلى ما لا نهاية ، وكفانا ذلك نشرأ لمبادئنا ، وإلفاتنا إلى نظرياتنا ، ودحضاً للشبه المستعصية التي تلم بالقلوب وتنشب فيها . والغرض الثاني لنا من الشروع في هذه المحاضرات هو محاولة الوصول إلى سرائر النفوس ، والنفوذ إلى ضمائر القلوب للتنقيب فيها على ما أشربته من لفحات الشبه الهائلة ، وما تأثرت به جيشات الشكوك الفادحة التي تستلزمها قشور العلوم العصرية ، وتسلك من النفوس مسالك الخفاء والبطون حتى يكون صاحبها بالعمل على أشد المذاهب إلحاداً وفتوناً ، وهو بقوله يظن أنه على الحنيفية السمحة . وربما ظن في نفسه أنه أحد الأبدال ، وقطب من الأقطاب ، هذه الشكوك والشبه التي تدق حتى لا تدرك ، وترق حتى لا تتوهم ، لا يمكننا أن ننالها في صميم الأفتدة إلا بهذا الأسلوب التحليلي الذي عقد وسميناه بالمحاضرات ، فإننا به نتوصل إن شاء الله لمناجاة السرائر ، ومناجاة الضمائر ، ومكاشفة النفس بأدوائها بحيث لا نخرجها ولا نجرحها ، والله نسأل أن يوفقنا لتوفية هذا الموضوع حقه ، فإنه من أصعب ما تصدينا لكتابته ، وهو ولي المؤمنين .



نحن لأجل البدء في موضوعنا نتخيل أن فيلسوفاً عصرياً ممن تركزت في مداركهم صورة كاملة من صور العلم بجميع مسائله ومعضله ، يقابل رجلاً مسلماً وقف من أحوال العالم على كل ما يعني الإنسان صاحب الشعور الحي والفؤاد الناصحي ، ونتخيل أيضاً أنها تعارفا وتوافقا وتعاشرا أياماً وليالٍ ، وعرف كل منهما من أحوال صاحبه ما يعرفه الأخ من أخيه ، وسنشير إلى المسلم بحرف (م) وإلى الفيلسوف بحرف (ف) :

(م) - أظن أننا قد وصلنا من صلة المعرفة والمرافقة إلى حد يسمح لنا بتبادل النصيحة ، فما من أحد إلا وهو في حاجة إلى الإرشاد ممن هو فوقه أو مثله أو دونه ، وأراك قد عاشرتني وزاملتني وعرفت من أخلاقي وصفاتي وعاداتي ما لا يكاد يطلع عليه غيرك ، ولا أشك في أنك رضيت من أموري أشياء وسخطت أشياء ، كما سرتني أنا أيضاً منك أحوال دون أحوال ، فهل لك في مساجلتي البحث فيما يحبك بصدريننا مما لم يرضه أحدنا للآخر ، لنؤدي لأنفسنا واجباً إنسانياً جليلاً في هذا الدور ، دور الحياة الأرضية ، والفتنة الجثمانية .

(ف) - لقد كاشفتني بما كنت أحدث به نفسي ، نعم قد لاحظت عليك أموراً لا يقر عليها عقلي ، ولكنك قد أثرت عليّ بلطفك وحسن مراعاتك لدرجة أحب معها أن تبدأني بما تلاحظه عليّ .

(م) - أشكرك على هذا الأدب ، ولولا أنني أرى في امتثال الدعوة معنى لا يقل عن الأدب قدراً ، لنازعتك شيئاً من حقي في هذا الجمال الخلفي .

أول شيء ألاحظه عليك عدم ذكرك للخالق الذي فطرك وصورك ، فأراك تقوم وتنام وتكد وتعمل ، وأنت لاهٍ عن حقوق العبودية ، ساهٍ عن أنشودتك الروحية ، كأنك ممن لا يرضخ لعقيدة ، ولا يدين لله بطريقة رشيدة ، وهو أمر لا يتفق مع ما أراه فيك من سمو الفطرة ، وسلامة الشعور ، وسعة المدارك .

(ف) - إني لأعجب من اتفاق الضميرين لهذا الحد . وأنا أول شيء أنتقده

غليك مع ما أراك عليه من غزارة المادة العلمية، والتبسط في المدركات الفلسفية ، والنفوذ لسرائر المذاهب العصرية ، أن تكون كما أنت مسبباً مصلياً ، تقوم لا همّ لك إلا الركوع والسجود ، وتنام ذاكراً الملك المعبود ، وهكذا يتخلل كل حركاتك وسكناتك لهف وشغف يتغيران بتغير الأوقات والمشاهد ، فلم هذا الشغل الشاغل والكد المتواصل ، وأي فائدة تعود على جسمك وعقلك منه؟

(م) - ألا تعتقد بوجود الصانع جل وعز ؟

(ف) - هب أني أعتقد وجوده ، فما فائدة تكرير ذكره ، وما فائدة الصلاة له ركوعاً وسجوداً ، هل هو في حاجة لذلك منك ، أو أن مدده ينقطع عن لا يفعل مثل فعلك ؟

(م) - الآن تبين لي أنك لا تعتقد وجوده ، إذ لو اعتقدت وجوده لما آل بك الحال لقطع الصلة التي تربط المخلوقات به وهو خالقها وقيومها . وبما أن المقام مقام تناصح فأرجوك أن تصدقني . هل تعتقد بوجود الصانع أم لا ؟

(ف) - ماذا تعني بقولك الصانع ؟ . إن كنت تعني به ذاتاً متشخصة ، لها أنصار وأعوان من الملائكة على شكل الملوك الأرضيين ، يأمر وينهي ويصرف الأمور ويدبرها على أسلوب السلاطين المطلقين والقادة الأعليين ، فتلك عقيدة لا تحتاج لدليل على أنها بقية من بقايا الأولين . وأما إن كنت تعني بالصانع مجموع النواميس الطبيعية التي يقوم عليها الكون البديع ، فذلك مما لا تجدد من يخالفك فيه .

(م) - أما نحن معشر المسلمين فلا نعني بالصانع ما وصفته من شكل الملوك والقادة ، بل تلك أمور صرفنا ديننا عن تخيلها تخيلاً فضلاً عن اعتقادها اعتقاداً ، ولكني قبل أن أجلي لك ما عليه أهل ملتنا من هذه العقيدة الرئيسية أحب أن أسألك عما أردته بقولك نواميس الطبيعة التي جعلتها قيوماً لهذا الكون البديع .

(ف) - وهل مثلك يحجل معنى نواميس الطبيعة ؟

(م) - أنا لا أجهل معناها العلمي ومنزاهها من حيث تقريب المعلومات إلى الذهن ، فهي في نظري آلات تعبيرية ، ووسائل علمية ليس إلا . مثال ذلك : رأينا أن الأجسام الثقيلة متى تركت ونفسها في الفراغ سقطت إلى الأرض ، فقلنا لا شك في أن في الأرض قوة تجذب الأجسام إليها وتتجه بها نحو مركزها ، وسمينا تلك الظاهرة الطبيعية ناموساً طبيعياً . ورأينا أن الكواكب السماوية معلقة في الفضاء بدون سناد لا يختل لها نظام ولا يعتري وحدتها انفصام . فقلنا لا مناص من فرض أن هذه الأجرام مجذوبة إلى الشمس بقوة اصطلاحنا على تسميتها بالجاذبة العامة ، وسمينا ذلك ناموساً طبيعياً أيضاً . من هنا يتضح لك أن ما نسميه نواميس هي قضايا ذهنية استنتجها العقل من نسبة بعض الكائنات إلى بعضها وعلاقة الأجزاء فيما بينها ، فهي صفات الموجودات وخواصها . ولوازم المركبات وأحوالها ، فهل يسلم العقل بأن تكون صفات الشيء سبب وجوده وقيامه بقاءه ؟ ومن يدعي أن نواميس الطبيعة هي سبب إيجاد الكائنات وبقائها بعد ما اتضح لنا أنها صفات الأجسام وخواصها ، كان كمن رأى الإنسان وهو حي مدرك عاقل حكيم ، فادعى أن حياته وعقله وحكمته نواميس طبيعية وأنها هي التي صورته وأبدعته .

(ف) - هذا تمثيل لا ينطبق على الواقع .

(م) - أنا لا أرى فرقاً بين الأمرين . فإن من يستجلي الطبيعة وقواها ، ويستعرض كائناتها وممالكها ، ويشاهد علاقاتها ببعضها ويسمي تلك العلاقات نواميس طبيعية ، ثم يدعي أنها هي التي صنعت الكون بما فيه ، لا يفترق في نظري عن يجعل صفات الإنسان سبب إيجاده ؛ علي أن صفات الإنسان من حيث الإدراك والعلم والشعور والإرادة والاختيار ، أكمل بما لا يقدر من نواميس الطبيعة . إذ ليس بين تلك النواميس ما يسمى ناموس الشعور ولا ناموس الإدراك ، وهما كما لا يخفى أكمل صفة موجودة في الكائنات .

(ف) - إنكم معشر الاعتقـاديين لا تفارقكم الحماسة كيفما كنتم وحيثما وجدتم ، وإنك لتكلمني ويخيل لي أنك تنهـأ لحرب دينية على مثال ما حدث في القرون الوسطى . وإني لا أزال أؤكد أني لفي غاية الاندهاش من رؤية سطوة العقيدة بفؤاد عالم متضلع مثلك . ولعل هذه أول مشاهدة لي من هذا القبيل ، وهي تؤكد لي ما سمعته من أن العلم الأوربي الذي جرف أمامه عقائد العالم الغربي أحدث في المسلمين حركة من الحماسة الدينية تشبه ما كان لآبائهم منها قبل عشرة قرون . ولعل هذه الحماسة هي التي جعلتك تنظر للقضايا العلمية بهذا النظر المزري المستخف ، ولا غرو بعد ذلك إن رأيت العلم حقيراً وتنتأجه أحقر منه ، وضربت بقضاياه عرض الحائط كما تفعل الآن .

(م) - حاش لله أن يحقر المسلم العلم الحق وهو قوام عقيدته وملاك يقينه ودعامة إيمانه ، وإنما هو يحقر الظنون والآراء الخالية التي الصقت به زوراً وغروراً ويرى نفسه مسوقاً لمحاربتها أنى وجدها ، لأنها هي التي أضرت بعقول البشر وغشتهم وسممت فطرم بما نفثته فيها من سموم الإلحاد الذي لا موجب له البتة ، وما أنا أراك تتكلم باسم العلم ولا تتأخر عن القول بأن الصانع هو نواميس الطبيعة ، فهل نواميس الطبيعة هي غير ما وصنت لك ؟ وهل العلم يبيع لك هذا القول ؟

(ف) - يرينا العلم بالمشاهدة والحس أن الحوادث الطبيعية مقودة في حصولها بقوانين ثابتة معينة ، فلا تستقط ذرة ولا ترتفع شعرة إلا بسبب معقول تابع لسبب أرقى منه ومرتبطة بسائر الأسباب ارتباطاً رياضياً منتظماً . وكلما ارتقى الإنسان في العلم واستشرف من مساتير الكون ما كان محجوباً عنه ، أدرك نواميس جديدة وأشرف على علاقاتها الأكيدة ببعضها ، فهو أمام هذه المشاهدات المحسوسة لا يتألك نفسه من أن يستنتج أن قوى الكون كله نواميس مرتبطة بعضها ببعض تنتزل عنها الحوادث تنزلاً ميكانيكياً اضطرارياً ، هذا كل ما في الموضوع ، فمن ثلثت حدة هذه الحماسة قليلاً رأيت الأمر كما أراه جليلاً لا يحتاج لجـدال ولا نزاع .

(م) - إن ما قلته لك آنفاً يكفيني مؤونة الرد على ما تقول الآن ، ذلك أنك مهما ارتقيت في استجلاء الإبداع الطبيعي وسموت في استعراض مسابيره وأسراره ، وأشرفت على نواميس لها أعلا وأعم ، فإنك لا تزال تشرف على صفاتها وخواصها لا على أسباب إيجادها . ومن العجيب أن يغيب عن مثلك وجه التفرقة بين صفات الشيء وعلة وجوده مع الفرق الشاسع بينها . فإن كنت تراني مغلوباً للحماسة الدينية ، فألتمس لنفسي بها عذراً ، أما أنت فلا أرى لك عذراً في هذا الخلط ، ولعله من الحماسة الفلسفية .

(ف) - أنا ما قلت لك أن هذه النواميس المشاهدة : هي التي أبدعت هذا الإبداع كله ؛ بل قلت لك أنك كلما ارتقيت في علم الكون وجدت نواميس أعلى وأرقى ، مما يدل على أن مصرف الكون هي قوانينه ، ومقى ثبت أنها المصرفة له المدبرة لشؤونه ، فلا يبعد عن العاقل أن يستنتج بالبداهة أنها هي أو نواميس أرقى منها قد صورتها على هذا الشكل المدهش ، ولا موجب لفرض قوى وراء الطبيعة . على أنني أعجب كيف تنكر أن صفات الشيء هي سبب وجوده ، مع أنك تشاهد أن مبدأ الإنسان علفة صغيرة كونتها النواميس الجسمية في صلب أبيه ، ثم تولت تلك العلفة نواميسها وناواميس الرحم وما يتبع ذلك مما له علاقة بتكوينه ، وما زال ينمو ويتصور حتى صار كامل الخلق ، فأثرت عليه نواميس فاندفع من بطن أمه إلى هذا العالم ، وما زالت به القوانين الوجودية حتى بلغ أشده واكتمل عقلاً وجسداً .. أليس في هذه المشاهدة ما يجعلك تعتقد بالحس أن صفات الشيء هي سبب تكوينه وتصويره ، وقس على ذلك سائر الكائنات علوها وسفلها ، جليلها وحقيرها .

(م) - أنا أعجب غاية العجب من هذا النظر القصير ، لا تؤاخذني في هذا التعبير ، لا جرم أن من يعتقد ما تقول كان كالذي رأى تلك الآلة الكبيرة البدیعة التي يلقى إليها دقيق وماء فتخرجه بعد قليل خبزاً ، فاعتقد أن الخبز نتج بقوى عدد تلك الآلة بدون دخل لمصرف ولا مدبر آخر ، وغفل عن ذلك

العقل الكبير الذي اخترع تلك الصناعة المدهشة وأودعها تلك القوى المختلفة ، وأضرب عن ذلك العامل الذي يدها بالحرارة التي تدير حركاتها وبالشحم الذي يسهل دورانها . ألا ترى أن هذا التشبيه منطبق على من يعتقد ما تقوله تمام الانطباق ؟ . فإنك إن قلت أن النواميس الطبيعية تتولى الأشياء وترتبها من أول ما تكون خلايا ميكروسكوبية إلى أن تصبح كائناً من أبداع الكائنات الأرضية ، ووقفت عند ذلك الحد ولم ترد أن تصعد بفكرك إلى ما بعد هذا المدى القصير ، كنت كمن يظن أن قوى تلك الآلة نواميس فاعلة مستقلة ، ويدعي أن الآلة قائمة بذاتها لا تحتاج لمن يدها ويحركها مع أن المشاهدة تدل على خلاف ذلك ، إذ قد تبين أن تلك الآلة محتاجة في كل لحظة لعقل المدبر وعنايته . وهل هذا الوجود بنواميسه المختلفة ، وفواعله الكثيرة التي تراها تحدث وتربي وتلاشي ، إلا كمثل تلك الآلة الضخمة بما فيها من عدد ولوالب ومحركات وضواغط الخ .. وهذه الآلة كما احتاجت لفكر المخترع وعقله وعنايته المدبر ورعايته ، كذلك الكون احتاج إلى مبدع يبدعه ويحتاج دائماً إلى مصرف يصرفه ومدبر يديره . هل بعد هذا يمكنك الوقوف مع نواميس الطبيعة المجردة ؟

(ف) - إنكم معشر العلماء الاعتقاديين برعتم جداً في العلوم الجدلية ، لأنها أسلحتكم الوحيدة التي تحفظون بها مراكزكم أمام العامة والخاصة ، ولكن الوجود يا أخي غير متبع في تركيبه وتشكله وبقائه أو تلاشيهِ قوانين العلوم المنطقية وقواعد الفلسفة الكلامية ، ولو كانت عويصات المسائل تحل بمثل هذه الوسائل لصحت جميع الديانات الوثنية الموجودة على سطح الكرة الأرضية ، لأن رؤساءها كلها من أبرع الناس في الكلاميات ولم يؤسسوا مذاهبهم إلا على قوانين منطقية معقولة لديهم ، ولو ظللنا في مبحثنا جارين على هذا الأسلوب الجدلي لأفنيينا أعمارنا ولم نصل لنتيجة .

(م) - أنا ما جادلتك إلا للوصول إلى فهم ما ادعيتَه من أن الصانع جل وعز هو نواميس الطبيعة ، وأظن أن لي الحق في استيضاحك ما يبههم عليّ من

كلامك ، وإلا فتكون أنت واقع فيما تنبيه على غيرك ، وإذا كنتم معشر أنصار الفلسفة الحسية تقولون ما لا يمكنكم شرحه ، وتستندون على مجاهيل يقف العقل أمامها خاسئاً حسيراً ، فما فضلكم على من يعتقد ما لا يعقل ويسجد لما لا يوجد؟ .

(ف) - أنا إن كنت عجزت كما تقول عن شرح ما أبديته لك ، فذلك لأنه من قبيل ما لا نعلم ولم يصل العلم البشري إليه لمساسه بمبدأ الخلق وأصل التكوين ، وليس بعارض على الفيلسوف أن يقف حيث انتهى إليه علمه ، ووصل إليه فهمه ، منتظراً ما يفتح عليه من مساتير الخليفة فيوالي السير للأمام ولكن ببطء وتحفظ لكيلا يرتطم بما يضلله ، أو يتيه فيما يحبه . أما أنتم معشر الاعتقاديين فتتهجمون على المجاهيل الكبرى تهجم العارف بها المحيط بسرورها ، وتحكمون عليها نقضاً وإبراماً وسلباً وإيجاباً كأنكم أمنتهم شر الخطأ ، أو تنزهتم عن الخطأ والخطب ، هذا ما جعل مذاهبكم تعدد بالألوف وكلها في تشاكس وتنابد لا ينقطع مددها ولا تغيض مادتها ، بخلاف أنصار العلم وأتباع الفلسفة الحسية ، فكلمهم على طريق واحد على اختلاف البلدان واللغات وتعدد المناحي والاتجاهات . ألا تتخذون لكم من ذلك عبرة ؟ .

(م) - هذه النغمة لا تفارق أنصار الفلسفة الحسية في كل محاولاتهم ، وقد جعلوها حصنهم الحصين في الهروب من وجه الحجج المفحمة والدلائل الملزمة ، فما نقرأ لهم كتاباً علمياً في أي موضوع كان إلا ونجد فيه هذا الدرس في كثير من أبوابه ، كأنه رقية سحرية ينفثونها في أذهان أضدادهم فتقلبهم إلى جهتهم ، وقد رأينا كثيراً من الناس متى أصغوا إلى هذه المقالة التي تختلف لفظاً على حسب أساليب الكتاب وتتحد معنى ومغزى ، قطبوا وجوههم واهين أنها أصابت منهم المقتل ، وبلغت بهم المقطع مع أنها قضية كلامية ، الماديون أحق بها من غيرهم .

إنهم يزعمون أننا نتهجم على مبدأ الوجود وأصل التكوين ، ثم نتحكم عليها فنصدر أحكاماً جائرة لا تتفق مع الحقيقة تنزع بنا إلى التخالف والمناظرة ،

وهو ليس بصحيح ، فإننا ما عصينا أحكام الحس والمشاهدة في شيء مما ذهبنا إليه . وذلك أننا رأينا وجوداً محسوساً فقلنا لا بد له من موجد ، ورأينا ذلك الوجود حياً مترقياً بحكم الصنع مدهش التركيب فقلنا لا بد من أن يكون موجهه حياً عالماً قادراً حكيماً .. الخ ، وهذه الأحكام كلها مستندة على الحس والواقع . أما ما نشأ من الخلاف فهو في تحديد هذا الخالق وتكييفه وهو من شهوات العامة وأهوائهم . إذن لسنا في شيء من التهجم ولا التحكم . أما أنصار الفلسفة الحسية فقد تهجموا وتحكموا . أما تهجمهم فلزعمهم أن الكون قديم لا أول له وادعائهم قيامه بنواميسه المجردة ، وأما تحكمهم فلادعائهم قيام هذا الوجود المدهش بنفسه وبمحض فعل تلك النواميس الميكانيكية ، وذهابهم مذاهب السفسطة والخيال في تعليل وجود الحياة من نواميس ميتة ، والعقل من فواعل مجردة منه ، والإبداع التكويني من عوامل لا تدرك الجمال ولا معناه . ألا يعد هذا من التحكم الشائن الذي يجب أن يتنزه عنه العاقل ؟

(ف) - إن الذي يسوقنا لما تسميه تهجماً وتحكماً هو اندفاعكم أنتم ، فإنكم بمقالاتكم وكتاباتكم في هذه الامور وطننتكم بنتائجها ، تلجثوننا إلقاءً لأن نقف لكم في الجهة المضادة لجهتكم لنستدرجكم إلى التأمل والاعتبار . أما لو كان أمر العالم لنا وحدنا لما وجدتم لهذه المسألة ذكراً في كتبنا البتة ، لأنها مما لم نصل بعد إليه .

(م) - لماذا ؟ أليس في فطرتكم الإنسانية ما يدفعكم للوقوف على أخص ما يمس حياتكم الشخصية ؟ .

(ف) - ألا حبذا ! ولكن من لنا بذا . إن أفئدتنا لتتلهب ناراً للوصول إلى أصل الحلقة والعلة الأولى في التكوين ، ولكن كيف السبيل والجاهيل تحتوشنا في كل مكان ، والمساطر تدهش منا الأذهان ؟

(م) - إذن أنتم أشوق الناس للوصول إلى ذلك السر ، ولكنكم تستوعرون الطريق وتتوقعون التعويق .

(ف) - هذا أمر لا يحتاج لتأكيد .

(م) - إذن أنتم من هذه الوجة مسلمون مع فارق لا يكاد يكون ولكنكم لا تشعرون .

(ف) - وكيف ذلك وقد حدثت مبادئنا بعد ظهور الإسلام بأكثر من ألف ومائتي عام ، وما هو كنه ذلك الدين الذي يأخذ ذويه بهذا الأدب العلمي الصارم ؟ بل كيف يسمى ذلك الدين ديناً مع علمنا بأن الأديان تعطي لنفسها حق حل سائر رموز الكون ، فهي لا تدع مسألة من المسائل إلا وتبدي عليها أحكاماً نهائية لا يجوز لها النقد ولا يحسن فيها الأخذ والرد .

(م) - أين أنت من الأدب الإسلامي الذي أفاضه الله على فؤاد الآخذ بهذا القرآن الكريم .

... لم ينته المسلم بما قاله للفيلسوف حتى غشي مجلسها ثلاث رجال ذوي صبغ مختلفة ، يجمعهم والمسلم رحم اللغة والدين والمعرفة ، فانقبض الفيلسوف عند ذاك عن الاسترسال في المحاضرة وارتأى أن تؤجل الجلسة الى الغد . فقال له المسلم : لا داعية للتأجيل ، فإنك لو علمت صفات الثلاثة لرأيت أن وجودهم من متمات بحثنا ومكملات موضوعنا . ولو لم يكن فيهم إلا ما يريك اتجاه الأفكار المختلفة في الشرق لكفى ذلك محبباً لك لمعاشرتهم ولو أمد المناظرة .

(الفيلسوف) - أنا ما انقبضت عن الاسترسال فيما كنت بصده إلا لعدم الإثقال عليهم ، أما وقد علمت أنهم مشخصو بعض المذاهب الشرقية العصرية فمن أوجب الواجبات عليّ الآن أن أرحب بهم وأعد وجودهم مكملًا لما نحن فيه . فحبذا لو تكرمتم بتعريفي بمرآكزهم من الحركة الفكرية عندهم .

(المسلم) - حباً وكرامة ، أما الأول فاسمه (المحافظ) وما سمي كذلك إلا لأنه زعيم حزب المحافظين عندها ، ولا أعني بالمحافظين زعماء السياسة ، فإنما لم نتمتع بعد بالحكم النيابي وإنما المحافظون عندهم الواقفون مع كل قديم لا يرون

الخير إلا فيه ولا يرجون الحياة إلا به ، ولديهم أن كل جديد سواء في العلوم العقلية أو الصناعية فصورة مأخوذة عن القديم بعد تشويه أحدثوه فيها ، ومسوخ أوقعوه عليها ، فهم هذه الروح الخاصة بهم لا ينظرون لمدينة أوروبا إلا بنظر الساخر المستحقر، ولو جاءت بالمعجب ، وأخذت بأكظام الشرق من كل سبب .

وأما الثاني فاسمه (المتمدن) وهو زعيم الحزب المضاد للحزب المتقدم . يرى أتباع هذه النحلة أن مدينة أوروبا هي أكمل وأجل مظهر إنساني ظهر للعالم بمعنييه الصوري والأدبي ، ووجهيه الكلي والجزئي ، فهم عشاق المدنية في كل مجلى من مجاليها مستسلمين لأفاعيلها ، مستنمين إلى دوافعها ، منقادين لتياراتها ، إن وردت بهم مورد لمو يعدو على الكيس والكيس ، أو يسطو على النفس والنفس ، فلا يعدون ذلك نقیصة فيها بل أحوالاً تقتضيها طبيعة الشؤون ، وتستدعيها حالة الارتقاء ، ولديهم أن كل ما عارض المدنية من نقل أو حكمة أو أثر فلا محل له عندهم من أفئدتهم ، لأنهم يعدونه معارضة الطبيعة وكل ما عارض الطبيعة فزائل لا محالة .

وأما صاحبنا الثالث ، فإسمه (المستفيد) وهو غريم الفائدة يأخذها حيثما صادفها ، وطالب الحكمة يلتقطها أنى وجدها ؛ وقف على شيء من آثار الجديد الساحر ، وذاق جرعاً من إناء هذا البدع الباهر ، ولكنه مع ذلك مغرم بالقديم الآمر ، مجل لمعهده الزاهر ، معتقد أن المال إليه وإن كابر المكابر وسخر الساخر ، ولكنه مع ذلك لا ينكر فداحة الشبه الجديدة وخطارة الشكوك الحديثة ، فهو يرى من تمام متاعه أن يحول دونه ودون عبث العابث وعبث العاث ، فهو لذلك شاهد كل مجال ، وأذن لكل حكمة تقال .

(الفيلسوف) - نعم المجلس مجلسنا . لعمري أن الحكمة لا تنجلي في مجلاها الكامل . والفلسفة لا تتجلى بمجلاها الشامل ، الا باحتكاك العقول بالعقول ، وتلاقى الأفكار بالأفكار ، وتجاول المدارك بالمدارك ، ما دام الحق أنشودة الجميع وضالتهم فلنأخذ فيما كنا فيه :

قلت لي أين أنا من الأدب الاسلامي الذي يفيضه الله على الآخذ بهذا القرآن الكريم، نعم أنا بعيد عن إدراك كنه ذلك الأدب، ولكن هل يخلو ذلك الأدب عن كونه أدباً دينياً جاء به دين ؟

(المسلم) - نعم ، هو أدب جاء به دين .

(الفيلسوف) - هذا خط الانفصال بيننا وبينكم، فإن الدين يبتدىء حيث ينتهي العلم ، لأن منبأه كشف أحوال ما وراء الطبيعة والتغلغل في علم ما بعد المحسوسات ، والعلم كما لا يخفاكم لا يخول لنفسه حق الذهاب بالفكر عن عالم الحس فهو مع المحسوسات حيث هي ، يوسعها فحصاً وتنقيباً ، ويجهد وراء نوااميسها فلياً وفحصاً ، لا يتعدى دائرة العيان والتجربة قيد شبر ، خوفاً من الوقوع في ما وقع فيه الأقدمون والجهلاء العصريون من تجسيم مرائي الخيال والاستعباد لبنات الوهم . وما دام الدين يبتدىء حيث ينتهي العلم فما معنى قولك أكاد أكون مسلماً لولا فارق ضعيف ، وما هو هذا الفارق الضعيف بعد ما أريتكم هذا الخلاف الجوهرى ؟

(المسلم) - أنا قلت لك تكاد تكون مسلماً لولا ذلك الفارق مع علمي بكل ما قدمته ، ولم أزل مصرراً على قولي ، وأزيدك بأني سأبرهن لك إن شاء الله على أن أصولكم العلمية التي تفخرون بها علينا ، والتي أدتكم إلى الذهاب بالإبداع السوري كل مذهب ، موجودة كلها في ذلك الأدب الإسلامى بأسلوب أكمل ، ورواء أجمل ، وبصاحبها أدب روحاني مدنيتكم وعلومكم عارية عنه بالمرّة ، وهما أصلان لا تكل الإنسانية إلا بهما ، ونراكم مدفوعين إليهما من حيث تشعرون ولا تشعرون ، ولكني الآن لو ساجلتك فيما هو الإسلام وما هو كنه ذلك الأدب القرآني ، وروح ذينك الأصلين المادي والروحاني ، خرجنا عن موضوعنا الأصلي ، وطوحتنا الاستطرادات إلى مطارح بعيدة من البحث ، فلنسلك لموضوعنا طريق الترتيب ، ولنضع الكلام في الإسلام إلى موضعه .

(الفيلسوف) - النظام أدعى لعدم الخطل ، فنعم ما رأيت .

هنا عرضت للفيلسوف جلسة في الغرفة المجاورة مع زائر جاءه فقام بعد أن استأذن ، فقال (المستفيد) :

— لقد كنت أتمنى أن يشهدني الله مثل هذا المشهد الفلسفي الحافل بالعلم والحكمة ، لأبل هيأماً في صدري ، وأشفي علة في فؤادي ، فأحمد على أن وفقي لوجدانه ، وأجلسني بين أقرانه ، وكيف لا أمتلى سروراً وغبطة وأنا أتوقع أن تستعرض أمامي سائر الأصول الفلسفية والعلمية في معرض جدل خال من التعصب ، وحوار نزيه عن الغرض ؟

(المحافظ) — رويدك أيها الأخ الصالح ، فما هي الفائدة التي تتوقعها من نفثات صدر هذا الملحد المظلم الفؤاد ، وما أغنى عقلك عن الالتياث بما يقذفه من فيه من الشبه والتشكيلات والإشكالات ؟

(المستفيد) — إن تلك الشبه التي تخافها عليّ موجودة في ذهن من هو أقل إدراكاً مني ، وقد نفتتها في الأذهان ألسنة الحال ، لا ألسنة المقال ، وإلا فما سبب انصراف الخاصة والعامة عن الدين ، والانسحار بباطل هذا البدع المشين ؟ وإني أرجو في جلستي هذه أن أعرف صور هذه الشبه بلسان المقال ، وأسمع الردود الدامغة عليها من صديقنا المسلم .

(المتمدن) — أنا كما يعهدني كل من يعرفني أحب الحرية والتصريح بكل ما يحيش بصدري ، لهذا أرجو أن ما سأقوله لا يقع من صديقنا صاحب هذه المناظرة موقع الإشارة والخط من كرامته ، وكفاكم دليلاً على الإخلاص أفي معتقد ما أقول . أنا أرتأي أن نقض هذه المناظرة ونتخلص منها بالتي هي أحسن ، لئلا نستهدف لاستصغار ذلك الفيلسوف بنا وامتهانه لنا حين يقذفنا بمحججه العلمية الدامغة ويرشقنا بسهام أدلته النافذة ، ويستظهر علينا بسطوة العلم الأوروبي وبطشه فلا نحير جواباً ولا نطيق خطاباً . فمن ذا الذي يتصور أن يفوز أنصار الدين على زعماء الفلسفة الأوروبية ، وقد شهد الوجود على أن

ذلك محال .. تلك سنة مضت ، وأدوار حدثت وانقضت . ونحن الآن في عصر العلم ، فمن رضح لسلطانه نجما ومن عرض له صفحته وقاوم أحكامه هلك .

(المستفيد) - إن شأنكم معشر أنصار المدنية الأوروبية عجيب لا يكفيه التمجيد ، لقد غلوتكم في إكبار سطوة العلم والرهبة من صولته ، حتى تصورتوه أسداً كامراً بحيث لا يقركم على فكرتكم هذه أهله أنفسهم ، فإن العالم الأوروبي ذاته يجعل أكبر مفخرة للعلم المصري أنه متواضع يقر بالإقلال ، ويخلص برجو الكمال .

لم يكذبتم المستفيد جملته حتى دخل (الفيلسوف) فقال :

- هلم ، فقد أدبت ما وجب .

(المسلم) - تبين لي مما مر أنكم وقفتكم بمجهوداتكم وقيدتم مداركم على عالم الحس ، لا تتعدونه إلى ما وراءه ، وما أضيق هذا المجال على الوجدان الدائم الجولان ، الذي لا يرضيه حد فيلتزمه ، ولا يقنعه مرمى فيسكن إليه .

(الفيلسوف) - نعم هو مجال ضيق ولكن بالنسبة لشطحات الخيال وجولات الأوهام ، التي لا تتقيد بقيد ولا تطالب بدليل ، أما بالنسبة للعقل الذي طبع على أن يحاسب ويحاسب فهو ميدان لا يتناهى ، وباحة يضيق عنها ذرعه ، وأن هذا العقل كلما تذكر أنه بعد جهاده في عالم الحس ألوفاً من الأعوام لم يحصل منه إلا ما لا يجعل به أن يفتخر به ، علم أنه في وسط بحر خضم حافل بالمجاهيل والأسرار زاخر بالبدائع والآثار ، وهذه الذكرى تشنيه عن طلب المزيد ؛ وهل يطلب المزيد إلا من بلغ المدى ، وأشرف على الغاية ؟

(المسلم) - في الإنسان قوى مختلفة ، وقابليات عديدة تستدعي كل منها بلوغ الغاية مما خلقت لأجله ، وطبعت على تطلبه ، ولا شك في أن هذا العالم الحسي يواتي مطالب كثيرة لبعض تلك القوى والقابليات الإنسانية بما أودع فيه مما يناسبها ويلانم فطرتها ، ولكن بما لا مشاحة فيه أن البعض الآخر من تلك

القوى والقابليات يبقى أمام هذا العالم الحسي ولهاناً مضطرباً يطلب أنشودته فلا يجدها ، ويبحث عن رغبته فلا يصادفها ، فهل يعقل أن الطبيعة تواتي حاجة بعض القوى دون البعض الآخر ؟

(المستفيد) - إسمحو لي أن أقترح عليكم اقتراحاً تدعوني إليه سماحتكم ، وذلك أنكم معشر العلماء لما منحتموه من بسطة المدارك ، وسمو القرائع ، تعلو عباراتكم عن أفهام الناس ، حتى أن العربي منها قد يكون أعجيباً عند أهل اللغة وأرباب البيان ، لكثرة ما تودعونها من الإشارات الخفية والمرامي الفلسفية ، فأرجو أن تاذنوا لي في استيضاحكم كل ما يفهم عليّ من أقوالكم ، فأرجو الآن مثلاً محسوساً على ما قاله حضرة الأخ المسلم .

(المسلم) - في الإنسان مطالب جسدية كلاً كل والشرب وغيرهما ، ولكل منها من عالم الحس مرتع هنيء وميدان وسيع ، وفيه رغائب عقلية كميّله إلى إدراك المجهولات واستنباط الخفيات ، والوقوف على الأسباب والمسببات ، وهذه الرغائب لها أيضاً من الإبداع الوجودي والنظام العالمي مسرح باهر ، ومرئاض زاهر ؛ ولكن في الإنسان غير هذين النوعين من المطالب أنشودات روحية وضالات نفسية ، مثل غرامه بمعرفة سر حياته ، وبما يؤول إليه بعد مماته . هب أن رجلاً نال من نعم الجسد ما لا يرجو معه مزيداً ، ومن شهوات العقل ما لا يبلغ شأوه مزاحم ، غرق في الخيرات المادية ومملوء من النظريات والبداء العلمية ، ثم أدركه الهرم وقارب أن يفارق أهله وولده ويغادر معارفه وبلده ، ويدس إلى حفرة يستقذر أن يمر بها ، ويستوبى الإشراف عليها . فهل تغني عنه وهو في تلك الحالة حالة السباح بحياته المحبوبة ، والبكاء على ما سينتهي إليه أمره بعد قليل ، فهل يتصور أن الطبيعة - في اصطلاح الفلسفة - تهب لأميال الإنسان المادية والعقلية مطالبها بهذا السخاء العظيم ، ولا تهب ما يهدى اضطرابه علي أحب محبوب لديه ، وأكرم موجود عليه ، وهي حياته الشخصية وما يتعلق بها ؟

(الفيلسوف) - إن الإنسان يميله إلى معرفة حظه بعد انتهاء حياته يريد أن يدرك ما وراء الطبيعة المحسوسة ، ولما لم يكن له وسائل تمكنه من ذلك فهو يسلط عليه فكره وخياله ، ولا يزال عائماً بين سراب تينك القوتين حتى يفتبي وجوده على حالة من الأحوال ، فهل تود أن نطلق لأنفسنا عنان الخيال فيما لم نوهب آلة الوصول إليه ، ونكون كآحاد المال والنحل التي كونت كل منها على عالم ما وراء المادة سفيراً ضحماً بل أسفاراً كلها كلام في كلام وأوهام في أوهام ، وهل ذلك يقنع العقلاء ويليق بالعلماء ؟

(المسلم) - أنا لا أطلب منك إلا أمراً واحداً وهو أن تعترف لي بتلك المطالب الروحية ، فإذا أقررت بوجودها كان لي كلام آخر في شأن وجود عالمها أو عدم وجوده .

(الفيلسوف) - ماذا تعني بالمطالب الروحية ؟

(المسلم) أعني بها تعطش الإنسان لمعرفة سر حياته ، وما يناله بعد مماته ، وغرامه بالخلود بأخص حالاته .

(الفيلسوف) - إذا كان خب الإنسان لكشف الأسرار الكونية ، ورفع الحجب الوجودية أمراً لا يحتاج لدليل ، فهو من باب أولى أكثر حجباً لكشف سر ذاته ، والإشراف على ما سيناله بعد مماته ، أما غرامه بالخلود فهو أمر مشاهد لا يحتاج لبيان ، ولكن هل كل ما يحبه الإنسان داخل في حدود الإمكان ؟ إذن لصحت سائر الأديان على ما فيها من بطلان ، ولتحققت سائر الأهواء الإنسانية وأصبح الهوى برهاناً يستدل به الفيلسوف ويتوكأ عليه المتجادلون .

(المسلم) - لا تعجل بالاستنتاج ، فإني ما طلبت إليك إلا الاعتراف بفراغ الإنسان بمعرفة سر ذاته وحظه بعد حياته ، وقد اعترفت بها . الآن أسألك كيف أن الطبيعة التي لم يعهد الجزاف في عملها وصنعتها قد وهبت الإنسان هذا الشغف الهائل بذاته ، ولم تهبه ما يطفئ لهيبه ويبل من غلته ، مع أنه أكبر شيء همه في وجوده ، وأخص ما يعنيه من شؤونه ؟

(الفيلسوف) - إن الطبيعة لم تهمل من تلك الجهة ، فقد دلته بأطوارها وأدوارها ونواميسها على أن تلك الطلبة من المشتبهات الهوائية غير ممكنة ، ومتى علم الإنسان أن مطلوبه مستحيل أقلع عنه .

(المسلم) - إن جوابك هذا غير وجيه ، إذ لا يتصور أن الطبيعة تشعر كائناتاً من كائناتها بحاجة شديدة جداً ثم تربيه بعد مضي آلاف من السنين بواسطة علم النواميس أن تلك الحاجة غير موجودة . إذا أجهت إنساناً حتى اشتدت به سورة السغب ثم عرفته بأن الغذاء مستحيل وجوده ، فهل يقلع عن طلب الغذاء بمحض تلك المعرفة ، وهل يستطيع أن يقاوم تارات ألم الحاجة زمناً مديداً ؟

(الفيلسوف) - قد شبهت الحاجات النفسية الأدبية بالحاجات الجسدية المادية ، واستفدت من ذلك التشبيه فائدة التأثير على الأذهان القريبة المدى السهلة التأثر ، فلا سلم لك جدلاً لأطالبك بالبيننة الواضحة على ما تقول ، فإنك لم تسمح لنفسك بالإتيان بهذا التشبيه ، والانتصار لما أنت بصده هذا الانتصار الحماسي إلا وأنت عارف بسبيل الوصول لإشباع تلك الحاجة النفسية . فتكرم بها غير مأمور ، فكلنا طالبها وهائم بها .

(المسلم) - يظهر لي من لحن كلامك وروح إقائك أنك لم تكلف نفسك عناء البحث عن هذه الطلبة الروحية قط .

(الفيلسوف) - أؤكد لك أنني مررت في أثناء نظري في الفلسفة على أكثر ما كتبه فلاسفة اليونان الأقدمون وعلماء الدين في القرون الوسطى ، وعلى ما كتب في عصرنا الحاضر أيضاً من هذا القبيل بواسطة اللاهوتيين المحدثين ، فما نلج صدري ولا اطمأنت خواطري لشيء من ذلك ، بل الذي لاحظته أن كلام الجميع يقبل النقد ولا يستعصي على التعقب ، والسبب في ذلك ظاهر ، وهو أنهم يعقولهم المحدودة يودون حصر حقيقة الحقائق في دائرة التعبير ، والوصول للسبب الأول

بوسائل الفكر القاصر ، فلا جرم إن أخفق سعي الجميع وذهب تبعهم
أدراج الرياح .

(المسلم) - هل تعتقد أن وراء هذه الحقائق الوجودية لحقيقة كلية ، وأن
وراء هذه الأسباب الثانوية سبباً أولياً ؟

(الفيلسوف) - أرجوك أن لا تأخذني بظواهر ألفاظي ، فأنا إن قلت
حقيقة الحقائق والسبب الأول ، فلا أطلقها على ما يطلقها عليه أصحاب التعبير
وسماسة المطلق والفلسفة الكلامية ، بل أريد بها كنه ما نراه من الظواهر ،
ومهب ما نشاهده من تلاطم هذه القوى الكونية بأفاعيلها المدهشة .

(المسلم) - عبر بما استطعت من ألفاظ ، فلا أخالك تنكر أن وراء هذه
المشاهد الباهرة المتغيرة ، وخلف هذه الأفاعيل الإبداعية المدهشة ، وبعد هذه
الحركة التكوينية الهائلة ، قوة تمدها ومنظماً ينظمها ، وحكمة تهيمن عليها ،
ودستوراً يدفعها عن الانحراف ويزغها عن الزيغ ؟

(الفيلسوف) - نعم وراء ذلك النواميس الوجودية ، والقوانين الكونية .

(المسلم) - إنك عبت أهل التعبير وسماسة المنطق بالجمود مع الألفاظ ،
والاستراحة للكلام ، فلا تقع فيما عبتهم من أجله . فإنك مهما حاولت في إعلاء
شأن النواميس فلا تستطيع أن تنكر أنها من مكتشفات العقل القاصر والفكر
الناقص ، فهي من قبيل الأمور الفكرية والقضايا الذهنية ، وإن علوت بها وقلت
أنها من باب الأمور الطبيعية والمشاهدات الحسية ، فسيان عندي ، ولا يخرجها
هذا الاعتبار عن كونها من القوى الطبيعية والمؤثرات الوجودية ، وقد قلنا وقلتم
أنه لا بد من أن يكون وراء هذه المشاهد المادية والقوى الوجودية حقيقة كلية ،
هي أصل الحقائق وقيوم الكائنات . وإن أصررت على أن النواميس هي غاية
الغايات ونهاية النهايات ، فقد حاكيت الواقفين مع أفكارهم ، المستعبدين

لحياتهم ، المؤلمين لأهوائهم ، الحاضرين الوجود غير المحدود في فكرهم المحدود ،
والحاكمين على غير المتناهي بهذا النظر القصير المتناهي .

(الفيلسوف) - لا شك في أن وراء هذا الطلسم الكوني ، وخلف هذا الغطاء
الصوري كوناً آخر يعلو عن هذا العقل العادي ، وقد علمنا اكتشاف أشعة
رنتجن التي تخترق الحجب الكثيفة ، والراديو ذو الخصائص المدهشة ، أن
الكون الذي نحن فيه مشحون ببدايع تحير المدارك ، وتدهش الألباب ، منها
ما نحن مستأهلون لإدراكه ولكننا لم نصل إليه بعد لقصور وسائلنا ، ومنها ما
يعلو عن متناول حواسنا وعقولنا فلن نصل إليه أبداً ، ومن كانت عقيدته في
الكون هكذا ، فكيف يحصر الكون في فكره ، أو يدعي بلوغ الغاية من
العلم به ؟

(المسلم) - هل تستطيع أن تتصور أن كل هذه الإبداعات المهيبة للعقول ،
وهذه الصنائع البالغة نهايات الدقة ، بل وهذه العوامل العاملة الجاهدة ،
والدنياوات الذاهبة الآيبة ، وما حوته من جمادات ونباتات وحيوانات وأناس ،
وما تدري وما لا ندري من أكوان ووجودات وعوالم ؛ هل تستطيع أن تتصور
أن كل هذه الحركة الكونية حاصلة من نفسها غير مقودة بحكمة شاملة ، وقدرة
كاملة ؟ .

(الفيلسوف) - أما حدوث حوادث هذا الكون على مقتضى الحكمة فذلك
أمر لا ينكره مكابر مهما بلغت منه الرعونة ، بل محض النظر لأجهزة الحيوانات
وأعضائها ودقة تركيبها على بعضها والأغراض التي وضعت من أجلها يدفع
الإنسان رغم أنفه لأن يندهش من سعة سلطان هذه الحكمة ، فما بالك لو صعد
الإنسان بفكره إلى استعراض سائر عوالم الكون مما يعلمه بالحس وما يدركه
بالاستدلال ، أو ما يتوهم بالحدس والتخمين .

(المسلم) - لقد قاربنا أن نتفق . إن إيماننا بالخالق تقدست صفاته ، هو

إيماننا بتلك الحكمة المهيمنة على الكون ، التي تقول أنها من المشاهدات التي لا تنكر ، وعبادتنا لها هو لإحداث الاتصال بيننا وبينها ، وقبول الإمداد من جهتها . الفرق بين المؤمن وغيره هو هذا : المؤمن يعتقد أن حكمة إلهية أبدعته وربته ، ومتعته بأعضاء وأجهزة وركبت فيه عواطف وأميالاً صالحة لتكيله وإيصاله إلى غاية عالية من الرفعة الصورية والمعنوية ، وهي دائمة العناية به في نومه ويقظته وذكره وغفلته ، فلم يرَ من العقل أن يغفل عنها ، وهي قيوم حياته والمهيمنة الدائمة على وجوده ، بل أدام ذكره لها ، وأخذ يفكر في وسائل زيادة الاستمداد منها ، فاهتدى لتلك الوسائل رجال ، فنالوا من مراكز الإنسانية شأواً بعيداً سنحدثك عنه إن شاء الله تعالى ، فعاشوا عيشة السعداء وماتوا ميتة الكبراء الشهداء . وأما غير المؤمن ، فهو مع رتوعه في خيارات هذه الحكمة الإلهية ، ومرحه في نعمها وإحسانها أعرض عن الفكر فيها ، ووقف مع لذات الحس وصوارف الشواغل المعاشية ، فهو يعيش معيشة البهائم وإن نال من المدنية الصناعية أقصى الغايات وبلغ من الملذات الجسدية منتهى النهايات . ترى المؤمن يموت بين خشن الفراش وأنياب الفاقة قرير العين ، واثقاً بأن تلك الحكمة الأزلية دائمة العناية به في سائر تطورات الجسدية ، وأنها لن تنساه في أي حالة من أحواله ، فيسلم الروح باسماً راضياً بملأ مشاهديه إيماناً ويقيناً . وترى غير المؤمن في تلك الساعة الهائلة ملقياً على ناعم الحرير ، وبين يديه فاخر الرياش ، وعلى رأسه الثريات الكهربائية ؛ فلا تغنيه تلك المشاهد الباطلة شيئاً ، فتزهر روحه وهو على حال من الأسى والكمد من فقد الحياة والولد لا يمكن تخيلها .

ما انتهى المسلم إلى هنا حتى دقت ساعة الاستراحة ، فقام كل إلى منزله على أمل العودة . فخرج المسلم ومن معه من أصدقائه ، وفيما هم سائرون قال (المستفيد) :

— لله درك من حكيم ، لقد تركت خصمك في حرب ضميرية لن يهدأ لهيبها حتى يصفحك على الإيمان بالله . فلقد آنست علائم الاتعاط بادية على وجهه .

(المحافظ) - دعنا من هذا ، فإنني لاحظت أن رفيقنا المسلم يتسامح خصمه في التعبير ويلين له في الكلام ، فيذكر له حكمة وقوة ويتلطف له فيجاريه في التسليم بمقررات الفلسفة الحديثة على ما بها من إفساد للعقائد ومجافاة لبداء العقل . فهلا زجره وانتهره ، وأظهر له سطوة الإيمان ، وحماسة الدين ، ودعاه للعقيدة دعوة الأعلى للأدنى ، والمهتدي للضال .

(المسلم) - قال الله تعالى : « أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن » ، وإني لأرجو أن أنال منه بهذه الروح الهادئة ، والنفس المطمئنة الساكنة عملاً بهذه الآية الكريمة ما لا أأناله بالإخشان ، والله المستعان .

* * *

الفصل السابع

الولاية والكرامة والوسيلة والشفاعة

كتب لنا حضرة الأستاذان المحترمان : الشيخ أحمد محمد الألفي ، والشيخ محمد بسيوني . الأول من علماء طوخ القراموص ، والثاني من علماء بني عامر بأبي الأخضر ، يسألاننا رأينا الخاص في هذه المسائل الهامة التي أصبحت اليوم شغلا شاغلا لأهل العلم وطلابه ، وأشار علينا بإفادته القول على طريقتنا ، ونحن نقبل إشارتهما مع الشكر لهما على الثقة بشخصنا ، وإن كنا نظن أن الوقت المناسب لإثارة أمثال هذه المسائل لم يحن بعد ، وأن المتناظرين عندنا بإزاء أشباه هذه الأمور على طرفين متناقضين لا وسط بينهما ، فهم إما مستسلمون لكل ما ينقل وما يقال بدون نقد ولا تمحيص ، مستريحون لكل ما سطر في الكتب بلا نظر ولا تعديل ، وإما مستعصون على كل ما قيل في هذا الباب لا يقبلون فيه كلاماً ، ولا يتخيلون لما حكوا به عليه نقضاً ولا إبراماً . فالدين في نظر الأولين جملة وتفصيلاً هو هذه المسائل ، أو بالأقل لا يتم إيمان المسلم إلا إذا اتخذها متممة لمقائده وحلية لإيمانه ، وعند الآخرين الشرك معقود بأذيالها مرتبط بإرادتها ، والمسلم لا يتم له إيمان بل ولا تصح له عقيدة حتى يدع ذكرها جانباً ويظهر قوادح من تخيلها . وعلاوة مجيء الوقت المناسب للكلام فيها عندنا أن يتلاطم

هذان الحزبان حتى يبلغ كل منهما من خصمه ، وتكسر الحرب من خيلاء كل منهما حتى يحس بلزوم الخروج من ورطته والنجاة من هوته ، ويتضح له جهات ضعفه وقوته ومشار دائه وعلته ، هنالك يجأر إلى الله بطلب القول الفصل ، والحد العدل ، فإن جاءه قبله مرغماً ، ورضيه بدون تعلل ، أما الآن فلم يحىء بعد الوقت المناسب للقول . لأن الحزبين وإن تميزا فلم تثر بينهما تلك المعمة الهائلة التي تفت في عضد كل منهما وتنال من شرته وغلوائه ، فنحن وإن كنا في الوسط اليوم ، فلن يكون نصيبنا منه إلا مثل ما كان لنا من كتابة كتابنا (المرأة المسلمة) في الرد على القائلين بكشف الحجاب ، اعتبره مناظرونا رداً علمياً لا حلاً نهائياً ، وعده أصحابنا دحضاً فلسفياً ، واتخذوه سلاحاً قوياً ، واكتفوا بذلك عن تأمله ، والإشراف فيه على ضروب الحلول الفلسفية في مسائل المرأة المختلفة . كذلك كلامنا الآن في هذه المسائل قبل أن تأخذ الحرب فيها مأخذها وتبلغ حدما ، سيكون لكل من هذين الحزبين فيه اعتبار خاص ، ولن يبلغ ما نريد أن يبلغه من جوهر الموضوع . على أننا نرجو أن ينتفع بما نكتبه ناس يكثر بهم عديد الأمة المعتدلة وعلى الله قصد السبيل .

ليس فيما نقوله حط من كرامة حزب من الأحزاب ، فإن كلاً يعتقد الصواب فيما يذهب إليه ويتمسك به عن حسن نية ، لا مكابرة ولا مكايده ، كما أنه ليس فيما قدمناه من إكبارنا لما سنقوله فخر ولا عجب ، فلما نعتقد أن رأينا هو الرأي الأعدل الحاصل على مزية الانطباق على نصوص الكتاب وقضايا العلم الحق ، ولا هجنة على أحد من مثل هذه العقيدة ما دام مخلصاً فيها .

تمهيد

نحن نشرع في كتابة المقالة ونحن عالمون أن أصعب الأمور وأعصاها علاجاً إحالة الآراء عن مجاريها ، وإحادتها عن طرائقها التي ألفتها ومرنت عليها . ذلك لأن مجال الجدل بعيد الأطراف واسع الباحات لا سيما أن كان في العلوم

النظرية ، وفيما يمكن الخوض فيه بالاستنباط والتأويل ، لذلك لا يعدم أحد الحزبين المتجادلين حجة يقارع بها خصمه ويحيره بها على اضاءة الزمن في دحضها وتزييفها ومقابلته بأشد منها ، وهكذا حتى يسأم الخصمان ويؤوبا للسكينة وهما على ما ابتدآ به المناظرة ، ومما يزيد المتناظرين طمسا في البصائر وضلالا في المشاعر مجاراتها للسفهاء السفلة في التقاذف بالهجر من القول والبذيء من الألفاظ ، هنا يحبط الشيطان بينهما يحرانه وتستحيل المناظرة العلمية إلى مشاقمة سفلية ، فيدخلها الباطل من هذا الباب الإبليسي الواسع الى مسارب مضاله ، ونخالج متهاته ، ويرتد عنها أشباعها زارين عليها متبرئين من أخذ الدين عنها .

لهذا لا ينفع من شهود المناظرات إلا طالبو الحقيقة المتحرقون على معرفتها ، الذين يعلمون أن كل عمل يعملونه غير متحرين وجه الحق فيه باطل يعود عليهم وباله آجلا وعاجلا ، سواء كان عملهم ذلك أدبيا أو ماديا . وما أقل هؤلاء الرجال في الأمم القوية ، فما بالك بالأمم الضعيفة ؟ . .

إننا نكتب مقالنا هذا ونحن عالمون بأننا في عالم كله مجاهيل وأسرار ، إن علنا منه شيئا فقد غاب عنا منه أشياء وأشياء ، وإن أشرفنا منه على قشر ظاهر فقد خفيت عنا بواطن بواهر ، وإن تراءت لنا منه معالم فقد استترت عنا منه أمور جسام لها بنا علاقات خفية وروابط سرية . ومن علم ذلك وتيقنه فأجدر به أن يتواضع في بحثه ويضؤل أمام الحقيقة لا أن يتكبر ويتغشم ، حتى تنطمس طريقه وتندرس معالاه ، فيلتجئ لأن يضرب في دياجير وهمه ، ويخبط في عشواء نفسه . ونحن فوق ما ذكرنا نعرف أن في هذا الأمر عهدة كبيرة ، لأنها تمس عقائد ناس من أرق الجهات حتى أنه لو مسهم من قبلها طائف خفيف ذهب إيمانهم كله ، وأصبحوا لا يعرفون للدين معنى . لهذا كان من الواجب علينا أن نكون بالنسبة لما نحن بصدده كالطبيب الشفيق يحس برفق ، ويقطع برحة . والله ولي الكفاية .



ما هي الولاية ومن هو الولي ؟

الولاية (بالفتح) القرابة، والولي معناه القريب والمحب والصديق والنصير، وفي الاصطلاح : الولي هو الرجل الصالح الذي أدى أوامر الله واجتنب محارمه ، وتقرب إليه بالفرائض والنوافل ، حتى أشرفت عليه أنوار التجليات الإلهية ، وعبقت عنه فوحات الأخلاق الملكية ، وأصبح مثلاً يحتذى طريقته من أراد الكمال الصوري والمعنوي ، كما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ . وقد ورد في الكتاب الكريم ما يشير إلى هذه المنزلة السامية . قال تعالى : « ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . الذين آمنوا وكانوا يتقون . لهم البشري في الحياة الدنيا وفي الآخرة . » وجاء في الكلام القديم ما يرمي إلى أن من نال هذه المنزلة الرفيعة من القوة النظرية وهي الإيمان ، ومن القوة العملية وهي التقوى ، فإن الله يتولى شأنه ، ويسدده في أموره ، وينصر حجته . قال تعالى : « الله ولي الذين آمنوا » ، « وهو يتولى الصالحين » ، « أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين » ، « وذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم » ، « إنما وليكم الله ورسوله » ، « إن وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين » ، « أنت وليي في الدنيا والآخرة » . هذا كله يشعر بأن من تولى الله (أي اتخذه ولياً) تولاه الله وأفاض عليه من سبحات نوره ، وإشراقات أنسه ما يجعله مثلاً للكمال بمعنييه ، ونموذجاً للفضيلة ينسج الناس عليه .

هذا ما لا نتخيل أن ينكره أحد من أي قبيل كان من المسلمين ، إنما عضلة العقد ، ومهب اللدد هو مسألة الكرامة ، فالناس أمامها قسبان مثبت ونافٍ ، ولنا فيها رأي لا مناص لنا من إيراده .



ما هي الكرامة ؟

الكرامة في الاصطلاح هي ما يكرم الله به خاصة أوليائه من جلائل المزايا وشرائف العطايا مما تقتضيه حكمته العلية ، وتتفضل به رحمته الأزلية . هل في هذا ما يثير أعاصير الإنكار من منكر ، أو يهيج غبار الشك في صدر مسلم ؟

ولكن ماذا يريد القائل من قوله (جلائل المزايا وشرائف العطايا) ؟ . هنا محط رحال الحجاج والجدل ومهب عواصف القيل والقال ، لذهاب قوم في شرح تلك المزايا والعطايا مذهب التسامح والإطلاق ، ووقوف الآخرين من شرحها في الدائرة التي يعقلونها ويفهمونها ، وإنا موردون لك طرفاً مما يحتاج به كلا الفريقان لنستطيع أن نحكمها إلى نصوص أقوالهما ، والله ولي المؤمنين .

الكرامة في نظر أنصارها

يظهر لنا من تتبع بعض أقوال مثبتي الكرامات أنهم لا يضعون لها حداً تقف عنده ، وحجتهم أن الله قادر على كل شيء ، وله أن يجري على يد أي عبد من عبيده المختارين ما تتعلق به إرادته ، سواء في ذلك الأمور الأدبية أو المادية . ويقولون كل ما صحت معجزة لنبي صحت أن تكون كرامة لولي ، والفرق بينها أن النبي معجزته مقرونة بالتحدي ولكن كرامة الولي لا تحدي فيها من أي وجه كان . ويقولون ما دام إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص ، وقلب العصا ثعباناً ، ورد الأعضاء التالفة الى سيرتها الأولى ، وتكثير الطعام القليل حتى يكفي الجيش الكثير الخ ... وغير ذلك مما حصل لعيسى وموسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام صحيحاً مثبتاً بالنصوص المتواترة الأسانيد ، فأي مانع يمنع من أن يحبو الله رجلاً من خاصة عبادته بمثل هذه المزية لأمر خاص ومصلحة خاصة ؟ لم يرد في الدين ما يشير إلى بُعد ذلك ، بل فيه نص على حصوله . قال تعالى في شأن مريم : « كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد

عندها رزقاً ، قال يا مريم أنى لك هذا ، قالت هو من عند الله يرزق من يشاء بغير حساب . وما حصل لأصحاب الكهف ، وليسوا بأنبياء بل « منهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى » ، ويقولون ما دام هذا كما نقول مثبتاً بالنص القطعي الذي لا يخالفنا فيه واحد من أهل القبله ، ولم يرد في الدين ما يشير إلى إنتهاء ذلك الأمر وذهاب وقته ، وتبدل سنة الله فيه ، فما المانع إذن من استمراره وحصوله على يد أصحاب الأرواح العالیه والنفوس الزاكية من خاصة أمة محمد صلى الله عليه وسلم ؟ .

يقولون : وكيف يحسر منكر على إنكار الخوارق ، وقد أثبت العلم الأوروبي نفسه أنها أمور حاصلة على يد أصحاب الرياضات النفسية من الأمم الشرقية كالهنود وسكان جزائر فيجي وغيرهم من أكثر الشعوب السحيقة وكلهم على دين غير حق ، بل وأثبت الأستاذ كروكس الإنجليزي وهو من أشهر كيمائيي العصر ، أن النار لا تحرق من كان في حال من أحوال النوم المغناطيسي ، وقد وضع بنفسه جذوة نار في يد امرأة وهي في تلك الحالة فلم تصبها بضرر ما . يقول مثبتو الكرامات : إذا كانت الرياضات النفسية توصل غير المؤمن إلى درجة من درجات القوة الروحية ، يكون معها على ما نصف من الاقتدار على إحداث الخوارق ، فما بالك بالمؤمن بالله وكتبه ورسله إيماناً حقاً خالصاً لا يشوبه شرك ظاهر ولا خفي ، وهو من تربية نفسه ورياضته لها على السميت الذي كان عليه الأنبياء والمرسلون والصديقون والصالحون من أصحاب الأفئدة العامرة بنور الله ، والنفوس المشرقة بجمال قدسه ، فكيف لا يصدر من مثل هذا الإنسان أضعاف أضعاف ما يصدر ممن ليسوا على شاكلته في شيء من الكمالات الخلقية ؟

يعتمد أنصار الكرامات على هذه القواعد ثم يفسحون لأنفسهم مجال القول ، ويبسطون للنقلين مهاد القبول ، فإن أخبرهم غيبر بأنه رأى فلاناً الصالح أشار إلى الصخرة قائلاً لها كوني ذهباً بإذن الله فكانت . قالوا : إن الله قادر على كل شيء ، يكرم عباده الأصفياء بما يكرمهم به ، لا راد لأمره ولا معقب لحكمه ،

ثم ينقلها السامع لجاره وصاحبه ويجعلونها فاكهة مجالسهم ، ينشطون بها أنفسهم للعبادة ويزدادون بها حباً للصالح والصالحين . ولو فرضنا أن قال لهم قائل : إن فلاناً التقى قال لكوكب الزهرة على مرأى من الناس أغرب بإذن الله فغرب ، ثم قال له أشرق بإذن الله فأشرق ، قالوا كما قالوا أولاً ، ولم يجدوا في أنفسهم حرجاً من التصديق ولا ألماً من الشك ، لأنك لو ناقشتهم علقوا الفعل على قدرة الله وحوله لا على مهارة العبد وحيلته ، وما دام الأمر مسنداً لله فإن ربي قدير لما يشاء .



منكرو الكرامات أو محدودها

من الناس من ينكر الخوارق أصلاً وفرعاً زاعماً أن حصولها يقدر في المعجزات والنبوات والآيات القرآنية . أما قدحها في المعجزات على قولهم ، فلكون الله تعالى جعل المعجزات دلائل على النبوة ، فحصولها على يد غير النبي يخرجها عن كونها دليلاً على النبوة . وأما قدحها في النبوات على دعواهم فلأن من بين ما يعده الناس من تلك الخوارق انطواء الأرض للولي حق يقطع منها في اللحظة ما لا يقطعه غيره في شهر . وقد انتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة في أيام عديدة ولم يرو له في طي تلك الشقة البعيدة مثل ما روي لبعض الأولياء ، وهكذا حصل لسائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . وأما قدحها في الآيات على رأيهم فهو أن الله سبحانه قال عن الدواب : « وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس » ، فكيف يتفق هذا مع ادعاء أن الولي يقطع المسافات البعيدة بلا تعب ولا نصب .

لا يخفى أن مجرد النظر لهذه الاستشكالات يدل على أنها واهية لا تحتل كبير جدل . فإن الكرامات لا تقدر في المعجزة التي هي دليل النبي لأن الولي

نفسه يؤمن بمعجزة ذلك النبي ويعترف له بوظيفته ، ويعتقد أن كرامته من ضمن معجزاته الدالة على صدق شرعه . ولا تقدر في النبوات أيضاً ، فإن الله مع خاصة أنبيائه وأوليائه شأنًا لا يحوم حول معرفة العامة ، فإنه تعالى إن لم يطوّر لرسوله الأرض حين هجرته فقد طواها له حين إسرائه ، ولكل منها حكمة يعلمها ربها . وأما عدم قدحها في الآيات القرآنية ، فلأن الكرامات لا توهب إلا للأفراد المجتبيين لا لكافة المؤمنين ، فهي أمور نادرة والنادر لا حكم له .

هؤلاء المنكرون للخوارق يفسرون الكرامة بكونها كرامة أدبية روحانية محضة ، فيكون من أثرها على الولي أن يفيض الله عليه أنوار الصفات الجليلة والسجايا الشريفة ، ويسبل عليه رداء السكينة وبرد الوقار ، فيصبح انساناً فاضلاً يتخذ مثلاً على الحياة والكمال ، وغودجاً لغيره في التخلق بشريف الخلال ، ولزوم جادة الاعتدال .

بين هذين الحزبين (حزب مثبتي الخوارق وحزب منكريها) حرب شعواء ومنازعات وضوضاء ، قامت فيها الحماسة على ساق وقدم ، وحي فيها الوطيس من القدم ، تقاذف فيها الحزبان بالتكفير ، وتنازدا بالتشهير والتعير . وقد خاض هذه المعركة كثير من أئمتنا السابقين إيجاباً وسلباً ، فنال كل فريق من الآخر نبلاً وكانت الغلبة دائماً لأي الحزبين بل للعوائد البلدية والمصطلحات القومية لأسباب شتى ، بعضها ناشئة من ضعف القوة العلمية الوازعة ، وبعضها من نقص دستور الحكومة ، وأكثر مصدرها جهل الأفراد ووهمهم في معنى الدين . وقد توالى على ذلك القرون وتعاقبت الشؤون حتى وصلنا إلى ما نحن عليه اليوم من موقفنا أمام أوروبا المتمدنة ، معرضين لفتنها العلمية والدينية ، مستهدفين لسواحرها العادية والصناعية . ولا يستهين بهذا الموقف ولا يحقره إلا من لم يضرب في علم الأمم بسهم ولم يأخذ منه بقسط .

شارقنا أوروبا بجوانبها وفوائدها من صناعة وعلم ، وقابلتنا بقواهرها وقواسرها من قوة وبطش ، ونحن في دور سبات عميق ، فهبنا من نومنا حيارى

طائشين، لم نكد نشعر بدهشة المداومة والمباغثة حتى غشيتنا غاشيات الزخارف والمموهات الصناعية من كل فج ، فكان حالنا من العجب بـمكان : نشعر بمرارة الأخذ وحرارة الأسر مشوبة بلذة الافتتان وسكر الاغترار ، لا جرم فنحن بين تلك المرارة وهذه اللذة في حال من الذبذبة القلبية تفقدنا من رشدنا كل يوم ، ولو استمرت هكذا أتت على البقية الباقية من إرادتنا فأصبحنا نوّماً في زي إيقاظ ، وخشباً في هيئة رجال .

تلك المرارة تعطفنا على القديم بكل فخامته وجلالته ، فتمر بنا على ما كان لنا من عظمة وسؤدد ودولة ورجال ، فتكاد تلك الذكرى وان كانت معنوية ، تمتلخ القلوب من نياطها وتحرق الكبود في أحشائها ، فتثور فينا فائرة القيام على نهج آباءنا السابقين وأئمتنا المهيدين ، استرداداً لمجد سابق ، وغيرة على شرف متداع ، فنقول ونكتب ، ونصخب ونخطب ، ونتحرك حركة يكاد رائيتها يظنها حياة هبت من مكانها ، أو روحاً نزلت من مستقرها ، فإننا لكذلك وإذا بتلك الفتنة المدنية قد ساورتنا من كل مكان : من جهة العقائد ، من جهة العلم ، من جهة العادات ، من جهة اللغات ، من جهة الزي ، من جهة كل شيء . ساورتنا من جهة العقائد ببث الشبه المستعصية ونفت الإشكالات النفسية . وساورتنا من جهة العلم بهدم مقراراتنا العقلية وإلغاء بدائنا الفكرية ، وساورتنا بما بقي من الجهات بما يناسبها . فماذا نتقي من هذه الأسنة ، وعن ماذا نروغ من هذه الشهب ؟

قابلتنا أوروبا من جهة العقائد بمحشورث من أفكار فلاسفة القرن الثامن عشر ومقدمة التاسع عشر ، فنفذت أصولهم المادية إلى أذهان الطبقة الملتصقة بها وبتقاليدها مناس ، وسرى منهم إلى من دونهم وهي في كل دور تتطور وتتشكل على قدر عقول الطائفة التي تحلّ فيها ، حتى وصلت إلى العامة لابساً ثوباً يظنه رائيه عامياً شرقياً وهو نسيج أوروبي ، وإنما صبغته الأفكار المنحطة

والمقتضيات البلدية الساذجة بصبع مختلفة يظهر للرائي أنه منقطع العلاقة بأوروبا وهو منها أصلاً وإن كان يباينها فرعاً .

من هنا كان الناس أولى بالحماية من جهة أصول العقائد وأمهاات المسائل ، ولهذا شعرنا بالحاجة الشديدة إلى مكافحة التيار الغربي من تلك الجهة المتسلطة على كل جهاتنا الأخرى . لأننا تحققنا أنه ما دامت رابطتنا الأصلية سليمة من الإنقسام وهي لا روح لها إلا الدين ، سلمت هيتنا الكلية من فواعل التحلل ونجت من عوامل التفكك ، وصلحت الأمة للمكاوكة والمدافعة ، ولا يمضي عليها زمن ما حتى تفيق من غفوتها وتسترد شخصيتها . أما مسائلنا الدينية الفرعية فما كنا نهبا مثل هذه العناية لتحقيقنا أن المحافظة على الأصول أولى بالابتداء وأجدر بالتقديم ، أما وقد انثالت علينا الأسئلة من كل فج وقطعت علينا خطوط الرجعة ، فلم نرَ إلا الانصياع لمطلوب الأمة منا وإن كان الكلام فيما تدعوننا إليه سابقاً أوأانه .

مما يزيدنا وجلاً من طرق باب هذا الموضوع هو ما نحن فيه من الافتتان بمدينة أوروبا وعلومها وإلحادها ، وليس لهذا الافتتان معنى في لسان العلم العمراني إلا تحلل عناصرنا بقوة مؤثرة علينا ، فكل ذبذبة تحدث فينا وكل حركة تلم يحسنا الكلي ، ونحن تحت ذلك التأثير المحلل لا تكون نتيجتها حسنة إلا إذا كان قائدو تلك الحركة على حذر ويقظة ، لأن أجزاءنا التي تتناثر بتلك الحركة لا تكون منجذبة إلى أجزائها الأصلية فقط ، بل هناك قوة خارجية جذابة أيضاً مترصدة لاجتذاب كل جزء يشذ عن الجماعة لسبب من الأسباب . أعني بهذا الكلام أننا معشر المتكلمين في مسألة الكرامات بنحوضنا في هذا الموضوع إيجاباً وسلباً ، نحدث حركة كبيرة في أخص جهة من معتقدات العامة والخاصة . ولا شك أن كلا من الحزبين المتضادين سيؤثر على عقول من كانت تنكر عليه فتمهم للخروج مما كانت عليه لئلا تتحاق بالمذهب المضاد ، فيخشى أنه وهو في هدنة الانتقال من مذهب للمذهب آخري نجذب إلى عالم الإباحة والإلحاد المؤثر علينا من فتنة

المدنية الغربية من منذ مائة عام ، فنخرج من هذه المناظرة وقد خسرتنا خسارة لا تعوض وأحدثنا في أمورنا اضطراباً لا يغتفر لنا بوجه من الوجوه .

من هنا نرجو كل متكلم في هذا الموضوع أن يؤوب إلى رشاده ، وأن يهديء من ثورته في مقارعة الحزب المضاد له ، حتى لا تكون النتيجة عليه سواء كان غالباً أو مغلوباً . هذه إشارة إلى موضوع خطير جداً جدير بالالتفات إليه والتعويل عليه .

آن لنا الآن بعد تقديم هذه المقدمة ، أن نشير إلى موضوع النزاع بين كلا هذين الحزبين المتناظرين من باب السرد المجرد عن الحكم الشخصي ، حتى إذا أتممناه عدنا إلى عقد فصل لمهاكمتها على نصوص الكتاب ، والله ولي الكفاية .



موضوع النزاع بين مثبتي الكرامة ومنكريها

ليس سبب كل هذه الجلبة والضوضاء في هذا الموضوع إثبات الكرامة أو نفيها ، ولكن فيما يجر إليه ذلك الإثبات والنفي من العقائد والعادات والذهاب بآيات الكتاب الشريف مذاهب التأويل والمخالفة لما كان عليه أسلافنا الصالحون الخ ... ، وإنا موجزون لك النقاط الأساسية التي يؤسس عليها كل من هذين الحزبين عقائده ويناقض بها نظيره ، نوجزها على أسلوب شارح فنقول :

يقول مثبتو الكرامات :

١ - إن الله تعالى من صفوة خلقه رجالاً يختارهم في كل زمان ومكان من عباده المخلصين ، يصعدهم إلى مقامات سامية من الكمال الروحاني ، ويحبوهم بهبات جليلة لا تحيط على بال من لا يكون على شاكلتهم ، ويحدث على أيديهم أموراً تخالف العادة ، ولا يمكن تعليلها بما نعرفه من قوانين الطبيعة .

٢ - هؤلاء الأولياء لسمو أرواحهم وكرامتهم عند الله يؤثرون على من دونهم بالإمداد الروحي ، ويكون لدعائهم أثر صالح في أحوال المحيطين بهم الراجين معونتهم .

٣ - هذا الإمداد لا ينقطع بعد موتهم وانتقالهم ، بل يقوى ويتزايد على قدر درجة رقيهم في ذلك العالم النوراني الباهر . من هنا يحوز زيارة قبورهم والاستمداد من بركتهم وطلب النفحات منهم .

٤ - يحوز التوسل بهم إلى الله كأن يقول الداعي : اللهم إني أتوسل إليك بعبدك الصالح فلان أن توفقني وترشدني الخ ...

أما منكرو الكرامات أو محدودوها فيقولون :

١ - إن الله أولياء يصطفاهم من خيرة عباده ولكن ذلك لا يخرجهم عن كونهم عباد الله الضعفاء ، مثلهم كمثل غيرهم من الناس أمام الله ، وأحسن مثال لهذا الصنف من الناس أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وأخوانهم ، وكل ولاية تقاس على غير ذلك المثال فليست بولاية ، وما يعزى لصاحبها من المقامات وما تقتضيها فتوليد الخيال وتصوير الأوهام مما ينطلي على عقول العوام ليس إلا .

٢ - هؤلاء الأولياء لا تأثير لهم بشيء بل التأثير كله لله ، والإنسان العاقل بدل أن يتمسح بهم ويتزلف إليهم يجب عليه أن يوجه وجهه لله وحده ، فهو المعطي المطلق والواهب الذي لا معقب لحكمه .

٣ - الإنسان مهما كانت حاله من الصلاح والروحانية ، متى مات انقطع اتصاله ببني نوعه ، واتصل بعالم آخر له مقتضيات أخرى لا نعلمها . وإن زيارة قبورهم لا تفترق عن زيارة قبور إخوانهم المؤمنين الآخرين ، ولا ينالهم منها غير ما ينال الزائر من زيارة قبر ميتة من الثواب الذي أعده الله للمعتبرين ، ومن طلب إلى ميت شيئاً فقد أضره بالله وحبط عمله .

٤ - لا يجوز التوسل إلى الله بوسيلة غير الأعمال الشخصية الصالحة ، أما رفع اليد بالطلب من ولي ، والقسم على الله بعبد من عبيده ، فمحظور يكاد يكون شركاً .

هذه هي النقط الرئيسية التي تميز مثبتي الكرامات عن منكريها أو محدديها ، ولا حاجة بنا لأن نقول أن كلاً من هذين الحزبين يدعي أنه يستند إلى كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ، ولكل منهم حجة عقلية فلسفية عدا عن الحجج النقلية ، نوجز لك أشد تلك الحجج العقلية وقعاً على الطرفين ، وندع الحجج النقلية لفصل المحاكمة بينها .

يقول منكرو الكرامات أو محددوها: مما يدل على فساد مذهب خصومنا وأنهم ذهبوا بالإسلام مذهباً يوافق هوام ، جملة أمور مهمة وهي :

١ - حدوث مذهبهم بعد القرون الثلاثة الأولى من عهد النبي ﷺ . فلم تعرف في القرن الأول ولا الثالث مسألة زيارة قبور الصالحين والتطواف بها وسؤال الحاجات عندها ، ولا غير ذلك مما يعملونه اليوم .

٢ - وجود أمثال هذه العادات عند كل أمة وهي عند الأمم المتوحشة أكثر . فما من أمة إلا ولها رجال مقدسون تقيم لهم الأعياد والموائد ، وتقرب لهم القرايين والعوائد ، وتبني على قبورهم النصب والشواهد ، وتقصدهم في الملمات والشدائد ، وتروي لهم من عجائب الخوارق وغرائب الكرامات ما لا يدخل تحت حصر ولا يضبطه استقصاء . أفلا يدل شيوع هذا الأمر بين طوائف الإنسان واتحادهم عليه معنى وغرضاً على أنه من مطالب الأهواء ومحسنات الخيالات ، وأنه تريكة الوثنية ومظهر مموه من مظاهرها الأولية ؟

٣ - إستواء الحالتين عند من يدعو الأولياء لمعنته ومن لا يدعهم في شدته ، بل المشاهد أن الذين لا يدعون الأولياء ممن يأخذون بالأسباب العادية ويتربصون للفرص الحيوية أحسن حالاً وأكثر مآلاً وأفخم مظهراً وأكرم معشراً وأعلا

كعباً من الذين يدعونهم ويتوسلون إليهم . بل هذه وفود الأوروبيين الذين يأتون بلادنا للارتزاق لا يدعون ولياً ولا مقدساً ، ومع ذلك فقد احتكروا تجارة البلاد و ثروتها وهم كل يوم يزدادون غنى واستيلاء ، ومناظروهم من تجار البلاد وسرواتهم ممن لا يبدهون في عمل ولا يشرعون في أمر إلا بعد الاستغاثة بالأولياء واستئصال معونتهم قد أصبحوا عيالاً على أولئك الأجانب ، ولا يمضي كبير زمن حتى تتلاشى ثروتهم وتذهب في خير كان . وهذه الأمهات المصريات اللاتي يملن الأخذ بالأسباب العادية والوسائل العلمية في تطبيب أولادهن ويكتفين متى أصاب أحد عيالهن مرض أن يزرن به الأولياء ويفسلن وجهه من بشر مساجدهم ، يفقدن من أولادهن أكثر من الثلثي في الغالب ، بينما نرى الأمهات الأجنبية اللاتي لا يعرفن غير الوسائل العادية لا يفقدن من بنينهن إلا الشاذ النادر ، والإحصائيات تريك العجب . ألا يدل ذلك كله على وهم الناس في مسألة الاستغاثة بالأولياء ، بل ألا يشير ذلك بأدل دليل على فساد رأي الخاصة والعمامة في ذلك الأمر ، وأنهم بذلك يحاربون سنة الله في خلقه ويستعينون بما لا ينفع ولا يضر من عباده ، ويكونون السبب في تسويد الأجانب عليهم ووصم دينهم بما هو براء منه ؟

٤ - لو كان ما يرويه أنصار هذه العادات من تأثير الأولياء في الأرض بعد موتهم وكرامتهم لمن يلوذ بهم صحيحاً لكان الأحق بذلك أهل الصدر الأول من المسلمين ، وهم أجلاء الصحابة من المهاجرين الأولين والأنصار المبجلين ، فلقد قامت بينهم فتن على عهد عثمان وعلي رضي الله عنهما وحدث بسبب ذلك من الشغب والاضطراب ما شق عصا المسلمين وأوجب افتتانهم ، ومع ذلك فلم يحمى صاحبي جليل لأخيه في النوم فيرشده إلى الحزب الناجي أو يزعه عن مشايعة الفتنة ومتابعة العصبية ، فهل يعقل أن يحدث لمن بعدهم من أهل القرون المتأخرة ما لم يحدث لأولئك السابقين الأولين وهم أراكين الدين وأئمة الإيمان واليقين ؟ هل يتصور أن يتمثل ولي لأحد متر في هذا العصر مبشراً بإياة برتبة أو بنيشان ، ولا يأتي رسول سلام بين المسلمين ؟ ألا تدل هذه الملاحظات على أن

ما يروى وما ينقل من الكرامات والمبشرات الخ ... أمور أولدها الخيال وكبرها الوهم فاعتقدها الناس وجعلوها جل دينهم والمقد الأول من إيمانهم؟

هذه هي الحجج العقلية الرئيسية التي يعتمد عليها منكرو الكرامات وما انبنى على اعتقادها من العادات ، ولخصومهم حجج عقلية خطيرة الشأن أيضاً يحب علينا سردها سرداً أمام نظر القارىء ، ليرى بعينه جهتي ضعف كل من الحزبين وجهتي قوتها وليكون على بينة مما نصدره على كليهما من الأحكام الشرعية .
يقول مثبتو الكرامات :

١ - إذا كان مما لا يمكن إنكاره من مقررات الدين أن الموتى ينتفعون من دعاء الأحياء لهم وهم في هذا العالم عالم المادة ومقتضياتها ، فكيف لا ينتفع الأحياء من دعائهم وهم في عالم الجمال والتقديس حيث لا مقتضيات جسدية ولا مطالب سفلية ، بل تجرد لاستشراق الحق وسبحات وجهه واستشراق النور وتارات فيضه ؟ هل يتصور أن نكون نحن ونحن في هذا العالم مع شغلنا الشاغل ومنا المتواصل نتذكر موتانا ونعطف عليهم بالدعاء والترحم ، ولا يتذكروننا هم وهم في عالم الروح والريحان ومشرق الإفضال والإحسان ، مع أنا أحوج إلى انعطافهم علينا منهم الى انعطافنا عليهم لتخلصهم من الجهاد الحيوي وبقائنا فيه ، ومن وقوفهم على حظهم من الحياة وجهلنا به ؟

٢ - إذا كان مما لا يستطيع جحوده أن الموتى يسمعون من يسلم عليهم عند زيارة قبورهم ، وقد خاطب النبي ﷺ قتلى بدر قائلاً : « هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً » ، ثم لما قال له أصحابه : كيف تخاطبهم يا رسول الله وهم موتى ؟ . قال : « ما أنتم بأسمع منهم » ، أو كما قال ، فهل يستنكر على رجل ذهب إلى قبر رجل صالح وسلم عليه ثم خاطبه راجياً إليه أن يدعو الله له لتفريج همه وكشف ضره ؟ .

٣ - إذا كان الإنسان في هذا العالم لا يأثم من قوله للطبيب عاجني وللرئيس

أعطني أو وظفني ، ولأخيه احني وانصري ، وقد جاء هذا الاستعمال على ألسنة الأنبياء والصالحين ولم يحدوا فيه إثماً ولا حرجاً ما داموا يعتقدون أن خالق كل شيء ومحركه هو الله تعالى ، فكيف يأثم أو يشرك من يخاطب الميت قائلاً أريد وظيفة أو دواء أو نصراً أو حماية الخ ... مع عقيدته بأن ذلك الولي عبد الله الفقير إليه الدليل بين يديه . إن قيل هذا يشبه قول مشركي العرب عن آلهتهم ، فإنهم ما جعلوهم أرباباً إلا توسلاً إلى الله بهم ومع ذلك فقد سجل الله عليهم الكفر والشرك . قلنا بعيد ما بين الحالتين . فإن نص الآية هكذا : « ما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » ، والمسلم لا يعبد وليه وإنما هو يرجوه ، بل لو قلت لأجهل جاهل أنك تعبد هذا الولي لأنكر عليك وربما أهانك ، غيرة منه على التوحيد الذي امتزج بدمه وحياته ، وشتان بين العبادة التي أقر بها مشركو العرب وبين الرجاء الذي لا يجاوزه إلى ما فوقه أجهل المسلمين . إن قلت أن منهم من يسجد أمام الولي ، قلنا ليس ذلك بسجود عبادة ، بدليل أنك لو قلت للعامي أنك تسجد لهذا الولي كما تسجد لله لأنكر عليك قولك ولقال لك : إن هذا سجود تعظيم أعماله لهذا الصالح كما تعمله أنت أمام السلطان ، فهل كفرت بسجودك أمام السلطان حتى تكفرني بسجودي أمام هذا الولي العظيم ، ومع ذلك فإني ما سجدت له ولكني قبلت الأرض بين يديه ، كما تخثر أنت أمام مليكك وتقبل قدميه في نعليه . وقد سجد الملائكة تعظيماً لآدم بأمر الله فهل تستطيع أن تلاحظ عليهم ؟

٤ - إنكم معشر منكري الكرامات مفتونون بمدنية أوروبا ، وتريدون أن تقلدوها حتى في ترك الدين ، ولما كنتم لا تستطيعون تركه لتبرئه من مطاعن العلم وتنزهه عن مأخذ الفلسفة ، فتريدون بالأقل أن لا يحيا في الفلسفة المادية في شيء يلاحظ عليكم وتعبرون به ممن تقلدوهم . ولما كان الشكل الذي رسمتموه في خيالاتكم عن مدنية أوروبا هو دفن الميت والانصراف عنه سراعاً إلى معاهد الأعمال واللاهو ، وإسدال ثوب النسيان على ذلك الفقيد ومن تقدمه من الموتى ، وكيف لا تهمل الجيف المضرة بالصحة ؟ وتنسى العظام الرميم والأشلاء المبعثرة ؟

لما كان الشكل الذي تخيلتموه عن مدينة أوروبا هو هذا فلا يرضيكم أن تكون متأخرين عنكم في ميدان المدنية لما يربطنا بكم من روابط الدين واللغة والوطن ... لذلك لا تألون جهداً من السعي في إبطال تلك العادات وعدها أمراً فرياً ، وقد غاب عنكم أن من وظائف الدين تعزية الإنسان في مصائبه وتسليته أمام أخطار الحياة وهواذمها ، وتذكيره بالآخرة وأحوالها وما ينتظر العاملين المجددين أو المقصرين المتشبطين من نعم مقيم أو شقاء محدود أو غير محدود . ومن أخص ما يحلي هذه التعزية ويعطيها وزنها الحقيقي هي ما ينبه الدين الإنسان إليه من أن الحاجز بين الموتى والأحياء رقيق ، وما يحجبنا عنهم إلا انصرافنا مع الشواغل البدنية واهتمامنا بالمطالب الجسدية وعدم عنايتنا بتربية نفوسنا وترقيتها . هذا من أخص صفات الدين وهو روح الهدوء الذي ينزله على فؤاد الأم الثاكل والأب الحزين والإبن الشفيق . فلو سعيتم في تغليظ ذلك الحاجز بيننا وبين الأموات والذهاب بنا مذهب مادبي أوروبا يدفنون ميتهم ويرمون جثته أو يحرقونها ويندرونها في الهواء ، وهما منكم أنه أرقى مظهر مدني ، فأنتم إذن تسعون في إبعاد الناس عن التدين ، لأن التدين إذا كان مطلوباً لمحض التخلق بمكارم الأخلاق والصفات الجليلة فتلك موجودة في كتب الماديين أنفسهم ، ويمكن الاكتفاء بها عن الأديان ، وإذن تصح حجة العلماء الماديين أن في العلم الأوروبي غناء عن كل دين . ومع ذلك فقد غاب عنكم أنكم بينما تمثلون مدينة أوروبا المادية نرى علماء أوروبا شعروا بوخامة انصرافهم عن عالم الموتى ونسيانهم له وهو مآلهم ومصيرهم ، فقاموا يبحثون من المباحث لإثبات الروح والخلود ما لو سمعوه لقلتم أنهم مخرفون مجنونون . فهل تريدون أن توقعونا في فتنة مادية ترجو أوروبا نفسها أن تتخلص منها وتهرب من خالها ؟ ...



المحاكمة بين هذين الحزبين

لقد سردنا أمام نظر القارىء أكبر ما يمكن أن يتسلح به الخصمان من الحجج العقلية ، فإن أردنا أن نسلك في إرجاعهم إلى خطة الوسط مسلك من تقدمنا بإفساد حجج الفريقين أو ردها إلى الصراط القويم ، لم نستفد من عملنا شيئاً غير إثارة العواطف وتثبيت كل حزب في مقرراته ، وإقامته خصماً لدوداً لمناظره ينتظر به الدوائر . وهذا ليس من أسلوبنا الذي اختططنا لأنفسنا في شيء ، لذلك نريد أن نذهب في محاكمة هذين الفريقين المتضادين مذهباً يرضيها جميعاً ، بل لا يحدان عن التخلف عنه عذراً ، فنقول :

تبين لنا من سرد أقوال الخصمين أن لكل منهما فيما يذهب إليه حجة قوية ، ولكنها أعطيا حجتيهما من سعة السلطة ما ليس لهما فكان الإفراط لأحدهما والتفريط للآخر من حكم طبيعة الحال ، ونحن في حكنا عليها لا نستطيع مع هذا الوجه أن نخطئ أحدهما تخطئة مطلقة ، ونصوب مذهب الآخر تصويباً صرفاً ، ولكننا سنسعى في التوفيق بينهما من جهتيهما القويتين ليكون لمذهبيهما المشترك قوة على قوة ، وليس للمسلم من كل محاولاته حظ غير الحق « وماذا بعد الحق إلا الضلال » .

إذا كان مما لا مشاحة فيه أن هذا الاحتفال بالقبور والمقاصير والتطواف حولها والطلب إلى أصحابها وإقامة الأعياد لهم لم يحدث إلا بعد القرن الثالث ، وهذا من حجج منكري الكرامات أو محددتها ، فما لا مشاحة فيه كذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يزور القبور ويوصي بزيارتها للتعاطف ، ويقرى سكانها السلام والتحية - وهذا من حجج مثبتي الكرامات . فكما لا يحسن بعامل أن يقطع علاقاته بموتاه وموتى المسلمين ارتكناً على الحجة الأولى حتى يكون بالماديين أشبه وإلى اليائسين من أصحاب القبور أقرب ، كذلك لا يحمل بذني فطنة أن يحلل كل مناهي الشرع ، ويؤول نصوص الآيات والأحاديث الواردة

في الزيارة والدعاء والتوسل ارتكازاً على قوة الحجبة الثانية . وكما أن الحال الأول
تفريط كذلك الحال الثاني إفراط ، وكلاهما ليس من العقل ولا من الدين .

وإذا كان مما لا جدال فيه أن الآخذين بالسنن العادية التي خلقها الله في الكون
أحسن حالاً وأكثر مالأ وأعلا كعباً في كل شيء من الذين أهملوا تلك السنن
ولجؤوا الى الصالحين في الطب والاستغاثة - وهذا من حجج منكري الكرامات
أو محديها - كذلك مما لا شك فيه وبما هو مقرر شرعاً ، أن الموتى يشعرون
بالأحياء ويعنون بأمورهم ويهتمون لما يهمهم ، وإن لمن يترحم عليهم ويستغفر الله
لهم ثواباً من الله وأجرأ عظيماً - وهذا من حجج مثبتي الكرامات ومؤيديها -
فكما لا يليق بالمتبصر المعتدل أن يتكئ على الحجبة الأولى ويوجه وجهه شطر
السنن الوجودية المجردة مهملاً ما يناله من زيارة القبور والدعاء لأصحابها
والاستغفار لهم من الثواب الجزيل والأجر الجميل ، كذلك لا يحذر بالمسلم المحتاط
لنفسه أن يتخذ الحجبة الثانية مستنداً له يبيع لنفسه بها ما لم يفعله رسول الله صلى
الله عليه وسلم ولا أصحابه ولا تابعوهم ولا تابعو تابعيهم ، من الطلب إلى الصالحين
الميتين والاستغاثة بهم والتطواف بقبورهم ورفع القباب عليهم ، وغير ذلك مما
ورد النص بتحريمه صريحاً .

وإذا كان مما لا شبهة فيه أن الاعتماد على زيارة القبور ونداء الصالحين والاشتغال
بالموتى قد أحدث في عامة الشرقيين نزوعاً إلى إهمال الأسباب العادية والسنن
الكونية ، وأوجب عليهم بذلك خمولاً وقعوداً عن العظام - وهذا من حجج
منكري الكرامات أو محديها - فكذلك مما لا مرأ فيه أن من أخص وظائف
الدين ترقيق الحجاب بين عالم الأحياء وعالم الأموات وتلطيف الحاجز الذي
يفصلنا عنهم ، ولولا ذلك لما كان الدين بشير السلام للأرواح ، وسفير الرجاء
للأفئدة ، وسبب الطمأنينة والسكينة ، ولقام مقامه كتاب في الأخلاق ورسالة
في التربية النفسية ، وهذه من حجج مثبتي الكرامات ، وكما أن من الغلط الشائن
الاعتماد على البرهان الأول في قطع كل علاقة بين هذا العالم والذي يليه ، وتغليظ

الحجاب الذي يفصل الأحياء عن أعزائهم الميتين ، لما في ذلك من غمط أخص حقوق الدين والغفلة عن أكبر عوامله تأثيراً على النفوس ، كذلك من الشطط البين التذرع بالحجة الثانية في إعطاء تلك العلاقة التي تربطنا بالأموات وذلك التأثير المتبادل بيننا وبينهم شكلاً لم يحصل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا على عهد أصحابه ، وتجعلنا من تلك الجهة محاكين للغلاة من أصحاب الأديان الأخرى التي جاء الإسلام عاثباً عليهم سوء تصرفهم وشدة خبطهم في أهوائهم .

إذا كنا غير أهل لأن نرفع من بيننا الخلاف ونحسم من أنفسنا مادة الشقاء بكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وهدى أصحابه رضي الله عنهم ، فقد عظمت فتنتنا وطمت بليتنا ، وبتنا هدفاً لفتن كقطع الليل المظلم تدع الحليم حيراناً ، وما نحن موردون عليك نصوصاً من الكتاب تبين لك مذهب القرآن في هذا الشأن وهو صراط الله ودستور العلم الساهوي ، فمن انحرف عنه فقد كفاه انحرافه دليلاً على خطئه وخلطه ، فإليك :

(١) إن لله أولياء من خاصة خلقه هم المؤمنون المتقون . قال تعالى : « ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون » .

(٢) هؤلاء الأولياء لهم استمداد روحاني من جانب القدس الإلهي ، واستشراق من عالم الجمال العالي . قال تعالى : « لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة » .

(٣) هؤلاء الأرواح العلية سلطة على عالم المادة ، وهي سلطة طبيعية اقتضاها لهم سمو أرواحهم وعلو قوامهم ، ولا ينكر سلطان النفس القوية الخالصة من أسر المادة البشرية إلا من لم يضرب في علم الإنسان بسهم ، هذه السلطة تظهر أحياناً بإيقاف فعل النواميس العادية والتأثير على المادة تأثيراً خاصاً ، وهو ما يسمى بالكرامة وفي القرآن ما يدل على حدوثها للصالحين : كقصة أهل الكهف ، ولبشهم في الكهف ثمانين ثلاثمائة سنة وتسع سنين لم يصبهم تحلل ولا تأثر . وكإتيان آصف بن برخيا وزير سليمان عليه السلام بعرش بلقيس من سبأ في أقل من ارتداد الطرف ، كما قال تعالى : « فقال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيتك به قبل أن يرتد إليك طرفك » الخ ...

(٤) بيننا وبين الموتى علاقات خفية ، فنحن نتذكرهم بالدعاء والترحم ، والله يذكرنا بالثوبة الحسنة عنهم .

(٥) لا يجوز اتخاذ القبور في المساجد ، وإعلاؤها ونصب الشواهد عليها ، ولا بناء المقاصير حولها ، ولا رفع القباب فوقها ، ولا إيقاد السرج لأجلها ، ولا الطلب إلى أصحابها ، ولا نذر النذور لها ، ولا ذبح الذبائح عندها . كل هذا ورد في تحريمه النص شرعاً ، ولم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أصحابه ولا تابعوهم ، وشيء لم يفعله الرسول ولا أصحابه وورد النهي بالنص عما يحيط به ويلابسه ، لجدير بأن ينصرف عنه المسلم خشية أن يكون فيه ما لا تحمد عقباه وتمتظم بلواه .

المسلم يكفيه من الدين ما كان عليه الأنبياء صلوات الله عليهم ومن تبعهم بخير وإحسان ، أما ما نافي سميت الأنبياء أو خالفه أو استدعى شيئاً من التأويل لكتاب الله ، أو أوجب عملاً بالرأي ، أو كان مستنداً فيه إلى أقوال العامة وغلوهم فما للمسلم وله ، وما أغنى فؤاده عن هذا كله ، وما أبعدته عن الحاجة إليه . ألا يكفيه أن يكون على طريقة رسول الله خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم ، يضعها نصب عينيه ويجاهد عليها نفسه وهواه ، ويحذنها خطوة خطوة مدققاً متحريراً حتى يلقى ربه خالصاً مخلصاً . هل يحسب عاقل أن رسول الله مع شدة تحريره لمراضيه ربه ومحابه ، وكثرة توخيه لاتباع أوامره ، يترك شيئاً يعود منه على روحه خير أو أثر نافع ؟ وهل يتمثل في تصور إنسان أنه مع محبته لقومه وشدة شغفه بفلاحهم يترك إرشادهم إلى أمر فيه لهم خير في الدين أو الدنيا ؟ اللهم لا إذن فكيف لا نرضى لأنفسنا من الدين والعادات بما رضى رسول الله لنفسه ولأصحابه ، ولماذا نعمل برأينا في أمور تعظم فيها المصداق وتشتد فيها الورطة ؟ ما الداعي لذلك ونحن مسلمون كتابنا القرآن ، ورسولنا محمد ، وديننا الحق ، ومذهبنا الصراط المستقيم ، وغايتنا السعادتان ، سعادة الدنيا وسعادة الآخرة (١) ؟ ..

(١) بقيت مسألة الشفاعة والتوسل بحاء النبي (صلم) في الدعاء وسترد بإذن الله في فصل لاحق ، مع بقية الاجوبة على أسئلة حضرات القراء وأصحاب الأسئلة - (المؤلف).

الفصل العاشر

خوارق العادات والأسباب العادية

كتب لنا حضرة الأستاذ المحترم ، صاحب الامضاء ، مقالة بهذا العنوان ، فلم نر بدأ من نشرها في مباحثنا واتباعها بما يعن لنا في هذا الصدر الخطير الذي أصبح الشغل الشاغل لكثير من الناس ، والله الموفق للصواب . قال حضرته : التوحيد هو أفراد المعبود بالعبادة ، واعتقاد وحدته ذاتاً وصفاتاً وأفعالاً . وتوحيد الأفعال : هو أنه لا تأثير لشيء من الكائنات في أثر ما ، وإلا لزم أن يستغني ذلك الأثر عن مولانا عز وجل ، سواء كان خوارق عادات أو أسباب عادية ، وهو محال . إذ أن سائر الأفعال لله تعالى وحده خلقاً وإيجاداً ، وما نسب لغيره فمن باب الكسب والمجاز ليس إلا ، والناس بهذا الاعتبار مخاطبون ومكلفون .

وكما أنه لا يقال لمن اتخذ الأسباب الكونية العادية واسطة في أحواله وشؤونه المعاشية كافر أو مشرك . كذلك لا يقال لمن اتخذ خوارق العادات واسطة مشرك أو كافر أيضاً ، لأن كلا الأمرين ممكن ، والفاعل المطلق فيها هو الله وحده ، وإلا لزم عليه كون كلا الأمرين المتساويين مساوياً لصاحبه ، راجعاً عليه بلا سبب وهو محال .

والبرهان على أن الله سبحانه وتعالى كما شرع الأسباب الكونية ، شرع الاستشفاع والتوسل بالأنبياء والأولياء ما سنوضحه فيما يأتي ، وإليك البيان :
الاستغاثة بالنبي صلى الله عليه وسلم وبإخوانه النبيين والمرسلين وبالأولياء والصالحين ، هي عبارة عن سؤال الشفاعة منهم لقضاء الحوائج ودفع النوائب وتفريج الكرب ، ولا ريب أن كل من يناديهم من المؤمنين ، فهو عالم أنه لا يعبد إلا الله ، ولا يفعل ما يريد ويمنح ما يطلب إلا الله ، وليس هؤلاء إلا شفعاء فقط ، وقد أرشدنا الله ورسوله للاستغاثة بعباد الله الصالحين من الأنبياء والأولياء . قال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة » ، والوسيلة ما يتوسل به إلى الله تعالى من عمل صالح أو عبد صالح .

وجعل العبد الصالح وسيلة إلى الله تعالى ، إنما هو من إعظام جانب التوحيد ، لأن من شهد سوء حاله وكثرة ذنوبه لا يجد له وجهاً ولا سبيلاً للسؤال من ربه ، فتجتمع همته على التوسل لله تعالى بأوليائه وأحبابه اعترافاً بالذنب ، وانكساراً للرب ، وإعظاماً لجانب القدرة الإلهية ، وإيماناً بأن الله هو الفعال لما يريد .

وأحبابه المرضية شفاعتهم لم ينالوا ذلك إلا لاتباعهم لنبيهم الكريم ولوقوفهم عند أمره العظيم . قال في الكشاف عند هذه الآية المتقدمة : (ألا كل ذي لب إلى الله واسل) ، وقال تعالى : « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً » . دلت الآية على حث الأمة على المجيء إليه صلى الله عليه وسلم ، والاستغفار عنده واستغفاره لهم ، وهذا لا ينقطع بموته وإن وردت الآية في قوم معينين في حال الحياة ، لكنها تعم بعموم العلة كل من وجد فيه ذلك الوصف في حال الحياة وبعد الممات ، ولذلك فهم العلماء منها العموم للجائين وذكرها المصنفون في المناسك من أهل المذاهب الأربعة ، ودلت أيضاً على أنه لا فرق على الجائين بين أن يكون مجيئهم بسفر أو غيره لوقوع جاءوك في حيز الشرط الدال على العموم .

وقد صح صدور التوسل من النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وسلف الأمة وخلفها ، أما صدوره من النبي صلى الله عليه وسلم فقد صح في أحاديث كثيرة ، منها أنه كان من دعائه (اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك) ، وصح في أحاديث كثيرة أنه كان يأمر أصحابه أن يدعوا به ، فمنها ما رواه ابن ماجه بسند صحيح عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من خرج من بيته إلى الصلاة فقال اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك الخ ... أقبل الله عليه بوجهه واستغفر له سبعون ألف ملك) ، وذكر هذا الحديث الجلال السيوطي في الجامع الكبير وكثير من الأئمة في كتبهم عند ذكر الدعاء المسنون ، حتى قال بعضهم ما من أحد من السلف إلا وكان يدعو بهذا الدعاء عند الخروج إلى الصلاة . فانظر إلى قوله : (بحق السائلين عليك) ، فإن فيه التوسل بكل عبد مؤمن ، وروى الحديث المذكور ابن السني بإسناد صحيح عن السيد بلال المؤذن رضي الله عنه ، ورواه الحافظ أبو نعيم في عمل اليوم والليلة ، ورواه البيهقي في كتاب الدعوات ، فعلم من هذا كله أن التوسل صدر من النبي صلى الله عليه وسلم ، وأمر أصحابه أن يقولوه ، ولم يزل السلف من التابعين ومن بعدهم يستعملونه ولم ينكر عليهم أحد .

ومن التوسل أنه صلى الله عليه وسلم كان يقول في بعض أدعيته : (بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلي) رواه الطبراني بسند جيد في الكبير والأوسط وابن حبان والحاكم ، وصححه عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه من حديث طويل يتعلق بالدعاء للسيدة فاطمة بنت أسد رضي الله عنها ، وروى ابن أبي شبة عن جابر رضي الله تعالى عنه مثله ، وابن عبد البر عن ابن عباس رضي الله عنهما مثله ، ورواه أبو نعيم في الحلية عن أنس رضي الله عنه - ذكر ذلك كله الجلال السيوطي في الجامع الكبير . ومن الأحاديث الصحيحة الواردة في التوسل ما رواه الترمذي والنسائي والبيهقي والطبراني بإسناد صحيح عن عثمان بن حنيف وهو صحابي مشهور : أن رجلاً ضريراً أتى النبي صلى الله عليه وسلم الخ ... فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ويدعو بهذا الدعاء : (اللهم إني أسألك وأتوجه

إليك بنبيك محمد نبي الرحمة ، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي لتقضى ،
 أَللّهُمَّ شَفِّعْهُ فِي) ، فعاد وقد أبصر . وليس لمنكر التوسل أن يقول إنما كان ذلك
 في حياته صلى الله عليه وسلم ، لأن هذا الدعاء استعمله الصحابة والتابعون بعد
 وفاته صلى الله عليه وسلم لقضاء حوائجهم رضي الله عنهم . فقد روى الطبراني
 والبيهقي : (أن رجلاً كان يختلف إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه في حاجة لا
 يلتفت إليه ، فشكى ذلك إلى عثمان بن حنيف الراوي للحديث المذكور ،
 فأمره بالوضوء والصلاة والدعاء المذكور ، ثم أتى إلى عثمان بن عفان بعد ذلك
 ففضى له حاجته) . وروى البيهقي وابن أبي شبة بإسناد صحيح أنه حصل
 قحط في خلافة عمر فجاء بلال بن الحرث رضي الله عنه إلى قبر النبي صلى الله
 عليه وسلم ، وطلب منه أن يستسقي لأمتد فسقوا ، وفيه النداء والتوسل
 والتشفع والاستغاثة به صلى الله عليه وسلم بعد الموت وهو من أعظم القرب
 وقد توسل به صلى الله عليه وسلم أبوه آدم عليه السلام قبل وجوده في الدنيا
 حين أكل من الشجرة ، وهذا الحديث رواه البيهقي بإسناد صحيح في كتابه
 المسمى دلائل النبوة عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ورواه الحاكم
 وصححه . وإلى هذا الحديث أشار مالك رضي الله عنه للمنصور حين سأله :
 أأستقبل القبلة وأدعو ، أم أستقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأدعو؟ فقال
 له ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم إلى الله تعالى؟ ذكره
 القاضي عياض في الشفاء بإسناد صحيح ، والسبكي في شفاء السقام ، والسهروردي
 في خلاصة الوفاء ، والقسطلاني في المواهب اللدنية ، وابن حجر في الجوهر
 المنظم .

واستسقى عمر بالعباس عام الرمادة لما اشتد القحط ، فسقوا كما في صحيح
 البخاري ، وفيه رد على من منع التوسل مطلقاً وعلى من منعه بغير النبي صلى الله
 عليه وسلم ، واستسقاء عمر بالعباس دون النبي صلى الله عليه وسلم ليعين للناس
 جواز الاستسقاء بغيره كما يجوز الاستسقاء به صلى الله عليه وسلم ، وإنما خص
 عمر العباس دون غيره لبيان أنه يجوز التوسل بالفضول مع وجود الفاضل ، فإن

علياً رضي الله عنه كان موجوداً ، وهو أفضل من العباس رضي الله عنها .
 فيحصل مما تقدم أن مذهب أهل السنة والجماعة جواز التوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم في حياته وبعد وفاته ، وكذا بغيره من الأنبياء والمرسلين والأولياء والصالحين ، كما دلت عليه الأحاديث السابقة وغيرها مما يطول شرحه ، لأننا معشر أهل السنة لا نعتقد تأثيراً ولا خلقاً ولا إيجاداً ولا إعداماً ولا نفعاً ولا ضرراً إلا الله وحده . والأنبياء والأولياء لا تأثير لهم في شيء ، وإنما يتبرك بهم ويستشفع بمقامهم لكونهم أحباء الله تعالى . والذين يفرقون بين الأحياء والأموات وبين الأسباب الكونية وخوارق العادات هم الذين يعتقدون التأثير للأحياء دون الأموات وللأسباب الكونية دون خوارق العادات ، ونحن نقول : الله خالق كل شيء ، والله خلقكم وما تعملون ، فالهيزون للتوسل بالأحياء دون الأموات هم المعتقدون تأثير غير الله وهم الذين دخل الشرك في توحيدهم ، فكيف يدعون المحافظة على التوحيد وينسبون غيرهم إلى الشرك ؟ سبحانه هذا بهتان عظيم .
 فالتوسل والتشفع والاستغاثة كلها بمعنى واحد ، وليس لها في قلوب المؤمنين معنى إلا التبرك بذكر أحبائه الله تعالى ، على أن ذكر هؤلاء الأحياء سبب عادي في حصول ذلك التأثير من الله تعالى ، مثل الكسب العادي فإنه لا تأثير له أيضاً بنفسه . ونقل عن الخطيب البغدادي عن الحسن بن إبراهيم الخلال أنه قال : ما همني أمر فقصدت قبر موسى بن جعفر فتوسلت به ، إلا سهل الله سبحانه وتعالى إلي ما أحب . وذكر ابن الجوزي في صفوة الصفوة أن إبراهيم بن الحارثي كان يقول : قبر معروف الكرخي الترياق المحرب . وذكر مثله الخطيب البغدادي في تاريخه . وصح أن الإمام الشافعي رضي الله عنه قال : قبر موسى الكاظم ترياق محرب . وقال سيدي أحمد الرفاعي الكبير في كثير من كتبه : إن التوسل بالأولياء إنما هو بمحبة الله تعالى لهم . ومحبتهم لهم صفة له تعالى ونعم الوسيلة له صفته جل وعلا ، وما بقي بعد هذا إلا العناد واختراع التأويلات الباطلة على غير مراده . وبالجملة فمن أفرط واعتقد أن الأنبياء والأولياء متصرفون مستبدون قادرون على الفعل والقطع والوصل من غير التجاء إلى الله تعالى ، فهو مذكور به

معبود وقوله مردود . ومن فرط وقاس الأنبياء والأولياء بالأصنام والمسلمين المستعدين منهم الذين اتخذوهم شفعاء إلى الله تعالى كعبدة الأوثان ، فهم أقبح من أولئك وأسوأ حالاً وأضل سبيلاً .

والحق أنه لا معبود إلا الله ولا تأثير لغير الله ، وأن التوسل والاستعداد والاستعانة والاستغاثة والاستشفاع بالأنبياء والأولياء في قضاء الحوائج الدنيوية والأخروية جائز عقلاً وشرعاً ، وحاصل فعلاً بمحبة الله تعالى وكرامته لأنبيائه وأوليائه المنقولين ، وكرامات الأولياء ثابتة بالكتاب والسنة ، وواقعة بالفعل لهذه الأمة من زمن نبيها صلى الله عليه وسلم إلى اليوم .

وكما أوضحنا معنى الوسيلة والاستشفاع وغيرهما مما يرادفها ، وذكرنا الأحاديث الصحيحة الواردة في مشروعيتها وجواز فعلها عند أهل السنة والجماعة ، رأينا أن ذلك فضلاً عن كونه لا ينافي التوحيد فهو من كمال التوحيد وانكسار القلب إلى الرب جل وعلا .

نأتي هنا على بيان معنى الكرامة وجواز تنوعها ، وبطائفة من الكرامات الواقعة بالفعل لهذه الأمة وثبتت في صحيح السنة ، يطلع عليها من لم يكن عالماً بها فنقول :

الكرامات جمع كرامة وهي أمر خالق للعادة غير مقرون بالتحدي ودعوى النبوة ، يظهر على يد عبد ظاهر الصلاح ملتزم لمتابعة نبي كلف بشرعته ، مصحوب بصحيح الاعتقاد والعمل الصالح علم بها أو لم يعلم .

ودليل جواز وقوعها أن ظهور الخارق أمر ممكن في نفسه ، وكل ما كان كذلك فهو صالح لشمول قدرة الله تعالى لإيجاده ، إذ لو لم نقل بجواز الوقوع للزم تعجيز قدرة الله تعالى التي تتعلق بالممكنات ، ولزم ترجيح بعض طرفي الممكن على بعض وكلاهما محال .

ودليل إمكان ذلك الأمر أنه لا يلزم من فرض وقوعه محال عقلاً ، ودليل الوقوع بالفعل لهذه الأمة ما سيأتي بيانه .

وقبل أن نأتي على ذكره نتكلم على بعض أنواع الكرامات فنقول :

من الكرامات مقام التصريف في الكون للأنبياء والأولياء المنقولين ، إذ معنى ذلك أنهم إذا توجهت نفوسهم إلى الله بطلب شيء من الأمور الدنيوية لعبد من المؤمنين ، وأذن لهم في الطلب أن يعطيهم ما سألوا من غير تحويل لإرادته تعالى ، بل ذلك يحصل بمشيئته تعالى وإرادته . ومن الكرامات الإخبار ببعض المغيبات والكشف وهو درجات تخرج عن حد الوصف ، ولا يعارضه قوله تعالى : « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول » ، لأن ما في الآية يحوز أن يختص بحال القيامة بقرينة السياق والمراد سلب العموم نحو لم يقم كل إنسان ، لا عموم السلب ، نحو كل إنسان لم يقم ولا يعارضه أيضاً قوله تعالى : « قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله » ، لأن علم الأولياء بالغيب إنما هو بإعلام الله تعالى لهم ، وعلمنا بذلك إنما هو بإعلامهم لنا وإعلام الله للأولياء ببعض المغيبات لا يستلزم محالاً عقلاً ، فإنكار وقوعه عناد ، وإطلاع الأولياء على بعض الغيبات ثابت عند جمهور أهل السنة والجماعة من الفقهاء والمحدثين والأصوليين ، فإنهم نصوا على وقوع ذلك للأولياء وأن الكرامات واقعة للأولياء بجميع أنواع خوارق العادات لا فرق بينها وبين المعجزات إلا التحدي ودعوى النبوة ، ومن الأخبار بالمغيبات أخبار الصديق الأكبر رضي الله عنه في مرض موته بولد يولد بعده ثم أنثى ، وقد كان .

ولم يثبت في شيء من كتب المذاهب الأربعة المتواترة أصولاً وفروعاً القول بانقطاع الكرامات بالموت .

وليس من شرط مسائل الاعتقاد الثبوت بالدليل القطعي بل متى كان الدليل حديثاً صحيحاً وهو من روايات الأحاد جاز أن يعتمد عليه في بعض تلك المسائل حيث لم يكن من مسائل الاعتقاد التي يشترط فيها القطع .

ولنأت على سرد بعض الكرامات الواقعة بالفعل لهذه الأمة فنقول :

الكرامات واقعة في الكتاب العزيز كما في قصة أصحاب الكهف والسيدة مريم ووزير السيد سليمان وغيرهم مما لو ذكرناه لطال المقال . وقد ذكر ابن تيمية الحنبلي المشهور بخلافه لمذهب أهل السنة والجماعة في بعض مسائل الاعتقاد ، في كتابه (الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان) ما نصه :

« وكرامات الصحابة والتابعين بعدمهم وسائر الصالحين كثيرة جداً ، مثل ما كان (أسيد بن حضير) يقرأ سورة الكهف فنزل من السماء مثل الظلة فيها أمثال السرج هي الملائكة نزلت لقراءته . وكانت الملائكة تسلم على (عمران ابن حصين) . وكان (سلمان وأبو الدرداء) يأكلان في صفحة فسبحت الصفحة أو سبح ما فيها . (وعباد بن بشر وأسيد بن حضير) خرجا من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم في ليلة مظلمة فأضاء لهم نور مثل طرف السوط ، فلما افترقا افترق الضوء معها ، رواه البخاري وغيره . وقصة (الصديقي) في الصحيحين لما ذهب بثلاثة أضياف إلى بيته وجعل لا يأكل لقمة إلا ربا من أسفلها أكثر منها فشبعوا وصارت أكثر مما هي قبل ذلك الخ ... و (خبيب بن عدي) كان أسيراً عند المشركين بمكة وكان يؤتى بعنب يأكله وليس بمكة عنب . و (عامر بن فهيرة) قتل شهيداً فالتمسوا جسده فلم يقدرُوا عليه ، وكان لما قتل رفع ، فرآه عامر بن الطفيل وقد رفع . وقال عروة فيرون الملائكة رفعته . وحديث أم (أيمن) حين هاجرت وعطشت فرأت دلوأ معلقاً في الهواء فشربت منه وما عطشت بقية عمرها . و (سفينة) مولى الرسول ﷺ ضل طريقه ولقي أسداً فأخبره أنه مولى الرسول صلى الله عليه وسلم فسار معه حتى أوصله إلى مقصده . و (البراء بن مالك) كان إذا أقسم على الله أبر قسمه . و (خالد بن الوليد) حاصر حصناً فقالوا : لا نسلم لك حتى تشرب السم فشربه فلم يضره . و (سعد بن أبي وقاص) كان مجاب الدعوة ، وهو الذي هزم جنود كسرى وفتح العراق . و « عمر بن الخطاب » قال : يا سارية الجبل ، فسمعه وأمر أن يسند الجيش

ظهره إلى الجبل فهزم الله العدو . ولما عذبت « الزبيرة » في الإسلام وكفّ
بصرها قال المشركون أصحابها اللات والعزى ، فقالت : كلا والله ، فرد الله
بصرها . و « العلاء بن الحضرمي » مشى مع الجيش على الماء فلم تبتل قدماه .
وقد حصل مثله « لأبي مسلم الخولاني » الذي ألقى أيضاً في النار فلم تضره ،
الخ . . مما لو أئدنا على جميعه لاحتجنا إلى التطويل .

فلنكتف الآن بما قدمناه ليعلم المنكرون للتوسل والكرامات ، المدعون
أن أهل القرون الثلاثة لم يعملوا ولم يعلموا بها ، وأن الكتاب والسنة والتاريخ
ليس فيها شيء من ذلك ، أن دعواهم لا تروج إلا على قليلي البضاعة وضعفاء
العقول الذين لا قابلية لهم في أنوار التوحيد ولا استعداد عندهم للخير .

وهل يمكن لهؤلاء المانعين للتوسل والكرامات أن ينفوا لنا ما أثبتناه في
هذا الباب من الكتاب والسنة الصحيحة .

ويحذر بنا في هذا المقام أن نستلفت أنظار سادتنا علماء الدين الحنيف إلى
ما كتبناه في هذا المقام ، وإلى ما يحجيه المبشرون بالدين الجديد في طول البلاد
وعرضها من التشكيك الأمة في أمر دينها ، ولا يخفى على حضراتهم أن هؤلاء
المبشرين لم يمكنهم أن يلبسوا على الناس ما زعموه في شكل إصلاح إلا بدعوى
الاجتهاد المطلق الذي يتعذر وجوده في شخص في هذا العصر ، كأئمة السلف
المجتهدين رضوان الله عليهم أجمعين . وهل في إمكان رجل في هذا العصر أن يحيط
علماً بالكتاب والسنة لغة وشريعة بحيث تكون اللغة له ملكة وسليقة
يدرك بها المعنى المراد ، كما كان البدوي في القرون الأولى يدرك ذلك بمجرد
السمع ويعرف بهذه الملكة سر إعجاز القرآن ، وأن يعرف الخاص من العام
والمطلق من المقيد والمفصل من الجمل والناسخ من المنسوخ والمتقدم من المتأخر
وتواريخ الرواة والمعدل والمجروح ، وأن يكون له قدم ثابت في العدالة والورع
والزهد في الدنيا ، فلا يرتكب كبيرة ولا يصر على صغيرة ، وأن يزن أعماله
وأقواله بميزان الشرع ، وأن يترك شيئاً من الحلال خشية الوقوع في الشبه والحرام ،

وأن لا يأخذ من الدنيا فوق ما يكفيه من الحلال فضلاً عن الحرام ، إلى غير ذلك مما هو أندر من الكبريت الأحمر ويتعذر وجوده في شخص في هذا الزمان ، زمان أعاصير الفتن الغربية التي كادت أن تجرف العقائد والأديان ولولا نفحة من نفحات الحق تهب على قلوب المؤمنين فتكسح عنها ظلمات الوهم ، لساءت العاقبة وعمت البلوى .

وهل العمل بما عليه الأئمة الأربعة المجتهدون الذين تواترت مذاهبهم إلينا بالنقل الصحيح ينافي شيئاً مما عليه الغربيون من الرقي المادي والمعنوي أو ما جاء به الكتاب والسنة من الهدى والإرشاد الصحيح ، حتى يحتاج الدين لمن يكمله باجتهاد جديد يدعيه من ليس أهلاً له فيتحول الدين عن صراطه ، الأمر الذي يستحيل وقوعه إلى آخر الدهر ، قال تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » ، وهل نسيتم يا علماء الدين وحماة الشريعة ما ادعاه الجلال السيوطي من الاجتهاد المطلق ورجوعه عن هذا الادعاء مع سعة علمه وغزارة مادته عندما قام عليه علماء عصره يطالبون بالحجة والبرهان ؟

فما سبب هذا السكوت والبدع قد أهدقت بأمة محمد صلى الله عليه وسلم من الجهات الست ؟ أعجز عن الدفاع عن الدين أم تفضيل لحطام الدنيا الفاني على تأييد وخدمة شريعة سيد المرسلين ؟

أناشدكم الله أيها السادة ، هل سكوتكم هذا يرضى به الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ؟ كلا ، بل هو إقرار لما يأتيه المرجفون ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وما توفيقي إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب .

الإمضاء

(١٠٠ م . ١)

*

ملاحظاتنا على هذه المقالة

ربما كانت هذه المقالة من أبلغ وأجمع ما اعتضد به أنصار الكرامات والتوسل في تأييد مذهبهم ، وقد كنا نؤينا بعد أن كتبنا ما كتبناه في الجزء الماضي أن نقفل القوس على هذا الموضوع ، وعزمنا على الاعتذار لحضرة الأستاذ كاتبها عن نشرها في مباحثنا لولا أنا رأينا أن في إدراجها هنا والملاحظة عليها حلاً نهائياً للموضوع الذي نحن بصددده ، فأقول :

لم يضر المتدينين أكثر من توسعهم في عقائدهم شيء ، ولو علم المتدينون مقدار الخطر الذي يمحرونه على أنفسهم وجامعتهم من قبل هذا التوسع الذي أدهم إليه تبسطهم في التأويل وتساهلهم في التخيل ، لوقفوا مع نصوص كتابهم وقفة الحذر اليقظان ولبدلوا كل جهدهم في حماية أصوله بما يسعه الإمكان . ثم لو درى المتدينون كم ينال الخيال من عقل الإنسان وعلمه ، وكم تتسرب الأوهام إلى عقيدته وحكمه ، وكم تأخذ الأحلام من كاله وفهمه ، وكم يتحكم الهوى على فؤاده ونفسه ، وكم يخف تبعاً لذلك في قسطاس الوجود وزنه ، ويطيش عن وجوه الفوائد سهمه ، وينحط إلى حضيض القصور قدره . . لو درى المتدينون ذلك لدافعوا الهوى دفاع العدو الباطش ، وقارعوا الخيال قراع الخصم الغاشم . ثم لو فقهوا أن كتاب الدين بأصوله وفروعه طب النفس ودواها ، وأن واضعه هو خالقها ومولاها ، وأنه أعلم بعلاها وأدواها ، وأدرى بمواهبها وقواها ، وأقدر على ضبط قانونها الذي يرببها ويرعاها . وأن ذلك الطب فيه سر مكنون وعلم مصون ، لا يقبل الزيادة ولا النقصان ، ولا يليق أن يتوسع فيه إنسان . وأن ذلك الدواء إكسير مجرب ودرياق مقدر ، والدواء مركب على قوانين ، وعقاقيره مضبوطة بالموازين ، لو اختل وضع مركباته فسد مزاجه وتغيرت أمشاجه ، وخرج عن كونه الإكسير النافع وانقلب إلى سم نافع ؛ لو فقه المتدينون إلى هذا الحال لحرصوا على عدم التوسع في مقررات الدين حرص المحوم على ضبط مقدار الكينين ، وعلى مج دواء لم يقدره الاقربازين .

ما هو الدين ؟ الدين اعتقاد بالخالق الأقدس الذي أقام الوجود على هذا الطراز الأنفس ، وتصديق بالحساب والجزاء والملائكة والنبين والكتب والقضاء والقدر ، وإيمان بعدل الله ورحمته وحكمته ، وتحل بصفات النجدة والسخاء والرحمة والانعطاف على الضعيف وعدم تهيب المتسلطين ، والنظر إلى الدنيا نظر المار بها إلى دار أوسع وجناب ممرع الخ ... من عقائل الحمامد وجلائل الخلائق التي لو تحلى بها الحيوان لساد الإنسان . الدين هكذا ، فلماذا نرى المتدينين في هذا العصر في أي بلد كانوا ، وفي أي طبقة من طبقات الهيئة الاجتماعية وجدوا « إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم » ، ضعفاء ، جهلاء ، جنباء ، مأسورين للأهواء ، مستخرين الأقوياء ، مزدبرين في أعين أنفسهم ، ومحتقرين في نظر ذواتهم ، كثرهم قل ، وقادتهم بهل ، وقد ضعفوا حتى خفت صوتهم ، وخشوا الناس حتى أصبحوا يراؤون بعدم التدين ويتظاهرون أنهم من أنصار التمدن ، إن سبح أحدهم سبح وحده ، لا خشية الرياء ولكن خشية أن يعد من أحلاس القديم وأنصار الفكر الرميم .. وإن حج أحدهم أوهم من حوله أنها سياحة تقيده علماً وتكسبه فهماً ، وإن دعي إلى شرب خمر اعتل بصحته ولم يعتل بعقيدته ... إلى أين إلى أين ؟؟؟

أنظر إليهم في هذا العصر وهم مطعن كل طاعن ، وهدف كل نابل ، وغرض كل غامز ، ومطمح كل هامز ولامز ، ثم أنظر إلى آباءهم في ملكهم وسلطانهم ، وعزهم وسؤددهم ، وتبسطهم في الأرض ، يأكلون من رزق الله ويعبدونه ، ويهذبون العالم ويربونه ، خلفاء الله في أرضه ، وورثة النبي صلى الله عليه وسلم في علمه وحكمه . كلمتهم العليا وكلمة أعدائهم السفلى . لماذا كانوا كذلك ونكون كما ترى ؟ نحن رجال أمثالهم ، ولدينا من القرآن وسيرة النبي ما كان لديهم ، وقد آرتنا الحوادث من مؤيدات الآيات ما لم ترهم ، ولسنا بأقل منهم حباً لأنفسنا ، ولا بأكثر منهم زهداً في الدنيا ، فما هذان الأثران المتعاكسان لعقيدة واحدة ؟ أليس في هذا الإشكال ما يأخذ بالعقل حيرة ، ويسطو على النفس قهراً وحسرة .

لِمَ هذا ؟ لكوننا غيرنا وبدلنا ، وشرحنا وتوسعنا ، وخرجنا بذلك عن حقيقة الدين وما شعرنا أو وشعرنا . فأصبح الدين المبدل وأثره أخف وزناً من قواعد العلم الأوروبي ونتائجها ، فمال الناس إلى الراجع وتركوا المرجوح رغم أنوفهم .

نعم ! عندنا أن علم أوروبا أرقى من (دين العامة) ، لذلك يضعف ذلك الدين كل يوم ويقل التمسك به من العامة والخاصة كل حين بدون انقطاع . وإلى أين يذهبون ؟ إلى التمسك بالأصول الأوروبية ، لأنهم لا يدرون ما هو الإسلام ، ولو دروه لحقوا إليه سراعاً ولاعتصموا بحبله أجمعون . لأن علم أوروبا ومبانيه لو قيس بالإسلام الحق وقوانينه لما ظهر له رونق ، ولشعر المقارن بينهما بفارق لا تسده العلوم الطبيعية ولو توصلت لإحياء الموتى وإطالة الحياة الإنسانية .

نشأت هذه النهضة العلمية في الغرب قبل ثلاثة قرون أو أكثر ، فصاوت هنالك الدين وكاوحته ، وكان المشهد رهيباً مهيباً ، اعتضد فيه القديم بهوى الدهماء والغوغاء ، وتظاهر فيه الجديد بقوة النفع والإفادة ومتاع الحياة الدنيا ، وما زال كذلك حتى انتهى إلى اليوم الذي نسمع فيه خبر التضيق على حملته وحفظته .. وحرمانهم حتى من فتح المدارس في عقر دارهم .. عجباً عجباً ! لقد اشتد مراس الفتنة وقوي زندها ، لدرجة أصبحوا يعدون دينهم الذي كم باعوا أرواحهم من أجله مضراً لا يصلح لأن ينفذ إلى ضمائر النشء الحديث لئلا يودعها ما لا يحسن أن تلتاث به . أفحسب الذين يعنون بأمر الدين عندنا أن تلك النهضة التي قلبت شكل العالم الفكري في أوروبا ، وكان من أمرها مع دينهم ما ترى ، تحايي لنا فتدعنا بمعزل عن شرورها ؟ كلا . إنها قد ساورتنا مساورة الليث الهصور فريسته ، وقد فعلت بنا في هذه الخمسين سنة الأخيرة فعلاً ليس وراءه إلا مثل ما نال أوروبا من قبلنا . وإلا فما سبب تظاهر كثير من فتياننا بالإلحاد ؟ ما سبب استشكلاتهم على مقررات الدين في كل ناد ؟ ما

سبب خوفهم إلى تقليد الأوروبيين في الخلق والعباد ؟. أليس فتنة أوروبا العلمية التي يقال أنها بعثت لتخليص الناس من ورطة الأديان ، وإقامتهم على سمات العرفان ، ليتأدوا إلى أعلا درجات العمران ، وينجو من حبال الأساطير والكهات ؟ . نعم هو كذلك ، وليس من الحسن أن نقف على المنابر وينادي مناديننا : ضاع الدين ضاع الدين ، ولكن الواجب النظر كيف يضيع الدين ، وأي قوة تجليه عن قلوب المسلمين ، ومن أي جهة ضعيفة تتسرب إلينا الفتن ، وتصرفنا عن أقدس السنن . مما يطالبنا به الدين والوطن ؟ ..

لا يقف بنا على هذا السر العجيب إلا درس ما حدث في غيرنا من الأمم الأوروبية ، فإن سنة الله في عباده واحدة ، فإن أوجزنا فعله في أوروبا واخترلنا حوادثه هنالك في صورة مصغرة ، علمنا موقفنا معه وجهة تعرضنا لبطشه . فنقول :

نشأ العلم الأوربي الحالي والناس من العقائد في دور الخبط ، ومن العلم العالمي في طور العماية . عقيدتهم ما يوجه إليه رؤساؤهم وإن كان ضلالاً ، وعلمهم ما يتفضل به قادتهم وإن كان خيالاً ، وحياتهم بين يدي ملوكهم يتصرفون بها كيف شاءوا ، وسياستهم في يد مواليتهم يصرفونهم كما أرادوا ، غنيهم هائم في وديان غروره وفجوره ، وفقيرهم هاور في تيهور هلكه وصغاره ، لا إرادة لهم ولا نفس ، ولا ضمير ولا حس ، أمم تعد بالملايين يقودها أفراد من المتسلطين . جاء العلم الأوربي والأمم على هذه الصورة ضلال في العقائد ، عبودية للحكومة ، جهالة للمنافع ، عبادة للأهواء ، طاعة عمياء للرؤساء ، وساوس لا تدع للحقي سبيلاً ، ولا للصدق مقبلاً . جاء العلم فقال :

« أيها الناس إن لكم نفوساً أماتها الجهل ، فتعبدوها بالعلم . ولكم عقولاً أفسدها الخيال فتداركوها بالحق ، ولكم أفكاراً وجهها رؤساؤكم وجهة الوسواس فردوها شطر الحقائق ، ولكم حقوقاً على رعائكم أضاعها الاستسلام فاطلبوها بقوة الإرادة وسطوة العزيمة . أيها الناس جاءكم العلم يخلصكم مما أنتم

فيه فأطيعوه ولا تنابذوه ، وأتاكم ينقذكم من مخالف المستبدين والمخرفين فأزروه وانصروه ، وشارفكم يعلمكم كيف تحيون وكيف تترقون فاسمعوا ما يرشدكم إليه وعوه . أها الناس إن أحكامكم مظالم ، وإن عقائدكم وساوس ، وإن أحوالكم عوابس ، وإن مصائركم غياهب وحناس ، فاخلعوا هذه الأثواب البالية ، التي لا يلبسها شعب إلا رم عظمه ، وهلكت نفسه ، فلم يكديتم العلم مقالته حتى رماه الخاصة والعامة بسهام الملام والتأنيب ، وغلا قوم فتولوا أشياعه بالتعذيب ، ولم يزالوا كذلك وهو دائب على صراطه يكتشف المجاهيل ويستنبط الأسرار ، ويخترع المخترعات الكبار ، فلم يلبث الناس أن رأوا مزايا الطب ، وفوائد علم الزراعة وخصائص علم الطبيعة والكيمياء ، وما أحدثا في الصناعة من الرقي الذي لم يكن يحلم به العالمون ، ثم شاهدوا أسرار علوم الهيئة والرياضيات والميكانيكيات وما أحدثتها من التسهيلات والمرافق في حاجيات الإنسان ، وكان فوق هذا كله أولئك المؤلفون والكتاب والشعراء الذين تشبعوا بالروح الجديدة فقاموا ينفثون الحياة من أفواه أقلامهم ، وينشرون الحقائق بأسلات يراعهم ، فلم يلبث الناس بضعة عشرات من الأعوام ، حتى رأوا أنهم قد حيوا بحياة جديدة وشعروا بشعور غريب ؛ أحسوا بتناقض بين دينهم وديناهم ، وأنسوا نزاعاً بين الماضي مسرح خيالهم وبين الجديد محط آمالهم . فدافعوا الجديد (بالقول) زمناً ثم آل أمرهم إلى اعتقاده قولاً وفعلاً . ثم شعروا بالتفريط الهائل من ترك الدين بالمسرة فقاموا ينشدون الدين ولكن (بنور العلم) ، ويطلبون الروح ولكن (بإرشاد الحكمة) ، وها هم في هذا الدور لليوم .

أما نحن الذين منينا بفتنة العلم الأوروبي ، واستهدفنا لأفاعيله ، فسيرتنا معه ستكون بلا شبهة كسيرة الأمم التي تقدمتنا ، وقد لعبت تلك الفتنة بعقولنا دوراً هائلاً لا ينكره متبصر . ولقد علمنا ، وليس بعد المشاهدة علم ، أن هذه الفتنة لا تزول بالكلام ولا بالحسام ، ولو كانت تزول بها لزالنا عن أفق أوربا وقد أحرق المسيطرون من أشياعها ما يقارب نصف مليون من النفوس الأوروبية ، لأن في هذه الفتنة حقاً وباطلاً وحقاً أكثر من باطلها ، فلا يقاومها

إلا حق أكبر من حقها وأفعل على العقول منه ، وهى تؤثر على العقول من جهة ما فيها من حق أكثر مما تؤثر عليها من جهة ما فيها من باطل ، فإن يكن هنالك (دين حق محض) لا شائبة للباطل فيه فذلك هو الدين الذي يبقى ، ويكون العلم خادمه ومهد الطريق بين يديه . أما دين فيه خلط من أباطيل ، وشوب من أضاليل ، فلا يقوى عليه أبداً ، ولا يجتمع وإياه في قلب رجل ، ولا دليل بعد الواقع . نحن نقول أن ذلك الدين هو الإسلام ، ولذلك سمينا مباحثنا (الإسلام في عصر العلم) وإليك بعض التفصيل :

جاء العلم الأوروبي فأكسب الناس خصالاً نشأت من طبيعة العلم نفسه ، واقتضاها موضوعه . وإنا نوجزها فنقول :

١ - إقرار الإنسان بجهله أمام هذا الوجود المدهش وعوالمه غير المتناهية . وهذا الجهل ليس بالنسبة لما يعلو عن مشاعرنا ويسمو على قواها من الكائنات فقط ، بل بالنسبة أيضاً لأصغر ذرة من ذرات المادة فقد دلنا العلم على غاية جهلنا بها ، فإنما نمحكم عليها بالمشاعر الظاهرة والحدس والتخمين ونحن بمعزل عن كنهها وطبيعتها ، ومن كان أمام الذرة البسيطة كذلك فأجدر به أن يكون بما وراءها من العوالم أجهل ، وعما يسموها من حقائق الكون أغفل .

٢ - عدم تصديق شيء إلا بدليل محسوس : ذلك لأن الإنسان كثيراً ما يشبه عليه الحق والباطل لقصور وسائله العقلية وضعف قوته الإدراكية ، فيجب عليه بدل أن يترامى على الشيء بالتصديق ثم يرجع عنه منهزماً أن يتشد ويتأنى ويتردد في الحكم حتى يحد من الحس ما يؤيد مطلبه . ولماذا يتعجل فيخطيء وهو لا يتشد إلا الحق ، وماذا بعد الحق إلا الضلال ؟ .

٣ - الإنسان دائم الرقي لا يمنع رقيه شيء بل إن كل حوادث الكون وأهواله أسنة تحزه للتكامل وبلوغ غاية بعيدة في العلم والعمل والفضيلة . ونوع هذا حاله من التقدم لا يتقيد بقيد ولا تصلح أن تحكمه قاعدة وإنما له أن يقيد

نفسه في كل جيل بما يناسبه من المدركات والعقائد تحت رعاية نواميس الحق والعدل .

٤ - اعتقاد أن روح الكمال البشري الحرية والدستور . أما تسخير الألوف المؤلفة من النفوس لأهواء رجال معدودين فليس من الحق الطبيعي في شيء ، بل هو عقبة كؤود أمام قانون الإرتقاء العام .

٥ - الحقائق مادة البقاء الإنساني وروح قوامه والأباطيل جرائم الفساد وبواعث الفناء . فعلى الإنسان أن يلتمس الحقيقة النقية كما يلتمس الغريق وجه المخلص ، وأن يهرب من الباطل هربه من الأفعوان الحقود ، وأن لا يزوغ عن حق ولو هدم له عقائد عزيزة على نفسه أو هجن له عادات نفذت إلى صميم كيانه ، فإن الحق أحق دين بالاتباع ، وما فائدة عقيدة باطلة تورث صاحبها في الحياة ذلاً وفي المعيشة قلاً وتجعله عرضة لما لا يرضاه قولاً وفعلًا .

هذه أكبر الخصال التي ينقشها العلم في أذهان طلابه ، وقد سار عليها أقوام فتأدوا من علوم الكون إلى غايات بعيدة المدى جعلت أهمهم أصحاب السلطان القولي والفعلية بما اكتشفوه لها من كنوز الوجود وسهلوها من وجوه الفوائد وابتكروه لصنائعها من ضروب التسهيلات وليس بعد الحس دليل . وقد واجهوا بهذا الأدب العالي والرواء الفائق أصحاب الأديان فبكتوهم على جمودهم ، ونعوا عليهم سوء حالهم ، ثم قابلوهم بضروب من الجدل وأنواع من الإشكالات جعلت عقيدتهم بمعزل عن الحماية ، ولولا بقية من جمود الإنسان على ما يرث من آبائه لما بقي على سطح البسيطة (دين مبدل) .

هذه تعاليم العلم ، أما ديانات العامة في كل الأمم فتنحصر جميعها بلا استثناء كما تريناه الفلسفة التاريخية في :

١ - عقيدة بالخالق جلّ وعلا على صورة الملوك الدينيون ، ولذلك فهم يفرضون على أنفسهم من الآداب والواجبات مثل الذي على الرعية بإزاء سلطانها

المستبد الذي لا تتقرب إليه إلا بواسطة المقربين إليه ، ولا يدعوه الداعى مباشرة أدباً معه بل يتوسل بأولئك المقربين وهم يبلغونه حاجته في الفرص المناسبة . هذا الأصل عام في كل دين ، وإنما للوسطاء والمقربين أسماء تختلف باختلاف الأمم والأقطار .

٢ - عقيدة في القدماء من أنهم كانوا أهل فضل وورع وأنهم قالوا من الفضائل العلمية والعملية ما لا يمكن الوصول إليه ولا الحوم حوله .

٣ - وأن كتبهم تشتمل على ما كان وما يكون إلى يوم القيامة ، وأن كل العلوم الحادثة أباطيل أو أنها أمور ظنية أو شيء مقتبس من تلك الكتب القويمة .

٤ - الثقة التامة فيما ورد عن الأقدمين والوقوف عند ألفاظهم وأفكارهم ومصادمة الحقائق الكونية بها والمكابرة في الواقع من أجلها .

هذه أكبر أصول الأديان العامة لدى كل أمم الأرض قديماً وحديثاً لا تختلف فيما بينها إلا باختلاف الأسماء واللغات ، فتخيل رحك الله أمماً متورطة في مثل هذه الأصول الخرجة ، ومغلولة العقول والمدارك بجبائنها ، ثم انظر كيف يكون الجمود لزمها والجمود غريبها والضعف الخلقى والعقلي والنفسي صفة من صفاتها . ثم ضع هؤلاء جانباً وانظر للأمم التي حلت عن أعناقها هذه القيود الحديدية كيف ارتقت في كل مجال من مجالات الحياة الإنسانية ، فبينما ترى تلك الأمم من جهة الحكومات في أخس أشكال الاستبداد والأثرة ، ومن جهة العلوم والصنائع في أحط دركات القصور ، ومن جهة الأخلاق والمعاملات في أسوأ حالات الإفراط والتفريط ؛ ترى هذه قد قامت على قطب الدستور في حكوماتها وأثالت أفرادها حريتهم الكاملة ، وارتقت فيها العلوم والصنائع لدرجة يعدها ضعاف الأمم المتدنية معجزة تخر لها الأعناق خاضعة ، وصارت أفرادها في المعاملات والأخلاق أمثلة لإيقاظ الغافل وزجر المملوك ،

وأصبحت بذلك صاحبة النهي والأمر على الأمم المتدينة بالأديان العامة ، ولا سبيل لإنكار الحس .

نقول هذا لأنفسنا قبل أن يقوله لنا مستشكل عنيد من مشككي رجال العلم الأوروبي ، ثم نتبعه بالحل الشافي إظهاراً لفضل الإسلام ودليلاً محسوساً على أنه سيكون الدين العام لسائر الأنام .

جاء الإسلام للعالم والأمم من العقائد على سنة الأديان العامة التي تقدم شرحها من تشبيه الله بالملوك واحتياج العبد للوسطاء والشفعاء واحترام مفرط للقدماء ومعاداة للجديد وجود على التقاليد ، فواجه هذه العقائد الوراثة بدحض ما بنيت عليه من قواعد باطلة . فقرر أن الله أعلم العالمين وأرحم الراحمين وأحكم الحاكمين ، ليس كمثل شيء ، لا تدركه الأبصار ولا العقول ، لا معقَّب لحكمه ، محيط بكل الكائنات ، رحمته مهيمنة على كافة المخلوقات ، غنايته غنى عن الوزير والمشير ، بصير بالجليل والحقير يعلم السر وأخفى ، ولا تزر عنده وازرة وزر أخرى ، لا يشفع عنده الشافع إلا من بعد إذنه : « وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى » ، ومن يتصفح كتاب الإسلام يجد فيه مئات من الآيات تشير إلى أن مالك الشفاعة هو الله وحده وأن النفس لا تغني عن النفس شيئاً : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » ، ثم أفضى بالإنسان إلى ربه يدعو تضرعاً وخفية وخوفاً وطمعاً وقائماً وقاعداً وعلى جنبه حر الفكر والإرادة معتقداً أنه لو اجتمعت الإنس والجن على أن ينفعوه بشيء لم يكتبه الله له لما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً . ولو أرادوا أن يضروه بشيء لم يقضه الله عليه لرجعوا عاجزين عنه . غير متوسع في كلام الله ولا مضيفاً إليه ما ليس منه : « قل أتعلمون الله بدينكم » ، ولا متبعاً برأيه واستحسانه المجاهيل التي لم ترد على لسان نبي مرسل ولا خطت في كتاب منزل . وما الأنبياء إلا عبيداً مثلهم لا يملكون لأنفسهم نفعةً ولا ضرراً ولا حياة ولا نشوراً ، وإنما هم رجال من الله عليهم برداء الكرامة ، وحباهم بنعمة الزلفى

منه ، مبلغين إلى الناس كلام بارئهم ، منذرين ومبشرين غير مسيطرين ولا متحكمين : « لست عليهم بوكيل » ، « لست عليهم بمسيطر » ، « إنما أنت منذر » ، « وما أرسلناك عليهم حفيظاً » ، « فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب » ، وقد يسلط الله من رسله من يشاء على من يشاء .

حمل الإسلام للناس بهذا الأصل دستور الحرية وافتك الأعناق من أصفاد العبودية ، ثم خاطب الفؤاد وناجى العقل وسرد له من الحكم وروادع المواعظ مع ضرب الأمثال والإحالة على المحسوسات ما ينقش في فؤاده أدباً لا يساميه أدب ، فأراه أنه ضعيف المدارك يحتوشه الجهل من كل جانب : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً » ، وأن قوامه العلم وحياته في الحكمة : « لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون » ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً » ، ثم سرد له ما لحق الأمم الجاهلة من ضروب الخزي والخسران ودفعه للعلم دفعاً : « وقل رب زدني علماً » وأشار عليه ببذل الوسع في طلب العلم والنظر في الملكوت : « قل سيروا في الأرض ثم انظروا » ، وكرر ذلك حتى عده بعضهم فرضاً . ثم نهانا أن نقول على الله ما لا نعلم وأن نحكم في دستوره ونتحكم : « ولا تقف ما ليس لك به علم » ، وحذرنا من ذلك حتى أخبرنا أنه سيسألنا عن ميقات المسامح ولحظات اللواظ وخطرات الفؤاد ، فقال تعالى : « إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً » ، ثم دعانا لطلب الحق حيث كان وانشاد الصدق أنى وجد ، لأنها روح حياتنا وسبب بقائنا وعماد هدايتنا : « وماذا بعد الحق إلا الضلال . » ، ونهانا عن الإصغاء للأهواء والأخذ بالظنون والحكم بالحديث والتخمين : « ولا تتبع الهوى فيضلك » ، « وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً » ، « قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » . ثم أخبرنا عن الأمم الماضية وحكى لنا من حوادثها في تحريف كتبها وصرفها عن معانيها والتوسع فيها والتأويل لأصولها ما خرج بها عن حقائقها وبعدها عن مواضعها ، وحذرنا من أن نسير سيرتهم أو نتخذي مثاهم ، وقال لنا ما معناه : قد أنزلت عليكم قرآناً فيه ذكركم وذكر من كان قبلكم ، وقد ضمنته دواء أدوائكم وطب قلوبكم وهو تام

لا عوج فيه ، فإياكم واتباع الآراء والحكم بالآهواء وإيّاكم ومحاكاة الأمم المفسدة التي حرفت عقائدها واتبعت أوهامها ، وإنكم تملكون وترتقون ما دمتم متمسكين بكتابه المبين ، وتنحطون وتغلبون إن انفرطتم من سلكه المتين .

هذا الأدب رفع أمة العرب ومن هي أمة العرب ، وجعلها تاجاً على رؤوس العالم كله وقد أنهضت نهضة فجائية في كل ضرب من ضروب المجالات الإنسانية حتى صارت مفخرة التاريخ لليوم . وهذا الأدب عينه أرقى من أرقى تعليم للعلم وأعلامن أعلا فلسفة عصرية ، وفي التفصيل العجب العجائب مما سنأتي عليه إن شاء الله . وهذا الأدب هو الذي نتمنى أن يسود على مقررات العلم ويحيينا بنفحته حتى نؤثر بجالنا على مدينة الغرب فنكملها كما كمل آباؤنا مدينة الرومان والفرس . ولكننا لو صغنا ديننا على قالب الأديان العامية وجعلنا التوسل والتشفع ومسا أوجبته العوائد البلدية وخلقته المقتضيات الوسطية قاعدة له أو أصلاً من أصوله فقد استهدفنا لفتنة العلم وعرضنا أنفسنا لنقد فلسفي لا نقوى عليه أبداً ، ولو قاومنا بالمدافع والدوابل وجعلنا حججنا ديناميت وقنابل .

هذه جملة نرجو من مطالعنا إمعان النظر فيها وتأمل مغازيها ومراميها ، ومحيثها من مسلم يعرف دينه ويحميه خير من مجيئها من ملحد ينادي ديننا وينأويه ، ويجعلها فتنة على قارئيه وسامعيه .

هذا كله تمهيد لما سيأتي إن شاء الله بيانه عند مناقشة الأستاذ الكاتب فيما كتب من الخطر الكبير الذي يحمره المتدينون على أنفسهم من توسعهم في مقررات الدين ، وذهابهم في بسطها كل مذهب حتى أن أهل الدين الواحد لينقسمون إلى أكثر من سبعين فرقة متنازعة متعادية تدعي كل منها أنها على الحق ، وتستند في دعواها على الكتاب والسنة ، وما سبب ذلك كله إلا سماحهم لأنفسهم بالتوسع في الدين والتحكم على قضاياها بالعلم . والدين متى تحكم عليه بالعلم صار علماً ومتى صار علماً صار موضعاً للخلاف والتفاوت . فلا عجب بعد ذلك إن كان لكل أهل قطر دين خاص وتقاليد خاصة . ونحن في مقالتنا الآتية سنري قارئنا أن

الدين فوق العلم والأهواء لا بمعنى أنه معارض للعلم والميل الإنساني ، ولكن بمعنى أنه من النقاء وظهور الحجة والإشفاق على الإنسان بحيث يرى العلم نفسه أمامه صغيراً ناقصاً متحولاً ، وترى الأهواء القلبية أن تسلم قيادها إليه فهو أرحم بها منها وأجلب لمنها من هواها ، وهذا بحث جديد جليل نرجو أن نوفق إليه ، والله ولي الكفاية .



الإسلام في عصر العلم^(١)

صدر الجزء السادس في هذا الشهر زائداً ستة عشر صحيفة اضطرنا إلى زيادتها اتساع الموضوع معنا في الملاحظة . على حضرة كاتب المقالة السابقة ونعتذر من إرجاء بقيتها .



(١) تركنا هذه الملحوظة ، احتفاظاً بما ورد في الأصل ، وللدلالة على ظروف طبع الكتاب في أول مرة ، كما أشرنا الى ذلك في حاشية سابقة - (الناشر) .

الدين والمتدينون

(تنمة الملاحظة على مبحث الخوارق والأسباب العادية)^(١)

الدين لغة واصطلاحاً هو ما يدين الإنسان له من العقائد التي تنشأ في وجدانه نشوءاً طبيعياً أو يأتيه بها وحي إلهي أو يستنتجه من النظر والتأمل في الكون. من هنا صار للدين ثلاث مصادر مختلفة لكل منها حال يجب الإلمام به للوصول إلى الحقيقة من هذا البحث .

أما العقائد التي تنشأ في وجدان الإنسان نشوءاً طبيعياً فهي ما يحمده كل إنسان في نفسه من الإيمان بأن لهذا الكون صانعاً حكيماً قديراً . وهذا الإيمان ينشأ في الضمير وينمو على الناموس الذي ينشأ عليه العقل الطبيعي ذاته . فكما ينشأ الإنسان مفطوراً على التصديق بأن الجزء أكبر من الكل وأن الشيء لا يوجد في مكانين في آن واحد وأن المصنوع لا بد له من صانع ، كذلك ينشأ مفطوراً على اعتقاد أن له ولهذا الكون الكبير صانعاً حكيماً لأنه من بدائه

(١) انظر في الفصل السابق ، البحث في الخوارق والاسباب العادية ، ثم (انظر ملاحظتنا على هذه المقالة) . ص ٩٦ .

العقل وضروريات النظر ومما لا يعوز الروية والتأمل . ولكن من هو هذا الإله وكيف هو وأين هو وممّ هو؟ هذا مما لم يفطر على معرفته الإنسان، ولذلك حصل الاختلاف فيه بين سائر أمم الأرض بخلاف العقيدة الأولى الفطرية فلم يختلف فيها اثنان إلا بعد ظهور الفلسفة كما ستراه إن شاء الله .

أما العقائد التي تأتي عن طريق الوحي الإلهي فهي ما يجيء بها الأنبياء والمرسلون من وجود عالم الملائكة وعالم الأرواح المجردة وخلود النفس والنعم والشقاء الأخرويين إلى غير ذلك مما هو مكل لتلك العقيدة الفطرية ، وقد اتحد جميع الأنبياء على تقرير دين واحد ولم يبطل اللاحق مما قرره السابق إلا شيئاً من قواعد الشرع السياسي الذي يجب أن يتغير بتغير حال الأمة واتساع دائرة معاملاتها وشؤونها ، أما العقائد الدينية الرئيسية فكلهم فيها سواء لا فرق بين أبعدهم عنا وأقربهم منا في شيء : « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » ، « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً » ، أما ما تظهر به الأديان من الخلاف فيما بينها فأمره واقع على اتباع أولئك الرسل ، فإنهم هم الذين غيروا وبدلوا وتوسعوا فأصبح كل دين يدعو إلى ما لا يدعو إليه الآخر ، وسترى السبب في ذلك إن شاء الله .

أما العقائد التي تحصل من النظر والتأمل فهي كالأصول المستنتجة من النظريات الفلسفية : كدعوى الأقدمين منهم أن للكواكب أرواحاً وأن مقعر النفوس محيطات الكواكب ، أو أن الإنسان متى مات تقمصت روحه جسد حيوان أو إنسان آخر . وكدعوى محدثيهم أن ليس في الكون إلا المادة وحدها وأن ما يقال من وجود روح وخلود وعالم روحاني وغيره هو من توليدات الخيال وتجسيم الأماني والمشتهيات ، وقد استند الأولون في تقرير أصولهم على ما تهوى نفوسهم وتشتاقه أميالهم ، واعتمد الآخرون على الحس والتجربة زاعمين أن كل ما لا يحس ليس بموجود ، فإن زعمت أن لك روحاً قالوا لك أرواها ، وإن قلت أن هنالك عالماً آخر قالوا هل رأيته .. الخ ... مما نحاربه دائماً بكتابتنا .

فالدين الأول الفطري هو الدين الحق الناشئ في الوجدان الإنساني على مقتضى
الناموس الطبيعي الذي نشأت به عواطفه وأمياله وملكاته الأخرى ، ولكن
هيئات أن يقنع الإنسان بعقيدة ضمنية وهو الكائن المغمى باكتشاف المجاهيل
واستشفاف المساتير والنفوذ لكل سريرة والسريان في كل دخيلة . إذا كان
الإنسان يخاطر بنفسه لرؤية ما فوق الجبال وما تحت البحار وما في بطون الغيران
وما في أحناء الغابات والأحراش ، وقد رأى ويرى كل يوم من المعاطب في هذا
السبيل ما يشيب النواصي ويرعد الفرائص ، فكيف يقنع بالظاهر مما هو أمسّ
شيء بحياته وأعلق أمر بفؤاده وآسر معقول للبه وأغلا محبوب لنفسه ؟ فلا غرو
إن بذل في سبيل إدراك خالقه كل مجهود وتعدى لتصويره لفكره غاية حدوده ،
ولا عجب إن لعب به الخيال في كل ملعب وذهب به هواء في كل مذهب ، ثم
لا غرابة بعد ذلك إن رأيت لكل أمة مذهباً خاصاً وتصويراً خاصاً . من هنا
كانت الحاجة للرسول والأنبياء صلوات الله عليهم شديدة ، فأرسل الله المرسلين
بدين الفطرة والحق فأهابوا بالناس عن التماذي في الأهواء وزجروهم عن الجري
في أعقاب الخيالات وأقاموهم على سنة الله المنزهة عن العوج فمكث كل واحد
ما شاء الله أن يمكث ، حتى إذا ما اختار الله له جواره رجعت كل أمة لهواها
في التوسع بدينها والخروج بعقائدها عن حدودها فنقضت وأبرمت ، وقوت
ووهنت ، وانقسمت وافترقت ، وزعمت في كل ما فعلت أنها تستمد من روح
الدين وتستقي من ينبوعه حتى أن الأمة الواحدة لتنقسم إلى عشرات كثيرة من
المذاهب المتشاكسة المتعاكسة فترى كل مذهب يدعي أنه على حق وأنه مستند
في أصوله على صحيح الكتاب ، ويسرد لك فعلاً من الآيات والنقلات ما يؤيد به
مذهبه ويقوي به فلسفته . إن قلت ولم ذلك ؟ قلنا من سماح كل فريق لنفسه
بشرح الكتاب على طريقته والتوسع في أصوله على قدر مداركه وتسرية أسلوبه
العلمي عليه ، فيقلب الدين علماً ، ومتى انقلب علماً صار عرضة للخلاف فيه
ومحلاً للتنازع في أصوله وفروعه وخرج عن كونه مهبط الطمأنينة على النفوس ،
ورسول السلام والوثام بين الأفتدة ، ومتنسم الحب والإخلاص بين أهله ، وأصبح

مثار التنابد والتخالف ومهب التخاصم والتشاكس وآلة لتسخير النفوس وإذلال العباد ، وواسطة لبز الأموال وانتهاك الأعراض والتسلط على الرقاب ، وتكون نتيجة ذلك كله ثورة العالم ضده ثورة لا أناة فيها ، كما حصل من أوروبا ضد أديانها حتى أصبحت لا تسمع لنصراء دينها ركزاً .

وأما العقائد التي تنشأ من النظريات الفلسفية والتأملات التصورية فقد فات زمانها وانقضى دورها ، وإن كان لها من دماء الشعوب الشرقية نصراء إلى اليوم .

هذا حال الناس قديماً وحديثاً أمام أديانهم وعقائدهم . تأملهم رحمك الله في تنابذهم وتشاكسهم وتدابيرهم وتعاكسهم ، وافتراقهم على فرق شتى ومذاهب لا ضابط لها ولا حصر ، ثم تدبر في موضوع افتراقهم ومحل تنازعهم ومهب تخاصمهم ، وابحث عنه جهلك فإن وجدته فأنت في حل من أن تذهب مذهب ملاحدة الفلسفة الحسية في الدين وفي أهله ، وإن لم تجده فاعلم أن الدين فوق ذلك كله فاطلبه في كتاب الله وسنن رسله بفؤاد طهره الإخلاص من الوسوس وعمرته التقوى بروح التواضع .

قلنا الدين ميل فطري في الإنسان ، يشرق على القلب فيلفته إلى النظر في الوجود والتأمل في الملكوت ، ويهيب به إلى مسارح الجمال والجلال من عالم الشهادة فيمتلىء عواطف تعطفه على أمر جلل وشؤون ليست من طبيعة هذا الجسد ، ثم تفيض عليه تاراته وأحواله فيختر الإنسان ساجداً ينجي قدرته صورته من العدم وقضت له بهذه القيم ، ثم يلتفت حوله فيرى الكل مثله ساجداً ينجي مثله تلك القدرة بلسان حاله وقاله لا فرق بين جماد ولا حيوان وعلى كل منهم في الطلب إليه والتعويل عليه طابع العبودية وميسم الافتقار والمربوبية ، وليس ذلك الطابع على الصلد الأصم بأظهر منه على الإنسان الأكمل .

هذا هو الدين في أصله ، وكل كتب الله تعمل على تجلية تلك العاطفة

وتكليفها ، وكل رسل الله دعوا بقا لهم وحالهم إلى إحيائها وتجميلها ، فمن أين يتسرب التناؤد إلى الناس فيما هم فيه سواء وحاجتهم إليه عامة ؟

لا جرم أن التخالف لا يتأتى من الدين ، وإنما يتأتى من أهله بغياً بينهم : « إن الذين فرقوا دينهم ، وكانوا شيعاً لست منهم في شيء » ، « وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة » .

جاء الإسلام والناس من أمر الدين على مثل الليل الأليل ظلمات بعضها فوق بعض . سيطرة من القائلين به ، واستبداد منهم بأمره ، وأوهام وخيالات في صورة شروح وتأويلات ، وكسف من الظلمات في ثوب وحي وإلهامات ؛ لكل أمة أديان ومذاهب ، ولكل مذهب طرائق ومسارب ، والعامّة من جور قاداتهم بين أنياب حادة ومخالب خشنة ، لا يسان لهم عرض ، ولا يحفظ لهم عهد ، ولا يهدأ لهم روع ، ولا يسكن لهم جأش ، ولا تطلق لهم حرية في نظر واستدلال ، ولا يؤذن لهم فيتفكرون في حال ومآل ، محصورون في دوائر حددها لهم قاداتهم ، فهم يمجون فيها موجاً ، ويرددون في أرجائها فوجاً فوجاً . بهذا السبب انقضت أمم بأسرها وصارت أحاديث وعبر ، ولبثت أوروبا ألف سنة في حالة جمود وخمود ، لا ينبض لهم عرق بعمل نافع ، ولا يسمع لهم صوت بما يشعر بأثر من حياة . وجاء الإسلام ، والناس هكذا ، فقال : « يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم ، وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً ، فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ، ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً » . ثم شرع يقرر لهم أصول الحق بذلك البرهان وينير عليهم مسالك الحياة بذلك النور ، حتى تكونت للإسلام دولة محكمة الأراكين في أقل من ربع قرن ، قامت بما عهد إليها من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خير قيام ، وجعلت لها أثراً لا يحى على مر الأيام والأعوام . دعا الإسلام إلى الله وحده ، ولفت العقول إلى تنور أممارة ، وحكمه في مصنوعاته ، وحذرهما من أن يطوح بها الهوى إلى البحث عن ذاته أو التفكير في ماهيته مقررّاً أنه أعلى من أن يدرك بصورة ،

وأسمى من أن تقف له الأوهام على كيفية . ثم قرر للناس قانون الاعتدال في الأقوال والأفعال والحركة والسكون ، فقال « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون »

وبعبارة أخرى شرح صدور العالم للإيمان بالله ، والتبرؤ اليه من كل ما عداه ، ثم وجهها للأحسان في كل شيء على موجب ما تقتضي به الفطرة لا ما تزينه الأهواء وتقتضيه الشهوات ، فقال : « ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن » ثم التفت لما بين يدي الأمم من تلك الشروح والمقالات التي جعلها أصحاب كل دين عمدة حجاجهم ومرائهم ، ومستقى جدالهم وخصامهم ، مما جعلوه شرحاً لكتب الإلهية ، وزعموه بياناً للأسرار الروحانية ، فبين لهم أنها من توليدات الخيال ، وتوحيات الضلال ، وأن المعتمد عليها معتمد على الأوهام ، وممكن على الأحلام ، ومستند على الظنون والبطلان ، ومستقيم إلى التخرصات والبهتان . ثم نعى عليهم غفلتهم في تصديقها ، وغباوتهم في الإيمان بها ، وعمايتهم عن رؤية سوئها وضلتهم عن إدراك فسادها . فطالبهم بالدليل تعجيزاً وتبكيكناً ، وكلفهم بالبرهان تقريراً وتضعيفاً ، فقال « قل هل عندكم من علم ، فتخرجوه لنا » ، « قل أتعلمون الله بدينكم » ، « أتقولون على الله ما لا تعلمون » ، « إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس » . ومن يكن يتلو القرآن حق تلاوته يجده لم يدع أسلوباً من أساليب الزجر عن الخروج بالدين عن جادته ، ولا فناً من فنون الردع عن التوسع في معناه إلا وأتى به على أبين طريقة وأوضح حجة ، وأمر رسوله أن يكون للأمة المثال الكامل في إسلام الوجه لله والتبرؤ اليه من سائر الوراثة والتقاليد التي جحد عليها الناس جموداً وسنوها ديناً تعصباً وضلالاً فقال تعالى : « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » . فمز على أسراء الوهم وعباد الخيال أن يتبرؤا مما جحدوا عليه من الظنون المتوارثة ، والمقالات المقدسة في نظرهم ، وكبر عليهم أن يخلعوا هذه الأثواب البالية ، ويلقوا بأنفسهم في حياض الاسلام المطهرة ليخرجوا طاهرين من دنس الأضاليل ، طيبين تتلقاهم ملائكة الرحمة بالتهليل ،

فناشدوا رسول الله وجادلوه وحاربوه وكافحوه ، ولم يتركوا أسلوباً من أساليب الغش والخداع إلا أتوا به لأحباط سعيه وإبطال دعوته . فقال له ربه ، وهو أعلم بحاله وحال عباده : « قل يا أيها الناس إن كنتم في شك من ديني ، فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم وأمرت أن أكون من المؤمنين . وأن أقم وجهك للدين حنيفاً ولا تكونن من المشركين . ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذن من الظالمين . وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله ، يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم . قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل . واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين » ، « قل هذه سبيلي أدعو الى الله على بصرية أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين » ، « قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضراً إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون » ، « قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين إن هو إلا ذكر للعالمين . ولتعلمن نبأه بعد حين » ، « قل إن ربي يقذف بالحق علام الغيوب . قل جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد » ، « قل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً » ، « قل لا أتبع أهواءكم قد ضللت إذن وما أنا من المهتدين . قل إني على بينة من ربي وكذبت به ما عندي ما تستعجلون به إن الحكم إلا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين » .

نحن اليوم معشر المسلمين ليس لنا أمام القرآن الكريم وآياته إلا أحد موقفين : فإما أن نعلم أننا مخاطبون بها ومكلفون بالجري على سنتها وأن ما فيها مما نعي على أهله ، وأوخذ به ذووه من الأخذ بالظن وعبادة الهوى والانحراف عن جادة المؤمنين وشرح كلام الله بالفلسفة الخيالية والمجود على التقاليد الموروثة الخ ... يجب علينا أن نحترز منه ونهرب عنه ونكون عباد الله على طريقة رسوله وأصحابه ؛ وإما أن ندعي أننا غير مكلفين بها وأنها إنما جاءت للكفرة

والمشركين ، ووجهت للمسرفين والملحدين ؛ أما نحن معشر المسلمين ، فصالحنا
مأجور ، ومذنبنا مغفور له ، والمنحرف منا مشفوع فيه ؛ فنكون كالأمة التي
قال الله فيها « يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيفقر لنا » .

أما الموقف الأول فهو موقف المؤمنين حقاً الذين يتلون القرآن حق تلاوته
 ويفهمونه كإفهامه الذين أنزله الله إليهم من قبل فيؤمنون بقوله تعالى مخاطباً لأصحاب
رسوله : « ليس بآمانيتكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءاً يُجْزَ به » ،
« فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً
عظيماً » ، « ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم » ، « ولا تركنوا إلى
الذين ظلموا فتمسكم النار » ، « من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما
ربك بظلام للعبيد » .

من كان من أهل هذا الموقف قرأ القرآن قراءة المتهم نفسه ، المقر بالتقصير
والإساءة ، المعترف بالافراط والتفريط ، فيقف مع كل آية ينظر في نفسه وعيوبها ،
ويبحث في أدوائه وشعوبها ، ويفحص في ثنياه أهوائه وفنونها ، ويسبر غور
ممراته منقباً عن جرائم الباطل ومكاريب الغي والضلال حتى يجدها فيطهر
ذاته منها بكلام الله الشافي وإكسيده الإلهي « ونزل من القرآن ما هو شفاء
ورحمة للمؤمنين » ، « إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم » ؛ فلا يزالون يقرؤون
القرآن ويتفهمونه ويبحثون عن داءهم ويحالدونه حتى يشفيهم الله ويطهرهم على
طريقته المثلى ويجعلهم خلفاً لتلك الأمة التي كانت خير أمة أخرجت للناس ، أو
يموتون وهم على هذا الصراط فيكون رجاؤهم في النجاة عظيماً ، وطمعهم فيما
عند الله من الكرامة مؤسساً على أمر معقول . ويكونون جراثيمة صالحة لمن
يأتي بعدهم .

أما أصحاب الموقف الثاني فهم يقرأون القرآن تبركاً وتيمناً فيعمرون بما
يشعر بنعيم أهل الجنة فيضعون أنفسهم بأنفسهم في الصف الأول من داخلها ،
ويعمرون بما يدل على العذاب فيتبرؤون منه وينزهون أنفسهم عنه ، وينتهون إلى

الآيات التي تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر فيظنون أنهم مؤتمرون بها وأنهم من الجري على سنتها في المقام الأول ، ويشارفون الآيات التي تأمر بالصبر عند اليأس والتذمم للجار والعشيرة والجامعة فيدعون أنهم من المستضعفين في الأرض وأنهم غير مكلفين بشيء من ذلك ، ويقرأون الآيات التي تنعي على المفسدين في الأرض وتلقي التبعة على عرفة الكتاب وقرائه وتحثه على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصدع بالحق ، فيزعمون أن ذلك من واجبات الحكومة وأنها هي وحدها المؤاخذة بكل ما يقع من صغير وكبير . وهكذا ترى لهم أمام كل زجر حجة ، وحيال كل أمر حيلة ، وإزاء كل تقرير مخلصاً ، والنتيجة أنهم يريدون أن يعيشوا كما وجدوا أنفسهم وآباءهم منغمسين في الكسل ، مشتغلين بالأمانى ، قانعين بالدون من الحياة ، راضين بالذل ما داموا شباعاً كاسين . وما وظيفة القرآن لديهم إذن ؟ وظيفته أن يقرأ منه كل يوم ورد ، أو يحفظ من أوله إلى آخره عن ظهر قلب ، وأن يترنم به في الولائم والمآتم ، وأن يحشد له الناس كما يحشدون لسباع الآلات المطربة ، وأن يقرأ بعض سوره لقضاء الحاجات أو نيل رتبة أو وسام أو للدخول على الحكام الخ !!!.. هذا هو حال أهل الموقف الثاني ثم هم يدعون أنهم مسلمون وأكثرهم ممن يصلون الفرائض ويتنقلون ويبتهجون ! بخ بخ !

إذا كانت محض الفطرة السليمة والنظر المجرد يشعر بك بأن هذا الحال ليس بدين ولا هو من الدين وإنما هو الهوى بجميع أشكاله ، يتسرب إلى كيان الانسان فيقلب معناه ويسلط عليه قوى الوهم والخيال ويجعله من أسرها في أضيق من القفص ، فيخيل له الدين والدنيا والحياة والمات والوجود والخلود وما يتعلق بها كما يريد الهوى لا كما هو الشأن في الواقع ، وما هو الا الضعف تمكن من النفس فقيدها ، وسطا على العقل فأسره في خدمته وصرفه عن وجهته .

الهوى : هذا هو الداء الذي تسرب إلى أهل الأديان فأخرجهم عن صراطها وضلهم عن سبيلها . وجعلهم عرضة لفتنة العلم في هذا العصر وهيات أن

يسترجموا دولتهم ويستردوا صولتهم إلا بالتغلب على هواهم « ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله » .

كان زمان الانسان فيه يرسف في قيود العبودية للحكام والمسيطرين ، وكان التعلم بيد طائفة الرؤساء الدينيين لا يسمحون منه لجمهور العالم الا ما لا يضر بنفوذهم ولا يؤثر على مراكزهم ، وقد لبث النوع الإنساني في هذا الدور ألوفاً من الأعوام ، جاء في أثنائها الاسلام فخلص منهم أقواماً ووهبهم حقوقهم المسلوبة ، ورد لهم حريتهم المغصوبة ، فماشوا طائفة من الزمن في جناب هذا الحال الهنيء ، فخلف من بعدهم خلف ردوا الحال لأصله واتخذوا الشعوب خولا وعبيداً . وكان ذلك الارتكاس مما أعلم به خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم بعض خاصته ، وشفع ذلك بأنه سيجيء زمان ترجع للاسلام دولته ، وتعلو في كل صقع كلمته ، ويتقرر في الأرض الاصلاح الذي جاء به رحمة لهذا العالم الضعيف . ولعل عصر الاسلام هو هذا العصر رغماً عن قول قادة أوروبا أنه عصر العلم .

نحن اليوم في زمان ، الشعوب فيه خلصت من نير الاستعباد ، والحرية فيه أطلقت من الأصقار ، وصار الإنسان بشراً سوياً ، يعرف أن له نفساً مستقلة وإرادة خاصة ، وأمياً لاجسدية ومعنوية ، وأنه حر في تصرفه مستقل في شؤونه ، وأن له الخيرة التامة في أمور حياته وتعلمه وتعيشه واهتمامه ووجهته . والأمم أصبحت كذلك لا تعتقد عبثاً ولا تدين لباطل ، ولا تقف مواهبها في سبيل وراثة . فالدين الذي سيكون الدين العام بعد هذا الإباء كله هو الدين الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، الدين الذي لا يحتاج في إثبات حقيقته إلى دليل . الدين الذي تنساق اليه العواطف بلا دعوة ، بل الدين الذي يقتضيه حال الإنسان اقتضاء طبيعياً ، وينشأ فيه نشوءاً ذاتياً ، ذلك الدين هو الدين الفطري أو الطبيعي بلسان أهل العصر ، وهو الإسلام بمعناه الخاص .

ذلك الدين الفطري ينشأ في القلب وينمو فيه فيفيض منه على الجوارح والأعضاء روح السكينة والفضيلة أو أثر الكمال والنزاهة ، لا يقبل التأويل ولا

التوسع فيه ولا التخالف في أصوله ولا التشعب في معناه . أعني بذلك أنه فوق العلم وفوق الفلسفة ، لا بمعنى أنه ينافيها أو يخالف أصولها . لا ولكن بمعنى أنه بطبيعته أسمى منها . فالدين ميل فطري عام مالك لسائر أهواء الانسان وحاكم على جميع ملكاته . وأما العلم والفلسفة فأمران وضعيان ، قابلان للتكامل في كل آن . وكل أمة تتجارى على إخضاع الدين للعلم تكون قد قلبت دينها علماً ، ومتى صار الدين علماً صار قابلاً للأخذ والرد ، ومحلاً للتنايد والتخاصم . لأن لكل حزب ولكل أمة ولكل جيل علماً خاصاً ومدارك متخالفة فكيف يجمع الكل على علم واحد . ثم أن الأمة التي تجعل دينها علماً تعرضه للتبدل والتغير على مر الأجيال وترقي المدارك ، ومن العبث أن نحاول حمل الناس في القرن الخامس والسبعين مثلاً على تقديس علمنا الحالي ونحن في القرن الرابع عشر .

ليس بين يدي العالم اليوم كتاب سماوي حافظ لصبغته الإلهية الأصلية وصائن للدين مركزه السامي ونقائه الفطري ونزاهته عن العلم والتاريخ والخيالات ، إلا هذا الكتاب الكريم القرآن الذي أوحاه الله الى رسوله محمد خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم . والأمة التي تدعي أنها أمة هذا الكتاب وشيعة هذا الرسول الكريم يجب عليها أن تقوم على الصراط الذي نهجه لها ذلك الكتاب وعلى السنة التي خطها لها ذلك الرسول الأعظم . أما الجلود على العوائد البلدية والتقاليد القومية وتأويل الكتاب أو السنة في سبيلها وصرف معانيها لتتنطبق عليها فليس من الدين في شيء بل هو مما يجب أن يتنزه عنه كل منتسب إلى هذا النور المبين .

مذهب التأويل والمحاولة يسمح للانسان أن يثبت وجود الشيء في ضده ويبرهن على عدمه في مصدر وجوده . أما رأيت أن القدري يثبت لك مذهبه من القرآن فيأتي الجبري فينفي له مذهبه ثم يستدل له على صحة مذهبه هو من ذات القرآن . وهكذا فعل التناسخي والمشبّه والمجسم الخ .. هل بعد هذا كله يصح أن نترك صريح الكتاب والسنة وظاهر حال صدر هذه الأمة ثم نرمي بأنفسنا في بحار التأويلات والمحاولات لنثبت لأنفسنا صحة ما ألفناه في بلدنا وتعودناه في قومنا ؟ وما معنى إسلامنا إذن ؟

الإسلام أن تبرأ إلى الله من علمك وحولك وموروثاتك وما قلت وما عملت وما تخيلت وما أملت ، مسلماً وجهك إليه مجرداً روحك له ، محاذياً بروحك وهي على هذه الصورة النقية وجه مبدع الكون وقيومه ليمدك من نوره بما ينير عليك أمر الحياة وأمر الممات ، ويهيك من روحه بما يهديك إلى أعدل صراط .

الإسلام لله أن تدع العلم وأصوله والفلسفة ومسائلها والعادات وما أخذها والأديان وتحالفها والأمم وتنايذها وأهواءك ومواطنها والوجود وما فيه ، ثم تتوجه بقلب خاشع وضمير صاف ونفس نقية إلى قيوم السموات والأرض ، فارأ إليه من الأغيار ، ملتجئاً إلى جنبه من دعوى الانانية والاستقلال ، معتصماً بحضرتة من التلونات البشرية والأحوال ، راغباً إليه أن يوفقك لتعلم ويهديك فيما تعلم حتى تستوجب رضاه وتستحق كرامته في دنياك وأخراك . هذا هو الإسلام ولا معنى له إلا هذا وهو دين سائر الأنبياء ، قال الله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام بعد أن نظر في النجوم واستعرضها وقال عن بعض أجزائها « هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين » الآيات . قال إبراهيم عليه السلام عقب ذلك كله « إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين » ، « إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين . ووصى بها إبراهيم بنبيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون » ، « إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم » ، « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين » . وقال نوح عليه السلام كما حكاها الله عنه وهو قبل إبراهيم عليه السلام : « فإني توليتكم فما سألتكم من أجر إن أجري إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين » وقال سليمان كما نقله الله عنه « وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين » وقال الحواريون : « آمنا واشهد بأننا مسلمون » وأمر خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم فيما حكاها الله عنه أن يقول : « قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين وأمرت لأب أن أكون أول المسلمين » ، « قل إني هداني ربي إلى صراط مستقيم . ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين .

قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين . « وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا . قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين . قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون . فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإنما هم في شقاق فسيكفيكمهم الله وهو السميع العليم . صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون . قل أتحتاجوننا في الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون . »

هذا هو الدين الذي أمر الله به سائر النبيين والمرسلين ولم يزل يوحيه الله إلى صفوة خلقه جيلاً فجيلاً حتى خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو الذي آمن به أصحابه صلى الله عليه وسلم بلا تأويل ولا تحويل . وإن مجرد اسمه ليدل على ما قلنا بلا تردد ولا شبهة .

هذا الدين الذي هو الإسلام إلى الله أي الاستسلام له والتجرد إليه والتبرؤ أمامه من الحول والقوة والعلم والأديان والأغراض والأعراض والتلونات والأوهام والآمال ، مع محق كل دعوى والتخلي عن كل أنانية ، هو الدين بمعناه الخاص وهو الحال الذي سينتهي إليه العالم بعد أن يسأموا مما هم فيه من الخلاف في العقائد والتنازع في المذاهب والتمايز في الأصول ، وسيكونون عباد الله إخواناً ، دينهم الحق ، ودينتهم الصدق ، وقبلتهم وجه مولاهم الذي لا يكيف بكيف ولا يدرك بصورة ، وشغلهم الرقي في كل شيء . « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء » .

إذا أردت أن تعرف معنى الإسلام بمثال محسوس فأليك : جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم والناس كما هم اليوم مذاهب في الدين ، وأحزاب في الملل ، لكل منهم أصول خاصة جعلوها معتمد مذهبهم ، وقواعد اصطلاحوا عليها اتخذوها مرجع ملتهم ، فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فقال ما فحواه ووجزه : أيها الناس ما هذا الاختلاف في فطرة أنتم فيها سواء ؟ ما هذا التجادل في الخالق وهو رب العالمين أجمعين ؟ ما هذا التفرق في العقائد وكلكم سواء في قصور

المدارك ؟ ما هذا الثماري في الكتب السماوية وهي كتب الله إلى الناس كافة ؟ ما هذا التحاسد ما هذا التحاقد ما هذا التعصب ما هذا الجلود على الباطل ؟ ما هذا التقديس للآباء ما هذا الاستبسال في الدفاع عن التقاليد الفاسدة ؟ فرثوا إلى الله أيها الناس مما أنتم فيه من هذه الأحوال المورطة والأحوال المهلكة . هلموا إلى النور الالهي وخلصوا أنفسكم من هذه الظلمات المتكاثفة . والغياب المتراكبة . إليّ عباد الله فقد اشتد بكم كلب الفتنة ، واستشرى فيكم داء العماية فقد أوحى الله إليّ اكسير شفاكم ، وطب أدوائكم .

— إلى أين ؟..

— إلى الله وحده . أما يرضيكم أن تصلوا إلى الله وتعتصموا بحبابه وترتقوا في نعم كرامته ورحابه ؟

— كيف ذلك .. وأين نحن من هذه الخطوة العليا والشرف الصحيح ؟

— اخلعوا عنكم هذه الأصار الوراثية . ألقوا عن ظهوركم هذه الأحمال المردية . نقوا أفكاركم من هذه المذاهب المتناقضة والأوهام المتعارضة . فإنها كلها أحلام في أحلام وكلام في كلام والله من وراء ذلك كله « وإذ سألك عبادي عني فإني قريب » فلا تجعلوا هذه الكسف المضلة بينكم وبين ما هو أقرب إليكم من حبل الوريد .

— وما هو الدين الذي تأمرنا به ؟ .. — هو الإسلام إليه والتجرد له وكفى بهذا ديناً قبيحاً . ألا يكفيكم من الدين أن تسلموا لله نفوسكم وأرواحكم وعقولكم وأهواءكم وممكم وهو خالقها ومصرفها ؟ بدل أن تسلموها ليد أوهاكم وأحلامكم ورؤسائكم فيضلونكم بالأباطيل ويفشونكم بالأضاليل وينشئون لكم خيالات وجهالات ويوهمونكم أنها دين وما هي إلا وساوس اقتضاها لهم قصور علمهم وضعف إدراكهم . ومما يدلكم على أنها بهتان في بهتان ، وشيء ما أنزل الله به من سلطان ، أن لكل أمة ديناً خاصاً ووساوس خاصة تدعي أنها هي الحق وما عداها الباطل . فبدل أن تسلموا أرواحكم لكهانتكم وأهوائكم سلموها

لبارئكم وهو أرحم الراحمين. وأحكم الحاكمين . - وما هي العقائد التي تأمرنا بها ؟ - « قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » . تؤمنون بجميع ما أرسل الله من رسول وما أنزل عليهم من كتاب إيماناً إجمالياً ، أما التفصيل فلم تكلفوا به لأنه مما لا يفيدكم ، لا سيما وقد جالت أيدي التحريف بنصوص الكتب القديمة فأدخل إليها ما ليس منها ، وقد تدارك الله ذلك بتضمينها في هذا القرآن فهو الكتاب الجامع لسائر كتب الله المحفوظ من التبديل والتحريف بأمره سبحانه وتعالى « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » .

- فما بال القرون الأولى ؟ -

- « قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى » ، « تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون » .

- وماذا تأمرنا به من مكارم الأخلاق ورياضة النفس ؟ -

- « إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون » ، « وذروا ظاهر الإثم وباطنه » ، « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون » ، « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » . « ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » ، « كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » .

- ماذا تأذن لنا أن نأخذ من الدنيا ؟ -

- « ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك » ، « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة » ، « من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة ... »

« ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة » .

— ماذا لنا لو آمنّا بك ؟

— « وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » ،
« إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً » .

— ماذا علينا لو لم نعمل بما تقول ؟

— « إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم ، فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ويستخلف ربي قوماً غيركم ولا تضرونه شيئاً إن ربي على كل شيء حفيظ » .
— إن في العالم أمماً تكذب بالأديان ، ولا تؤمن بالرحمن وتزعم أن العلم كافٍ في قيادة الانسان ، وإيصاله لأعلا درجات العمران ، فما بال هؤلاء ؟

— « فإذا مس الإنسان ضررٌ دعانا ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته (على علم) بل هي فتنة ، ولكن أكثرهم لا يعلمون . قد قالها الذين من قبلهم فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون فأصابهم سيئات ما كسبوا والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا وما هم بمعجزين » .

— إن الغفل منهم يدعون أنهم آمنون مطمئنون ، راقون متدرجون لم يأتهم العذاب الموعود ، ولا اليوم المشهود .

— « وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وقوم لوط وأصحاب مدین وكذب موسى فأمليت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير » ، « ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون » .

هذا هو الإسلام في نقائه ، والإيمان في صفائه ، وهو كما ترى التجرد لله من

كل ما سواه والتوجه اليه بقلب نقي خال من كل آثار العلم والوراثات والخواطر كأنه قدذف به لهذا الكون من ساعته ، لكيلا يكون بينه وبين خالقه حجاب من هذا العالم الناقص . لأن الإنسان لو ادعى أنه مسلم وتوجه إلى الله وهو مشحون الذاكرة بعلم تعلمه أو بمعتقدات جمد عليها أوبراثات قدسها واستنم اليها، فيكون قد أقام كل تلك الأشياء حوائل بينه وبين الله فلا يخلص فؤاده الله أبداً ما دام كذلك . ولن يرى عمره إلا تلك الأشياء التي جمد عليها فيعيش ويموت وهو لم يتغير ، وليس هذا معنى الإسلام الذي هو دين كافة الأنبياء ، بل معناه كما يدل عليه اللفظ ونص الكتاب الفرار إلى الله من كل علم وعقيدة وراثية ، ومن كل خاطر وهمسة ضمير ، حتى يخلو ما بين الله وعبد فيفيض الله على عبده ما يشاء من علم وحكمة . وبهذا الاعتبار فالإسلام نهاية ضرورية للإنسان المستقبل لا بالبرهان والاستقراء ولكن بالفرصة الطبيعية . فإن الإنسان متى اعتقد الشيء وجد عليه ثم لاقى من جرائه ما يكشف له أنه مغرور به مفسوش فيه ، ثم اعتقد غيره فلاقى كما لاقى أولاً ، بسبب الظنون كلها وعادها وتكون نتيجة ذلك كله الترفع عن التظني والاقبال على المبدع الأقدس خالي الذهن من كل شيء مقهور على حاله هذا بالدافع الطبيعي الصحيح . من يتأمل في حال أمم أوروبا اليوم يحدم يعادون الأديان وينابذونها ويكتبون ضدها ولهم في كل يوم عمل على تخليص العالم منها . يرى المتأمل هذا فيظن أن أوروبا تتسفل وتتدلى والحقيقة أنها سائرة نحو الاسلام بدافع الطبيعة ذاتها ، وكلما أوغلت في معاداة العقائد الوراثية تقدمت خطوة إلى أمام نحو الإسلام مقهورة على أمرها . وهذا معنى قوله تعالى « سترهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكفر بربك أنه على كل شيء شهيد » .

إذا فهمت أن معنى الاسلام هو هذا ، فهمت معنى قوله صلى الله عليه وسلم : (كل مولود يولد على الفطرة وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه) . ومعناه أن كل مولود يولد خالي الذهن من كل عقيدة وراثية ومن كل أثر من آثار التعصب لشيء دون شيء ، أي نقي الوجدان طاهر الذاكرة من كل أثر ،

ولما كان ديننا دين الفطرة وهو الاسلام ، كان معنى الاسلام كما قدمنا أن يتوجه الإنسان لمولاه خالي الذهن من كل أثر من آثار الوراثة والجمود كأنه خلق من ساعته لكيلا يكون بينه وبين الله حجاب . هذا ما قلناه وهو معنى الحديث الصريح . ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (وانما أبواه يهودانه .) الخ .. أي أن الطفل يولد مسلماً على فطرة وإيماء يأتي أبواه بعد ذلك فيلقنانه دينهما وقواعده وشروطه الخ .. فيخرجانه عن الفطرة وينشئان به نزوعاً إلى الجمود والتعصب من صغره فيشرب بينه وبين الله تلك الحجب التي أقامها أبواه بأيديهما .

هذا هو معنى الاسلام الذي كان رسل الله كلهم عليه والذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وأداه للعالمين بلا تأويل ولا تبديل ، وهذا هو الدين الذي قام به أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وملكوا به الأرض وسادوا الملوك والقيصرة ، إذن فما بال الفرق التي نشأت في الاسلام وكانت سبباً في تشتيت أهلها؟ الجواب ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم : (كلها في النار إلا واحدة) وما تلك الواحدة ؟ (هي ما أنا عليه وأصحابي) . وما تلك الطريقة التي كان عليها صلى الله عليه وسلم وأصحابه ؟ هي الاسلام بالمعنى الذي قررناه لك هنا مستندين فيه على القرآن ، وهي ما فهمه أوائلنا من قبل .

هذا هو الإسلام الذي جعله الله دين رسله وأصفيائه ومقدمة لإفاضة أنوار علمه عليهم ، وهذا هو الأصل الذي نرجو أن يرجع اليه العالم كله لأن الفطرة السليمة تتأدى اليه من تلقاء نفسها ويرضاه العقل بمجرد تصويره بلا تردد . فالإسلام بهذا المعنى غير قابل للخلاف ولا للتأويل ولا للتحريف ، فلا يمكن أن تتفرق فيه أمة إلا إذا خرجت عنه إلى غيره وزعت أن ما هي فيه هو الإسلام ظلماً وزوراً .

إن قيل فما ذلك الذي طولبنا بالتصديق به في الكتاب الشريف من الرسل والكتب والملائكة والنبيين والآخرة والقضاء والقدر . قلنا هذا هو الإيمان ، وما رأيت هو الفرق بين الإيمان والاسلام ، وقد عبر الله تعالى عن هذا الفارق

بأجلى عبارة فقال تعالى : « قالت الأعراب (آمنا) قل لم تؤمنوا . ولكن قولوا أسلمنا . ولما يدخل الإيمان في قلوبكم » . وذلك أن نفرأ من بني أسد قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم في سنة جدبة فقالوا آمنا، فرد الله عليهم دعوتهم بقوله تعالى : « لم تؤمنوا » لأن الإيمان اعتقاد بالقلب لم يحصل لكم بعد « ولكن قولوا أسلمنا » أي وجهنا وجهنا لله وتركنا التعصب لأصنامنا وكهاننا وموروثاتنا وتوجهنا اليك فاهدنا .

هذا هو الفرق بين الإسلام والإيمان على الطريقة القرآنية والاسلوب الحمدي، فكتاب الله يدعونا دعوتين : دعوة للإسلام أولاً ، وهي أن نخلع عن أعناقنا تلك الربق الوراثية ، ونرمي عن أكتافنا تلك الآثار التقليدية ، وأن نرفع عن عقولنا وأفئدتنا تلك المضاعط الوسواسية الخرافية، وأن نتوجه لله بالقلب والروح طاهرين من كل خاطر عقيدة أو أثر وراثية أو همس تعصب ، لتتحقق عبوديتنا وتميز حريتنا ليقاض علينا ما نحن أهله من روح وليصادف الفيض نفساً نقية وفؤاداً طاهراً. لأننا لو توجهنا إلى الله تعالى بغير هذه الطريقة من التجرد والتطهر فنحن إنما نتوجه لأفكارنا وعقائدنا وخيالاتنا فنزداد فيها جموداً وعليها رسوخاً، ولا ينفذ إلينا من النور الإلهي الذي توجهنا إليه بزعمنا شيء . لأننا لم نتوجه إليه إلا وهماً ، وقد توجهنا في الحقيقة لتلك العقائد الوراثية « ومن لم يعمل الله له نوراً فما له من نور » .

هذا من بعض أسباب تأخرنا عن آباءنا وعدم انتفاعنا من الدين بما كان ينفعهم ويحييهم . جاء الإسلام لآبائنا وقد كانوا من الوحشية والجهالة والتشتت والفوضى في أنزل المواطن فخلعهم عن هذه التقاليد الوراثية كلها وجعلهم يتوجهون لله توجهاً صادقاً، فحفظوا من النور والامداد بما جعلهم مثالا يضرب في تاريخ العالم، ونحن مع وراثتنا للإسلام ودعوانا أننا من أهله ومن العريقين فيه أصبحنا لا ننتفع من عوامله المرقية عشر ما كان ينتفع منه آباؤنا . وما ذلك إلا لأننا غفلنا عن معنى الإسلام وضار الرجل منا يصلي لأنه عرف أن الصلاة فرض على كل

مسلم ، فيصلي الركعات كما يجب ، لا كما يجب وينصرف إلى لهوه ولغوه منتظراً أن يعود لأتمته مجدها وسؤدها . وما درى هذا المسكين أن هذه الصلاة هي أقوى باعث بعث العرب إلى الظهور بما ظهروا به من الجلالة والفخامة بما كانت السبب في دوام المدد عليهم من قبل خالقهم جل وعز . لأنهم كانوا إذا صلوا صلوا مسلمين وجوهمهم لله ، مجردين أرواحهم وقلوبهم له ، قياماً أمامه كيوم ولدوا على الفطرة لا متعصبين لشيء ولا جامدين على ورائة ، ولا واقفين مع هوى ، بل مستسلمين له مقرين بالعجز والقصور والجهل والفقر ، عاملين جهدهم على أن يظهروا بمظهر المروب أمام الرب ، والخالق أمام الخالق ، والموجود أمام قيومه . فكانوا يتلقون وهم على هذه الكيفية من إفاضات نوره وإشرافات وجهه وآثار علمه وهدايته ما يعجز عن تصويره القلم ، ولا يكاد يدركه العقل ، ولولا أن أمر انتقال العرب فجأة من حالتهم الأولى إلى حالتهم التالية محسوس مشاهد لعدت بعض الناس ما نقوله عنهم شعراً . ومن كان يقرأ القرآن حق قراءته ويستعرض أمام عينيه الآيات الكريمة الحاتة على اقامة الصلاة^(١) حتى في مواطن الحرب والضرب يعلم أنها عماد الدين وروح الإسلام وسبب من الأسباب الأولية لسرعة رقي المسلمين الأولين . وليس هذا موطن التفصيل .

أنظر لهذه الصلاة التي كان يقيمها آباؤنا الأولون بهذه الروح العالية ، مستسلمين فيها لله من كل حول وقوة وعلم وتقليد وورائة ، ثم أنظر اليوم للرجل منا يصلي وهو غير عالم من أمر هذه الصلاة إلا أنها فرض على كل مسلم ، فيتوجه بها لله وهو محشو الفكر والذاكرة والقلب بكل ما رآه وما قرأه وما سمعه وما علمه وما عمله ويعمله وسيعمله ، مملوء النفس بالدعاوى والمزاعم والأنانية ؛ ثم يزعم أنه صلى ! ويصلي هكذا سبعين سنة ولا يذوق من صلاته شيئاً ، لأنه صلى على طريقة الأديان المحرفة لا على طريقة الاسلام ، التي هي التوجه لله كيوم ولدتك

(١) معنى اقامة الصلاة تقويم اركانها واتقان الاتيات بها . لا مجرد الصلاة كما ينوم بعض الناس فان لفظ (إقامة) مأخوذ من أقام الامر أي عدله وأتى به على حقيقته .

أملك متجرداً من كل جمود وتعصب وهوى وعلم معترفاً بالقصور طالباً للهداية ، راجياً للكمال بطرف منكسر ، وقلب منفطر ، ونفس يتصعد ، ومهجة تتوقد حتى يصح أن يقال أنك عبد معبود ، وحتى تكون عرضة للرحمة والعطف . أما لو دخلت المحراب وأنت ظان بعلمك الظنون ، ودائر في محيط مداركك القاصرة ، وحابس نفسك في دوائر معلوماتك وموروثاتك الضيقة ، وموهم نفسك أنك على شيء ، فماذا ترجي أن تنال ؟ لا جرم يكللك الله إلى نفسك ، ويتركك لعلمك ويرقيك على قدر اشتغالك به ، ولكن ليس هذا من الإسلام في شيء .

قلنا أن الذي قررناه هو الفرق بين الاسلام والايمان . والآن نقول أن الامور الإيمانية السنة وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر ، ليست خاصة بدين الاسلام فقط ، بل هي أسس كل دين وقاعدة كل فلسفة قديمة ومحدثه فهي مسائل العالم كله ، وللإنسان في الإيمان بها طريقان : طريق الاسلام وهو طريق الانبياء والمرسلين وطريق الفلسفة والكلام ، أما طريقة الاسلام فهي أن تؤمن بها كما جاءت في القرآن المبين على لسان خاتم النبيين بلا تأويل ولا تحريف ، ولا زيادة ولا تكلف ولا تعسف ، واثقاً بصدق ناقلها وأمانة مؤديها فتكون من « الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا » ، أي على طريقة أصحاب رسول الله مكتفياً بنص الكتاب وصحيح السنة ، معتقداً أن الزيادة والنقص في أوامر الله ونواهيه خروج عن جادة الإسلام وتورط في الضلال ، ملتفتاً لأسرار روحك ومستودع مواهبك ، عاملاً على إعلاء كلمة ربك وإشادة صرح دينك بلا تفهيق ولا ثرثرة ، ولا خوض في مجاهيل ، ولا إفاضة في مساتير .

وأما طريقة الفلسفة والكلام فأن تستورد على عقلك الشكوك والشبه ، وتهم بالرد عليها ثم تنشئ ما يفسد ردودك وتستأنف الكرة عليها ، ثم تجمع تلك الشكوك وأجوبتها والمسائل وحلولها في كتب ضخمة وتزعم أنها الاسلام ، وتكون بذلك قد فتحت الباب لكل متكلم ولكل صاحب مقالة فتكثر المذاهب

والأقويل والشروح وينتهي الحال لكثرة الخلافات باسم الدين بل باسم الإسلام، فتروج سنة الكلام والثرثرة وتضعف سنة العمل لأنها ضداً لا يجتمعان، فيستحيل الدين إلى كلام في كلام... وما بليت أمة بالكلام وتركت العمل إلا انحلت قواها وتحللت عناصرها وتراخت أواخيها وصارت طعمة لغيرها.

يقول قائل وهل تريد أن نعتقد تلك المسائل الست بلا دليل على سنة رؤساء الأديان المبدلة؟ نقول أوَ تظن أن الله تعالى الذي قال «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي» أتاك بتلك المسائل وأمرك بطلب الدليل عليها ولم يأتك بالأدلة عليها فتريد أن تستعين بالفلسفة والكلام على إيجادها وهو سبحانه القائل «ما فرطنا في الكتاب من شيء». اعلم أن الله سبحانه وتعالى قد بعث لك الدين كاملاً وأقام لك على أصوله من الأدلة أقصى ما يمكن الوصول إليه بوسائل هذا العقل، فإن جاش في صدرك بعدها شيء فذلك من ذبذبة النفس واضطرابها بتسلط قوة من قوى الشيطان عليها فلا تبحث عن دوائه في الفلسفة فليس فيها وراء برهان الله مرمى، بل ابحث عنه في القرآن ذاته تجد دواءك فيه بالنص الصريح كقوله تعالى «ومن يوثق بالله يهد قلبه»، «ألا بذكر الله تطمئن القلوب»، «ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين وإِنَّهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون». .. هذا طريق مداواة الشكوك والشبه، وما سلك طريق الفلسفة شاك إلا وازداد عمياً في شكوكه وتوغلاً في شمه «ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور».

لهذا السبب استاء أئمتنا الكرام في عهد المأمون من دخول الفلسفة اليونانية إلى معاهدهم العلمية فقد رأوا رضي الله عنهم الخطر وهو بعيد، ولكن لم يغن استيائهم شيئاً فجاءت الفلسفة بخيالاتها وخرافاتنا لابساً ثوباً منطقياً جديلاً فتنازها بها الناس ومزجوها بالدين، فأصبح دينهم فلسفة خيالية فصار مثلها عرضة للأخذ والرد والشبه والشكوك والقوة والضعف، ولم يزل الحال هكذا حتى ضعف أمر الدين بضعف أهله فوصلنا لليوم وهو عصر المدنية الغربية والشبه

الطبيعية والعلوم التجريبية الحسية ، فلم نلبث إلا قليلاً حتى رأينا حزب الدين أسفل سافلين وأتباعهم طعمة للآكلين : ينقصون ولا يزدادون ، يلحدون ولا يهتدون ، يؤخذون ولا يرجعون ، حتى انتهى بهم الحال لأن يظنوا بالدين الظنون ، بل حتى قال قائلهم : ضل المتدينون ، إنهم لمفتونون ، أما يعلمون أن زمن الأديان فات ، وأن الجامد عليها جاهل مفتات ..

هذا كله حاصل ومحبو الدين في حيرة ، وأكثرهم قد أباس حسرة ، ليأسه من النصرة ، وعودة الكرة ، ومنهم من طلب الدواء لهذا الحال المريع ، بوسائل الزجر والتقريع . وكل ذلك ضاع سدى ، لأنه كائن على غير هدى . فإن ما نحن فيه أثر مدنية الغرب وعلومه على أحوالنا الاقتصادية وقوانا العقلية ، وقد توغلت تلك المدنية وعلومها في أحشاء بلادنا وتشبعت بعقولنا وصارت عمدة أعمالنا وأمورنا لدرجة أصبحت كل محاولة في صدها عبثاً وكل جهد يصرف في قطع الطريق عليها باطلاً. ولما كانت تلك المدنية قامت بمنابذة الأديان المحرفة ، ومعاداة العقائد المبدلة ، فلا مناص لنا من التأثر بآثارها والالتياث بأقذائها ، فلا ينجينا من شرورها والعبودية لأهلها إلا مقارعة أصولها المضللة بأصول أقوى منها كما هو شأن قانون المغالبة في عالم الطبيعة والنواميس ، ولا يقوى على ذلك إلا الإسلام كما جاء به القرآن وبلغه محمد صلى الله عليه وسلم وهو ما قررناه لك في هذه المجالة .

من كان دينه الاسلام كما قررناه هنا من القرآن فلا يؤمل فقط في مقاومة التعاليم الإلحادية الأوروبية بل يطمع أيضاً في إحالة أمم الغرب كلها إلى الاسلام بمجرد معرفتها إياه .

هنا يقول قائل : بماذا نحكم على مقالة حضرة كاتب مبحث الخوارق ؟ بصفي مسلماً على الطريقة المحمدية ، أقول انها رأي من الآراء وقول من الأقوال ، لا علاقة لها بالدين أصلاً ، ولئن كان حضرة الكاتب كتب ذلك وقرره ، ففي الكتاب من هم وإياه على طرفي نقيض ، وربما استدلوا على صدق مذهبهم بأكثر مما استدل

ووجدوا من الأخبار ما يكون على دعواهم أدل، ولكن هل هذا من الاسلام ؟
هل فعله نبي الاسلام ؟ هل ذكره كتاب الاسلام ؟ هل قوله شرط في الاسلام ؟
هل فعله قاعدة من قواعد الاسلام ؟ لا بل هذه كلها أقوال متعارضة ، وأقوال
متناقضة اختلف فيها الناس قديماً وحديثاً وفي كل ملة ، وكان سبب اختلافهم
في المدارك والمشارب ، سبباً لاختلافهم في المدركات والمذاهب ، ولكن الدين
وراء ذلك كله . الدين أن نعتقد بالله ورسله وملائكته وكتبه واليوم الآخر
والقضاء والقدر على ما جاء في كتاب الله وسنة رسوله ، أما ما زاد على هذا من
الأقوال والدعاوى ، فأراء لا يكلف بها مسلم ، ولم تقم لها دعوة في دين الله ،
وليست هي من الأمور التي تقام لها دعوة مستقلة ، بل هي من الأمور التي لك
أن تعتقد صحتها وعليك عهدتها ومسؤوليتها، ولك أن لا تصدقها ، وليس عليك
سؤال فيها يوم الحساب ، وليس لأحد بوجه من الوجوه أن يقرر أنها من الدين
أو أن اعتقادها شرط من شروط اليقين ، وإنما الدين : هو ما جاء في القرآن
وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

* * *

ملاحظاتنا على مقالة حضرة الكاتب^(١)

نحن لا نقصد بهذه الملاحظات الجدل ، وإنما نقصد زيادة بيان معنى الاسلام على الطريقة القرآنية والأسلوب المحمدي ، وليعلم الناس معنى قولنا . إن الدين الذي كلفنا الله به ، هو ما بين دفتي المصحف الذي عمل به رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، أما ما زاد عنه من باب التوسع والتأويل ، فأراء وأقوال ليست من الاسلام ، وإنما هي آراء الناس عورضت بمثلها وحصل الأخذ والرد فيها قرونًا طويلة ، ولم تزل لليوم عرضة للقليل والقال وكثرة الجدل . لا نقول لمن عمل به كافر أو مشرك ، لأن هذا الحكم من حق الرب سبحانه وتعالى ، فهو عالم بالسرائر ، وإنما نقول أن من يعمل بها بعد ما يثبت له أنها زيادات وآراء ، فعليه تبعثها وهو وحده يسأل عنها ، ولا ينجيه قوله إني رأيته في كتاب أو سمعتها من أستاذ ، فإن الله لا يقبل هذه الدعوى من أحد ، فليختر المسلم لنفسه خير السبل « ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » .

أنا هنا أنبه قارئني بأني ممن يعتقد أن لله أولياء منحهم من مواهب الكرامة مقاوم لا يحوم حولها الخاطر ، ولا يتوهمها إلا من وصل إليها ، وأعتقد أنه قد يصدر عنهم من خوارق العادات ما يحير المدارك ويدهش الفكر ، ولكنني من جهة أخرى أعتقد أن هؤلاء الأفراد ما نالوا مراكزهم هذه إلا بسيرهم على خطة رسول الله خطوة بخطوة ، وبعملهم بكتاب الله على قدر جهدهم . لا أرفعهم عن مستوى البشرية ، ولا أغالي في وصفهم بما لم يصفهم الله به فهم لا يدعون ولا يستغاث بهم ولا يتخذون وأسطة بين الله وعباده ، وكل ما لهم علينا أن نعتبرهم قدوة صالحة وأسوة حسنة . هذه عقيدتي فيهم . أما ما يعملها العامة

(١) انظر الفصل الخاص بخوارق العادات والأسباب العادية .

من رفع القباب على صلحائهم وإيقاد السرج على قبورهم والتوسل والاستشفاع بهم وهم في قبورهم ، فليس من الإسلام ولا بما وصى به نبي الإسلام ولا بما كان يتوهمه الناس توها في صدر الإسلام . لا أقول لمن عمله أنه كافر أو مشرك فتلك ألقاب ليس لي أن أصم الناس بها ، وإنما أقول أن من يفعل ذلك فهو على غير صراط محمد صلى الله عليه وسلم ، وعلى غير طريقة القرآن الذي يهدي للستي هي أقوم ، وأنها آراء ناس على من يقلدهم فيها العهدة والتبعة والمسؤولية « كل نفس بما كسبت رهينة » .

إن كنا نعتقد أننا أهل الإسلام وحزب الرحمن ، ومخاطبون بهذا القرآن وأن ما فيه مما بكّست الله عليه أهله وعاب لهم فعله ، يقع علينا مثل وزرهم إن فعلناه ؛ فهذا هو القرآن بأزاء ما قاله حضرة الكاتب .. :

قال حضرته : « وكما أنه لا يقال لمن اتخذ الأسباب الكونية العادية واسطة في أحواله وشؤونه المعاشية كافر أو مشرك كذلك لا يقال لمن اتخذ (خوارق العادات) واسطة مشرك أو كافر أيضاً » . نقول أما اتخاذ الأسباب الكونية العادية واسطة في الأحوال المعاشية فمنصوص عليه في القرآن والأحاديث ، قال تعالى : « ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة » ، « فامشوا في مناكبها واكلوا من رزقه » ، « فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله » ، « وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها » . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (سافروا تصحوا وتغنموا) ، (ما أعال من اقتصد) . ولكن ما قاله حضرة الكاتب من قوله — اتخاذ خوارق العادات أسباباً — فلم يأت في الكتاب ولا في السنة . فهل يستطيع أحد أن يقول أنه من الدين بعد هذا ؟ لا ! إنه ليس من الدين ولكنه رأي لك أن تعتقده وتحتمل تبعته وعهده ، ولك أن تقول كما قال الملائكة « سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا » .

قال حضرة الاستاذ : « الاستغاثة بالنبي صلى الله عليه وسلم وإخوانه النبيين والمرسلين وبالأولياء الصالحين هي عبارة عن سؤال الشفاعة منهم لقضاء الحوائج

ورفع النوائب وتفريج الكرب ، ولا ريب أن كل من يناديهم من المؤمنين قد علم أنه لا يعبد إلا الله ، ولا يفعل ما يريد وينج ما يطلب إلا الله وليس هؤلاء إلا شفعاء فقط .

نقول: أما قوله الاستغاثة بالنبيين والأولياء الصالحين ، فلم يسمع مثل هذه اللهجة في صدر الإسلام ولا في عصر التابعين ولا من بعدهم . أما القرآن فخلو منها بالمرّة وكله دعوة لتمحيض الاستغاثة به وحده ، وزجر عن يدعو لكشف الضر غيره ، قال تعالى : « فلا تدعوا مع الله أحداً » ، « أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب » ولو كانت الاستغاثة بالأنبياء والمرسلين من الدين لجاءت ولو آية واحدة تشير إلى ذلك ، وقد حكى الله دعوات النبيين والصالحين وتوبة التائبين من عباده المقربين واستغاثات المنيبين من أوليائه الطيبين ، فلم يأت في خلال دعوة من تلك الدعوات ما يشم منه أن نبياً أو صالحاً أو تائباً استغاث بغير الله في كشف ضره وتفريج همّه وقضاء حوائجه ، وقد أمر الله بالدعاء والتوبة في مواطن كثيرة فلم يشر إلى الاستغاثة بغيره أبداً ، وهذه سنة رسول الله من أولها إلى آخرها لا يوجد فيها ما يشير إلى أن الاستغاثة بغير الله جائزة لأحد من الموحدين ، ولم يسمع في كلام أحد الصحابة من الأنصار والمهاجرين ولا في كلام التابعين ولا من تبعهم حدوث الاستغاثة بأحد من الناس دون الله . وهذه كتبهم بين أيدينا ومقالاتهم وخطبهم في أشد المواقف وأخرجها ولم نسمع بأن القائد فلاناً المحصور صاح أغثنى يا فلان أو أدركني أو ساعدني أو أمدني ، بل كان طلبهم كله موجهاً لخالق الكل وحاكم الكل ، إنما غاية ما ورد من طريق الآحاد جواز التوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم كقول القائل : « اللهم إني أسألك برسولك محمد أن تكملني وتهديني » ، وأنت ترى التوسل غير الاستغاثة إذ الاستغاثة تقتضي نداء المستغاث به والترامي بين يديه ، أما التوسل فلا يستدعي دعوة المتوسل به .

قال الأستاذ: —وليس هؤلاء إلا شفعاء فقط— وهي لهجة حادثة لا توجد في

كتاب الله ولا سنة رسوله ولا كتب المؤلفين من الأئمة المجتهدين فليست هي وكلمة الاستغاثة من الدين ، ولو تسامحنا في قبول الألفاظ التي لم ترد في القرآن وهو أفصح كلام ، ولا في حديث رسول الله وهو أبين الحديث ، جرّ ذلك إلى اعتقاد مدلولاتها والتوسع فيها وسرى عليها ما يسري على الدخيل من الكلام ، وفهمت منها الأفهام على قدر محصلها ، وخرج بذلك الناس عن دينهم من حيث لا يشعرون . وهذا سبب تحريف كل ملة .

قال الأستاذ في تفسير قوله تعالى « وابتغوا إليه الوسيلة » : الوسيلة ما يتوسل به إلى الله تعالى من عمل صالح أو عبد صالح .

نقول : أما قوله (من عمل صالح) فقد وردت في كثير من آيات القرآن ، أما قوله أو عبد صالح فلم ترد في القرآن ولا في الحديث ولا في التفاسير التي كتبت في عصر التابعين ومن تبعهم . ولم ترد إلا في كتب بعض المتأخرين . ولا يخفى أن المتقدمين أعلم باللغة وبالدين من المتأخرين ، وإن أضفت إلى ذلك أن الصحابة وتابعيهم لم يفهموا من الآية إلا التوسل بالأعمال الصالحة فجحدوا واجتهدوا ، ولم يتوسل بعضهم ببعض ، بل ولم يرد لذلك أثر من ذكر في كل خطبهم وكتبهم ، علمت أن هذه كلمة حادثة ليست من الدين ولا تقبلها فيه .

قال الأستاذ : (وجعل العبد الصالح وسيلة إلى الله تعالى إنما هو من إعظام جانب التوحيد لأن من شهد سوء حاله وكثرة ذنوبه لا يجد له وجهاً ولا سبيلاً للسؤال من ربه ، فتجتمع همته على التوسل لله تعالى بأوليائه وأحبابه اعترافاً بالذنوب وانكساراً للرب وإعظاماً لجانب القدرة الإلهية وإيماناً بأن الله هو الفعال لما يريد) .

نقول : الله أعلم بمصلحة عباده ودينه ، وقد خاطب الله الكافرين والمترفين ووجه اليهم القول وطالبهم في كتابه المبين بالتوبة وعلمهم كيف يتوبون فقال تعالى « استغفروا ربكم إنه كان غفراً » ، ولم يقل ولا في آية واحدة أن الكافر

الملتات بالذنوب السيء الحال الذي لا يجد له وجهاً للسؤال من ربه عليه أن يتوسل إليه بأحد من عبيده، وقد خاطب النبي صلى الله عليه وسلم كفار قريش وغيرهم ودعاهم للتوبة والإنابة ولم يشترط لهم أن ذلك لا يقبل منهم إلا إذا توسلوا له بوسيلة. اللهم إن هذا ليس من الدين. أما ما استدل به الاستاذ من استغفار الرسول للتائبين فذلك ليس من التوسل ولا الإستغاثة وإنما هو من قبيل مساعدتهم في الطلب، وهذا جائز لنا بعضنا مع بعض .

قال الأستاذ: وقد صح صدور التوسل من النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وسلف الأمة وخلفها، أما صدوره من النبي صلى الله عليه وسلم فقد صح في أحاديث كثيرة: منها أنه كان من دعائه (اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك)، ثم قال الأستاذ أنه صلى الله عليه وسلم دعا بهذا الدعاء وأمر به أصحابه حتى ما كان أحد من السلف إلا كان يدعو به .

نقول: القاعدة عند أئمتنا المجتهدين (إن صح الحديث فهو مذهبي) ، فلو صح هذا الحديث جاز للمسلم أن يقول: (اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك) دون أن يزيد عليه من عنده أسماء وألقاباً كأنه شهد توزيع المواهب في عالم القدس وما وراء هذا العالم . نعم ، إن صح الحديث جاز أن يدعو بهذا الدعاء دون أن يزيد عليه لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم بالله وأفصح لساناً وأطلب لمراضى الله ومحابه وأوثق برحة الله وحسن ثوابه من كل من يميل للزيادة على ما قال . أما لو تذرع أحدنا بهذا الحديث فزعم أنه يجوز للمسلم أن يقول (بحق فلان وفلان) فعليه التبعة والعهدة . لا نقول أنه مشرك أو كافر ولكن نقول أنه زاد على ما قاله رسول الله وتعدى الحد الذي رسمه له . ولكن المسلم المتتبع أثر النبي صلى الله عليه وسلم الذي يعتقد أنه جاء بطبب القلوب ودوائها ، وكما أنه لا يجوز الزيادة في تعاليم الطبيب أو التوسع في أوامره والاستبداد بالرأي في زيادة أو نقص مقادير العلاجات التي يصفها ، كذلك لا يجوز لمؤمن أن يزيد على ما ورد من أوامر النبي صلى الله عليه وسلم وهو الطبيب الروحاني الأكبر ، ولا أن ينقص

شيئاً منها إن أراد أن يتأدى إلى الكمال الذي وصل إليه صدور هذه الأمة . وكما أنه لا يجوز لغير أهل صناعة الطب والصيدلة والباحثين في خواص العقاقير أن يزيد في مواد القانون الصيدلي مادة مستنداً في إيرادها على رأيه الخاص ، كذلك لا يجوز لغير النبي صلى الله عليه وسلم أن يزيد برأيه شيئاً مهما كانت الزيادة صغيرة فإن الصغيرة تجر الصغيرة ، والتوسع يستدعي التوسع ، فينتهي الحال بخروج الناس عن صراط الدين باسم الدين وقد حصل ذلك في كل ملة ، بل لا طريق لتحريف الأديان إلا هذا ، ولو ثبت كل أهل دين على ما وجدوا عليه نبيهم ، وقنعوا من الدين بما علمه لهم بالحرف الواحد ، وتشددوا في حفظ مبانيه ومعانيه كما هي ، لما وجدت على سطح الأرض إلا ديناً واحداً ، لأن مبنى دين الأنبياء كلهم واحد ، ولكنك ترى مئات من الأديان في كل دين عشرات من الفرق ، ولا سبب لهذا كله إلا عدم الوقوف عند النص وتناولها بالرأي . ولما كانت الآراء تختلف قديماً وحديثاً كان الخلاف من شأن أهل الأديان وهم جراً ! .. ولكن إلى أين ؟ .. قد جاء العلم بسطوته ، والإلحاد بخيله ورجله يهددنا ويهدد العالم بأسره ، فلعمرك إن لم نعتصم بكتاب الله تنهنا وضللنا ثم لا يفيدنا انتصارنا لرأي فلان ولا لفكر غيره .

قال الأستاذ : « حصل قحط في خلافة عمر فجاء بلال بن الحارث رضي الله عنه الى قبر النبي صلى الله عليه وسلم وطلب منه أن يستسقي لأمته فسقوا ، وفي النداء والتوسل والتشفع والاستغاثة . الخ » .

نقول : هب أن هذا الأثر ليس بصحيح فقط بل متواتر أيضاً لا يمكن الشك فيه . فهل كل رأي يراه أحد الصحابة يعد من الدين؟ الدين كمل بالقرآن والسنة النبوية وما يبيح بعد ذلك من الأقوال والأعمال فأراء يجوز أن تكون حقاً وأن تكون غيره ، لأنه لم يقل أحد بعصمة غير الأنبياء فمن شاء أن يقلد ذلك الرائي في رأيه فليفعل وعليه العهدة . ولكن لا تنس أنه قد حصل في خلافت الخلفاء الراشدين فتن كادت بها الدولة تتزعزع من أساسها ، ولم يسمع

أن أبا بكر ولا عمر ولا عثمان ولا علياً ولا أحداً من كبار الأصحاب رضي الله عنهم فعل كما فعل بلال بن حارث ، مما يدل على أن هذا رأي رآه لنفسه ففعله وهو مسؤول عما فعل ، ولو كان للصدر الأول أقل رأي في نداء النبي صلى الله عليه وسلم والاستغاثة به على الطريقة المعروفة الآن لدى العامة بالنسبة للصالحين لما وجد زائره مخلصاً إلى ضريحه من كثرة المحيطين به والمطيفين حوله ، ولكانت الكتب مشحونة بأنواع الاستغااثات المؤثرة مما تسمح به بلاغة الصحابة ، ولكن الأمر بالعكس فلا يكاد يصادف الباحث من أمثال ما أورده الأستاذ إلا حوادث فردية يتصيدا الإنسان تصيداً .

إن قيل ألا ترضى أن تكون على مذهب أحد الصحابة ؟ — أقول : للمسلم إمام واحد وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو مرجع الكل وقودتهم فلا يقتدى إلا بفعله ، ولا يحتذى إلا مثاله . هذا أصل جميع الأئمة في أمثال هذه الأحوال .

يقال : وكيف توفق بين هذا وبين قوله صلى الله عليه وسلم « أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » — أقول : لم يقل أحد بأخذ الحديث على إطلاقه بل في الحديث تفصيل لا يخفى على ذي فطنة . وإلا ففي الصحابة من أمر بقتل عثمان رضي الله عنه فهل يؤخذ برأيه في ذلك ؟ وفيهم من خرج على علي رضي الله عنه وحاربه بالسيف فهل يقتدى به في خروجه ؟

هب أن الإنسان له أن يقتدي بما فعله بلال بن الحارث رضي الله عنه من الاستسقاء للناس وهي مصلحة عامة ، فهل ذلك يسمح لنا أن نقيس عليه ما عليه الناس اليوم من الذهاب إلى القبور والتطواف بها وإيقاد السرج ورفع القباب عليها ، والباسها العمام وإعلائها فوق الحد الشرعي وإدخالها في المساجد والطلب إلى أصحابها كل صنوف المطالب الشخصية مما يبعثه الطمع والحقد والفتنة . الخ . مما ترى عليه الناس رجالاً ونساء ؟ هل ما فعله ذلك الصحابي من طلب

الاستسقاء للمصلحة العامة يبيح للمسلم أن يقر العامة فيما يفعلون من ضروب الجهالات التي يأبأها الشرع والعقل والذوق ؟

قال الأستاذ : « والحق أنه لا معبود إلا الله ولا تأثير لغير الله ، وأن التوسل والاستمداد والاستغاثة والاستشفاع بالأنبياء والأولياء في قضاء الحوائج الدنيوية والأخروية جائز عقلاً وشرعاً وحاصل فعلاً بمحبة الله تعالى وكرامته لأنبيائه وأوليائه المنقولين ، وكرامات الأولياء ثابتة بالكتاب والسنة وواقعة بالفعل لهذه الأمة من زمن نبيها صلى الله عليه وسلم إلى اليوم » .

نقول : أما التوسل فقد ورد في بعض الأحاديث المروية عن الآحاد ما يدل عليه ، وقد رأينا في باب الدعاء من (إحياء علوم الدين) لحجة الاسلام الغزالي رحمه الله دعاءً منقولاً عن النبي صلى الله عليه وسلم فيه (اللهم اني أسألك بنبيك محمد. الخ ..) ولا ينقل مثل الغزالي أمثال هذا إلا إذا رآه جائزاً . أما قوله : (والاستمداد) فلفظ محدث لم يرد في قرآن ولا حديث ولا أثر قديم ولا على لسان إمام مجتهد من أئمتنا فيما نرجو . وقد قرن الله تعالى الإمداد بذاته العلية في كل موضع ذكر هذا اللفظ ، فلا يجوز إطلاقه على غير الله في الدين لا لغة ولا مجازاً ، لأنه من باب الزيادات في الدين التي تقبل التأويل والتوسع وتستدعي نظائرها من الألفاظ المحدثه فنخرج عن صراط الدين من حيث لا نشعر والعياذ بالله. ولماذا يستمد الانسان من غير الله؟ أليس من ورد البحر استقل السواقيا ...؟ أما قوله (الاستعانة) : فلم ترد أيضاً في لغة الدين الرسمية وهي لفظة محدثة وقد ورد في الحديث (وان استعنت فاستعن بالله) ، فلا يجوز في الدين أن يستعين أحد بأحد غير الله . — أما قوله (والاستغاثة) : فمثل سابقيتها اصطلاحاً محدث بعيد عن صبغة الدين وقد ورد في الحديث ولا أدري أرايته في الجامع الصغير أم كنوز الحقائق (لا يستغاث بي إنما يستغاث بالله عز وجل) — أما قوله (والاستشفاع) : فلم يرد في القرآن بالمعنى الذي يريده الأستاذ إلا مسنداً إلى إذن الله . قال تعالى « وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من

بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى . فالشفاعة واردة ولكن على أن الله هو الذي يأمر بها ، قال تعالى « من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه » ، فطالب الشفاعة والحالة هذه لا يليق أن يطلبها من نبي ولا رسول بل من الله تعالى كأن يقول - اللهم شفّع فيّ رسولك - كما أورده الأستاذ من حديث عثمان بن حنيف في قوله (اللهم شفّعني) ، فصار طلب الشفاعة من غير الله غير وارد في الدين .

يقول قائل : ما هذا الوقوف مع النصوص ؟ هل على الرجل من حرج إن قال لأخيه في الدنيا أمدني من قوتك ، أعنّي بحولك ، أغنيّ بجاهك ومالك ، اشفع في عند الأمير .. الخ .. مما اعتاده الناس في لغاتهم ؟ إن قلتم لا حرج فلماذا لا يجوز له أن يقول ذلك لأخيه الميت وهو يعتقد أن فيه قوة وقدرة على ذلك .

نقول : اصطلح أهل الملل على أن العالم عالمان : عالم الجسد وله شؤون وعلاقات وأحوال مادية كلها محسوسة اصطلاح الناس على تسميتها باسم جامع وهو (الدنيا) ، وعالم غير محسوس فوق هذا العالم يعلو عن مشاعرنا وعقولنا وله شؤون وأحوال لا نسبة بينها وبين هذا العالم المادي اصطلاحوا على تسمية شؤونها وما يتعلق بها من عقائد باسم جامع وهو (الدين) ، وقد كلف الانسان قديماً وحديثاً بالخلط بين شؤون الدنيا وشؤون الدين ليميله للمحسوسات ، فكوّن القدماء أديانهم على هذه القاعدة وفرضوا لهم آلهة لهم وجوه وأيدي وأعين وعواطف وانفعالات فجاءت الأنبياء بالتوحيد والتنزيه فدحضت حجة المشبهين وأقامت أمماً على صراط الحق المبين ، ولكن كانت تلك الأمم لا تلبث بعد موتهم أن تعود لما كانت عليه من تشبيه شؤون هذا العالم بشؤون ذلك العالم مع ما بينها من المنافاة الشديدة والفارق الجسيم ، ولكن لما ارتقى العقل الانساني وتوسعت المدارك في المعرفة ، أنف الناس تشبيه الخالق بالإنسانيات فقدسوه عن ذلك ، ولكن صعب عليهم أن يتركوا ما جمدوا عليه بالوراثة فكونوا لهم أدياناً على قدر ما يعرفون من أمور الدنيا ، وعندهم أن كل جائز عقلاً جائز ديناً أيضاً ،

ولم يعلموا أن هذا العقل ابن هذا العالم الجسماني ، وللعالم الروحاني (عقل أسمى منه) وهو ما يوهب للأنبياء والمرسلين بلا كسب فيدركون به ما لا يدركه الناس ويرون به ما لا يرون ، مما يوجب على كل (عاقل) أن يسلم عقله لرسول الله مع اليقين التام بأنه لو اتبع عقله الخاص لأصبح دينه على قدر عقله ، وأين هذا العقل مما خفي عنا علمه من عوالم الغيب والمعاني المجردة . ولو أردت أن تعرف تخالف شؤون العوالم بمثال محسوس فأليك : هب أن الأجنة في بطون أمهاتها يكون لها عقول تناسبها وقد جاءها ما أشعرها بأن وراء عالم الأرحام عالماً يقال له عالم الدنيا سينتهي الجنين إليه بعد أن يضي في سجنه المظلم وقرارته الحرجة زمناً ما ، وعلمت أن الأجنة التي كانت قبلها موجودة في ذلك العالم الواسع الزاهر (عالم الدنيا) وأنهم فيه متمتعون بما لا يخطر على بالهم من حرية وانطلاق ومدارك ولذات حسية ومعنوية وأن لهم من الحول والحيل والسلطان في الطبيعة ما لا يتخيله وهو في سجنه المعتم ، هذه الأجنة ان علمت ذلك عنا فهل كل ما يجوز لها عقلها يكون له نصيب من التحقق ؟ هب أن جنينا منها قال : بما أن أبي في عالم الدنيا ؛ ذلك العالم الواسع الطلق ، وهو متمتع فيه من الحول والقوة والوسائل بما أعجز عن تصويره وبما أنه يود أن أقضي مدة وجودي في عالمي هذا ، عالم الأرحام ، الزمن المقدر ثم أنتهي إليه بسلام لأعيش معه في صفاء ونعيم ، وبما أن رأسي قد انخرقت عن موطنها الطبيعي الأمر الذي يجبر لو دام إلى تشوه في العنق وفي الجبهة أو عسر في الولادة ، وبما أن سماعه صوتي وإمكانه تقويم عوجي بوسائله أمر يجوز عقلا فهو ممكن فعلاً ، فيدعو والده ويسلك في أمر معتقداته هذا المسلك فيجمد على كل ما جوزه عقله حتى يكون لنفسه جوا موبوءاً من أمثال هذه المعقولات الوهمية ؟ ومن يقتنع بالوهم يوشك أن يتردى في مهاويه فيهلك .

لا مشاحة في أن عالم الأجنة أدنى من عالم الدنيا في كل حيثية وإن الإنسان في العالم الأول ضعيف ضئيل محتاج عرضة للاخطار والمهالك بضنوفها ، وإنه في الثاني على شيء من القوة والحول والغنى وأقل عرضة للاخطار والموبقات ،

وزيادة عن ذلك فهو حي حياة انسانية ومتمتع بالمدركات العالية والمعلومات النظرية ، ولكنك تراه مع ذلك لا يتسلط على عالم الأرحام الا من جهات عامة كتأثيره على الأمهات بالتربية والهداية أو الافساد والغواية ، ولم تزل قواه العقلية ومواهبه الجسمية أعجز من أن تسعف الجنين بشيء من قبيل ما يفيدده خاصة ، ولم تنفك مشاعره قاصرة عن إدراك حاجة ذلك الجنين منه مباشرة ، فانظر كيف أن تخالف العالمين أحدث بين شؤونها من التباين ما يجعل المعقول لدى أبناء أحدهما غير ممكن لدى أبناء الآخر مع سمو أحدهما على الآخر سمواً لاحد له . فاذا أراد أحدهما أن يجعل كل جائر بعقله المكتسب من هذا العالم ممكنا في ذلك العالم ثم يرتقي من فرضه أنه ممكن إلى ضمه إلى عقائده وجعله ركناً من أركانها ، ثم يتدرج من ذلك إلى عده من الدين ووصم كل من لا يرضخ له بأنه مبتدع على غير مذهب أهل السنة ، فذلك من لا يرى لعقائده حداً يقف عنده ، لأن الجائزات التي يحوزها هذا العقل الدنيوي لا تحصر ، كما أن الخطأ في المعقولات لا يحصر أيضاً فيكون أمر المتدينين على هذه الصورة خطراً عليهم جداً . ولكن أين هذا من الاسلام الذي قانونه القرآن وأين هذا من السنة التي هي ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم لا غير ؟ أين هذا من دين أبو بكر وعمر وعثمان وعلي والأصحاب الكرام والأنصار العظام الذين أصبحوا مفخرة ملوك الأرض وآية ملائكة السماء ؟ .

الدين الحق الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم هو أن نقف بعقائدنا في الحد الذي رسمه القرآن وأن لا نحكي الأمم التي اتبعت أهواءها وظنونها التي يقول الله عنها « إن هم إلا يظنون » « إن هم إلا يخرون » « واتبعوا أهواءهم ولقد جاءهم من ربهم الهدى » وإذا كنا نستسلم لظنوننا ونستقيم لأهوائنا وكل ما يحسنه خيالنا ونرضخ لكل ما رواه من قبلنا بلا محاكمة ولا مناقشة ، فما معنى أننا مسلمون إذن ؟ ما معنى نعينا على الامم التي اتبعت أهواءها سوء حالها وشر منقلبها وقد حاكيناهم في اتباع الأهواء والاستنامة لسلطان الخيال ؟ وإذا كنا نزيد في ديننا كل ما هو جائز بعقلنا هذا القاصر فإذا تركنا للأمم

التي سبقتنا وأبادهها الله لغوايتها ؟ وهل غوت تلك الأمم وخرجت عما حده الله لها في كتبها وعلى لسان رسلها إلا بمتابعة أهوائها ومحسنات ظنونها والرضوخ لعوائدها ؟ وإذا كنا على هذا المثال في ديننا فما معنى الاسلام الذي نقول انه الدين العام ، الدين الحق الذي سيرضخ له الناس أجمعون ؟ أليس هو الدين العام لأنه الواقف بالعقائد موافقها الفطرية ، الآتي بها في بساطتها الالهية خالية من كل صبغة بشرية ، وآثار قومية ، وعوائد بلدية ، ولأنه مما يرضخ لاصوله بالفطرة ، ويخضع لسلطانه بالطبع^(١) ؟ إذن فكيف نزيد عليه بما نجور به عقلا ، ونستحسنه فكراً ، ونتصيده بالقياس ، وتتناوله بالتكلف والتعسف ، لعمرك أن لكل أمة فلسفة دينية متينة الأساس مستندة على قوانين المنطق أي استناد ، فلا يحسن أحدنا أن أحقر وثنى في العالم فقير من فلسفة عقلية في غاية الاتقان ، فان قابلنا الوثني بمعقولتنا قابلنا بمعقولاته ، وان جادلناه بمحائزاتنا جادلنا بمحائزاته وصرنا وإياه في كفتي ميزان واحد ، وهل هذا هو الاسلام الذي أعرض عن الصبغ الخاصة وجاء بالفطرة العامة ، الذي أضرب عن التقاليد المخترعة وجاء بالعقيدة الأولية في حلتها الالهية ؟ ولو كان من شروط الاسلام تمييز شعب على شعب أو تقديس رجال قوم دون رجال قوم آخرين ، أو اعلاء معقولات على معقولات ، لما كان الاسلام هو الدين العام ولما كان لأبائنا حق في عرضه على الناس بهذه الصبغة ، لأن لكل شعب أمانية وعجباً بنفسه لمفاخر سابقة ، ومحامد مؤثرة ، وما من قوم إلا ولهم اجلال واحترام لرجال منهم غلوا فيهم فرفعوهم الى مقام الملائكة ، ودونوا لهم من الفضائل والحلائق ما لا يتوفر مثله الا للملك مقرب أو نبي مكرم ، ثم ما من طائفة إلا ولها معقولات مناسبة لدرجتها في العلم وحالتها من التربية فلا يتصور الانسان أن يكون هنالك دين عام يرضخ للشعوب عن طيب خاطر ، ويليق أن يسمى دين الفطرة حقيقة إلا اذا علا بطبيعته عن كل

(١) انظر ما قرأناه عنه في مقدمة هذه المقالة .

هذه الخصوصيات القومية التي لا يمتاز شعب عن شعب فيها والتي هي سبب تنافر الامم وتحاقدها من قديم الزمان إلى اليوم .

أما من جهة تمييز شعب على شعب فقد وضع الاسلام له حداً لا يتعداه إلا من ظلم نفسه فقال تعالى « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا » . بهذه الآية أصبح لا فخر لأمة على أمة ما دام الكل مخلوقين من أب وأم واحد . من هنا تنمحي الانانية التي تسوق الأمم للتنافر والتفاخر ويحل محلها ميل عام للاتحاد والتقرب كما حصل بين سائر قبائل العرب التي كان بينها من الإحن ما ليس بين الأمم المتخالفة في الجنس والمذهب .

وأما من جهة تقديس رجال قوم دون رجال قوم آخرين فقد حكم الله فيه بحكمه الفاضل ، فقال تعالى « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » . ولكن كل قوم يزعمون أن رجالهم أتقى فهم أكرم فردّ الله على أمثال هؤلاء بقوله تعالى « ولا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى » ، وهو أمر من الخالق بترك الكلام على أقدار الناس ومراكرهم من الكرامة والتقوى له سبحانه وتعالى ، فهو الحكم العدل ومن عصى هذا الأمر فقد افتات على الله وتعرض لمقته .

وأما من جهة المعقولات في الدين فليست من الدين وإنما هي علم والعلم تابع لقانون الترقى في كل أطواره ، ومقى عبرت الأمة معقولاتها وكذلك معقولات غيرها أطفأت من نار التعصب لها وسعت في تقريرها من بابها بأن تحاكمها بقانون النقد والتمحيص فما قوّاه الحس حفظته وما عارض الواقع تركته .



خلاصة ما تقدم

يجب علينا بعد أن وفينا هذا الموضوع قسطاً من البيان أن نوجز الأصول التي قررناها هنا لتكون بمثابة الصورة المصغرة يحيط بها الطرف من أول نظرة متنزعة عن شكل كبير يتوه البصر في أنحائه ولا يكاد يضبطه إلا النظر الطويل ،
فنتقول :

١ - معنى الاسلام أن تسلم وجهك لله مجرداً نفسك من علمك وعقلك وحولك وقوتك وتقاليديك كلها ، الفقر شعارك والخشوع دثارك والتقوى والرجاء والضراعة صفاتك ، متجرداً له كيوم ولدتك أمك على الفطرة لتتحقق عبوديتك ، ولتمحى أنايتك وليصح الاتصال بينك وبينه بلا حجاب من عرض عقلي أو أثر وراثي ، أما لو اتجهت له وأنت مملوء دعاوى ومزاعم ، وفاهم أنك على شيء فأنت إنما تتجه لمعلوماتك ومعقولاتك وليس هذا من الاسلام في شيء .

٢ - الاسلام بالمعنى المتقدم هو دين الأنبياء ومقدمة الفتح عليهم وهو الدين العام الذي يرضاه كل من أدركه ممن يكون قد شُم الجود وعرف مضاره .

٣ - الإيمان أن تؤمن بالأمور الست المبينة في القرآن ، بالله وكتبه ورسله وملائكته واليوم الآخر وقضائه وقدره ، كما جاءت في القرآن الكريم بالأدلة التي نص عليها الخالق العظيم بإزاء كل واحد منها .

٤ - الزيادة على ما جاء في القرآن من الأدلة هو من خلط الفلسفة بالدين ، ومتى اختلطت الفلسفة بالدين تحول الدين إلى فلسفة وصار قابلاً مثلها للأخذ والرد وهو ما يعلو الاسلام عنه لأن الإسلام لا يمكن التفرق فيه .

٥ - دواء الشكوك في أمور الايمان مبين في كتاب الله وهو الذكر وكثرة الطلب من الله للهداية .

٦ - ما طرأ الفساد على الأديان إلا من خلط أهلها العلم بها والذهاب بها مذهب معقولاتهم فيصبح الدين صورة علم الأمة وشكل معقولاتها ، فإذا ترفت في العلم لاحظت فرقاً بين علمها ودينها ، فان تمسكت بدينها تأثراً بالوراثة جيلاً فلا تلبث على ذلك جيلين أو ثلاثة فيثور حزب العلم على حزب الدين فتصبح الغلبة للأقوى ، وحالة أوروبا شاهدة بما نقول ، وكل حوادث التاريخ تدل عليه .

٧ - الدين كمل بقوله تعالى : « أليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي » . وقد أقامه صلى الله عليه وسلم على الصراط الذي لا ينحرف عنه إلا منحرف ، فلا يجوز أن يزداد فيه بالرأي ولا بالعقل شيء مهما كان صغيراً أو كبيراً فان آراءنا ومعقولاتنا تابعة لدرجة معلوماتنا المتغيرة المتحولة وهي ليست من الدين في شيء ، وكل ما جاء به أئمتنا الأربعة وغيرهم لم يحيثوا به بصفة وحي أو بطريقة إجبارية كما فعل زعماء الملل الأخرى . بل قالوا كلهم هذا غاية ما فهمناه والله أعلم . وكانت صلاة بعضهم خلف بعض وتحابهم وتراحهم مع اختلافهم أكبر دليل على علمهم بأنهم لم يختلفوا في الدين ولكن في العلم ، والاختلاف في العلم سنة العالم كله ولا حق لأحد أن يكفر أحداً بدعوى أنه يذهب غير مذهبه .

٨ - العقل الإنساني في هذا العالم خاص بأشياء هذا العالم ولكن مدركات العالم الروحاني لها عقل أرقى من هذا العقل ، يوهب هبة للأنبياء والمرسلين ، وهؤلاء الأنبياء والمرسلون لم يؤديوا لنا إلا ما نستطيع إدراكه بهذا العقل ، وما خفي عنا أكثر مما لا يعبر عنه بلسان ولا يتخيل بيجنان ، فالدين يقضي بأن لا نحكم بما نتعقله في عالمنا هذا على ذلك العالم الروحاني الذي له شؤون وأحوال خاصة ، فيلزمنا والحالة هذه أن نتبع ما قال النبي صلى الله عليه وسلم ، لا تزيد فيه حرفاً ولا ننقص منه حرفاً ، فهو أعلم بمصلحة أمته من أكبر إنسان فيها ، وأدرى بما يجوز أن يفشى لها من الشؤون العلية .

٩ - ما نحن فيه من اللوث والخبث في العقائد والعواطف وما عرانا من

الضعف والفتور في الحياة والروابط الاجتماعية ، سببه فتنة المدنية الغربية بما حملته لنا من غث وسمين وحق وباطل ، وهي تقارع عالمنا الشرقي كله بكل سلاح ، وهي فتنة لا يمكن مقارعتها إلا بأصول أقوى من أصولها وأبعد مرمى ، كما هو شأن التغالب في قانون الحياة ، ولا يقوى على هذه الفتنة من هذه الجهة إلا الاسلام النقي الخالص ، فإن تدرعنا به فزنا ونجونا ، وصرنا خلفاء أمة عظيمة دعت إلى أكبر إصلاح في العالم ، وإن تركناه وتدرعنا بمعقولاتنا ومدركاتنا وبلدياتنا ، فقد استهدفنا لفعل تلك الفتنة من أرق مقاتلتنا وأصبحنا كما نحن نقص ولا نزداد ، حتى ينتهي الأمر بهروب كافة حزبنا إلى الجهة المضادة لنا ، فيتدهورون في تيهور الفتنة ونكون نحن الجانسين على أنفسنا ، والمؤاخذين بجرائنا وجرائهم من كنا سبب هروبهم عنا .

١٠ - هذا هو الإسلام في أصرح معانيه وأخص مرامييه ، فالقرآن والسنة ، وحال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحال أتباعه المهديين دليل حسي عليه ، وهذا مذهب السلف كلهم وأنتمتنا نائبرهم وقد دلت عليه كتبهم تلميحاً وتصريحاً ؛ ومع ذلك كله فلا نقول أننا أتينا بشيء لا يمكن الجدل فيه ، لأن الذي يود الجدل لا يوقفه شيء ولا يبعد أن يتخذ بعض الناس ما نشر في كتب بعض المتأخرين من الآراء والأقوال ، دليلاً على أن ما عليه العامة اليوم من البدع في الزيارات ، وإقامة المقاصير على القبور وإيقاد السرج عليها ، ورفع القباب فوقها ونذر النذور لها ، وإدخالها في المساجد .. الخ .. من الدين بدليل تحليلها في تلك الكتب المحدثه ، فيقولون أن ذلك مذهب الشافعي وأبي حنيفة ومالك وأحمد بن حنبل بمجرد نسبة قائله إلى أحد أولئك الأئمة الكرام ، وهم براء مما يقولون بأفواههم . على أن أولئك الأفراد العظام أتوا بما أتوا به ، ثم قالوا إن صح الحديث ، فهو مذهبنا ، واضربوا بما قلناه عرض الحائط . أنظر إلى هذا الأدب الاسلامي الباهر ، ثم التفت للذين يؤولون الأحاديث والآيات لتنتطبق على ما ألفوه في بلادهم ، وما وجدوا عليه أقوامهم .. « لكل نبأ مستقر وسوف تعلمون » .

خاتمة

يتخيل من يطلع على ما كتبناه هنا أننا من الذين يتشددون مع الظواهر ويحمدون على الألفاظ ، ومن ليس لهم نصيب من جمال الباطن وبدائع الأسرار ، كلا ! إنما ممن يعتقدون أن عالمنا الحسي هذا مهما بلغ من الفخامة والجلالة فلا يقارن بما في العالم الروحاني من آثار الفيض الالهي والاشراق القدسي ، ولنا مباحث خصوصية في الولاية والأولياء والكرامة والالهام والكشف وقد رأينا من ذلك ما يدهش العقل ويحير المشاعر ، ولنا مجالس ونواد نسمر فيها بذكر اللطائف الروحانية والرقائق الصوفية ولذائد الذكر وأنوار الخلوة الخ.. ولكننا لا نمتقد أن هذا هو الدين بل الدين في القرآن بلا زيادة ولا نقصان ولا تحريف ولا تأويل ، وأما ما نميل اليه بطبعنا مما ذكرناه فمن قبيل العلم يجوز علينا فيه الخطأ والقصور والتناقض ، ثم هو عرضة للزيادة والنقصان والأخذ والرد . وما كان كذلك فليس بالدين الذي يقول الله عنه أنه لا يصح الاختلاف فيه ، فالذي لا يصح الاختلاف فيه هو الفطرة العامة التي يشترك فيها الناس كافة وهو الإسلام الذي قررناه من القرآن . أما معقولاتنا وأمبالنا وتجاربنا الخاصة فمما تقبل الجدل والقييل والقال ، إذن فليست هي من الدين بل من العلم . ولا بأس أن يختلف المسلمون في العلم بل ولا مناص لهم من ذلك . أما في الدين فلا ! قال الله تعالى « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء » ، وقال تعالى « أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » ، كبر على المشركين ما تدعوهم اليه الله يحبني إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب » .

الإسلام بالمعنى الذي قررناه مستندين فيه على القرآن ومستضيئين له بحال رسول الله صلى الله عليه وسلم هو آخر مرمى من مرامي الرقي العقلي والروحاني ، وأبعد غاية يمكن أن يتخيلها الحيال الانساني من باحات الكمال النفساني ، فكل مسلم في نفسه يجب أن يكون حادثا جللا وأمرأ عظيما ، وأثرأ رحانيا بديعا ،

وناهيك بإنسان خلص نفسه من أثر كل تعصب وشائبة كل جود ، ونصب ذاته عبداً لله مخلصاً له الدين ، متجرداً اليه من الحول والحيلة والعلم والخيال وكل ما يتخيل أن يكون قاطعاً عن الله وعن قبول فيضه واستشراق نوره . لا جرم أن كل مسلم حادث جلل وآية إلهية باهرة ينشر الكمال والجمال والفضيلة والعدالة أينما ذهب وحيثما تحول ، ويؤيد بكل ما وهب من قوة وما منح من وسيلة دولة الحق وصوله الصديق محارباً الباطل أينما وجدته وبأي صورة ثقفه ، يفعل ذلك مقهوراً بقوة مبدعه مدفوعاً بروح مضوره لا يحب ولا يكسل ولا يخيب ولا يفشل ، كأنه ناموس طبيعي لا يرجع عن متوجهه حتى يؤدي ما سبق اليه على الوجه الذي رسم له . ألم تر كيف ظهر المسلمون الأولون بذلك المظهر الذي حير الأمم وأدهشها ، لم تمنعهم فاقتهم والسخرية المحيطة بهم والعادات والتقاليد التي تساورهم وتحتوشهم والصبغات التي تزعج الجبال الشم المتوجهة اليهم من كافة الأمم التي حولهم من أن يثبتوا على الحق ويؤيدوا الصديق وينابذوا البدع ويصدوا الباطل ، ثم لم يمنعم ذلك عن بسط سيادتهم وسلطانهم على أعظم الأمم مدنية واستعداداً كأمة الرومان والفرس . ما هذا إن لم يكن كل مسلم في نفسه أمراً جلالاً؟ ما هذا إن لم يكن كل مسلم في الوجود حادثاً خطيراً بل قوة إلهية فعالة؟ نعم إن المسلم لما تجرد من نفسه لله كان الله لسانه وسمعه وبصره ويده الخ . . كما ورد في الحديث الكريم . فهل بعد هذا نسعى في أن نجعل الاسلام على مثال الأديان المحرفة بكثرة الخلافات والمقالات التي تقذف بنا عن إدراك كنه معناه وتطوحننا إلى البعد عن مغزاه « ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين » .

* * *

تعليقات وأبحاث ومقالات

(١)

رجال أمام رجال

يتذكر حضرات قرائنا أننا جمعنا في فصل سابق مقالة كتبت في (المجلة) الباريسية تحت عنوان (البيض ضد الصفر) ديجها يراع الاستاذ الفزيولوجي الطائر الصيت (شارل ريشيه) الفرنسي ، وأثبت فيها بالأدلة التشريحية التاريخية سمو الجنس الأبيض على الأصفر ونقص من قدر اليابان وغض من كرامتها ما شاء . ويتذكر القراء أننا قلنا أن (جان فينو) مدير المجلة رد عليه رداً علمياً بديعاً وعدنا بإيراده ليتضح للمطالع من خلال تحاورهما مرمى العلم ومرمى التعصب . والآن لاحت لنا فرصة إيراد تلك المقالة التي هي رد مدير المجلة على الاستاذ (ريشيه) . قال :

« لقد شرفني الأستاذ الفزيولوجي المبعجل بإهدائي مقالته على شكل خطاب ، وإني أبادر بالرد عليه والفضل في هذا الرد زاجع إليه ، ليس فقط لأن الموضوع الذي أثاره وأحمى وطيسه يستحق العناية والالتفات ولكن بالنسبة للمركز الخاص الذي يشغله المسيو ريشيه . فإن حضرته برئاسته جمعية التحكيم بين الأمم

أصبح قولاً وعملاً واحداً من أقوى أنصار السلام والإخاء العام . وإذا كانت عقيدة المسيو ريشيه فيما يرى تخضع أمام تلك المسألة العتيقة - مسألة اختلاف الأجناس - فماذا يكون إذن موقف العقول الأخرى التي ليس لها مثل علو نظره ولا سمو عواطفه ؟

« ومما لا يجب أن يغيب عن الأذهان أنه لو رسخ الاعتقاد بوجود أجناس من البشر كريمة عالية تستأهل انعطافنا وحبنا، ووجود أخرى منحلة تستدعي مقتنا لها واحتقارنا إياها وعدم العناية بها أو تستدعي ما هو أسوأ من ذلك منا وهو ما يسمونه العدل الأوربي ، لوصل الانحطاط بنا لأن نفضي ونصفح عن جميع صنوف الجرائم المضادة للإنسانية التي يرتكبها الأوربي ضد شعب من تلك الشعوب المنحلة في زعمنا .. إلى أن قال :

« إذا قيل أنه يوجد اختلافات بين الأجناس البشرية لا مناص منها فقد أنكروا قانون الترتي وجحدوا بتلك الأصول الأنثروبولوجية وجعلوها نسبياً منسياً ، وينتج من ذلك تناقضات مخيفة مزعجة . فإننا لو فرضنا أن هنالك أمماً واقفة لا تتغير من جهة التشريع والعقل والأخلاق استدعى من ذلك الفرض الإقرار بجملة أمور :

(١) أن العلم والزمن عاجزان عن إحداث أقل التغييرات في أجسامنا وعقولنا .

(٢) وبينما نعتقد بتأثير قانون التدرج في الكمال الذي كوّن هذه الكائنات المنتظمة نرانا ننكر عليه إحداث أقل تغيير في الصفات الثانوية التي تخالف بين أجناس النوع الإنساني . ولكن ما هي طبيعة هذه الاختلافات ؟ يقول قائل أنها اختلافات تشريحية وعقلية وأدبية . لا شك أن بحث كل هذه النقطة تفصيلاً يستدعي بلا أقل شبهة عشرين سفرأ ، فلنكتف بتحليل أصل تلك النقط وهي التي سمحت لهم بترتيب العالم في رتبتين متضادتين : رتبة الكائنات الممتازة ، ورتبة الكائنات التي يجب أن تستسلم لها . ونحن لأجل تمزيق هذه الكسف

المثلبدة من الغيوم الوهمية حول هذه العقيدة الراسخة التي تعد نصف علمية فسنقارعها بالأدلة التي تأتينا عفواً لأن ضيق المقام لا يسمح لنا بإيراد فذلكة أصولية مدعمة .

« لنلاحظ قبل كل شيء أنه لم يقم دليل على أن هذه الاختلافات التشريحية تحدث أثراً لا علاج له على فكر وشعور تلك الكائنات البشرية . وبما يجب أن يلتفت اليه لأهميته هو أن تلك الاختلافات في ذاتها ليست بشيء سوى نتائج الوسط العائشة فيه تلك الخلائق ، فهي تتغير وتتحول تبعاً لتغير وتحول ماثات من الأسباب المكونة لذلك الوسط المؤثر . وهذا (بوفون) المؤرخ الطبيعي أثبت لنا أن الجنس يبقى جنساً قائماً بذاته متى كان الوسط الذي كوّنه موجوداً بذاته لم يتغير ويزول متى تغير ذلك الوسط . (انظر تاريخه مجلد ٥) .

« لنبدأ بذكر اللون الذي يجمع كل الصفات التي يصبم البيض بها من لم يكن منهم . هل اللون علامة أبدية ضرورية غير قابلة للتحويل ؟ هاهم العرب ذوو اللون الناصع يأتون إلى مكة فيكتسبون لوناً أصفر معتماً ويفقدون مع شكل أنوفهم المستقيمة الصفات الفخمية البدوية . وقد يصادف الإنسان في بلاد النوبة عرباً سوداً مع أنهم لم يختلطوا قط بزنج تلك الجهات (انظر بريشار مجلد ٤) . وأطفال الزنوج الذين يولدون في بلاد يتمتع فيها آباؤهم بالحرية والإطلاق يحيثون بيض العيون ويكتسبون صفات تقرهم إلى البيض شيئاً فشيئاً . وقد نقل دوربيني ، ولويس ، وديه .. الخ .. بأن أغنياء الزنوج المستقلين يقربون منذ الجيل الثاني من اليهود السمر . وفي غينا ترى الزنوج المتمدين يقربون من البيض ويحدث في شكل أدمغتهم مثل ذلك الترتي بعينه (عن : الدكتور هنكوك) . وقال (فير كو) أن الوسط الذي يعيش فيه الانسان يجعله أسمر أو أشقر على حسب الأحوال ولقد سبق كل هؤلاء القائلين هيرودوت وأرسطو وأثبتنا تأثير الوسط في تلوين الناس . نعم إن الوسط بعوامله الكثيرة المتشعبة ، مثل الضغط الجوي والرطوبة والغذاء والضغط الكهربائي ومقدار الأزوت الموجود

في الهواء وشفافية وصفاء السماء وطبيعة الأرض .. الخ .. هي الأسباب التي تؤثر على تلوين المادة الجلدية تأثيراً حقيقياً ، وليست بمجهولة علينا تلك التجارب التي عملها (بول برت) على ديدان أكسولوتل حيث أثبت إثباتاً قطعياً بأن النور له فعل كبير على تلوين المادة الملونة لاسيما بواسطة سرعةذبذبة تياراته . وتلك الحيوانات الثديية المحتملة من الأراضي البائرة الآسيوية بواسطة (برجوالسكي) كانت ذات وبر أشقر أو أصفر باهت متجانس فأصبحت غير ملونة بوجودها في أراض لا ظل للأشجار فيها .

« وفي بلاد الحبشة يأخذ لون الأهالي في القتامة كلما صعدت على الهضاب أو ينجلي كلما هبطت السهول في (عبادي) . وهناك مناخ جزائر الاتحاد له فعل عجيب في التلوين ، وذلك أنه يجعل الألوان شقرا ولا يسودها حتى أنك لترى الذين يولدون في تلك المستعمرات من الأوروبيين شقراً جداً .

« لننظر خطوة للأمام فنقول : التجارب أثبتت أن الشمس لها تأثير كبير جداً في إحداث الألوان على الحيوانات والنباتات . وشوهد أنه لو أخذ طلع الزهر المسمى (بيتونيا) قبل نضجه وعرض لشيء من الحرارة أنتج أزهاراً ذات ألوان ليست لأصولها المأخوذة هي منها .

« وهؤلاء هم الصينيون الذين يولدون في كاليفورنيا بأمريكا يفقدون في جيلهم الثاني شدة اصفرار ألوانهم ، وهيئة جلودهم تقرب شيئاً فشيئاً من جلود البيض المجاورين لهم .

« وليس بنسأ حاجة للكلام على القصر والطول فإنه بيننا نرى قصر اليابانيين نرى أن في الصين شعباً ممتازة بطول القامات وارتفاعها . ولا مشاحة أن في هذه المسألة أيضاً للعوامل الوسطية تأثيراً لا يصح التردد فيه . فلنستعرض أمثلة على ذلك من القطر الفرنسي نفسه الذي يسهل تحقيق ما نرويه عنه بسهولة ، كما أبانه « دوران دوجرو » بفصاحته المدفقة عن أهالي مقاطعة « أفيرون » ، قال : بيننا نرى الرجل من « كوس » وهي تلك الجهة الكلسية يتغذى من الخبز

الحشن مصنوع من الشعير والشوفان ويشرب من المياه الصافية فيكتسب نمواً كبيراً في مجموعه العظمي ويصل لمنتهى الطول البشري ، تجدد الأفيريوني نفسه ساكن الأراضي المشجية التي تنبت الجاودار والكستنة والنبق يعرف بقصره المتناهي في بعض تلك الاقاليم .

« وقد أوضح مثل هذه المشاهد « ماني » في كتابه « الزراعة العملية » فقال : الإنسان يرى مثل ذلك الخلاف في الوادي الواحد بالنسبة لاختلاف طبيعة ضفتيه ، فهذا مكون من أراض سليسية وآخر من أراض كلسية ولا يفصل بينهما إلا غدير صغير . فيرى في الجانب الثاني الغنم القوية المربعة والثيران البادنة ويرى في الأول الحيوانات النشيطة الشديدة الحيوية ولكنها قصيرة قنوع خفيفة . ومتى جلبت ثيران « أوبراك » إلى ريف « أفيريون » بمقاطعة (فارن) تبلغ طولاً لم يكن لها في مراعيها البركانية في بلادها الأصلية ، فتصبح طويلة ضخمة ضخمة .

« وأثبت « كولينيون » في « مذكرات الجمعية الانتروبولوجية . في السلسلة الثالثة من المجلد الأول » أن طول الفرنسيين تابع مباشرة لخواص الأراضي التي يسكنونها . قال إن سكان « بلوك ولو فاللون و كنتان » من مقاطعة « سان بريك » العائشين في الأراضي الطفلية الرطبة القاحلة الممنونة بالقطع البائرة ، لا يبلغ طولهم في المتوسط أكثر من ١,٥٤٤ متر وكذلك حال سكان إقليم « مون دومارسان » الذين لا يجدون من الغذاء إلا دون الكفاف بخلاف أهالي الجهات الخصبة الجيدة الهواء فيبلغ هنالك الطول المتوسط ١,١٤٠ متر .

« وذكر « ديلبون » في « تاريخ مقاطعة لو ، مجلد ١ » أن أهالي إقليم « فيجك » أقوياء أشداء متوسط طولهم ١,٦٣٠ متر ، بخلاف أهل إقليم « لاترو كبير » الساكنين في الأراضي الجرانيتية المجدبة الذين لا ينالون من الغذاء القدر الكافي فإن متوسط طولهم ١,٥٧٩ متر .

« وأثبت « كوستا » في كتابه « تجنيد أهالي كورسا » بأن القصر في الجنود المقترعة يظهر بأخص مظاهره في الأقاليم الملحقة مثل « ساليس وركونياو وسيرا ، الخ » .

« لأجل معرفة مقدار ما يؤثر به الفقر وطريقة الحياة على الطول الإنساني يكفي درس حالة سكان باريس ،

« أثبت « مانومريه » في « مجلة الجمعية الأنثروبولوجية في السلسلة الثالثة من المجلد ١١ - بالنسبة لطول الباريسيين ، وقرر « توينار » في « إحصاء مدينة باريس » ، بأن شبان الأقسام الفقيرة أقصر من شبان الأحياء الثرية . وأثبت « شامبويون » في « مقتطف عن المذكرات الطبية العسكرية » ، مجلد ٢٢ ، بأنه لا يوجد الآن أحد من الجيل الخامس من الباريسيين لأن العدد التخازيرية والقصر وأشياء أخرى من موجبات الانحطاط والضعف قضت بزوالهم وانقراضهم .

« هذا الوسط الذي له هذا التأثير المحسوس في تشويه وتسفيل الشكل الإنساني له مثل ذلك التأثير في تغييره أو تحسينه ..

« هذا هو الجيل الأمريكي يتكون أمام أنظارنا تحت تأثير الوسط في ممالكهم المتحدة فإن التغير الطارئ مشاهد محسوس . وذلك أن الأمريكي المعاصر لنا يقرب تدريجياً من الأمريكي الأصلي ويتجلى ذلك التقرب بميل الشق الأسفل من وجهه إلى أخذ الشكل الرباعي بخلاف ما عليه تلك الجهة عند الإنجليز فإنها ذات شكل بيضاوي (انظر : موري وتودس) . وأثبت (بروتيري) أن الأمريكي يقرب من أول جيله الثاني من ذوي الجلود الحمراء وابتدأت تظهر فيه تقاطيع مشابهة لتقاطيع أشخاص قبائل (لبيني لينابس والايروكوا أو الشيروكيس) . وأن بشرته أصبحت خشنة كالجلد وأخذت في التلون بلون الطمي وأصبحت المرأة هنالك ذات لون باهت قليل الجاذبية . وأخذت الرأس في الضعف والرخاوة ، والشعر في الملاسة والقتامة ، والعنق في الطول والأناقة ، وصارت العظام تطول جهة الأطراف العليا أكثر من طولها الى الأطراف السفلى

حتى أن مصانع فرنسا والمجترات تعمل للأمريكيين قفازات ذات أصابع مستطيلة جداً ، وأخذت جهة الحوض في المرأة تشابه نظيرها عند الرجل . وفي زعم (كرينتر) أن الأمريكي المتروك ونفسه سينقلب إلى أن يكون مثل قبائل ذوي الجلد الأحمر سكان أمريكا الأصليين . فماذا يكون إذن في الجيل العاشر ؟ نقول الجيل لأن التغيرات التي تطرأ على أجسام البشر يجب أن تعد بالأجيال كما نفعله لنسبة الحيوانات والنباتات لا بالسنين . ومن جهة أخرى إلى أي شكل يستحيل الشكل الأمريكي مع الزمن تبعاً لقانون الموازنة العضوية ؟ إذا كانت كل هذه الأعضاء آخذة لدى الأمريكي في التغير فلا شك بأن شكله العام بما فيه هيئة جمجمته سيتغير أيضاً تبعاً لذلك . إذن فسيكون أمامنا جنساً جديداً .. مرتقياً أو منحطاً على الأرجح ... يجب مجالدته وملاشاته !! ، (لاحظ ما في الكلام من تهكم - المؤلف) .

* * *

فِتْنَةُ الْمَدِينَةِ الْغَرِبَةِ

(أَوْ النِّشْرِيَّةُ الْهِنْدِيَّةُ)^(١)

قرأت في مؤيد الخميس الماضي ما كتبه حضرة مكاتبه المحترم في كلكتا عن النيشريين الهنديين وما اندفعوا إليه من الدعوة إلى أصولهم مما رآه خطراً على كيان الأمة وفتنة يخشى على وحدتها منها . فدعنتي غيرته أن أكتب للمؤيد هذه الجملة :

الشرق بإزاء الغرب في هذا العصر على حال لا يدر كها مجرد النظر السطحي والتأمل القشري والذهاب بالفكر في تصويرها مذاهب التخيل . لأن تلك الحال نتيجة طبيعية أنتجتها فواعل وجودية كثيرة ذات آثار شتى وأفاعيل عدة تستدعي تحليلاً علمياً دقيقاً وتشريحاً عمراً متقناً حتى يأمن الباحث الاغترار بالعلل الثانوية وحساباتها عللاً رئيسية ، بل حتى لا يطيش من تزاخم الظواهر على عقله فيبعد الأعراض عللاً . وهذا نيب كبير من كتاب الشرق الذين أخذوا على عهدتهم معالجته في هذا العصر ، فإن الأمر لدى هؤلاء الكتاب سهل جداً لا يستوجب من الشرقيين إلا اطراح بعض عاداتهم القديمة والتمسك بشيء من العادات الجديدة ، فلا يمضي كبير زمن حتى يشق على المتأمل أن يميز الشرق عن الغرب في مظاهر الحضارة ورواء المدينة ... ولكن الأمر بخلاف ذلك لدى سمسرة العلم العمراني لأنهم يعلمون أن الشرق الآن بإزاء الغرب في موقف الضعف

(١) هذا بحث عمري كتبت في المؤيد تبعاً ورأيت نقله هنا بالترتيب - المؤلف .

أمام القوة ، وما داما كذلك فبينها حرب سلبية مستمرة سلاحها النواميس الطبيعية ونقطة النزاع فيها الامور الحيوية . فإن التنازع والتراحم سنة عامة بين جميع الكائنات الأرضية . وهما في النوع الانساني أكثر صراحة ووضوحاً وأقصى أسلحة وأصعب مراساً . وبناء عليه فقواد فكر الامة يجب أن يكونوا من المهارة في أساليب الدفاع الحيوي والهجوم المعيشي وقيادة المواطنين الى مظان الغلبة أو الاحتماء على مثل ما يكون عليه أحسن القواد العسكريين دربة وحنكة . ولو صح أن كل ضارب بسيف أو مصيب برصاص يليق أن يقود فيلقاً قليل العدد والمُدد ضعيف المركز والمدد أمام خصم شديد الشكيمة حديد الشوك ، لصح أن يقود الحرب الحيوية العامة في أمة كل من يستطيع أن يمسك قلماً أو يسود قرطاساً . وكما أن جهل القواد العسكريين يقود الجيش مهما كان كثيفاً مدرّباً إلى مواقف للتلف ومراكز الفشل ، كذلك نزق قواد الفكر يقود الأمة إلى مزالق البوار ومزال الدمار ويجعلها في الحرب الحيوية العامة طعمة باردة وغنيمة سائغة . وقد تكلمنا على شيء من هذه الحرب الحيوية في المؤيد قبل عام . وتحديد حال الشرق أمام الغرب ووصف تلك الحرب الحيوية وصفاً دقيقاً وتحديد مركز كل منها أمام مناظره يخرجنا عن الدائرة المحدودة التي رسمناها لهذه المجالة . فنكتفي هنا بأن نقول أن هذه الحرب الحيوية لا تفترق في شيء من نتائج الغلبة والقهر عن تلك الحرب الدموية إلا أن لأشياءها أسماء مختلفة في لغة التخاطب لا في لغة العلم . فلا يقال مثلاً دفاع وهجوم وهزيمة وانسحاب وقائد وجندي بل لكل هذه المعاني أسماء خاصة لا تشير إلى مدلولاتها الصحيحة إلا من بعد على قدر بعد لغة الناس عن حقائق العلم . من هنا يختلط الأمر على العامة وأكثر الخاصة ويستطيع الثرثار الفارغ أن يظهر بمظهر الكاتب المحقق بتقليده في بعض الألفاظ التي تدل على مدلولات تقبل التأويل ولا تأبى الشرح الطويل .

عنوان هذه المقالة (فتنة المدينة الغربية) ، وأعني بتلك الفتنة الأثر الذي يحدثه على النفوس رواؤها وزخرفها . هذا الأثر يفعل في كل نفس فعلاً يناسب

قابليتها فيحدث عند بعض الناس يأساً لما يرونه من البعد الشاسع بين ما هم فيه وبينها ، فيحملهم ذلك اليأس على وقف عواطفهم وقواهم على منافعهم الذاتية وترك الأمور العامة على غواربها ؛ ويولد عند الآخرين حركة تدفعهم لبلوغ شأوها والجري معها في ميدان واحد . هؤلاء أسلم فطرة وأحيا فؤاداً من الأولين ولكن سلامة الفطرة وحياة الفؤاد لا تغنيان شيئاً إذا لم يرشدهما علم لوجوه السير وبصيرة نافذة في أحناء الأمور ومشتبهات الشؤون ، كما لا تغني الشجاعة في الحروب عن ذوبها شيئاً ما لم تصحبها القيادة الحسنة والتدبير الدقيق ، أما وحدها فربما قادت أصحابها إلى موقف جعلتهم فيه عرضة ليران العدو المجتاحة فذهبوا كلهم قتلى اندفاعهم وصرعى تهورهم واستبساهم .

في الشرق فرقة كبيرة لم يصبها داء اليأس من لحاق الغربيين لا سيما بعد رؤيتهم فخامة مظهر الأمة اليابانية الشرقية . ذلك المظهر كسر صنماً كبيراً من أذهان الكثيرين حيث كانوا يعتقدون أنهم أحط من الأوروبيين وأنه لا مناص لهم من أن يكونوا مقودين بهم أبداً الأبد ، فجاءت هذه الأمة الشرقية مكذبة لهذه الفرية الخطرة تكذيباً فعلياً فأصبح حزب الراجين عظيم السواد ولكن هذا الرجاء كما قدمنا لا يفيدنا شيئاً بغير العلم بوجوه السير وربما كان أدعى لفسادنا وأوجب لازدياد مصائبنا الاجتماعية .

يرى كثير من أنصار النهضة الجديدة أن مساواتنا للغرب لا تتأتى إلا بتقليده تقليداً أطلقوه ولم يضعوا له حداً . وغفلوا عن أن للأمم أمزجة مختلفة كما للأفراد ، وأن بين الغربيين والشرقيين من التباين في القابليات ووجوه الاستفادة ما لا يمكن لأحدهما أن يأخذ معه عن الآخر شيئاً إلا بعد قلب كيانه وسبكه على صورة تناسبه وتلائم طبيعته الخاصة .

لا أنكر أن أماننا أموراً رئيسية يجب أخذها عن الغرب بطريق التقليد . ولكن أقول أنه لا يتأتى أخذها إلا بعد إعطائها شكلاً شرقياً يناسب المزاج الشرقي ويتفق مع الطبيعة الشرقية . وإلا فما بالنا اختلطنا بالغربيين قرناً ولم

نأخذ عنهم غير ترتيب نضائد البيت وتنظيم أدوات المائدة ؟ ولا نسمي هذا أخذاً فإنك لو أبعدت الغربي عن إشرافه على تلك النضائد وتلك الأدوات لما استطاعت أن تحفظ صفتها الغربية سنة أو سنتين . بل إن هذه الخلطة كلها لم تعد الشرقيين لمجاعة الغربيين في إتقان ملهى مع شدة تفاني العامة في تقليدهم من تلك الجهة . أليس ذلك لتباين المزاجين وتحالف القابليتين ؟ . إن شئت فقل مثل هذا في التعليم والتربية وكل ضروب المحاولات الإنسانية .

كثير من أنصار النهضة الجديدة يتعجلون في أحكامهم فينسبون لبعض الظواهر المدنية من الآثار والنتائج ما ليس لها . وربما كانت تلك الظواهر في نظر علماء المدنية من الجوائح القاسية على الهيئة الاجتماعية فيمهدون بذلك للأمراض التي ينوء بها الغرب طريق التسرب إلينا ، ويكونون علينا في الحرب الحيوية العامة أشد من مساورينا من الأمم المزاحمة .

هذه الظواهر المدنية التي يخيل للناظر إليها سطحياً أنها أخص بميزات الغرب عن الشرق ، هي مسائل : وحدة الزوجة وعدم الطلاق (كان ؟) ، وتكشف النساء ، واستحلال الربا . هذه العادات الغربية يحسبها بعض المتحمسين للمدنية أسباباً أولية لرقى الأمم الأوروبية ، وفواعل باعثة لنهوضهم وصعودهم ، لأنهم يرون تلك الأمم لا تمتاز عن الشرقيين امتيازاً حقيقياً في شيء من العادات والأميال العامة إلا فيها فيخالون أنها مستودع سر رفيعهم ، ومهب حياتهم وقوتهم . وترام يتعجلون في اتخاذها عللاً رئيسية كما يتعجلون في استنتاج نتائجها . فيبنون على وحدة الزوجة وعدم جواز الطلاق ، وكل ما يمكن تخيله من وحدة العائلة واتساقها واستتباب أمورها ، ومتى تكونت الأمة من عائلات منتظمة كان النظام لزم هيئتها العامة ، والتضام صفة من صفاتها . ويعلقون على تكشف المرأة إمكانها بلوغ شأو الرجل في العلم والحكمة . ومشاركتها له في الأمور الجسدية والأدبية فتصبح أمناً كاملة تربى أشبالاً ينفعون البلاد ، وترقى بهم الأمة إلى أوجها الأعلى . وينيطون باستحلال الربا انتظام سائر الشؤون

التجارية ، وارتقاء نسبة الثروة العمومية ارتقاء لا حد له . ماذا يعوز الأمة بعد ذلك (على قولهم) وقد توفرت فيها سائر الشروط المرقية للأمم ؟ نظام في العائلة . نظام في الاجتماع . أدب في الأفراد . غناء في الثروة العامة ... أليس هذا كل ما يتمناه الغيور على أمته الهائم برقي بلاده ؟ ... ها هو معقود بأهداب هذه العادات التي تمدّ على الأصابع ؟ فما المانع من الأخذ بها غير التعصب للعادات الموروثة ؟ ... يقولون هذا ويففلون عن أن هذه العادات بعينها كانت في أوربا طول القرون الوسطى وما قبلها ، ولكنها رغماً عنها لبثت في ظلمات الفساد الفردي والاجتماعي ألف سنة لم تتقدم للأمام خطوة واحدة وكانت أمامها دولة الشرق العظمى المحافية لكل هذه العادات في رفعة وفخامة لم تصل إليها دولة من دول العالم .

ربما كان هؤلاء المتعجلين شبه عذر في هذه العجلة في الحكم ، فإن لمظهر كل مدنية فخيمة أثراً على أفئدة مشارفها من الضعفاء يشبه أثر السحر بل يفوقه . وقد أثر حال آباءنا أيام كانت لهم الدولة العظمى والصولة الكبرى على أفئدة الأمم ، فخلعتهم عن معتقداتهم التي جددوا عليها قروناً متتابعة وصاروا من أشدّ أشياعها ، وأنستهم لغتهم التي نشؤوا عليها بلا إجبار ولا إكراه ، حتى كانوا من أفصح الناطقين بالعربية ومن حفظة قوانينها وقواعدها . فلا عجب بعد هذا أن يندهش أناس عندنا من فخامة هذه المدنية الغربية ، فيعللون رقيها بأمراضها ، ويعزون رفعتها لجرائم أدوائها ، وقوفاً منهم مع الظواهر الفتانة ، واكتفاء بالقشور الجذابة . كما لا عجب لو كان قام رجال من تلك الأمم الغربية أيام فساد أحوالها واضطرابها في شؤونها أمام المدنية الشرقية الباهرة في القرون الوسطى ، فكتب لبني جلدته أن سبب تأخرهم وانقصاص وحدتهم هو انحلال عائلاتهم ، واختلال نظامها الناشئ من قانون وحدة الزوجة وعدم جواز الطلاق . وأن علة فساد تربيتها نسائهم ؛ هي عدم تحجيبهن عن أنظار الرجال . وأن داعية اختلال أحوالهم الاقتصادية ، وانتشار الفاقة والفقر بين الأفراد ، واحتكار آحاد

قلائل الثروة العمومية ، هو تساعهم في تجويز الربا . نعم ، لا عجب لو كان قام قائم منهم بهذه المقالة ، ولعله كان يجد من الحوادث ما يؤيد قوله ومن المصنفين من ينصر حزيه .

نكتفي بهذا القدر في هذه العجالة ونتبعها غداً بدرس هذه العادات من وجهتها العامة بقصد إقامة البراهين المحسوسة على أنها أمراض هذه المدنية وجراثيم تلاشيها مما يجب أن يهرب منه ويتعد عنه ، لا أن يدعى اليه ويعلق صلاح الشرق عليه .

* * *

١. وحدة الزوجة وعدم الطلاق

الإنسان بين خياله وهواه على مثل حال الريشة بين الأعاصير المتعاكسة والعواطف المتقابلة بينما يجذبها تيار بقوة سريانه يصدمها آخر بشدة اندفاعه ، وفيما هي نقطة النزاع بينهما إذ اختلسها منها ثالث عن اليمين أو عن الشمال . كذلك الانسان بين تيارات هواه وخياله تتنازعه وتتنازفه حتى يراه مضطراً للتنازل عن إرادته فيستسلم ولكن إلى ماذا ؟ ... إلى ما يجبهه ، وإن كان يحس به . ولماذا ؟ ... لما لا يدري وإن سيق اليه . وإلى متى ؟ ... إلى أن تمتد إليه أيدي الموت الطبيعي في حده المحدود أو تنزل به جائحة في أثناء سباحته في تلك الأعاصير المضطربة فيودع الحياة على حال من الأحوال .

جسم نحيل وطرف كليل وعقل ضئيل وحواس قاصرة ، ومع ذلك فؤاد ملؤه مطامع وحشو إهابه مطالب ، ونفس تواقه لمجاورة الحدود وتعدي التجوم ، وفكر جواب جوال لا يرتد عن غاية ولا ينتهي الى نهاية ، وخيال يحجم المستحيل وينفذ لما بعد دوائر الإمكان . أليس هذا هو الانسان في جلته ؟ .. نعم ، وهو

بتلك الصفات المتضاربة في وجود كله مجاهيل وكون كل ما فيه أسرار ومساتير ، ولا نهاية تقصر عنها عزمات الفكر وتنحل دونها آمال الخيال . وجود كل ما فيه جواذب لهذا الانسان وأواسر لفؤاده الولهان . ولكنه بهم بدون وسيلة فتحونه الحيلة ، ويشترئ بغير آلة فتقعه الكلالة وضؤولة الحالة ، فيشور على نفسه يوسفها ذمًا ثم ينبري لبني نوعه فيسلقهم شتائم يلتفت للوجود فيعزوا إليه من النقص والقصور ما هو به أولى . كل ذلك جهلا منه بالحقائق وحدودها . وعماية عن القوانين ومجهودها . وخفة سجلها عليه الخيال ولطخه بها الهوى والضلال . وربما لحظ هو ذلك من طرف خفي ولكنه عتي عنيد يريد أن يجعل هواه دستوراً للوجود وخياله قسطاساً تقوم عليه الحدود .

الناس رجلان : رجل استسلم لعوامله الذاتية والمؤثرات الكونية استسلاماً سلبه إرادته فعاش عيشة آلية لا يفترق عن آلة الطحن أو السقي إلا في زعمه الحرية وإن كان من أسر الهوى والجهل في أوافق أي أوافق . ورجل لم يرد أن يستسلم لما ذكر أو أنف أن يكون آلة لما هو . أحط رتبة منه فطلب المفر وتحسس من المخرج فتمسك بأهداب الحقيقة فأوى إلى حصنها واطمأن إلى كنفها وإن كانت لا توافي هواه في كل حين ولا تتملق لعواطفه بالتسويل والتزيين ، بل هام بها لعله أنها قوام حياته وبقائه وعليها مدار فلاحه وكاله وإن كلفته المشاق والمتاعب وصبت عليه أنواع المعاطب .

لكل من هذين الرجلين نظر في نفسه وفي الوجود وعمل فيها وحكم عليها ونصيب منها . أما الأول فيعتقد في نفسه الكمال والجمال وفي خلاله الفضيلة والاعتدال . فلم لا يواتيه الوجود بمطلوبه وتكون حوادثه على وفق مرغوبه؟؟؟ فهو بهذه الفكرة يعمل عمل المفرر ويحكم حكم النزق فلا غرو أن لم يصب من كده وكدحه غير النصب والوصب . ولا عجب إن قلنا أنه يعيش معيشة الآلة مقوداً بنواميس الكون الميكانيكية وإن أراه خياله أنه حر مطلق ، ودلس عليه هواه بأنه ذو إرادة واستقلال ؟ هذا الرجل تناله الجوائح وتغتاله النوازل

فيتهم الوجود ولا يتهم نفسه ويذم الحوادث ولا يكمل نقصه . وكيف يطلب المزيد من يعتقد أنه كامل أو يتهدب من يرى أنه حال بكل الفضائل ؟

وأما الرجل الثاني فيعتقد في نفسه النقص وفي خلانقه الافراط والتفريط وفي أدبه الحاجة إلى الصقل وفي ملكاته الداعية إلى التهذب ، فإن حزبه الوجود بمصيبة أو رمته الحوادث بلمة رتا الى نفسه فبحث عن مثار دائه واستفاد من وقع المصيبة فنقب عن مرقوته وجهات ضعفه ، لا يخطر بباله يوماً أن يستسلم لخياله فيبني قوانين الوجود على مقتضى أوهامه ويسن للكائنات دستوراً بمقل أقر بقصوره وتحقق من وهن وسائله . فلا غرابة إن ازداد هذا الرجل كل يوم تحلصاً من أسر الطبيعة وأوقع في أسرهِ منها قوات تقيده في تقويم أمرهِ وتعديل معوجه ، ولا عجب إن جاءت الحوادث على وفق مطالبهِ ، لأنه لم يطلب مستحيلاً ولم يجاوز في التمني مقدوره .

ذكرنا أن الناس أحد هذين الرجلين ، أما ما بينها فلا يدخل تحت حصر ولا يطمع في ضبطه عاقل . فكن ما شئت فالمقدمة معلومة والنتيجة غير مجهولة .

تعدد الزوجات والطلاق مسألتان اجتماعيتان تناولهما سأمرة الخيال وأحلاس الهوى من كتاب الأقاصيص في أوروبا بما قدروا عليه من ضروب السخرية في القرن الماضي ولا يزال لهم بقية ، حتى صارت عنوان الطعن على الشرق ومقدمة لكل ما يكتب ضد الشرقيين سواء في المعتقدات أو السياسة . وربما كان الكاتب الأوروبي الطاعن على إباحة تعدد الزوجات له عشر صواحبات متزوجات يفرهن بآله تارة ويحاهه أخرى ويهتك من عرضهن ما يجب أن يكون مصوناً ، فيخونهن في أخص صفاتهن ويعتدي على شرف أزواجهن جنباً وخسة ويكون سبباً في خلط الأنساب وتنجيس الأعراق ، ثم تراه لا ينجعل مما هو فيه فيستلمي من هواه ما يستلمي في التشنير على ما يقطع جرثومة الدنايا ويقف بالأغراض في حظائر الطهر ويحمي الأنساب من دنس الريبة . ثم يأتي أخونا الشرقي المفتون بمدنية الغرب المأسور لزارجها وزخارفها المعجب بلغاتها وآدابها فيقرأ ما سوده

أولئك الكتاب في تلك الأفاصيص ، فتنقش تلك الشبهة في ذهنه انتقاش الرسم في الحجر الصلد. فلماذا لا يثور عليها وهو يريد أن نكون كالغرب رقيقاً ومدنية . ولماذا لا يسعى في بشا في بني جنسه وهو لا يعتقدها من المصائب الاجتماعية ؟

إذا طالع الانسان قصة حسنة الأداء ، الخيال فيها ظاهر بمظهره الفائق وكان موضوعها شرح حال عائلتين : أولاهما للزوج فيها زوجة واحدة . وثانيتها للرجل فيها زوجتان له من كليهما أولاد . فأبدع الكاتب ما شاء في إطراء نظام العائلة الاولى واتساق أمورها وسريان الود والحب بين سائر أجزائها . وأطلق لقله العنان في تقبيح نظام العائلة الثانية ووصف تلك البغضاء الملتبئة بين الضرتين وذلك التنقيص المتصل منها الى الزوج ، وصور لك حال تلك الإخوة من الجفاء والتعادي وأعطى كل ذلك صقلة من الإبداع الشعري وبريقاً من الاحسان الكتابي يريك الأمر مجسماً . فماذا يشعر المطالع في نفسه ؟ .. لا شك يحد في نفسه من ألم ذلك الخيال ما يحمله على الطعن في تعدد الزوجات بكل قواه . وماذا عليه من تغيير مذهبه وهو ملآن البطن والكيس ومتكىء على أسرة الديباج يطل على حديقة بيته ؟ ماذا عليه لو طعن على تلك العادة لكل من يراه وسمى جهده في تغييرها ما دام هو قدير العين من حالته الشخصية ؟

يكتب القصصي الأوربي مثل هذه الخيالات ويتابعه مطالعه الغربي والشرقي من الذين يكتفون بالخيال ويخافون بطش الأوهام . بينما يكون العالم العمراني الذي خلع ريقة الهوى والخيال من عنقه ينظر لتلك الملايين العديدة من النساء اللاتي لم يجدن أزواجاً يحموهن شر الفاقة ، فرمين أنفسهن وأجسامهن الرقيقة بين لهيب التناير في المعامل ودخان المواقد في المصانع لينلن قوتهن ، فيبكي على حالهن أسى ويندب حظهن أسفاً ويصيح في أوجه الناس لوضع حد لتلك الحالة التعمية . فيقول كما يقول الفيلسوف (فورييه) « ما هي حالة المرأة اليوم ؟ إنها لا تعيش إلا في الحرمان حتى في عالم الصناعة الذي ألم الرجل بجميع أنحائه لغاية الاشتغالات الدقيقة بالخطاطة والريش . أما المرأة فيراها الناس منكبة على

أشق الأعمال في الحلاء . فما هي إذن مصادر الحياة للنساء المحرومات من المال ؟
المغزل أم جملهن إذا كان لهن جمال ؟ نعم إن حيلتهن الوحيدة هي السفاد
العلني أو السري ليس إلا وهي الحيلة التي تنازعهن الفلسفة إياها للآن . هـ .

وبينا يكتب أسرى الخيالات في أوروبا أخبار تقدم النساء في الصنائع
والفنون ويلتقطها عنهم المقلدون بالبشر والارتياح فيتفكهون بها في المنتديات ،
ويظهرون بها سمو طالع المرأة الغربية ، ويتأففون من حال المرأة الشرقية وهم
جالسون على نضائد الحرير والاستبرق . ينادي العلامة الاقتصادي (جول سيمون)
في أوروبا قائلاً : « النساء قد صرن الآن نساجات وطباغات .. الخ .. وقد
استخدمتهن الحكومة في معاملها وبهذا فقد اكتسبن بعض دريهمات ولكنهن في
مقابل ذلك قد قوضن دعائم عائلتهن تقويضاً . نعم إن الرجل صار يستفيد من
كسب امرأته ولكنه بإزاء ذلك قد قلّ مكسبه لمزاحمتها له في عمله . » ثم قال :
« وهناك نساء أرقى من هؤلاء يشتغلن بمسك الدفاتر وفي محلات التجارات
ويستخدمن في الحكومة بصفة معلمات وبينهن عدد عديد في التلغرافات والبوسطة
والسكك الحديدية وبنك فرنسا والكريدي ليونيه ولكن هذه الوظائف سلختهن
من عائلتهن سلخاً » .

يقول جون سيمون في فرنسا هذا فيجيبه زميله في انكلترا العلامة (سامويل
سمائلس) في كتابه المسمى الاخلاق : « إن النظام الذي يقضي بتشغيل المرأة في
الفابريكات مهما نشأ عنه من الثروة للبلاد فإن نتيجته كانت هادمة لبناء الحياة
البيئية لأنه هاجم هيكل الدار وقوض أركان العائلة ومزق الروابط الاجتماعية .
فإنه بسلبه للزوجة من زوجها والأولاد من أقاربهم صار بنوع خاص لا نتيجة له
إلا تسفيل أخلاق المرأة ، لأن وظيفة المرأة الحقيقية هي القيام بالواجبات
البيئية مثل ترتيب مسكنها وتربية عائلتها والاقتصاد في وسائل معيشتها مع
القيام بالاحتياجات العائلية ، ولكن المعامل تسلخها من كل هذه الواجبات ،
بحيث أصبحت المنازل غير منازل وأضحى الأولاد تشب على عدم التربية وتلقي

في زوايا الاهمال ، وانطفأت المحبة الزوجية وخرجت المرأة عن كونها الزوجة المحبوبة والقرينة الغيور على الرجل ، وصارت زميلته في العمل والمشاق وباتت معرضة للتأثيرات التي تمحو غالباً التواضع الفكري والأخلاقي الذي عليه مدار حفظ الفضيلة .

مِمَّ كل هذه الشكاوى المرة وأي سبب لإلقاء النساء أنفسهن بين أنياب هذه النيران المستعرة ؟ أليس لعدم وجود من يحميهن في الحياة من الأزواج ؟ قل لأولئك الغيورين من الشرقيين أي الحالتين أحب للنفس الشفيقة وإهداء للمواطن الثائرة : أوجود ملايين النساء في تلك الحالة التعميسة طول حياتهن هلكى في الجسوم والأعراض ؛ أم لإواء كل أربعة منهن الى بيت رجل واحد يسمى طول نهاره لإفاحتهم ويكدّ يحسسه في سبيل راحتهم ؟ .

لا جرم أن أنصار المدنية الأوروبية لم يضعوا الشفقة في محلها ولم يستعملوا المرحمة في حقيقتها . وإذا كان غاية مرمى شفقتهم ومنتهى منال مرحمتهم هي إدخال النساء في هذا الدور الذي ينتحب منه العالم الغربي فإنهن براء من أنصارهن راضون بما هم فيه من حالتهم .

ليس هذا كل المعجب . بل المعجب كله أن يتخيل قوم أن بين وحدة الزوجة وعدم الطلاق علاقة بالتمدن الأوروبي وقد علموا أن أوروبا لبثت ألف عام لم تترق عما كانت عليه خطوة واحدة ، رغمًا عن وحدة الزوجة وعدم جواز الطلاق في قوانينها ، وكانت أمامهم مدنية آباءنا الأولين المعددين للزوجات والمجوزين للطلاق تحير مداركهم وتدهش أبصارهم وتجملهم يظنون بأنفسهم الظنون . وها هي أوروبا اليوم قد أحست بسوء مغبة عدم جواز الطلاق فقررت في قوانينها ولعلها على مقربة من تقرير جواز تعدد الزوجات تخليصاً للمرأة من أنياب الفاقة وإبقاء على جسمها اللين الشديد التأثر من نيران المعامل ودخان التنانير المستعرة ، وقد بدءوا يتكلمون في ذلك كما بدءوا في التكلم في الطلاق قبل تقريره بمائة عام . ومن يعيش يرَ المعجب فيا صاح لا تقنع بأنك صاح .

* * *

ب - تكشف النساء

ليس العجب أن يقوم قائلون منا يشيرون علينا بإلقاء الحجب عن النساء وتخليصهن من أعباء الأزر والبرقع ، وإنما كان العجب أن لا يقوم بتلك الدعوة داع ونحن تحت تأثير فتنة المدينة الغربية التي أخذت بمتنفسنا في كل مكان .

نحن بإزاء هذه المدينة الباهرة ومظاهرها الساحرة كالفقير المعدم أمام المثيري المكثّر . فكما أن ذلك الفقير يكون مفتوناً بكل ما يراه في أخيه المثيري ومعجباً به وذاهباً في تقدير قدره وتفسير فخامته مذاهب الخيال والوهم . كذلك نحن بإزاء مدينة أوروبا مستهدفين للفتنة بها ومرغنين للإعجاب بكل مظاهرها وظواهرها ومجبرين على الأخذ في تصويرها وتكييفها مأخذ التخيل والتوهم . فلا غرو إن جعلنا حبتها قبة ودرمها قنطاراً وحكنا عليها حكم المفتون على الفاتن .

كنت قبل اليوم أعجب من قيام داع بالذهاب مذهب الاوربيين في عادة من عاداتهم الخاصة ، فصرت اليوم أعجب كيف أننا لم نكن كلنا دعاء إلى الأخذ بسائر عاداتها مع ما نحن عليه من التعرض لسائر مؤثراتها الصارمة . وكنت أستكبر ظهور بعض الناس بمظهر الغربيين في الأمور التافهة كنظام المأكل والملبس ، فصرت الآن استكبر عدم سريان هذا التقليد فيما هو أخص من ذلك وأمس منه بحياتنا الشخصية والعمومية ، مع ما نحن عليه من الانكشاف لفواعل تلك المدينة وعواملها القاسرة . فلم يسعني إلا إبدال التعجب بالإعجاب ، وأصبحت أستدل بقلة هذا الانفعال لتلك المؤثرات القوية على مقدار قوة المقاومة التي أودعتها فطرنا ، وصرت كلما رأيت سرعة تأثير بعض الطوائف الشرقية المختلطة بنا بمن كانت آخذة أخذنا في العوائد ازدادت إعجاباً بقوة مقاومتنا ورجوت خيراً في المستقبل . وإن استدل كتاب تلك الطوائف وبعض السطحيين من كتابنا بسرعة تأثيرها على جودة قابليتها للترقي وباستعصائنا أمام تلك العوامل

غلى نقص قابليتنا له ؛ دعمهم يميرونا بذلك فإن لهم نظراً في أنفسهم يخالف نظرتنا في أنفسنا وهم إن فرحوا بسرعة تأثرهم وبنوا على ذلك آمالاً فنحن أفرح منهم بسلامة شخصيتنا وقوة مقاومتنا وإن جرت علينا أهوالاً . ولكل أمة قدر في نظر نفسها وليس هنا مجال تفصيل .

شبهنا أنفسنا أمام الغرب بفقير معدم حيال مثر مكث ولا يكون هذا التشبيه مطابقاً للواقع إلا إذا وصمنا ذلك الفقير المعدم بصفة الجهل ، ووصمنا ذلك المثرى المكثر بسمه العلم . هنا تستقيم أجزاء المشبه والمشبه به ويكون التطبيق مشخصاً لصورة الواقع . فلنستعر من هذا التشبيه أمثلة في تصوير مركزنا وفنتتنا ، فنقول :

الفقير المعدم الجاهل يفتتن بكل شيء في المثرى الموسع المتعلم ويراه حسناً وإن كان قبيحاً . لأنه يرى من جلال وجهه صورة هواه ومسرح مناه ومطمئن همه وضالة حسه وهي الثروة ، فيتوهم أن كل ما في ذلك المثرى منزل إليه من أفقها ومستفيض عليه من ينبوعها . حتى لو سئل لرأى لسلطته نعمة يجب أن يتعلمها ليتعملها ولا يزال بمنجبرته يوسمها قبضاً وبسطاً حتى يحاكيها أو يكاد . وهكذا تكون كل حركات المثرى وسكناته فتنة لمن دونه من الفقراء الجاهلين . يروى في تحليل رفع الساعد عن الإبط في التسليم الذي انتشر بين شباننا وكهولنا في هذه السنين الأخيرة أن أميرة من أميرات أوروبا من اللاتي لهن الميزة في المحافل دعيت مرة إلى ناد جمع صفوة القوم وعليتهم ، وكانت مصابة بدمل في إبطها الأيمن فاحتاجت عند المصافحة الى رفع ساعدها عن موطن تلك البثرة تحامياً من الألم ، فظن ذلك بعض الناظرين نوعاً مبتكراً في التسليم فشاع وذاع حتى أتى هذه البلاد فرسخ بها عند بعض الحبين للجديد .

يرى الفقير قصور الموسع وبساتينه ومركباته وما يسحبه من الوشي والحرير وما يحتاط به من الفاشية والخدم وما يحمل مجلسه من البنين والصحب وما ينهال عليه من البيض والصففر ، وما يعده في بعض لياليه من معالم اللهو والقصف ما

بين وثريرن وشاديفتن وخوان يوضع وصحاف تصف ، وثريرات من الكهرباء
تشملمهم من أنوارها بما يزيد مجلسهم بهجة وناديمهم فخامة . يرى الفقير ذلك فلا
يتخيل أن فوقه مزيداً ويظن أن السعادة بأخص معانيها قد ألفت يجرائها في
هذا البيت وأن هذه الحال هي ما يجب أن تشذ له العزائم وتشد له الروايل
وإن عابها الفيلسوف وزري عليها المحشوشن . هات لهذا الفقير المفتون منا
استطعت من مقررات الفلسفة ونوابغ الكلم المأثورة وما كتبه العلماء على السعادة
ومواطنها والراحة ومعادنها والثروة وهو ما فلا تراه يأبه بما تقول ، لأنك تود
أن تهدم له بالقول ما يدعي أنه شارفه بالعين ، وتفسد له بالكلام ما يزعم أنه
ذاقه بالحس . إن قلت له ألا ترى من خلأ ذلك الماثري الذي فتنك حاله :
المقامرة وهي مديعة للفاقة مجلبة للاملاق ، والمعاقرة وهي متلفة للصحة مذهب
للمروءة ، والهبو وهو مضية للفضيلة معجزة للهمم ، والقصف وهو مدحرة
للذكاء مكسلة عن العظام . أجايبك أن كل ذلك من لوازم ذلك النعيم ومتماته
ولن نجد ثروة تخلو من تلك الآفات قط . ومهما كان من أثرها على صاحبها فني
وسائله ما يعوض عليه ما يخسر به بسببها . ثم يتحرك تحفزاً للانصراف رغبة عن
قولك وسأما من محاضرتك ، من شدة ورطته في فتنته وتشبث عقيدته بمخيلته .
فان استلفته إلى أن ذلك الماثري مدين لكثير من المصارف المالية وأن ثروته على
شفا التلاشي إن لم يؤب للاعتدال ويرجع للكمال أغرق في الضحك منك وقال :
ماذا تقول ؟ ! .. أين تذهب تلك الألوف المؤلفة من الفدادين التي ريعها السنوي
كذا وكذا من الدنانير ؟ .. أليس في ذلك العقل المنير الذي اقتدر على جمع تلك
الثروة من الوسائل ما يمنع عنه غائلة الافلاس ؟ .. وهل يعقل أنك وأنت أحط
منه قدرأ تنتقد عليه ما لا يدركه في نفسه ، وتتخوف عليه ما لم يعد له ألف
حيلة ؟ .. فإن ضربت له المثل بفلان وفلان ممن كانوا أضرابه في الثروة وأملقوا ،
هز كتفه صلفاً وقال : تلك كانت عقول قديمة وأفكار عتيقة أما صاحبنا فحديث
النشأة مصوغ على الطراز الجديد . ثم يسرع بالتسليم عليك ويهرول هرباً من
ثقل محاورتك .

هذا المثل ينطبق تمام الانطباق على ما نحن فيه من الافتتان بمدينة الغرب :
لرأنا مجبرين مرغبين على الاعجاب بكل شيء فيها واهمين في تقديره ذاهبين في
تصويره مذاهب الشطح. وكيف لا نكون كذلك وكل ما فيها يصور لنا النعم
في أبدع صوره ويشخص لنا السعادة في أخص صفاتها ؟ وكما أن الفقير الجاهل لا
يتخيل أن يكون للمثري أدنى شاغل يشغل باله أو أقل عوج يهدد مستقبل
أمره ، وإن كان له شيء من ذلك فهو على مقتضى فلسفته عرض يزول وملة لا
تلبث أن تتلاشى ، كذلك ضعفاؤنا بإزاء هذه المدنية يكبر عليهم أن نتخيل
أن فيها مرضاً يهدد كيانها أو بها عوجاً يخشى أن يعدو على حياتها . ولهم في
تعليل ذلك فلسفة تنطلي على أكثر العقول وتقف بها موقف الحيرة والذهول .
إن عددت لهم من آفاتنا في النفس والعقل والعرض والجسد والمال ما يرهب
الفسور مجرد سماعه ويدهش الجامد محض ذكره . قالوا : ماذا يغني الكلام
إذا كان الواقع ضد ما تقولون ؟ تقولون إن هنالك خطأ وخطأ وحياة مهددة
وسقوطا وشيكا و .. والخ .. ولا نرى نحن بل ولا ترون أنتم إلا نظاماً وكهلاً
وقوة وعلاء . فهل يقنعكم أن تنكروا الحس في سبيل الكلام أو تبيعوا الحقيقة
بالأوهام ؟

إن قلت لهم : إن ذلك النظام والجمال لا ينافي أن يكون بجانبها مرض
يتمص الحياة ويحلل عناصرها . كما قد يكون المثري المسرف في أبهة وفخامة
تأخذ بالعين والقلب ، وهو من مهاجمة الدائنين في أضيق من قفص ببغائه .
قالوا : هذه أحلام تنطلي على النائم والمهومين ، أما الأيقاظ الصاحون فلا
يطربهم الضرب على هذا الوتر الخيالي وإن كان حسن الوقع على النفس والسمع ..
ثم ينصرفون عنك قانعين بما هم فيه وأي شيء هم فيه ؟ هل حفظوا
موجوداً ؟ هل استردوا مفقوداً ؟ هل أرشدوا قائماً ؟ هل قلدوا فنجحوا ؟

أنا لا أغالي ، فأقول أن المدنية الأوروبية واهية الدعائم ، وشبكة الانهيار
والتلاشي . كيف أقول ذلك وقد كتبت هنا وفي مباحثي ما يشير إلى قيام

هذه المدنية على أصول ثابتة مأخوذة منا ومنقولة عنا بشهادة واضعها . ولكن قلت وأقول أن من العبث وعدم التروي أن نأخذ بضاعتنا مطبوعة بطابع أجنبي ومصبوغة بصبغة غير صبغتنا الأصلية لأمرين : (أولهما) - أن ذلك يقدح في الحمية ويحقرنا أمام أنفسنا وأمام غيرنا . (وثانيهما) - لأنه لا يتأتى أن تصح أمة بعلاج أمة أخرى مباينة لها جنساً ولغة ومزاجاً إلا إذا ركبت ذلك العلاج على نسبة مزاجها وقابليتها كما فعلت أوروبا فيما أخذته عنا قبل قرون . وهذا هو سر عدم فائدة التربية والتعليم لدى المصريين الذين يتعلمون على الأسلوب الغربي كما سنبينه في مقالاتنا المستقبلية موادة لاقتراح أحد محرري هذه الجريدة المحترمين .

قلت أن أوروبا قائمة من جهة مدنيتهما على دعائم ركينة ، ولكني لا أنكر أنها مصابة بإصابات خطيرة على كيانها ماسة بحياتها . لتلك الإصابات أشكال وصور شتى يجمعها أصول ثلاثة : العقيدة والمرأة والمال ، ولكني مهما كتبت وكتب غيري في تلك الإصابات وخطارتها فلا يكون لكتابائنا كبير أثر على أذهان المفتونين بمظاهرها . وما أقل الخاضعين لسلطان العلم في هذه البلاد .

تخيل رجلاً من الشرقيين يرى سرباً من النساء الأوربيات يتلألأن في الحرير والوشى ويحانبن رجلاًهن وأولادهن ، والكل يروح ويفدو بين الحدائق الناضرة والغدران الجارية تلوح على وجوههم ظواهر السعادة ، وتم أسارىهم عن الصفو والهناء . تخيل رجلاً من الشرقيين الضعفاء يرى هذا المنظر ، ثم تعال فقل له إن جسرت عليه : لا يغرنك هذا المظهر الباهر ولا تقس عليه ما خفي عليك ، فإن في أوروبا مسألة يقال لها (مسألة النساء) يزعم العلماء أنها مسألة خطيرة تهدد مدنيتهن بسقوط سريع . نراه يتهمك بالغلو والحشونة ، ويزعم أن بك جود أعلى الموروثات وتعصباً للعادات . فلو قلت له إن أهل تلك المدنية أنفسهم يشكون من جهة تكشف النساء وما جر إليه من البذخ والترف ، حتى لقد كتب العلامة (لويز برول) في مجلة المجلات الفرنسية (مجلد ١١) تحت

عنوان (الفساد السياسي) يقول : « إن فساد الأسس السياسية وجد في كل زمان ومكان » ، ومن الغريب المدهش أن مظاهره في الزمن السابق مشابهة تماماً لمظاهره في الزمن الحاضر بمعنى أن المرأة كانت العامل الأقوى في هدم الأخلاق الفاضلة ، ثم قال : « لقد كان الرجال السياسيون في آخر عهد الجمهورية الرومانية يعيشون بصحبة النساء ذوات الطباع الخفيفة اللاتي كان عددن بالغا حد الكثرة . فصار الحال اليوم كما كان في ذلك العهد ، ترى النساء اندفعن في تيار الحب البالغ حد الجنون وراء البذخ واللذات » ..

إن تلوت عليه ذلك قال تلك آراء الأفراد ، وقد بليت كل مدينة بالمتطرفين ممن لا يجوز الحكم بأقوالهم عليها . ألا ترى أن في أوروبا فوضيين ؟ فهل تستطيع أن تستدل بقول واحد منهم أن أوروبا على وشك ملامشة الحكومة والقوانين والجيش بحجة أن الفوضيين ينادون بذلك ؟

فإن قلت إليك فكر الأمة في دائرة معارفها المتداولة بين آحادها . وقد جاء في دائرة معارف القرن التاسع عشر عقب ذكرها خطبة (كاتون) الروماني في مجلس النواب ضد ابتذال النساء قالت : « وفي هياتنا الاجتماعية الحاضرة التي فيها النساء يتمتعن بحرية مفرطة نرى دفاءة ذوقهن وميلهن الشديد للزينة يحملن دائماً على الاشتغال بمجاهن وبكل ما يزيد حسنهن . كل ذلك أكثر خطراً وهولاً مما كانت عليه الحالة في روما » .

هنا تبدو على صاحبنا علائم التبرم من فداحة الحجة وصرامتها . ولكنه ربما تغلبت الشبهة ، فقال أن الكاتب يقول : (أكثر خطراً وهولاً) وهي لهجة الكتاب وديدهم فيما ينتقدون ، فبأي حجة تصرفها على حياة المدنية ، وتستنتج من ذلك أنها على شفا الدمار ؟

فإن قلت له مكانك فسأقول لك ما لا مجال لتأويله ، ثم تلوت عليه ما جاء في تلك الدائرة في ذلك الفصل بعينه وهو قولها : « نعم إننا لسنا أول من لفظ

هذا الأثر السيء الذي يحدثه حب النساء للزينة يوماً فيوماً على أخلاقنا ، فإن أشهر كتابنا لم يهملوا الاشتغال بهذا الموضوع الهام ، وكثير من أقاصيصنا التي قوبلت بالاستحسان العام قد وصفت بطريقة مؤثرة الخراب الذي يجره على العائلات الشغف الجنوني بالترزين والتبرج . فكيف النجاة (تأمل) من هذا الداء الذي يقرض مدينتنا الحالية ويهددها بسقوط سريع جداً وإن شئت فقل بالمحطاط لا بدواء له .

هنا يشعر صاحبنا بحرج الموقف . فإن كان من شوته الفتنة الغربية فطرته انصرف عنك مصرأ على ما في رأسه وإن لم يجد له دليلاً غير الأماني . وأما إن كان فيه بقية من خير رجع الى نفسه وتحقق أن مسألة المرأة لا يحلها خلع عذار واطراح برقع وإزار . وإنما هي مسألة تحتاج لنظر طويل وبحث دقيق وجدال تتحطم فيه الأقلام وتجأر منه الحابر .

* * *

جـ استحوال الربا

الربا في الاصطلاح أجر المال وربحه ، والكلام عليه من الوجهة العلمية الاقتصادية أمر خطير يعوز منا عقد فصل خاص في بيان أحوال المال من حيث وجوده وغناؤه ووظيفته عند الأحاد والأمم ومكانه من الأسلحة الاجتماعية على قدر ما تسعه المعلومات الاقتصادية . ولا نبليغ الغرض المقصود مما نرمي اليه من ذلك إلا بتقديم فذلكة اجتماعية عن الحرب الحيوية العامة وأسلحتها نودعها تمهيداً موجزاً فنقول :

تمهيد

قلنا أن الأمم حيال بعضها في حرب سلمية مستمرة لها قواد وجنود وفيها انتصار وانهازم وهجوم وانسحاب . وقلنا أن قواد هذه الحرب السلمية هم قادة

أفكار الأمم ومدبرو شؤونها. وقلنا أن غلبة الأمة في هذه الحرب الحيوية العامة أو انخذالها مرتبط بمهارة قوادها وحنقهم أو جهلهم وقلة خبرتهم بخدع الحرب وأساليبها. قلنا كل هذا وهو قول يخاله بعض البعيدين عن الحقائق العلمية شعراً وما هو إلا صورة الوقائع ونسخة الحوادث. وربما كان هؤلاء الظانين شبه عذر فيما خالوه فإنهم يصورون لأنفسهم حالات الحياة وشؤونها حوادث غير مرتبطة ببعضها ولا حاصلة على مقتضى قانون ثابت يهب النتيجة على قدر المقدمة. بل شؤون تقذفها المصادفات وتهيشها على غير قاعدة ، ومن كان منتهى علمه بحال الحياة هكذا فأجدر به أن يحهل من أحوال الحرب الحيوية العامة ما كان يجب أن يعلمه لو أراد أن يكون جندياً مقداماً في أمة غالبة .

تعال لأحد هؤلاء الغافلين عن هذه الحرب الحيوية العامة وقل له : إن الأمة المصرية قد فقدت في الخمسين سنة الأخيرة جزءاً عظيماً من أراضيها الزراعية وهي في أكثر الجزء الباقي مغلولة الأيدي عن التصرف فيه تصرف المالك في ملكه ، وامرده ما اندرس بسبب ذلك من بيوتات المجد وما هوى من معاهد الشرف القومي والفخار الاهلي وما تعطل من صنائع البلاد وتخرب من مصانعها ومعاملها وما انتقل من تجارتها الى يد سوامم من الأجانب ، وما استدعاه كل ذلك من ادعاء كل أمة صالحاً خاصاً لها في هذه البلاد وغل أيدي حكومتها عن التصرف في مالها لما وضعت عليه من المراقبة . قل له هذا إجمالاً ودعه هنيهة يفصل ما أجملته له على قدر ما رأى وما سمع ، وأنا زعيم بأنه لا يخرج من جولته الفكرية هذه إلا وهو متملق بك يستميتك أن تصف له شأن هذه الحرب السلمية الصارمة التي جرّت على البلاد ما لا تجره الحرب الدموية في أقسى أشكالها وأخشن صورها .

لا جرم أن هذه الحسائر الهائلة التي تكبدتها الأمة المصرية التي ضربناها لك مثلاً من بين سائر الأمم الشرقية ، تدل على هزائم متوالية تكبدتها في هذه الحرب العامة وأجبرتها الظروف في كل هزيمة منها على ترك مقادير كبيرة من ذخائرها

وأسلحتها ، والرضاء من شرائط الصلح بما يس شرفها ويحط من قدرها ويزيدها استسلاماً على استسلامها وليناً على لينها . ولا شبهة في أن القواد الذين تولوا قيادة هذه الأمة في تلك المدة الماضية كانوا جهالاً غير مدربين . لأن مجموع ما أصيب به المصريون في هذه الخمسين سنة ينبغيء بارتكاب القادة لأغلاط فاضحة سببت من الخسائر ما زاد عن الحد المعقول فيما لو كانت هزائمنا اتبعت قانوناً طبيعياً منتظماً .

أمر تصور هذه الحرب الاجتماعية العامة التي وقف عليها علماء الإنسان أعمارهم وأعمالهم لا يحتاج لكثير إمعان لو أراد الكتاب تصويرها على أسلوب خال من المصطلحات الفنية . وها نحن شارعون في ذلك توطئة لما نحن بصدده .

فهم هذه الحرب العامة وإدراك ما يطرأ فيها من غلبة وانخزال ومن هجوم ونكوص الخ .. مرتبط بفهم الحرب الخاصة بأحد كل أمة فيما بينهم ، لأن الأولى صورة من الثانية ومتبعة قانونها وإن خالفتهما من جهات عامة ، لذلك فنحن نبدأ بتصوير تلك الحرب الخاصة المستمرة بين آحاد كل أمة ، ثم نعقبها بتصوير الحرب العامة الشاغلة لكل الأمم لنمهد لأنفسنا سبيل الكلام لموضوعنا الأصلي .

هب أن عدداً من الناس رحلوا عن بلادهم لسبب من الأسباب وأناخوا ركائبهم بقطعة من الأرض حاصلة على شروط الاستعمار وأجمعوا على اتخاذها وطناً لهم . لو تأملت فيما يحصل بينهم من شؤون وفيما يؤول إليه حال كل فرد منهم بعد أمد محدود ودققت النظر في تلك النواميس الطبيعية التي اقتضت تلك الحال وتبعت كل أثر من خلال علله المتعاقبة حتى وصلت لعلته الأولى ، أشرفت على جملة نواميس اجتماعية عامة لو تتبعتها في الأمم لرأيت لها من الآثار والأحوال ما يشابه أحوالها وآثارها على تلك الأمة الصغيرة بصرف النظر عن اختلاف الأسماء وتباين المسميات .

فرضنا نزول هذه الفئة في تلك الأرض بقصد استعمارها والقيام عليها .

فتأمل فيما يحصل بينهم وما يصطلحون عليه أو ما يرغب بعضهم بعضاً على اعتباره. لكل هؤلاء الأفراد حاجات تطالبه طبيعته بإيفائها وله في مقابل ذلك قوى جسدية ومعنوية تمكنه من العمل على سد تلك الحاجات . فينساقون كلهم للعمل فيعود كل منهم يجملة ما حصله ولكنهم لما كانوا يختلفون من جهة قوام الجسدية والمعنوية كان التفاوت بين مقادير محصولاتهم أمراً مقضياً، فمن كان جسده أقوى على المشاق وأقدر على مكافحة الصعوبات وكانت قواه المعنوية من مدارك وأخلاق أسرع في تصيد وجوه الاستفادة وأصبر على خشونة المقدمات في سبيل حسن النتيجة، كان بلا شك أكبر محصولاً وأوفر نصيباً وأفوز سهماً. فإذا تكرر العمل وتوالى الكدر والكدح ظهرت مواهب أولئك الآحاد وتجلت قوام وتلألت ملكاتهم. فلا يلبث أولئك الأقوياء جسداً ومعنى حتى يجتمع لديهم ما زاد عن حاجاتهم ويتراكم عندهم ما يصرفهم عن بذل أعمارهم في محض الأعمال المادية فيلتفتون لاستصلاح قوام الأدبية واستثمارها، فيزدادون علماً بنواميس الكون وطرق استغلالها وتسخيرها فيرتقون عن إخوانهم الضعفاء درجات فتحصل لديهم قوة رابعة هي قوة المال . تأمل في هذين الصنفين من هذه الأمة الصغيرة . صنف الأقوياء أجساداً وعقولاً وأخلاقاً وما أدتهم اليه مواهبهم من رغد العيش وما دعاهم ذلك إليه من تحسين أحوالهم الأدبية حتى ارتقوا عما كانوا عليه درجات واكتسبوا قوة رابعة هي المال . وصنف الضعفاء الذين بقوا حيث هم لضعف أجسادهم عن مواصلة العمل أو عقولهم عن إدراك وجوه الاستفادة أو أخلاقهم عن الصبر على المكاره . تأمل هذين الصنفين بامعان وانظر ماذا يكون بينهما .

تر أن الصنف الأول دعته طبيعة الاحوال إلى ادعاء السيادة على القسم الثاني وتخويل نفسه حقوقاً عدة وطالب خصمه بالاعتراف بها إن لم يكن طوعاً فكرها : أهمها أولويته بحكومته وسياسة أموره وسنّ النظامات له وتربيته وتهذيبه على مقتضى أسلوبه وحمايته واستخدامه وتصريفه على مقتضى إرادته واعتباره أحط درجة منه .. الخ .

يطالب القسم الغالب خصمه بهذه المطالب فلا يسعه إلا الرضوخ لها لأنه

ضعيف من جهة أو جهات من تلك الأربع جهات التي ذكرناها وهي الجسد والعقل والأخلاق والمال . فإن شرع في مقاومة خصمه بجسمه خانه عقله من خطئته في تخير أخصر سبل المقاومة ولأنه أحط عقلاً منه . وإن واثق عقله أقعدته أخلاقه من الجبن وعدم الصبر أو الافتتان بمظهر الأقوياء وزخرفهم . وإن وافقه أخلاقه هاضت جناحه الفاقة وكسر قوادمه الإملاق فلم يسعه إلا التسليم بشروط أو بغير شروط . فيسلم بشروط إن كان فيه بقية من حياة فيرضخ ولكن باستقلال وحرية وأنفة وشعور . أو يسلم بغير شروط إن كان الضعف بلغ منه حده الأقصى فيصبح عبد الأقوياء فيرى كل ما فيهم حسناً وإن كان قبيحاً وكل ما فعلوه عدلاً وإن كان جوراً وكل ما قالوه علماً وإن كان جهلاً وكل ما عملوه شرفاً وإن كان خسة .

إذا أدركت سر هذه الحرب الخاصة المستعرة بين آحاد كل أمة أمكنك أن تدرك سر هذه الحرب السلمية بين سائر الأمم . وذلك أن كل أمة في حد ذاتها تشبه الفرد الواحد ونقطة النزاع بينها جميعاً هي هذه الكرة الأرضية ومرافقها . وكما أن سلاح الافراد هو الجسد والعقل والأخلاق والمال ، كذلك سلاح الأمم هو مجموع مظاهر هذه القوى الأربع في الأفراد .

درس هذه الأنواع الأربعة من الأسلحة الاجتماعية من جهاتها المختلفة على قدر ما تسعه العلوم العمرانية والفلسفية والاقتصادية يخرجنا عن الدائرة التي رسمناها لهذه العجالة . فلنكتف هنا بأن نقول إجمالاً أن هذه الأنواع الأربعة من الأسلحة هي التي تهاجم بها الأمم بعضها بعضاً . وعلى قدر ما تكون في أمة أمضى حداً وأصفى جوهرأً بلغت تلك الأمة من السبق إلى غايات المجد والتقدم إلى منابع المنافع أقصى ما يرمي اليه قائدو حركتها في ميدان تلك المعركة الحيوية العامة .

تفسير تقدم الأمم وغلبتهم بهذه الأسلحة الأربعة ليس بموقوف على العلماء بل هي مرئية لكل متأمل في أحوال الأمم ، وما من جاهل في الأمم المغلوبة إلا

ويدري أن تلك الأمم الغالبة ما تسلطت على أمته إلا باستعمال قوى جسدية وعقلية وأخلاقية ومالية تفوق ما لدى أمته منها . ولكن مما يختص به العالم الاجتماعي معرفة مواطن تلك القوى وطرق إنمائها وتربيتها وجهات ضعفها عند الأمم الضعيفة وجهات قوتها عند الأمم القوية ووجوه استخدامها والمقارعة بها وحمايتها من الطوارئ . الخ .

ليس لعامة الأمم سواء كانت غالبة أو مغلوبة حظ من معرفة مجموع الحركة العامة التي تجريها الأمم بازاء خصومها في مجال التنازع الحيوي . ولا تسهل عليه تلك المعرفة لو أرادها كما لا تسهل على الجندي البسيط رؤية حركات الجيشين المتقابلين رؤية جلية ، لهذا ترى العامي لا حظ له من هذه المعارك الحيوية إلا تأمل ظواهرها ، فيعلل الغلبة والانزمام بما يؤثر على تصويره قبل غيره من مظاهر المشاهدات فيضل الطريق ويضل غيره . وتكون النتيجة ضلالا عاما يستفيد منه العدو المساور ما لا يستفيد من قوته الذاتية .

لما كان أظهر مظهر لهذه الأسلحة الأربعة وهي القوى الجسدية والعقلية والاخلاقية والمالية هي الجيوش المدربة والأساطيل المصفحة والمعامل العامرة والصنائع الفاخرة والآلات الباهرة والنظام المستفيض على الأفراد والآداب المسبغة على الطبائع والعزائم القوية والإرادات الثابتة والأموال الصالحة للاستغلال وإحداث جلائل الأعمال ، فالناظر اليها نظراً سطحياً يرجو أن يكون لأمته مثل ذلك لتستطيع أن تحفظ كرامتها بين الأمم فيدعوها إليه بلسانه وقلمه ويتذرع لاقتناعها بكل ما يستطيعه من ضروب الحث والحض لا يميل له لسان ولا تحفى له براعة . ولكنه لا يرى فائدة لندائه لأنه يدعو إلى الظواهر ويغفل عن أسرارها وطرق الوصول إليها فهو كمن يحمي لفقيه فيؤنبه ويلومـه على تقصيره عن تشييد قصر يحاكي قصر جاره ويتلذذ به للاسراع في العمل ، وكأنه يجهل أن ذلك الفقير قد رأى ذلك القصر قبله ورجا أن يكون له مثله ولكنه لما لم يجد إليه سبيلاً رضي بحاله مرغماً . ولكن صاحبنا الذي يدعوه متى رأى

منه عدم الانصياع لإشارته رماء بالموت والجبن وعدم الشعور وتفنن في أساليب تبكيته والنعي عليه ما شاء وتكون النتيجة من هذه الضوضاء تضليل المدعو ويأس الداعي وذهاها طعمة سائفة لمن ينازعها الحياة .

هؤلاء الدعاة السطحيون كما تستخفهم هذه المظاهر المؤثرة لهذه القوى الاجتماعية الأربع كذلك تستخفهم أعراضها المتحولة وصبغها المتغيرة ، ولم يؤثروا قوة علم تزعمهم عن الوقوف مع القشور ، فتراهم مرغمين على تصيد أقرب تلك المظاهر إليهم وأشدّها تأثيراً عليهم وأكثرها شَبهاً بالعلل الفعالة فيدعون إليه سنين بلا سأم ولا ملل لعدم أن انتظام الجيوش وحنكتها وبناء الأساطيل وتصفيحها هو نتيجة فتح المدارس الحربية على الطراز الجديد وإيلاء المعامل بمده عشرات من المدرعات والنسافات وهي نتيجة صحيحة المقدمة سليمة ، فما المانع عندهم من إدمان الدعوة إليها ؟ ويفيب عنهم أن الأحوال الاجتماعية ليست موقودة بقوانين المنطق وأن فتح المدارس الحربية التي تعتبر مقدمة للجيوش المنتظمة هي أيضاً نتيجة المقدمة سابقة وتلك المقدمة السابقة نتيجة لمقدمة أسبق يلزم الالتفات إليها والتعويل في البحث أو في الدعوة عليها . وهكذا ترى لهم لكل نوع من الأسلحة الاجتماعية سبباً قريباً وربما كان السبب الذي أثر عليهم مظهره هو في الحقيقة سبب ممرض يفر الرائي ظاهره ويهوله باطنه ، كهمهم في أمر الربا وظنه مدار المعاملات وسبب زيادة الثروة العمومية ويفيب عنهم أن الثروة العمومية تابعة في حصولها ونموها لقوانين اقتصادية طبيعية ليس الربا منها في شيء بل هو عرض خبيث عن أعراض الثروة كما ستراه .

لا مشاحة في أن الذي أوهم البعض منا بضرورة استحلال الربا وخيل لهم أنه مدار الثروة هو إشرافهم على خطارة الدور الذي تلعبه بنوك أوربا في مرسح الشؤون العامة . وهي نزعة من نزعات النزق في الاستدلال والمججلة في إصدار الأحكام وأثر من آثار الحبط في تقدير أوزان الحوادث والخلط بين

ظواهرها وحقائقها . فلا لوم علينا لو قلنا أننا لم نر مظهراً من أكبر مظاهر الرقي الاجتماعي الأوروبي نسب إلى عرض من أحقر أعراضه كما نسب انتظام أمر الثروة العمومية إلى قاعدة الربا . لم لا تكون هذه النسبة صحيحة في نظر العامة وهم يخالون أن لفظي بنك و ربا مترادفتان وما داموا يسمعون عن بنوك أوروبا وأمريكا وعما لها من الآثار الهائلة في الشؤون العامة أموراً تشبه الشعر أو السحر ، وبما أن بنكا و ربا في نظرهم كما قلنا شيء واحد فيستنتجون من ذلك أن الربا هو دعامة تلك الثروة وينبوعها ، ويغيب عنهم أن إيراد تلك البنوك واطراد نماء ثروتها مصدره تجاراتها الواسعة ومشروعاتها الكبرى من استخراج معادن وحفر مناجم وتهديد سبل .. الخ ، وما حظ الربا فيها إلا شيئاً حقيراً بجانب أرباحها الأخرى .

نحن نكتفي هنا بإيراد شواهد عامة تريك أن الربا عرض اصطلاحى اتحد عليه أصحاب الثروة من المتعاملين لا أنه الأس المولد للغنى والقاعدة التي عليها نظام المعاملات أو أنه دعامة من دعائم العمران .

من أعظم الأدلة المحسوسة قيام دولة آباءنا الأولين ولم يكن الربا من أصولهم ، وقد دلت الآثار والتواريخ على أن أولئك الرجال بلغوا من العمران وسعة التجارات وبعد مدى المعاملات الغاية القصوى ، وقد كانت المبادلات التجارية حاصلة بين الأطراف المترامية من مملكتهم المدهشة بدون أن يحدث ما يعرقل سيرها بل كانت ثروتهم في نماء مستمر والأموال في تضاعف دائم متبعة في ذلك قانونها الطبيعي ، وكان الغرب أمامها إذ ذاك رغماً عن أن الربا قاعدة من قواعد سيرته يشكو الفاقة والاقلال ونضوب ينابيع الأموال واختلال نظام المعاملات .

فإذا كان عدم تقرير الربا لم يمنع تلك المدنية من الظهور بأجلى مظهر في كل فرع من فروع المحاولات الانسانية ولم يؤثر على نمو التجارة وانتظام المعاوضات بشيء ، بل شهد التاريخ أن آباءنا كانوا أمهر رجال عصورهم في التجارات وأبعد مدى في نظام المعاملات من كل أمة مناظرة لهم . إذا كانت حالهم كذلك وهم

أعداء الربا الألداء وثبت أن حال أوروبا المقررة للربا كان على نقيض ذلك أي في اختلال واعتلال .. أفلا تدل هذه الحادثة بالبدهاة على أن الربا عرض يصطلح عليه الناس اصطلاحاً ويتفقون عليه اتفاقاً ؟

دعنا الآن من بيان وجه ضرر الربا أو نفعه وكشف أسرار أحد هذين الوجهين لمن يحلها ، ولنساجل أولئك الذين يودون استئصال الربا رسمياً البحث في هذا الموضوع وإن لم يعطونا من آرائهم إلا الإجمال فنقول : هب أن أمة من الأمم الشرقية أحلت الربا وعدته من قواعد الثروة العمومية كما يريد أن يوهها بعض نصحاءها فماذا ينالها من وراء ذلك ؟ لا حاجة إلى إجمالة الروية فإن الأمر ليس من الأمور المغيبة التي يعوزها الخوض في المجهولات والرجم بالظن فإن الربا في مصر وإن لم يحلل رسمياً فقد استحلّه قومنا عرفياً إما افتتاناً وإما ضعفاً وصار لهم نحو من أربعين سنة وهم يتأملون به إعطاء وأخذاً سواء من جهة الأفراد أو الحكومة ، فماذا كانت النتيجة ؟ كانت كما ترى خروج معظم أطيان القطر المصري عن ملك مالكيها وخراب ألوف مؤلفة من البيوتات الباقية إلى الاضمحلال والانحلال . فهل هذه هي النتيجة التي يرمي إليها مرشدونا .. ؟ كلا ! إنهم يريدون بتقرير قاعدة الربا أن ينمحي من عندنا ذلك المانع الهائل الذي يمنع أغنياءنا عن ضم رؤوس أموالهم معاً وتكوين عصابة مالية تؤلف بنكاً أو بنوكاً وطنية على نحو ما هو موجود منها في كل بلد متمدن والدخول بتلك الأموال في ميدان الأمور الاقتصادية والمضاربات المالية وإحداث ما تحدثه البنوك من الآثار الحسنة على بلادها وحكوماتها .

هذه شبهة تزوج في أكثر الأذهان وتنطلي على غالب العقول لا سيما ونحن تحت تأثير فتنة شديدة يضيع أمام مظاهرها كل تحقيق . ولكننا مع ذلك لا نتأخر عن مصادلة هؤلاء الدعاة بالحجج ولن تعدم الحقيقة فؤاداً حياً . وفؤاد حي خير مما لا يحصى من غيره .

هب أن الغاية التي يرمي إليها مستحلو الربا هي الواسطة لاجتماع الأموال

المتراكمة وظهورها في ميدان المغالبة الحيوية ؛ وهب أن الربا هو قوام ذلك المال
المجتمع وحياته ؛ فهل ذلت كل الصعوبات التي تحول دون ذلك الاجتماع كما تحول
دون كل اجتماع آخر يراد منه فائدة عامة ؟

إذا كان المغترون بقشور المسائل تزدهيهم المناظر المتنوعة المتحولة فيطلبونها
بالسنتهم ولا يسمعون لأصواتهم صدى ويكتفون من لقب مرشدين بأن يكونوا
مجرد دعاة يأتي كل منهم من حين لآخر يجريدة تشمل قوانين مطالبه في الإصلاح
وقواعد مذهبه في استرداد المجد المفقود ..

إذا كان بعض الناس تزدهيهم المناظر فتحملهم على النداء والصخب بالمطالب
المتنوعة في كل فرصة من الفرص الممكنة ، فإن العلم لا يرى تلك المظاهر المتعاقبة
وإن تعددت في الأشكال والأحوال إلا مظاهر مختلفة لقوة واحدة هي (الحياة)
ليس غير . وإذا كان أولئك المتمجسون لا يدرون سر تلك العوامل الطبيعية
والنفسية الحاملة إلى الاجتماع على الأغراض الصالحة والاتحاد على الغايات المشتركة
فيطلبون من الأمة مطالبهم بدون التفات لتلك العوامل والتحسس منها لإثارها
وتنشيطها ؛ فلإن العلم يرى أن الأمم كالأفراد لا تتحرك إلا بجياة تحمل فيها .
وأن تلك الحياة تظهر في صغريات الأمور كما تظهر في كبرياتها . وأن العاطفة التي
تحمل إنكليز بلدة على الاتحاد لتأسيس ميدان للعب الكرة هي بعينها التي تحملهم
للاتحاد على مقارعة الأعداء وتذليل الصعوبات والقيام بعظام الأعمال . وأن تلك
الدوافع التي تدفع في صدور المصريين عن الصبر على تكوين جمعية أدبية هي
عينها التي تدفعهم عن تأليف شركة تجارية أو عصبة مالية . فالعلم قبل أن
يطالب الأمة بمطلب من المطالب العمرانية يتأمل في مقدار ما عندها من القابلية
له تحاميا عن مفاجأتها بمطلب تعجز عنه فيكون اتخذها بعد الشروع فيه سبباً
في غرس بذر اليأس في قواها وتعودها على التكوص بعد الإقدام وعلى الفشل
بعد العمل . فالعلم يحسب لهذه المطالب حساباً دقيقاً جداً ويدرك خطر تلك

الجرائم المضرة التي يولدها في الأمة مجموع ذلك الصخب بالمطالب المتنوعة والمزاغم المتوالية المتكررة .

إذ تقرر ذلك فدون الاجتماع على تأسيس بنوك وطنية تلعب دوراً مالياً في ميدان المحاولات الاقتصادية العامة صلاحية الأمة للاجتماع والثبات في المشروعات الكبرى . ولا تكون تلك الصلاحية إلا إذا دبت في الأمة نفحة الحياة الاجتماعية بمنهاها الخاص . هنالك يكون الاجتماع لاحداث الأعمال الحيوية اضطرارياً كاجتماع أعضاء الجسم وتكاتفها بالفطرة على أداء الأعمال اللازمة لحفظ الجسد ، فالعلم يسمى في تهيه الأمم وإعدادها لقبول تلك الحياة والتصرف بها وهو بعيد عن مشار تلك التيهات المزعجة والزواجر المفعمة المثالب .

إذا علمت هذا فتحملك بعض الناس في أمر استحلال الربا سابق أو انه ، ولا يكون من وراء خوضهم فيه إلا تكدير أذهان الناس بما لا طائل تحته . ذلك إن كان الربا في حد ذاته قوام المعاملات ودستورها وكان تحريمنا له خطأ منا في الفهم وليس الأمر كذلك .

هذا من جهة . وأما من جهة أخرى فإن الذين يريدون من تحليل الربا بعث أغنيائنا من خو لهم المالي وتحريضهم على النزول بأموالهم المجتمعة في غمرات المعارك الاقتصادية ومزدهم المقارعات المالية ، على نحو ما عليه الأمم الحية ، هم في مطلبهم هذا كمثلهم في سائر مطالبهم الأخرى يرمون للنتائج الكبرى ولم يقدموا لها مقدمة تناسبها ، ويريدون أن يبنوا على الأسس الواهية علالي تزاخم السحب في مدارجها ، كأنهم يتخيلون أن الكلام قوة تحيل الأشياء عن مجاريها الطبيعية وتوقف النواميس الاجتماعية عن بلوغ حدودها . لا جرم أن الذين يطلبون تحليل الربا ويكون غرضهم منهم تحلية الأمة بهذا السلاح المالي على نحو ما رسمناه هنا قد برهنوا على عدم إلمامهم بشيء من القوانين التي تجري على مقتضاها هذه الحرب الحيوية العامة خصوصاً من جهة الأمور الاقتصادية والأعمال المالية ، ولو عرفوا أن قيادة بنك تستدعي من القائد من المهارة وبعد النظر

وسعة مدار الفكر أكثر مما تستدعيه قيادة جيش ألقيت عليه عهدة حماية حدود الأمة من عدوان العادي عليها ، لأنهم أن يفسروا تباير البنوك الأوروبية وتزاحها على اقتصادي واحد يود كل منها أن يكون صاحب الزعامة في إدارة أموره وتديبر شؤونه ، وكثيراً ما تحصل هذه المزاحمة على بعض الاقتصاديين في البلاد الأوروبية ، ومن يطلع منا على خبرها يندهش ويتمعجب .. وليس في الأمر عجب لمن يعلم أن لكل شيء قانوناً خاصاً ولكل صناعة في هذا العصر فناً له أصول وقواعد ، وأن للشئون المالية علماً قائماً بذاته يقال له علم الاقتصاد السياسي له أصول وفروع وقوانين مستندة على الحوادث والوقائع ، وإدارة الأموال على مقتضى ذلك العلم أساليب وطرق شتى تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة والمزاحمات وطبيعة المقارعات والمنازعات وتلك الشؤون المختلفة فرجات وأزمات لكل منها أحوال تقتضيها وأمور لا بد من دراستها والتعمق فيها ، فكيف لا تتزاحم البنوك على رجل دلت أعماله المالية ومراميه الاقتصادية القضية على بعد نظره في الأمور وكمال دربته بإدارة أموال الجمهور ؟ ومن يعلم أن الأمم في هذا العصر أصبحت تتنازع البقاء بالأسلحة المالية ، وأن ماتحملة الواحدة للأخرى من أنواع النكايات وصنوف الهزائم من تلك الجهة أشد وأقسى مما تحمله لها من الجهة العسكرية ؛ عرف تبعاً لذلك أن كل أمة تود أن تلقي بنفسها في ميدان المنازعات التي من هذا القبيل يجب عليها قبل كل شيء أن تبحث عن القادة المدربين والاقتصاديين الوطنيين الذين يحسن أن يسند اليهم أمر قيادة مال الأمة في مجال هذه المصارعات المالية الخشنة ، ومن الخطر المحض دعوة الأمة إلى حشد قوتها وإسنادها إلى من لا يعرف من أساليب الحروب الاقتصادية شيئاً فإن في ذلك ضياع مالها كله ضياعاً قانونياً .. ثم لا تستطيع أن تطالب به غريباً .

فإذا كانت أمتنا لم تدخل بعد في دور الاجتماع على إحداث الأعمال العامة ذات النتائج البعيدة كما أثبتنا ذلك وكما يلحظه كل متأمل من آحادها . وإذا

كان من العتب المحض البحث في أمثال هذه الأمور المالية الهائلة قبل وجود من يلقي إليهم زعامة قيادتها ورئاسة إدارتها منا كما برهننا على ذلك .. فأني فائدة في تكدير ذهن الأمة بالتكلم في حلية الربا وإحداث قيل وقال في هذا الموضوع الذي ليس وراءه أدنى فائدة .

هذا فكرنا في عموميات هذا الموضوع أما في خصوصياته من أمر أذاته وفيما يتعلق به مما يمس الأخلاق وهيئة الاجتماع فذلك موضوع المقالة التالية .

* * *

الأصول الحيوية للأمم

لكل أمة أصول حيوية صبت على قلوبها عقولها ومداركها وقاست على مقياسها دستورها وقوانينها ووزنت بقسطاسها عوائدها وأخلاقها وأنهت إليها محامدها ومفاخرها وناطت بها حياتها وبقائها . فأصبحت تلك الأصول عينها التي تبصر بها الوجود فتحكم عليه حكماً يناسبها . وعقلها الذي تدرك به الأمور فتقضي عليها قضاء يشاكلها . ومشاعرها التي تشعر بها الأشياء فتزلهما من نفسها المنزلة التي تلائمها . وعواطفها التي تتحرك بها فتنبه بنفستها إلى حيث ترمي إليه وتنقاد له .

هذه الأصول تسود على الأمم فتؤيدها لها الحوادث أو تحورها وتمكنها منها الشؤون أو تزعزعها ولكن لا يزول أصل حق يحل محله غيره إما وحياً من مؤثرات الحوادث الوجودية أو نفثاً من جائشات الأوهام الضميرية . ونحن كما يرى كل راء أمة عظيمة تبلغ آحادها مئات الملايين حالين من الأرض بأخصب البلاد تربة وأجودها هواء وبقعة ، وقد سجل لنا الوجود تاريخاً يخفق على كل صحيفة منه علم مجد وسؤدد وتشرق من كل سطر من سطوره لألاء فضيلة ومحمدة . وقد أثر ماضينا على ماضي أكثر الأمم فأصبح تاريخها مرتبطاً بتاريخنا فلا تمطفهم لقديمهم عاطفة ذكرى حق يكون لنا قسط منها وهي بقية من بقايا تلك السيادة الصورية والمعنوية التي كانت لأبائنا على أسلاف هذه الأمم . فإن ما قالوه من بسطة الملك والجاه نشر سلطانهم شرقاً وغرباً وأحاط بماخذ الأمم جنوباً وشمالاً ، فكان القطر الذي لم تجل لهم فيه الدهم المظهمة تقوم مقامها العلوم المنقحة والآداب الموشحة والصنائع النافعة ؛ وأمة تحل من العالمين محل الهامة من الجسد أو العين من الرأس وتأخذ على عهدتها تخليص الأمم من أيدي

الأخذين بمتنفسها حيفاً وهضماً والماسكين بأكظامها إذلاً وإهانة لا شك يكون لها أصول في الحياة تحافظ عليها وتحتذي طريقتها . ولا مشاحة في أن تلك الأصول قد انتقلت منهم إلينا جيلاً بعد جيل فاختلطت بدمنا وحياتنا وتلبست بأجسادنا وأنفسنا وإن دخل اليها ما ليس منها وخرج عنها ما كان متعماً لها ، فنحن وإن فصلتنا عنهم القرون وأبعدت بيننا وبينهم الأجيال وغيرت من الحوادث وبلغت فينا الوسوس ؛ نسخة منهم وصورة مأخوذة عنهم وإن لم تكن صورة مطابقة ونسخة مضبوطة . خلاصة القول أنا أشبه الناس بهم أو أكثرهم حباً لهم وتحكماً فيهم . نزع أنهم كانوا الأكلين أخلاقاً ونقيم على ذلك الأدلة وندعي أن مدنيته كانت المدنية الفضلى ، ونأتي على ذلك بالشواهد ونعتقد أن اليوم الذي نتمسك فيه بسيرهم ونحتذي فيه سمتهم هو اليوم الذي نسترد فيه المجد المفقود والشرف الضائع ، ويكون لنا من السلطان على الشعوب ما كان لهم .

هذه عقائد امتزجت بمقولنا وعواطفنا واختلطت بكياننا وطبيعتنا حتى صار دون نزعها منا نزع أفندتنا من نياطها ، وخلع أكبادنا من مواطنها .

نعم إننا لسنا عاملين بتلك الأصول التي نحبها ونهواها والتي نصف لك من تعلقنا بها وبأهلها ما نصف . وربما كان من الأمم الأجنبية عنا من هي أكثر عملاً ببعضها منا ، ولكننا رغماً عن ذلك ورثة تلك الأصول وأهلها ، وما مثلنا في عدم العمل بها ومجرد تمنينا إلا كمثل ولد ترك له والده مالا جماً ، وعرضاً كثيراً ، فحالت بينه وبين ميراثه حيلة محتال أو غيلة مفتال ، أوجب وقوعه فيها ضعف عقله ، وسورة أهوائه ، فهو لا يزال يحلم بميراثه ، ويعني نفسه بالاستيلاء عليه متى بلغ أشده وساعدته الحوادث . أتستطيع أن تردده عن تمنيه هذا ؟ كيف وهو غاية ما يسليه في وحدته ، ويعزيه في بلاءه وشدة ، فهو لن يزال يترقب استرداد ميراثه حتى يناله ، فيعيش غنياً أو يموت طالباً له فيروح وفيأ .

كذلك نحن حرمانا ميراث آبائنا لأسباب كثيرة ، ولكن حب ذلك الميراث امتلك أهواءنا وتسلط على عواطفنا ؛ فلا تزال تذكره وتردده ، وإن كان منا من أخذت عليه الملمات المؤيسة ، ونهكت ضميره الفتن المقلقة ، إلا أن السواد الأعظم ينشد تلك الضالة ويترقبها ، لا يهنأ له بال ولا يتم له سرور إلا بحصول أمته عليها ، فهو في خلوته أو جلوته ، في تجارته أو صنعته ، في حله أو رحلته ، في عرسه أو مأتمه ، يذكر ذلك الميراث ويتمناه ويحدث به أصدقاءه وخلصاءه ، ويثق من استرداد أمته له وظهورها به بمظهر أوائلها وأسلافها ، حتى إنه ليقول ، وقد جاشت بصدره الآمال ، ولمع له بارق الإقبال : « ترى هل نعيش حتى نرى ذلك اليوم ؟ » .

تلك الأصول الحيوية العالية التي كانت لأبائنا فملكوا بها الأمم وأفندتها ، والتي لا تزال نتمنى الرجوع إليها والعمل بها ترينا الحياة وتكاليفها ، والإنسان ومواهبه ، والأمم وشؤونها ، والوجود وممالكه ، والفضائل ومواطنها ؛ على غير الصفة التي ترينا الأصول الأوروبية التي يسمى بعض كتابنا في إشرابها نفوسنا ، وصبنا على قلبها .

من أكبر تلك الأصول التي أشربتها نفوسنا : إننا ننظر للحياة الأرضية نظر الغريب منها النازح عنها ، ونرى أن لذاتها ومسراتها بروق خلب وأعراض خدع ، وأن مثل العالم فيها ، مثل قوم شدوا رواحلهم ، وزموا ركائبهم طلباً لمرعى خصيب فيه العيش خفض ، والحياة رغد ، فهم فيما بينهم يجب أن يكونوا على مثل حال المزاملين في الظعن ، والمنقطعين في الفلوات ، متراحين لا متزاحين ، ومتواهبين لا متناهين ، ينعطف غنيهم على فقيرهم ، ويحنو كبيرهم على صغيرهم ويعلم عالمهم جاهلهم تخفيفاً لألم الترحال ، وتلطيفاً لمضض الأوجال ، هؤلاء القوم لا يحرمون على أنفسهم اللذائد ، ولا يخلونها من شيء من الملهيات ، ولكنها لذات لا تقعدهم عن المسير ، وملهيات لا تقطعهم عن التفكير في المصير ، ولا تنشئ بينهم وبين إخوانهم الأدنين نيران الحسد ، ولا تزرع بين المثرين منهم

والمقترين بذور اللدود ، وكيف يتحاسد المتزاملون في السفر والتحاسد مقطعة عن الوصول ، ومدعاة للتيه عن الجادة ؟ غنيهم لا يتيه بغناه ، ولا يتخذ آلة الاستعباد من دونه ، بل يعتبر نفسه مؤتمناً على عروض عهدهت إليه لإنفاقها في حدودها ووضعها في مواضعها من المصالح التي تستدعيها طبيعتها . فهو لا يريد الغنى إلا ليواسي به فقيراً أو يفك به أسيراً ، أو يقيم به بيتاً ، أو يكسب به عارفة سكن إليها فؤاده ، وتسرح في لذاتها المغنوية نفسه . ومن كان ينظر للحياة وتكاليفها ، وللثروة واختصاصاتها بهذا النظر (فكيف يعد الربا مباحاً ؟) ويتقاضاه من معوز لا يملك قوت عياله ، فإذا لم يؤده إليه حرمة من طعمته ، وصادره في أمتعة أطفاله وزوجته ؟ بل كيف يعد الربا مباحاً من هو مدين لأتمته سنوياً بائنين ونصف عن كل مائة من أمواله مها بلغت ، وبما يقارب ذلك من عروضه المالية الأخرى ؟

يريد مرشدونا السطحيون أن يحيلونا بتحليلهم الربا وغيره إلى هذا الأصل الأوربي قلباً وقلباً . أما قلباً .. فما نحن فيه ، وقد سار أكثرنا على صراطه وتورطوا في أحواله ، وهم أعلم الناس بأحواله . وأما قلباً .. فلا يمكنهم ذلك ، فإن الحس لا يعارض بالكلام والحقيقة لا تزول بالأوهام ، فلا يستطيعون مها قالوا وكتبوا أن يمنعونا عن اعتقاد أن أصلنا هو الأصل الموافق لحقيقة الحياة المخفف من أوصائها ومصائبها ، وأنه سيأتي يوم يراه العالم كله أحق بالاتباع وأجدر بالعمل به ، ولكن بعد أن تكون الفتن قد أدبته بسوطها والجوائح قد عركته بأظلافها . هنا أشعر أن أسرى الظواهر ، وصرعى الفواتن أخذوا يهزون أكتافهم استبعاداً واستهجاناً ، وربما كان لهم شبه العذر ، فإن مظاهر الرقي الصناعي الأوربي قد سترت عيوب تلك المدنية المادية ، بحيث أصبح لا يراها إلا أصحاب الأفتدة والبصائر ، وهل نطمع أن نستشهد على ما نقول بأحسن من علماءها ومقيمي صروحها . قال الفيلسوف (فييرنس جيافرت) في كتابه (الغمة الحاضرة) : « إن الحقد والعداء يزدادان يوماً فيوماً في نفوس أهل البأساء المحكوم عليهم بالفاقة الدائمة . وإن جنون البذخ والكبر ينمو على قدر ذلك

لدى أهل اليسار والترف ، وهذا الإلحاد الآخذ في النماء يسوق جميعاتنا بعاطفة المساواة إلى حالة ثورية دائمة . وأصبحت ترى الملوك العظام يتعاقبون على عروش الملوك بسرعة لم تكن تشاهد في وزراء الأزمنة الماضية والحكم الإستبدادي بدل أن يتركز في بعض الأفراد أضحى منتشراً بين الملايين ، فكل ديموقراطي يتمنى أن يبلغ الرتب العلية ، وترى الشعب لما أحس أنه خلص من أسر الواجبات التي تفرضها عليه الكنيسة ، وازدرى بذلك الدستور السياسي الذي يراه يتغير بسرعة جنونية ، أعطى لعاطفة الأثرة فيه كل الحرية ، وصار يعتبر أن ما له من حق المساعدة في إدارة شؤون حكومته وسيلة لنيل مآربه الحيوانية بأسرع ما يمكن ، ولقد رجونا أن ندأوي مصائب النوع الإنساني بالكنوز المادية ، التي ألقيت بين أيدينا من منذ قرون من الزمان ، كما تكاتف العلماء ، والمهندسون والصناع ، والميكانيكيون على زيادة متاع الحياة الدنيا ، فلم يكن من نتيجة كل تلك المكتشفات ، إلا نشر حمى حب المال في الطبقات النازلة جداً . ثم قال :

« إن تحت السلم الذي اقتضاه الخوف العام لأحقاداً تحتتمر اختاراً بأشد مما كانت في أي زمن من الأزمان . فإن جرائم الفوضويين وإفلاس المالين وانتحار الأسر بأجمعها والوساوس الآخذة في الانتشار بين الناس ، والجنون الذي لا ينتظر إلا سنوح الفرص ، وأصحاب الأثرة البائسين ، وكل هذا الفساد الخلقي الشديد الوطأة البعيد القرار الذي عم أجناسنا ناشئ من عدم وجود أصل يصلح لإحداث الوحدة والإخاء بين احتياجنا الدائم للعمل وبين عاطفة الحب فينا .

« لذلك ترى ظلمات من الحسد والكمد آخذة في الاسوداد كل يوم ملقية أطنابها على عالمنا . ويزعم الإنسان في غروره أن حرية الأثرة ستحصل له كل ما يتمناه من سرور وانسراح ، حتى أصبحنا وكل يوم لنا مطلب جديد وكل طائفة تسعى لنيل امتيازات جديدة ، وكل فرد يدعي لنفسه حقوقاً ليس لها حد

تنتهي إليه ، وبذلك فقد أصبح الإنسان بين هذا العذاب المنصب عليه من الكبر والتمرّد معترفاً بأنه أمام الحياة أضعف مما كان في أي زمن من الأمان . ا هـ .

وقال الأستاذ (كاميل فلامريون) : « لا يجوز لنا أن نخجل من الاعتراف بما وقعنا فيه من الانحطاط لأننا رضينا به وأصبحت عقولنا المتشعبة بالآثرة لا هم لها إلا أغراضها الذاتية . أليس حظنا اليوم من الحياة قد استحال لجمع الثروة بلا مبالاة بوجوه جمعها ، والحصول على المجد بطريق الاغتيال لا الكسب ، والجمود وعدم الاهتمام بالدستور والواجبات ؟ » ، « إن من التناقض المؤلم البين أن نرى أن الرقي الباهر الذي حصل في العلوم مما لا مثيل له في التاريخ ، وإن هذه الفتوحات المتوالية التي تمت للإنسان في الطبيعة بينما رفعت عقولنا إلى المدرجات العالية أهبّطت إنسانيتنا إلى أخس الدرجات » . (انتهى) .

فهل بعد أن نسمع عن أعلام تلك المدنية أمثال هذه الحقائق الحيوية نستطيع أن لا نحب أصلنا ونتمناه وأن لا ندعو أنفسنا والعالم كله إلى حماء ؟ نعم أنا لا أفكر أنا لسنا ناهجين منهاجه ولا متبعين أعلامه ولكننا في تنكبنا عنه نعتقد أننا ضعفاء مفتونون وأننا لصنوف الجوائح مستهدفون ، ولا نزال نمّني أنفسنا بالرجوع إليه والتعويل في الحياة عليه ، وكل ما نلاقه في أنفسنا من المصائب وما نقرؤه عن سواها من الحوادث يزيدنا ثقة فيه ويجعلنا نعتقد بضرورة رجوع العالم إليه في المستقبل القريب ، وليس ذلك بعجيب . فياصاح لا تقنع بأنك صاح .

* * *

المختصر من فِنة المَدنية الغَربية

ليس من الصعب سرد الأمراض ووصف الأعراض والإشارة لجهات الألم ومراكز السقم ، وإنما الصعب كل الصعب تعيين عللها وأسبابها وتحديد عواملها وموادها ، فإذا تعينت العلل وتحددت العوامل أمكن للطبيب مكافحتها بأسلحة العلاج وحصر نفوذها في دوائرها وأخذ المسارب عليها من كل جهة حتى لا تتعدى حدودها وتبلغ نهاية استشرائها .

نحن أمة منتشرة في كل قارة من قارات العالم وما من طائفة منها إلا وهي مصابة بأمراض اجتماعية خاصة أكسبتها لها أحوالها الحيوية وشؤونها السياسية وأمراض وراثية عامة هي ما أصابها بصفقتها جزءاً من جسم أمة عظيمة ذات شأن كبير في تركيبتها الانساني . فيحسن بالباحث العمراني قبل أن يسترسل في بحث أن يشير على أي شعب يتكلم أو في أي نوع من أمراضه يبحث ، أما ذلك الخلط بين الأمراض الخاصة والعامة وبين شعب وآخر فمما لا يكون له نتيجة ولا يناله غير الإغفال والإهمال . وإني بما كتبت في المؤيد لم أحُ حول الأمراض الخاصة لأي شعب من شعوبنا لعلمي أن تلك الأمراض الخاصة بما لا يدخل تحت حصر ، وهي كيفيات رديئة اقتضاها شيء من النقص الخلقي أو العقلي لا تلبث أن تزول كما تزول العلل الجسدية متى بلغت حدّها الطبيعي وسيرها المعتاد إذا كان الجسد محمياً من المؤثرات الخارجية ، ولتحققي بأن العلة العامة هي الأحق بالعناية والأدعى لبذل أقصى مجهودات العلم في تحديدها وتعيينها .

أثبتنا في مقالاتنا السالفة أن مرضنا العام الشامل لجميع شعوب أمتنا وهو المرض الذي تلاشت فيه سائر أمراضنا السابقة ، هو تلك القوى المحللة المنصبة علينا من أوروبا تحت أسماء ومظاهر فاتنة مموهة . وقلنا أن هذا التدافع بيننا وبين تلك القوى أمر طبيعي تقضي به نوااميس الوجود قضاء لا مرد له ، بل

إن نظام الكون يستدعيه لحفظ التوازن الحيوي في العالم وسوق الطوائف البشرية إلى بلوغ غاية ما عدت له من منصات المدنية الفاضلة والحياة الطيبة .

قلنا كل ذلك وبسطناه على قدر الإمكان ولكن قارئنا ينتظر منا بعد هذا كله أن نريه وجه الخلاص من هذه الورطة الهائلة وهو ما وقفنا له الشق الثاني من هذا البحث .

الحيلة الوحيدة الفعالة للخلاص من هذه الورطة المحتاجة هو التربية والتعليم وبذل الوسع في تعميم أنوار المعرفة بين سائر طبقات الأمة . هنا أشعر أن بعضاً من يابهنون بكتاباتنا يحسون أنفسهم بطائفة من عدم الارتياح لفوت ما كانوا ينتظرونه منا من الذهاب في شرح الدواء المذهب الذي سلكناه في تشخيص الداء، مما كانوا يؤملون أن يجدوا فيه الإكسير المحرب الذي لا يخيب متعاطيه ولا يخلص مجافيه . وهل هنالك إكسير مجرب شهد له الوجود وتاريخ الإنسان قديماً وحديثاً غير التربية والتعليم ؟ أي شيء أحدث ذلك الفارق الهائل بين أوروبي القرون الوسطى في خضوعهم للخرافات وعجزهم عن حماية بلادهم وعمايتهم عما يلزمهم من الصنائع النافعة ، وبين أوروبي هذا العصر في حذقهم ومهارتهم وصنائعهم وقوتهم غير التربية والعلم ؟ وإني بقولي التربية والتعليم قد قلت أحسن ما يمكن أن يقوله قائل وجئت بما لا تقوى أي فلسفة على دحضه ، وإن كان من الشيوع والشهرة بحيث لا يحله أحد .

يقول قائل : « لا ينكر أحد فضل التربية والتعليم ولكن يظهر لنا أنها في بلادنا سائران على أسلوب ناقص لا يصلح لا يفاظ عواطف النفس وإحياء ملكات المدارك ودليلنا على ذلك ضؤولة نتيجهتها وضعف أثرهما في حالة البلاد . » نقول أن الأمة لم تشعر بحاجتها إلى التربية والعلم إلا من منذ ربع قرن تقريباً ولا أحسب ما سبق ذلك . فإن سعي الأمة إذ ذاك وراء العلم لم يكن شعوراً طبيعياً منها بل سوقاً قهرياً من حكامها . والناظر لنتيجة التعليم في هذه المدة الوجيزة من يكون على علم بحال الأمة قبلها يدرك لأول وهلة أن الأمة قد

خرجت من دور غفوة وظلمة إلى دور يقظة ونور بسرعة لم تشاهد في أكثر الأمم . ومن يتأمل في هذا العدد العديد الذي نبغ منا في الكتابة والتأليف والطب والقوانين والهندسة والمشروعات والزراعة الخ .. يعلم أن البلاد أنجبت من الرجال من لم يكن يحلم به رجال الزمن الماضي . ومن كان لا يزال على قيد الحياة من أبناء الجيل السالف يعترفون بهذه الحقيقة الجليلة . ومن يلتفت حوله فيشرف على الجرائد اليومية والأسبوعية والمجلات المتنوعة العلمية والمؤلفات التي تترى كل يوم لا يتمالك نفسه من الاعجاب والتعجب ويزيد إعجابه وتعجبه لو نقل نفسه الى الجيل الماضي وأشرف على حالة الخلود والخلود اللذين كانت فيها البلاد وانصراف الناس حتى عن الفكر فيما يسمى تحريراً أو تأليفاً أو نصيحة . ولست في حاجة للتنويه بهؤلاء الكتاب والشعراء الذين شرفوا عالم الآداب بقرائهم الخصيبة وملكاتهم النخبية ورقوا اللغة العربية الى ما يقارب درجتها في زمن المدنية العربية الباهرة ... أليس هذا كله أثر من آثار التربية والتعليم على ما فيها من نقص في الأسلوب وتشوه في الشكل ؟ .. على أن ذلك النقص يتكلم من نفسه وهذا التشوه يتجمل بذاته شيئاً فشيئاً ما دامت الأمة تشعر بالحاجة الى التربية والتعليم شعوراً ذاتياً ولم تدفع اليه دفعاً كما كان شأنها في الزمن السالف . ولو دام الحال على هذا المنوال لبلغت الأمة المصرية من التنور والمعرفة درجة الأمم الراقية لا محالة . وهل ثم من يستطيع أن ينكر علينا أن التعليم في العشرينات الأخيرة قد ارتقى عما كان عليه قبلها رقىاً محسوساً ، ومن الشطط البين أن توجد مدارس حاصلة على أرقى أساليب التعليم المناسبة لحالة الأمة طفرة بدون تدريج .

يقول قائل آخر : « لا ينكر أحد درجة التنور التي وصلت اليها البلاد في مدى هذه المدة الأخيرة ، ولكن المشاهد أن هذه الدرجة من العلم لم تؤثر على المصري في تحسين حاله أو الفكر في مآله ، بل هو لم يزل كما كتب بعض الإنجليز في (الإيجشن غازيت) في الدور الذي كان عليه قبلاً لم يطبق عليه على العمل في إدارة أموره الشخصية ولم تفده التربية فائدة في تكميل نفسه وإعدادها

للمكافحة والجهاد . نقول ليس هذا بمعجيب وإنما المعجيب أن يكون المصري في هذه المدة القصيرة كالانجليزي أو الألماني استعداداً للعمل وجلداً فيه وصرفاً للعلم في تحسين شؤونه وأحواله ، أليس من الاجحاف البتة أن نطلب إلى المصري الذي لم يشعر بذاته ولم يعرف له وجوداً إلا أمس أن يحاكي في الحياة والنظام من أحيته الحوادث منذ قرون وهيأته المكافحات لإدراك أحسن وسائل البقاء وأوجه وجوه الاستفادة من الوجود ؟ إذا كان المصري في هذه الخمس والعشرين سنة أدرك أن له وجوداً وشعر بأن سيكون له مستقبل حسن أو رديء ، فظل يبحث فيه وينقب عنه وإن لم يعمل له بمقتضى علمه فقد أتى بكل ما يمكن أن يأتي به كل ناشئ لم يصل بعد لفهم خطاب الحوادث وإدراك معنى وخز الكوارث لقرب عهده بالشعور والحركة وقلة خبرته بالحياة وتكاليفها . وهل يرجى من الطفل الناعم أن يبلغ مبلغ الكهل البادن دربة في الأعمال وتصرفاً للأمور ورأياً في المعاضل وبصراً في أعقاب الأحوال ومصاير الشؤون ؟ يكفي المصريين فخراً أن يتمنوا مجارة غيرهم في مضمار الحياة وإن لم يجرؤوا شوطاً واحداً للآن لعدم استعدادهم له . وهم بذلك كالناشئ الذي يجب أن يأخذ أخذ الرجال في الأعمال والعظائم فيقعده لين جسمة وضؤولة شخصه وقصور أعضائه فيتألم ويستكين وقد يبكي ويظن بنفسه الظنون ولا يدري أن الزمان عامل في إعدادة وتكيله ، فإذا وصل إلى مستوى الرجال قوي على الكفاح وصبر على مكارهه وشدائده ونال من نتائج كده ما يناله كل عامل دائب .

قال قائل ثالث : « وكيف إذن أدركت اليابان شأو أمم الغرب في ثلاثين عاماً . ألسنا مثلهم جسماً وعقلاً ؟ » . نحن لا نؤاخذ هذا المعارض فإنه ليس بعمراني يدرك وزن المسائل الاجتماعية فيتحاشى ما يستهجنه العقل ويمجه العلم وينكره الواقع ، وإنما نؤاخذ أولئك الكتاب المغالين الذين يتحمسون لبعض المسائل بدون تدبر فيسوقون الشعرىات والخيالات مساق الحقائق الثابتة بغير نقد ولا بحث . أليس من المضحك المبكي أن يصور بعض كتابنا للأمة أن الشعب الياباني خرج في مدة ثلاثين سنة من غيبوبة الخمول إلى نور الحركة والحياة

وأنتى في هذه المدة الوجيزة بما يعجز البشر ولم يسمح به الحظ لأمة من الأمم ، مع أن صنائع اليابان كانت قبل (ألف سنة) تعرض في قصور ملوك أوروبا كما تعرض الأعاجيب المحيرة للمدارك ؟ أليس من العجيب أن الأمة التي ترد غارة (كوبلاي خان) عن بلادها وهو فاتح العالم وضارب الجزية على روسيا ، وتلقي أجنحة حمايتها على كوريا رغما عن جارتها الدولة الصينية الضخمة ، تصبح بفضل بعض كتابنا الأمة الحديثة النشأة الجديدة العهد بالحياة ، والأعجوبة الاجتماعية التي لم تسمح النواميس العمرانية في مدى تاريخ العالم كله بمثل ما سمحت لها به من الرقي السريع والحياة الفجائية ؟ أي مانع يمنع أمة مثل الأمة اليابانية ظلت الفين وخمسمائة سنة مستقلة ومعرضة لتأثير حوادث مهبدة للمدارك وكوارث مهيئة للرقي وشؤون بحمية لمواهب النفس أن تصل بعد كل هذه المدة الطويلة الى مثل ما عليه أمة أوروبية ؟ بل أي مانع يمنعها من أن تكون أرقى من أرقى أمة لقدّم عهدها بالاستقلال والمدنية ؟ لا جرم أن الذي يقيس الأمة المصرية بالأمة اليابانية يشط شططاً بيناً لعدم انطباع الحالين على بعضها من كل وجه كما بيناه هنا في مقالات متوالية .

الخلاصة أن التربية والتعليم هما المخلص الوحيد مما فيه الشرق عامة وكل أمة على حدتها خاصة ، لكن هناك أمران خطيران يجب الالتفات اليهما وهما : (الأول) القوى الأوروبية المحللة . (ثانياً) المفتونون منا بمدينة الغرب . أما تلك القوى المحللة فقد درسناها في مقالة سبقت فهي دائبة لا تكل ، وكلما أدمنت وتمادت مصت دماءنا وأفنت قوانا واستنزفت حيويتنا شيئاً فشيئاً .. وأما المعجبون منا بمدينة أوروبا إعجاباً لا حد له فهم في تحمسهم لعاداتها وأصولها ونصحهم للأمة بالأخذ بها يساعدون فعل تلك القوى المحللة مساعدة خطيرة للدرجة القصوى . ألا ترى تراحم أمم أوروبا على فتح المدارس ببلاد الشرق تصرف المصاريف الطائلة عليها وهي أحق بها في بلادها ؟ ماذا يعني ذلك من تلك الأمم إن لم يكن السعي في نشر لغتهم وعاداتهم بيننا تسهيلاً لتحليلنا لما قرره لهم العلم من أن اللغة والعادات من أكبر المحللات لعناصر الأمم المستضعفة ؟

فهؤلاء الذين يلقبون بعضهم بعضاً بالمصلحين هم أكبر أعوان تلك القوى المحللة من حيث لا يدرون بل من حيث يريدون الإصلاح ، فإن كان هنالك وجه للتخوف والشك من المستقبل فهو من جهة هذين الخطرين الكبيرين ليس إلا ، وعلينا أن نبدي رأينا فيها تنميا لهذا البحث خدمة لأمتنا المحبوبة .

*

زِيَادَةُ بَيَان

لاحظ على بعض ما كتبت تحت هذا العنوان في مقالاتي المتتالية كاتب نبيل بمقالة نشرت يوم الخميس الماضي في المؤيد وجعل أمام ملاحظته جملة ثناء وتحبيذ بها تعبر عن أدبه وحياة شعوره ، وإني أحياه وأحيي فيه تلك النزعة الفاضلة . وإني بمقالتي هذه أرجو أن أزيد موضوعي بيانا وأولي ما أغضته سعة وشرحا .

إن ما ذكره خضرة الكاتب من أن هذا الاحتكاك بين الغرب والشرق كما هو سبب فتنتنا هو سبب يقظتنا أيضاً مما لا مشاحة فيه ، وإني للآن ما بحثت في أسباب هذه اليقظة ولا في العوامل التي هيأتها ولعل لها موضعاً فيما يلي من القول .

أما تشبيه المصريين باليابانيين فلا أراه جائزاً بوجه من الوجوه لتخالف الأمتين في جل أحوالهما الرئيسية التي لها الشأن الأول في حياة الأمم ونموها . ولأسرد أمهات تلك الأحوال على عجل فأقول :

(١) الأمة اليابانية أمة تبلغ خمسة وأربعين مليوناً من النفوس قائمة بذاتها غير مرتبطة بأمة أخرى في حركتها الحيوية . والأمة المصرية يبلغ عددها عشرة

ملايين نسمة ^(١) وهي جزء من أمة عظيمة لا مناص لها من التأثير بمركتها العامة جذباً وانجذاباً وسكوناً واضطراباً .

(٢) الأمة اليابانية دولة مشكلة تحت زعامة ملك هو حلقة من سلسلة ملوك يصعد تاريخ أولهم إلى ما قبل الفين وخمسمائة سنة ، والأمة المصرية ولاية تابعة لدولة أخرى كانت لا مناص لها من الرضوخ لمن تؤمره عليها وتطلق يده بالتصرف فيها وكثيراً ما أضرت تلك اليد بالمصالح الخاصة والعامة معاً ، ثم لما حصلت العائلة الحاكمة في هذه البلاد على شيء من ظواهر الاستقلال احتوشتها أطماع الأجانب وأصبح أمرها تابعاً لارادات الدول جمعاء ، ولا يخفى على أحد ماهية تلك الإرادات ووجهتها .

(٣) الأمة اليابانية لم يذلها الاستعباد الاجنبي ولم يتسرب اليها الحين من قبل الحكومات القاتلة للمواطنين الفاضلة ، ولا يجد المؤرخ أمة تحاكي الأمة اليابانية في كثرة اضطراباتها ومشاغبيها الداخلية ، وناهيك بشعب يقضي أكثر من ألفي سنة في حركة وهياج لا تهدأ لها فائرة إلا ريثما تستجمع قوى جديدة وتدخر أسلحة أحد ضريبة ، وما أوجب لها كل هذا الشعب إلا دم يغلي بجمرة العزة وعوامل الأنفة والفتوة . أما الأمة المصرية فقد رضخت لحكم فاتحيها وسلمت لهم قيادها بعد أن أعياها الجهاد قبل أكثر من ألفي سنة فخضعت للسكون وتركت أمورها لتصرف قادتها ، حتى أن الأجانب المتنازعين في السلطة كانوا يتقاتلون في دارها يحيوشهم الخيفة وهي ساكنة تنتظر الغالب لتخضع له مكرهه وتقدم له الإخلاص منكراً عجزاً عنها عن مناوأة العالم كافة . فإنه لم يكن أمامها إلا أحد أمرين : إما أن تقف لكل فاتح بالمرصاد وما كان

(١) هذه الأرقام نتيجة لإحصاءات سابقة منذ أكثر من أربعين عاماً ، وقد تضاعف عدد سكان كل من الدولتين عدة مرات خلال هذه المدة .

أكثرهم في العالم السالف فكان يجب عليها لذلك أن لا تقعد سيفاً ولا تروي زرعاً ولا تدخر شاباً وليس هذا في وسع أمة ، وإما أن تخضع للفاثحين وتكون تابعة لأقوى دول العالم في كل جيل وقد فعلت ولم تزل على ذلك . أين هذا من الأنفة اليابانية التي لم تقبل أن تضيف الأجانب في بلادها وتشملهم برعايتها ؟

(٤) الأمة اليابانية تسكن جزائر بعيدة عن مرامي الأنظار ومطارح المطامع فلم تزعجها غيل المغتالين ولم تكن يوماً من الأيام مغنا يستدعي شره الفاتحين ، أو طريقاً يربو مالكة أن يحكم به الأمم أجمعين . والأمة المصرية تسكن قطعة من الأرض تعد مفتاح الشرق كله دانيه وقاصيه ويعتبرها الجغرافي والسياسي نقطة الاتصال بين الأمم المستعمرة والشعوب المستأهلة للفتح . لذلك قاست مصر من ضروب الهجمات وصنوف المباغطات وألوان الغارات والطامات ما لم تذقه أمة من أمم الأرض . وكابدت من أخلاق الفاتحين وشراسة المغتصبين ما لم يصبر عليه غيرها .

(٥) الأمة اليابانية في كل أدوار حياتها تحدث نفسها بالمجد والسؤدد والغلبة والظهور ، ولكن المصرية من منذ ألفي سنة لا تحدث نفسها إلا بأمنية واحدة وهي عدل الفاتح ومرحمته لا الخلاص من ربقة والتفصي من حبالته . وفرق جسيم بين أمتين إحداهما تحدث نفسها بالعزائم والعظائم وأخرى تستعطف المراحم وتستلين الفاشم . تلك تنمو فيها ملكات الإقدام والجرأة والشهامة وهذه تنعدم فيها على طول الزمن صفات الأحياء ولا تزداد على توالي الأدوار عليها إلا استكانة وخمولا ، ولو تلاقي أمة ما لاقته الأمة المصرية لكانت مثلها لا محالة ، فلا جرم ختمت الأمة اليابانية تاريخ اضطراباتها بإقامة حكومة دستورية شوروية وكان ذلك نتيجة جهادها كل تلك القرون الماضية قبل أن يدرس شعبها درساً واحداً من مدنية أوروبا .

لما استتب للحكومة الجديدة الأمر حانت منهم التفاتة فإذا الغرب أسبق منهم إلى كثير من كليات الحياة فمالوا إلى الأخذ بها ، ولكن ميلة العالم يريد أن

يتكلم لا الجاهل يود أن يتعلم : لذلك لم تفتنهم مدينة أوروبا بل كانوا بإزائها كمن لاحت لهم غنيمة فحففوا إليها مراعاة كخفتهم الآن في سهوب منشوريا و رعان بور آرثر يهمة لا تعرف لها حداً خشية المباغثة ، لأنهم كانوا يعلمون أن أوروبا لو فطنت لهم لعلت كيف تناقشهم الحساب على ما يأخذون منها . ولم تكن أوروبا تعرف عنهم وعن حياتهم الصحيحة إلا ما ينقله لها كتاب الرحلات ولا يخفى على أحد مصدر نقلهم ومسرح تقدمهم ومبلغ معارفهم . وكلنا يعلم أن جلهم لا حظ لهم من كتابتهم على الشرق إلا ذكر العجائب وإيراد الشوارد في الأخلاق والعادات ، ومن يرد أن يعرف طرفاً من خلل نقلهم وبعدهم من الوقائع في أكثر ما يوردونه فليطلع على ما يكتبونه عن المصريين وعاداتهم .

أخذ الأوروبيون معلوماتهم عن اليابان من أولئك الرحالات فصوروا اليابانيين لأنفسهم بصورة ما ، فلما حسرت عن وجهها اللثام وظهرت بمظهرها الحقيقي خالها الناس أعجوبة اجتماعية وغالوا حتى كادوا يعلنون بها عن مستوى البشر وسيعلون بها حتى ينههم المنبه الأوروبي .

أما الاحصاءات التي يمكن إيرادها عن ترقى أحوالها الاقتصادية والحربية في مدى هذه الثلاثين سنة فهو من طبيعة الحكم النيابي وخصائصه ، فإن للأمم حاجات في نفوسها تشعر بها ولا تستطيع إبرازها لقصور طاقة الأفراد عنها ، فهم يؤملونها من القائمين بشؤونهم تأملاً فإن شاءوا حبوهم بها وإن شاءوا أرجأوها لأنه كثيراً ما تخالف إرادة الحكومة مطالب الشعب وحاجاته فتهملها بل وتميت العاطفة الباعثة إليها ، ولكن متى حصلت على الحكم الدستوري تدفقت تلك الحاجات وبرزت إلى عالم الظهور بسرعة مدهشة . هذا ما يريناه تاريخ كل أمة دستورية ، ولو وازى المنتقد بين ما حصل من الرقي الفجائي في ممالك أوروبا بعد تقرير تلك المجالس مباشرة وبين اليابان لرأينا أن في اليابان بطاً في السير عن غيرها .

أما الذي صد (كويلاي خان) عن اليابان فهو جساسة اليابانيين وإقدامهم

وتمكن الأنفة والحفيظة من نفوسهم ، فقد دامهم الفاتح الآسيوي في ديارهم بمائتي ألف وأربعين ألفاً من الجنود العتاة المعتادين على شرب المهجات وخوض الغمرات ؛ فلم يصددهم المحيط ولم يعوزهم للوصول إلى جزر اليابان إلا تعدية بحر اليابان الذي يفصل تلك الجزر عن القارة الآسيوية . ولقد نازل فرسانه رجالات اليابان كتفاً . لكتف فلم يسعه بعد أن رأى ما رأى من شكيمة شديدة وجلد لا يغالب إلا أن يرضى من الغنيمة بالإياب .

أما عرفان فضل اليابان بخمول ذكر الصين فيه نظر . فان الصين ليست كما يصفها كتاب الرحلات من خلود الحركة وموات العزيمة وهود الاحساس . وما صور لنا هذه الأمة الفخيمة ذات المدنية القديمة وجعلها في أذهاننا عنوان الخمول والانحطاط إلا أولئك السواح المتهورون الذين يكتبون عنا أشد من ذلك مما لا حقيقة له ، ولكن أهل العلم منهم يقرون للرجل الصيني بصفات تضعه قبل الياباني بدرجات وإن قهره هذا الأخير في سنة ١٨٩٤ وألجأه للتسليم بشروطه . ويستنتج هؤلاء العلماء من صفات الصينيين وقبولهم السريع للرقى بأخص معانيه وعددهم البالغ حدود الكثرة أن هذه الأمة سيكون لها شأن هائل في العالم وأن أوروبا التي لا تعبأ بها الآن ستلتجئ لأن تحتمي منها بالهرب إلى بلادها وهذا ما يعبرون عنه (بالخطر الأصفر) ، ولولا ما يتوقع من النهضة السريعة للصين لما كان للخطر الأصفر وجود البتة ، فإن الأمة اليابانية إن قاومت دولة أوروبية فلا قبل لها بمقاومة دولتين وهي عبارة عن جزر لا تبلغ مساحتها مساحة فرنسا لو تحطم أسطوها لتلاشت خطارتها وزال كل خوف من جانبها .

يقول قائل كيف قهرت اليابان الصين وكيف سبقتها إلى الأخذ بالنساع من لمدينة الأوروبية مع ما تصف به الصيني من السمو على الياباني ؟ .. نقول أما سبب غلبة اليابانيين فجودة السلاح وحسن القيادة العسكرية وقد دهمت هذه لأمة جارتها الضخمة بهذه الوسائل الخفية وهي في غفلة عن خطارة الجديد خطره فلم تقو على الدفاع فسلمت لعدوها في مطالبه . لا عجب من هذا فقد قهر

المصريون الأتراك في بلادهم تحت قيادة ابن مؤسس العائلة الخديوية مع ما هو مشهور من شجاعة الأتراك وشدة بأسهم . ولكن هي الأساليب الحربية والأسلحة المتقنة التي أصبحت مدار الفوز في حروب هذا الجيل .

أما سبب سبق اليابانيين في الأخذ بالنافع من أوروبا فله أسباب اجتماعية كثيرة من أكبرها :

(١) أن الصين أمة كبيرة جداً يبلغ أفرادها نحواً من خمسمائة مليون أي ثلث العالم كله ، وهي تشغل حيزاً شاسع الأطراف من الأرض يصعب على أهله أن يلتصقوا على غرض واحد أو يتآمروا على أمر مشترك . وهي مقسمة إلى ولايات كل ولاية تزيد في المساحة عن أربعة أضعاف مساحة جزر اليابان لها حاكم شبه مستقل وله جيش خاص منعزل في إدارته ونظامه عن جيوش زملائه الحكام حتى عن جيش الامبراطور نفسه . فمما سهل على اليابان من ضم نفسها والتآمر على حفظ كيانتها وتدبير أمورها من تأييد دستور وتدريب جيش وتنظيم أساطيل يصعب على أمة الصين الكبيرة لهذه الأسباب كما لا يخفى .

(٢) اليابانيون أمة تكونت من الهجرات المتوالية من الصين وأصقاع آسيا القريبة منها ، وكل أمة تتكون على هذه الصورة تكون أقبل للترقي من الأمم الأصلية ، لأنه لا يقوى على هجر وطنه وأهله إلا من كان يحمل فؤاداً كبيراً وتحمله نفس تواقه للعالي . وبناء عليه فالأمة اليابانية المتكونة من المهاجرات تعد أمة مقداماً بطبعها قابلة للأخذ بالنافع بفطرتها مستأهلة للإقدام على كل غاية قبل غيرها . وقد أخذت بالصالح من أوروبا وضمته إلى ما كان لديها وغداً تسبقها لا محالة . لهذا السبب ترى أمريكا الشمالية التي تكونت من المهاجرات قد سبقت الأوروبيين الذين هي منهم وهي لم تزل أسبق إلى كل جديد وأقبل لكل فكرة حديثة من غيرها .

(٣) اليابانيون أمة محصورة بالبحر جزائرها ووسائلها الحيوية محدودة تكفي عدداً محدوداً من النفوس ، ولكن متى زاد عدد سكانها عن القدر

اللازم تستدعي طبيعة العمران منها أن تتخذ لنفسها سبلاً إلى خارج بلادها وإلا هلكت . من هنا كان اندفاع الأمة اليابانية متركزاً على دوافع قهرية وبواعث طبيعية لا يمكن إحصاؤها . فلا عجب أن تأملت في ذاتها وتفكرت في وسائلها وجمعت أمرها ورقت شؤونها قبل غيرها . أما الأمة الصينية فهي أمة أصيلة تفتخر بأن مدنيّتها تبلغ من العمر آلافاً من السنين ولها تاريخ يرفع من معاطسها ويزيد من أنفتها وهي في بقعة فسيحة خصبة تقيت ضعفها وتقوي مثلها . فليس لها والحالة هذه دوافع قهرية تدفعها رغماً عن إرادتها ، فلا عجب أن سبقتها الأمة اليابانية التي لم تبلغ ولاية من ولاياتها ، أما وقد تولدت بعض تلك الدوافع من جراء مطامح الأوربيين فقد ألقى الصينيون بأنفسهم في ميدان الرقي ، وقد نقل المؤيد هذا الأسبوع عن بعض جرائد أوربا أنه يوجد في مدارس بلجيكا وحدها خمسة آلاف طالب علم منهم ، ولا تسلم عما يوجد منهم في أمريكا القريبة إليهم وفي اليابان جارتهم وفي سائر ممالك أوروبا . وإذا استمرت هذه الحركة عشر سنين انتقلت الصين فجأة من حال إلى حال آخر وعلم الناس هنالك أنهم كانوا غير مقدرها قدرها ولا واضعها في الصف اللائق بها .

هذا ما استطعت إبراده في هذا الموضوع الخطير وإني أرجو أن أعود لهذا البحث نفسه بعد الفراغ من أعمال المترجمة عليّ في هذه الأيام ، وإني ما جئت اليوم بهذه العجالة إلا توطئة لما أرجو كتابته في هذا الصدد بعد الفراغ من مبحث فتنة المدينة الغربية .

* * *

القوى المحللة

قلنا في مقالاتنا السابقة أن الأمة يجمعها سائرة نحو الحياة والتقدم سيراً حثيثاً . ثم خصصنا الشعب المصري ببعض التفصيل فأثبتنا أنه نال في الخمس والعشرين سنة الأخيرة من اليقظة والشعور ما يعز على غيره نيله في هذه المدة الوجيزة . قلنا ذلك كله ولم نبحث عن موجبات هذه اليقظة بل ولم ننوه عما يحتوشها من العيوب المؤيسة التي خصها كثير من الكاتبين بالبحث والتحليل وأفردوا لها الأبواب والرسائل وعقدوا فيها فصولاً لعيوب الأفراد وأخرى لثالب العائلات وغيرها لسائر طبقات الهيئة الاجتماعية . وما حدا بأولئك الكتاب إلى تكلف المشقة في تلك المباحث إلا أنهم يتخيلون لهذه النقائص أسباباً قريبة وقانوناً سهل المأخذ . وعندهم أنهم متى كشفوا القناع عن بعض الحوادث التي نكب فيها بعض العائلات اتعظ الناس بها واتخذوها لهم عبرة . ولكننا نرى أنه ليس يصح أن تعبر الأمة بمعائبها إلا في أدوار دون أدوار ، ولو صح أن يقال أن للأمم في حياتها طفولية فلا يليق أن تبكت الأمة بنقائصها في ذلك الدور كما لا يليق أن يحمل فضح مثالب بعض الأطفال بالتفصيل والتحليل عبرة للأطفال الآخرين في دور نشأتهم .

من هنا صار تعبير الأمة بنقائصها في نظرنا من العبث المحض ولو أردنا أن نحكم حكم العمراني الصارم لقلنا أنها تزيد الناقصين نقصاً ، وتغري الكاملين على الخروج عن حدهم لوجدانهم العذر والقدوة السيئة خصوصاً لو كان الناقصون من الطبقات العالية . وقد ثبت في علم الإنسان أن مكاشفة الأمم بعيوبها في بعض أدوارها يجرىء المستعد لها على غشيانها ويلتقى في الغافل عنها نزوعاً إليها . لذلك كان أمر سياسة الأمم من أدق السياسات وأشدّها على قادة العلم وأساطين الحكمة .

يرى الناس أجمعون أن قد نشأت فينا مع هذه النهضة أدواء لم تكن معروفة

لآبائنا من قبل ، وأن تلك الأدواء آخذة في النمو والانتشار كل يوم حتى آل أمر بعض أصحاب البصر بسببها الى اليأس من المخلص فإن الإلحاد على أشكاله والعقوق بصنوفه والفساد والسفاد بسائر ضروبها الخ .. كلها عيوب لم تكن لدى أهل الجيل السالف الذي وصفناه بالخمول والخمود إلا بدرجة محدودة ، أما الآن فهي في جسمنا الاجتماعي بثرات درنية خبيثة عدت على كيان الأمة والعائلة وسرت إلى سائر الطبقات فأحدثت فيها أموراً لو عدّها المعدّد لأدمت العيون أسمى وكلمت الأفئدة أسفاً .

نعم كل هذا كائن وليس من الصعب سرده سرداً وقذف مرتكبيه بالمثالب والملاوم والنعي عليهم بما هم أهله ، ولكن الصعب كل الصعب أن تنقب على العلة فتجد جرثومتها فتجتثها أو تهتدي إلى ميكروبها وتعرف مادة حياته فتبيده بالمهطرات . هذا أمر شاق وأشق منه على النفس أن تهتدي إلى علل هذه الأعراض السيئة ولا تستطيع أن تعالجها ، لاستدعاء علاجها عقيدة من الآحاد راسخة في إمكان الخلاص منها وأملاً واسعاً جداً في المستقبل وصبراً على شدائد الصبر وهي صفات عالية لا تعطاها أكثر الأمم .

تلك النقائص التي التشنا بها وارطمنا في شعابها في هذه السنين الأخيرة وأصبحت وصمة درنية في وجه هذه النهضة الجميلة لم تنشأ فينا نشوءاً طبيعياً كما ينشأ الشوك بجانب الورد حتى كنا نضيفها الى باب الأعراض التي لا تتنزه عنها كل نهضة من هذا القبيل ، بل اجتازت تخوم المعقول وخرجت إلى متاهات العسف فهوت تيارها بيوتاً وانقرضت أسربأسرها وتهدم بها من مجد البلاد معاهد كانت قوية القواعد ركنة الوطن . ولا غرو أن وجد الكاتب المتشائم مجالاً واسعاً ليراعته من هذا الحال الحالك ولا عجب أن استطاع أن يسرد من ضروب الحجاج العيانية الحسية ما يذهب بالبقية الباقية من الرجاء في قلوب الراجين .

إننا نتحد كلنا في هذا الباب وليس فينا واحد يرى أن النهضة نزيهة عن

نقائص مجتاحة عاملة على الدوام على إطفاء نورها وتصويح زهرتها ولكن الخلاف يأتي بعد ذلك . يأتي في وجه معالجة هذه النقائص المهلكة فيذهب قوم إلى لزوم تكميل التربية وإعطائها قسطاً وعظيماً مؤسساً على قوانين الحكمة . ويذهب آخرون إلى أن هذا التعديل الخلفي مما يجب أن يوكل لسلطة الحكومة فهي التي يطلب منها أن تسوس البلاد بما يقف بأهلها عن الترامي على مهاوي الهلكة والتهافت على مزال الفتنة . ويظن غيرهم أن هذا وظيفة المذهب المدرسي والوازع الحكومي معاً . أما نحن فلا نرى واحداً من هذه الآراء الثلاثة يصلح لمعالجة ما نحن فيه . نعم إن في تكميل التربية والتهديب ودعها بقوانين الحكمة أثراً لا ينكر في تحسين الأخلاق . وكذلك في قيام الحكومة بسن القوانين الرادعة للناس عن التهالك على الموبقات وصددهم عما يبدهم ويبددهم دخلاً لا يستهان به في كبح الأهواء والإبقاء عليهم من التحلل ولكننا مع ذلك لا نعلق عليها خلاص البلاد مما هي فيه .

أما الاعتماد على الحكومات في سن ما يحفظ الناس في دوائر الاعتدال ويحميهم شرور نفوسهم فليس بطريق طبيعي لطالب الإصلاح لأنه من باب الاعتماد على المصادفات إلا إذا كان للشعب قوة على انتخاب الحكومة التي ترضيه . أما شعب مثل الشعب المصري لم يصل لدرجة انتخاب حكومته بنفسه فلا يجوز له أن يرتكن على الحكومة في إصلاح شؤونهم . لأنه إن كان في حكومة اليوم شيء من العدالة والمراعاة للمواطنين فمسي أن تكون حكومة الغد على نقیض ذلك حتى لا تحتل أن تسمع منه طلباً للإصلاح ، وقد رأى المصريون من تغير الحكومات عليهم ضرورياً من أهواء الحاكمين تعلمهم كيف يعتمدون على أنفسهم ولا يضعون حياتهم في يد حكومتهم .

لا جرم أن اعتماد الأمم على حكوماتها في أمر رقيها وتعديل أخلاقها اعتماد على المصادفات ، ولا تفلح أمة تعد بالملايين تتكل في أمر حياتها على أفراد من المسيطرين . وعندي أن القول بأن الأمة المصرية لا تصلح إلا مقودة بقوة حاکمة

مستبدة من الأمور التي لا يقوم عليها دليل ولا شبه دليل . والاستدلال من التاريخ على أن المصريين صلحوا تحت الحكومات الصالحة حتى فعلوا الأعاجيب ، وفسدوا تحت الحكومات المفسدة حتى سقطوا للحضيض لا يؤخذ حجة على أن المصريين خلقوا لأن يعيشوا مجردين من الإرادة والشعور وسيبقون كذلك أبداً الأبد . وإنما غاية ما يؤخذ منه أنهم فتنوا بالضغط الشديد المتوالي وحملوا بالعسف المتواصل على أن يستسلموا للمستبددين استسلاماً لا حذله . فهل يصح أن نجعل هذا الاستدلال تكأة نتكئ عليها في القول بأن المصريين لن يبلغوا قط مبلغ الأمم الراشدة فيشعروا بشخصيتهم ويعملوا لأنفسهم بأنفسهم بدون سيطرة حكومتهم عليهم ؟ وهل يليق أن نركز على هذا الاستدلال فنقرر أن هذا الشعب لن يرتقي عن هذا الدور الاتكالي كما ارتقى عنه كل شعب في العالم بالعلم والتربية ؟ إن ساغ لنا ذلك الزعم فقد ساغ لنا أن ندعي أن المصريين خلقوا نسيج وحدهم وفطروا على غير فطرة سائر الناس وأن ما رفع الأمم الى مقاوم الشعور والأنفة من العلم والتربية لا ينفعهم .

وهذا مما لا يسمح به مذهب فلسفي من مذاهب العالم . وما سبب صدور هذه الآراء البعيدة إلا استبطاء مبدعها حول الأدوار وحدث الانقلابات والتغيرات ، فهم يودون أن تتسلسل أمامهم الحوادث الاجتماعية بما تستدعيه من إصعاد قوم وتسفيل قوم وتقويم أمة وتعويج أخرى كما تتوالى أمامهم حوادث العام أو الشهر . ولذلك فمتى رأوا أن شعباً لبث ألفي سنة على حالة واحدة متبعاً سنة واحدة استنتجوا من ذلك أنه خلق عليها ولن يتعدها إلى غيرها . وربما لا يفيب عنهم أن هنالك أقواماً باقين على حالة الوقوف من يوم خلقوا للآن لأسباب لا يسع هذه العجالة سردها سرداً ، وما ألفا سنة في عمر الاجتماع البشري إلا كعامين من عمر الإنسان الواحد .

ظهر من هنا أن الذين يعتمدون على سلطة الحكومات يخطئون خطأ عمرياً جماً ويرتكبون على المصادفات وهي مما لا يصح الارتكان عليها في شيء لأنها

كالرياح يوم لك ويوم عليك ، والعاقل من يعتد لنفسه عدة تقيه ما عليه من الأدوار فإن عجز اليوم وأخفق جهده فلا يجوز له أن يعتقد أنه عجز الى الأبد فإن للأمم في حياتها أدواراً وللحوادث نتائج وآثاراً . ونحن إن ربينا أبناءنا على هذه السنة سنّة الاعتماد على الحكومات فقد أنشأناهم على ذلك القالب البالي ، وجعلنا منهم أشباحاً لا إرادة لها ولا عزم على سنة من تقدمهم من الأجيال . وأما إن قررنا لها الحقيقة العمرانية وصورنا لهم واجب الأمة على نفسها وحددنا لها وظيفة حكومتها بإزائها فقد أقمناهم على صراط الحياة الاستقلالية ، فإن لم يحياها الجيل الخالف حييها من بعده .

هذا هو الدستور العلمي المؤسس على التجارب وما بعده إلا الآراء المنتزعة من حوادث جزئية خاصة لا تصلح لأن يستنتج منها قانون عمراني له وزن في الأمور العامة .

أما التربية فإنما ممن يعتقد أنها تفعل الأعاجيب ، وهل بعد تدريب الحمام على الرسائل فوق القنابل ، وتمرين الكلاب على قيادة العميان والتفتيش على الجرحى في ساحات الوغى ، وتعويد الخيول والفيلة والمعزى على الألعباب الرياضية المدهشة .. بعد هذا يشك انسان في فضل التربية على الإنسان ؟ لا . لا يشك فيها أحد ولكن الإنسان ليس على سنّة الحيوان . هذا محدود القوى والمدارك مقيد القابلية والاستعداد وذلك مطلق المواهب والملكات بعيد مدى التصور والخيال ، ثم هو مع ذلك مرتبط بطائفة من بني نوعه تستطيع أن تنقض له ما يبرم وتبرم له ما ينقض ، فما يتم لك على الحيوان في عام لا يتم لك على الإنسان في أعوام ، بل ربما لا يتم لك في أجيال متعاقبة تبعاً للأحوال التي فيها الأمة . وقد سبق لنا أن تكلمنا على الحرب الحيوية القائمة بين الأمم ، وقلنا أن الضعيف منها معرض لتحليل القوى وهضمه والفناء في جسمه ، وقلنا أن هذه الأمة مصيبتها قسط هائل من تلك القوى المحللة المنصبة عليها من أمم الغرب فما تفعله التربية في عقول الناشئة في سني المدرسة تبددها تلك القوى المحللة بأسلحتها الساعية

الفتنة في يوم واحد . وهل بعد أن يرى أحداً أنه تربى في المدارس الأوروبية الخاصة لتخريج القادة والزعماء فخرجت الفرقة التي كانت معه من الأجانب فتولت إدارة بلادها بين عالم عمراني وفيلسوف اقتصادي وقائد عسكري أو سياسي ، وخرج هو لا يدري أي شيء يعمل وربما جاء ساخطاً على بلاده زارياً على أهلها ويود أن لو لم يكن من بينها . هل بعد أن يرى أحداً نفسه على هذه الصورة يستطيع أن يمتنع عن اعتقاد أننا بعد التربية تتلقانا أيدي فتنة أسرة تسلبنا إرادتنا وعزيمتنا وتتخذنا آلة لتحليل من دوننا ؟

هذه الفتنة هي مظهر من مظاهر القوى المحللة ولها أشكال وصور شتى يأتينا ميكروبها محمولاً في صدور الأقمصة الملمعة وجيوب الألبسة المؤنقة وأطواء الفرش المنضدة وأثناء الجمل الفلسفية المفوفة وغير ذلك مما يعلم بالبدهة ولا يحسن قوله علينا .

ما دامت هذه الفتنة عاملة دائبة فهي تلاشي آثار التهذيب أو أكثرها ولا تزال بنا حتى تجعلنا فلاسفة قولاً وسفهاء فعلاً .

يقول أنصار المذهب الثالث — مذهب الاعتماد على الحكومة والتربية معاً : « ألا ترى الآن أنه لو كانت حكومتنا مع ما نحن عليه اليوم من الميل للتهذب والتعلم تمنع عنا هذه الفتنة التي نهوي فيها هويّاً سريعاً لوصلنا في مدى قريب إلى درجة عالية من درجات الحياة الصحيحة » .

نقول : نعم ولكنه لم يحصل ويكفي لبيان وهن أساس هذا الرأي أنه من قبيل الأماشي .

يقول قائل : إذا كان الأمر كما ذكرت فما المخلص من هذه القوى المحللة الهاضمة ؟ نقول لا نستطيع أن نبدي رأينا فيه إلا بعد إبداء كلمتنا على المفتونين منا بالمدنية الغربية لارتباط الأمرين ببعضهما .

* * *

المفتونون بالمدينة الفرية

لست من أعداء المدينة الأوروبية ولا من الواهمين في تقدير قدرها . بل أنا ممن يعتقد أنها أفخم مظهر من مظاهر الرقي الإنساني في عالمي الصناعة والعلم الطبيعي وأنها قد ورثت سائر ما حفظته بطون الأوراق وخزائن الأملاك من آثار أعلام العرفان والحكمة ، وذخائر نقباء الطبيعة والصنعة . فوحدت بين متفرق هذا الميراث الأدبي وضمت بين أجزائه . وركنت منه مزيجاً جمع نتائج قرائح الأمم في أمة . وصبت نهايات المدارك الابداعية في قالب واحد . ثم ضمت اليه ما اكتشفته من مساتير الوجود . وما هديت اليه من خفيات المعارف ودقيقات المسائل . فجاء هذا الكل شكلاً يأخذ بالقلب هوى ويملاّ العين سحراً .

الناس بإزاء هذا البدع الفخم أحد ثلاثة رجال :

(١) فهم إما خفاف الأفئدة سريعو التأثر بالظواهر فيزدهيمهم هذا الشكل الأسر فلا يرون لحياتهم قيمة ولا لوجودهم وزناً إلا بتقليد أهله في شأنهم كله ، فيكدون في هذا السبيل صارفين له مهمهم ومهمهم واقفين عليه جدهم وجهدهم فيعيشون متطفلين على موائد غيرهم ، ومن يرض أن يعيش متطفلاً فلن يكون صاحب دار أصلاً .

(٢) وإما موهون أنفسهم بأنهم زارون على هذه المدينة ومعتبروها رجسناً من الأرجاس وقنعوا بهذه الأقوال ثرثرة وتفيها ، ولكنهم آخذون في تربية أولادهم على سنتها المهلكة (في نظرهم) ، فهم من القسم الأول ويزيدون عنهم إثمًا في التلبس بالتغريب والتضليل ؛ وهؤلاء حجة الطاغين وفتنة اليائسين .

(٣) وإما هم (أحياء بالفطرة) شارفوا هذا المنظر المدهش فعراهم ما عرا

غيرهم من دهشة المفاجأة ، ولكنهم لم يفقدوا رشدهم فوقفوا بما وهبوه بالفطرة من قوة الفؤاد واستقلال النفس وقفة المفكر في وجه السير وجهة العمل فتبين لهم بعد إطالة الروية أن الذي ظهر به أصحاب تلك المدنية من المظهر الأسر ليس بطبيعي فيهم وإنما هو عَرَض اقتضته لغيرهم من قبلهم . وإن تلك الصفات والآداب ليست بوقف على أمة دون أخرى فعلموا أن الأمة متى أدركت تلك الصفات فتخلقت بها وأخذت نفسها بأدبها استقامت قناتها وتيسرت أمانيتها وعلت علماً وعملاً وغنى حتى تساوي مناظرها أو تفوق عليهم . فدرسوا تلك الصفات الاجتماعية بنور الفطرة التي أوتوها ، فأوها ليست شيئاً سوى ما طبع الإنسان بفطرته على اعتباره أصولاً للكمال والسيادة مثل العلم والعمل والدأب والصبر والاعتدال إلى غير ذلك من الصفات التي لا يشك في جمالها وجلان . فنظروا إلى ملتهم وقالوا لو علمت أمتنا وعملت ودأبت وصبرت واعتدلت لوصلت إلى مثل ما وصل اليه هؤلاء ، ولو لم يصل جيلها الحالي لوصل اليه من يخلفه أو من بعده ، وإن أخطأ الأمة اليوم المتناع بما ترمي اليه فلا يخطئها شرف التمهيد وفضيلة التأسيس .

وصل الأحياء بالفطرة إلى هذا السر فنظروا لأمرى التقليد فأروهم يسعون إلى حنقهم بظلفهم . كيف لا وهم واقفون رؤوس أموالهم على الظهور بغير مظهرهم ومتكلفون من الحياة ما لا تسمح لهم به وسائلهم . وهم بما ينشئون كل يوم لأنفسهم من الاحتياجات الوهمية التي بتأصلها تصبح ضرورية ، واضعون أنفسهم بحيث يصيرون طعمة الآكل وهدف النابل . ثم رنوا إلى القسم الثاني فأروهم كالأولين ويزيدون عليهم تقريراً ، فتحققوا أن هذين القسمين واقعان لا محالة في رق أصحاب تلك المدنية طوعاً وكرهاً وساقطان في حضيض من النقص ، حتى ليؤول أمرهما إلى الغبطة بأسرها والتبجح برقها فيكونان بجالها وقالها مثلاً محسوساً لفساد الفطرة ومسوخ الطبيعة .

نظروا هذا النظر وانتهوا إلى هذه النتيجة ولم يدعوا أنهم منزهون عن تلك

الفتنة ، ولكن ذلك الأثر الذي علق بهم منها فضلاً عن أنه لم يطمس بصيرتهم
يخرضهم على عدم الوقوف لثلا يقعون مع الواقعين فلا يعودوا يذكرون
الخلاص ولا تخيلاً .

هؤلاء الأحياء لا يحقرون مدنية الغرب ولا يهيمون فيها . بل هم أكثر من
المتحمسين لها تقديراً لقدرها وعلماً بجهات قوتها وأشد من المفتونين بها حباً في
مساماتها ومسابقتها ، ولكنهم أصحاب بصر وعلم لا يدعون إليها لأنه لا معنى
لذلك ولو دعوا إليها لأوهوا الناس أنهم يدعون إلى قشورها من ملابس وملهى
كما هو حاصل . ولكنهم يدعون إلى الأصول الأولية التي هي دعائم كل مدنية .
يدعون للفضائل ويزجرون عن الرذائل . يعلمون أن القوي يغلب الضعيف
ويهضمه ، وأن الأمم فيما بينها في حرب سلمية أسلحتها الوسائل الاقتصادية
والتمويلات الصناعية إلى غير ذلك من موجبات الفتنة فيحذرون إخوانهم من
التعرض لفعل هذه الأسلحة المدمرة بكل ما في وسعهم من علم وحكمة وما يسعه
إمكانهم من سيرة طيبة وقدوة صالحة .

هؤلاء الأحياء هم مادة حياة الأمة وملاك قوامها ومساك هيكلها ونظام
جامعتها بهم تحفظ شخصيتها ومنهم تستمد قوتها . فهم كالحلايا الحية في الجسم
الآلي تبعث الحياة لمن يجاورها . وليسوا مقصورين على فرع واحد من أفرع
المجهودات الانسانية بل تصادفهم في كل مجال : في التجارة . في الزراعة . في
الصناعة . في العلم . وهم في أي مسرح وجدوا تراثهم نسيج وحدهم وأئمة مذهبهم
لا تستعبد العادات ولا تسترقهم التقاليد ، مبالون بفطرتهم للتوفيق بين علمهم
وعلمهم وبين عواطفهم وأسلوب حياتهم ، شديداً الإرادة قويو العزيمة لا يبالون
بما ينتاب جسومهم في مرضاة أفئدتهم .

هؤلاء الأحياء ينشؤون نشوءاً لا يعرف له قانون طبيعي لليوم ، ليس
للمدارس في إيجادهم إلا أثر لا يعتد به وربما استعصت فطرتهم على نظمات

المدارس ودوائرها الضيقة ، فلم ينبغي إلا مستقلين عنها كما أثبتته الأستاذ (سيزار لومبروزو) في كتابه على النابغين المشاهير .

هذا الصنف من الناس الذين نسميهم (أحياء بالفطرة) لا يمتازون عن إخوانهم الحاملين في شيء من الخلق الظاهر ، فلا يتوهم قارئ أنا تصور له عالماً فوق العالم الانساني بل هم من أفراد الدهماء ، وإنما هو فؤاد أشم سكن بين جنوبهم فقلب كيان سرائرهم وجعل لهم وجداناً غير وجدان معاشريهم فهم منهم جسماً ومولداً وليسوا منهم غاية ووجهة . يشغلهم من الشؤون ما يشس منه إخوانهم ويعنيهم من الأمور ما نفص منه الناس أيديهم ، لم يدخل اليأس أفئدتهم بينما يكون اليأس سنة شائعة . ولم يدان الانحلال عزائمهم بينما يكون الخور جنة واقية .

يرى الأحياء هذا من أنفسهم وربما أثر عليهم حال الوسط فتألموا من شدة شعورهم وربما سحرم حال إخوانهم المفتونين فودوا لو غلظ حجابهم ووردوا موردهم ولكن هيهات أنهم مقهورون على حالهم لا يزدادون في شعورهم إلا رقة وفي حجابهم إلا لطفاً . تتوالى أمامهم الأمور وتتقلب بهم الأدوار ويرون الناس حولهم على طرائق من الأثرة شتى فيسيهم بهم خاطر لمجاعة الناس فيردم عن ورود هذا القدر وجدان عال وعاطفة كريمة فيحجمون وربما تألموا من إحجامهم لغلبة الفتنة المحيطة بهم ، وسواء علموا أنهم على هدى أو لم يعلموا فهم مقهورون على سلوك جادة الحماد مدفوعون إليها دفعاً وإن لم يتنزهوا عن شيء من النقائص . فإن شئت أن تصفهم بوصف جامع فقل إنهم مقودون رغم أنوفهم إلى سبل الحياة بدوافع ضميرية قاسرة لا يعرفون مستقرها من أنفسهم .

بماذا تعلل حركات الأمم الحية واضطرابها وبيعها نفوس بنيتها رخيصة في سبيل استعمار بلد أو حماية عن مصلحة ؟ بل بماذا تعلل بيع الانكليز نفوس فلذات أكباد أشرافهم وعليتهم أمام حصون البوير ومعاقلمهم ، وتهاون اليابان في أمر الحياة وبذنها الألوف من رجالها أمام حصون (بور آرثور) ومضائقها ؟ بماذا تعلل هذه الحركات المدهشة من أمم تستطيع أن تعيش مئات من السنين

هادئة ساكنة إلا بما قدمناه لك من أن الحياة في الأحياء حركة اضطرارية فوق الإرادة وفوق العقل وأنها تنشأ على ناموس غير معروف الإنسان ولا هو مما يمكنه علمه .

قلنا ينشأ هؤلاء الأحياء على ناموس غير معروف وإنما الذي تعرفه هو أن كثرتهم في الأمة حياة لها وزيادة لأمد بقائها وقتهم موت لها وتلاش لعناصرها . هؤلاء الأحياء لا ارتباط لهم بالمدارس والعلم إلا من جهات ثانوية فهم قد يكثرون في أمم قليلة المدارس ولو أنشئت لهم المدارس لزادت حياتهم سلطاناً وانتشاراً .

وقد يقولون في أمم كثيرة المدارس حتى لا تصادف منهم في الألف واحداً . وقد تراهم يكثرون في جيل من أجيال الأمة الواحدة فيرفعون شأنها للسماك الأعزل وقد يقولون في الجيل التالي رغماً عن زيادة عدد المدارس وارتقاء العلم في تلك الأمة ذاتها فتسفل حتى تهددها الحوادث في تركيبها الصميم وربطتها الأصلية . ومن ينتقد حال بعض أمم أوروبا العصرية يجد مصداقاً لما نقول .

إذا تقرر هذا فخلاصنا من هذا الضعف الذي نحن فيه وظهورنا بمظهر الأمم ذات الحياة الصحيحة والشعور لا يتأتى إلا بنبوغ كثير من صنف الأحياء بيننا الذين قلنا إنهم ينشأون على مقتضى قانون لا يعلمه البشر .

أنا لا أقول أن العلم لا أثر له ولكني أقول أنه لا يفيد إلا إذا صادف تلك الأفئدة الحية بالفطرة فهي التي تلتفت به وتزداد منه حياة وحركة . أما العلم في أمة لم توهب أولئك الأحياء بالفطرة فلا يفيدها شيء بل يكون سبباً في التباثها بكثير من النقائص وعلّة لسرعة خطاها إلى التلاشي . مثال ذلك (وهذا تشبيه مع الفارق) البخار المضغوط يدير الآلات ويجعلها تحدث أكبر الأعمال وأعجبها ولكنه لا يدير إلا الآلات الصالحة أما الناقصة والمصنوعة من معادن غير صالحة فلا تنال بضغط البخار إلا تبدداً وانفصاماً .

يقول قائل : « إنك في مقدالك السابق لم ترض رأيي المعتمدين على الحكومة لاستنادهم على المصادفات فكيف تعتمد عليها أنت في ظهور من تسميهم بالأحياء ؟ » أقول إني قلت إن ظهور أولئك الأحياء يأتي على مقتضى قانون غير معروف لنا فأراني أثبت له قانوناً وإن كنت أجهله . ولكن لم يقل أحد أن لظهور الحكومات الصالحة قانوناً إلا ما يكون من حياة الأمة وانتخابها لحكومتها بنفسها .

فان قيل أن هذا يوجب الكسل ويحلل العزائم . أقول أما إن كان من يسمعه من الموتى فليست له عزية يخشى على تحللها . وأما إن كان من الأحياء فقد أدرك نفسه ومضى في شأنه وذلك لا يخشى عليه من شيء فإن حركته ذاتية اضطرارية .

صفوة القول أنه متى قدر لنا أن نحيا نبغ فينا أحياء كثيرون مدفوعون لعمل الأحياء بفطرتهم لا بدافع من القول ولا زاجر من الكلام ، وإنما هي حركة ذاتية اضطرارية توجه الكافة وجهة الحياة الصحيحة بلا تردد ولا روية ، أشبه شيء بحركة الجسم الحي بأجهزته العاملة المدفوعة لأداء وظائفها دفعا طبيعيا لا دخل للارادة فيه .

هذا رأينا في وجه خلاصنا من الضعف والفتور الذي نحن فيه . وهو ما استنتجناه من استقراء الحركة الإنسانية بأطوارها وأدوارها في كل أمة مستنديين فيه على الحوادث الاجتماعية والظواهر التاريخية . ولا خلاف بيننا وبين المتكلمين قبلنا إلا في أنهم يرون أن أولئك الأحياء توجد لهم التربية ، ونحن نرى أنهم يوجدون بقانون فوق التربية وإنما التربية إن وجدت زادت مواهبهم قوة وحياتهم بركة ، فإذا لم يوجدوا في أمة فلا تفيدها التربية بشيء ولو بلغت نهاية الكمال وغاية الاتقان .

ليس في مذهبنا هذا من الفراغ إلا عدم اهتدائنا الى الناموس الذي ينشأ على مقتضاه الأحياء ، ولقد كنا نستطيع أن نحاول تلمسه بالاحتمالات ولكننا نراه

فوق كل احتمال ، ومهما أضنيينا أفكارنا بالبحث عليه فلم نهتد إلا إلى ما يسبقه من المهدات أو ما يصاحبه من الشؤون والأعراض ، أما هو نفسه فيدق عن مدار كنا وكأنه مما لم يقدر لنا علمه .

فعلى الأمة أن تستمر فيما سبقت إليه من التربية ونشر العلم فإن ذلك من الأسباب الظاهرة التي لا مندوحة لنا عن الأخذ بها . أما ما خفي علينا من العلل والأسباب فلم نكلف بعلمه وما تطرقنا اليه في بحثنا هذا إلا من قبيل إعطاء البحث حقه من التحليل والنظر قسطه من الاعتبار .

هذا وإنا نرجو الله سبحانه وتعالى أن يهدينا للسداد وأن يجمعنا على هداه وهديه إنه ولي الكفاية ومولى التوفيق . وصلى الله على خير خلقه محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

والحمد لله أولا وآخرا على ما هدانا ووفقنا لخدمة دينه ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وتابعيه إلى يوم الدين . آمين .

* * *

ملحق

هذا الجزء يضم عدة أبحاث ومقالات نشرها المؤلف ملحقة
بأجزاء الكتاب: رداً على أسئلة للقراء ، وإيضاحاً لما يحتاج إلى توضيح
مما سبق نشره من أبواب وفصول .

(الناشر)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على رسولك الامين ، محمد عبدك
ونبيك خاتم المرسلين ، ونور العالمين ، وعلى آله وصحبه أساطين الدين ، وأراكين
اليقين ، وتابعيهم بخير وإحسان من عبادك المؤمنين ، آمين . (أما بعد) فانا
وان كنا آلينا على أنفسنا أن نجعل كتابنا (الاسلام في عصر العلم) سهل
العبارة ، قريب المأخذ ، من جهة القالب العربي ، والاسلوب الكتابي ومن جهة
البعد عن مصطلحات الفلسفة العويصة ، والهجر لتراكيبها الحرجة ما امكن ،
الا أننا رأينا أن كل ذلك لن يقف بالأذهان الطالبة للاستفادة ، ولن يقعدها
عن ابتغاء الزيادة ، فعولنا أن نجعل للكتاب ملحقاً يصدر ان شاء الله تعالى معه
كل شهر في ست عشرة صحيفة ، يكون موضوعه شرحاً لما يغمض من المدرجات
الفلسفية التي تأتي في الكتاب ، وإيضاحاً لما يستبهم على القراء في بعض أبحاثه في
المواضيع الجديدة التي لم يعتد على سماعها أصحاب اللسان العربي ، ولكننا لن
نشرح إلا ما نسأل عنه ، فعلى كل من يود استيضاح مبهم ، أو استبانة معجم ،
أن يكتب لنا سؤاله ويرسله قبل انتصاف الشهر ليجد الجواب ان شاء الله في
الجزء اللاحق .

بهذه الطريقة المبتكرة نرجو أن يكون قارئنا على بينة تامة بكل ما يطالعه
من كتاباتنا أولاً فأولاً . وانا هنا نعد قراءنا باننا لم نزل على عهدنا من مقابلة كل
سؤال بصدر رحب ، وذرع واسع ، غير متبرمين من تشدد سائلنا ، ولا
مزدرين بمن يعترض علينا . وقصدنا من ذلك أداء خدمة للامة نرجو أن تكون
خالصة لوجه الله الكريم ، وان تطهر من كل ما يحيطها من همزات الشياطين ،
والله الموفق المعين ، وهو حسبنا ونعم الوكيل . وصلى الله على إمام المرسلين محمد
وعلى آله وصحبه أجمعين . آمين .

رأينا في داء الأمة ودوائها

ما هي الأمة الاسلامية ؟ كيف تكونت في مبدئها وعلى أي أساس قامت وحدثها ؟ ما هي تلك الروح التي هبطت عليها فلمت شعنها ، وضمت أجزائها ، وبعثتها بعد موتها ؟ الى أي درجة وصلت أهميتها في الوجود وما هي آثارها فيه لليوم ؟ الى أي حالة وصلت الآن ، وما هي العوامل التي أثرت عليها فأوصلتها الى هذه الحالة السيئة ، هل يؤمل لها استرجاع مجدها واسترداد عظمتها السابقة ، ان كان نعم فبأي الوسائل يكون ذلك ، هل لرباطتها الأصلية قوة تصلح لاقامتها على منهاج الرقي والفلاح أم لا بد من تغيير تلك الرابطة برابطة أخرى أصلح منها للبقاء وألحق بمناسبات الجيل .

هذه مسائل يجب أن يضعها نصب عينيه كل من كان له قلب يتألم وحمية تهزه لأن يكون حياً بين أمة حية لها مقام بين الأمم . نعم ان درس هذه المسائل يحتاج لدقة نظر في العلوم العمرانية ، والمأم عظيم بحوادث صعود الامم وهبوطها ، ونفوذ فكر في ضمائر التاريخ ، ويحتاج فوق ذلك الى غيرة حقة تلم بفؤاد الباحث فتريه أن حياته الصحيحة هي حياة أمته ولو كان من بين اخوانه فقيراً حقيراً ، وان موتها هو موته ولو كان من بينهم يملك الخزانة ذهباً . ربما كانت هذه الغيرة الحققة وحدها أنفع من كثير من العلم فانها ان لم تجعله الاخلية حية في الاممة لكفاه بذلك تأثيراً ، فان حياته تنبعث منه الى صاحبه ومنها الى جارها وهكذا حتى تتكون جرثومة أساسية تنبت شجرة طيبة ولو بعد حين .

الأمة الاسلامية أصلها نبي كريم اصطفاه الله خاتماً لأولي العزم من الرسل وفتحاً لتاريخ جديد للنوع الإنساني بعدما كمل عقله وبلغ رشده ، وأعدته الاحداث للسير في باحات الكمالات الصورية والمعنوية آمناً على نفسه من العطب .

قام هذا الرسول الكريم في وسط أمة لا عهد لها بنظام ، ولا استعداد لها لوثام ولا التثام ، لا رابطة تجمعها ولا وشيجة تضيها ، لها من قحولة أرضها ، وجدوبة أوديتها ، وحال معيشتها ، عوامل قوية على التفريق ، وفواعل قاهرة على التشيت والتبديد . قام ﷺ بينها وحيداً بلا مال ولا انصار حاملاً اليها تعاليم ربه قرآناً عربياً غير ذي عوج ، يضمن لها سعادة الحياة وسعادة الابد . فأيده الله بروح من عنده ودخل الناس في دين الله أفواجا ، فأقامهم بروح القرآن الشريف على صراط الوحدة في العقائد الدينية والجامعة العمومية الدنيوية ، فنهضوا في بضع وعشرين سنة نهضة لم يسبق لها مثيل في تاريخ الانسان ثم لم يلبثوا ثمانين سنة حتى صاروا خلفاء الله في ارضه ، لا ينازعهم فيها منازع ، ولا يزاوهم مزاحم ، كلمتهم العليا ، وصراطهم الأبلج ، يقيمون حدود الله علماً وعملاً ، ويتمتعون بنفحاته دنيا وديناً . ولم يزالوا في حركتهم هذه حتى طرأت ظروف ونجمت أمور قضاها الله لحكمة يعلمها ويعلمتها للراسخين في العلم ، فدخلت الأمة في دور من الحذر يشبه الموت ولم تزل ساكنة والامم تتقدم حولها حتى وصلنا ووصلوا الى ما نرى اليوم ، فما سبب ذلك الحذر ، وما علة تلك الوقفة بعد تلك النهضة المدهشة ؟ ماذا طرأ على العقائد ، ماذا حدث في العواطف ، ماذا أصاب العقول والمواهب ؟ ما هو العامل الذي ثبط تلك الحركة الهائلة ؟ وهل يمكن اعادتها الى ما كانت عليه ؟ هذا مختلف الازهان ، ومضطرب الافهام ، ومشتجز الاقلام : ان قلنا طرأت على العقائد بدع اخرجتها عن أصولها ، وضلت الأمة عن صراطها ، رددنا على أنفسنا وقلنا : ولماذا لم تضر البدع الدينية الا المسلمين دون سواهم ؟ ها هي أمم في العالم قائمة على ساق وقدم ، ولا يخلو دين واحدة منها من بدع لا تعد بدع المسلمين بجانبها شيئاً ، فان كان التقدم متوقفاً على دين بلا بدع فكان يلزم من ذلك أن لا يكون رقي في العالم اليوم . لا نقصد بهذا أن تثبت عدم ضرورة الدين لقيام الأمم ورفيها . حاش الله ! فسيمر بك أثناء الكلام على ماهية الدين في مبحث الانسان ان شاء الله ما فيه الكفاية من هذا الموضوع فانتظروه . أما الذي نريد ان نقوله هو ان الاصل الأولي الذي

يكون الأمم وينهض بها ، بعد أن يبعث فيها روح التقدم والارتقاء ، ويهيشها الى قبول أكمل صفات الاجتماع هي (الرابطة بين الآحاد) . هذه الرابطة نفحة من (الدين المطلق) المغروز في طبيعة البشر كما ستراه في موضعه ان شاء الله ، ومكانه منه كمكان سائر الاصول الحيوية كالعدل والحرية وغيرها المنقوشة في صميم معناه الانساني . وكما ان العدل قد يوجد في حكومة وثنية على صفة أكمل مما هو عليه في أمة توحيدية لأسباب شتى كذلك قد توجد الرابطة على أشكالها في شعب كافر وتكون دون ذلك في شعب مؤمن .

لكل أصل من أصول الفضائل أثر ظاهر على كيان الأمة لا يشبهه بآثار الأصول الأخرى ، فأثر العدل في الأمة لا يشبه أثر الحرية فيها ، وآثار كليهما لا تشبه بآثار التساعد والتناصر والارتباط وان كانت كلها تتحد في النتيجة وتضع الأمة بقوتها الرافعة الى أوج المدنية الفاضلة .

وظيفة الرابطة كوظيفة الحياة في الفرد الواحد . فكما أن (الحياة) في الجسم تربط وظائف الأعضاء ببعضها بعد أن غدها بالحس والحركة وتكون للانسان شخصية متميزة متأهلة للتخلي بسائر الكمالات الحيوية الأخرى كذلك (الرابطة الاجتماعية) تجمع بين قوى الأفراد ، وتنشئ لهم منها شخصية كلية هي روح الأمة التي تبعثهم للحركة وتبشئهم للتقدم ، وتجعل لهم حياة مشتركة بحيث لو تألم واحد من الجمعية تألمت له سائر الآحاد تألماً طبيعياً لا قصصياً كما يتألم الجسم كله لوجع عضو منه . (فالرابطة) روح الاجتماع بين الأفراد ، وأصل يهيء الأمة لقبول سائر الفضائل الأخرى . ولا يعقل اجتماع بدونها كما لا يعقل أن يحس جسم أو يتحرك بغير الحياة . وقد أشار الله تعالى الى ذلك إشارة عالية غالية فقال : « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » .

ومما يدل ذلك دلالة صريحة على أن الرابطة حياة الأمم وأن غيرها من الأصول الاجتماعية متوقف عليها ، وأن لكل منها على حالة الأمة اثر لا يشبه بغيره ، الحرب التي شبت بين أتباع امير المؤمنين علي ومعاوية رضي الله عنهما . ترى أن

اتباع الامام مع انهم كانوا من صميم العرب ، وبيوتات المجد واولي السابقة الحسنة في الاسلام ، لم يتوصلوا الى تدويخ جيش معاوية مع أن اكثره من جفاة الأعراب واخلاط من الشام ، بل رأوا أن لا مناص من الانصياع لهم وقبول شرطهم بعد موت امير المؤمنين . وما ذلك إلا لشدة (ارتباط) أصحاب معاوية فيما بينهم بخلاف اصحاب الامام فقد كان التفرق بالغاً منهم مبلغاً خطيراً فلم تغنهم فضائلهم الأخرى شيئاً ، بل غلب (الارتباط) سائرهما ، واستتب له الامر دونها . وقد أدرك ذلك الامام وباح به في بعض خطبه . فإن كان شيء من قلة الارتباط بين أصحاب إمام من أكبر أئمة المسلمين ، وهم أصحاب القدم الراسخة في الدين ، جعلهم يتنازلون عن حقوقهم السياسية لأخلاط من الأعراب والسوريين ، لا يقارنون بهم دنيا ولا ديناً ولا قوة في الحرب ولا صبراً عند احتدام الشدائد ، فكيف ، لا تتأخر الأمم الشرقية المنحلة أمام الأمم الغربية المتحدة ؟ ماذا تفيدنا خصوبة أرضنا ! وجمال بلادنا ، واعتدال هوائنا ، وعذوبة مائنا ، ولطف أخلاقنا ، اذا كانت رابطتنا اقل إحكاماً من روابط الأمم المحيطة بنا ؟

يقول قائل : « آمنّا بأن مصيبتنا عدم الرابطة بين الآحاد ، ولكن كيف الوصول الى إيجاد روح تضمننا ، وتجعلنا إخواناً كآبائنا ، وتفيض علينا من نفحاتها مثل ما أفاضت عليهم من قبلنا ؟ اليست هذه عضلة العقد وموضع الحيرة ؟ كم كتب الكتاب في ضرورة الارتباط ، وكم خطب الخطباء بلزوم الاتحاد وكم أقاموا الحجج البينة ، واقسموا الايمان المعظمة ، على أننا إن لم نرتبط ببعضنا تلاحينا ، وذهبت ريحنا ، ومع كل ذلك فالآثر هو ما ترى اليوم : يأس وانشقاق ، وتلاعن واقتراق . لقد سئم الناس سماع هذا الدور ، وشبعوا من هذه النغمة ، حتى أن ما يكتب الآن في الجرائد من هذا الباب يعده القراء من سقط المتاع » .

للمعترض الحق فيما يقول فإن الدواء المعروف المستعمل الآن لما نحن فيه هو الدعوة الى الارتباط وبيان فائدته ، وهو دواء غير معقول ان جاء بمفرده ، وما

مثل القائمين به إلا كمثل رجل يقوم أمام أشلاء جثة فيصيح بها : أن ارتبطي
بنتها الأعضاء المبددة وقضامي ، فان فائدة الاتحاد كيت وكيت ، ويأخذ في
سرد صفات الاحياء ، وخصائص الاصحاء ، فإن تفد هذه الصيحة في أشلاء
الجثة ، أفادت تلك الدعوة للأمم المنحلة أو الآخذة في الانحلال .

الارتباط مظهر الحياة الكامنة في الأمة والدليل عليها ، ومتى لم يوجد أو
لو وجد فاتراً دل ذلك على عدم الحياة أو على ضعفها فالعلاج المعقول في هذه
الحالة هو الالتفات الى الحياة أولاً لأعادتها أو لتقويتها ، ومتى وجدت وجد
الارتباط بدون دعوة ، لأنه مظهرها ، ووجدت تبعاً له سائر المزايا الاجتماعية .

يقولون ألا تعلق أدنى أهمية على كثرة صياح الجرائد اليوم بلزوم الاتحاد
والارتباط ، أتعد ذلك كله ذاهباً أدراج الرياح ؟ نقول إن كل هذا اللفظ مما لا
يحسن بنا أن نتخذه فالأحسن ، فقد دل الاستقراء التاريخي وأيده العلم
الاجتماعي أن الأمم إذا أخذت في الانحلال تصيح بلزوم الارتباط ، وتجعل ذلك
شغلها الشاغل ، كأن الطبيعة تشعرها بدائها فتصيح به كما يصيح المريض بلزوم
الصحة له . فإن شفي المريض بمجرد صياحه بطلب الصحة ، تحيا الأمة أيضاً
بمجرد طلب الحياة . ومن يطالع تاريخ اليونان والرومان ير أنه قد نبغ في أثناء
انحلالها خطباء ووعاظ لم يكونوا من قبل ، ولكن ماذا أفادت صيحاتهم مع
عدم معالجتهم للمرض ؟

أنا لا انكر فائدة الجرائد في تحسين اللغة ونشر العلم ، ولكنني لا أكرم عليها
انها قد بذرت في القلوب روح اليأس بكثرة نديها ونعيمها على الناس سوء حالهم ،
وانذارها لهم بسوء منقلبهم . ولو كانت سلكت في تربية عواطف الامة مسلك
الحكيم الرببي العارف بمكان الضعف والقوة من ثنيات القلوب ، واحناء الصدور ،
لكانت ساعدت على ارجاع حياة الأمة مساعدة تذكر لها وتشكر . ولكنها
بدل ذلك كله أسرفت في النعي على الأمة تأخرها وتقهرها واستهتت في ذلك
حتى يأست الأمة من مستقبلها ، وأضعفت ثقها بنفسها ، وغالت جدا في تشريح

طبقاتها من كبراء وعلماء وأرباب زراعات وتجارات وجعلت أهم مباحثها التنقيب عن عوراتهم ، وأخذت تطعن عليهم صنفاً صنفاً حتى جردت سائرهم من كل مزية وأهلية . فماذا أصاب الناس من هذا ؟

وقرّر في نفوسهم وانتقش في خيالاتهم ، انه ليس لهم في اي طبقة من طبقات أمته مرجع يرجعون اليه عند الحيرة ، وموئل يعتصمون به وقت الشدة ، فمرنت السننهم على الطعن في كل صنف والتنديد بكل طبقة منهم حتى صار ذلك اليوم فاكهة للمجالس الخاصة والعامة فأصبحنا والأمة كلها يلعن بعضها بعضاً . ولو كان اولئك الكتاب حفظوا لأنفسهم أمام الأمة مكاناً صالحاً ، لوضعت فيهم ثقته ، وعلفت على أرواحهم الطيبة مستقبليها ، ولاعتبرتهم خلايا حية تبعث الحياة الى ما يحاورها وينتظر منها استرداد مجد مفقود ، أو استرجاع شرف ضائع ، لكن أكثرهم لم يحفظ لنفسه تلك المكانة فسقطوا من عين الأمة ولحقهم فيما بينهم (ناموس التلاعن) فصاروا أمهر المتلاعنين . تراهم بدل ان يتعاطفوا ويتراحوا ويعلموا الأمة بتواضعهم وبعقائل صفاتهم كيف تسلك سبيل الحياة وكيف تهتدي الى سعادتها ، متقاطعين متنابذين ، إذا اعترض أحدهم على مقالة لأخيه ، أو لاحظ على فكرة من أفكاره ، تقع بينهما الحرب العوان ، فيشمرون لها الأردن ، ويشحذون لها أسنة الأقلام ، ولا يزالون يتلاعنون ويتشاقون ، والامة أمامهم تضحك عليهم تارة وتبكي حتى تقنى عبارات اللعن ، وتضيق مسالك الطعن ، فيهدأون على مضض تربصاً للفرص فإذا كان أكثر جرائدنا بهذه الصفة ، فلا يكون لما يجيء فيها من مقالات الحث على الارتباط والاتحاد أدنى أثر ، ويمكن أن يقول لهم اليائسون وغير اليائسين : « اذا كنتم على ما نرى من التباعد والتحاقد فيما بينكم مع أنكم في مقدمتنا علما وفضلا ، فكيف تطعمون أن نطيع لكم أمراً ، أو نعمل لكم بنصيحة ، أتأمرون بالمعروف ولا تأمرون ، وتنهون عن المنكر ولا تنتهون » كبر مقتا عند الله ان تقولوا مالا تفعلون » .

يستحيل على أمة أن تحيا بلا وجهة تعرف حدودها فتسير عليها ، وغاية عالية تتحمس بها وتميل بعواطفها اليها . وسترى في أثناء الكلام على حياة الأمم وموتها ، إن شاء الله ، أن كل بناء الهيئات الاجتماعية وضعوا نصب أعينهم هذا السر الاقدس ، ولم يبدووا علمهم بتضليل أمهم في مذاهبها ، وتأسيسها من قوتها الذاتية ومواهبها الكامنة فيها . فليعلم كئآبنا ان نهاية ما يتمناه لنا اعداؤنا هو ما اوصلوا الأمة اليه اليوم من تشتيت فكرها ، وتشويه أجزائها في عينها وسلب الاحترام المتبادل من أفئدة آحادها . وكفى الأمة نذيرا للتلاشي أن تصبح يلعن بعضها بعضاً . فالدواء الذي وقفنا له قلمنا هو تخطيط وجهة مثلى للأمة تسير عليها ، وابانة غاية لها في الحياة تحبها وتميل اليها ، لتنضم سائر مواهبها وقواها الى طريق واحد ، وتتركز في مركز مشترك ، فتحيى حياة اجتماعية ، وتنشأ فيها الروح القومية . وهو دواء كل المصلحين الذين لهم اكبر الآثار في تاريخ الأمم .

درسنا هذا الموضوع الهائل درساً مدققاً وسيمر بك تفصيله في الكتاب ، فرأينا أن أجمل وأفضل وأكمل غاية يصح أن يضعها الإنسان نصب عينيه بصفة العرض المقصود من الحياة هي (الإسلام) بمعناه الحق . ولكن كيف يتأتى لنا ذلك ونحن في جيل يظن آحاده أن زمن الاديان قد فات ، وان المدنية شيء والعقيدة شيء آخر ، وان العلم قد حل محل كل المدركات السابقة ، وان هذه المدنية الغربية المادية هي أكمل وأفضل مدنية ظهرت في العالم ، وانها لن تتلاشى أبداً ولن تتغير عما هي عليه ؟ ان دعونا للإسلام في جيل هذه فلسفته الآخذة في الانتشار كل يوم ، بدون أن نجعل ذلك العلم الذي يتبجحون به وبناء تلك المدنية الساحرة من ضمن الشاهدين على ما نقول ، ذهبت صيحاتنا ادراج الرياح ، فإن لكل مقام مقالاً ، ولكل جيل رجالاً . ونكون غير عاملين بقوله تعالى : « ادع الى سبيل ربك بالحكمة » . لذلك رأينا أن نفيض القول في المسائل الإسلامية مع مقارنتها بالتعاليم الفلسفية من جميع جهاتها التي تتسرب منها

الشكوك والشبه ، حتى إذا نمجنا في مشروعنا هذا رجونا ان يتجلى الإسلام
لهذه العقول الجديدة في مظهر يملأ العيون مهابة وجلالاً ، والقلوب حماسة وهياماً .
لا نقصد من هذا أن نقول ان الاسلام يحتاج لمثلنا في شيء ، وإنما نريد ان نقول
اننا سنواجه به الافكار الجديدة من جهات شكوكها وشبهاتها ، وسنقارعها
ببيناته وحججه من شطر معارفها وعلومها . اذا فعلنا ذلك رجونا ان تصبح
تلك العقول الطامحة أحسن أنصاره ، وأقوى أعضاده ، ومتى طأطأت أمام نوره
رقاب الخاصة من الناشئة المتهدبة وجدت الحياة وظهرت نفحاتها في مظهر
الارتباط والوثام ، وصار شعار كل منا « ان الدين عند الله الإسلام »

داء الأمة ودواؤها

قلنا في ملحق الجزء الماضي ان داء الأمة الإسلامية اليوم ضعف في قوتها الحيوية الاجتماعية طراً عليها من حوادث كبرى انقضت عليها وأدوار شتى انتابتها منذ قرون كثيرة ؟ وقلنا إن هذا الداء قد ظهر فيها بمظهره المعتاد وهو ارتخاء في روابطها الاجتماعية والتحلال في عرى وحدتها الملية . هذا الداء طراً عليها من ضعف اعترأها في عقيدتها الدينية وسلطانها الدنيوية معاً . أما العقيدة الدينية فجاءها الضعف من قبل المبادئ الفلسفية التي سرت اليها من اليونانيين ومن بعض الأجانب الذين اعتنقوا الإسلام ولم يدركوه فكسوا سائر معتقداتهم القديمة باسماء اسلامية وصبغوها بصبغ قرآنية وعدوها إسلاماً .

جاء الإسلام يطهر الفطرة الانسانية مما ران عليها من انواع الوسوس ، ويخلص العقل من شباك الخرافات ، ويوجه الروح الانسانية نقية طاهرة لخالقها حتى تستطيع أن تستمد منه حياة تكافح بها ما يكتنفها من فواعل الكون ومبيداته وتستعير منه نوراً تستحق به خلافته في كائناته . فجاء من العقائد بما لا يحافي الحس الظاهر ولا الشعور الباطن ، ومن الأحكام بما يلائم الفطرة ، ويوافق الطبيعة ، ولكن شهوات العقول ، وأماني الأفكار لم تشأ ان تقف به عند هذا الحد ، بل سلكت به مسالك الفلسفة والعلوم النظرية فتركب بعد ان كان سهلاً ، وخرج عن حقيقته بالكلية . كل ذلك والقرآن يقيم الحجج ببيناته ولم يزل يقيمها حتى يرجع اليه الغلاة ويلحق به المقصرون ، وسيكون ذلك في يوم قريب إن شاء الله . هذا من جهة الضعف الذي طراً على العقائد الدينية ، أما الضعف الذي دخل على السلطة الدنيوية فأسبابه اجتماعية استلزمها أسباب شتى ليس هنا موضع بحثها .

لو كان داء الأمة ينحصر في هذين السببين لأمكن حصره في مكانه بنشر العلم ، وتهذيب الأمة ، وكان لا يضي ربح من الزمان حتى تتلاشى البدع من ذاتها وتشتد أساطين السلطة بحض ذلك التهذيب نفسه كما هي السنة في الطبيعة ، ولكن داءنا اليوم أصبح داء أوروبياً ، جاءنا ميكروبه محمولاً على أجنحة هذه المدنية الساحرة فصار السعي في مدافعة أدوائنا القديمة من العبث المحض ، أما البدع الأصلية فقد سرى عليها فاموس الترقى (الدارويني) فاستحالت الى شبه ، ونشبت هذه الشبه في رؤوس القائمين على السلطة فانقلب دأؤها الأصلي بتطورهم إلى أدواء أخرى فاتجحة كلها من ذلك الميكروب الأوربي المتمدن ، فصارت وظيفة العالم العمراني المسلم والحالة هذه محاربة هذا الميكروب وحده الذي لحق كل عضو من أعضاء الهيئة الاجتماعية فأحدث فيه الداء الذي يناسبه . دخل للعامة فأحدث فيهم اليأس وفساد الأخلاق على اختلاف أنواعه وللخاصة فأصابهم بالبذخ والسرف والتقليد الأعمى والإلحاد الجهري والسري على جميع أشكاله . فأضحت أعراض أمراضنا لا تدخل تحت حصر يظنها الرائي أدواء مستقلة وما هي في الحقيقة إلا داء واحد له ميكروب واحد ، وما دمنا لا نعرفه لنكافحه استشرى أمره ، وطم خطبه ، وصار كل بحث في الأعراض الأخرى لا يفيد شيئاً. ماذا عسى أن يداوي أحداً إذا لم يهتد إلى هذا الميكروب القاتل؟ أيداوي اليأس أم البذخ أم الطمع أم التقليد الأعمى أم التآكل أم التواكل أم عدم الحياء أم التجادل أم عدم الثقة بالذات أم القنوط من قوة الأمة ! كل هذه أعراض رئيسية يتفرع منها أعراض ثانوية لا تدخل تحت حساب ، ولو أراد الطبيب الاجتماعي أن يقصر نفسه ويقف قلمه على علاجها لاضطربت في ذهنه ، وشوشت عليه عقله ، وأصبح أكبر اليائسين رغم أنفه ، لأنه لا يصادف في تطبيبه إلا أدواء متراكبة على بعضها ، مشتبكة في حلقاتها ، يتوه فكره في مبادئها ونتائجها ، وما ذلك إلا لكونها أعراضاً لداء واحد تتلون وتنصبغ بحسب الظروف والمقتضيات على نسبة استحالة الداء الأصلي من حال إلى حال آخر في أثناء سيره الطبيعي .

هذا الميكروب الاوروبي الذي اهتدينا اليه بمنظار البحث والتنقيب أصاب
رابطة الأمة مباشرة وعدى على قوتها الحافظة . أما البدع فليس هذا وقت
محاربتها فإنها كما قلنا استحالَت الى شبه وشكوك ولئن بقي منها شيء لدى بعض
العامة فأمره بسيط لا تستلزم ازالته الامة صغرى من القائمين على حفظ الدين ،
ومع ذلك فهي لا تضر مع سلامة الرابطة الأصلية كما لم تضر المسلمين في عصري
بني أمية وبني العباس ولم تمنعهم من احداث أكبر الاعمال في العالم ، وكما لم تضر
البلغاريين مثلاً مع سلامة رابطتها .

بناء على هذا فمذهبنا في الإصلاح هو تعهد رابطة الأمة بالعلاج والتقوية ولا
يمكن تقويتها إلا من الجهة التي أصيبت فيها وهي جهة دينية محضة . تلك الجهة
المصابة كان ميكروبها يقال له (بدع) حملته الفلسفة العقلية في كمها ، ونفته
الشعوب التي دانت للإسلام من أفواه خزعلاتها . أما ذلك الميكروب اليوم
فقد تطور وارتقى على حسب (مذهب داروين) وأكتسى ريشاً لماعاً سحرياً
فصار يدعى (شياً) حملته العلوم الطبيعية على أسلاك التليفون واسطوانات
الفونوجراف .

استحالة ميكروب البدع إلى ميكروب الحاد وشبه لا يشاهد أثره في الخاصة
فقط بل في أحط طبقات العامة أيضاً . ألا ترى العامة اليوم بعد أن كانوا
يلتفون في حلقات الذكر ويحتمعون زمراً زمراً في الطرقات حاملين للاعلام
صائحين صاخبين ، صاروا يتحلقون في الحانات حول الصهباء ، ويحتفون في
المنتديات بالراقصات طول الليل ، وإذا مر بهم رمضان قابله بالافطار غير
حاسبين لأحد حساباً . فهل هذا أثر ميكروب البدع أم ميكروب الإلحاد الذي
حمل الينا من أوروبا وأخذ يفرخ في كل قلب بما يناسبه ، ويتلون لكل عين بما
يؤثر عليها ؟ هذا الميكروب القاتل هو الذي وقفنا لمحاربتة بمجموع قوانا
وأعدنا له المنظارات التي تكتشفه في كل تشكيلاته وهيئنا له الأسلحة التي
تبيده ان شاء الله .

أنا لا أنكر أن الأمة قبل أن يجيئها هذا الميكروب المتمدن كانت جامدة ساكنة ، ولكن لا يستطيع أحد أن ينكر علينا أنها كانت مع ذلك الجمود حية حياة كامنة ، وكان خطبها كله لا يعوز غير نشر التعليم والتهذيب في الطباق المختلفة على حسب الحاجة ، ولكن هذا الميكروب أخذ الآن محلها تحليلًا ويبعثر اجزاءها إلى كل جهة . ولئن سألنا سائل عن ذلك الجمود قلنا إنه كان نتيجة طبيعية يجب أن تدخل فيه أمة عظمى تحركت ألف سنة حركات مختلفة في جميع المجهودات الإنسانية : فتحت البلاد السحيقة ودوخت الأمم الكبيرة وابتنت الأساطيل الماخرة ؛ وشيدت المدائن الزاهرة ، وسنت القوانين العادلة ، وبحثت في مساتير الكائنات ونقلت النوع الإنساني بأسره من حالة إلى حالة أخرى من الجهتين المادية والمعنوية . فحرمان هذا الجسم النشط من الهدوء قليلا من الزمن لهيب أنشط مما كان لا يعد عدلاً . وهل مثل الأمة في مجموعها إلا كمثل الفرد الواحد يكد طول النهار ويكدح ويكافح الصعوبات ثم لما يحن عليه الليل ينام فيظنه الرائي ميتاً وما هو ميت ويحسبه جامداً وما هو جامد وقد يفظ ويلفظ في النوم فيحسبه يهذي وما هو كذلك ، ولكنها حالة طبيعية لا بد منها ليسترد قوة فقدها في المكافحة ، ويسترجع خلايا اماتها بالمجاهدة .

هكذا كانت الأمة في دور النوم الطبيعي بعد جهاد طويل وإذا ببعض أبنائها قد استيقظ لآلام أصابتهم فبدل أن يوقظوها بتلطف أو ينتظروها حتى تفيق بنفسها هالهم سكوتها في وسط هذه الحركة الكبيرة ؟ حركة هذه المدنية الأوروبية ، فذهب الخوف عليها منهم مذاهب شتى : فأخذ بعضهم يصيح في وجهها باكياً نادياً ، لاطماً وجهه صارخاً ، يعدد مصائبها تعديداً ، ويوسعها عليها تقريماً وتنديداً ، وطلق بعضهم يزجرها إلى الحركة زجراً ، ويزعجها إلى المسابقة والمزاحمة لإزعاجها ، وأنشأ بعضهم يهيب بها لإنشاء المعامل ، ويقرصها بزواجره قرصاً لتشييد المصانع ، وأخذ بعضهم يدفعها بيديه دفعاً ويدعها بلسانه دعاً لتجري أمامه في باحات الرقي مع الجارين وتركض على صهوات التقدم مع الراكضين .. فإنهم لذلك وإذا بها قد استيقظت مذعورة ذاهلة لا تسمع غير

لفظ بين يديها ومن خلفها وعن إيمانها وشمائلها . وناهيك بألم انهكتها متاعب التربية طول النهار تستيقظ بين يدي أبنائها على هذه الصورة المفزعة . وباليات الأمر وقف عند حد الإيقاظ والتنبيه بل تعدى من ذلك إلى الزجر والشتم والتعبير والتدب واللطم والبكاء والنوح والشهيق والتعديد وشم الآباء والجدود والتشدد بسرد مساوئهم ومعائبهم ، وفضح مخازيهم ومشائهم على حسب ما صوروه لأذهانهم .

ماذا يكون حال هذه الأم الشفيقة بين يدي أبنائها في هذا اللفظ المصم ، وهذا العقوق المستغرب . جاهدت لأجلهم جهاد الأبطال في وسط المزاحمات الهائلة ، وكافحت لحفظهم كفاح الإقبال في معمعان المقاومات العنيفة ، ثم جعلتهم بعد شدة التعب ، وعظم النصب ، في حضنها فأنامتهم ليستريحوا واضطجعت لتستريح معهم ، فلم تكد تتم دور نومها الطبيعي حتى استيقظت فوجدت أن أولئك الأبناء قد أصبحوا كلهم فلاسفة بغير علم ، وأساطين شرانغ بغير فهم ، وأطباء عمرانيين بغير حكمة ، وانتقاديين بغير لطف . إلى أي جهة لفتت وجهها رأت هذا يتفلسف لها ويتقعر وهذا ينهج لها شرعة السير ويتعسف ، هذا يعلمها طرق العمران ومناهج المزاحمات ويتكلف ، وهذا يلفحها بسموم الانتقادات ويشتم منها الآباء والأجداد ويزعم أنهم سبب تعاسته ومثيرو شقاوته وانهم لو فعلوا كيت وكيت ولم يفعلوا كيت وكيت لكان هو اليوم كيت وكيت مما يصوره له عقله .

أليس هذا مثال محسوس لحال مجموع هذه الأمة مع بعض أبنائها ؟ ماذا عسى أن تفعله أمة يكون أبنائها على هذه الحالة من الخلاف والتلاحي والتصاحب والصياح ، ما هذا التفلسف ، ما هذا التعسف ، ما هذا البكاء ، ما هذا التدب ، ما هذا اللطم ، ما هذه الضوضاء ، ما هذا التنديد بالآباء ، ما هذا الأضرار بالأسلاف ؟ هل عهد مثل هذا العلاج لأمة من الأمم ؟ نحن لو التفتنا إلى أنفسنا معشر المتفلسفين المتعسفين لرأينا أننا أداء الأمة الوحيد ، وخلاياها

المصابة التي يتسرب منها الداء إلى مجموعها. ولو كنا غير ذلك لكنا علمنا وعملنا، نصحنا وانتصحننا، أمرنا بالمعروف وائتمرنا، نهينا عن المنكر وانتهينا، نهجنا طرائق الخير وانتهجنا، سدنا مخارج الشر وتنكبنا. ولكن الذي تشاهده الأمة بخلاف ذلك، كأنا تنصحنها باللسان إلى الصلاح ونعلمها بالفعل كيف يكون الفساد، نثرثر لها بالكلمات والفضائل ونزرع في نفوسها بأيدينا بذور الرذائل، سحرنا المدنية المادية حتى انستنا أنفسنا، ويا ليتنا احببناها من جهتها التي تحب منها، بل همننا بها من الجهة التي يشكوها أصحابها، ويتألم بها واضعوها، ويعتبرونها جراحاً دامية فيها، وبشوراً عفنة في وجهها، يخشى عليها من نتائجها ويتوقع الفساد لكيانها من اعراضها. اين يتاه بنا؟ ما هذا السحر الذي غشي بصائرنا. هل الذي بنى هذه المدنية الفتانة البذخ، السرف، الترف، الابتذال، الخمر، القمار، المراقص، التياترات، الأكل بالشوكة، شرب النبيذ على المائدة، التفاخر بتكلم لغة أجنبية، عدم الصلاة، نكران العقيدة الالهية والروح والخلود، جحود فضل الاسلاف وتعليق أسباب التأخر بهم، التهزيء والسخرية بالصاق تبعة البدع التي نحن فيها على وجوههم؟! هذه كلها أدواء أكثرنا من المتفلسفين وكلها سرت الينا من الفتنة التي أصابتنا من هذه المدنية لم تقم على هذه الأباطيل المهلكة والأمراض المحتاجة بل قامت على أساطين الهمة والإقدام والعلم والعمل، أما ما يشاهد فيها من هذه الخمازي التي سحرت أكثرنا سحراً فهي أدواء هذه المدنية وسمومها، ولقد قام في وجهها رجال منهم يدافعونها كما يدافع الإنسان العقارب القاتلة، والأفاعي السامة. مما سيمر بك في محاله من كتاب الإسلام في عصر العلم إن شاء الله.

نعم قامت المدنية الأوروبية بهدم العقائد ولكن الباطلة منها، وكذبت بالأديان ولكن المصرة التي تقتل العواطف قتلاً، وأنكرت الروح ولكنها هبت تثبتها بالحس كما فصلناه في مؤلفاتنا السابقة وسيزيده هنا تفصيلاً إن شاء الله: وحررت المرأة من ربقة الرق وأصفاد العبودية وغلت في ذلك ولكنها أدركت غلطتها في إفراطها فقامت ترجمها إلى وظيفتها الطبيعية الأصلية كما قررناه من

ذات أقوالهم في كتابنا (المرأة المسلمة) . أما تلك القاذورات التي هام بها أكثرنا هيأماً جنونياً فأدران المدنية ، وأوضار النفوس البهيمية . فهل يصح بعد أن نكون أول المسحورين بهذه القاذورات الشائنة ، أن نعطي أنفسنا وظيفة تطبيب الأمة ومعالجتها ؟ وهل تموت الأمم وتهلك إلا من هذه الجهة ؟ وهل نزول الفضائل ، وتحل الرذائل إلا من هذه المسارب ؟

يجب أن يكون الطبيب مثلاً حسناً للمريض ليكون لنصحه أثر في نفسه ، ولعلاجه فعل في دائه ؟ لا أن يكون هو أول المصابين بحمل الميكروب في كفه ، وجراثومة الداء في جيبه ؟

الأمم النائمة يجب أن يكون موقظوها قدوة صالحة للسير في باحات اليقظة والحياة ، حتى إذا استيقظ عضو منها تبعهم في سيره ، واقتاس بأعمالهم في عمله وجرى على خطتهم لتحقيق أمله . فماذا عسى أن يصادف منا المستيقظ من غفلته ؟ لن يصادف إلا لفظاً مشوشاً وجلبة عمياء تحيره في تلفته ، وتعرّثه في مشيته ، يحذ هذا يدعو بالويل والوبال ويندب سوء الحال والمآل ، وهذا يصيح بالزواج ويثرثر بالقوارع ، وهذا يدعو لبناء المعامل ، وتشديد المآثر ، ولكنه قد لا يحذ قدوة صالحة في قوله وعمله فيضرب عن الكل صفحاً ، ويلوي عن الجميع كشحاً ، ويتجه كما يجيء لا كما يجب ، ثم تنطبع في ذهنه صورة تلك الولولة فيحاكيها ويردها بضمه لا بقلبه . فلا يكون مرتبطاً بالأمة لأنهم أروه أنها مريضة أو ميتة ، ولا يستطيع أن يرتبط بنا لأننا كلنا متنابدون متخاصمون ، متشاحنون متحاقدون ، لا نجتمع على أصل ، ولا نرتبط بفرع فيداخله داء الأثرة ويسمى أن يكون مستقلاً رغم أنفه . على هذا المنوال ينسج كل عضو يستيقظ أي يتعلم ، ولو استمر هذا الحال زمناً مناسباً لأصبحت الأمة أفراداً مستقلين يصح أن يطلق على كل منهم أمة وحده . أليس كل أب يعلم ابنه يشاهد فيه هذا الأثر ؟ هل هذا أثر التربية ؟ هل هذا نتيجة التعلم ؟ هل هذا فعل التهذيب بالنفوس ؟ هل تعلم السكر في المدرسة ؟ هل تعلم القمار في المدرسة ؟

هل فيما بين يديه من الكتب ما يعلمه ذلك ؟ هذا أثر الذين تعلموا قبله وسموا أنفسهم أيقاظاً وأرادوا أن يوقظوا الأمة ، فسعوا في حل رابطتها الأصلية من حيث لا يشعرون . كل هذا بفضل انسحار أكثرنا بقاذورات هذه المدنية ولا نقول بها ذاتها : لأنها ذاتها لا تسحر العقول ولا تميمت العواطف ولكنها تبعث الغيرة إلى النفوس الحية وتوقظ الحمية في القلوب الثابتة ، بل وتحيي الروح الإسلامية في أشباح المنتسبين إليها ، لأنها نفحة من القرآن أصابت الأندلس فسرت منه إلى أوروبا وأحدثت فيها هذه الحركة اليوم بشهادة بناء هذه المدنية أنفسهم . ولو كنا نريد حقيقة أن تكون لنا مدنية مثلها ، لكننا استرشدنا بأقوال أقبالها الذين أسسوها ودعموها بأقوال مؤلفي الروايات فيها وأصحاب الخلاعة منها وكنا بهذه الصفة نهتدي إلى أكبر علومها وهو علم العمران المقتبس كله من القرآن كما سترى ذلك في كتابنا (الإسلام في عصر العلم) إن شاء الله ، وكنا عرفنا منه كيف نأخذ الأمة باللطف لا بالعنف ، وباللين لا بالشدّة ، وبالهدو لا بهذا اللفظ المزعج ، وبالاتحاد على مبدأ لا بهذا التخاصم والتلاعن ، وكنا عرفنا مكامن الأدواء ، ومظان القوة من أنفسنا ، وكنا لا نزعج أمتنا هذا الإزعاج المدهش ، وكنا لا نفتن من المدنية بمراقصها وملاعيبها ، وتياراتها وزخارفها ، ومقاذرها ومشائنها ، فهاذا عسانا نجني من وراء هذا ؟ لا شك نجني منه هذا الانحلال التدريجي الذي طرأ عليها من قبلنا معشر المتفلسفين الآخذين على عهدتنا تطبيبيها ومعالجة دائها . أما الأمة نفسها فقل إنها جامدة أو قل إنها نائمة ، وإن شئت فقل إنها مريضة ، ولكن لا نستطيع أن نقول إنها ميتة لأنها تجتمع كلها على أصل واحد وهي العقيدة ، ويشملها روح واحدة وهي روح الدين . لك أن تقول إن تلك العقيدة قد غشتها البدع ، وحجبت نورها الحرافات ، كما أن لك أن تقول إن تلك الروح الدينية التي تحرّكها ضعيفة لما يعطل حرّكتها من جهل الناس وغباوتهم ، ولكن ليس لك أن تقول إن الأمة محولة العرى ، مبددة الأجزاء لا تصح أن يطلق عليها لفظ أمة . ولكننا معشر المتفلسفين ما هي العقيدة التي تجمعنا وما هي النقطة التي تحمّسنا ، وما هي الغاية

التي تتركز فيها سائر عواطفنا ؟ هل عهد في تاريخ أمة مريضة يُتوقع لها الشفاء أن يكون بين معالجيتها مثل هذا الفشل المحجل ، قل لي بعيشك ماذا يكون حال مريض يجتمع على رأسه شرذمة من الأطباء ؟ وبدل أن يستشير بعضهم بعضاً في تشخيص مرضه ووصف العلاج المناسب له بالإجماع ، ليكونوا بإجماعهم تسليّة له في آلامه ، وليُحدِثوا باتحادهم في نفسه أملاً في شفائه ، يتصاحبون ويتشائمون ويستقلون ، ثم يأخذ كل منهم في وصف علاج لا يقرّه عليه جاره ، بل يدّعي أنه يميت مهلك ؟ ألا يكون ذلك المريض بين أيديهم في حال هي أشدّ عليه مما به ، وأسرع في إهلاكه من جميع أوصابه ؟ ألا يكون لذلك المريض العذر في حيرته ، والحق في احتقار أطبائه وطردهم من حضرته ؟ ألا يقال ، والحالة هذه ، ان هؤلاء الأطباء هم أشدّ أدواء ذلك المريض المسكين ، ولو تركوه وشأنه لكان الرجاء في شفائه أكبر منه وهم يتنازعونه بينهم تنازعاً ، ويتزاحمون على رأسه تزاماً ، ويقترحون حجراته اقتحاماً مفزعاً ، يتدافعون بالمناكب ريتاً يخذون بالنواصي ، ويتماسكون بالحناق ، ثم ينهالون عليه صائحين في آن واحد ، هذا يشتمه وهذا ينهيه وينجزه وهذا يقرعه ويؤنبه . كل ذلك فضلاً عن هاجم عليه يحس نبضه ، ومنقضٍ على صدره يفحص قلبه ، وحاضن له يبحث رثتيه ، وعاجن بطنه يفتش أمعائه ، ومستولٍ على عينيه يختبر بياضها ، الخ ، الخ . . وهو لا يسمع إلا لفظاً مشوشاً ، وعجيجاً مصدعاً ، ولا يحس إلا تنازعاً في جسمه ، وتزاحماً من الأيدي على أعضائه . فهل على هذه الصورة يُعالج مريض ، وهل على هذا الشكل المفزع يشفى عليل ؟

إيه إيه ! لقد حقّر الناس شأن تطبيب الأمم ، وصغّروا أمر إحياء المهم مع أن هذا وظيفة الأنبياء خاصة ، ومن ينهج سبيلهم من العلماء والحكّاء ، لا كل من يمسك القلم ويعبر عن فكره بكلمات عربية ، ويعطي نفسه بنفسه تلك الوظيفة العلية .

* * *

الاسلام في عصر العلم

ملاحظة على ملاحظة المقتطف

أهدينا نسخة من مقدمة كتابنا إلى مجلة المقتطف الشهيرة ، بصفتها أقدم المجلات العربية في هذه البلاد ، ولم يكن ليصدنا عن ذلك ما نعلمه من الخلاف الجوهري بيننا وبين حضرتي الدكتورين محرريها النشيطين ، فتكرما بأثر كتبنا عنها في مقتطفها كلاماً صدره بتمهيد أبانا فيه فكرهما على الدين وتأثيره على النفوس - وإنا وإن كنا لا نوافقهما على كل ما جاء في ذلك التمهيد ، إلا أننا لا نخلها من الشكر على حررتها . وليس لنا أن نناقشها هنا على فكرهما فإن كتابنا شامل لكل ما ورد على الدين من مدركات الفلاسفة سواء ملين أو ماديين ، أقدمين أو محدثين ويتلو كل إيراد من ذلك محاكمة دقيقة تنتهي بفكرنا الخاص في الموضوع ولا موجب للتعجيل به الآن .

أما غرضنا الوحيد من هذه المقالة اليوم فهو إيضاح أسلوبنا في البحث تصحيحاً لحكم حكمه علينا المقتطف لا يؤخذ من كلامنا تصريحاً ، ولا يستنتج منه استنتاجاً .

أما أسلوبنا فهو كما قلنا في مقدمتنا في صحيفة (٣) : « سأتوخى إن شاء الله في بناء هذا الصرح تسخير ذلك العلم الهادئ للعقائد غير ذاهب بمدركاته مذاهب التعسف والتأويل ولا ناهج بمقرراته مخالجات التكلف والتحريف . ولكن سأسير معها سيرها الطبيعي وأسلكت بها مسلكها التحليلي ولم لا يتفق العلم والدين ويكون الأول مؤيداً الثاني وناصره ، وحاميته من شائبات الشكوك ومؤازره ، ما دام العلم منتزعاً من أشياء الكون والدين وحي من خالقه ؟ وهل يعقل أن يكون وحي إلهي مخالفاً لوضع طبيعي وكلامهما مستمد وجوده من خالق

واحد تتنزه أفعاله عن التناقض ، وتتعالى إفاضاته عن التعارض ؟ بل الذي يخشى صولة العلم ويتهيب سطواته رجل يريد أن يعطف حقائق الكون على خيالاته ، وأن يرى نواميس الوجود مطابقة لوهياته .. هذا هو الذي يرى العلم عدواً لدوداً فيصد عنه صدوداً ، ويكون أمامه حيوداً شروداً . هذا هو الذي إن ذكر العلم بحضرته عبس وبسر ، وأدبر واستكبر ، وقال إن هذا إلاقول البشر ، أما المسلم فمضى عهدناه أحجم عن العلم أو تهيب ورده ، وأنى رأيناه صدف عنه وخاف بطشه « انتهى كلامنا في المقدمة ومنه يتضح بأجلى بيان أن أسلوبنا في البحث هو عين أسلوب العلم العصري ، وسيرى قراؤنا إن شاء الله صدق هذا الوعد بأعينهم .

وقد أورد (المقتطف) جملتين من كلامنا وعلق عليها ملاحظة ترانا مجبرين على مبادلتها الفهم فيها . أما تلك الجملتان وملاحظة المقتطف عليها فهي :

« أما الآخرون فانفضوا رؤوسهم سخرية وهزواً ، وهزوا أعطافهم زهواً وعجباً ، ثم رفعوا عقيرتهم كبراً وصلفاً وقالوا : هذه آثار الماضين ، وبقية من بقايا الأقدمين فقد حكم العلم (معاذ الله) بأن نواميس الكون كافية في تحليل كل ظواهره ، وقوانينه قد فسرت أكثر غوامضه ، فلا داعي لفرض قوى وراء الطبيعة ، ولا موجب لتوهّم عالم علوي وراء هذه المرآة المحسوسة ... »

« كل هذه الشبه المتعاصية قد نشأت في وسط هذا العلم الأوروبي ونسب سبها من بين ذرات دسم هذه المدنية العجيبة فالتأت أكثر العقول بأقذارها وتسممت بسمومها . »

ثم علق المقتطف على هاتين الجملتين ملاحظة فقال : « هذا ومضى رأيت القاضي يسمع احتجاج خصمين فيصف أحدهما بالزهو والمعجب والكبر والصلف

وكلامه بالشبه المتعاصية ، والسم بين ذرات الدسم ، عسر عليك أن تنتظر منه الانصاف في حكمه . والله درّ من قال ان الشك أول مراتب اليقين ، فإذا أقدم كاتب على موضوعه إقدام مراتب في صحة كل ما قيل ، وبحث بنفسه عن صحته أو فسادة تعذّر عليه أن يهتدي إلى الصواب ويرشد غيره إلى الهدى ، أما إذا دخل باب البحث وذهنه مفعم بمسلمات ومعتقدات يتعذّر عليه الريب فيها ، فقلما يرجى من بحثه نفع لنفسه أو لغيره . « انتهى كلام المقتطف نقول : أما ما قاله عن الشك والارتباب وفائدتهما في استجلاء الحقائق ، فمما لا ريب فيه ، ولكن بالنسبة لمن يبدأ في بحث موضوع من المواضيع لا بالنسبة لمن بحثه وسبر غوره وقام ينشر بين قومه نتيجة جهاده الطويل . على أننا متى رأينا شاككاً فيما يكتب نبح في دعوته ، أو وصل إلى غاية مما يؤمله من هداية قومه ؟ لا يجوز للشاكك أن يمسك القلم ويؤلف لأن تشككه لا يفيد قرأه إلا حيرة ، وتذبذبه لا ينشر حواله إلا ذبذبة وتردداً ، ولا يوجد شيء أضرّ على خاصة أمة وعامتها من فقدهم الثبات في مدركاتهم .

وعلى هذا السميت التحقيقي الذي جرينا عليه جرى العلماء المحققون في كل أمة وفي كل زمان ، وأقرب شاهد على ما نقول كتاب (معرفة الله من درس الطبيعة) تأليف الأستاذ (كاميل فلامريون) الذي يصفه المقتطف بأنه من أشهر علماء الفلك في العالم ، فقد قال هذا العلامة في مقدمة كتابه هذا الذي طبع (٢٦) طبعة في وسط أوروبا .

« مهما ظهر لنا مبدئياً من صعوبة دحض المذهب المادي دحضاً علمياً ، فإن موقفنا من الآن جميل جداً لأننا في ذات الميدان الذي فيه خصومنا .

« ونحن في هذه الحرب السلمية للغاية قد تحققنا مقدماً بأن النصر سيكون في جهتنا . وبما أن عدونا في مركز باطل فليس علينا لنوال ذلك النصر إلا أن نكشف وجه بطلان ذلك المركز وأن نفقده موازنته فيه . » .

أنظر كيف حكم لنفسه بالغلبة ولعدوه بالهزيمة ، ولم يشك في ذلك لتحقيقه من قوة نفسه وضعف خصمه .

أما إيراد المقتطف إزراءنا بالماديين وإكباره ما وصنماهم به من الزهو والعجب والكبر والصلف وما وصمنا به كلماتهم بالشبه المتعاصية والسم ، فمما لا نرى له فيه حقاً ، فإننا إنما وصفنا بذلك منكري الألوهية ومن من الناس لم يصم ولن يصم هؤلاء المتهورين بذلك ؟

إننا لو أردنا سرد ما يصمم به إخوانهم العلماء من المشائن والمقايح للأننا سفراً ضخماً وإن شئت المثال فأليك ما يقوله عنهم العلامة (كاميل فلامبريون) في كتابه المتقدم قال :

« إننا حينما تناقش مباني العبارات يجب علينا أن نرجو القارئ لأن يعتقد أننا إن عاملنا بعضاً من خصومنا بشيء من الشدة فلا يجوز أن ينسب إلينا تبعة هذا التسامح لأننا لا نعتمد على هذه الوسائل الصارمة إلا في الظروف (وما أكثر هذه الظروف) التي فيها خصومنا يعاندون الحقيقة لكي لا يغلبوا . في هذه الحالة نكون مجبرين على معاملتهم بنوع من الشدة وإجبارهم على التسليم بالبرهان الساطع الصادر من الأقوى منهم لأنهم في الحقيقة الأضعفون في هذه الحرب القانونية » .

وقال : « تراهم يطبقون العلوم الفلكية والكياوية والطبيعية والفيسيولوجية على مسائل لا يستطيعون ولا يريدون حلها ولا يكتفون بأن يجبروا هذه العلوم على الإجابة عن الأسئلة الخارجة عن اختصاصها فقط ، بل يسيئون إليها أيضاً كأنها عبيد أذلة لكي تقر لهم بدون رضاها وبالزور والبهتان بأشياء لم تدر في خلقها . . » .

وقال : « ستري في مجادلاتنا الآتية أن هؤلاء العلماء خارجون تماماً عن

دائرة العلم ، وأنهم يغشون أنفسهم ويغشوننا معهم ، وإن براهينهم واستدلالاتهم واستنتاجاتهم فاسدة . . » .

وقال : « وترى العقول العطشى والمتذبذبة مع أخذها في كتبهم معلوماتها لاحتياجها إليها تشرب معها سماً زعافاً يهدم في أفئدتها جزءاً من فضائل المعرفة . . » .

ثم قال : « إن نظرياتهم هذه ثمرة من ثمرات الأفكار الجامدة التي برجعوا على نفسها دائماً تتوهم أنها مؤسسة على العلم بينما هي لم تقبل من شمس المضيئة إلا شعاعاً ضئيلاً حائداً عن سيره الطبيعي . »

ثم قال : « تراهم يحكون على ما يسكت عنه العلم الصحيح كأنهم حضروا في مجلس خلق الوجود أو كأنهم خلقوا العالم بأيديهم . »

ثم قال : « هؤلاء العاملون المعجبون بأنفسهم الذين يزعمون أنهم يمثلون العلم ويتكلمون باسمه لم يتنزلوا ولا باتباع الأسلوب العلمي الذي يقضي بعدم الحكم بدون برهان . »

ثم قال : « وسترى بالفعل أن الذين يحكون بأن القوة لا سلطان لها على المادة إنما يأخذون هذه الفكرة من خيالهم لا من العلم . »

ثم قال : « إنكم قد تهورتم لحد أن نسبتم إلى العلم مجموع ضلالتكم ، فإذا سمعكم العلم ولا بد أن يسمعكم لأنكم أبناؤه لضحك من أوهامكم . »

وقال : « إنا إذا نظرنا من قرب إلى حجر الزاوية الذي وضعه مذهب الماديين بعد صرفه نفقات طائلة تبين لنا أنه ليس إلا كتلة من الخشب المسوس ، وأنك إن سبرت ضمائر أنصار هذا المذهب وجدتهم لا يعتقدون متانة صرح إلحادهم كما كان لا يعتقد ذلك تلاميذ هيراكليت وأبيكور ذوو الرؤوس الصلعي . وهم وإن حاولوا أن يجعلوا نعتهم مذهبهم فليس هو إلا رأياً أظهر بطلاناً وأقل

اعتماداً على العلم من كثير من الخرافات العلمية . وبما أنهم يعلنون بذاتهم بأن كل رأي (غير مثبت) يجب طرده من العلم فيلزم أن يُبتدأ بطردهم قبل كل شيء .
ثم سرد الأستاذ الفلكي الشهير بعض بدائع الكون واستعظم إنكارها فقال : « هل هذا جنون أو حق ؟ هل هذا كبير أو جهل ؟ ماذا عسى أن يكون منشأ هذا الضلال العقلي الغريب ، وماذا عسى أن تكون نتيجته ؟ . ثم قال متمجّباً : « لماذا ينكرون الجمال ؟ لماذا يحرفون معنى الرحمة ؟ لماذا يحدون الحكمة ؟ لماذا يسممون الفضائل الأبدية التي بها قوام العالم ويكسفون النور الناصع النازل من السماء هذا الكسف المحزن ؟ » .

هذا ما يقوله عنهم الأستاذ (كاميل فلامريون) في نحو خمسين صحيفة في كتابه ، ولو عطينا بترجمة كل ما جاء في كتابه من عبارات القسح والاستهزاء والإزراء والتجهيل بالنسبة لأولئك الماديين للمأثنا عشرات من الصحف ، مع أن الرجل مشهور بين العالم أجمع بدماثة الأخلاق وعفاف القلم . أما ما غصت به الكتب والأسفار من الغميرة بالماديين والنعي عليهم من كبار رجالات العلم والفلسفة قديماً وحديثاً فما لا نسمح لأنفسنا بترجمته هنا إلا عندما نلجأ إلى ذلك إلهاء ، على أنه ليس بشيء يذكر بجانب ما ينفثه هؤلاء الماديون من أفواههم طعناً على العقائد وحقاً من كرامة المذاهب ووضعاً من شرف الآخذين بها مما يدل على مبلغ آدابهم وينم على مقدار أخلاقهم .

نحن لا نقصد بما وصمناهم به من الزهو والمعجب والكبر والصلف أن نشتمهم فإن ذلك مجال لا نسمح لأنفسنا بمبارزتهم فيه فليترعوا في أرجائه وحدهم ، بل قصداً منه وصفهم ونعتهم . ومن ذا الذي يقف على مناكرهم ويستطيع أن لا يصفهم بذلك مهما كان نزيه اللسان عفيف القلم ؟

هؤلاء الرجال يؤكّدون بجلء أشداقهم أنه لا خالق للوجود ، ولا روح للإنسان ، ولا خلود له بوجه من الوجود وإنما مثله كمثل النباتات والحيوانات يولد

ويفتنذي وينمو ويلد ثم يموت ، وان الوجود كله محكوم بالقوانين الميكانيكية والنواميس الطبيعية وهي قديمة كقدم الكون نفسه . يضعون هذه المبادئ نصب أعينهم ويحكمون من خلالها على كل مدركات البشر المخالفة لها بمحدة وشدة غريبتين ، فيشتمون ويهزؤون ويحقرون ويجهلون ، مع أنهم لو فاقشوا في مبادئهم هذه لرأوا أنهم متمسكون بأهداب الخيالات ومعتصمون بأوهى من بيوت العناكب . وما نحن نصيح بأعلى أصواتنا بأنه لا يوجد برهان ولا شبه برهان على نفي الخالق والروح وأن الفلسفة الحسية المتطرفة لا تقول بذلك ، قال أستاذاها وشيخها (ليقريه) :

« لما كنا نجعل أصول الكائنات ومصائرهما فلا يليق بنا أن ننكر وجود شيء سابق عليها أو لاحق لها ، كما لا يليق بنا أن نثبت ذلك . فالمذهب الحسي يتحفظ كل التحفظ في مسألة وجود العقل الأول لإقراره بجهله المطلق في هذا الشأن . كما أن العلوم الفرعية التي هي منابع للمذهب الحسي يلزمها أن تتحفظ من الحكم على أصول الأشياء ونهاياتها ، بمعنى أننا إن لم ننكر وجود الحكمة الإلهية فلا نتعرض لإثباتها . فنحن على الحياد التام بين النفي والإثبات » .

هذا حكم دستور الفلسفة الحسية المتطرفة ، أما حكم قانون العلم الطبيعي فهو : قال الأستاذ الطائر الصيت (ميلين ادوار) الانجليزي :

« يجب أن يندهش الإنسان لما يرى أن أمام هذه المشاهدات الناطقة المتكررة رجالاً يدعون لك أن كل هذه المعجائب الكونية ليست الا نتائج الصدفة أو بعبارة أخرى نتائج الخواص العامة للمادة إلى أن قال : إن هذه الآراء الباطلة او بالأولى هذه الأضاليل العقلية (تأمل) التي يسترونها باسم العلم الحسي قد دحضها العلم الصحيح دحضاً فإن الطبيعي لا يستطيع أن يعتمدها أبداً . » انتهى .

نقول إذا كانت الفلسفة الحسية مع صرامتها وتشدها والعلم الطبيعي على دقته وصولته يتبرأ من منكري الألوهية ويلفظانهم كما يلفظ الإنسان القذر

ويسميان مدركتهم اذليل واوهاماً أفلا يعد أصرارهم على خزعبلاتهم بعد ذلك زهواً وعجباً وكبراً وصلفاً . وإذا كنت لا تصم بهذه الأوصاف رجلاً تبرأت منه الفلسفة الحسية والعلوم الطبيعية نفسها ومع ذلك لا يرعوي ولا يرجع عن غيه فمن ذا الذي يصح أن تصمه بها بعد ذلك ؟

يقول العلامة (كاميل فلامريون) : « لقد عجز الأساتذة عن حل مسألة استمرار الوجود ودوامه ولذلك فهم مقرون بضرورة وجود الخالق وبتأثيره الدائم المستمر ليتمكنهم تفسير تعاقب الكائنات وإدراك سر أصول الأشياء ، أما التلامذة فإنهم يدعون أنهم فاقوا معلمهم فقاموا بحرفون نظرياتهم التي يزعمون زوراً بأنهم حماتها ومؤيدوها . » انتهى .

نقول إذا كان هؤلاء الملاحدة يسميهم أبناء جلدتهم بالتلامذة ويصيحوون بأنهم حرفوا العلوم وزعموا بالزور انهم حماتها فهل يليق بنا نحن أن نحترمهم أو نقيم لهم وزناً .

يؤاخذنا المقتطف على أن سمننا كلامهم بالشبه المتعاصية والسم في ذرات الدسم . فنقول واين السم من كلامهم ؟

وضع هؤلاء الرجال تلك النظريات الباطلة بين ايديهم (وقد أريناك مقامهم ومقامها) واستنتجوا منها تعاليم كلها شر ووبال على هذا الإنسان الضعيف : انكروا الروح والخلود وأروه نفسه نتيجة وظائف اجهزته وأجزائه ، ومثلوه في نظره بالآلة الميكانيكية ، وطعنوا ما شاءوا على ما كان يعتقد من أن له روحاً مستقلة وانها من مصدر عال وأن لها داراً بعد هذه الدار تحيا فيها حياة طيبة وتنجو بها من مضانك هذه التكاليف الأرضية ، ثم جحدوا الفضيلة في ذاتها وأروه أنها اسم لا حقيقة له البتة ، وأن الباعث الوحيد الذي يسوق الإنسان في ميادين الحياة هو طلبه النفع لنفسه ليس إلا ، أما يعتقد من أن هنالك شيئاً يقال له علو نفس وطهارة قلب فليس هو على زعمهم إلا أذليل اخترعها رؤساء الأديان للسيطرة بها على أرواحهم .

نشروا هذه التعاليم وما يتبعها بين ضعاف العقول وصغار الأحلام فنشبت فيها نشوباً وأفرعت فروعاً مختلفة على حسب الأفهام والمدارك ووجد الآخفون بها من الحرية الضاربة اطنابها في بلادهم مجالاً فسيحاً فجروا في أرجائه أشواطاً بعيدة طرباً بتلك الأفكار وفرحاً بنتائج تلك الفلسفة الحرة ، فإنهم لكذلك وإذا بصاخة عظمى تمزقت لها اصمخة آذانهم فالتفتوا حواليتهم ليرى ما الخبر وإذا بهم في مشهد تذوب منه فؤاد الإنسانية أسفاً وتذرف أعين الفضيلة من مرآة حزناً وكمداً ! ماذا رأوا ؟ رأوا الأثرة والشره والطمع والبهيمية لابسة ثياباً من نار المعامل والمصانع ، ويدها سوط من ظلمة المناجم تسوقهم ليدوسوا بأرجلهم الفقراء والضعفاء من الرجال والنساء والولدان وهؤلاء يجأرون الى الله من ظلم الظالمين وهم بين اشلاء مزعة ، ومهج سائلة ، وكبود مفتتة وشهقات تتصعد قد أحماها اليأس حتى استحالت شراراً . هذه الصيحة الهائلة لفتت كبار الرجال في العالم المتمدن إلى البحث في أحوالهم حتى كادت قواهم كلها تتصرف إلى ذلك . ولقد أحس القوم بما هم فيه حتى قال قائلهم :

« ما سبب هذا الأنين الذي يرن من كل جانب عند ظهور آخر كتاب فلسفي أو قصة جديدة أو قطعة تمثيلية متقنة ان لم يكن هو الشهيق المالىخولي الذي تسببه حياة قريبة من الفناء وعالم هرم قد أحس أنه سائر إلى قبره . » (١)

يقول الأستاذ (اجوست سباتيه) ما سبب هذا الأنين المزعج الذي يرن من كل جانب فيجيبه عن يمينه الفيلسوف (فييرنس جيفاييرت) في كتابه (الغمة الحاضرة) بأن سبب ذلك عدم الدين وفشو الإلحاد بتعاليم أولئك المضللين ويقول : « إن الساسيين والفلاسفة والمنشئين الذين من منذ قرن من الزمان يتكاثفون على اهباطنا إلى حضيض هذا الانحطاط الأدبي ليسوا في الحقيقة إلا فواعل ثانوية متأثرين بسبب فرد : وهو عدم الروح الدينية » .

(١) فلسفة الأديان تأليف الأستاذ (اجوست سباتيه) .

هل بعد هذه الحالة المهزنة التي آلت إليها هذه المدنية الزاهرة بتعاليم
الملحدين يلاحظ علينا ما وسمننا به أقوالهم من الشبه المتعاصية والبسم في ذوات
البسم . وأين فعل البسم مما أحدثوه في عالمهم من هذه الفتن المظلمة التي يكاد أن
لا يكون لها دواء .

وهل علينا من حرج بعد هذا لو قمنا نكافح الإلحاد ونقوض أركان مبادئه
صوناً لعالمنا من مثل ما وقع فيه سوانا من الحيرة في العقائد ، والألم من خلو
الأفتدة من روح الدين ؟ ها نحن نصيح بأعلى صوتنا بأن مدنية أوروبا قد
افسدها عدم الدين ، وأن عدم الدين سببه تعاليم الماديين ، وأن تعاليم الماديين
ضد العقائد خيالات وأوهام لا تؤيدها حجة ، ولا يسندها علم بل العلم بريء
منهم ومن تعاليمهم فمن يرى أن الأمر خلاف ما نقول فليساجلنا البحث في
هذا الموضوع الخطير غيرة على الحقيقة والسلام على من اتبع الهدى .

* * *

تنبیه لخصرات قرائنا

انا وصلنا بالقارىء بواسطة التحليلات الفلسفية التي عملناها في مبحث الإنسان إلى لباب نظريتنا التي وقفنا قلمنا ومحاولاتنا لبلوغ الغاية من تجليتها والإشراف منها على ادوائنا الاجتماعية والذاتية واستنزال روح علاجاتنا من قبلها إن شاء الله تعالى .

تلك النظرية هي أن لكل جيل روحاً عمومية تنبعث من أقوى أمة أو من أقوى الأمم في الجيل فتحتف بسائر الأمم الأخرى وتصارولها من جهات ضعفها حتى تستولي على إرادتها ، وتتسلط على اختيارها ، وتقديرها في تيار حركتها ، لتجعلها لا تعيش إلا لها ، ولا تتحرك إلا بها ، ولا تستمد الحياة إلا منها ، ولا تسكن أو تضطرب إلا في صالحها ، وقلنا أن الروح السائدة اليوم على آفاق العالم أوروبية مختلطة ، أحاطت بالأمم الضعيفة إحاطة السوار بالمعصم وجرت على سنة كل الأرواح العمومية السابقة ، ثم فسرنا بهذه النظرية سائر ما نحس به من التناقض في أحوالنا والارتباك في شؤوننا . وقلنا ان الدواء مما نحن فيه لا يمكن تركيبه وتحضيره الا بعد درس مصدر هذه الروح العمومية درساً علمياً ، والوقوف التام على العوامل التي كونتها وأمدتها ، وعلى جهات الضعف فيها التي واجهتنا منها فأحدثت فينا هذه الآثار المحزنة . ثم يضاف إلى هذا الدرس البحث الدقيق عن حقيقة هذه الروح وعن جهات قوتها وضعفها ، وعن عوامل حياتها وموتها ، وعن المسارب التي تسربت منها إلى أفكار البشر وعقائدهم فقلبت شكل الأرض من حال إلى حال آخر .

هذا البحث والدرس سيكون طبعاً بتشريح حالة الأمم قبل حدوثها من جهة الأفكار والعقائد والأحوال السياسية والعلمية والاجتماعية ومن الأخلاق

والآداب في أوربا محل نشوء هذه الروح العمومية، وبيان الرجال الذين ظهرت بهم هذه الروح وتسربت من تعاليمهم تدريجياً تدريجياً . وسيكون هذا البيان إن شاء الله بسرد حالة الأفكار في العصر الذي وجدوا فيه وما أفادوه للناس من الروح الجديدة، وتوضيح جهات القوة والضعف من تعاليمهم، ومجربى تلك التعاليم من عصور معاصريهم : ثم بيان كيفية انضمام تعاليم السابق الى اللاحق منهم وهكذا حتى نشرف بالقارئ على كيفية تكون تلك الروح الأوروبية السائدة اليوم وعلى حالتها من جميع جهاتها الدينية والفلسفية والعلمية والخلقية ، وعلى مراكز قوتها وضعفها من كل جهة من تلك الجهات ، وعلى سر تسلطها على المسلمين من كل تلك الجهات المذكورة . بينا نتابع سلسلة هذه المباحث في كراسة الإنسان ستكون كراسة مبحث خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم شاملة لهاكمة كل ما يرد من تلك المباحث بدستور القرآن الكريم ، فما يكون موافقاً منها لتعاليم القرآن استفدنا منه على وجهين (أولاً) من وجه كونه من المعجزات العلمية للمصلح الأعظم صلى الله عليه وسلم (وثانياً) من وجه اتخاذه من الأدلة المحسوسة على صدق نظريتنا من أن الروح الأوروبية سينتهي بها الأمر إلى مقابلة الروح الإسلامية في أفقها والفناء فيها وترك السلطان لها، أما ما خالفها منها فسنثبت للقارئ أن شاء الله تعالى بأنه مخالف للطبيعة والعقل معاً وأنه من جهات الضعف في الروح الأوروبية التي سيتطرق إليها الفناء منها .

بهذه الصفة ستكون السيرة المحمدية بحول الله وقوته على أسلوب جديد حاصلة على الروح المطلوبة منها بمعنى أنها لن تكون سيرة تاريخية محضة بل مرآة تتجلى فيها صورة موجزة من أعمال روح رسول الله صلى الله عليه وسلم في إصلاح العالم وأثرها فيه لليوم ومستقبل السلطان العظيم الذي سيكون لها بعد حين . والله يهديننا لاقوم سبيل .

* * *

ما وراء المادة

وجاءنا من حضرة الأستاذ الموما اليه أيضاً بأننا قلنا في كراسة ما وراء المادة : (فحوصها فحوصاً علمياً من جهاتها الثلاث تجريبياً وفلسفياً وأدبياً) ويريد أن يعرف مراد الأستاذ فالكومر (صحيفة ٣٤٩ سطر ٩) من الفحص الادبي وما الفرق بينه وبين الفحص الفلسفي .

(الجواب) - لا يخفى أن نظرية الروحانيين التي يستدلون عليها في أوروبا بالحس في هذه الايام هي أن للإنسان روحاً هبطت عليه من الملاء الأعلى لا يصل العقل الى ادراك كنهها، وإنما متصلة بهذا الجسد الطيني بواسطة هيكل لطيف على شكل الجسد تماماً ولكنه ليس من طبيعته ولا محكوماً بقوانينه ، وانه كغلاف للسر الالهي المسمى روحاً . ولعل في هذا ما يشبه قول الامام مالك بن أنس رضي الله عنه عن الروح (هي صورة كالجسد). ويقولون ان الروح وغلافها هذا يخرجان من الجسد عند حصول الموت للشخص الى عالم غير هذا العالم ولكنها لا تنفصلان عنه كل الانفصال بل ارواح الموتى منتشرة حولنا في كل جهة ولكننا لا نراها بأعيننا لعدم استعداد أعيننا لذلك ، كما أنها ليست مستعدة لرؤية أشعة (رونتجن) مع أنها موجودة كما تدل عليه الآلة التي صنعها الاستاذ (رونتجن) لها وقد دخلت تطبيقاتها في علم الطب وافادت العلم الطبيعى فائدة كبرى . ولكن يوجد أشخاص فيهم استعداد خاص به يرون الارواح رائحة غادية وعن أيمانهم وعن شمائلهم رؤية حقيقية وهؤلاء الأشخاص هم الذين يصح أن يتخذوا وسطاء لتجسد الارواح ، لأن ذلك الاستعداد الذي اتاح لهم رؤيتها يجعل بينهم وبين عالم الارواح نسبة خاصة يستفيد الارواح من هؤلاء الاشخاص قوة ومادة يظهرون بها أمام أعين الناس . وقد سئل بواسطتها الأرواح عن مصدر المادة التي ظهرت بها وعن مصيرها بعد ذهابها فقالت ان في غلافها قوة خاصة بها تكون

لها جسماً في الحال وتتخلّى عنه في الحال كذلك . أما مصدره فهو جسم
الواسطة التي تظهر بواسطتها . قالت انكم تتحققون من ذلك لو وزنتموها أو
وزنتموه قبل حضوري وفي أثناء تجسدي لتدركوا الفرق الواضح في وزنها أو
وزنه في كلتا الحالتين . ولما فعل العلماء ما أشارت به الروح وجدوا أن الواسطة
يفقد من وزنه في أثناء تجسد الروح قدر النصف فإذا ذهبت عاد اليه وزنه
الحقيقي كما كان . وبما يثبت لهم حقيقة ذلك أن الاستاذ الروسي (اكزاكوف)
كان يحضر روحاً مع ثلة من إخوانه وكانت الواسطة امرأة شهيرة جداً اسمها
(مدام دسبرانس) فشاهد أن الروح تجسدت من نصفها الأعلى وأن الواسطة
فقدت أطرافها السفلى تماماً وقد فحصوا ذلك بأيديهم وهم في غاية الدهشة فلم
يجدوا لأطرافها أثراً ، ثم لما ذهبت الروح عادت اليها أطرافها . وقد شاهد هذه
الحادثة التي فيها يفنى جسد الواسطة كله أو بعضه بعض علماء آخرين كما سنبينه
تفصيلاً إن شاء الله . ويقول الباحثون في هذا الفن بهذه التجارب وبواسطة هؤلاء
الأشخاص الذين فيهم ذلك الاستعداد الخاص قد أصبح الحد الفاصل بين عالم
الأحياء والاموات رقيقاً جداً . ويقولون ان هذا العلم ليس بجديد في العالم أي
ليس مبدؤه سنة ١٨٤٧ حين ظهر في أمريكا لأول مرة بل هو معروف ومستعمل
من منذ أقدم أزمنة التاريخ المعروفة كما أثبت ذلك الاستاذ (جريمار) وغيره
وأنه في الهند أرقى منه في أوروبا بكثير . ويقولون أن هذه التجارب لا يكون
من فائدتها إثبات وجود الروح وخلودها والإمام بأحوالها في عالمها فقط بل
سيكون من ورائها حل معميات كثيرة في العالم مثل مسألة الحياة والعقل وغيرها
وقطع دابر تعاليم الملحدّين الذين مسخّوا فطرة الأنسانية بتعاليمهم السامة ،
وسدّوا على الأفئدة منافذ الرجاء بما نشره من ظلمات اليأس ، وكشف الباطل .

هذه هي أهم أركان نظرية الروحانيين ، ففحصها تجريبياً هو تطبيق الاسلوب
العملي عليها والبحث عما إذا كانت مما يمكن إثباتها بالحس كما هو منطوق النظرية
فتعد من ضمن العلوم التجريبية وتدخل في مصاف المعلومات الحقّة - أم لا ، فتلفظ
الى عالم الآراء والفروض التي تتناولها الشكوك وتتحكم فيها الريب . وأما فحصها

فلسفياً فهو مقابلتها بقوانين العلوم المنطقية ليرى هل تتفق مع دستور العقل ولا تجافيه في شيء أم تتعالى عليه فيكون ذلك حجة للذين يدعون أن المصدقين بهذه النظرية مصابون بنوع من الخلل العقلي كما زعم ذلك في أول ظهورها كثير من رجال العلم، ومنهم الأستاذ الكبير أكبر علماء الجرائم (لومبروزو)، ثم رجع عن رأيه بعد ما فحص المشاهدات التي تؤيدها وكذب نفسه في كتاب ألفه في ذلك. وقد نقلنا عنه في الفصل الماضي من مبحث (ما وراء المادة) الجملة الجميلة التي ختم بها بحثه. أما فحصها أدبياً فهو النظر في مبلغ تأثير هذه النظرية على الآداب والأخلاق تعديلاً أو تضليلاً. فقد زعم في أول ظهورها كثير من رجال العلم أنها ستعيد سلطة الأوهام والخيالات التي كانت سائدة في القرون الوسطى وستحيي صناعة السحر والطلاسم التي أفسدت عقول العامة والخاصة قروناً طويلة، وستؤثر تأثيراً سيئاً على العقل الإنساني الذي بذل العلم جهده في انقاذه من أنياب الأضاليل المظلمة والرموز الحالكة وأخرجه إلى عالم الوضوح والجلاء. هذا ما كان يثرثر به بعض العلماء ولكن ظهر أن الأمر بخلاف هذا، فقد شوهد أنها أنقذت من محارات اليأس نفوساً هلكى وخلصت من غمرات التعاليم المادية الإلحادية أفئدة غرقى، ونشرت على الإنسان في النصف الأخير من القرن التاسع عشر نوراً ساطعاً أرتبه به أن للحياة غايات أكمل وأجل من وقف القوى على الشهوات البهيمية، وعدم المبالاة في جلب المال بإزهاق الأرواح البشرية. وقد قوي هذا الرجاء في القرن العشرين فأصبح الناس ينتظرون إشراق عصر جديد يسترد الإنسان فيه من الدين الحق ضالة روحه، وتسترجع نفسه باسم العلم من كرائم العقائد أنشودة فؤاده، حتى يستقيم على صراط الفطرة الصحيحة، ويستثير من كنوز معناه جماله الإنساني، ويكأله الروحاني، فيعيش على الأرض ملكاً في شكل إنسان، لا جاناً في صورة حيوان. ومن يعيش ير والسلام.

* * *

استحضار الأرواح والتنويم المغناطيسي

جاءنا من حضرة الوجيه الفاضل إبراهيم حسن أفندي بارود من أعيان (صور) من مدائن سوريا كتاب يقول فيه « من الاطلاع على (الإسلام في عصر العلم تبين أنكم نشرتم في (الحياة) كيفية التنويم المغناطيسي واستحضار الأرواح وبما أن كثيرين من قراء (الإسلام في عصر العلم) لم يطلعوا على (الحياة) فقد اقترحوا علينا أن نستمد منكم كيفية حدوث هذا العلم ومن الذي اخترعه ولأي درجة وصل إليها ، وهل حصل سؤال للروح المستحضرة عن البرزخ أي برزخ الأرواح وبأي هيئة كانت تحضر الروح . الخ » .

(الجواب) التنويم المغناطيسي كان عند المصريين الأقدمين ومستعملاً في هياكلهم ، وكذلك في تاريخ الكلدانيين وغيرهم ما يدل على وجوده عندهم . أما في أوروبا فلم يظهر إلا سنة (١٧٧٥) بواسطة الدكتور الألماني (مسمر) فقد قرر بأن في الإنسان سيالاً مؤثراً سماه (المغناطيس الحيواني) لا يعرف كنهه ، ينبعث من الانسان بإرادته ويؤثر على الأشياء والأشخاص تأثيراً خاصاً . وقرر أن كل الناس متمتعون بهذا السيل المؤثر ولكن على اختلاف في الدرجات . فلقي هذا الدكتور من ملحي زمانه ما يشبط الهمم ويهد العزائم لأنه كان ضد تعاليمهم ولكنه ثبت في مركزه وأخذ يطبب بواسطته المصابين بأمراض عصبية بواسطة التأثير عليهم به وإيقاعهم في نوم حقيقي . ولما كثرت الكلام فيه قام بفحصه رجال من أهل العلم فصادقوا على قول مسمر ثم زاد أنصاره حتى صار فيه مثل الاساتذة الكبار شاردل و (شانييه) و (ده يوتيه) و (بريون) و (شاركو) ولم يزل هذا الفن يجاهد اضعاده حتى فاز عليهم ودخل اليوم في العلم الرسمي . قال (جه . دولن) في كتابه (المذهب الروحي أمام العلم) : « اما الآن فقد حصل في صالحه رد فعل عظيم . فإنك ترى الجرائد على اختلاف

صبغها وأماكنها والمجلات الطبية مشغلة بالمشاهد العجيبة لفن التنويم المغناطيسي » .

وقال الاستاذ (شاركو) وهو العلم الفرد في العلوم الطبية في العالم « النوم المغناطيسي عالم تجد فيه بجانب المشاهدات المحسوسة المادية التي تنطبق على علم الفزيولوجيا أشياء أخرى خارقة للطبيعة لم يستطع أحد تفسيرها للآن ولا تنطبق على أي قانون تشريحي » .

هذه الخوارق للطبيعة التي يتكلم عنها الاستاذ (شاركو) تثبت وجود الروح بطريقة لا تحتل الشك . قال الاستاذ (بيو) في كتابه (المحادثات على المغناطيس الحيوي : « النوم المغناطيسي يثبت وجود الروح وخلودها ويبرهن على إمكان اختلاط أرواح متجردة عن المادة بأخرى لم تزل مكتسبة بالمادة » .

اليك محاوراة بين منوّم ومنوّمّة نقلها الاستاذ (شاردل) المذكور آنفاً .
قالت المنومة : هل تسمع ما يأمرني به ؟ فقال الدكتور من هو الذي يأمرك ؟
فقالت : هو ، ألسنت تسمعه ؟ فقال : كلا ، لم أسمع شيئاً ولم أر أحداً . فقالت : حقيقة ، لأنك نائم أما أنا فيقظي . فقال لها الدكتور : كيف ذلك ؟ أتعين أني نائم وأنك يقظي مع انك تحت تأثير إرادتي في الحالة المغناطيسية ، انك تتوهمين أنك يقظي لكونك تكلميني وأنك متمتعة بنوع من الإرادة ولكنك في الحقيقة لا تستطيعين أن تفتحي جفنيك . فقالت : إني اكرر لك القول بأنك أنت النائم ، وأنا بالعكس اليقظي تماماً على مثل الحالة التي سنكون عليها جميعاً يوماً ما .
لأفسر لك ذلك : ان كل ذلك الذي تستطيع أن تراه أنت ليس إلا أشكالاً غليظة مادية فلا يمكنك أن تميز إلا أشكالها الظاهرة ، ولكن جالها الحقيقي محجوب عنك تماماً . أما أنا في حالة وقوف وظائف أعضائي الآن وفي حالة حرية روحي من علائقها الاعتيادية فإني أرى ما هو مستور عنك ، وأسمع ما لا يمكنك سماعه وافهم كل ما هو غير مفهوم عندك . الى أن قالت : واني بمجرد الإرادة أستطيع أن أسمع الأصوات البعيدة عني ولو كان بيني وبينها مائة فرسخ

وبالاختصار فإنني لا أحتاج أن تأتي الأشياء إلي بل أنا أذهب إليها حيثما كانت وأحكم على حقيقتها بطريقة أضبط مما يحكم به عليها أي إنسان آخر لا يكون في الحالة التي أنا عليها . اهـ (١)

ونقل الأستاذ (اكزاكوف) في كتابه (المذهب الروحي وفن استحضار الارواح) ان زوجة الاستاذ الانجليزي الشهير (دومرجان) معتادة على تنويم سيدة وجعل روحها تخرج من جسدها وتذهب الى المحل الذي تعينه لها . فقالت لها يوماً وهي تحت تأثير المغناطيس : اذهبي الى منزلي الذي كنت اسكنه سابقاً . فقالت المنومة : قد فعلت وطرقت الباب بشدة . قالت زوجة الاستاذ : فذهبت في اليوم التالي لأتأكد من صدقها وسألت عما حصل في تلك اللحظة فاجابني السكان بأنهم سمعوا طرقة شديداً على الباب فذهبوا اليه فلم يجدوا أحداً ففعلوا أن ذلك فعل اشقياء الاطفال . يقول الاستاذ (اكزاكوف) ان هذه الحادثة وامثالها تثبت بطريقة لا تقبل الشك ان للروح وجوداً متميزاً عن المادة وانها تستطيع ان تعمل ما يمين لها بنفسها .



كتب الينا حضرة الأستاذ الشيخ محمد أحمد الألفي من طوخ القراموص يقول : « هل مستحضرو الأرواح سألوها عن كنه الروح وعلاقتها بجسد الانسان ؟ هل سألوها عن العذاب والنعيم الآخروي ؟ هل سألوها عن الأديان الصحيح منها والفساد ؟ هل في امكانهم استحضار أرواح الانبياء والملائكة والجن ؟ هل سألوها عن المباحث الكثيرة التي تجل عن الحصر بين علماء الأديان والعمران ؟ »
الجواب استحضار الأرواح التي ظهرت في العالم الغربي سنة ١٨٤٧ تمد أكبر مدهشات العلم البشري فلا غرو ان استلقت انظار النوع الإنساني بأسره وأصبح

(١) هذا مما يفسر الحديث الشريف « الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا » .

لها من الأتباع ما ينوف عن العشرين مليوناً ، ودخل فيها العلماء والكتّاب والسياسيون افواجاً افواجاً مثبتين ابحاثهم وتجاربهم في أكثر من مائتي مجلة خاصة . هذا عدا عما يكتبونه في المجلات العلمية والجرائد اليومية . وكيف لا يكون لهذه المسئلة هذه الأهمية الكبرى وهي التي هدمت أصول الألحاد وقوضت دعائم العناد وصدت تيار العلم المادي في أشد جماعه وأبطلت بالحس دعوى الماديين الذين انكروا العالم الروحاني والخلود وحشروا الإنسان في مصاف الحيوانات العجاء بل جعلوا مصيره كمصير النباتات يولد ويتغذى ويتوالد ثم يموت وتتلشى اجزأؤه في ذرات الأرض ويذهب الى حيث يذهب كل شيء .

هذه التعاليم السامة كم جرحت من فؤاد ، وكم طعنت من حشاشة ، وكم قرحت من عيون واجفان ، كم باتت أم فقدت فلذة كبدها تتلظى على تنور اليأس من عود رؤيته ، وتضطرم على غضا القنوط من احتمال بعثه ، لا جرم قد شوهدت هذه التعاليم حياة الانسان تشويهاً جعل فؤاد المتشبع بها منساباً لدمائهم الصفات ، ومسرحةً لأقدار الدنايا ، ومرتعاً لشياطين الأميال البهيمية التي يستحيل أن تجتمع كلها في أسفل حيوان .

هذه الصفات كلها وخلو الفؤاد من الراحة والطمأنينة لا تمنع ما نشاهده من هذا الرقي الصناعي المدهش في هذه المدنية الساحرة بل هي من أقوى البواعث اليه ، لأن النفس متى حصرت في اقصاص السامة وأحيط بها في مضائق القلق تتطلب الخلاص بكل حيلة ووسيلة ، وبما أنها يئست من روح الدين وقنطت من السبع في سبحات أنوار العقيدة فلا تجد لها مناصاً إلا عالم المادة بإعطاء الحواس الجثمانية غاية ما تستطيع الشعور به من لذة جسدية .

تخيل أماً هذا شأن أرواحها من التعطش الى العقيدة ، وتلك حالتها من اليأس من وجود الأدلة لدحض مزاعم الفلسفة الحسية التي اهم أصولها لا تصدق حتى نحس ، قلنا تخيل أماً هذا شأنها من الحرمان من أشرف مسليات النفس وأكرم معزيات المواطنف وهو الدين ، ثم تصور كيف يكون حالهم لو ظهر فيهم

قائل يقول : ان أرواح الموتى يمكن أن تظهر للأحياء في شروط خاصة وتأتي من العجائب ما لا يمكن الوصول اليه بالوسائل المحسوسة ولا ينطبق على فواميس الطبيعة . قل لي كيف تكون حال أولئك العرقى في لجج اليأس الذين يطلبون مخلصاً مما هم فيه من أي سبيل كان ؟ لا شك يحدث فيهم هذا القول رجة كبرى وحركة عظمى تستفز علماءهم لفحصها وبحثها ، أملاً في اعتقادها أو دحضها . وقد حصل ذلك ، فانه لم يمض على هذا القائل خمسون سنة حتى أصبح مذهب مكاملة الأرواح من الأهمية بالمكان الذي وصفناه لكم وسنزيده وصفاً إن شاء الله .

هذه الملايين العديدة الذين كانوا بالأمس لا يصدقون بشيء لا يكون شأنهم حيال هذه المسألة المدهشة كشأننا نحن معشر الذين نعتقد بعالم الأرواح والملائكة والجن ، أي انهم لا يكون شغلهم في مبدأ الأمر الا التحقق من حصول ما يحصل بدون غش أو آلات دقيقة كما هو شأن المشعوذين ، ولذلك تراهـم صرفوا هذه المدة كلها في هذا البحث وهو كما لا يخفى الأصل الذي يجب الوثوق به مبدئياً .

هذا هو حال من ننقل عنهم من العلماء الكبار والفلاسفة المحققين وهم الذين نشق بهم ونطمئن لبحشهم لاستبعادنا وقوعهم في أشراك الحيل ، واكبارنا غفلتهم عن دقائق الآلات التي يحتمل أن تستعمل لذلك . أما من لا نههم مثل هذه الثقة من رجال السياسة والكتاب والمحامين وغيرهم ممن يكفيهم من البراهين ما لا يكفي الأولين فلهـم بالنسبة لما سألتمونا أقوال يطول بسطها ، ولكننا لننقل عنهم لليوم شيئاً من ذلك لأنه لا ينطبق على أسلوبنا في ابجائنا : فاننا بصفتنا مسلمين مخاطبين بهذه الآية الكريمة « وان تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله » يلزم ان يكون قسطاسنا أدق من كل قسطاس ، فترونا لا ننقل الا عن مثل (فلاريون) و (أوليفيه) و (جيبه) و (ودوروشاس) من الفرنسيين ، و (زولتر) و (أولتريسى) و (بير) و (فيشر) من الالمان ، و (كروكس) و (وولاس) و (فارلي) و (هومرجان) و (اكسن)

و (شمبير) و (جلى) من الانجليز ، و (ماب) و (هار) و (إدمونت) و (أليوت) من الامريكان الخ الخ وكل واحد من هؤلاء ركن من أركان النهضة العلمية الاوربية وعمدة كبير في العلم الذي يبحث فيه ، ولا هم لهم جميعاً من بحث هذا المذهب الا التحقق المطلق من حصول تلك الخوارق بغير وساطة الغش والتدليس وانها آتية من عالم روحاني محض . على ان منهم من اكتفى بالبراهين التي لديه واعتقد بانها الارواح حقيقة ، ومنهم من نسبها لعالم روحاني آخر ومنهم من توقف عن الحكم حتى يتم انجلاء المسألة تماماً . منهم الاستاذ (كروكس) أكبر كياوي الانجليز فتراه بينما يؤكّد صحة تلك الخوارق وانه لا دخل للتدليس فيها فيخطب في الجمعية العلمية المالوكية قائلاً (أنا لا أقول ان هذا ممكن بل أقول هو ثابت محقق) تراه من جهة أخرى لم ينطق لليوم باعتقاده بانها أرواح الموتى أو ان تلك الروح التي تجسدت أمامه وفحصها في منزله في تجاربه الخاصة هي حقيقة روح الشخص الذي اخبرته انها روحه مع انه وصف تلك المشاهدة المدهشة في ١٩ صفحة من كتابه الذي ألفه بالانجليزية وطبع اثنتي عشرة مرة بالفرنساوية وهذا نعمة من التبصر الجدير برجال العلم .

أما ان أردتم موجزاً من أقوال غير هؤلاء القادة في اعتقادهم في المسائل التي وجهتموها اليها فإليك : انهم يعتقدون أن الروح سر إلهي لا يدرك له كنه ولكنه متلبس بجوهر نوراني ألطف من المادة على شكل الجسد وهو الذي يربطه به الى حين . ويقولون ان الأرواح إذا ارادت الاختلاط بالناس تظهر لهم بهذا الهيكل الشفاف وإذا ارادت التجسد تجسدت بواسطته فأن فيه خاصية تكوين جسد له في ساعته وافنائه في ساعته أيضاً، وذلك بواسطة المادة التي يستفيد منها جسم الواسطة التي تحضر الروح بوجودها ويكون فيها استعداد لذلك .

أما النعيم والعذاب فهم يعتقدون أنها أمور معنوية محضة ، فالنعيم شعور بسعادة وصفاء والعذاب شعور بألم وتندم .

أما الأديان فقد أرشدتهم تلك الكائنات إلى ما يكاد يوافق الاسلام بأن
حذرتهم من عصيان العقل والتعداد في ذات الصانع تقدس وعلا ، وأمرتهم
بترك الظنون والالوهام في العقائد ، وأرتهن ان الوحي حق الانبياء بلا
تفرقة بينهم من تكذيب أحدهم وتصديق الآخرين ، وأريد بهذا أن كثيراً منهم
آمن بخاصتهم محمد صلى الله عليه وسلم وهذا ما نعتقد أنه أحسن نتائج الاسبرتزم
وسنترجم لكم ان شاء الله في الجزء المقبل تفصيلات جليلة في شأن قريهم الى
الاسلام وايمانهم بنبينا عليه الصلاة والسلام .

* * *

اقترح من مجلة المنار

اقترحت علينا (مجلة المنار) الغراء أن نذهب الى أوروبا ونفحص بأنفسنا مسألة استحضار الارواح وقالت ان ذلك أمنية الكثيرين ، ونحن نشكرها ونشكرهم على هذه الثقة بنا الا أننا نرى أن الأفضل من ذلك أن نتعقب نتائج اجاث العلماء فيها ومقارنتها ببعضها كما نفعله في كراسة (ما وراء المادة) نقلاً عن كبار رجال العلم في العالم لتنجلي لنا ان شاء الله من وراء ذلك حقيقة المسألة من مجموع تلك الجهودات المجتمة . ولا يظن القارئ ان بحث هذه المسائل من السهولة بحيث يستطيعه أحدنا في أثناء سياحة واحدة أو سياحتين إلى تلك البلاد . كلا فإن الذي يريد أن يطبق عليها أسلوب العلم العملي لا تكفيه في ذلك السنة ولا السنتان درساً وتجرباً مع الانقطاع لها تماماً . ومن العلماء الذين ننقل أقوالهم من بحثها نحواً من ٣٥ سنة مثل الاستاذ الطائر الصيت (وليم كروكس) الانجليزي ، ومنهم من فحصها في ١٥ سنة مثل العلامة (او كسن) ومنهم من زاولها اثنتي عشرة سنة مثل الاستاذين (هودسن) و (هيزلواب) واخوانها من اعضاء جمعية المباحث النفسية . وكتب الاستاذ الجيولوجي الانجليزي (باركس) في مجلة (اتلينس اوف انفستيجيشن اتومودرن اسبيرتو اليزم) يقول : انه قبل ان يعتقد حقية الاسبرتزم قرأ كل كتاب الف للدفاع عنه أو في دحضه وجادل كل متكلم فيه ثم جرب مشاهداته بنفسه مدة عشر سنوات . قال وبعد هذا كله استطعت ان اتكلم في مشاهداته واخطب بعلم ودراية .

لهذا لا نجد من الفراغ ما يسمح لنا ببحث هذه المسائل بانفسنا فلنستفد من غيرنا ممن وقفوا حياتهم لها ، وليس من الحكمة ان لا يصدق الإنسان الا ما يراه بنفسه فأن عمره لا يكفي لسبر غور فن واحد فما بالك بمجموع المحاولات الانسانية كلها . واي شهادة على صحة الخوارق الروحية اكبر من نقل اقوال الذين كانوا بالامس يفتخرون بانهم ماديون فأصبحوا يصيحون بانهم كانوا مغرورين وانهم أصبحوا مؤمنين بيوم الدين .

* * *

باب المسائل

(١)

كتب لنا حضرة الشاب المذهب الغيور أحمد حمدي بك أحد طلبة مدرسة الطب المصرية يسألنا رأينا في نتيجة المناظرة التي ثار ثائرها بين متخرجي مدرسة الطب أيام كانت دروسها تلقى باللغة العربية وبين متخرجيها بعد دخولها في شكلها الجديد أي بتدريس العلوم فيها باللغة الأجنبية . يسألنا حضرته بصفته أحد المتناظرين في هذا الموضوع ممن كتبوا فيه المقالات الضافية الذبول في المؤيد وكان لمقالاته تأثير كبير اختلفت آثاره على الجمهور .

نقول أننا تتبعنا حركة تلك المناظرة بين الفريقين تبعاً أتاح لنا الإشراف على جهات القوة والضعف في كليهما على قدر ما وصل اليه علمنا ونستطيع اليوم بغاية السهولة أن نكتب عنها نبذة انتقادية نسرد فيها صواب الفريقين وخطأهما وندعوها بعد ذلك إلى الصلح والوثام من أعم غاياتها كما يفعله الحكم الذي يعين للفصل بين متقاضين . ولكننا نرى ذلك عديم الفائدة ولا ينطبق على أسلوبنا في البجائنا فإننا لا نود أن نصرف مجهوداتنا إلا على العموميات التي تتدرج فيها الجزئيات اندراج الفرع في الأصل ، أي أننا لا نحب أن نشتغل من كل مسألة إلا بدستورها الأساسي الذي تنزل منه القوانين التي تسيطر على الجزئيات على كثرة أشكالها وتطوراتها . وبما أن السؤال الذي نحن بصدده يتعلق بالمدارس ونظامها فقد رأينا أن نأتي على فكرنا في العلم والتعلم والتعليم أي على الدستور الذي يجب أن تنطبق أصوله عليها ، ومنه يعرف قراؤنا رأينا على كل مسألة من هذا القبيل .

لا مشاحة في أن في الأمة نهضة إلى التعليم وحركة تزعجها إلى التربية تشبه نهضة المريض إلى تعاطي الدواء وحركته لتتسم نسيات الشفاء، ولكننا مع إعجابنا بهذه الروح الجديدة نرى أنفسنا واقفين أمامها موقف الرجل وهو تناقض في الشعور ليس تفسيره بالأمر الصعب . فأما الإعجاب فلكوننا أمام نهضة دافعة وحركة سائقة تشير إلى أن فينا نوعاً من الحياة ، وأما الرجل فلمعرفتنا بأن ما كل دواء بدواء ، وإن أنكأ ما يصيب المريض في علته دواء لا يلائم حالته ولا يناسب مزاجه لأنه لو ترك ونفسه فربما تغلبت قوة الحياة الكامنة على اعراض المرض وأصوله فأجلتها عن الجسم بدون علاج ، وأما الدواء غير المناسب فإنه إن لم يؤخر الشفاء فربما أمد مادة المرض وقوى تيار العلة وأودى بالحياة على صفة لا تلتظر .

في الشرقيين ناس يتهمون نتيجة التعلم ويذمون أثره ويقيمون على صدق مزاعمهم كثيراً من البراهين ويسردون لذلك عدة من الاحصائيات ، يقول قائلهم مثلاً : أنظر إلى البلاد قبل ظهور المدارس وعد ما كان فيها من محلات المسكرات والملاهي والمواخير والقهاوي ثم انظرها اليوم وعد ما شيد فيها من قصور المقامرة والفسوق والشراب وانظر إلى القهاوي واحسب إن استطعت من يتردد عليها من أبناء البلاد وما يسيل من جيوبهم فيها من اللجين والنضار وما يستهلك فيها من خلايا الحياة ، تجدد الأمر بما يذيب الفؤاد أسى ويذهب باللب كمداً . ثم يقول لك أنظر إلى أصحاب الأطياف الواسعة من الفلاحين كيف استهواهم زخرف المدارس فحشروا اليها أولادهم زمراً زمراً فنشأوا على صفة لا تتفق مع حالة عائلاتهم ففادروا الزرع والضرع وكلفوا بخدمة الحكومة بدل أن يحلوا محل آبائهم في القيام بتدبير ثروتهم الطائلة واقتتنوا بمعاهد البلاد الأجنبية فأموها أفواجاً أفواجاً يذهبون ثقلاً فيعودون خفافاً حتى أثقل الدين كاهل الأطياف وأصبح أكثر من ثلاثة أرباع البلاد رهناً لعدة من المرابين، وصارهم الفلاح سواء كان صغيراً أو كبيراً ، بذل مهجة الفؤاد في الشغل في سبيل (البنوك) فكانت نتيجة المدارس والحالة هذه تبديد ما جمعه الآباء والأجداد وازهاق روح

البلاد. ولو قلتَ لهذا القائل ليست هذه نتيجة المدارس ولكنها أثر البذخ الهائل الذي سرى ميكروبه فينا ودفع الناس لتقليد الأجانب في زخارف المدينة الجديدة لصاح بك على الفور قائلاً : ومن أين سرى لنا هذا الميكروب وما هي الخلية الأولى التي أصابها فعدت إلينا عدواها ؟ اليس ممن تربوا في المدارس وزعموا أن لا حياة لهم إلا في التقليد والانطباع بالطابع الجديد؟ هب انهم لا دخل لهم في ذلك فأين اثرهم في إيقاف هذا التيار ؟ ولماذا نراهم اطوع من الجاهلين إلى تقحم هذا العار ؟

هذا ما يقوله غير واحد من المغرمين بالبحث في الشؤون العامة يوافقه عليه الكثيرون . ولكنه لا أثر له في إيقاف تيار الاندفاع في التعليم وربما كان ابن هذا المعارض الشديد الشكيمة من ضمن طلبة إحدى المدارس وأول المسوقين للتقليد ، مما يدل على أن في الأمة سوقاً قسرياً إلى الحركة ودافعاً ذاتياً يدفعها عن الوقوف . فالأمة في مثل هذه الحالة في غاية الحاجة إلى أطبائها العمرانيين الذين يهدونها إلى أمثل الطرق التي يجب اتباعها في حركتها الجديدة لئلا تكون كالمرضى يدفعه الكلف بحياته إلى تلمس الدواء لعلته فيسلك له الطرق الموبقة ، ويلقي بنفسه بين يدي كل من شام منه بارقة العلم ولم يتند في الدواء الذي يعطى إليه ليعلم ان كان معلوم التركيب أم مجهوله ، على نسب مضبوطة بين العقاقير أم معمولاً كيفما اتفق .

إذا دخلت الأمم من حياتها في مثل الدور الذي نحن فيه كان من أهم واجبات أطبائها العمرانيين القيام لقيادة حركتها إلى طريقها الأمثل صيانة لها من أن تذهب قتيلة أشرف عواطفها، وهي عاطفة طلب العلم. وليس هذا بعجيب فرحم الله شيخ المعرفة حيث يقول :

أفضل ما في النفس يفتالها * فنستعبد الله من جنده

هذا الدور من الأمم يشبه دور البدء في الأكل للأطفال وهو دور حرج جداً يودي بحياة أطفال لا يحصى لهم عدد من جراء جهل أهليهم بقوانين التغذية .

والأمة في هذا الدور لا تفتقر من حيث حرج المركز عن أولئك الأطفال في شيء. فكما أن الطفل متى دخل في ذلك الدور ينشأ فيه ميل لتناول كل ما يعطى إليه من غير تمييز لما يضره أو ما ينفعه - كذلك الأمة في مثل هذا الدور من حياتها تدفعها الضرورة الاجتماعية ويظهر في أفرادها سائق شديد لتغذية أفكارها بالعلم والمعرفة من غير تفرقة بين ما يضرها وما ينفعها منه . وتكون النتيجة عليها من جراء ذلك صلاحاً أو فساداً مثل نتيجته على الطفل سواء بسواء . فكما أن هذا يلتهم كل ما يقدم إليه مهما كان نوعه ويزيده الإفراط وعدم التدبير نهماً فيفرح بذلك أبواه الجاهلان ظناً أن ذلك مما يكسبه قوة وصحة فيخيب ظنهما عندما يريان أعراض النزلات المعدية والمعدية قد ساقته إلى أخرج المواقف بالنسبة لصحته كذلك الأمة تزداد في هذا الدور نهماً للعلم وشرها للمعرفة فيفرح بذلك محبوها ممن ليس لهم بصيرة في تربية الأمم ، فلا يلبثون إلا عشية أو ضحاها حتى يروا أن النتيجة قد جاءت على غير ما ينتظرونه من نجاحها في ميدان الحياة ، فيقفون حيارى أمام هذا المنظر المدهش ويذهبون في تعليله كل مذهب . والحقيقة هي ما نقول من أنه يجب مراعاة التناسب التام بين سن الأمة ونوع العلم الذي يلقي إليها . أنا لا أنكر أنه يوجد من الناس من يشك فيما نقول ولكنهم بذلك يثلون الآباء والأمهات الذين يهزأون بقول الطبيب إذا نصحهم بتقليل الأطعمة الدهنية لولدهم أو بقطعها عنه بالمرّة لأمد معين ، ويقولون : كيف ينصحنا هذا بعدم إعطاء ولدنا لحماً وهو الغذاء المقوي الذي لا يعادله غذاء آخر في إيجاد القوة والعافية ، فيستمرون على أسلوبهم في تغذيته فتزداد حالته خطراً يوماً بعد يوم ، وحين يحسون بسوء المغبة يودون أن يدعوا بأمر الطبيب ويبتدئون في قطع ذلك الغذاء عنه ، ولكن هيهات ، فإن النهم والشره يكون قد بلغ من ولدهم حداً لا يستطيعون معه منعه بوجه من الوجوه ، ولا يزالون يتحملون منه أشد العذاب حتى يموت قتيلاً عدم مراعاتهم التناسب في تغذيته . هذا حال الطفل ، ومثال الأمم في مثل هذا الدور لا يفتقر عنه في شيء . وهل المصريون اليوم إلا أكثر الناس مشاهدة لنتائج عدم مناسبة التعليم لبنينهم لما يرونه يومياً من المرائي المحزنة والآثار السيئة .

فلا غرو بعد هذا إن رأينا الأمم الراقية تلقي بنفسها بين يدي علمائها
العمرانيين ليقودوها إلى الطريق الذي يؤديها إلى الحياة الكاملة بما وصلوا إليه
من العلم . فإن حياة الإنسان الشخصية والعمومية تابعة لقوانين ثابتة وسنن مقدرة
« قد جعل الله لكل شيء قدراً » . وقد وهب الإنسان القدرة على البحث عنها
ومعرفتها ، بخلاف الحيوان فإنه مطبوع على قوانينه فما دام لا يبحث عن تلك
السنن لينصاع لأحكامها فيكون قد أراد أن يشبه الحيوان ، فيعيش كما يحيي
لا كما يجب ، وتكون حياته سلسلة من حوادث مضطربة وهو بينها كالريشة في
مهب العواصف يسخط على بخته ويشكو مصائب الدنيا بينما تكون الأمم
المجاورة له ممن هدوا إلى سنن الحياة في صفاء من العيش فيذهب فكره المذاهب
المختلفة وربما كفر بعقيدته الحققة من جراء ذلك مع أن دواءه فيها ، أليس
يقول كل يوم « اهدنا الصراط المستقيم » و « لا يستوي الذين يعلمون والذين لا
يعلمون » .

لهذا نرى من واجبنا انتهاز فرصة السؤال المتقدم لإيراد دستور التعليم قياماً
ببعض ما يفترض علينا في مثل هذه الأحوال وإذا رأى قارئنا خروجه عن دائرة
الموضوع فلنسا العذر البين في ذلك ولينتظر المقالة لآخرها فرمما وجد فيها بلال
الغلة وشفاء العلة إن شاء الله تعالى .

* * *

باب المسائل

(٢)

سألنا طالب نجيب عن فكرنا في موضوع المناظرة التي حصلت في جريدة
المؤيد بين طلبة مدرسة الطب قبل نظامها الجديد وبعده ، وقد أجبناه في الملحق
الماضي ووعدناه بإيراد دستور التعليم وهو بحث سیرمي إلى مدى بعيد ويطوح

بنا الى كثير من المسائل العمرانية ولكننا نرجو من ورائه فائدة كبرى ان شاء الله فنقول :

الغرض من تعليم الأمة هو هداية أفرادها الى سنن الحياة وتعليمهم أساليب المكافحة والجهاد في هذا العالم ليصلوا بذلك الى ما قدر لهم من سعادة مادية وأدبية ويؤدوا الأمة بمجموع مجهوداتهم الى حالة من الوجود تكون فيه قادرة على حفظ استقلالها وشخصيتها في وسط هذا المعترك الحيوي الهائل . إذا ثبت هذا فيكون من الواجب أن يعلم القارئون بالتعليم والداعون اليه ماهية الأمم وموتها ليكونوا في تعليمهم الأمة على بينة مما يحاولون ويرمون اليه تحامياً من أن يأتوا البيوت من غير أبوابها فلا تكون لأعمالهم نتيجة أو لها نتائج مضادة لما كانوا ينظرون ، ولذلك نقول : أثبت لنا علم العمران أن الأمم كالأفراد تولد ثم تدخل في دور الشبوية وتبلغ أشدها ثم تكتهل فتقف عن النمو ثم تهرم ثم تموت لا محالة « لكل أمة أجل إذا جاء أجلهم فلا يستأنخرون ساعة ولا يستقدمون » وأن أردت نص هذا الناموس من علم العمران فأليك : قال (درابر) استاذ بكلية نيويورك بأمريكا « الأمة كالفرد تولد على غير علم منها وتموت على كره منها وكثيراً ما تموت وهي تكافح الموت وتقاومه . فالحياة العمومية إذن لا تفترق عن الحياة الشخصية الا في كون مداها اطول ومدتها أفسح . ولكنها مع هذا لا تستطيع أبداً أن تتخلص من شرب ذلك الكأس المحتم ، فكل أمة متى نظر اليها من هذه الوجهة التاريخية فلها طفولية وشبوية وكهولة وشيخوخة ، هذا إذا لم يعترضها عارض فيمنعها من متابعة سيرها الطبيعي في أدوار حياتها » انتهى .

كما أن للفرد الواحد في كل دور من أدوار وجوده شأنًا خاصاً يستدعي عناية خاصة وتربية خاصة بحيث لو جهله القائم بالتربية لنشأ الفرد على صفة ناقصة أو لمات وتلاشى قبل بلوغ كاله النوعي ، فلا مشاحة في أن للامم مثل ذلك بل خطب الأمم أشق وأصعب . وكما أن إدراك دقائق التربية الفردية لا يحسنه إلا

رجال انقطعوا لها وتعمقوا فيها يسمون الأطباء ، فكذلك تربية الأمم تستدعي أن يكون لها عرفة خبيرون وأطباء نطاسيون ، وهم كما ثبت من التاريخ الأنبياء والمرسلون ومن أخذ أخذهم وحذا حذوهم من كبار أفراد النوع الإنساني . هذا من البدأة المسلمة لدى الأمم الحية فتراها تحبو أولئك الرجال من رسوم الاجلال والإعظام ، وتؤدي لهم من واجب الطاعة والإكرام ما ترضى به على ملوكها وقادة مصالحها، وفي تاريخ آباءنا الأولين في حبهم لعلمائهم العاملين وما يفعله أمام أعيننا الأوروبيون من أكابر أطبائهم العمرانيين عبرة للمعتبرين .

ما هي حياة الفرد الواحد وما هو موته ، وما هي حياة الأمة وما هو موتها؟ يقال ان ذلك الإنسان حي إذا كان فيه ذلك السر الإلهي المسمى (روحاً) ويستدل على وجوده فيه برؤية أعضائه مؤدية وظائفها الخاصة على النحو الذي خلقت لأجله بأن له اعتباراً وإرادة . ويقال إنه ميت إذا لم يكن فيه ذلك السر الإلهي بأن كانت أعضاؤه واقفة عن تأدية وظائفها وإرادته واختياره معدومين .

ويقال أن هذه الأمة حية إذا كان لها رابطة تربطها وتضم آحادها وتوجه كل أميالهم وعواطفهم الى غاية مشتركة ، ويستدل على وجود الرابطة العامة فيها بشعور كل فرد منها بمجموعه ووجود نفسه مسوقاً ومرغماً على التفكير في أمته واشتغال باله بأمورها الخاصة والعامة ، ومدفوعاً بدافع قاهر للعمل على ما يجعلها متمتعة بأرقى ما يمكن من سعادة مادية وأدبية . وبالعكس يقال ان الأمة ميتة إذا لم يكن لها رابط يربطها لا ديني ولا جنسي وكان كل فرد منها مشغولاً بنفسه لا يتعدى همه محيط جثائه ، يأنس من رقيها وفلاحها ، قانطاً من عواملها الذاتية وحياتها الكامنة ، ومتهافناً على التبرؤ من الاعتزاء اليها والانتساب الى أصلها ، وأدل دليل على أن أفرادها كذلك أن لا نرى لها اختياراً ولا إرادة ، ومن أين لها ذلك واختيارها هو مجموع اختيارات أفرادها ، وإرادتها هي ملتقى قوى إرادتهم ، فتكون أمثال هذه الأمة والحالة هذه مرغمة على الدخول في كل

شكل تقاد اليه وتدفع فيه ، وترى نفسها مرغمة على قبول أي حال تساق له وترج اليه .

وكما أن علوم الطب عاجزة عن إعادة الحياة للشخص الميت فكذلك يعجز علم العمران عن إرجاع الحياة الى الأمة الميتة (وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون) .

هذا هو معنى الحياة والموت في الآحاد والأمم فهل نحن أمة حية ؟



هل نحن أمة حية ؟

نعم نحن أحياء في المجموع ولو كان بعض أعضائنا قد أصيب بشلل اجتماعي عسير الشفاء لأنه ما دامت الحياة كما قررنا من علم العمران هي الرابطة فلا يزال شق عظيم منا ، وهم العامة وأصحاء الخاصة ، لهم رابطة قوية وهي الدين وإن كان مشوباً بما ليس منه ، لأن المدار على وجود الرابطة لا على نوعها . وفي العلم الاجتماعي أن شرذمة من اللصوص التي تضم آحادها رابطة السلب والسي أحياء وأصلح للبقاء من أي طائفة أخرى لا رابطة لها ، ولو كانوا من العلم والتهدب في المكائات العلى . العلم يسم الأولين بالحياة مها كان نوع رابطتهم ويصم الآخرين بالموت مها كانت صفاتهم ومزاياهم ، لأن محض انضمام الأولين وتلاصقهم ببعضهم بحكم قانون الترقى لترقية نوع اربطتهم . أما الآخرون فمحض عدم التماسهم يقضي عليهم بالتنايد والتخالف أو بالأقل يشدت مزاياهم شذر مذر فلا تؤدي لغاية ثابتة . وطبيعة الحياة الانسانية تأبى هذا النحو من البقاء فيفنيهم الخالق حفظاً لنظام الوجود وصوناً لدستور الخليقة .

الك مثلاً باهراً يصور لك كيف تترقى روابط الأمم تحت تأثير ناموس

الرقى العام : لما حاصر قدماء اليونانيين في القرن الثامن قبل الميلاد مملكة تروادة عشر سنين ثم أحرقوها بالنار تفرق أهلوها شذر مذر ، فجاءت شرذمة منهم الى جهة من ايطاليا على بحر الأدرياتيك وألقوا بها عصاهم ولم يكن يربط آحاد تلك الشرذمة في ذلك الحين إلا أبسط الضرورات المعاشية التي كانوا ينالونها من الغارات على الأمم المجاورة لهم . ولما اطمأن جانبهم وأمنوا الهلاك جوعاً مالوا لأن يكون لهم نساء كما هي سنة الطبيعة فلم يجدوا طريقة أمثل في نظرهم من السبي فأعلنوا الأمم المجاورة بأنهم سيحتفلون بعيد لهم وسيظهرون فيه من عجائب الألاعيب وفنون الفروسية ما يرتاح اليه البصر وتنبسط منه النفس . فهرع الناس الى المكان الذي عينوه نساء ورجالاً وأطفالاً ، فإنهم لمجموعون يتفرجون وإذا بفرسان تلك الشرذمة انقضوا على النساء انقضاض النسور على فرائسها واختطفوهن من بين يدي أزواجهن وآبائهن خطفاً وفروا بهن إلى معاقلم وغيرانهم . ومضت عليهم القرون فتناسلوا وكثروا وصاروا أمة أغارت على من حولها فدوختهم ولم تزل تلتهم الأمم والشعوب حتى صارت أكبر أمة ظهرت في العالم بعد الأمة الإسلامية وأصبحت تدعى امة الرومانيين التي لم تزل علومها ومعارفها تدرس في مدارس العالم اليوم .

هذه النظرة التاريخية تدلك دلالة محسوسة على أن المدار في حياة الأمم على وجود رابطة ما تضم آحادها ولا عبدة بنوعها ، فإنها تترقى على مدى القرون حتى تصل لأرقى ما يتصوره العقل . ومن يتصفح تاريخ الأمم ير أن كثيراً منها إرتقى من رابطة اللوصية الى أرقى رابطة اجتماعية جنسية .

إذا أسسنا هذا الأصل ساغ لنا أن نقول ان أحياء طائفة في أمتنا اليوم هي طائفة العامة ، فإن لها رابطة عظمى هي رابطة الدين وإن كانوا أدخلوا اليه ما ليس فيه أو أدركوه على غير حقيقته وذهبوا به عن نقائه الجوهري . فهم والحالة هذه أصلح للبقاء من أهل الخاصة الذين انسحروا بزخارف الصناعة الغربية وخلصوا أطواق الدين من أعناقهم وأصبحوا لا يعرفون لهم رابطة تربطهم

ولا وشيجة تضم اشتاتهم ، وأضحوا واليأس قرين عقولهم ولزيم عواطفهم . ولو ترك العامة وشأنهم لارتقوا بحكم القانون العمراني الى أرقى درجة من درجات الإجتماع ، ولكن هل يستطيعون أن ينجوا من غوائل خاصتهم ؟



العامة والخاصة

العامة في كل أمة من أمم المسكونة تبع لأهل الخاصة في عقائدهم وعاداتهم ومدرعاتهم ، ونريد بالخاصة من رفعة العلم أو المال الى منصة متميزة . أما السبب في كون العامة تبعاً لأهل الخاصة فهو لأن هؤلاء بوجودهم في مقدمة الأمة يكونون عرضة للالتياث قبل غيرهم بالآصابات الاجتماعية والفتن العمرانية . والنظر المجرد في تواريخ الأمم البائدة يرينا أن الداء الذي لاشاها لم يأتها إلا من قبل أهل خاصتها . فالالحاد الذي ثل عرش ملك اليونان وفساد الأخلاق الذي نسف صرح الرومان كان منشأه الخاصة ثم سرى منهم الى العامة وقد أشار الله تعالى الى هذا القانون الاجتماعي الكبير بقوله « واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً » وقوله تعالى « ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا » .

أما إذا أراد الله أن يتدارك أمة برحمته فيعيد إليها الحياة فلا يكون ذلك إلا بواسطة العامة لأنهم لبعدهم عن مناشيء الفتن الاجتماعية يكونون أبطأ تأثراً بأنواع الفساد العمراني من أهل الخاصة ، فإنه في الوقت الذي يكون فيه التعريف والبذخ قد استوعب قوى أفراد الطبقة العليا من الشعب ترى أنه لم يزل في الطبقة الدنيا رجال أحياء لم تصبهم جرائم الفساد مطلقاً ويصلحون لأن يكونوا خلايا أولية تنبني بهم بنية جديدة للأمة ذات مزاج غير مزاجها الأصلي . ومن يتصفح تاريخ العالم ير أن كبار المصلحين وخصوصاً الرسل عليهم السلام لم

يطأمنوا من كبر الأعلياء ، ويكسروا من شرة الأقوياء إلا بالعامية . وبهذا السر العمراني خاطب الله تعالى رسوله عليه الصلاة والسلام حيناً أراد الخاصة أن يجعل لهم وقتاً يجتمعون به فيه دون العامة أنفة في المساواة فقال تعالى « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً » . وقد حكى الله حال الخاصة مع الأنبياء وأنفتهم من الفقراء والضعفاء مع أنهم مادة الحياة وجرائم الفلاح فقال تعالى عن قوم نوح « قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون » قال وما علمي بما كانوا يعملون ، إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون ، وما أنا بطارد المؤمنين ، إن أنا إلا نذير مبين » . وقد اعترف أمير المؤمنين علي بن أبي طالب هذه الغرفة الروية من الحوض الالهي الأقدس فكتب في عهده للأشتر النخعي حين ولاء مصر يقول : (وليكن أحب الامور اليك أوسطها في الحق وأعقها في العدل وأجمعها لرضى الرعية فإن سخط العامة يححف برضى الخاصة - أي لا ينفع رضى الخاصة إذا سخط العامة) وان سخط الخاصة يفتقر مع رضى العامة ، وليس أحد من الرعية أثقل على الوالي مؤونة في الرخاء ، وأقل معونة له في البلاء ، وأكره للانصاف ، وأسأل بالاحاف ، وأقل شكراً عند الإعطاء ، وأبطأ عذراً عند المنع ، وأضعف صبراً عند ملات الدهر من أهل الخاصة . وإنما عماد الدين ، وجماع المسلمين ، والعدة للأعداء العامة من الأمة ، فليكن صفوك لهم وميلك معهم) .

هذه الحكمة الباهرة رشفة سائغة من بحر العلم الإلهي الزاخر الذي أفاضه الله علينا في كتابه الكريم وغفلنا عنه ، وسيأتي يوم يرى الناس عموماً أن قوانين الاجتماع كلها منعكسة من شمس القرآن ، فسيقولون نواميس قرآنية بدل قوانين عمرانية ومن يعيش ير .



الحج

جاءنا من حضرة الأديب أمين أفندي عمر بنظارة المعارف العمومية كتاب يسألنا فكرنا في الحج وعن حكمة كونه ركناً من أركان الإسلام ، وعن الفوائد المادية والأدبية التي تعود منه على المسلمين . فنجيب حضرته :

الدين الإسلامي كله أسرار وعجائب ، ويكفيك دليلاً على كونه أكبر آيات الله في هذا العالم أنه تعالى كوّن به في بضع وعشرين سنة أمة أحدثت في الوجود أكبر وأعظم الحوادث الاجتماعية والانقلابات العمرانية ، وتربعت في دست خلافة الله في الأرض قرونًا كثيرة كانت في خلالها أعجوبة العالم الإنساني دنيا ودينًا ، ورفعت أعلام الحرية والإخاء والعلم إلى أعلى ما يصل إليه إمكان البشر ، ولم تزل لليوم حية حياة قوية وإن كانت كامنة كمونا وقتبًا يظهر من ذلك انتشار نفوذها الروحاني في كل الأمم بصفة تبشر بضرورة رجوعها إلى مجدها القديم والقبض على زمام أمور النوع البشري كله بتلك اليد الرحيمة التي خلصته بها من قتل عواطفه من قبل .

هل أصل وركن وفرض وسنة من هذا الدين تحته أسرار وأنوار تعوز الدرس الطويل والشرح الضافي والبحث العميق ، ويدل عليه دلالة محسوسة انتقال العرب بمجرد العمل بها من حالتهم الأصلية إلى حالة أخرى أقل ما يقال فيها أنهم أصبحوا بها مثلاً يضرب في الفضائل في جميع الأمم حتى أعدى أعدائهم . وإنّا لنرى بأعيننا أن العالم الغربي مسوق بدوافع الطبيعة ونواميس الحياة إلى العمل بتلك التعاليم والاهتداء بنورها في حوالك أحوالهم ، وإن كان متطرفوم قد غالوا في التشنير عليها ووصموها بما هي بريئة منه .

هذه مسألة الطلاق التي طالما حاولوا أن يعضوا بها من أبصارنا ، ويخطوا من كرامتنا قد التجأوا أخيراً إلى عدها علاجاً شافياً لكثير من المفاسد العائلية التي لها أسوأ أثر في كيان الهيئة الاجتماعية ، وقد أصبح لديهم محاكم مخصوصة للتطبيق في كل بلد متمدنة ^(١) .

وهذه مسألة تعدد الزوجات التي كانوا يتفكّسون بتردادها على ألسنتهم في مجالسهم الخاصة والعامة أصبحت الشغل الشاغل لبعض أفرادهم ممن يبحثون في ذلك الجيش الجرار من النساء اللاتي أصبحن لا عائل لهن وصرن عرضة للفساد الخلقي الشديد الوطأة على النوع البشري ^(٢) .

وهذه مسألة الصيام التي كان يعدها سوادهم الأعظم وبعض الأغرار منا من الولايات الكبرى على الجسد والعقل معاً ، أصبحت اليوم لديهم أكسيراً كبيراً يداوون به الجبن الأدبي وفقد عزيمه الرجولية ، وقد ألقوا في ذلك الكتب الضخمة . إليك ما قاله عنه الدكتور (جبهاردت) في كتابه : (كيف يكون الإنسان قوي الإرادة) ردّاً على الذين يتوهمون أن في الصيام ضرراً ، قال : « لا نشك في أن معترضاً سيعترض على هذا العلاج الصومى ظانّاً أن في الأخذ به ضرراً على الصحة ، وهو اعتراض لا أساس له البتة . أما من حيث الصحة والطب فإن الصيام من العلاجات التي يجب الأمر بها والاعتراف بعظم فوائدها . » إلى أن قال متابعاً في ذلك الدكتور (ستوهر) : « إن من الناس من كبر وعاش مقتنعاً بأن طينته أرق والطف من طينة غيره من الأدميين ، ومع ذلك فإن المراقب لأحوال أمثال هؤلاء الناس لتأخذه الدهشة إذا وقف على هذا المعنى الذي لا يحل وهو أنه بينما يرى الواحد من هؤلاء قد يقع على الأرض من الضعف والهزال إذا لم يقدم إليه ما اعتاده من كأس المرق

(١) انظر كتابنا المرأة المسلمة .

(٢) أنظر كتابنا المرأة المسلمة .

يراه قبل بضعة أيام قد احتمل أعباء الرقص وتكاليفه بغاية النشاط والجلد طول الليل لغاية الساعة الأولى صباحاً . »

أما الحج فلم يوجد بينهم في أي عصر من العصور من يطعن على تشريعه لوضوح فائدته وسطوع حكمته ولما له من الأثر الظاهر في بقاء جامعة المسلمين حية لليوم . وليس أحد يستطيع أن ينكر الفوائد المادية والأدبية التي تنجم من اجتماع العناصر المختلفة من أمة كبيرة كالأمة الإسلامية في صعيد واحد . من يريد أن ينكر ذلك فلينظر حتى في كتب أعداء الإسلام وما كتبوه عن الحج من أنه مثار الوحدة الإسلامية والباعث إلى نفوس الآخذين بهذا الدين روح الانضمام والتآلف . وبما أنهم لا يريدون وجود تلك الوحدة التي تحول بينهم وبين فصح جامعة المسلمين فتراهم يرون في الحج خطراً دائماً على مشروعهم في حل تلك الجامعة حماها الله .

الإنسان جسد وروح وهما قائمان على قسطاس من العدل الإلهي بحيث أن صلاح أحدهما أو فساده ينال الآخر لا محالة ، فشرع الله دينه على كيفية بها كل أصل فيه يفيد كلا من هذين الجوهرين فائدة ثلاثه ليقوم الإنسان بهذا الدستور الإلهي الأقوم على صراط الفطرة الصحيحة : « ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ، ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون . »

الحج هو اجتماع الألوف المؤلفة من المسلمين ، المبعثرين في سائر أرجاء العالم ، المختلفين في الأجناس واللغات ، في بقعة واحدة ملبسين بالروح والجسم معاً نداء ربهم ، وهم من بساطة الملابس ، والتساوي في الدرجات على صورة لا توازيها صورة في أي شرع من الشرائع ولا مدنية من المدينيات الأرضية . وهم بين أمير ومأمور ، وحاكم ومحكوم ، وعربي وترك ، وأفغاني وفارسي ، وهندي وسوداني ، وحشي وصيني ، وأوروبي ، وأوقيانوسي ؛ وبين أبيض ناصع ، وأصفر فاقع ، وأحمر قاتم ، وأسود فاحم . والكل شخوص بالأعين

والأفئدة إلى نقطة واحدة ليس في ضمائرهم إلا موضوع واحد : تركوا الأهل والوطن ، وهجروا المال والسكن ، خاضوا غمرات البحار الزاخرة ، واقتحموا الصحارى الغامرة ، لعبت هوج الرياح بهم تارة على السفائن ، ولفحتهم لوافح السموم طوراً في السباب ، خلعوا عاداتهم وتقاليدهم ، وغثروا لباسهم وماكلهم ، وصعدوا وهم على هذه الصورة التجريدية على سطح جبل يضم أشتاتهم ويلم جمعهم ، فهاذا يكون من أثر هذا الموقف المهيّب عليهم . وماذا تكون نتيجة هذا المنظر الفخّم على أفئدتهم وأرواحهم ؟

لا شك أن تركز كل الأشعة المنبعثة من صميم معانيهم إلى غرض واحد ونقطة مشتركة ، وهم على هذه الصورة من المساواة والبساطة على قمة ذلك الجبل الذي وقف عليه قبلهم بناء مجد هذه الأمة الكريمة من الشهداء والصالحين والعلماء العاملين والأولياء المقربين وفوق هؤلاء كلهم خاتم النبيين محمد الأمين صلى الله عليه وعلى أصحابه وآله أجمعين .

كل ذلك يوحى إلى سرائرهم ، وينقش في صميم روعهم ، ويصوّر لهم في لباب فطرم ، حقيقة معنى (الله أكبر) وناهيك برجل (يعتقد) أن الله أكبر .

من يعتقد أن الله أكبر ، لا يرضخ للذل ، ولا يستكين للعبودية ، ولا يلين قياده في يد غاشم . من يعتقد أن الله أكبر لا يخاف بطش الموادي ، ولا يرهب قرع الحوادث ، ولا ترتعد فرائضه من نازلة مها عظمت . من يعتقد أن الله أكبر لا يستعظم الأقوياء ، ولا يكبر الأعلياء ، ولا يستخذي للكبراء .

من يعتقد أن الله أكبر ، لا ينسحر بمدنية ، ولا يؤله أي قوة أجنبية ، ولا ييأس من بلوغ أمتة أقصى المكافات العمرانية .

من يعتقد أن الله أكبر ، كان رجلاً صحيحاً ، وانساناً تاماً ، وفاضلاً صرفاً ، لأن من يعتقد أن الله أكبر لا يستبد ولا يتكبر ولا يتجبر ولا يعجب بنفسه

وهي من كبرى مهلكات الانسان. ثم لا يسرف ، لان باعث الاسراف حب التفرد وكيف يتفرد والله أكبر ، ولا يقتل لأن موجه خوف الفقر وكيف يخافه والله أكبر . والخلاصة أنه لا يقارن دنيئة سواء كانت مغنوية أو حسية لأن مثيها ارضاء الهوى ، وكيف يرضي هواه من يعتقد أن الله أكبر !

نعم من كان يعتقد أن الله أكبر على هذه الصورة كان مسلماً حقاً . ولو قلت ان الذي سما بهم آباءنا الأولين ، فرفعهم في بضع وعشرين إلى أعلى عليين هو محض اعتقادهم أن الله أكبر - لما كنت مغالياً في المقال ، ولا ذاهباً بالقارىء مذاهب الشعر والخيال .

يقولون اذا كان هذا أثر الحج فأين نحن منه اليوم . قلنا إن أركان الإسلام كلها مرتبطة ببعضها ولا يفتي شيء عن شيء منها وقد ترك المسلمون كل تلك الأركان وبعضهم يأتيها صورة لا حقيقة فكيف تؤثر فيهم هذا الأثر الباهر الذي أحدثته في آباءنا الأولين الذين كانوا يراعونها على حقيقتها ؟ فان قيل : وما سبب عدم تأثيرها فينا اليوم ، فنحيل القائل على مقالتنا في العوامل العمومية من الجزء الرابع وعلى ما سنكتبه في ذلك الشأن على التتابع إن شاء الله .

* * *

النبوة ليست اكتسابية

ورد إلينا من حضرة الأديب محمد أفندي كامل بتفتيش الري باسكندرية خطاب يقول فيه : « اطلعت بصحيفة ٢٦٥ من كتاب حياة خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم ، على ما يفيد أن الروح الإنسانية إذا تجرّد صاحبها عن الاشتغال بالمادّيات أمكنها أن تستقي معلوماتها بدون وساطة المشاعر . أليس في هذا ما يقوّي مذهب القائلين بأن النبوة مكتسبة ؟ » فنجيب حضرتَه :

الوجود مراتب كثيرة لا تتناهى تعلو وتسفل على حسب مرتبة الشخص من قوة الروح ونور الحياة . إذا نظرت إلى صنوف الحيوانات واستعرضت مراتبها من أول الكائنات المكوّنة من خلية بسيطة إلى الحيوانات الشديدة التي في قمّتها القردة ، ترّ من الفرق بين هذه وتلك في الاحساس بالوجود والشعور بذاتها ما يطوح بالإنسان إلى القول بأنها وإن كانت على سطح كوكب واحد تنعشها شمس واحدة وتظللها سماء مشتركة ، إلا أنها في وجودات مختلفة وعوالم متباينة . وشتان بين حيوانين ، هذا عبارة عن خلية بسيطة تغتذي بتمثيل ما يحيط بها من المواد الرطبة ولا أعضاء لها البتة ، وهذا له أعضاء وأجهزة وفكر واختيار وإرادة كالقردة مثلاً . لا شك أن الفارق بين هذين الحيوانين كبير جداً لدرجة تسمح لنا أن نقول أن كلّاً منهما يشعر بالعالم على صفة خاصة به . الأول لا حظ له منه إلا الاحساس المجرّد بالأم أو راحة ، ولا نصيب له مما فيه من النعم الأخرى ؛ أما الثاني فقسطه منه أكبر بكثير على قدر ما متع من أعضاء وما سيقّت له من أغراض ، وما مُتّع به من قوى ومواهب . فإن من لم يُخلَق له لسان لا يتمتع بلذائذ الطعوم ، ومن لم يوهب أنفاً لا يكون له حظ من زكيات الروائح الخ . . ثم لو صعدت من

عالم الحيوان إلى عالم الإنسان واستشرفت سائر أعضائه وأجزائه ومواهبه وملكاته وقواه لتحقق أن حظه من الوجود وشعوره به يجب أن يكون أكبر مما لغيره ، ثم أن إدراكه لأسراره الصميمة وإلمامه بلطائفه يلزم أن تكون أعلى مرتبة مما منح سواه من ذلك - لدقة تلك الأعضاء وتنوعها وقيامها على نظام أكمل مما للحيوانات منها ، ولسعة سلطان مواهبه وبعد مدى قواه أيضاً .

هذا بالنسبة للحيوانات ، والإنسان ، أما لو استعرضت أصناف الإنسان نفسه وتأملت في ذلك المتوحش (الهونانتوي) مثلاً في جهله وعمايته عن الوجود واكتفائه بما يكتفي به الحيوان من أكل ورق الشجر واللحم النيء والاعتصام بذرى الأشجار والجبال ثم تركته وتأملت في فيلسوف من المعاصرين لنا أو من الذين سبقوا بالإيمان لرأيت فرقاً واضحاً جداً ربما حملك على أن تقول أن هذين الإنسانين ، وإن كانا في وجود واحد ، إلا أنهما في عالمين مختلفين للغاية . كيف لا وذلك إن نظر إلى السماء ظنّها خيمة معتمة فيها شرر منشور على غير نظام وربما لا ينظر إليها ولا يتفكّر فيها . أما هذا فينظر إليها وله عليها من حقائق العلم ما يملأ كتباً وله من نتائج سبح فكره في مناحيها ما لا يستطيع التعبير عنه بالألفاظ المصطلح عليها ، هذا عدا عمّا له على كل شيء من أشياء وجوده من العلم المناسب والفكر الواجب .

هذا كله بالنسبة لعالم الأجساد ، أما عالم الأرواح أي العالم الذي وراء هذه المادة - ولا نريد بقولنا وراء هذه المادة أن له حيزاً وراء هذا الحيز ، كلا وإنما نريد بوراء المادة الوجود الذي هو أرقى من المادة والمتسلّط عليها كتسلّط الروح على الجسد - فإن مراتب الناس فيه تختلف باختلافهم من مراتب عالم الجسد بل أكثر . وكما أننا مرتبطون بعالم المادة بآلات وأعضاء تمكّننا من الإحساس به وإدراكه ، ولا حظّ لنا من التمتع بالشعور به إلا على قدر ما وهبنا الله من قوى تلك الأعضاء والآلات ، فكذلك لنا ارتباط بعالم ما وراء

المادة من جهة روحنا التي هي نفحة منه ، ولا نصيب لنا من التمتع بالشعور بها إلا على قدر ما منحنا الخالق من نقاء جوهرها وصفائه . وكما أن القصير النظر والكليل الأعصاب لا يستطيع أن يغير في خلقه فيهب بصره وأعصابه قوة فوق قوتها لزيادة متاعه بالعالم المادي ، فكذلك ليس في حولنا أن نزيد في نقاء معناها الإنساني وأن نذهب به إلى أبعد مما خلق مستعداً له لزيادة تمتعنا بلطائف ذلك العالم ، فكل إنسان مرغم على الوقوف حيث وقف به استعدادة الفطري وانتهى عنده مبلغ قوته . فإن قلنا بعد هذا أن الإنسان بتجريد نفسه عن الشواغل يستطيع أن يعلم علماً لا دخل لحواسه الظاهرة فيه ، هو مثل قولنا أن الإنسان لو راقب الكواكب وتأمل في حركاتها يستطيع أن يوجد لنفسه بذلك علماً لأن الإنسان ممتّع بكلتا الخاصتين على السواء ، ولكن لما كان الإنسان برصده الكواكب لا يستطيع أن يزيد في موهبة تصوّره الفطري فيذهب به إلى أبعد مما أعدّ له عقله ، فكذلك لا يستطيع ذلك المشرف على عالم ما وراء المادة أن يتجاوز المقام الذي قيس على استعدادة . فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام أفراد من النوع الإنساني ، يهبهم الله استعداداً خاصاً للسبح في عالم ما وراء المادة ، يشرفون به على ما تنقطع دونه أنفاس أكبر العزائم ، وتحسر أمامه عين أعظم البصائر . وليس أمر هذا الاختصاص بعجيب ، فإن أمام أعيننا رجالاً متّعهم الله بقوة عضلية لا يكاد يتصوّرها إلا من يراهم ، فإن كان لا يمكن التردّد في أن هذه القوة الهائلة موهبة خاصة لا يُستطاع كسبها بوجه من الوجوه ، فأى غرابة في أن أمر النبوة وهي قوة روحانية من المواهب الخصوصية التي يمتّع الله بها أفراداً من النوع الإنساني ليهدهم إلى أقصد المناهج وليحملوا إليهم أنوار الحقائق وأسرار الشرائع . ولا ندري كيف غفل عن مثل هذه المحسوسات أولئك الذين زعموا أن النبوة مكتسبة ؟

* * *

من أين جاءنا الفساد الاجتماعي

نحن ببحث هذا الموضوع إنما نريد أن نخترق بمسبار الفكر والروية كل الظواهر العرضية التي تترأى للناظر في صورة الأمراض والعلل وهي ليست إلا أعراضاً تتغير وتتطور من حسب تغير المرض وتطوره مما لو صرفنا السنين في درس أشكالها وأحوالها لما وصلنا بعد هذا الجهد الناصب إلا لمثل ما يصل إليه من تزدهيه الألوان الخلابية التي تأخذها السحب عند غروب الشمس أو شروقها فيصرف عمره في درسها وهو غافل عن أسبابها التي تولدها . لا جرم أنه يظل يبتني النظريات ويدعمها ويتكرر الأسباب ويؤيدها ثم يرى نفسه مجبراً على هدمها وبناء غيرها كلما دله حسه على فسادها حتى يضيع عمره سدى أو يعيش قانعاً بما حصله على غير هدى . ولكن هذا الباحث لو اهتمدى بفكره أن لكل ظاهرة سبباً طبيعياً أو أسباباً ، أو لو سأل أهل الذكر من الذين أفنوا أعمارهم قبله في درس الظواهر الطبيعية وعلم بهذه الوساطة أن أشعة الشمس واختلاف كثافات السحب هي السبب الأصلي في إحداث هذه الألوان الباهرة واستعان على فهم ذلك بالرجوع إلى نظريات الضوء وانكسار الأشعة وألوان الشمس لرجع ظافراً بمراحده ، فرحان بفوزه في اجتاده ، وإن كان كلفه ذلك أن يصرف عمره في درس علم الطبيعة وينزل إلى درجة صغار المكاتب فإن ذلك أولى له من التفهيق بغير عرفان ووزن الأشياء بغير ميزان . يكتب الكاتبون ويصيح الخطباء المفوهون ، بأننا مصابون بعلة أو بعلة اجتماعية تمنعنا عن الاستقامة على طريق التقدم والمدنية وتجعلنا غرضاً لسهام المطامع الأجنبية . يقولون ان تلك العلة أملت بعواطفنا فقتلتها ، وبإحساساتنا فأطفتها ، وبمحبتنا فأخذتها ، وبإرادتنا فسلبتها ، وحاصرتنا من مكان قريب حتى جعلت اليأس صفة من صفاتنا ، وصيرته جزءاً من طبيعتنا ، وقد أثمر فينا ثمراته المعهودة كالتيبرؤ من الجفسيه

والتقليد للأجنبي والبذخ والسرف والترف والآثرة والتخاذل والتنابد الخ الخ من
الأعراض التي هي لوازم اليأس ومقتضياته ثم ماذا ؟ ثم نقول ان ذلك من عدم
الدين . من عدم الفضائل . من عدم التربية . من عدم التناصر . من عدم التعاطف .
من عدم الغيرة . من احجام الأغنياء عن البذل . من قعود العلماء عن الإرشاد .
من سوء سياسة الأمراء . ثم ماذا ؟ ثم نقول يجب أن نكون متدينين .. فضلاء ..
متربين .. متناصرين .. متعاطفين .. غيورين .. باذلين .. مرشدين .. سائسين ..
ثم ماذا ؟ نعيد ما بدأناه ونبدأ ما أعدناه ولا نزال نطوي ما نشرناه ، ونشر ما
طويناه حتى سئم القارئ والمكاتب ، ويشس السامع والخطاب ، وأصبحت
النصيحة والهديان في مستوى واحد فاغراقا ذلك على ولوج باب جديد وذلك
أننا أبدلنا النصائح بالشتائم ، واستعطف العزائم بسرد الذمائم ، وتشهير
المآثم ، حتى صرنا لا نعد الكاتب نحريراً ، ولا الخطاب شهيراً ، إلا إذا ذهب
في القذع كل مذهب ، وأسهب في شرح المقاذر وأطنب ، حتى أنست الأسماع
بالثلب واستنامت الأفئدة للشتم والسب . وفقدت الأمة بهذا الضرب من
التهذيب حرارة الحمية ، وحماسة الرجولية ، فنشأت بين ظهرانيها جرائد لا مادة
لمقالاتها الا الطعن والهمز ، ولا روح لنصائحها إلا الغمز واللمز ، فترى الناس
يتحلقون لجريدة من تلك الجرائد فيتلوها عليهم واحد منهم وقد حوت من أنواع
الفحش والتقبيح ، بكل تلميح وتصريح ، ما يستفز الحمية ، ويقدح في زند العزيمة ،
ولكن الناس لاعتيادهم سماع المقاذر ينشطون القارئ بالثناء على الكاتب ،
والترنح لحسن ترادف المثالب ، ثم يقول أمثلهم لقد بل فلان القليل ، وجاء
بما يشفي العليل وهلم جراً . وبذلك فقد فعلنا بالأمة بكتاباتها هذه ما لم تفعله
ظلي أعدائنا بأعناقنا ، ولا ختل مناقينا بمعاقد اجتماعنا ، مع أن وظيفة التحرير
ترقيق الأميال ، وتلطيف الشعور ، وإحياء الغيرة والحمية وإيقاظ الفتوة
والرجولية - لا ثلم العواطف ، وتغليظ الإحساسات ، وإطفاء الحماسة ، وتعويد
النفوس على الاستنامة للشتائم . وهذا الأمر الجليل سببه فيما أرى دائماً إسناد
الأمر إلى غير أهله فإن كل من استطاع عندنا ان يكتب العربية صحيحة لا يتأخر

عن ندب نفسه لإرشاد أمته ، ونعشها من وهدتها ولو كان كل من يكتب بلغة صحيحة يليق لهذا المنصب الخطير لللاق بكل انجليزي أن يكون عمرانياً ، وبكل فرنساوي أن يكون أخلاقياً ، فإن أكثر القوم يكتبون لغتهم بغير غلط ، ويستطيعون أن يتكلموا في كل ضرب من ضروب الكلام ! لكن هيهات ، ذلك منصب يعد أهله على الأصابع ولا يبرر فيه إلا الشاذ النادر ، فالباحث العمراني في هذه البلاد قبل أن يفكر في تأسيس نظرياته وسرد تعاليمه يجب عليه أن يعد الأذهان لقبولها ويهيئها لإحلالها من الأفتدة في محلها اللائق بها . ولا يتأتى له ذلك إلا بتخليص الافكار مما علق بها من تلك المدركات المتناقضة والمبادي المتعاكسة التي نقشها في أذهان الجمهور أولئك الكتاب في مدى سنين كثيرة ، فانا لم نعلم بلداً من البلاد سهل على أهله بأسرهم معرفة الداء والدواء غير بلادنا كما لم نعلم بلداً من البلاد لم ينتفع بعلمه مثل بلادنا . والناظر البسيط لهذا التناقض المدهش يتأكد أن ذلك الداء لو كان هو الداء بعينه وإن ذلك الداء هو الداء الشافي منه حقيقة لكان لنا اليوم من الصحة ما نرتجي . فإنه لا يتصور أن يتحمل المريض مضاعفة الداء ولا عجز العلة ، والدواء بين يديه لا ينظر بعينه اليه ، ولا يعول عليه . هذا ضد الطبيعة . هذا خلاف المحسوس . هذا قلب لنظام الوجود . هذا خرق للعادة . إذن فليس ذلك الداء داءنا ولا ذلك الدواء دواءنا .

اليك مثال يريك كيف أننا من تشخيص دائنا في خلط عظيم ومن وصف دوائنا في خبط جسيم . يقولون مثلاً أن داءنا (عدم الاتحاد) ، ودواؤنا هو (الاتحاد) وأنا أقول اننا لسنا بمصابين بعدم الاتحاد وإن من اللازم لنا الاتحاد ولكنني أقول أن عدم الاتحاد ليس هو مرضاً بذاته بل عرض من الأعراض الكثيرة . وان أردت أن تعرف كيف اننا واهمون فأليك : إن كان عدم الاتحاد هو الداء والاتحاد هو الدواء فما المانع عن الاتحاد ؟ هل حسن لدينا البقاء على مضاضة المرض وهان لدينا ان نكون لقمة سائغة للأمم . يقولون إن عدم اتحادنا ناشئ من سوء التربية وعدم العلم نقول إذن فقد سقط قولنا بأن داءنا (عدم الاتحاد) ولزمننا أن نقول انه عدم التربية . ومع ذلك فنحن نجاري

المعترض في فكره ونسأله هل نحن أقل تربية وعلماً من سائر الأمم ؟ هل نحن أقل تربية وعلماً من المصائب النائرة في مقدونيا ؟ إذا كان الاتحاد يتوقف على التربية والعلم لما قام للنوع الانساني اجتماع قط . والحقيقة بخلاف ذلك فقد تشكلت الهيئات الاجتماعية قبل أن يأتيها العلم والتربية . ويمكنك أن ترى لليوم قبائل في آخر دركات الجهل على أحسن ما يكون من التثام واتحاد . هذه ممالك افريقية الصغيرة التي يحتاجها المدفع الأوروبي واحدة بعد أخرى كلها متحدة ملتزمة لا تشكو غير الجهل وعدم التربية وتراهم يدافعون عن أمتهم بأقصى ما يتصوره العقل من الصبر والثبات ! ولولا مقذوفات المدافع والبنادق لما استطاع الأوروبيون ان يقرّبوا منهم فضلاً أن يحكموهم ويأسروهم .

وإن كنا نعلق وجود الاتحاد على وجود العلم والتربية فكأننا نود أن نجعل كل الأمة فلاسفة لا يتحدون إلا بعد أن يضعوا المقدمات المنطقية ويستخرجوا منها النتائج الفلسفية . . مع اننا نرى بأعيننا أن العامة اليوم أصبحوا أكثر تماسكاً والتثاماً من أكثر الخاصة ، وقد كان آباؤنا قبل أن تنتشر بينهم المدارس أشد تلاحقاً واتحاداً منا في هذا العصر . كل هذا يدلنا بالدلائل المحسوسة أن الاتحاد ليس نتيجة العلم ولا التربية بل هو لازم من لوازم الحياة الاجتماعية في الأمة كما ان اتحاد اعضاء الجسم على اداء وظائفها وتعاوضها في أغراضها نتيجة الحياة الشخصية ليس إلا . وبهذا فقد استجالت المسألة إلى إدراك معنى الحياة الاجتماعية وكيفية الاتصاف بها ، وليس هذا الموضوع من اختصاص هذا الفصل فلنتركه لفصل خاص يأتي إن شاء الله في هذه المجالة ، فانظر كيف ان وقوفنا من التشخيص مع الاعراض يصرفنا عن الوصول إلى لباب المسألة وكيف يجرنا إلى نتائج من العلم فاسدة ، ولئن بقينا الف عام نقول ونكتب بأن دأنا (عدم الاتحاد) وظللنا نداويه بكل الوسائل فلن ننجع في ازالته مهما كانت مقاومتنا له كما لا ينجع من يداوي الأدوية الجلدية بالادمان وهو غافل عن علتها الرئيسية في الدم أو في المعدة ، فكما أن هذا الطبيب السطحي لا يزيد المريض الا تعذيباً

واقترحاً في المرض ، كذلك لا يكسب الأمة من يداوي أعراضها الاجتماعية الا تغلغلا في الفساد وتوغلا في الانحلال ، فأن الدواء ان لم يصادف المرض انقلب سماً زعافاً ، وصار مادة تقوي الداء وقمه . وان شئت ضربنا لك الأمثال وحشرنا لك الأشباه والأشكال .

نظن أنه لا يخفى على واحد من قرائنا ان أعضاء الجسم الحي مرتبطة ببعضها ارتباطاً عجيباً ووظائفها متعلقة ببعضها تعلقاً مدهشاً حتى انه قد يشكو الانسان باحتقان في عينه يكون سببه امساك في معدته بحيث انه لا يستطيع دفع ذلك الاحتقان منها داواه وعالجه إلا بإزالة الامساك . وقد يشكو بصداخ في رأسه وتكون علته برودة أصابت قدميه ، وقد يتوجع من ضرره ويكون مثار وجعه برد أصاب جسمه فيكون علاج الضرر الوحيد تعاطي سلفات الكنين حتى ان الإنسان ليندهش من هذه العلاقات البعيدة ولا يسهه الا التسليم بها عندما يرى النتائج مطابقة للمقدمات . وهكذا الشأن في الأمراض الاجتماعية . بل ان تفرعات تلك الأمراض وشعوبها تكون أشد ارتباطاً وتداخلاً بما لا يدخل تحت حصر ، فنحن ان ذهبنا في تشخيص بعض أدوائنا مذاهب لا تتفق مع ما هو معروف في العادة فلا نقصد بذلك الاغراب وحب التفرد بالرأي وإنما نقصد أن نكون موافقين لعلم العمران متبعين ستمه ، وإلا فلا فائدة من حشو الصحف بالكلام الذي رده الناس سنين عديدة ولم يكن من أثره غير اللوث في الاذهان والحبط في المدركات .

عنوان موضوعنا اليوم (من أين جاءنا الفساد الاجتماعي) وهو بحث عويص جداً ان أردنا ان نصعد الى جراثيمته الأولية . وليس هنا موضع هذا التحليل . واما ان رمنا ان نصل الى سببه القريب الذي يقتضيه الموضوع الذي نحن بصددده وهو دستور التعليم فالأمر سهل ونستطيع أن نجمله في لفظتين وهو أن سبب فسادنا الاجتماعي الخاصة . واليك البيان :

كلف الناس في هذه الأيام بذكر البدع التي انتشرت بين المسلمين والخرافات

التي نمت وانتشبت في أذهان العامة من الأمة ، وينسبون لها كل ما نحن فيه من هبوط وتأخر. ونحن أولاً لا نوافق القائلين بأنها علل يجب مداواتها بل نقول انها أعراض لعلل أخرى ان لم نعرفها ذهب تعبنا أدراج الرياح كما يذهب تعب كل من يداوي الفروع ويترك الأصول . ثانياً اننا لا نقر على أنها سبب هبوطنا وتأخرنا فان البدع في الدين والخرافات منتشرة في جميع الأمم بل أكثر الأمم على دين باطل هي الوثنية بعينها فلو كانت البدع في الدين تؤخر الرقي في الحياة لما تقدمت أمة اليابان في ميدان المدنية ولا قيد شبر . وقد نص القرآن على ذلك فقد قال تعالى « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون. أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون » . ثالثاً اننا لا نوجه اللوم في هذه البدع على العامة بل على الخاصة فانهم مادتها وجراثيمها وهم الذين ورطوا العامة فيها توريطاً قسرياً . وإذا أردت الدليل فاسرد إلي أشخاص البدع التي تعالي في تفريع العمامة عليها ونحن نثبت لك أنها من افاضات الخاصة عليهم . ان قيل ألا ترى أن العامة قد أصبحوا يؤهلون الصالحين وينسبون لهم ما لا يصح نسبته إلا الله تعالى وأنهم قد أوتوا الدين على قدر عقولهم فأدخلوا اليه ما ليس فيه وأخرجوا منه ما هو عنصر من عناصره الكريمة . نقول ان سبب ذلك الخاصة فانهم هم الذين ابتنوا المقاصير على القبور وهم الذين رفعوا عليها القباب وهم الذين زخرفوا المساجد حتى جعلوها أشبه بسرديات الملوك وهم الذين وقفوا عليها الأموال الطائلة وهم الذين سنسوا المواكب والاحتفالات الدينية وهم الذين قعدوا عن ارشاد العامة الى حقيقة الدين . يشكو الناس من سوء حالة خطباء المساجد ووعاظها وينددون بهم غاية التنديد ويغفلون عن المسؤولين عن ذلك ، أليس هم الخاصة الذين يصرفون عشرات الالوف من الجنيهات في إقامة حوائط المساجد وضاءتها بالكهربائية ويضيقون على الخطيب والواعظ فلا يعطونها الا ما يرضى به غير العجزة والزمى من الفقهاء ؟ من الذي قلب حقيقة الدين فجعله في إقامة القصور على القبور بدل تعيين الأئمة المرشدين والوعاظ الكاملين غير أهل الخاصة من هذه الأمة ؟ من

الذي علم العامة امتهاث الدين؟ من الذي علمهم احتقار الوطن؟ من الذي علمهم البذخ والسرف؟ من الذي علمهم التقليد الاعمى؟ من الذي علمهم تأليه الاجنبى؟ من الذي علمهم الرضوخ والاستسلام للذل والاستكانة؟ أليس الذين علموهم ذلك بالفعل وبالقدوة هم الخاصة؟ ما هذا الضرب من الجبن الأدبى، ما هذا القلب لنظام الحياة؟ كيف ننسب فساد الشرق الى عامته دون خاصته؟ وهل؟ وهل أفنى الرومان وقدماء اليونان ونسف صروح الدول ذوات الشأن غير الخاصة؟ « وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها وما يمكرون إلا بانفسهم ». انا لسنا من اعداء العلم ولا يخطر ببالنا يوماً من الأيام أن نشبط حركة التعليم ولكننا مع ذلك نقول ان كل حركة لا يكون لها وجهة ولا هي مقودة بحكمة وروية تؤدي الى ضرر عظيم فى المستقبل منها كان ظاهرها حسناً فى الحال. ومن الذى كان يحسر من أهل البصر فى الأجيال التى كان التنافس بالغاً حده فى إقامة جدران المساجد والقباب وزخرفتها وبذل القناطر المكنطرة فى أثاثها ورياشها؟ من الذى كان يحسر فى تلك الاحيان أن يقول لأولئك المتبرعين انكم انما تبتنون صروحاً لايقاع العامة فى اشراك البدع وتبدلون أموالكم لاحالة الدين الى العبادات الصورية كما حصل فى كل الأمم السالفة التى اعتاضت عن جمال العقيدة بجمال جدران المعابد وعن نور الإيمان بانوار الهياكل ، حتى جعلوا شعائر الدين أشبه باحتفالات الولايم ، وأقرب لاجتماعات المآذب ، لشدة ما تلتهم الأذهان بالنقوش والزخارف ، وما يشطح الفكر فى التأمل فى سجون المنافذ وابداع المنابر . مع أن القصد من تلك الاجتماعات كان تجديد العقل من ملهيات العالم المادى ، وتخليصه من فائتات المظهر الطينى والذهاب بالروح على أجنحة ذلك الاجتماع المندمج الى باب الرحمة القدسية لتطرقه بيد التجرد والعبودية الخالصة، ولترجع الى عالمها بنور من عالم القدس يثبتها فى جهادها ويقيمها على صراطها ويحميها عن فتن الدنيا ومداحضا حتى إذا أدت وظيفتها فى هذه الحياة عرجت إلى عالمها بتلك القوة التى اكتسبتها ، ودخلت من جنان الفيض الإلهى فى الحال التى أعدت لها . من كان يحسر أن يقول هذا لأولئك الذين

صرفوا أموالهم لإلهاء الأعين والقلوب بتذهيب الجدران وصبغ الحيطان ، كان لا شك 'يرمى بالإلحاد' ، ويوصم بأنه من الساعين في الأرض الفساد ، وأنه ممن يمنع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ، ولذلك نحن اليوم بإزاء حركة من الخاصة يتدافعون بها منافسة في فتح المدارس ، وهي في الجملة حركة نبيلة ومرام شريفة ، ولا يتصور أن يوجد من توسوس له نفسه بتثبيطها أو إيقافها - ولكننا نرفع صوتنا ولا نخاف لومة لائم بأن هذه الحركة إن لم تكن الحكمة رائدها والروية الشاقبة قائدها فتكون فتنتها أنكأ الفتن على البلاد ، ومحنتها أنفذ الحن في العباد . ولكن ربما لا نكاد نقول هذا حق تتسارع إلينا الأفكار وتركز علينا أشعة الأنظار عجباً من هذا القول العجيب واندهاشاً من هذا الفكر الغريب ! وسيدهب كل ناظر إلى حيث يقوده ضميره ، ولكننا لا نأبه لمثل هذا القيل والقال ما دمنا نريد تقرير حقيقة عمرانية كبرى يمدّها الجاهل اليوم بدعة وغداً يجعلها عقيدة وشرعة .

نعم إن لم تكن حركة التنافس في فتح المدارس مقودة بيد الحكمة والروية لانقلبت شر الشرور ، ولأنتجت أعظم الأمور ، وإذا أردت الدليل فإليك التفصيل .

* * *

الجبروت والملكوت والناسوت واللاهوت

سألنا حضرة الوجيه السيد ناصر بن سليمان بن ناصر بدار السلام بزنجبار عن معاني الجبروت والملكوت والناسوت واللاهوت فنجيب حضرته :

(الجبروت) صيغة مبالغة معناها العظمة والكبر والقدرة والسلطة .

(الملكوت) العز والسلطان والملك والعظمة . وهو مشتق من الملك .

(الناسوت) طبيعة الانسان ، قيل انها لفظة سريانية .

(اللاهوت) أصله (لاه) بمعنى اله زيدت فيه الواو والتاء مبالغة كما زيدتا في جبروت وملكوت وقيل هو لفظ سرياني .

أما ما يجيء في مباحثنا من مباحثنا « عالم الجبروت » « عالم الملكوت » فإننا نقصد بالاول عالم الجلال الالهي الذي لا يصله ملك مقرب ولا نبي مرسل فهو سر الاسرار الوجودية ، وكنز الكنوز الغيبية ، مثل الملائكة المقربين بإزائه كمثلنا نحن في عدم العلم به ، وانحسار التصور دون سرادقات عزه وحظيرات قدسه . وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم ، حديث في هذا المعنى وهو (ان الله احتجب عن العقول كما احتجب عن الابصار ، وان الملائكة الأعلى يطلبونه كما يطلبونه أنتم)

أما الثاني وهو عالم الملكوت فنريد منه في كتاباتنا عالم الارواح المجردة ومسرح القوى الروحانية ، فهو بالنسبة اليها مثل عالم الشهادة بالنسبة اليها ، وهو عالم ينتهي اليه كل انسان بعد خلقه هذا ، الجسد ويستطيع الأحياء أن يشرفوا

عليه اشرافاً وقتياً فيرون منه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، فيعرفون بتلك الوساطة من الأمور الروحانية ، ويجدون فيه أكبر تسليمة في متاعب الدنيا وويلاتها وتوالي أحداثها ومصائبها فلا يؤهبون للحياة ، ولا يحرسون عليها هذا الحرص الشائن ، ويرنون للدنيا بالعين التي تراها على حقيقتها أي انها دار بلاء وامتحان ، وقرارة أكدار وأشجان ، وان حفت بنا الكبرياء من كل مكان ، وطرفنا في الهواء الى سائر البلدان ، وسكننا قصور اليواقيت والمرجان ، وانه لو اجتمع دكاترة العالم كله مع أكبر كيمياوي العصر على أن يركبوا على أدق الآلات الصناعية بالطف التيارات الكهربائية على أشعة (رنتجن) اكسيراً يشفي أعظم ملك في أكبر أمة متمدنة من ظلمة الاحاد لما استطاعوا الى ذلك سبيلا : « ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور » .

* * *

الصلاة والصيام في الاسلام

« ما يُريدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » .

إننا قد سبقنا الكلام في هذه المحلة على عمرانيات الاسلام وما في اتباع أصوله من السعادة المادية على حسب مقتضيات الحاجات العصرية ولم نلم بما يختص بالروحيات في هذا الدين المبين إلا المأماً لا يشفي علة ولا ينقع غلة . فرأينا أن نعقد في هذا العدد مقالة من تلك المباحث النفسية لمناسبة حلول شهر الصوم الجليل ترغيباً لآخواننا في مداركة أرواحهم بإعطائها بعض حقوقها المهضومة وبتقاء الله فيها فإنها أحق بالتفاتهم من ذلك الجسم الفاني فنقول والله المستعان : لا مشاحة في أن الانسان مركب من شيئين متباينين أحدهما مادي كثيف مستمد وجوده من أجزاء هذه الطبيعة المحسوسة يقال له الجثمان والآخر معنوي لطيف مستمد وجوده من النور الالهي مباشرة يقال له الروح ، وهما متحدان ببعضهما اتحاداً مؤقتاً على حسب قانون ثابت وموازنة محكمة يقف العقل أمامها مبهوراً .

أما الجسم المادي فهو مركب من البسائط الأرضية وتسري عليه أحكامها فهو لا شيء غير مادة عضوية مركبة من خلايا تشبه خلايا الحيوانات بل والنباتات أيضاً . فالناظر اليه يحكم عليه بالفناء عاجلاً أو آجلاً ، ونعني بالفناء هنا استحالته الى أجزائه البسيطة وذهاب كل من هذه الأجزاء الى حيث أتت من أشياء الطبيعة . وأما تلك الروح النورانية فليست مركبة من بسائط أولية حتى يحكم عليها بالفناء أي بالاستحالة الى تلك البسائط بل هي باقية بقاء سرمدياً وتابعة لنواميس خاصة بعالمها لا نخوض فيه هنا الآن . ولكل من الجثمان والروح مطالب

تناسب طبيعة كل منها ودرجته في مراتب الوجود . فالجسم لا يفترق عن كل أنواع المادة في قبوله للنقص والزيادة والضعف والقوة والتركيب والتحليل ، ولذلك فهو محتاج الى مقومات تقوم من نوعه كالغذاء والمسكن وغير ذلك مما يحفظ شخصه ونوعه . أما الروح فليست مطالبها من هذا القبيل فهي تواقه لمقاوم الشرف المعنوي ومنازل الكمال الأدبي ، طالبة لأن تلم بأسرار الملكوت كله وتدرك صميم عالم الشهادة وسائر عوالم الغيب ، مغرقة بالاحاطة الكلية . يجمع أشخاص الحقائق جليلها وحقيرها صغيرها وكبيرها واسعر من نفسها بالقابلية لذلك الراقي اللانهائي شعوراً فطرياً كأنه لازم من لوازم جوهرها السامي .

إذا كان شأن الروح الانسانية كذلك وكان هذا الرقي العقلي الذي حصله الانسان من يوم نشأته للآن يدل على استعدادها لتنال أسرار هذا الملكوت غير المحدود فيما الذي يمنعنا عن بلوغ أمنيته هذه ويضع العقبات أمام رقيها الى عالم الكمال الذي تحس به وتتضرم شوقاً اليه ؟ ما الذي يصد بعض الناس حق عن التطلع الى هذه المنصات العالية ويجعلهم يتسفلون الى مشاكلة الجمر الوحشية في نزواتها والهواجث من النعم في خستها ودفائها ؟ ولماذا لا يكون الناس كلهم بمنزلة واحدة في العلم والمعرفة فيتضافرون على قطع مفاوز تلك العقبات التي تحول بينهم وبين تلك الحالة السعيدة ؟ هل هناك شيء يعارض الروح في سلطانها ويناولها العداوة في مملكتها ؟ نعم ، قضت حكمة الخالق (ليم الإبداع الذي أراده) أن يجعل الروح والجثمان في تصارع مستمر فأيهما غلب سادت على الشخص أحكامه وسرى عليه نفوذه وسلطانه . ولذلك نجد من الناس من غلبت عليه مادته فصار لا يفكر الا في اشباع شهواته بكل الطرق وكل الوسائل ، ولوى عن مطالب روحه كشحاً . ومنهم من سادت عليه روحه فمحض نفسه للراقي المعنوي من طريق الباطن وضرب بسعادة مادته عرض الحائط . وبين هذين الطرفين مراتب متفاوتة لا يكاد يحصرها قلم ولا يجمعها استقصاء .

أي الطرفين يا ترى قد أصاب الرمي ؟ الذي محض حياته لإشباعهم

جثائته أم الذي أوقف نفسه لمستهيات روحانيته ؟ لا جرم أن كليهما قد أخطأ .
واليك البرهان : أما أمر الجثائية فظاهر لأنهم لا يحنون عادة من الجري في
أعقاب الشهوات إلا الخسران وكفى بمثلهم واعظاً لمن يريد أن ينتهج مناهجهم ،
وأما الروحانيون فليسوا بأقل استحقاقاً للوم من الأولين فإن إضرابهم عن الماديات
هضم لحقوق جثائهم وتعطيل لنظام إرادة الله أن يتم في هذا الوجود . فإنه تعالى
قد سخر كل هذه الطبيعة للإنسان واستخلفه عليها ، وليس مثل هؤلاء إلا
كمثل رجل أودعه آخر بستاناً له ليستغله وينتفع به فغلب عليه الورع فهجر
الحديقة المودعة إليه حتى تصوحت أزهارها وماتت أشجارها وجفت أنهارها
وأصبحت قاعاً صاففاً تأويها الأفاعي ، وتسكنها الوحوش الضواري . كلا .
ليس في طرف من هذين الطرفين مثال يجوز للإنسان احتذاؤه ، لأن في كليهما
عصياناً لا مرية فيه لخالق الطبيعة ومبدعها وتعطيلاً لنظامها . إذن يجب اختيار
خطة الاعتدال والتوسط : فنعدل مع جسدنا فنكلمها ونحفظها ، ومع أرواحنا
فنهبها أمانيتها مع عدم الاجحاف بمطالب المادة . هذا هو الكمال الانساني الذي
مات الفلاسفة دون الوصول الى تحقيقه وهذا هو غرض الاسلام ومرمى نظره .
قال الله تعالى : « ربنا آتينا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة » وقال سيد
الأنام ﷺ (ليس خيركم من ترك ديناه لآخرته ولا آخرته لديناه بل خيركم
من أخذ من هذه وهذه) .

إذا تقرر هذا نقول : لما كان الجسم يحتاج في قوامه وحصوله على تمام سعادته
الى نظام خاص يتبعه الشخص في مطالبه الكثيرة مما سمي بقانون الصحة الذي
تكفل الأطباء بسن أصوله وفروعه ، كذلك تحتاج الروح لقانون تسير عليه في
جريها وراء مطالبها العالية حتى لا تصادف أمامها من العقبات ما يحول بينها
وبين عروجها الى المنازل التي تشرئب اليها . وهذا القانون يسنه الله تعالى بنفسه
بواسطة أنبيائه على حسب قابلية كل زمان ومقتضياته . وليس ما جاء في الدين
الاسلامي من أنواع العبادات بصعب التفسير على من أحياء الله بالعلم ونور بصيرته
بالمعرفة وذلك أن العبادة الاسلامية يمكن تقسيمها الى قسمين : عبادة اجتماعية

وعبادة شخصية . فالاجتماعية كالزكاة والحج وغيرها مما تتم فائدته الشخص وسائر أفراد جمعيته وسنتكلم على ذلك إن شاء الله في فصول أخرى . وأما العبادة الذاتية فهي كالصلاة والصوم وهما اللذان نريد أن نتكلم عليهما في هذه المقابلة بإيجاز مناسب فنقول : لما كانت الروح كما قلنا مستمدة وجودها من النور الالهي مباشرة فلا يجوز لصاحبها أن يجعل جسمه الكثيف حجاباً غليظاً بينها وبين متحد حياتها ، بل يجب عليه أن يعرضها آناً فآناً لفيوضات ذلك النور الأقدس حتى تكتسب نشاطاً جديداً وتقوى على مصارعة مقتضيات الجسد فلا يكون له عليها سلطان كما هو شأنه عند كثير من الناس حتى صاروا أقرب الى الحيوانية النازلة منهم الى الانسانية الكاملة . ولذلك جاءت الديانة الاسلامية آمرة بالصلاة وهي ليست شيئاً سوى تخلية الفكر من الشواغل المترددة عليه والتوجه بالقلب الى الله مباشرة توجهها صحيحاً بتعطش تام لتممكن الروح من قبول الامتداد القدسي مباشرة فتكتسب حياة جديدة طيبة تستطيع بها أن تكبح جماح شهوات البدن فترده الى الاعتدال وتزوده عن موارد الضلال . والى هذا يشير الله تعالى بقوله « ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » . وبناء على هذا فالصلاة بالنسبة للروح يمكن تشبيهها بالغذاء بالنسبة للجسم . ولما كان لا يجوز للإنسان بوجه من الوجوه أن يحرم جسمه من الغذاء حتى يموت جوعاً كذلك بل بالأولى لا يجوز له أن يهمل روحه من غذائها الروحاني حتى يتغلب عليه صفات الحيوانية ويضارع الوحوش في حياتها البهيمية فلا ينفعه بنطالونه المزركش ولا قميصه الملمع ، ومن الاسف أن نرى أكثر الناس لا يأتون الصلاة إلا من قبيل العادة فلا يلاحظون هذه الحقائق الساطعة فيدخلون المحراب وصدورهم مفعمة بأنواع الشواغل ، ويخرجون منه وقد كسبوا الويل والشبور كما قال الله تعالى « ويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون » . ومن الناس من يبتدىء في الصلاة بعد هجرها طول حياته ولا يلاحظ ما قلناه من التجرد والتخلي فلا يذوق لها أدنى لذة فيتركها ويستمر على لغوه ولهوه حتى يأتيه القدر المحتوم وهو على أسوأ حالة بهيمية نعوذ بالله من عدم التبصر في أسرار الدين .

وأما الصيام فهو بالنسبة للروح كالرياضة السنوية بالنسبة للجسم، وذلك أنه لما كان قانون الصحة الجسمية يحتم على كل عامل يريد حفظ صحته أن يريض نفسه شهراً كاملاً في السنة يقلل فيه من غذاء النفس (أي الاشتغال بالعقليات) ما أمكن كذلك قانون الصحة الروحية يحتم على كل انسان أن يقلل شهراً في السنة من غذاء جثائه. ولما كانت حجة أطباء الأجسام في ضرورة الاقلال من أغذية النفس وهي المعقولات شهراً في كل سنة هو لزوم تعويض ما فقده الجسم من القوة مدى الأحد عشر شهراً من جراء اشتغالاته العقلية كذاك يحتاج أطباء الأرواح بأن القصد من الاقلال من الطعام مدى شهر في كل سنة هو تعويض ما فقدته الانسانية من حياتها من جراء اشتغال الإنسان بالماديات في أثناء العام كله . وليس قصد الاسلام من هذا الا حصول الموازنة بين حقوق الروح وحقوق الجسم حتى يكون الانسان انساناً كاملاً معتدل المزاج متوسطاً في مطالب طبيعته حاصلًا على تلك السعادة التي مات غطاريف الفلسفة دون الوصول اليها .

أليس من أعجب العجائب أن له روحاً باقية ثم هو يهمل أمرها ويهضم حقوقها وينعما من غذائها ويلتفت الى جثائه الفاني بكلية فيهبه سائر حقوقه وزيادة حتى تتغلب بهيمته على إنسانيته فتقوده من لحيته الى مقارفة الحسائس ومعاطاة الدنايا والمقاذر. نعم وأعجب من هذا ألف مرة من يتوهم أن الصيام والصلاة يضعفان البدن وينعمان الانسان عن مزاولة أعماله ... وهو وهم فاسد سببه ضعف الاسلام وعدم شعور القلب بلذة الايمان . كيف لا يكون قائل هذا واحماً وأمام عينه تاريخ آباءه الأولين (الذين كانوا أكثر الأمم صلاة وصياماً ونسكاً) يشهد بحملته وتفصيله بأن عبادتهم لم تزدهم الا قوة ونشاطاً وجداً وجلداً سواء في استغلالهم لقواهم العقلية أو في استخدامهم للنواميس الطبيعية . ومن كان في ريب من ذلك فليرنا أمة من الأمم نبئت بين الشعاب الجبلية والصحارى القاحلة الرملية ثم امتدت في مدى ثمانين سنة الى ما لم تبلغه أمة الرومان في ثمانمائة عام مع علمك بأن (أمة الرومان كانت سلطنة العلم بأسره). هنا يمكن أن يتهمنا بعضهم بالليل الى الخيالات والشعريات قائلًا في نفسه : ما هذه الغلواء . كيف

يدعي هذا أن العبادة لله تبعث الى المعاني الدنيوية وتسوق للسبق في باحات المدنية ؟ هل يقصد من العبادة إلا التزهيد في هذه الدار الفانية والترغيب في تلك الدار الباقية ؟ هذا ما قد يقوله بعضهم غفلة منه عن أسرار الديانة الاسلامية وذهولاً عن عجائبها التي لا يحيط ببعضها إلا الراسخون في العلم . ونحن لا نتكبد كثير مشقة في الرد على أمثال هؤلاء الواهين بل نقول لهم بصوت يسمعه كل من كانت له أذن : يارعاكم الله ، إذا كان الأمر كما تظنون وكانت العبادة لم تجعل إلا لهض صرف العقول عن أمور الدنيا فكيف تملكون أفعال رسول الله ﷺ وأفعال أصحابه رضي الله عنهم من بعده وهم بناء مجد هذه الأمة وواضعو أساس عظمتها حتى أسموها على سائر أمم الأرض عسكرياً وإدارياً ، علمياً وصناعياً ، مالياً وتجارياً وزراعياً بحيث صارت كعبة المعالي والعرفان ومنازاً يهتدي بهديها بنو الإنسان ؟ أليست هذه النظرة البسيطة تكفي لأن تريننا إنا فاهمون من آثار العبادة غير ما كان يفهمه أبائنا فيها ؟ أليست تريننا هذه النظرة وحدها أننا قد عكسنا الأمر عكساً كلياً لففلتنا عن التبصر في الدين والاهتداء بهدي رسول رب العالمين ؟

ليعلم المسلمون أن العبادة في دينهم لم يقصد بها التذليل والاستكانة بل هي للروح كقواعد الصحة بالنسبة للجسم لكي يحصل التوازن بين طبيعتي الانسان المختلفتين حتى لا يكون مادياً محضاً ولا روحياً صرفاً بغلبة إحدى هاتين الطبيعتين عليه فيتجلى في العالم إنساناً كاملاً ، أعني روحياً مادياً معتدلاً في مقتضيات جوهريه المكونين لشكله البشري . فيا ليت شعري متى يلتفت المسلمون الى ذلك السر الالهي الذي هو بين أيديهم بعض التفاتهم الى سواء لينتفعوا به كما انتفع به آبائهم من قبل حتى لا يحشروا في زمرة المقضي عليهم في هذه الآية « فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً » . ويا ليت شعري متى يصغون الى خالقهم الذي لم يزل يناديه من سماء الرحمة ليخرجهم من الظلمات الى النور قائلاً « ألم يأن للذين آمنوا أن تحشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق » .

مذهب داروين والدين

جاءنا من حضرة الشاب النجيب أحمد حمدي بك الطالب بمدرسة الطب المصرية خطاب يقول فيه :

« إنني لا أكاد أطالع كتاباً علمياً جديداً ، أو أي بحث من المباحث الفرعية الأخرى ، إلا وأجد الكاتب قد اتخذ مذهب داروين قاعدة أساسية له ، أقام عليها ما هو بصده . ومن يطالع هذا المذهب بإمعان ويرى البراهين العلمية المبني هو عليها ، لا يكاد يجد له رداً من جنس إثباته .

ولقد أردت أن أقف على رد علمي مقنع ، فلم أعثر على شيء من ذلك ، وغاية ما احتوته الردود عليه هو التقييح والسب في أصل هذا المذهب وناشره .

لا يخلو الحال اذن من أحد أمرين : فإما أن يكون هذا المذهب القائل بترقي الإنسان عن القرد صحيحاً ، وعند ذلك كيف يمكننا أن نقسّر أصل الخلقة كما هو مذكور في القرآن الكريم . وإما أن يكون فاسداً فما هي الردود العلمية التي تكون من جنس قضاياه والتي يمكننا الاستناد عليها في رفض هذا المذهب ؟ »

الجواب

لم يكن في عزمنا أن نتكلم عن مذهب داروين في الملحق لولا أن وجهنا إلينا حضرة أحنيا المشار إليه هذا السؤال . فوجب علينا أن نسعفه بكلمة فيه صغيرة تاركن الشرح والتفصيل لكتاب الإنسان ، فإن الكلام على مذهب داروين

بأصوله وفروعه وحقائقه الثابتة ومسائله الظنية سيكون موضوع أبواب كثيرة في مبحث الإنسان ، فهو أليق به وأولى من هذا الملحق .

الحركة الفكرية التي أحدثها مذهب داروين في العالم العلمي الغربي لم تقدر قدرها تماماً في بلادنا هذه ، ولم يعرف متعلمونا عنه إلا أنه مذهب علمي من جملة المذاهب الأوروبية ، فيلوون الكشخ عنه ويصدون عنه صدوداً ، وهم أمامه على قسمين : قسم اعتقد صحته بدون امتحان ولا قياس فجرى عليه في عقيدته وسلوكه وأراح نفسه من حيث تعب الكرام . وقسم علق بذهنه وزاحم نور العقيدة في فطرته ، فأخرجه الوقوف عند حدّ الشك والذبذبة فقام يفحصه ويبحث فيه فإن التوى عليه الأمر ، وأعضل عليه الفهم ، سأل عنه من يتوسم فيه الخير في أمثال هذه المواضيع العويصة . وقسم سمع بهذا المذهب وأدرك كنه تأثيره على عقيدته فهرب منه هروباً واقتنع بأن يكون حظه من العقيدة أن يحافظ عليها محافظة صماء بالوهم لا بالحقيقة . لأنه في الحقيقة شاك ، وإنما هو يوهم نفسه أنه معتقد . وعندنا أن أفضل هذه الأقسام الثلاثة القسم الذي اصطدمت مزاعم هذا المذهب في نفسه وشمر بخطرها على عقيدته ، فقام يسأل ويباحث ، لا يهدأ له بال ، أو لا يقرّ له حال حتى يقف على الحقيقة الثابتة التي لا جمجمة فيها ، (وماذا بعد الحق إلا الضلال) .

يقول سائلنا المحترم أنه لم يفتح كتاباً علمياً إلا رأى أن كاتبه قد اتخذ مذهب داروين قاعدة أقام عليها بناء موضوعه ، وشيّد على أسسها أركان بحثه . ونظنه يريد بالكتب العلمية ما هو بصدد من كتب الطب ، ولكننا نزيده أننا لم نطالع كتاباً فلسفياً ولا أدبياً من الكتب الأوروبية إلا ونرى أثر ذلك المذهب باديّاً عليها ، ظاهراً في مقدماتها ونتائجها ، مما لم نعهده لأي مذهب غيره من المذاهب العلمية الأخرى .

كل منا يعلم المجافاة الشديدة التي يتظاهر بها الأوروبيون للأديان الرسمية ،

والخشونة الصارمة التي يعاملون بها زعماءها إذا بدا منهم بارقة العمل لتأييد مذاهبهم ، فلا نقول أن ذلك سببه مذهب داروين ، فإن الشكوك والشبه أملت بأفئدة أهل أوروبا منذ القرن الخامس عشر ، كما أثبتنا ذلك في بعض فصولنا المتقدمة في مباحثنا ، وإنما نقول أن مذهب داروين أكسب تلك الشبه صبغة ثابتة ، وامتلخ من يد العقائد الرسمية ملايين تعدد بالعشرات في سنوات قليلة ، وجعل التكذيب بمقررات الأديان أمراً طبيعياً علمياً في نظرهم .

مذهب داروين موضوعه الفزيولوجيا كما هو معلوم فكان المنتظر أن يكون تأثيره محصوراً في عالم العلم الطبيعي ، ولكنه لمساهة بمسألة خلق الإنسان خرج عن دائرة العلم الطبيعي ، وأغار على الفلسفة العقلية والفلسفة الحسية ، والعلوم الأدبية والأخلاقية ، وجاز كل تلك الدوائر حتى التهم العلم السياسي أيضاً . وعلى هذه الصورة انتشر بين الطبقات الاجتماعية حتى وصل إلى عامة الناس ودخل في معاملاتهم ومجاملاتهم ، وصارت مبادئه قاعدة أساسية لأخلاقهم وعاداتهم ، حتى أصبح عامة الشعوب الأوروبية داروينيين فعلاً وإن لم يحسنوه علماً . ثم فاض هذا المذهب من الشرق إلى الغرب ، وكان الموصل له إلى هذه البلاد طائفة من كتاب السوريين أصحاب المجلات العلمية فلم ينجحوا في بثه في أذهان الناس من قبيل العلم قدر ما نجحت عدوى معاشرتنا للأوروبيين ، فأصبح الناس هنا اليوم داروينيين بالعمل وإن كرهوا ذلك قولاً ووهماً .

نعم إنك لو واجهت إنساناً وقلت له : هل لك أن تعتقد ان الانسان حيوان مترق عن القرد ، وإن بينه وبين الكلاب والسيلاحف أو اصر قريبة من القرابة ، وإن كل الأحياء أصلها خلية حية واحدة ، وإن كل ما تراه من صور الكائنات وأشكالها ، كله نتيجة الوسط المناسب والفواعل الجوية ، وضروب المعيشة ، وأنه بناء على ذلك ، لا يليق بالإنسان أن يؤم نفسه بعذاب

ولا يعقاب في دار غير هذه الدار ، وما عليه إلا أن يعلم أن السعادة هي سعادة هذه الحياة الأرضية ، وانها معقودة ببعض نواميس معدودة على الأصابع ، لو توخاها الانسان ، ووقف سيرته عليها ، فاز بمراده من أكبر قسط من السعادة المرجوة . من تلك النواميس : (الكائنات الأرضية كلها متنازعة في البقاء) و (القوي منها يغلب الضعيف ويبيده) و (لا يبقى إلا الأصلح للبقاء) فإن أحسنت المنازعة وسلكت فيها مسالك المهارة والدقة ، وأمكنك بذلك أن تقوي نفسك وتبدد كثيراً من الضعفاء وتمتص مادتهم صرت أصلح منهم للبقاء فبقيت أنت وأخلوا لك الجو - وهذا ما يعبر عنه بالسعادة البشرية العليا - لو قلت لإنسان مثل هذه المقالة لحوقل واسترجع ، وتألم وتأفف ، ورماك بالمروق من الدين والبعد عن الفضيلة ، بينما تكون هذه المقالة برمتها ترجمة سيرته بين قومه بل وأهل بيته ، فتراه مثلاً كالليث الضاري بالنسبة لصفار الفلاحين يقرضهم درهمات قليلة ويبترها بمحصولات كثيرة ، ثم لا يزال ينازعهم بحيله ووسائله تارة بالإقراض وأخرى في السقي والصرف والبناء حتى يلجئهم لأن يبيعوا أرضهم وينجلوا من محلته بالمنازعة إلى حيث يدعوهم الهم الناصب والفقر المدقع . ولا معنى لهذا العمل كله إلا تحقيق مذهب داروين فعلاً ، فإن ذلك الرجل نازع مجاوريه وتقوى عليهم بقوته ثم بقي بعدهم لأنه أصلح منهم للبقاء ، وربما كان على هذه السيرة كثير الصلاة والصيام ، دائم التلاوة والتسبيح ، ويحتمل أن يكون بعد ذلك سبب اليد ، يبذل المال ويقري الضيفان !!

ألا ترى معي بعد هذا أن مذهب داروين أكثر شيوعاً مما يظنه أكثر الناس ، وأدخل في مسارب آميال هذا الجيل من أي مذهب آخر ؟ فإذا كان الأمر كذلك فكيف لا نسأل عن هذا الأمر الجلل ، وكيف لا نفحصه فحصاً دقيقاً لنرى ما كنه هذا الأمر الهائل الذي ألمّ بالناس عموماً بالقول والعمل ، وكان موجوداً بالعمل من يوم خلق العالم إلى الآن .

لا يقال ان الإنسان ما عرف التنازع ولا تغلب قويه على ضعيفه ، ولا بقي إلا الأصلح للبقاء ، إلا بعد ظهور هذا المذهب. فإن خبر الطوائف الإنسانية كلها ينبئك بتأصل هذه النواميس في طبيعة الحلقة البشرية تأصلاً تاماً . ومن المعلوم بالبداهة أن الإنسان أرسل اليه رسل من الله وبعث فيه أنبياء يعدون بعشرات الألوف . فماذا كان شأنهم بإزاء هذه النواميس وماذا كان تأثير العقائد عليها ؟

هذه النظرة التاريخية تدلّك دلالة صحيحة على أن الدين وجد وعمل به مع وجود هذه النواميس ولا سبيل للقول بضد ذلك . بل ان هذه النواميس التي اكتشفها داروين ، وعدّها قاعدة أقام عليها صرح مذهبه ، موجودة في القرآن الكريم بالنص من ضمن قوانينه العمرانية ، وإن أردت بعض البيان فأليك :

يقول داروين أن بين الطبيعة والكائنات الحية حرباً مستمرة من يوم ولادتها إلى يوم بلوغها قمة كمالها فالكائنات التي تبقى مع وجود هذا الحرب الدائمة تكون بلا شك أقبل للبقاء من سواها ، بل أحق بها من كل ما عداها ويضرب لذلك الأمثال فيقول مثلاً : إن عدد البيوض والجراثيم التي تولدها الأحياء أكثر بكثير من عدد الأحياء المتولدة منها . وهذا دليل محسوس على أن أكثر هذه الجراثيم يهلك في أوائل حياته ولا يسلم من العطب إلا النزر القليل الحاصل على صفات تمكنه من اجتياز هذا الطور الحيوي الابتدائي . ثم لو قابلت عدد الأحياء الكثيرة الجراثيم بعدد الأحياء القليلة الجراثيم تجد أن من الصنف الأول ما لا يكاد يذكر من جهة عدد أفراده بجانب أصناف من الصنف الثاني مع أنه لا يبيض إلا بيوضاً قليلة . وما تراه هنا في عالم الحيوان تراه بعينه في عالم النبات ، فإن أشخاصاً كثيرة من الفصيلة الثعلبية يولد ألوفاً من الجراثيم ، وهو مع ذلك قليل العدد وأمامه أصناف من فصائل أخرى قليل البذر ولكنه كثير العدد جداً . كل

هذا يدل على أن عدد الأشخاص التي تبقى لا يتوقف على عدد الجرائم بل على صفات تلك الأشخاص الذاتية وحالة الوسط التي تحيا فيه . فما كان منها أملك لصفات البقاء والمقاومة سلم من العطب وبقي ، وما كان غير ذلك هلك وتبدد وانقرض .

هذا الناموس عام أيضاً في الأحوال الانسانية ، فإن الأمم فيما بينها في تنازع مستمر وتزاحم عنيف ، فمن كانت منهن حاصلة على صفات الحياة ومتمتعة بخصائص أكمل من جاراتها سادت عليها ونازعتها أسباب حياتها واستأثرت بها دونها ، وهذا التنازع كما يقول الداروينيون من أكبر البواعث على الترقى والتقدم في باحات المدنية وساحات الحياة العقلية ، فإنه أقوى وازع للانسان عن الإهمال والتواني ، وأحجى هادله إلى بذل الوسع لنيل الأمان ، وأعمل محرض له إلى صقل قواه الفكرية والعقلية . هذا الناموس في عرف (داروين) يسمى ناموس (تنازع البقاء) ونصه في الكلام الإلهي « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » وقد أشار الله تعالى إلى سر الغلبة في هذا التنازع وهي القوة بقوله تعالى : (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) . ولما كانت الصفات المؤهلة للغلبة وللغوز في العالم الإنساني لا تستمد دائماً من القوة العضلية بل يستمد أكثرها من خلال الكمال النفساني ، وسجاي الشرف الخلقي ، أشار الله تعالى إلى ذلك بقوله تعالى : « ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى » وقوله : (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين) وقوله تعالى بعد ذكر القتال : (واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين) بهذه الآيات الكريمة جمع النبي صلى الله عليه وسلم إلى صفات القوة الجسدية أعلى صفات الكالات الانسانية وبثها في أفئدة أصحابه فأصبح الواحد منهم وكان المتنبي يعنيه بقوله :

قسا فالاسد تفزع من يديه ورق فنحن نفزع أن يذوبا

فدانت لهم الدنيا دينونة لم تسبق لأمة سواهم والسر في ذلك حصولهم على ينبوعي القوتين : الجسدية والخلقية ، ووصولهم إلى باحات الرتبين البشرية والملكية . تم للنبي صلى الله عليه وسلم هذا الفوز مع قلة عدد أصحابه وفقيرهم ، وانخذل أعداؤه على كثرة عددهم ، ودوام مددهم ، وشدة حميتهم ، لأنهم لم يعتمدوا إلا على قوة الساعد ومضاء الحسام ، وهما لا يحدان في العالم الإنساني إلا أثراً يشبه فقائيع الصابون لا يرغي حتى يخمد ، ولا يفتفخ حتى يتمزق . وإلى هذا السر الكبير يشير الله تعالى في كلامه القديم : (إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، وألزمهم التقوى ، وكانوا أحق بها وأهلها) .

يقول (داروين) وأحزابه إذا سلمت بأن تنازع البقاء ناموس من نواميس الكون ، فلا مناص لك من أن تسلم بحصول غلبة لبعض المتنازعين وخذلان للبعض الآخر ، ومعنى تلك الغلبة وذلك الخذلان بلسان علم الحياة البقاء والتلاشي . بمعنى أن الحزب الغالب يبقى متمعاً بما افتتحه بقوته ومهارته ، وأما الحزب المغلوب فلا يجد ما يقيم أوده فيضعف ثم يزول ويتلاشى ويدع الجو خالياً لخصومه . وهذا الناموس في عرف (داروين) و (روسل ولاس) يسمى (بالانتخاب الطبيعي) ومعناه : لا يبقى إلا الأصلح . وقد أشار الله تعالى إلى هذا الناموس الكبير بقوله جل شأنه : « ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون » والمراد بالصالحين هنا المستكملون شرائط الفضائل الجسدية والعقلية ، كأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلاً في جمعهم بين فخامتي الدنيا والدين ، لا كما اصطُلح عليه بعض الناس من أن الصالحين هم الضعفاء المزرون . ولقد كانت غلبة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على كافة أعدائهم من رومانيين وفارسيين مع ما كانوا فيه من قوة الشوكة وعدد الجند وانتظام الأحوال دليلاً محسوساً على صحة ذلك الناموس الكبير ، فإنهم عليهم رضوان الله لما كانوا أصلح

للبقاء من كل من ذكروا ورثوا أرضهم وديارهم وصار ما بقي من أولئك الأقوام رعايا لهم بدفعون لهم الجزية ويعتزون بحمايتهم .

لداروين عدا عن هذين الناموسين (ناموسا المطابقة والوراثة) أما ناموس المطابقة فمقتضاه أن لنوع الأغذية وطرق الوصول إليها دخلا كبيرا في إحداث الاختلافات بين الأنواع . وأما ناموس الوراثة فمقتضاه أن الصفات العرضية التي تحدث في الآباء بواسطة اختلاف الأحوال والأوساط تنتقل إلى الأبناء فتنشأ تلك الأبناء مختلفة فيما بينها ، ولا يزال هذا الاختلاف يقوى بينها على مر الأجيال والقرون حتى تستحيل تلك الاختلافات العرضية إلى اختلافات جوهرية توهم الرائي لها أنها اختلافات نوعية من أصل الحلقة ، وهي في الحقيقة اختلافات بسيطة في مبادئها توالى عليها الأحقاب حتى ازدادت تأصلا في الحيوان ونمت فيه فأدته إلى مبانة الأصل الذي نشأ منه تمام المبانة ، حتى أن الرائي لهما يظنهما من نوعين مستقلين وهما من نوع واحد . كما ترى ذلك بين الحمار والحصان فإنهما على مقتضى مذهب داروين نوع واحد وإنما اختلف الحمار عن الحصان هذا الاختلاف تبعاً لمقتضيات الوسط الذي عاش فيه والجهد الشديد الذي بلي به .

هذان الناموسان : ناموس الوراثة وناموس المطابقة لا يجوز التردد في صحتها فإن المحسوسات يحملتها وتفصيلها ندل عليها . إذا تقرر كل هذا فهل مذهب (داروين) صحيح ؟ وهل الإنسان كما يقول مرتق عن القرد ؟

أكبر الاعتراضات على هذا المذهب تنحصر في ثلاثة أمور : (أولاً) عدم مشاهدة أي ارتقاء من أي نوع كان في الأحياء الأرضية من عهد الوف عديدة من السنين (ثانياً) عدم وجود الصور المتوسطة بين الأنواع اللازمة لمذهب التسلسل كأن يوجد مثلاً حيوان أرقى من القرد رتبة واحدة وأدنى من الإنسان رتبة واحدة أيضاً (ثالثاً) طول الزمان اللازم لحصول الترقى بين الأحياء . فإن

عمر الأرض كما قالوا لا يكفي لاحداث كل ما يرى من هذه الأشكال المختلفة غاية الاختلاف .

يرد الداروينيون على هذه الاعتراضات بقولهم أما عدم مشاهدة أي ارتقاء في الأحياء المرئية فلا يصح دليلاً على عدم الارتقاء عموماً . ومن يسلم بناموس تنازع البقاء ثم بناموس الانتخاب في الطبيعة أي بقاء الأصلح ، فلا مناص له من التسليم ببقاء البعض وتلاشي البعض الآخر ، ونتيجة ذلك كله الارتقاء عموماً .

أما عن اعتراض فقدان الصور المتوسطة فيجبون بأن ذلك غير صحيح وان علماء الطبيعة لفي حيرة وارتباك في تقسيم أنواع الحيوانات والنباتات لتقاربها في الصفات والأعضاء . وما خفيت الصور المتوسطة منها فذلك سببه شدة تنازع البقاء على حسب اختلاف الأوساط والأحوال . ولذلك لم يكن صور متوسطة بين الصفوف التي هي في حالة الانقراض أو الوقوف كالنعام والفيل « فإنها لا تولد تباينات جديدة ولذلك فهي تؤلف أنواعاً مستقلة بخلاف طوائف الحيوان التي في حالة النمو فإنها تتحلل إلى عدة أنواع جديدة بالتباينات التي تنشأ منها ولذلك يوجد فيها صور متوسطة كثيرة يحار فيها المرتبون » .

أما عن اعتراض طول الزمان اللازم لصحة التسلسل فيجبون بأن من العبث الاعتماد على قول من يزعم بإمكان تحديد عمر الأرض . وقد حسب الأستاذ طمسن الانجليزي الزمن الذي لزم لبس القشرة الأرضية فوجده لا يقل عن عشرين مليوناً من السنين لا يزيد عن أربعمئة مليون سنة ، وانه يقتضي أن يكون بين ثمانية وتسعين مليون سنة ومائتي مليون سنة . وهذا الزمن كما يقول داروين نفسه لا يكفي لبلوغ الحياة الأطوار التي ترى عليها الآن . لهذا رأى الأستاذ طمسن انه من الضروري أن الحياة لم تنشأ على سطح الأرض بل وردت إليها من أحد الكواكب ، بأن سقطت على الأرض بعض الجراثيم الحية محمولة على نيزك من النيازك الساقطة من بعض الاجرام العلوية .

لا يكاد الإنسان يواجه الداروينيين باعتراض حتى يقابلوه بأشكال طبعية لا يمكن تفسيرها على ما يقولون إلا بمذهبهم . كأن يقولوا مثلاً :

لماذا تختلف الحيوانات والنباتات باختلاف شكل المعيشة واحوال الوسط الذي هي فيه إذا لم يكن فيها قابلية لمشكلة الأحوال ، والتطور على حسب المقتضيات ، أليست هذه القابلية للتغير دليلاً على أنها دائمة التغير والتحول ؟

أليست ترى أن هذا التنازع بين الأحياء يكسب بعضها دون البعض الآخر خواص وجودية تخالف بها اخواتها فتكتسب بذلك مركزاً ليس لسواها ؟

إذا لم يكن الانتخاب الطبيعي قانوناً طبيعياً فلماذا نشاهد أن نوعاً يقوى على مقاومة العوارض دون النوع الآخر . ولماذا نرى أن بعض الأنواع يضعف أمام خصمه ثم يتلاشى ؟

ألا ترى أن الوراثة وهي ذلك القانون الطبيعي الشهير صالحة لنقل الصفات المكتسبة الى النسل وتلك الصفات تنقلب جوهرية ذاتية فيهم متى صادفتها أحوال موافقة وظروف مناسبة ؟

إذا لم يكن للعادة أثر كبير في إحداث التغير في الأنواع فلماذا تضعف الأعضاء والصفات في الأحياء وربما تلاشت بالمرّة متى أهمل أمرها وتركها ، ولماذا تقوى وتشتد بالاستعمال والتمرين ؟

نرى فرقاً كبيراً بين الاحصاءات المختلفة التي عملها العلماء عن الأنواع ، حتى أنهم ليختلفون بالمئات الكثيرة . ترى أحدهم مثلاً يعد أنواع الطيور في قطر أقل من أربعمئة وترى الآخر يعدّها في ذات القطر تسعمائة . فلماذا هذا الخلاف الهائل إذا لم يكن الفاصل بين الأنواع دقيقاً جداً . ولماذا يكون هذا الفاصل بين الأنواع دقيقاً جداً إن لم تكن الأنواع حدثت من التباينات في شكل المعيشة والأحوال المكانية ؟

لو كانت الأنواع نتيجة خلق مستقل للزم أن لا يكون فيها أعضاء أثرية تدل

على أنها كانت قبل كثير من الأجيال ذات فائدة للحيوان أو النبات في أحواله المعيشية ثم لما تغيرت تلك الأحوال صارت عديمة الجدوى وبالتالي بطل استعمالها فاضمرت حتى صارت أثرية لا يرى إلا أثرها فقط ؟

هذه أكبر المضلات التي يقذفها أنصار داروين في كتبهم لكل من يحاول أن يعترض عليهم أو ينتقص مذهبهم فهل نسلم معهم بعد هذا أن الانسان مترق عن القرد وإن بينه وبين الكلاب قرابة ورحماً ؟

هب أن مذهب داروين صحيح فإذا يكون شأننا أمام الدين وأمام الفضيلة وأمام العادات والقوانين ؟ بل كيف نطبق ما ورد في كتبنا عن أصل الخليقة وأصل النوع الانساني على مقررات هذا المذهب إن كانت حقة ؟ وكيف يكون شأننا في عقيدة الروح والخلود والنعيم والشقاء الآخريين ؟

إذا كانت العادات المتأصلة والتقاليد الموروثة تجعل الانسان يشتمز ويتبرم من سماع ما لا ينطبق على عقيدته الخاصة فيدفعه دفعاً بدون امتحان ولا اختبار ويوسع قائله وسائله شتماً وسباً ، فليس المسلم من هذا الصنف من الناس . فإن الاسلام معناه التجرد اليه تعالى من كل ما سواه والتوجه الى ذاته توجهاً خالصاً منقطعاً عن كل العلاقات والنسب الحيوية الصناعية : أريد من هذا أن أقول ان المسلم ليس جامداً على مذهب خاص حتى يخشى صولة مذهب آخر ، بل المسلم مذهبه الحقيقة المطلقة دون سواها ينشدها في كل مكان فإن وجدها ولو على لسان عدوه حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، وإن لم يجدها بحث عنها جهده حتى يجدها أو يموت في سبيلها وهو في سبيل الله ، مستسلم لمولاه .

كل إنسان يدافع عن مذهبه جهده ، ويسعى في تأييده ولو بالخداع والحيلة ، لأنه معتمده الوحيد وركنه الذي يعتصم اليه ، ولكنه رغماً عن هذه المدافعة والاستبسال في سبيله يجد نفسه في نهاية الأمر مسوقاً إلى تركه وهجره متى لاح له بالحس أنه لا يقاوي زوابع الشبه وأعاصير الشكوك المنصبة عليه من كل مكان . هذا مثل أصحاب الأديان في هذا الزمان أمام صولة العلم وجبروت

أهله . أما المسلم فلا يحس بهزيمة ولا يشعر بألم خيبة ، لان أنشودته الحقيقة ذاتها فيما كان حقاً أخذه على الرأس والعين وهو دينه ، وما كان باطلاً عمل على زواله ، وإن كان ذلك الباطل عقيدة كانت له منذ أربعين سنة ، فإن المسلم خلق ليرتقي كل يوم ، ولا تجده يتبرم من ترك عقيدة كانت له من أربعين سنة بل تراه يفرح بحكايتها حيث يقول : أخذت عن تسعة وتسعين شيخاً ولومت قبل أن يدركني المتمم للمائة لمت على غير الاسلام ^(١) .

الخلاصة أن المسلم لا يضره مذهب علمي ، ولا أسلوب فلسفي ما دام من ورائه الحقيقة التي لا مرأى فيها فإن دين المسلم الحقيقة لا غير . وأنا لا أقول هذا تصديقاً للمذهب داروين ولكن من باب تهديء أفتدة من علقت بأذهانهم مقررات هذا المذهب من اخواننا المسلمين لينتظروا منا إن شاء الله التحليل الدقيق لمبادئ هذا المذهب وبراهينه ومستنداته ونتائجه على الدين والعلم والأخلاق والسياسة ومبلغ أصوله من الحقيقة ، وكنه فساد الفاسد وسلامة السليم منها- كل ذلك بالتحليلات الفنية والتدقيقات الفلسفية حتى نصل إلى نهاية الموضوع فتحاكمه المحاكمة الدقيقة في كتاب خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم إن شاء الله تعالى .

* * *

(١) هذه الكلمة الكبرى تروى عن أبي يزيد البسطامي وهي أجمل مثل على معنى الاسلام .

نظرة على ما سبق

لا يوجد واحد من الشرقيين لم يحس بآلم التأخر في مجال الحياة وميدات الوجود عن مناظرية الغربيين . ذلك الألم حل بالأفئدة وأحدث فيها آثاراً تختلف باختلاف الناس وأمزجتهم ودرجاتهم من المال والعلم . فانقسم الناس إلى جملة أقسام : قسم هاله الفرق بين حالتنا وحالتهم فاستكان لليأس ، واستنام له ، فلام أحواله عليه ، فإن كان غنياً هام بالتقليد والمحاكاة ، وغالى في التحكك والالتصاق بهم حتى لو استطاع أن يبدل وجهه غريباً لفعل ، وجرى وراء الثروة بجرياً جنونياً ، لانه تحقق مع يأسه أنها ركنه الوحيد في دنياه ، وعونه الفريد في إيفائه مقتضيات هواه . وأما ان كان فقيراً فعل اليأس به أسوأ الأفعال ودفعه لطلب المال من سائر وجوهه بلا فرق بين مشروع ومحظور ، وأعطى أولاده بذلك أسوأ الدروس الحيوية . فإذا أنس أن جهاده صادف مرعى خصيباً ، وجناباً مرمعاً ازداد نهماً وشرهاً ، وغلا كلباً وجشعاً ، وصار لاهم له إلا المال دون سواه . وان قاداته الظروف إلى مجال ضيق ومحلة خشنة ، ضاق صدره ، وهلمت نفسه ، واستوعب النكد فكره وتصوره ، وصار عبءة لنفسه فكيف لا يكون لها لغيره ؟

وقسم رأى ذلك الفرق الهائل بين شأننا وشأنهم فظنه سحابة صيف ، وحسبه عرضاً زائلاً ، فجال به ذلك التوهم في مجالات التصورات الوهمية ، والأقيسة الظنية ، وأخذ يسرح من سراب حلم ، إلى فضاء وهم ، منتظراً وقوع الاحن بالغرب وأهله يوماً بعد يوم وهلم جراً ...

هذا القسم يشن غارته هذه على الغرب وهو سابح في زخارف مدنيته ورائع في أرجاسها من حيث مأكله ومشربه وملبسه ، وهو يحس بذلك كله ويعترف بأن ذلك الجديد المستعار أحسن مما فيه قومه ، ولكنه اعتراف لا يحاور شغاف

قلبه ، ولم يصعد إلى مركز تعقله لشدة ما أخذت الأوهام بمخنق إدراكه ،
وأمسكت باكظام تصوره :

وقسم لم ييأس من مساواة مناظره ، ومساواته في مفاخره ، ولكنه يرى
أنه خير الذرائع للحاقه هي تقليده ومحاكاته في صنائعه واختراعاته ، فهو
يدأب في بث هذه الفكرة جهده . من هذا القسم أكثر كتاب الصحف !
ومؤلفي الكتب .

هناك قسم رابع ساووا القسم المتقدم في عدم اليأس ، وزادوا عليهم في سد
مساربه بالعلم والعمل ، ولكنهم يرون أن الترقى الصناعي والعلمي (مظاهر
روح عالية) تحل بالأمة كما تحل الحياة بالجسم الميت فتسوقها الى مقاوم العلاء
والشرف سوقاً طبيعياً منتظماً .

أفراد هذا القسم يرون أن دواء الشرق هو رد روحه اليه بالوسائل الحيوية
التي سنّها الأنبياء وتبعم فيها كبار المصلحين ، لا بالدعوة الى مظاهر المدنية أو
فتح المعامل الصناعية . هؤلاء هم أصحاب العقول العالية والأفئدة الكبيرة
ولكنهم أقل من أن يعدوا على الأصابع .

إذا تقرر هذا فقل لي أي شيء هو هذا الأمر الجلل الذي انصب علينا من
العالم الغربي تحت اسم المدنية الغربية ، وسلبنا من أنفسنا سلباً لمحيته لكل واحد
منا من جهة ضعفه وشطر مقتله ، فلم يدع غنياً ولا فقيراً ولا شيخاً ولا شاباً إلا
ودخل إلى سويداء قلبه ، ونفذ إلى صميم كيانه ؟

لا يمكن أن يكون هذا الأمر حالاً عرضياً ، أو مظهرأ مرابياً ، أتت به
الحوادث جزافاً ، وكونته الظروف صدفة ؟

النفوذ إلى حقائق هذا الأمر الجلل ، والسريان إلى سره من حق وباطل ،
وطبيعي ووهمي ، وصحيح وفاسد ، لا يتم إلا بتحليل كل ما يردنا من تلك
المدنية تحليلاً فلسفياً دقيقاً وامعان النظر فيه بعين الحزم والانافة . وهي وظيفة

(الإسلام في عصر العلم) فإنه لن يدع إن شاء الله مذهباً فلسفياً ولا رأياً علمياً ولا فاموساً عمرانياً ولا أساً نفسياً مما أنتجته تلك المدنية إلا فحصه فحصاً دقيقاً وحلله تحليلاً شافياً إن شاء الله تعالى بنور القرآن وحال الرسول عليه الصلاة والسلام ، صيانة لإيماننا في هذا الجيل العجيب الذي يصبح الرجل فيه مؤمناً ويمسي كافراً إلا من عصمه الله بالعلم .

إذا تقرر هذا فمذهب (داروين) وإن كانت نتيجة تضاد ما نذهب إليه إلا أنه لا يحلو من حقائق وجودية كبرى لها أكبر الآثار في ترقية فكر الرجل العصري وتهذيب ملكاته ، فإن رفضناه من أول وهلة بدون امعان النظر فيه ، ودرس ظاهره وخافيه ، كنا غاشين لأنفسنا ، مزرين بعمقولنا ، لأن شبهه علقت بالأذهان ، وقوانينه أصبحت جزءاً من سيرتنا فعلاً ، فما معنى إيهام أنفسنا بعد ذلك باننا من أعدائه الالاء ، وخصومه الأثداء .

إن هؤلاء الناس الذين يعادون قوانين مذهب (داروين) كله لأجل نتيجة لا يدرون أنه قد أقام أقوى البراهين الحسية على حقائق قرآنية كان الغربيون لولاه يتوهمون أنها جهاتنا الضعيفة التي يبرهنون بها على عدم حقيقة ديننا كما مر بك تفصيلاً فيما سبق ، وكما سيمر إن شاء الله تعالى في أجزاء لاحقة .

* * *

فهرست

صفحة

٥	مقدمة الناشر
٩	مقدمة المؤلف للطبعة الثانية
١١	مقدمة المؤلف للطبعة الأولى

— الباب الأول —

٣٧	معرفة الإنسان نفسه
----	--------------------

٣٩

تمهيد

٤٩	الموامل الذاتية	الفصل الأول
٥٩	الموامل العمومية	الفصل الثاني
٧٩	الدين قبل ظهور العلم	الفصل الثالث
٨٩	نشأة الروح العلمية	الفصل الرابع

— الباب الثاني —

٩٥

المدنية

٩٧	تأثير المدنية على العقائد	الفصل الخامس
----	---------------------------	--------------

صفحة

١٠٣	أثر فتح فارس	الفصل السادس
١١٥	تاريخ الفلسفة	الفصل السابع

— الباب الثالث —

١٨٣	حياة خاتم المرسلين محمد (ﷺ)
-----	-----------------------------

١٨٥		تمهيد
١٩٥	لزوم السيرة المحمدية	الفصل الثامن
٢٠٥	كيف كان العالم قبل بعثة النبي	الفصل التاسع
٢١٥	الاسلام والادوار التي تنتاب العقائد	الفصل العاشر

— الباب الرابع —

ما وراء المادة

٢٨٩	الاسلوب العملي	الفصل الحادي عشر
٣١٤	كيف كان امراء النبي	الفصل الثاني عشر
٣٢١	الاسبرتزم	الفصل الثالث عشر
٣٣٥	الاسبرتزم في العالم	الفصل الرابع عشر
٣٥٧	تاريخ استحضار الأرواح	الفصل الخامس عشر

— الجزء الثاني —

٣٧١	مقدمة
٤٠٧	مبلغ مدارك الفلسفة
	الفصل الأول

صفحة

٤٣٣	باب المسائل الاجتماعية	الفصل الثاني
٤٤٥	العلم عند المسلمين	الفصل الثالث
٤٥٧	كلمة عمرانية	الفصل الرابع
٤٧٩	ما وراء المادة	الفصل الخامس
٤٩٩	ما هو الإسلام	الفصل السادس
٥٢١	التوحيد والتنزيه	الفصل السابع
٥٤٣	المحاضرات	الفصل الثامن
٥٦٥	الولاية والكرامة والوسيلة والشفاعة	الفصل التاسع
٥٨٦	خوارق العادات	الفصل العاشر
٦٠٩	الدين والمتدينون	الفصل الحادي عشر
	تعليقات وابحاث مقالات	الفصل الثاني عشر
٦٥١	(١) رجال امام رجال	
٦٥٨	(٢) فتنة المدينة الغربية	
٦٨٨	(٣) الأصول الحيوية للأمم	
٦٩٤	(٤) المخلص من فتنة المدينة الغربية	
٦٩٩	(٥) زيادة بيان	
٧٠٦	(٦) القوى المحللة	
٧١٢	(٧) المفتونون بالمدينة الغربية	
٧١٩		ملحق
٧٢٢	رأينا في داء الامة	
٧٣٠	داء الأمة ودواؤها	
٧٣٩	الإسلام في عصر العلم	
٧٤٩	تنبيه لحضرات قرائنا	

صفحة

٧٥١	ما وراء المادة
٧٥٤	استحضار الأرواح
٧٦١	اقتراح من مجلة المنار
٧٦٢	باب المسائل
٧٧٣	الحج
٧٧٨	النبوة ليست اكتسابية
٧٨١	من أين جاء الفساد الاجتماعي
٧٨٩	الجهنم والملوكوت
٧٩١	الصلاة والسلام في الإسلام
٧٩٧	مذهب داروين والدين
٨٠٩	نظرة على ما سبق